أشعة من شمس محمد (٩)

النبي الهادي

نور الدين أبو لحية

دار الكتاب الحديث

موقع المؤلف: http://noursalam.free.fr/
بريد المؤلف: nouresalam@hotmail.com

الطبعة الأولى

دار الكتاب الحديث – القاهرة –
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرع	العنوان	الهاتف	الفاكس	البريد الالكتروني
القاهرة	ص.ب ٧٥٧٩ البريدي ١١٧٦٢ مدينة نصر – ٩٤شارع عباس العقاد	٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٩٩٠	٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٩٩٢	dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	١٣٠٨٨ شارع الهلالي برج الصديق ص.ب ٢٢٧٥٤	٠٠٩٦٥٢٤٦٠٦٣٤	٠٠٩٦٥٢٤٦٠٦٢٨	ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	ص ب ٠٦١ درارية الجزائر عمارة ٣٤	٢١٣٥٤١٠٥	٢١٣٥٣٠٥٥	dkhadith@hotmail.com

من القرآن الكريم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦)﴾ (الأحزاب)

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)﴾ (النحل)

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)﴾ (المائدة)

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦)﴾(العنكبوت)

﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾ (آل عمران)

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ... (١٤٣)﴾(البقرة)

تنبيه

نحب أن ينتبه قارئ هذه السلسلة لما يلي:

١ ــ بما أن الغرض من هذه الرسائل هو أن تكون مدرسة تعلم فنون الحوار الإيماني، والجدال بالتي هي أحسن، فقد اهتممنا في أصل الرواية بما يحقق هذا الغرض، ولم ننشغل عنه بأي شاغل .. ولكن الكثير من المعلومات التفصيلية أو التوثيقية قد يحتاج إليها لتحقيق هذا الغرض، وهي مما لا يمكن إدراجه في الأصل .. فلذلك اكتفينا بإيرادها في الهوامش ..

فلذلك يحتاج من يتعلم من هذه الرواية مراجعة ما ورد في الهوامش والاهتمام بها باعتبارها معلومات أساسية تيسر عليه فهم وتحصيل ما يرد في أصل الرواية من معلومات.

٢ ــ أنا لم نهتم كثيرا بتوثيق كل ما نرجع إليه من مصادر ما عدا ما يتعلق بالنصوص المقدسة الإسلامية والمسيحية .. أما سائر النصوص، فتوثيقها يستهلك صفحات كثيرة، وقد يشغل القارئ عن المهمة التي تهدف إليها هذه الرواية ..

بالإضافة إلى أن أكثر ما نورده مما توزع وجوده في الكتب الكثيرة التي اهتمت بهذه الناحية ... ولهذا نكتفي بذكر المراجع العامة التي لجأنا إليها دون التدقيق في التوثيق في كل محل.

٣ ــ نحب أن نعتذر هنا عن عدم ذكر الصلاة على رسول الله ﷺ أو على الأنبياء، وعدم الترضي عن الصحابة والعلماء والأولياء ــ كما هو شأن المؤلفات الإسلامية ــ في بعض المواضع، أو في كثير منها، وذلك لأن الحديث المفترض فيها بحسب الرواية بين مسيحيين ... والضرورة الفنية تقتضي أن لا نذكر ذلك حتى لا يؤثر في أصل الرواية وجانبها الفني ... ولا حرج على القارئ المسلم أن يصلي على رسول الله ﷺ والأنبياء كلما ذكروا بغض النظر عن كتابة ذلك ...

٤ ــ قد يعترض بعض أدباء الأدب الواقعي على كثير مما يرد في هذه السلسلة مما لا يمكن انسجامه مع الجانب الفني الواقعي ... كحفظ أبطال الرواية للنصوص الطويلة مع كون بعضهم من العامة البسطاء.

ونحن نقدر هذا النقد ... ولكنا ننبه إلى أن الغرض من السلسلة ليس أحداث الرواية، وإنما الجانب العلمي منها ... وإنما ذكرنا هذه الأحداث لنمزج المعلومة التي قد تكون جافة بما ييسر تحصيلها من التشويق والمتعة.

ولذلك إذا تعارض التشويق مع المعلومة قدمنا المعلومة عليه بناء على اعتبارها الأصل.

المقدمة

في صباح اليوم التاسع من زيارة البابا لي، نهضت فرحا مسرورا بعد أن سمعت تلك الأحاديث الجميلة عن نبينا ﷺ، ومن يمثله من الورثة الذين لم يرتضوا لذواتهم قالبا غير القالب الذي اختاره الله لرسوله ﷺ.

ولكن الألم عاد يعتصرني من جديد ..

لقد قلت لنفسي: كم يمكن أن يكون في هذه الرقعة الكبيرة المباركة التي يستوطنها المسلمون من أولئك النماذج الراقية من ورثة النبي ﷺ؟ .. كم يمكن أن يكون هناك من جعفر وزين العابدين والطائي وبشر والشافعي والنورسي والبغدادي والصالحي والسيد سليمان[1]؟ .. كم يمكن أن يكون من أعداد هؤلاء، أو من يقاربهم، ولو بأن يكتفي بالسير على خطاهم؟

وبعد أن قلبت بصري وبصيرتي في الواقع وجدت أن أعداد أمثال هؤلاء لا تكاد تذكر .. فهم كالإكسير الأحمر قل من يظفر بهم .. وقل من يمكن أن يستفيد منهم .. وهم في حال وجودهم قد يغرقون في وديان النسيان، أو قد يتيهون في صحارى الإهمال واللامبالاة .. وبالتالي يصبح وجودهم في الناس كعدمهم.

ثم عدت ببصري وبصيرتي إلى ورثة الشياطين .. فوجدتهم يملأون الأرض سهلها وجبلها، وبرها وبحرها.. صياحا ونعيقا ولغوا:

وجدتهم يدخلون كل بيت عبر شاشات التلفزيون، والمذياع، والأشرطة المسموعة والمرئية، وعبر وسائل الإعلام الكثيرة التي تفنن أهل عصرنا في اختراعها، كما تفننوا في استغلالها.

ووجدتهم يستعملون كل الحيل، ويلتمسون كل السبل ليصلوا إلى قلوب الذين يستهلكون تلك الوسائل وعقولهم .. بل حتى أجسادهم .. فكم رأيت من شباب يضع السماعات على أذنه ليرقص معها بالحركات التي توحيها له الموسيقى التي أبدع ورثة الشياطين في التلاعب بها؟

ووجدتهم لا يكتفون بكل ذلك مما يخص العامة البسطاء .. بل رأيتهم ببصري وبصيرتي يدخلون الجامعات ومراكز العلم والثقافة ليملأوها بما شاءت لهم أهواؤهم من أطروحات تلبس لباس العلم، لتجعله ذريعة لجهل مركب يستحيل محوه، ولو صبت عليه جميع بحار الدنيا.

ووجدتهم فوق ذلك كله يصرفون أموالا ضخمة .. لا مكاسب واضحة لها .. ولكن مكاسبها الخفية أعظم من كل المكاسب .. إن مكاسبها هي استعباد الإنسان نفسه، ليصبح لعبة بين يدي تلك الوسائل تملي عليه ما تشاء، فلا يجد نفسه إلا مسوقا للتحرك حسب رغبتها.

بعد أن امتلأت ألما بكل هذا .. رحت أبحث في واقعنا .. نحن المسلمين .. نحن الذين كلفوا بأن يحملوا رسالة أعظم الأنبياء ليبلغوها إلى الأرض، فيطهروها بذلك البلاغ من ورثة الشياطين، ومن رجس أذنابهم وذيولهم .. فازددت ألما على ألم، وحزنا على حزن:

لقد رأيت الخطيب الذي يصعد المنبر وحوله الألوف المؤلفة .. فلا يلتفت لهم، ولا يحاول أن يسمعهم رسالة ربهم، وهدي نبيهم، بل ينشغل بورقته يقرأ حروفها حرفا حرفا.. وأحيانا تتوقف به الحروف، فيقرأ ما لا

---

(١) هؤلاء هم أبطال الرواية السابقة، والذين يمثلون دور ورثة النبي ﷺ .

يفهم، ويسمعهم ما لا يفهمون .. وتنصرف بعدها الألوف المؤلفة، وكأنها كانت تمثل تمثيلية ساحرة، ولم تكن تسمع كلام ربها أو هدي نبيها.

ورأيت الواعظ الذي ينشغل بالسجع والجناس والطباق والحروف التي لا نقط لها والجمل التي تقرأ من الجهتين عن التسلل إلى القلوب لمحو الران الذي يغشاها، والسموم التي تقتلها، والظلام الذي يسكنها.

ورأيت المفتي الذي يوزع الفتاوى بحسب هواه، يفتي في كل شيء، ولا يتورع عن شيء، ولا يجعل فتاواه سلما يعرج به العباد إلى ربهم، بل يجعل منها سما يشوه به الدين وحقائق الدين، ويجعل منها مهواة تنحدر بالمؤمنين إلى الهاوية التي تسكنها الأهواء.

ورأيت المعلم الذي يتعامل مع تلاميذه كما يتعامل السيد مع عبيده ..

ورأيت غير هؤلاء ممن يستلمون المناصب العالية .. ولكنهم بسلوكهم يترلون بها إلى الحضيض الأسفل.

***

كانت أول مرة أسمع البابا يناديني بذلك الإلحاح[١]، وأنا في غرفتي، فأسرعت أهرول إليه، وقلت: اعذرني حضرة الولي الصالح .. لقد شغلتني نفسي كما تعودت أن تشغلني.

قال: ألست مشتاقا إلى النبي الهادي؟

قلت: وكيف لا أشتاق .. ونحن ــ كما ترى ــ في واقع لا يتقن شيئا كما يتقن أساليب الإضلال والتمويه والتلاعب بالحقائق.

قال: فلن يصلح هذا الواقع إلا النبي الهادي .. والهدي الذي خلفه النبي الهادي .. وورثة النبي الهادي.

قلت: وأين هم؟ .. نحن لا نرى إلا الأشباح التي لا تستطيع أن تصل إلى الأرواح، بل لا تفكر في الوصول إليها .. بل تعتبر الحديث معها وعنها لغوا وثرثرة.

قال: يستحيل على ركن خطير من أركان النبوة كهذا الركن أن يعدم من الأمة .. إن الله الرحمن الرحيم النور الهادي أرحم بعباده من أن يتركهم فرائس للشياطين وورثة الشياطين.

قلت: فهل التقيت ببعضهم؟ .. حدثني عن ذلك .. فما أجمل أحاديث الورثة؟

قال: نعم .. لقد شرفني الله، فالتقيت ببعضهم .. وسيكون حديثنا عنه اليوم، كما كان حديثنا في الرحلة السابقة عن الوارث.

***

اعتدل البابا في جلسته وحمد الله وصلى وسلم على نبيه ﷺ مستغرقا في كل ذلك، ثم قال: بعد أن رأيت ما رأيت، وسمعت ما سمعت من حديث الوارث مما كنت قد ذكرته لك في رحلتي السابقة .. وبعد أن آنس مني قومي من الصدق والإخلاص والثبات ما أنسوا .. ترقيت في السلم الذي كنت أحلم به إلى درجات عالية لم

---

(١) أشير بهذا إلى أن الداعية الوارث هو الذي يبدأ بدعوة الناس إلى الله، لا الذي ينتظر حتى يأتيه الناس، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة:٦٧)

أكن أتصورها، ولا أطمح لها.

وقد تثاقلت ـــ بسبب تلك الكراسي الرفيعة، وما توفره من رغد عيش ـــ إلى الدنيا مدة من الزمن إلى أن جاء ذلك اليوم العظيم الذي التقيت فيه الهادي الذي هداني الله به إلى النبي الهادي ..

في ذلك اليوم كنت في أواسط إفريقيا في جولة هي أقرب إلى الجولة السياحية منها إلى الجولة التبشيرية.. كنت حينها أسير بسيارتي الفخمة ذات العجلات القوية مخترقا غاباتها العذراء، غير مبال بأي خطر قد ألقاه في طريقي، لأن ما زودت به السيارة من وسائل الأمان يكفي لحمايتها وصد أي خطر عنها أو عني.

ولكن الله شاء في ذلك اليوم أن أتعرض لخطر ربما لم أتعرض لمثله في حياتي ..

لقد اصطدمت سيارتي بشيء لا أزال إلى الآن أجهله .. ربما يكون شيئا من الغيب، وربما يكون من الشهادة .. المهم أني إلى الآن لم أعرف ما هو .. لم أعرف إلا أنه أصاب سيارتي بما جعلها لا تطيق السير خطوة واحدة .. وقد أصابني ذلك بهلع شديد، فقد كنت في أدغال الغابات، وليس بين يدي إلا الحيوانات المفترسة .. والتقدم في تلك الغابة خطوة واحدة ليس له إلا معنى واحد هو الموت المؤكد .. فلم يخرج من تلك الغابات أحد من الناس سالما.

في ذلك المحل الذي كان برزخا بين الموت والحياة، وبين الدنيا والآخرة .. وصرت أشعر بجسدي فيه كعارية جاء مالكها ليستلمها .. في ذلك المحل ارتفع عني ذلك التثاقل إلى الأرض، وشعرت من جديد بتلك الأشواق إلى تلك الشمس التي دعتني العذراء للبحث عنها.

وبمجرد أن دب ذلك الشعور إلى نفسي رأيت صاحبك (معلم السلام)، وهو يسير نحوي كما يسير البرء إلى المريض، وكما تسير العافية إلى المبتلى .. وما إن لمحته حتى أسرعت مهرولا إليه، وقد رأيت فيه الحياة التي يئست منها، والعافية التي غادرتني، وكنت أتصور أنها لا ترجع.

استقبلني بابتسامته التي عهدتها منه، وقال: عجبا .. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

قلت: سيارتي .. هذه السيارة التي ترى هي التي جاءت بي إلى هنا.

ابتسم، وقال: أأعطيتها عقلك وإرادتك لتقودك إلى هنا؟

قلت: لا .. عقلي لا يزال لدي .. وإرادتي كذلك .. وأنا لم آت إلا وفق ما أملاه علي عقلي، وما طلبته مني إرادتي.

قال: فعقلك وإرادتك هما اللذان جاءا بك إلى هنا .. لا هذه السيارة المسكينة المسخرة التي لا يمكنها إلا أن تطيع إرادتك، وتستجيب لعقلك.

قلت: ذلك صحيح ..

ثم عقبت قائلا: وأنت .. ما الذي جاء بك إلى هنا، فأنا لا أرى معك سيارة ولا طائرة؟

قال: الذي خلق السيارة والطائرة يستطيع أن ينقلك بهما، ويستطيع أن ينقلك بغيرهما.

قلت: إن هذه الغابة خطيرة جدا، و لم يخرج منها أحد يسير على قدميه سالما، فكيف ظهر لك أن تسير فيها؟

قال: لي في الغابة حاجة، فأنا أبحث عنها ..

ابتسمت وقلت: ليس في الغابة إلا الأسود المفترسة .. والغزلان المفتَرَسة .. لا يأتي مثل هذه الغابة إلا من يريد أن يَفترس، أو يريد أن يُفترس.

قال: هناك من يريد أن يفترس اللحوم، وهناك من يريد أن يفترس الحقائق.

قلت: الحقائق لا تفترس في الغابات؟

قال: لو لم تكن هناك حقائق تزين الغابات ما خلقها ربك .. فلكل خلق حقيقته التي إليها يرجع .. وسره الذي إليه يؤول.

قلت: ومن يعرفك بالأسرار في مثل هذه المجاهيل؟

قال: الذي هدى النحل إلى صناعة العسل، وهدى الطير في أجواء السماء، وهدى النجوم في مساراتها .. لن يعجز أن يرسل لي من الهداة من يدلني على الحقائق، ومن يكشف لي عن الأسرار.

قلت: ألا تخاف أن تقع في يد من يضللك؟

قال: للهداة نور لا تطفئه الظلمات .. وللمضللين ظلمات لا يمكن لجميع أشعة الدنيا أن تنيرها.

قلت: فأين الهداة؟ .. نحن في غابة ليس فيها إلا التضليل والتمويه.

قال: بل نحن في غابة ليس فيها إلا الهداية والدلالة .. ألا ترى أن أبسط طائر يمكنه أن يخرج من هذه الغابة من غير عناء؟

قلت: ذلك أنه يطير .. وهو يرى في السماء ما لا نراه نحن المتثاقلون إلى الأرض.

قال: فلنطر كما يطير، لنبصر ما يبصر، فلا ينتظر المتثاقل إلا الافتراس .. فهو إن لم تفترسه السباع افترسته نفسه التي زينت له أن يقع في أيدي السباع.

ما قال ذلك حتى رأى طيرا جميلا يترنم بألحان عذبة .. فأسرع إليه .. قلت: ما بالك .. أين تذهب وتتركني؟

قال: إن لهذا الطائر هو الذي جئت أبحث عنه .. إنه السيمرغ[1] الذي تحدث عنه الأولياء.. ألا تعرفه؟

قلت: أنا لا أعرف في هذه المفازة إلا البحث عن النجاة ..

قال: لقد ذكرتها لك .. لا تتثاقل إلى الأرض .. اركب سيارتك، ولا تدعها تركبك .. قدها، ولا تدعها تقودك ..

قال ذلك، ثم انصرف مسرعا نحو ذلك الطائر العجيب الذي كان يرسل من الألحان ما يملأ القلوب بطرب لا يستطيع أي لسان في الدنيا تصويره ولا تفسيره.

بعد أن غاب عني عاد اليأس يدب إلى نفسي من جديد .. فامتطيت السيارة، ورحت أنتظر قدر الله ..

أخذتني سنة من النوم .. لم أفطن بعدها إلا برجل هو أشبه الناس بالحكيم، وبمحمد الوارث .. فصحت:

([1]) أشير به إلى (منطق الطير)لفريد الدين العطار، وأشير بالسيمرغ إلى الطيور التي كانت تبحث عن الملك، وتطير شوقا إليه، وكل ذلك من باب الكناية على أن طريق الهداية لا حدود له.

ها قد أرسلك الله إلي ــ يا محمد ــ لتنقذني؟

قال: أبشر .. فأنا ليس لي من دور في هذه الغابة إلا الإنقاذ .. كل من أطاعني أنقذته من الموت المحقق..

قلت: ومن هو الأحمق الذي يرفض أن تنقذه؟

قال: كثيرون هم .. وإن شئت أريتك من جثثهم ما يملؤك رعبا.

قلت: هؤلاء مجانين لا حمقى.

قال: ولكنهم يدعون أنهم أعقل الناس وأعلم الناس وأغنى الناس .. كلما جئت إليهم محذرا من السباع المتربصة والثعابين المتلهفة كلما أداروا رؤوسهم وصعروا خدودهم .. وقالوا: اذهب، فلسنا في حاجة إليك.

قلت: أما أنا فبحاجة إليك .. سر بي حيث شئت، واقطع بي أي واد، واصعد بي أي جبل.. فلن تجد مني إلا الطاعة والتسليم.

قال: أنت تعلم أن الطريق صعبة شاقة.

قلت: وأعلم ــ كذلك ــ أن الموت في هذه الغابة بين أنياب السباع أصعب وأشق.

قال: إن السير في هذه الغابة يحتاج إلى قوة وبصيرة وصبر .. فهل تملكها؟

قلت: إن لم أملكها في جميع حياتي، فسأملكها اليوم.

قال: أنت تعلم أن في كل خطوة في هذه الطريق شرك أو أحبولة أو حفرة يمكن أن تقع فيها.

قلت: أعلم ذلك .. ولولا ذلك لكنت قطعت الطريق بنفسي، وما احتجت إليك لتدلني.

قال: فما دمت قد تحققت بالإرادة، وتحليت بالهمة .. فما عليك إلا أن تتبعني .. فما أيسر السير على صاحب الإرادة، المتحلي بالهمة.

قلت: لقد سرت بالسيارة مسافة طويلة .. فكم يا ترى يمكن لأرجلنا الضعيفة أن تقطع تلك المسافة؟

قال: لا يهم الزمن في هذه المحال .. المهم هو أن نسير في الطريق الصحيح .. لأن خطأ واحدا سيضعنا في أفواه السباع.

قلت: وسيارتي!؟

قال: أراك تردد ما ردد أكثر من أريد أن أنقذهم.

قلت: أكانت لديهم سيارات؟

قال: لو لم تكن لديهم سيارات لنجوا .. لقد أهلكتهم سياراتهم.

قلت: كيف أهلكتهم مع أنها لم تصمم إلا للإنقاذ؟

قال: لقد تعلقوا بها، فلم يستطيعوا أن يسيروا ويتركوها .. فهلكوا وهلكت سياراتهم معهم.. وإن شئت أريتك من هياكلها ما يملؤها زهدا في سيارتك، ورغبة عن التعلق بها.

قلت: فأرني ذلك .. لعل همتي تترفع عن هذه السيارة التي التصقت بروحي.

لم يسر بي إلا قليلا حتى رأينا سيارة اخترقتها بعض القوارض، وحولتها مأوى لها ..

قلت: أين صاحب هذه السيارة؟

قال: انظر إلى أسفلها.

نظرت فإذا هيكل عظمي ملأني بالرعب، فقال: هذا هو صاحبها .. لقد استعملت كل الأساليب لأنقذه، فلم يستجب .. وأبى .. بل تصورني لصا يريد أن يسرق سيارته .. فلما أكثرت من الإلحاح أخرج بندقية من سيارة وصوبها في وجهي، وقال: (إن لم تغادر أيها البدائي هذا المحل، فسأقتلك بسلاحي هذا)

قلت: فأنت الآن تشفي غيظك بالنظر إلى جثته.

قال: لقد حزنت عليه حزنا شديدا .. وعندما طردني بكيت ..

قاطعته قائلا: عليه .. أم على نفسك؟

قال: بل عليه .. فأنا أعلم أن المصير الذي كان ينتظره هو هذا المصير .. لقد حاولت أن أستشفع له بدموعي لكنه ضحك ضحكة عالية، وقال: لا مكان هنا للعواطف .. هنا القوة .. القوة وحدها هي التي تحميك.

قلت: فأين ذهبت قوته؟

قال: كان المسكين يكذب على نفسه .. فليس هناك إلا قوة واحدة في هذا الوجود.. وكل ما عداها ضعف .. وليس هناك إلا حصن واحد .. وما عداه مفازة.

قلت: من أنت؟ .. وما الذي جعلك تمارس هذه الوظيفة؟ .. وما هي الأجور التي تتقاضاها؟

قال: أما أنا فرجل من أرض الله اسمه (محمد الهادي) .. وأما وظيفتي فهداية من انقطعت به السبل، واحتارت به الطرق .. وأما الأجر الذي أناله فهو نجاة من نجا، وهداية من اهتدي .. يكفيني أن أرى من أنقذته يسير بعافية في وسط أهله وماله وولده.

قلت: إن أمرك عجيب .. لا بد أن لك قصة غريبة .. فحدثني حديثها.

قال: لك ذلك .. فلا تقطع مثل هذه الطريق الطويلة إلا بالأحاديث.

قلت: من أين تبدأ قصتك؟

قال: من الضلال تبدأ قصتي ..

قلت: عجبا .. أقصة الهادي تبدأ من الضلال؟

قال: أجل .. ألم تسمع قوله تعالى :﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى) (الضحى:٧)

قلت: بلى .. هذه الآية قرأتها كثيرا في قرآن المسلمين.

قال: بل في قرآن رب العالمين الذي هو خطابه للناس أجمعين ..

قلت: فكيف بدأ الضلال يتسرب لتحل محله الهداية.

قال: لقد هداني الله إلى رجل من أهله من الصالحين من ورثة رسول الله ﷺ كان اسمه محمد الوارث ..

قاطعته قائلا: أعرفه .. لقد زرته قبل سنوات .. وسمعت رحلته إلى محمد.

قال: لقد صحبته مدة من الزمن .. وقد امتلأت بالمعاني العظيمة التي كان ــ بسلوكه ــ يدعو إليها.

قلت: فما الذي جعلك ترغب عن صحبته .. وتسير إلى هذه البلاد، حيث لا تسمع إلا عواء الذئاب،

وزئير الأسود؟

قال: لقد ذكرت ما كنت فيه من الضلال، فامتلأت هما وغما ..

قلت: أخفت ألا يتوب الله عليك؟

قال: لا .. لقد أيقنت بأن الله قد تاب علي .. فيستحيل على الغفور الرحيم أن يستغفره عبده، ثم لا يغفر له.

قلت: فما الذي دعاك إلى الحزن إذن؟

قال: لقد حزنت على البشر التائه في صحراء نفسه، الغارق في أوحال شهواته، المصلوب على خشبة أهوائه.

قلت: وما تملك أن تفعل أنت له؟

قال: لقد قلت لنفسي: إن الرحمن الرحيم الذي ما أنزل داء يرتبط بالطين إلا أنزل له من الدواء ما يقاومه، لن يتخلى عن الروح التي هي الأصل .. فلذلك لن يكون في الروح داء إلا ويترل الله من الأدوية ما يقاومه.

قلت: فماذا فعلت؟

قال: لقد قعد بي العجز عن معرفة الدواء .. فلذلك ظللت مدة في تلك الأحزان إلى أن جاء اليوم الذي أرسل الله لي فيه رجلا لا أزال إلى الآن لا أعرف كيف جاء، ولا كيف ذهب.

قلت: ما اسمه؟

قال: لم أكن أناديه إلا بـــ (معلم الهداية)

قلت: معلم الهداية .. !؟

قال: أجل .. فلم يكن له حديث إلا عن الهداية .. وقد سألته أول ما زارني عن أسرار الهداية التي تقضي على كل ضلال، فقال: سر في الأرض .. فلن ينال الهداية ولا علوم الهداية إلا من سار في الأرض، وخبر البشر، وتعلم لغة الطير، وسلك مسالك النحل، وسكن قرى النمل.

قلت: إن هذا الرجل يلغز ولا يهدي ..

قال: أحيانا تلبس الهداية لباس الألغاز .. وتحتاج العبارة إلى ثوب إشارة.

قلت: هل فهمت مراده؟

قال: أجل .. لقد فهمت مراده .. فقد وضح لي لغزه هذا بلغز أمكنني أن أبحث عنه .. وأعيش فترة من حياتي في البحث عنه.

قلت: فما قال؟

قال: لقد قال لي: ترياق الهداية يحتاج إلى عشرة أوصاف لن تنالها إلى في عشرة حضائر، ومن عشرة أفواه ..

قلت له: فما الفم الأول؟

قال: الفم الذي يعرف للمراتب حقها .. فلا يتجاوز بها منازلها.[1]

قلت له: فما الفم الثاني؟

قال: الفم الذي يسيل ما جف من الدموع، ويلين ما قسا من القلوب[2] .

قلت: فما الفم الثالث؟

قال: الفم الذي يكشف عن الجواهر بالقيل والقال، والجواب والسؤال، لا بالمراء والجدل[3].

قلت: فما الفم الرابع؟

قال: الفم الذي طهر لسانه بماء الحقائق، وزين بمواثيق الرقائق، وعتق من سجون العلائق، فصار بين الناس كالبدر المتلألئ، تنشق له حجب الظلمات، وتندك له صروح الطغاة[4].

قلت: فما الفم الخامس؟

قال: الفم الذي ينطق من غير لسان .. ولكنه أبلغ من كل لسان[5].

قلت: فما الفم السادس؟

قال: الفم الذي يطهر أرض النفوس من الأدناس، ليرفعها إلى قدس الأقداس[6].

قلت: فما الفم السابع؟

قال: الفم الذي يرفع صوته، فتعلو برفعه الرايات، وتنتشر المكرمات[7].

قلت: فما الفم الثامن؟

قال: الفم الذي حلي بحلية الورع، وزين بزينة العلم والحلم، ونور بأنوار البصيرة .. فأجاب عن كل سؤال، وحل كل إشكال، ورفع كل معضلة، وأزال كل مشكلة[8].

قلت له: فما الفم التاسع؟

قال: الفم الذي يثور على المحو، ليطفئ السراب، ويمحو الضباب[9].

قلت: فما الفم العاشر؟

قال: الفم الذي يسلك القفار، ويقطع البحار، لينشر الأنوار[10].

قلت: فهل بحثت عن هذه الأفواه؟

---

(١) أقصد به (الحكيم)، وهو الفصل الأول من هذه الرسالة.

(٢)أقصد به (الواعظ)، وهو الفصل الثاني من هذه الرسالة.

(٣)أقصد به (المحاور)، وهو الفصل الثالث من هذه الرسالة.

(٤)أقصد به (المعلم)، وهو الفصل الرابع من هذه الرسالة.

(٥) أقصد به (القدوة)، وهو الفصل الخامس من هذه الرسالة.

(٦)أقصد به (المربي)، وهو الفصل السادس من هذه الرسالة.

(٧)أقصد به (الخطيب)، وهو الفصل السابع من هذه الرسالة.

(٨) أقصد به (المفتي)، وهو الفصل الثامن من هذه الرسالة.

(٩)أقصد به (المحتسب)، وهو الفصل التاسع من هذه الرسالة.

(١٠)أقصد به (الشاهد)، وهو الفصل العاشر من هذه الرسالة.

قال: أجل .. لقد ذكر لي أنها في عشرة حضائر من بلاد الإسلام .. فلذلك سرت في كل بلاد الإسلام أبحث عنها حتى وجدتها.

قلت: وجدتها جميعا؟

قال: أجل .. فلا تكمل الهداية إلا باجتماعها جميعا .. كما لا يمكن أن يكتمل الشعاع الأبيض إلا بجميع ألوانه.

قلت: فهل ستحدثني حديث رحلتك هذه؟

قال: يسرني ذلك .. فبيننا وبين الأمان عشر مراحل .. وسنقطع بكل واحد من هذه الأفواه مرحلة من المراحل .. على أن لا تنسى أننا في غابة .. وأنه يمكن في أي لحظة أن يهم بنا سبع، أو تلدغنا عقرب ..

قلت: إن ذلك يمنعني من أن أعيش ما تقول ..

قال: دع بصرك لجسدك .. وأرسل ببصيرتك إلي .. فلست أحتاج سوى بصيرتك.

قلت: فمن أين ابتدأت رحلتك؟

أشار إلي أن نسير، ثم حمد الله وصلى على نبيه ﷺ مستغرقا في كل ذلك، ثم قال:

أولا ــــ الحكيم

بدأت رحلتي من بلاد الهند .. تلك البلاد التي بدأ بها التاريخ .. وفيها التقيت أول حامل لمشعل من مشاعل الهداية النبوية، وهو (مشعل الحكمة) .. وفيها تعرفت على (النبي الحكيم) .. سأقص عليك القصة من البداية:

كنت أسير في مدينة نيودلهي .. وأمام مسجد من مساجدها العظيمة اسمه (نظام الدين)[1] التقيت رجلا كان الناس يطلقون عليه لقب الكاندهلوي[2] .. وقد ذكر لي أن اسمه (محمد زكريا) .. وذكر لي ــــ وهو فرح فخور بذلك ــــ أنه يحمل اسم نبيين كريمين، هما من أكبر الهداة إلى الله .. أما أحدهما، فقدر الله له أن ينتصر في دعوته .. وأما الثاني، فقدر الله له أن يشنق في سبيلها.

كان أول ما التقيته في مكتبة قرب (نظام الدين)، حسبته في البدء صاحب المكتبة، فقد رأيته يرتب كتبها، وينظمها باهتمام، وكأنه صاحبها.

أردت في تلك الأيام أن أنشغل بتعلم النحو، فقد رأيت أنه لا مناسبة أحسن من تلك المناسبة لتعلمه .. فطلبت منه أن يعطيني حاشية من الحواشي على الألفية، فقال لي، والابتسامة تشع من شفتيه: أتسمح لي أن أسألك سؤالا؟

قلت: سل ما بدا لك.

قال: هل أنت مبتدئ في تعلم النحو .. أم لك خبرة سابقة فيه؟

قلت: بل أنا مبتدئ .. وإن شئتُ قلتُ: أنا أجهل الناس بهذا العلم .. وقد دعتني الغربة إلى الانشغال بتعلمه.

قال: فأنصحك إذن أن تقرأ كتبا أيسر وأبسط .. ولدينا الكثير منها هنا.

قلت: لكني سمعت أن هذه الحاشية من أفضل ما كتب في النحو.

قال: الأفضل يتعدد .. فما صلح لزيد قد يضر عمرا، وما حسن لبكر قد يقبح بخالد.

قلت: لا بأس .. سأعمل بنصيحتك .. دلني على هذه الكتب التي نصحتني بها ..

---

(1) هو بديوبند في دلهي بالهند، وهو المركز الرئيسي لجماعة الدعوة والتبليغ، ومنه يديرون شئون الدعوة في العالم .

ونحب أن ننبه هنا إلى أنا حاولنا في هذه الرسالة أن نجمع أكثر ما قدرنا عليه من شخصيات وجماعات مسلمة تمارس مهمة الدعوة إلى الله، باعتبار أن هذه الجماعات جميعا، مهما اختلفت مناهجها تسير على قدم النبي الهادي ﷺ ، وقد دعانا إلى هذا ما ينعق به المتطرفون من تبديع كل من يعمل للإسلام، أو الحكم بضلاله.

وننبه ــــ كذلك ــــ إلى أن ما نذكره من شخصيات وأماكن وأحداث وغيرها، لا علاقة لها بالواقع إلا علاقة الرمزية التي تقتضيها الأعمال الفنية .. وما كان من ذلك منطبقا مع الواقع أشرنا إليه في الهامش.

(2) أشير به إلى الداعية العظيم السائر على قدم النبي ﷺ محمد زكريا الكاندهلوي (ت ١٣٤٨هـ- ١٩٣٠م). وهو من مشاهير علماء الهند، ومن كبار جماعة الدعوة والتبليغ، تتلمذ على أبيه وعلى الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، والشيخ أحمد الهارنفوري .. تصدى للتدريس والتأليف في مظاهر العلوم، وتخرج عليه خلق كثير .. له نحو ثمانية وثمانين مؤلفا منها: (أوجز المسالك إلى موطأ مالك) على طريقة شراح الحديث المتقدمين؛ (الأبواب والتراجم على صحيح البخاري)؛ (لامع الدراري على الجامع الصحيح للبخاري)؛ (الكوكب الدري على جامع الترمذي) .. بالإضافة إلى غيرها من الكتب.

سار بي قليلا في أركان المكتبة .. وفي جناح من أجنحتها كتب على لوحه (نحوُ المبتدئين)، وكتب في الدرج الذي فوقه (نحوُ المتوسطين)، وفي درج فوقهم جميعا (نحوُ المحترفين)

قلت: هذه أول مرة في حياتي أرى الكتب ترتب بهذا الأسلوب؟

قال: ليست كتب النحو وحدها هي التي رتبت بهذا الأسلوب .. لقد من الله علي، فرتبت الجميع بحسب مراتبها ..

قلت: أنت مهتم بمكتبك، وبزبائنك كثيرا؟

قال: هذه مكتبة أخ من إخواني في الله ..

قلت: فأنت تعمل عنده؟

قال: أنا أعمل عند الله .. لقد رأيت هذه الكتب لا تراعي مراتب الناس، فأردت أن أرتبها، ليتيسر على كل طالب علم أن يجد بغيته من غير عناء .. وقد طلبت من صاحب المكتبة أن أفعل هذا .. في البداية رفض .. ولكنه عندما رأى نفور الناس من مكتبته، طلب مني أن أرتبها بحسب ما ذكرت له .. وهو الآن ـــ بحمد الله ـــ راض عما يجنيه منها، بل يعتقد أن الترتيب الذي وضعته هو السر في إقبال الزبائن عليها.

قلت: من أنت .. لكأني بك أحد الذين أبحث عنهم؟

قال: أنا الذي أعرف للمراتب حقها .. فلا أتجاوز بها منازلها.

قلت: ففمك هو الفم الأول؟

قال: إن كانت الحكمة هي الفم الأول .. ففمي ـــ بحمد الله ـــ هو ذلك الفم.

قلت: لقد طلبت من صاحب هذه المكتبة أن ترتب كتبه لوجه الله .. فهل لك أن ترتب كتبي لوجه الله؟

قال: إن كنت الباحث عن الهادي .. فقد ظفرت ببغيتك عندي.

قلت: أنا ذلك الرجل ..

قال: فاصبر معي لأعلمك حكمة الحكيم الذي يضع الأمور في مراتبها، ولا يتجاوز بها منازلها.

قلت :﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً)(الكهف: من الآية٦٩)

***

سرت معه إلى بيته .. وقد كان في غاية النظام والترتيب .. وغاية الجمال والتناسق، قلت له: أراك تهتم بالترتيب في كل شيء ..

قال: من رأى النظام البديع الذي بنى الله به أكوانه، ومن رأى الترتيبات العجيبة التي رتبها لا يملك إلا أن يجعل من حياته كلها مرآة يتجلى فيها بديع الصنع الإلهي.

قلت: البعض يعتبر ذلك وسوسة.

قال: الوسوسة في الفوضى، لا في النظام .. والوسوسة في عالم النفس، لا في العوالم المرتبطة بالله .. ونحن بحمد الله لا نتحرك حركة إلا بنية تربطنا بالله .. فلذلك نرجو من الله أن يأجرنا عليها ..

قلت: سواء كانت من الدنيا أو من الآخرة.

قال: ليس هناك دنيا ولا آخرة إلا في أعين المحجوبين .. أما الموصولون بالله، فهم عبيد لله مطلقا .. سواء كانوا في هذه الدار أو في تلك الدار.

شد انتباهي في مكتبة بيته أربعة سجلات ضخمة .. غلافها مفهرس بفهارس مختلفة، فقلت: أهذه كتب تكتبها؟

قال: بل هذه مشاريع لكتب أكتبها.

قلت: في أي مواضيع تكتب .. لا بد أنك تكتب في الشريعة؟

قال: أنا أكتب من يكتب في الشريعة .. أو من يعيش الشريعة.

قلت: لم أفهم .. ما الذي تقصد؟

قال: افتح دفترا منها، وسترى ما أكتب.

١ ــ مراتب المخاطبين

فتحت الدفتر الأول، وكان عنوانه (مراتب المخاطبين)[1] .. وقد زين غلافه بقوله تعالى:﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)(البقرة: من الآية٢٨٦) .. وفوقها كتب قوله تعالى:﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً) (الطلاق:٧)، وبينهما قوله تعالى :﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)(طــه: من الآية٥٠)

قلت: لاشك أن هذا الكتاب في فقه الدعوة .. فإني أرى لك اهتماما بهذا النوع من الفقه.

قال: افتحه .. وستعرف موضوعه ..

فتحته .. فتعجبت .. فلم أر فيه إلا جداول كثيرة ملئت بأسماء كثيرة .. وبجانب كل اسم وضعت بعض المعلومات المرتبطة به ..

قلت، وقد أصابني بعض الفزع: أنت من المخابرات إذن؟

ضحك، وقال: تستطيع أن تقول ذلك .. ولكني من المخابرات الإلهية .. لا المخابرات الأرضية.

قلت: فما الفرق بينهما؟

قال: المخابرات الأرضية تبحث عن أمن الأرض، وأمن أهل الأرض .. ومخابرات أهل الله تبحث في أمن النفس، وأمن عالم النفس ..

قلت: وما حاجة عوالم النفس لهذه المعلومات؟

قال: ألا ترى الطبيب الحاذق الناصح الماهر كيف يسجل مرضاه .. ويسجل ما يرتبط بمرضهم من تواريخ ومن أدوية .. ونحوها؟

قلت: أجل .. رأيت بعض الأطباء يفعل ذلك؟

قال: لم؟

قلت: يفعل ذلك نصحا للمرضى .. وحتى لا يسقيهم دواء قد يصطدم مع بعض أدوائهم.

قال: وهكذا عالم النفس .. وعالم الروح .. وجميع العوالم الخفية التي يتكون منها بنيان الإنسان .. فقد يصطدم الخطاب مع بعضها مع الآخر .. وذلك قد يؤدي إلى تشنجات خطيرة لا يصبح بها الإنسان إنسانا.

قلت: فماذا فعلت حتى تتجنب هذا النوع من التشجنات؟

قال: سجلت أسماء جميع المرضى الذين رغبت في علاجهم .. ثم سجلت ما يرتبط بكل واحد منهم من طباع وعلل وحاجات مختلفة حتى أراعيها في حال خطابي لهم حتى لا أسقيهم من الشريعة ما ينفرهم عنها.

قلت: أراك وضعت أمام كل اسم ست خانات ..

قال: أجل .. فقد رأيت أن كل إنسان يختلف عن غيره في طباعه وقدراته وتوجهاته وأحواله وحاجاته، وأحيانا يكون الشخص من عائلة معينة، وتكون لهم أعراف معينة .. فلذلك صارت الخانات ستا.

---

(١)من مراجعنا المهمة في هذا الباب كتاب (منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر) الحائز على جائزة نايف بن عبدالعزيز آل سعود للسنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، تأليف:عدنان بن محمد آل عرعور.

قلت: من أي عالم نفس .. أو من أي عالم اجتماع .. استلهمت هذه المعاني؟

قال: من عالم العلماء، وإمام الأئمة، وهادي الهداة وحكيم الحكماء..

قلت: من؟

قال: ومن غير السراج المنير الذي أنارَ الله به عوالم الدين والدنيا!؟

قلت: محمد رسول الله !؟

قال: مبتدع أنا إن سرت خلف غيره .. ودني همة أنا إن اخترت لنفسي قالبا غير القالب الذي اختاره.

قلت: فحدثني عن شواهد استنانك .. فلا يمكن أن نثبت السنة إلا بالسنة.

قال: وبالقرآن .. ألم يكن خلق محمد ﷺ هو القرآن؟

قلت: بلى .. هكذا حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ

قال: بل هكذا حدث القرآن وحدثت السنة وحدثت السيرة .. وحدث كل من شهده ﷺ وتشرف بصحبته.

الطباع:

قلت: فلنبدأ من الخانة الأولى .. ما الذي تريده بالطباع؟

قال: لقد تأملت الخلق، فرأيتهم متفاوتون في طباعهم تفاوتا عجيبا، فرأيت منهم صاحب الحس المرهف، والطبع الرقيق، الذي يتأثر بالعاطفة، ويستجيب للموعظة بسهولة ويسر.. ورأيت منهم العقلاني ذا التفكير الذي لا يناسبه إلا الطرح العقلي، والاستدلالات الرياضية .. ورأيت منهم الذي يؤخذ بالترغيب.. ورأيت منهم الذي يتأثر بالترهيب.. ورأيت منهم المسالم المنصت.. ورأيت منهم المجادل العنيد.. ورأيت منهم المتعالم.. ورأيت منهم المتجاهل.. ورأيت منهم القوي.. ورأيت منهم الضعيف.

وقد رأيت من العبث ومن الفوضى أن لا ألتفت لهذه الصفات المتنافرة المتغيرة .. لأني حينذاك لن أحصد إلا الفشل .. وأكون حينذاك كمن يزرع في الأرض الجافة النباتات التي تحتاج إلى الرطوبة .. فيقتلها بالجفاف، ولا يجني غير السراب.

قلت: فالتأمل هو الذي هداك لهذا؟

قال: لقد تغذى تأملي بالقرآن الكريم .. ولولا القرآن الكريم .. ولولا تدبره ما اهتديت إلى هذا .. لقد رأيت القرآن الكريم كيف يتغلغل إلى النفس البشرية، ليوحي إليها قدرة بارئها على معرفة ما يجري داخلها ..

اسمع قوله تعالى :﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(الأنفال: ٢٤) .. وقوله تعالى :﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(غافر: ١٩) .. وقوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(ق: ١٦)

واسمع كيف تُشعر هذه الآيات بهيمنة الله على ملكوته ؛ بالعلم والقدرة والسمع والبصر، وبمراقبة الله للعبد في كل حين، وفي كل قول وفعل .. ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾(الأنعام:١٨) ..

ألا ترى كيف تختم هذه الآية باسم (الخبير) .. إن هذا الاسم يعني أن الله هو العالم بخفايا الأمور، والمطلع

على دقائق الأشياء .. ولذلك يتعامل مع عباده على أساسها؟

لذلك يخبرنا الله تعالى في معرض الحديث عن أحكامه عن خبرته بأعمال خلقه، لأن العالم بذوات الخلق أعلم بأعمالهم[1]:

ففي معرض ذكر الله تعالى لجواز تزين النساء بعد انتهاء إحدادهنا، قال تعالى :﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة:٢٣٤)

وهي تحمل عتابا مبطنا لمن ينكر عليهن، لأن في إنكاره تعديا على الله، فالله هو الخالق الخبير بخلقه، وهو أعلم بما في نفوسهم وبواطنهم، وله وحده لذلك الحق في الإنكار أو عدمه.

وفي معرض ذكره للصدقات قال تعالى :﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة:٢٧١)، فالله تعالى عقب على هذا السلوك الذي هو إظهار الصدقات أو إخفائها بكونه خبيرا، وكأنه يخبر من أظهر الصدقات بأن الله خبير يعلم نيته في إخراجه لها علانية ... فالعلانية لا تدل بحد ذاتها على الإخلاص أو على الرياء، ولهذا فهي تحتاج إلى خبير يميز بينهما.

ومثل هذا يقال في قوله تعالى:﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران:١٥٣)، وقوله تعالى :﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (آل عمران:١٨٠) وغيرها من آيات القرآن الكريم.

لقد كان لي صاحب من مصر .. ولو أن أصله من الهند[2] .. كان اسمه سيد .. وقد حدثني مرة عن هذا، فقال ــ وهو يحدثني عن الأسلوب الذي تميز به القرآن المكي ــ :(كان هذا القرآن يُواجه به النفوس في مكة، ويروضها حتى تسلس قيادها، راغبة مختارة، ويرى أنه كان يواجه النفوس بأساليب متنوعة، تنوعاً عجيباً.. تارة يواجهها بما يشبه الطوفان الغامر، من الدلائل الموحية، والمؤثرات الجارفة.. وتارة يواجهها، بما يشبه السياط اللاذعة تلهب الحس، فلا يطيق وقعها، ولا يصبر على لذعها! وتارة يواجهها بما يشبه المناجاة الحبيبة، والمسارَّة الودودة، التي تهولها المشاعر، وتأنس لها القلوب..! وتارة يواجهها بالهول المرعب، والصرخة المفزعة، التي تفتح الأعين على الخطر الداهم القريب..! وتارة يواجهها بالحقيقة في بساطة، ونصاعة، لا تدع مجالاً للتلفت عنها، ولا الجدل فيها.. وتارة يواجهها بالرجاء الصبوح، والأمل الندي، يهتف لها ويناجيها.. وتارة يتخلل مساربها، ودروبها ومنحنياتها، فيلقي عليها الأضواء التي تكشفها لذاتها، فترى ما يجري في داخلها رأي العين، وتخجل من بعضه، وتكره بعضه، وتتيقظ لحركاتها، وانفعالاتها التي كانت غافلة عنها!.. ومئات من اللمسات، ومئات من

(١) ذكرنا المسألة بتفصيل في رسالة (أسرار الأقدار) من سلسلة (عيون الحقائق).

(٢) يذكر الكثير أن أصل عائلة سيد قطب من الهند.

اللفتات، ومئات من الهتافات، ومئات من المؤثرات.. يطلع عليها قارئ القرآن، وهو يتبع تلك المعركة الطويلة، وذلك العلاج البطيء، ويرى كيف انتصر القرآن على الجاهلية في تلك النفوس العصيّة العنيدة)[1]

قلت: أعرف طريقة القرآن الكريم في هذا .. ولكن هذا كلام الله، والله هو اللطيف الخبير، العالم بما دق وما جل .. ولا يمكن لغير الله أن يفعل هذا؟

قال: الكامل هو الذي يتأسى بربه .. ويترقى ليتخلق بما تقتضيه أسماؤه الحسنى .. وقد كان محمد ﷺ هو النموذج الأكمل لهذا التأسي وهذا الترقي.

أنت تعلم أن أبا ذر ــ رضي الله عنه ــ من صحابة رسول الله ﷺ الكبار؟

قلت: أجل .. فقد كان من أوائل السابقين إلى الإسلام، أسلم في أول البعثة خامس خمسة، وكان رأسا في العلم والزهد والجهاد وصدق اللهجة والاخلاص .. وكان يوازي ابن مسعود في العلم .. وقد قال فيه رسول الله ﷺ :(ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر .. من سره أن ينظر إلى زهد عيسى بن مريم، فلينظر إلى أبي ذر)[2]

قال: ومع هذا الفضل العظيم .. فقد نصحه ﷺ بأن لا يتولى الإمارة .. بل نَصَحَهُ أن لا يقترب منها ..

قلت: ذلك صحيح .. فقد حدث أبو ذر ــ رضي الله عنه ــ قال: قال لي رسول الله ﷺ: (يا أبا ذرٍ إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم)[3] .. وفي رواية عنه قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني ؟ فضرب بيده على منكبي، ثم قال: (يا أبا ذرٍ إنك ضعيفٌ، وإنها أمانةٌ، وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامةٌ، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها)[4]

قال: فقد لاحظ رسول الله ﷺ في هذا طباع أبي ذر .. فأبو ذر صادق وزاهد .. ولكن طبعه الذي جبله الله عليه لا يسمح له بتولي الإمارة.

قلت: وعيت هذا ..

قال: فقد كان ﷺ يلاحظ الطباع في جميع ما يفعله، وما يتعامل به .. ولهذا لما رأى في خالد بن الوليد ــ رضي الله عنه ــ ما رأى من القوة، والمكر المحمود، جعله قائداً مقدماً في ذلك على من هم أفضل منه.

ولكن ذلك لم يمنعه ﷺ من أن ينكر على خالد ــ رضي الله عنه ــ خطأه في قتل بني جذيمة، قائلا له على الملأ: (اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد)[5] .. ولم يعزله، رغم فعله هذا، لما رأى فيه من القوة على الأعداء.

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/٣٦٩٢- ٣٦٩٣.

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى .. وانظر: سير أعلام النبلاء: ٢ / ٥٩.

(٣)رواه مسلم.

(٤)رواه مسلم.

(٥) وقصة ذلك أن النبي ﷺ بعث خالدا إلى بني جذيمة ليدعوهم إلى الإسلام، ولم يأمره بقتالهم، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فقالوا: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل، ويأسرهم، ودفع الأسرى إلى أصحابه وأمرهم بقتلهم، وامتنع البعض من قتلهم، لما تبين لهم أنهم أسلموا، ولما رجعوا وذكروا ذلك للنبي ﷺ قال: (اللهم إني أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد) قالها مرتين...

وقد ذكرنا في رسالة (النبي المعصوم) أن هذا الحادث هو أكبر خطأ وقع في تاريخ السرايا جميعا، وقد تبرأ رسول الله ﷺ من ذلك الخطأ الناتج عن عدم تعمق في معرفة الإسلام.

ومثل ذلك لما رأى رسول الله ﷺ الزحام على تقبيل الحجر قال لعمر ـــ رضي الله عنه ـــ: (يا عمر، إنك رجل قوي، لا تزاحم على الحجر فتؤذي الضعيف، إن وجدت خلوة فاستلمه، وإلا فاستقبله، فهلل وكبر)[1]

ومثل ذلك لما آنس ﷺ من بعض الصحابة ـــ وهو زيد بن ثابت ـــ القدرة على التعلم أمره أن يتعلم السريانية[2] .

ولما رأى ـــ خلاف ذلك ـــ من بعض الصحابة العجز عن ذلك رخص له أن لا يقرأ سورة الفاتحة في الصلاة، بل أمره أن يقول بدلها: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[3]

القدرات:

قلت: وعيت ما ذكرته في الخانة الأولى .. فما (القدرات) التي وضعتها في الخانة الثانية؟

قال: كما أن البشر يختلفون في طباعهم التي طبعوا عليها يختلفون كذلك ـــ بل أكثر من ذلك ـــ في توجيههم للقدرات والملكات التي وهبهم الله .. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك :﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف:٣٢)

فبعضهم صرف هذه القدرات للعلم .. وبعضهم صرفها للتجارة .. وبعضهم صرفها للسياسة .. وبعضهم

وليصحح رسول الله ﷺ الخطأ الكبير الذي وقع فيه خالد بعث عليا ـــ رضي الله عنه ـــ فودى لهم قتلاهم وزادهم فيها تطييبًا لنفوسهم وبراءة من دمائهم.

وبهذا التصرف النبوي الحكيم واسى النبي ﷺ بني جذيمة، وأزال ما في نفوسهم من أسى وحزن.

وقد تأول الكثير من العلماء ما فعله خالد، واعتذروا له بذلك ..

ومن ذلك قول الخطابي: (يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام، لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع على سبيل الأنفة، ولم ينقادوا إلى الدين فقتلهم متأولا) (فتح الباري لابن حجر ٥٧/٨)

وقال ابن تيمية في معرض حديثه عن هذه الحادثة: (فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فقالوا: صبأنا صبأنا، فلم يقبل ذلك منهم، وقال: إن هذا ليس بإسلام، فقتلهم، فأنكر ذلك عليه من معه من أعيان الصحابة: كسالم مولى أبي حذيفة، وعبد الله بن عمر، وغيرهما، ولما بلغ ذلك النبي ﷺ رفع يديه إلى السماء وقال: (اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد) لأنه خاف أن يطالبه الله بما جرى عليهم من العدوان.. ومع هذا فالنبي ﷺ لم يعزل خالدا عن الإمارة، بل مازال يؤمره ويقدمه، لأن الأمير إذا جرى منه خطأ أو ذنب أمر بالرجوع عن ذلك، وأقر على ولايته، ولم يكن خالد معاندا للنبي (بل كان مطيعا له، ولكن لم يكن في الفقه والدين بمنزلة غيره، فخفي عليه حكم هذه القضية) (منهاج السنة ٤٨٦/٤)

وقال ابن حجر في شرح الحديث: (وأما خالد فحمل هذه اللفظة على ظاهرها، لأن قولهم صبأنا أي: خرجنا من دين إلى دين، ولم يكتف خالد بذلك حتى يصرحوا بالإسلام) (فتح الباري ٥٧/٨)

ومع هذا، ومع احترامنا لخالد بن الوليد ـــ رضي الله عنه ـــ إلا أن ذلك لا يمنعنا من التشدد في إنكار هذا السلوك أسوة بالتشدد الذي قابله به رسول الله ﷺ .. أما الانتصار للصحابة وعدالة الصحابة أو عصمة الصحابة كما يفهم البعض على حساب المبادئ فخطأ جسيم، لأنه يمس الدين وصميم الدين .. وحرمة الدين أعظم من حرمة الصحبة.

(١)رواه أحمد، واللفظ له، والبيهقي في السنن الكبرى.

(٢) رواه أحمد والطبراني في الكبير والحاكم وقال: صحيح إن كان ثابت بن عبيد سمعه من زيد بن ثابت ولم يخرجاه.

(٣) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

للصناعة .. وهكذا ..

وليس من الحكمة أن يخاطب الجميع بنفس الأسلوب .. ليس من الحكمة أن يُدعى طلبة علم إلى علم يعلمونه ويدركونه، كأن يشرح لهم حديث جبريل في أركان الإيمان والإسلام، فربما كان المدعوون أعلم من الداعي في ذلك ..

كما أنه ليس من الحكمة أن يخاطب العامة في تفاصيل علمية، كعلم أصول الفقه، أو مصطلح الحديث، أو أنواع كلام الله عند الفِرق، أو في خلافات العلماء، أو في دقائق لغوية، فإن لهذه المسائل مقاماً غير مقام الدعوة، وغير مقام جمهور الناس.

قلت: صحيح ما ذكرت .. وقد رأيت في الواقع من يسئ التصرف في مثل هذا .. فلا يجني من تصرفه إلا الشوك والحنضل ..

قال: ولذلك كان رسول الله ﷺ حكيم الحكماء يراعي هذه النواحي في خطابه وفي تعامله:

ومما ورد في السنة من مراعاة رسول الله ﷺ لأحوال المدعويين العلمية حديث ذلك الأعرابي الذي بال في المسجد، وكشف عورته فيه، فقام أصحاب رسول الله ﷺ ليقعوا فيه.. لكن سيد الحكماء ﷺ أدرك حاله من الجهل، وأدرك أنه ـــ في ذلك الحين ـــ كان في حالة خاصة ..

ولذلك عالجه بما يناسب حاله .. فعالج جهله بالتعليم ..

وعالج الحالة الخاصة التي كان عليها بتأخيره حتى يفرغ من بوله، ولو كان في المسجد، ولو كان كاشف العورة، لأن مفسدة قطعه من بوله أعظم من مفسدة ما يفعل ..

لذلك بدأ رسول الله ﷺ بمعالجة حاله، ونهى الصحابة أن يتعرضوا له، بل منعهم من أن يقطعوا عليه بوله، فقال: (لا تُزرِمُوه)

ثم ما إن انتهت حاله هذه حتى بدأ رسول الله ﷺ بمعالجة حاله الأصلية، وهي الجهل، فبدأ يُعلِّمُهُ بكل رِفق، وبكل سهولة، حتى قال الأعرابي قولته المشهورة، التي أضحكت رسول الله ﷺ:(اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحداً)[1]

وقريب من هذا ما حدث به معاوية بن الحكم السلمي ـــ رضي الله عنه ـــ قال:(بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم فقلت: وا ثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إلي، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني قال: (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن) ـــ أو كما قال رسول الله ﷺ ـــ قلت: يا رسول الله إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالا يأتون الكهان قال: فلا تأتهم قال: ومنا رجال يتطيرون قال: ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنكم، قال: قلت

(١) رواه البخاري وغيره.

ومنا رجال يخطون قال: كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك)[1]

انظر .. لقد كان سلوك رسول الله ﷺ مع هذا الرجل المبتدئ في الإسلام سببا لأن يقول هذه الشهادة التي ظلت الأجيال تحفظها :(ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني)

وانظر كيف ألان ذلك التعليم الرحيم قلب الرجل، فراح يسأل رسول الله ﷺ تلك الأسئلة التي لم يتجرأ على سؤاله عنها لو أنه لم ير من رحمته ورفقه ما رأى.

وانظر في مقابل هذا كيف خاطب رسول الله ﷺ ابن عمر عندما طلق زوجته، وهي حائض، فذكر عمر ذلك لرسول الله ﷺ، فتغيَّظ رسول الله ﷺ، ثم قال: (ليراجعها ثم يمسكها حتى تَطْهُر، ثم تحيض فَتَطْهُر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة كما أمر الله)[2]

ومثل ذلك غضبه من أسامة ــ رضي الله عنه ــ لما شفع في شأن المخزومية، فعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: إن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حبُّ رسول الله ﷺ ؟ فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ :(أتشفع في حد من حدود الله تعالى؟)، ثم قام فاختطب، ثم قال: (إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد! وأيْمُ الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها)[3]

وجدت في بعض خانات هذا العمود كلمة (صاحب مكانة)، وأمامه كتب ملاحظة (يحتاج إلى عناية خاص)، فقلت: ما هذا؟ .. ألم تقرأ سورة عبس؟

قال: بلى .. قرأتها .. فما علاقتها بهذا؟

قلت: لقد أبدى النبي ﷺ بعض الاهتمام ببعض سادة قريش، فنهي عن ذلك.

قال: لم ينه رسول الله ﷺ عن اهتمامه بالقرشيين، وإنما نهي من التقصير في حق الأعمى.

قلت: كلا الأمرين سواء.

قال: لا .. النهي عن شيء لا يدل على النهي على غيره إلا بدليل ..

قلت: ألا يكفي في الاستدلال قوله تعالى :﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧)﴾ (عبس)؟

قال: هذه الآيات الكريمة تتحدث عن المستغني عن الله .. وهو يتحقق في الأغنياء كما يتحقق في الفقراء ..

قلت: ولكن كيف بدا لك أن تضع أمامه تلك الملاحظة؟

قال: هذا لم يبدو لي .. بل هي سنة رسول الله ﷺ .. بل هي سنة الأنبياء قبله جميعا .. لقد ذكر الله تعالى

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

في القرآن الكريم دعوة الأنبياء إلى الملأ من قومهم، وتلطفهم معهم ..

لقد ذكر الله تعالى كيف أرسل موسى وهارون ــ عليهما السلام ــ إلى فرعون، فقال:﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)﴾ (طه) .. انظر كيف أمرهما الله تعالى بدعوة فرعون بكلام رقيق لين سهل، ليكون أوقع في النفوس، وأبلغ وأنجح ولما في ذلك من التأثير في الإجابة ذلك أن الكلام الذي فيه شدة وخشونة بادئ ذي بدء من أعظم أسباب النفرة، وعدم الاستجابة، والتصلب في الكفر لا سيما إذا كان المدعو من الكبراء الذين تغلب عليهم صفة الكبر والتجبّر.

قلت: إن موقف موسى u في هذا موقف خاص .. ولا يصح القياس عليه.

قال: لا بأس .. فلنعتبره موقفا خاصا .. ولنسر نحو النبي الحكيم لنرى كيف كان يتعامل مع هذا النوع من الناس .. فالسنة لا تتلقى إلا منه ..

لقد وردت النصوص الكثيرة الدالة على حرص رسول الله ﷺ على إسلام هؤلاء .. ففي السيرة روي: اجتمع علية من أشراف قريش .. فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا، وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بدو ، وكان حريصًا يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم.

ومما يدل على هذا موقفه ﷺ مع عتبة بن ربيعة، وهو أحد سادات قريش[١]، فقد أظهر ﷺ من العناية به والتلطف في دعوته ما جعله يعود بغير الوجه الذي جاء به.

بل كان ﷺ يبدأ بعرض الدعوة على ذوي المكانة من الأشراف والسادة، قال ابن إسحاق:(لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم .. فدعاهم إلى الله)[٢]

ثم لما عاد ﷺ إلى مكة كان لا يسمع بقادم يقدمها من ذوي المكانة والشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله، وعرض عليه ما عنده، ثم بدأ يعرض دعوته على وفود العرب في موسم الحج وأسواق العرب، وكانت مناسبات هامة للالتقاء بذوي المكانة من رؤساء العرب، وكان يصطحب معه أبا بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ ليعرفه بذوي المكانة والشرف من هؤلاء الوفود فيبدءوهم بعرض الدعوة عليهم.

وقد بين ﷺ الحكمة في العناية بذوي المكانة بقوله:(لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن اليهود)[٣] .. لقد علق ابن حجر على هذا الحديث بقوله:(والذي يظهر أنهم الذين كانوا حينئذ رؤساء في اليهود ومن عداهم كان تبعًا لهم)[٤]

وهذا هو الأسلوب الذي انتهجه ورثته مع أمثال هذا النوع:

فمصعب بن عمير ــ رضي الله عنه ــ وهو مبعوثه ﷺ إلى المدينة ليقوم بمهمة الدعوة والتعليم ــ أظهر

---

(١) ومما يدل على مكانته في قريش قولهم : إن صبأ أبو الوليد لتصبون قريش كلها (ابن هشام، السيرة النبوية ١ / ٢٢٩)

(٢) رواه ابن إسحق.

(٣) رواه البخاري.

(٤) فتح الباري: ٧ /٦٩٥.

عناية عظيمة بذوي المكانة من الأشراف والسادة في المجتمع المدني، فقد استفاد من أسعد بن زرارة ــ رضي الله عنه ــ وهو من ذوي المكانة في قومه حيث نزل ضيفًا عليه، وأخذ يصطحبه في جولاته الدعوية ليقوم بمهمة تعريفه بذوي المكانة والشرف ليوليهم عناية خاصة في الدعوة، فحينما دخلا حائط بني عبد الأشهل، وأقبل عليهما أسيد بن حضير لزجرهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير : هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه.

وحينما أسلم أسيد بن حضير، وانضم إلى سلك الدعوة قال لهما مبينًا مكانة سعد بن معاذ في قومه: إن ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ .. فلما أقبل سعد قال أسعد بن زرارة لمصعب : (أي مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان)[1]

فكان لهذه العناية بهذين الرجلين الأثر البالغ حيث أسلم بإسلامهما جميع دور بني الأشهل.

التوجهات:

قلت: وعيت ما ذكرته في الخانة الثانية.. فما (التوجهات) التي وضعتها في الخانة الثالثة؟

قال: كما أن البشر يختلفون في طباعهم التي طبعوا عليها، ويختلفون في قدراتهم، يختلفون كذلك في توجهاتهم .. فمنهم الدهريون الذين لا يؤمنون برب، ولا رسول، ولا كتاب، ولا دين .. ومنهم المشركون الذين يعبدون الأصنام .. ومنهم أهل الكتاب الذين يؤمنون بالله خالقاً، وبكثير من الرسل، ولكنهم يشركون بهم، أو بغيرهم، ولا يؤمنون برسالة الإسلام .. ومنهم المنافقون الذين يُظهِرون الإسلام، ويُبطِنون الكفر .. ومنهم العُصاة من المسلمين الذين غلب عليهم الفسق، وطغت عليهم المعصية، وهيمنت عليهم شهواتهم وأهواؤهم، حتى أصبحت تُلازِمهم، فلا يهتمون بدين، ولا يُفكرون بتوبة .. ومنهم المقتصدون الذين يأتون بالواجبات، ويجتنبون المحرمات، ولكنهم لا يسارعون في الخيرات، وإذا ما وقعوا في بعض الذنوب لم يصروا عليها، ويسارعون إلى التوبة .. ومنهم بعد ذلك كله الأخيار الذين أتوا بالواجبات على وجهها، وبمعظم النوافل، واجتنبوا محارم الله أو تابوا منها توبة نصوحاً .. وبين هؤلاء جميعا طبقات كثيرة لا يمكن حصرها.

فهل ترى من الحكمة أن يخاطب هؤلاء جميعا بأسلوب واحد وبمعاني واحدة؟

قلت: لا شك في أن ذلك لا يصح .. ومن فعل ذلك يكون كمن عالج مريض القلب بأدوية الزكام .. أو عالج المزكوم بأدوية أمراض القلب.

قال: ولهذا وضعت هذه المرتبة .. فلم أر من الحكمة أن أتكلم مع الدهريين عن طاعة الله، ومحبة رسوله ﷺ، والتمسك بالدين، وأحتج لهم بالآيات والأحاديث، وهم لا يؤمنون برب، ولا يقرون بدين.

و لم أر من الحكمة ولا من الشرع أن أتكلم مع أهل الكتاب عن أهمية الصلاة، أو وجوب الحجاب، أو حرمة الاختلاط، أو أحكام الطلاق، وهي من شعب الإيمان، وهم لا يُسلِّمون بالأصل.

قلت: فأين هذا في القرآن الكريم أو في حياة رسول الله ﷺ التي تستند للقرآن؟

---

(1) سيرة ابن هشام: ٢ / ٥٩.

قال: هذا كثير في القرآن .. فالقرآن الكريم يذكر اختلاف أصناف الناس .. ويذكر مدى تميزهم في توجهاتهم .. فالله تعالى يقول ـــ مثلا ـــ عن أصناف ورثة الكتاب :﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) (فاطر:٣٢)

وهو يخاطب الناس بحسب توجهاتهم .. فيخاطب الدهريين بإثبات وجود الخالق، فيقول:﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾(الطور: ٣٥)، ويقول :﴿ هـــَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(لقمان: ١١)، ويقول :﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ)(الروم: ٢٠)

ويحاجُّ إبراهيمُ ـــ عليه السلام ـــ الدهريَّ بقوله :﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ) (البقرة: ٢٥٨)

ويخاطب المشركين بما يناسبهم في اعتقاداتهم، فيقول :﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)(العنكبوت: ٦١)، فألزمهم الله بمقتضى هذا الإيمان أن لا يشرك به.. لأن العبادة تصرف لخالق هذا الكون والمتصرف فيه، ولا تصرف لغيره.

وقال تعالى مخاطبا لهم :﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)(الأعراف: ١٩٤)

وقال :﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)(النحل: ٢٠، ٢١)

وقال :﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ)(الأحقاف: ٥)

ويخاطب أهل الكتاب بما يناسب معتقداتهم، فيقول :﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىَ كَلَمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)(آل عمران: ٦٤)، ويقول :﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً) (النساء:١٧١)، ويقول :﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) (المائدة:٧٥)

بل يقول لهم :﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (المائدة:٦٨)، فانظر كيف أمرهم باتباع ما يعتقدون صحته، و لم يأمرهم مباشرة باتباع القرآن، لأن اتباعهم للتوراة الصحيحة سيجعلهم ـــ لا محالة ـــ يؤمنون بالقرآن.

ومثل ذلك خطاب القرآن الكريم لعُصاة المسلمين، فقد خاطبهم بما يتناسب وإيمانهم، وتسليمهم لأمر

ربهم، فتارة يُخاطبهم بما في قلوبهم من إيمان فيقول :﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (الحديد:١٦)

وتارة يُخاطبهم بالترهيب كقوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (البقرة:٢٧٨)، وقوله :﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً)(البقرة: من الآية٢٣١)، وقوله :﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (النور:١٧)، وقوله :﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)(البقرة: من الآية٢٧٥)

وهكذا كان رسول الله ﷺ يتعامل مع مختلف أصناف .. فيعطي لكل شخص حقه من التوجيه والخطاب ..

فقد خاطب رسول الله ﷺ أهل الكتاب بغير ما كان يخاطب به كفار قريش .. فخاطب اليهود ــ مثلا ــ بوجوب التزامهم التوراة الصحيحة، وعدم التحريف فيها، فلو أنهم التزموها لآمنوا، ومما وري في ذلك ما حدث به ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ قال: إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له رجلا منهم وامرأة زنيا فقال رسول الله ﷺ :(ماتجدون في التوراة؟ قالوا : نفضحهم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها آية الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقال ماقبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام : ارفع يدك، فرفع يده فاذا آية الرجم، قالوا : صدق، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما)[1]

وخاطب وفد نجران ــ وهم من المسيحيين ــ في إبراهيم عليه السلام بأنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ..

وكان قد كتب لهم قبل ذلك يقول :(بسم الله إله إبراهيم وإسحق ويعقوب من محمد رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران .. إن أسلمتم فإني أحمد إليكم الله إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ..)[2]

فانظر كيف ذكر لهم الأنبياء وسماهم لهم لكونهم يؤمنون بهم ..

وهكذا في خطابه ﷺ لملوك وسلاطين العالم، فقد كان يخاطبهم بحسب توجهاتهم الدينية، ولذلك كان خطابه لكسرى المجوسي مختلفا عن خطابه للنجاشي من أهل الكتاب.

وكان ﷺ يخاطب من عصى من أصحابه بالإيمان الذي في قلوبهم، وبالتذكير بمحبة الله حتى يكون ذلك رادعا لهم ..فعن عبد الله بن مغفل ــ رضي الله عنه ــ أن امرأة كانت بغيا في الجاهلية، فمر بها رجل أو مرت به فبسط يده إليها، فقالت: مه إن الله ذهب بالشرك وجاء بالاسلام فتركها وولى، وجعل ينظر إليها، حتى أصاب وجهه الحائط، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال:(أنت عبد أراد الله بك خيرا، إن الله إذا أراد بعبد

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البيهقي في الدلائل.

خيرا عجل له عقوبة ذنبه، وإذا أراد بعبد شرا أمسك عليه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة)[1]

وكان ﷺ يفرق في خطابه لأصحابه بين من اشتد حبله في الإسلام، وبين من لا زال منهم غضا طريا فيه، فهو يدعو مثلا ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ لقيام الليل عندما يقول :(نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل)[2]

ويقول لعبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضي الله عنه ــ :(يا عبد الله لا تكن مثل فلانٍ: كان يقوم الليل فترك قيام الليل)[3]

بينما يقبل من الأعرابي المبتدئ إسلامه الاكتفاء بالفرائض.. فعن طلحة بن عبيد الله ــ رضي الله عنه ــ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوي صوته، ولا نفقه ما يقول، حتى دنا من رسول الله ﷺ، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله، ﷺ: خمس صلوات في اليوم والليلة قال: هل علي غيرهن ؟ قال: لا، إلا أن تطوع فقال رسول الله ﷺ: وصيام شهر رمضان قال: هل علي غيره ؟ قال: لا، إلا أن تطوع قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة فقال: هل علي غيرها ؟ قال: لا، إلا أن تطوع فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه؛ فقال رسول الله ﷺ :(أفلح إن صدق)[4]

ومن محاسن الإشارة في هذا أن رسول الله ﷺ خاطب سراقة سراقة بن مالك الذي خرج يطارد رسول الله ﷺ، وصاحبه أبا بكر ــ رضي الله عنه ــ وهما مهاجران خفية عن أعين قريش بما ناسب ما خرج من أجله ..

لقد روي أنه بينما كان سراقة يعثر به فرسه كلما هم أن يتابع الرسول ﷺ وصاحبه، طمعاً في جائزة قريش المغرية التي رصدتها لمن يأتيها بمحمد، وصاحبه، أو يخبر عنهما .. وبينما هو يهم بالرجوع وقد عاهد النبي ﷺ أن يكفيهما من وراءه .. في هذه اللحظة قال النبي ﷺ :(يا سراقة.. كيف بك إذا لبست سواري كسرى)[5]

---

(١) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢)رواه البخاري ومسلم. وقد قال سالم معقبا على هذا: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) رواه البيهقي في السنن الكبرى وغيره وقد روي أنه لما أتى عمر ــ رضي الله عنه ــ بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة ابن مالك فألبسه إياهما، وكان سراقه رجلا أزب كثير شعر الساعدين، وقال له: ارفع يديك فقال :(الله أكبر الحمد لله الذي سلبها كسرى بن هرمز الذي كان يقول أنا رب الناس وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابيا من بني مدلج)، ورفع بها عمر ــ رضي الله عنه ــ صوته.

وقد اعترض بعضهم على هذا، بحجة أن الحديث يفيد جواز لبس الذهب للرجال، ومن الإجابات على هذا: أن هذه الحادثة كانت في طريق هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ودلت على معجزة من معجزاته ﷺ ألا وهي إخباره لسراقة بما سيقع والإسلام يومئذ فيما هو عليه من الضعف، فأخبر ﷺ عن سقوط مملكة فارس وغنيمة المسلمين لحلي كسرى، ولما وقع ذلك في عهد عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ وجيء بسواري كسرى ألبسهما سراقة بن مالك تحقيقا لمعجزته ﷺ ثم ردهما إلى الغنيمة فهي إخبار عما سيقع وليست تشريعا لحكم ... ثم إن ذلك كان في بداية الإسلام، وقد كان الذهب مباحا كما في الحديث الصحيح من حديث ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ اصطنع خاتما من ذهب وكان يلبسه ويجعل فصه في باطن كفه فصنع

انظر .. النبي ﷺ يعده سواري كسرى شاهنشاه الفرس! ملك الملوك! .. والله وحده يعلم ما هي الخواطر التي دارت في رأس سراقة حول هذا العرض العجيب من ذلك المطارد الوحيد.

بينما في حادثة أخرى .. ومع عمر ــ رضي الله عنه ــ وفي موقف كان الحال فيه أفضل بكثير من حال المطاردة .. اختلف أسلوب رسول الله ﷺ في حديثه ..

لقد دخل عمر على رسول الله ﷺ، وقد أثّرت الحصير في جنبه، فبكى عمر، فقال رسول الله ﷺ :(ما يبكيك؟) فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله، فقال له رسول الله ﷺ:(أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة)[1]

انظر .. لقد اختلف جواب رسول الله ﷺ لسراقة اختلافاً كبيراً عن جوابه لعمر.. فالأول كان وعداً بالدنيا.. والآخر وعداً بالآخرة.. فلماذا اختلف الخطاب؟! ولماذا لم يقل لسراقة ستُسْلم وستكون لك الجنة... ولماذا لم يَقُل لعمر ستكون أميراً عظيماً، وسلطاناً مهيباً، وستملك ما تحت قدم قيصر وكسرى؟

ذلك لأن رسول الله ﷺ كان في دعوته وإجاباته مستحضراً حال المدعو الإيمانية...

فأما سراقة فلم يخرج لاحقاً رسول الله ﷺ إلا للمال، ونفسيته نفسية غير إيمانية، فهو لا يقيم وقتئذ للإيمان والجنة وزناً، فلا يناسب أن يقال له: ستكون مؤمناً، وستدخل الجنة، لأن نفسيه ــ يومئذ ــ كانت نفسا دنيوية، وقصده من اتباع النبي ﷺ كان قصداً مادياً محضا، فناسب أن يَعِدَهُ الرسول ﷺ بالمادة (سواري كسرى) التي هي مقصده الأول وقتئذ، ومعلوم عند سراقة أمانة رسول الله وصدقه.. وأنه إذا وعد وفى.

وأما عمر ــ رضي الله عنه ــ فقد كان صاحب نفس مؤمنة لا تقيم للدنيا وزناً، أمام رضا الله تعالى وجنته، فناسب أن يخاطب نفس عمر بما يناسبها، فقال له:(أما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة)

الأحوال:

قلت: وعيت ما ذكرته في الخانة الثالثة.. فما (الأحوال) التي وضعتها في الخانة الرابعة؟

قال: كما أن البشر يختلفون في طباعهم التي طبعوا عليها، ويختلفون في قدراتهم، ويختلفون في توجهاتهم، يختلفون كذلك ــ وبشكل كبير ــ في الأحوال التي تمر بهم .. فقد ينتقل الإنسان من الثراء الفاحش إلى الفقر المدقع .. وقد ينتقل من الصحة والعافية إلى المرض والبلاء .. وليس من الحكمة أن يخاطب في جميع الأحوال بأسلوب واحد، وبمعاني واحدة ..

ليس من الحكمة إذا كان ثمة زلزال، أو حريق .. وحصل هلع، ووقع هرع، وتكشفت النساء، واختلطن بالرجال، أن يعاب عليهن، وهن لم يقصدن ذلك، أو يقف الداعية ــ وقتئذ ــ ليعظهن في حلال وحرام.

ومثل ذلك ما لو كان المسلمون في بلد تحت الاضطهاد، فليس من الحكمة أن يخاطبهم بما يخاطب به أهل البلاد الآمنة ..

الناس خواتيم، ثم إنه جلس على المنبر فنزعه فقال:(إني كنت ألبس هذا الخاتم وأجعل فصه من داخل)، فرمى به وقال :(والله لا ألبسه أبدا) فنبذ الناس خواتيمهم (رواه البخاري ومسلم)، فنسخ حكم إباحة لبسه للرجال وحرم عليهم إلا عند الضرورة والعلاج.

(١) رواه البخاري ومسلم.

قلت: ما ذكرته صحيح .. وهو عين الحكمة .. ولكن هل ورد في النصوص المقدسة ما يدل على مراعاة هذا؟

قال: جاهل أنا إن حكمت عقلي .. وهربت من النصوص المقدسة .. إن الغنى كل الغني في النصوص المقدسة ..

ففي مراعاة هذه الناحية ورد قوله تعالى ــ مثلا ــ :﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً) (النساء:٩٧)

انظر .. إن هذه الآية تحوي عتابا شديدا على هؤلاء المستضعفين باعتبار أنهم أطاقوا الهجرة، لكنهم لم يفعلوا .. بينما الآية التالية تستثني أصحاب الظروف الخاصة الذين قعدت بهم ظروفهم عن الهجرة، قال تعالى :﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً) (النساء:٩٨)

وقد كان ﷺ يراعي هذه الناحية .. والأمثلة كثيرة على ذلك ..

من ذلك مثلا أن أبا ذر ــ رضي الله عنه ــ لما أسلم أمره رسول الله ﷺ أن يرجع إلى قومه قائلا له:(ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري)[1]، فالنبي ﷺ في هذا الحديث أمره أن يمكث في أهله، ولا يهاجر حتى ينتصر الرسول ﷺ ويتمكّن في الأرض.

قلت: كيف ذلك مع أن الهجرة كانت فرضا .. وقد قال تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (لأنفال:٧٢)

قال: لأن ظروف أبي ذر ــ رضي الله عنه ــ كانت تختلف اختلافا كبيرا عن ظروف سائر الصحابة .. فلم يكن أبو ذر من أهل مكة، و لم يكن له ناصر منهم، فيؤذونه أذى كبيرًا، فلذلك طلب منه رسول الله ﷺ ذلك.

قلت: وعيت هذا .. فاذكر لي أمثلة أخرى ..

قال: من ذلك ــ مثلا ــ أن رسول الله ﷺ مر بامرأة تبكي على ولدها، فقال:(اتقي الله واصبري)، فقالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، و لم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بَوَّابين، فقالت: لم أعرفك، فقال:(إنما الصبر عند الصدمة الأولى)[2]

انظر .. لا شك أن كلمتها (إليكَ عني) كلمة كبيرة على أحدنا، فكيف إذا قيلت لرسول الله ﷺ .. ولكن النبي ﷺ حكيم الحكماء، أدرك ما كانت المرأة عليه من حالة خاصة، فضلاً عن أنها لم تعرفه .. فاكتفى بأن أعرض عنها، بل أعرض عن تعليمها، لأنها في حال لا يُمَكّنها من القبول والفهم، فلما جاءته وكانت في

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

نفسية غير نفسيتها الأولى، أقبل عليها الرسول ﷺ يعظها ويعلمها ولا يعاتبها.

ومثل ذلك لما نزلت الآيات بتبرئة عائشة ــ رضي الله عنها ــ في حادثة الإفك، قالت لها أمها: قومي فاحمدي رسول الله ﷺ، فقالت:(لا والله؛ لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل)[1]

لا شك أن هذا القول لا يتناسب، ومقام الرسول ﷺ .. ولكن النبي ﷺ سيد الحكماء أدرك حالها الخاصة، فلم يجد في نفسه عليها، بل لم يعاتبها مجرد عتاب على هذا التصرف.

ومثل ذلك ما روي أن شابا جاء إلى النبي ﷺ فقال: ائذن لي بالزنى، فأقبل القوم عليه، فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: ادنه فدنا منه قريباً، قال: فجلس، قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم قال أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهِّر قلبه، وحَصِّن فَرْجَه قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[2].

انظر كيف أدرك رسول الله ﷺ حالته الخاصة، فلقد كان يتصارع في نفس الشاب شهوة عارمة، وإيمان صادق، و لم ير الشاب ــ وقتئذ ــ حلاً لهذا الصراع، وَفَضَّاً لهذا التراع.. إلا إذناً مؤقتاً من النبي ﷺ يتجاوز به حدود الشرع مؤقتا.. ثم يرجع إلى الشرع.

فتَقَدَّم إلى النبي ﷺ ليستأذنه بالزنى بكل صراحة، وأدرك النبي ﷺ حال الشاب، فلم يتوجه إليه بموعظة إيمانية، فضلاً عن أن يُعنِّفه أو يُوَبِّخه أو يطرده، لأن الشاب كان ممتلئاً إيماناً، ولولا ذلك لزنى دون إذن النبي ﷺ وعلمه، وما دفعه إلى الاستئذان إلا الإيمان. فراح النبي ﷺ يُذَكِّرُهُ بما في هذا العمل من مفسدة أخلاقية عظيمة.. تستبشعها الفطر السليمة، وتستقبحها النفوس العفيفة.. إذ أن المسألة ليست مسألة حرام فحسب... بل فيها مفاسد أخرى، فكأن النبي ﷺ يقول له: إذا استأذنت لك من الله... فكيف نحصل على الإذن من آباء المزني بهن، وإخوانهن، وأعمامهن، وأخوالهن.. وإذا أذنت لك بالزنى بقريبات هؤلاء.. فهل ترضى أن آذن لهم فيزنوا بقريباتك...

ولما بدأ الشاب يشعر أن لا مجال للإذن، ولا سماح بالإثم.. سارع رسول الله ﷺ إلى تثبيته بدعاء، يثلج الصدور.. ويطمئن القلوب.. ويهدئ الأنفس (اللهم اغفر ذنبه.. وطَهِّر قلبه.. وحَصِّن فَرْجَه)

قلت: ألا ترى أن قوله ﷺ :(أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود)[3] مما يمكن أن يدخل هذا الباب؟

قال: بورك فيك .. أجل .. فهذ الحديث يدل على أنه إذا سقط من عُرِفَ عنه التُّقى، أو الوجاهة، في زلة أن يُعفى عنه، ويُغض الطرف عن زلته .. قال الشافعي:(وذوو الهيئات الذين يقالون في عثراتهم: هم الذين ليسوا

---

(١) انظر قصة حادثة الإفك عند البخاري .
(٢) رواه أحمد واللفظ له، والطبراني في الكبير وفي مسند الشاميين.
(٣) رواه أبو داود وأحمد والبيهقي في السنن.

يُعرفون بالشر، فيزل أحدهم الزلة)[1]

قلت: لقد ذكرتني بما ورد من إكرام رسول الله ﷺ عدي بن حاتم الطائي ــ رضي الله عنه ــ لما قدم إليه .. فقد قدم له وسادة إكراماً له، فهو ابن كريم مشهور[2].

وذكرتني بما ورد من النهي عن مناصحة السلطان علنا[3]، كما ورد في الحديث :(من أراد أن ينصح لذي سلطان بأمر فلا يُبْدِ له علانية، ولكن ليأخذ بيده فيخلو به، فإن قبل منه، فذاك، وإلا كان قد أدى الذي عليه له)[4]

قال: الأمثلة في هذا أكثر من أن تنحصر .. وقد أشار إلى قاعدتها وقاعدة هذا الباب جميعا قوله ﷺ :(أنزلوا الناس منازلهم)[5]

الحاجات:

قلت: وعيت ما ذكرته في الخانة الرابعة.. فما (الحاجات) التي وضعتها في الخانة الخامسة؟

قال: كما أن البشر يختلفون في طباعهم التي طبعوا عليها، ويختلفون في قدراتهم، ويختلفون في توجهاتهم، ويختلفون في أحوالهم، يختلفون كذلك في الحاجات التي تعرض لهم ..

وليس من الحكمة أن يتجاهل الحكيم تلك الحاجات أثناء خطابه لهم ..

قلت: ما هذه الحاجات؟

قال: الحاجات كثيرة .. فقد يكون المخاطب مريضا يحتاج إلى العلاج .. وقد يكون جائعا محتاجا إلى طعام .. وقد يكون ظمآن .. وهكذا ..

لقد خرج رسول الله ﷺ مرة، فإذا بأبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ في الطريق، وقد خرّ على وجهه من الجَهْد والجوع، فقال له: يا أبا هر فقال: لبيك رسول الله وسعديك، فأخذ بيده فأقامه. وعرف الذي به، فانطلق به إلى رحله، فأمر لي بعُسّ من لبن، فشرب منه، ثم قال: (عد فاشرب يا أبا هريرة)[6]

انظر .. لقد تَفَطّن رسول الله ﷺ إلى حال أبي هريرة، وعدم تجاهل حاجته... ولذلك تعامل معه وفق ما تطلبته هذه الحاجة.

قلت: لقد ذكرتني بما ورد في الحديث أن أحد الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ أتى زوجته في رمضان، فسأل النبي ﷺ عن ذلك، فقال له: هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا.. قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين..؟ قال: لا.. فقال: فهل تجد إطعام ستين مسكينا؟ قال: لا.. قال الراوي: فمكث النبي ﷺ، فبينا نحن

---

(١) ذكره في السنن الكبرى للبيهقي.

(٢) رواه الترمذي وأحمد.

(٣) وهذا منضبط بضوابط كثيرة ليس هنا محل ذكرها.

(٤) رواه أحمد والطبراني في الكبير والحاكم.

(٥) ذكره مسلم في المقدمة (١/١٧٠) فقال: وقد ذكر عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أنها قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم، ورواه أبو داود.

(٦) رواه البخاري.

على ذلك أتي النبي ﷺ بعَرَق فيها تمر، فقال: أين السائل؟ فقال: أنا، قال: خذها فتصدق به، فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها، ــ يريد الحرتين ــ أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه.. ثم قال: (أطعمه أهلك)[1]

انظر تقديره ﷺ لظروف المدعوين .. لقد انقلب الذنب بالنسبة لهذا الرجل ــ لصدقه ولحاله ــ نعمةً.

قال: أجل .. ومثل ذلك أن رسول الله ﷺ لما أدرك حاجة بعض أصحابه إلى الزواج نصحه به، بل ساعده عليه، فعن ربيعة بن كعب الأسلمي ــ رضي الله عنه ــ قال: كنت أخدم النبي ﷺ فقال يوما : يا ربيعة ! ألا تتزوج ؟ فقلت والله يا رسول الله لخدمتك أحب إلي! ثم أعاد علي بعد مرة أخرى، فقلت مثل ذلك فقلت : والله لرسول الله ﷺ أعلم بما يصلحني مني ! فلئن قال لي مرة فلأقولن : بلى يا رسول الله، فقال لي : يا ربيعة ! ألا تتزوج ؟ قلت : بلى يا رسول الله ! قال: إيت فلانا ــ لرجل من الأنصار ــ فليزوجوك ابنتهم فلانة، فأتيتهم فقلت : إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تزوجوني، فقالوا : مرحبا برسول رسول الله ﷺ! لا يذهب رسول رسول الله ﷺ إلا بحاجته، فزوجوني ولم يسألوني بينة، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا كئيب، فقال : ما لك يا ربيعة ؟ قلت: يا رسول الله ! أتيت قوما كراما، فزوجوني ولم يسألوني بينة وليس عندي ما أصدق، فقال رسول الله ﷺ: اجمعوا له وزن نواة من ذهب، فجمعوا لي وزن نواتين من ذهب فأتيتهم به، فقبلوا وقالوا : كثير طيب، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا كئيب، فقال : ما لك يا ربيعة ! فقلت: يا رسول الله! أتيت قوما كراما فقبلوا وقالوا : كثير طيب، وليس عندي ما أولم، فقال : اجمعوا له في ثمن كبش، فجمعوا لي في ثمن كبش، وأرسل رسول الله ﷺ إلى أهله، فأتى بمكتل فيه شعير فأتيتهم به، فقالوا: أما الكبش فاكفوناه أنتم، وأما الشعير فنحن نكفيكموه، ففعلوا ذلك، وأصبحت فدعوت رسول الله ﷺ وأصحابه[2].

قلت: ومثل ذلك أن النبي ﷺ كان ينصح بزواج البكر .. ولكن لما أتاه من يحتاج إلا الزواج من الثيب أقره عليه .. فعن جابر ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ قال له :(هل نكحت؟) قلت : نعم ، قال : (أبكرا أم ثيبا؟) قلت : ثيب ، قال: (فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك)[3]، قلت : يا رسول الله قتل أبي يوم أحد وترك تسع بنات، فكرهت أن أجمع إليهن خرقاء مثلهن، ولكن امرأة تمشطهن وتقوم عليهن، قال: (أصبت)[4]

قال: ومثل ذلك أن النبي ﷺ كان يأمر الأئمة أن يخففوا من الصلاة، معللاً ذلك بقوله :(أيها الناس إنكم منفرون، فمن صلّى بالناس فليخفف، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة)[5]

قلت: لقد فهمت .. إن النبي ﷺ في كل هذه الأحاديث يراعي الحاجات المختلفة، ويتعامل مع أصحابه على أساسها.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد والحاكم والطبراني في الكبير.

(٣) هذه النصيحة النبوية العظيمة لا ترتبط فقط بميل الرجل في العادة إلى البكر أو الصغيرة، وإنما ترتبط بالقضاء على العنوسة، وما تسببه من أضرار اجتماعية .. زيادة على أن الثيب عادة يكون لها من الأولاد ما يشغلها عن الاهتمام بالزواج.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) رواه البخاري ومسلم.

قال: صدقت .. فغنى الفقير، وزواجَ الأعزب، وشِبَعَ الجائع، مطلبٌ عظيم، وحاجة ملحةٌ، لا ينبغي للحكيم الداعية إلى الله أن يغفل عنها.

الأعراف:

قلت: وعيت ما ذكرته في الخانة الخامسة.. فما (الأعراف) التي وضعتها في الخانة السادسة؟

قال: كما أن البشر يختلفون في طباعهم التي طبعوا عليها، ويختلفون في قدراتهم، ويختلفون في توجهاتهم، ويختلفون في أحوالهم، ويختلفون في الحاجات التي تعرض لهم، يختلفون كذلك في الأعراف التي تؤمن بها البيئات التي نشأوا فيها .. بل تذعن لها.

وليس من الحكمة أن يتجاهل الحكيم تلك الأعراف أثناء خطابه لهم ..

قلت: ولكن الأعراف قد تكون أعراف سوء .. والداعية إلى الله السائر على قدم رسول الله ﷺ مكلف بتطهير البيئات منها لا بإقرارها ..

قال: لقد وضعت في هذه الخانة ثلاثة أنواع من الأعراف .. وكلها مما يحتاج الحكيم للتعرف عليه، ومعاملة المخاطبين على أساسه.

قلت: فما النوع الأول؟

قال: ما ذكرت من العادات السيئة والأعراف القبيحة ..

قلت: فما العمل مع هذا النوع من الأعراف .. هل يقرهم الحكيم عليه؟

قال: لا .. الحكيم لا يقر حراما ..

قلت: إذن هو يسعى لتغييره.

قال: بما تقتضيه الحكمة .. لا بما يقتضيه الطيش.

قلت: فما الفرق بينهما؟

قال: الحكيم يتعامل مع مثل هذه الأدواء مثلما يتعامل الجراح الماهر مع ما يريد استئصاله من الأدواء .. فهو يتلمس لذلك كل سبل الحكمة .. بينما الطائش لا يبالي بما يفعل، وقد يقتل المريض بطيشه.

قلت: فهل يمكن أن تضرب لي أمثلة عن هذا النوع من الأعراف؟

قال: إن في بلادنا أعرافا كثيرة متوارثة .. ولها تحكم في الكثير من الناس .. لعلها من بقايا الوثنية .. و لم أر من الحكمة أن نستعجل بالإنكار عليها .. بل رأيت أن الأولى هو تقديم القناعات الكافية التي تجعل أصحاب هذا النوع من الأعراف يقلعون عنها من غير شعور.

قلت: أليس السكوت عن البيان وقت الحاجة لا يجوز؟

قال: لكل حاجة وقتها ومرتبتها .. ولا يصح أن نخترق المراحل .. أو نبدل الأوقات ..

قلت: فهل لذلك دليل من السنة؟

قال: أدلة ذلك لا تحصى .. لقد جاء النبي ﷺ إلى بيئة كانت ممتلئة بالعادات القبيحة .. أخبرني كيف كانت عقود الزواج في تلك البيئة التي جاءها النبي ﷺ؟

قلت: لقد كانت عقود الزواج فيها أكثرها عقود سفاح .. فقد ورد أن الزواج كان عندهم على أنواع[1]: منها نكاح الاستبضاع، وهو أن يعجب الرجل نجابة رجل آخر ونبله وتقدمه فيأمر من تكون له من حرة أو أمة أن تبيح نفسها له، فإذا حملت منه رجع هو إلى وطئها حرصا على نجابة الولد .. ومنها أن تكون المرأة لا زوج لها، فيعاشرها الجماعة من الرجال منفردين أو مجتمعين، فإذا استمر بها حمل دعتهم، وقالت لأحدهم: هذا منك، فيلزمه ذلك ويلحق به ولا يمكنه الامتناع منه .. ومنها زواج البغايا، اللاتي كن يجعلن الرايات على مواضعهن فمن رأى تلك الراية علم أنه موضع بغي فيتكرر عليها بذلك من شاء الله من الناس حتى إذا استمر بها حملها قالت لبعضهم : هو منك ، فيلحق به .. ومنها ــ بعد ذلك ــ الزواج الصحيح الذي أقره الإسلام.

وكان من عادات بعض العرب في الجاهلية ــ والتي وردت به الروايات الكثيرة في أسباب النزول ــ أنه إذا مات الرجل منهم فأولياؤه أحق بامرأته، يرثونها كما يرثون البهائم والمتروكات إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها وأخذوا مهرها، وإن شاءوا عضلوها وأمسكوها في البيت دون تزويج، حتى تفتدي نفسها بشيء .

وكان بعضهم إذا توفي عن المرأة زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبه، فمنعها من الناس، وحازها كما يحوز السلب والغنيمة، فإن كانت جميلة تزوجها ؛ وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها، أو تفتدي نفسها منه بمال، فأما إذا فاتته فانطلقت إلى بيت أهلها قبل أن يدركها فيلقي عليها ثوبه، فقد نجت وتحررت وحمت نفسها منه!

وكان بعضهم يطلق المرأة، ويشترط عليها ألا تنكح إلا من أراد ؛ حتى تفتدي نفسها منه، بما كان أعطاها كله أو بعضه.

وكانت المرأة في الجاهلية إذا مات زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبا فإن كان له ابن صغير أو أخ حبسها حتى تشيب أو تموت فيرثها وإن هي انفلتت فأتت أهلها قبل أن يلقى عليها ثوبا نجت.

وكان الرجل منهم تكون عنده عجوز ونفسه تتوق إلى الشابة فيكره فراق العجوز لما لها فيمسكها ولا يقربها حتى تفتدى منه بمالها أو تموت فيرث مالها.

وكان الرجل منهم تكون اليتيمة في حجره يلي أمرها، فيحبسها عن الزواج، حتى يكبر ابنه الصغير ليتزوجها، ويأخذ مالها[2].

قال: فهل رأيت النبي ﷺ من خلال ما ورد في السيرة .. أو من خلال ما ورد في القرآن المكي يتحدث عن هذه القضايا، ويركز عليها، ويجعلها محط اهتمامه؟

قلت: لا .. ولولا أن المحدثين ذكروها في أسباب نزول بعض آيات المدنية ما عرفنا ذلك.

قال: لقد كان النبي ﷺ حكيما في تعامله مع البيئة التي كلف بإصلاحها .. لقد بدأ بالمحرك الذي يتحرك من خلاله كل سلوك إنساني، فأصلحه .. فلما أصلحه صلح الإنسان جميعا ..

---

(١) رواه البخاري وغيره.

(٢) رواه البخاري وغيره.

قلت: فما النوع الثاني؟

قال: على عكس هذا .. عادات طيبة متوارثة .. كالكرم والمروءة، وإغاثة الملهوف، والتعاون في حاجات المجتمع، وما شابه ذلك.

قلت: لقد كفى هؤلاء شرهم .. فما حاجتهم للحكيم؟

قال: الحكيم هو الذي يعتني ببذور الخير الموجودة في هذه النفوس والمجتمعات ليخرج منها الثمار اليانعة الطيبة.

قلت: فهل ورد في النصوص المقدسة ما يشير إلى هذه ؟

قال: أجل .. فنحن بحمد الله لا نستقي إلا من بحار النصوص المقدسة.

قلت: فاذكر لي أمثلة على ذلك.

قال: من أمثلة ذلك أن القرآن الكريم أثنى على بعض العادات الطيبة عند أهل الكتاب، فقال ــ مثلا ــ :﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:٧٥) .. فهذه الآية تثني على الوفاء عند بعض من أهل الكتاب .. و لم يمنع كفرهم من الثناء عليهم.

قلت: وعيت هذا .. فهل ورد في السنة ما يشير إليه؟

قال: لقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ أثنى على بعض أفعال الجاهلية، ومن ذلك ثناؤه على التحالف الذي كانوا يفعلونه على عمل الصالحات، كحلف المطيَّبين[1]، وحلف الفَضول[2]، فقال ﷺ :(شهدت حلف المطيَّبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حُمْرَ النَّعَمِ، وأني أنكثه)[3]

قلت: فما النوع الثالث؟

قال: بين هذا وذاك .. عادات سكت عنها الشرع، فلم يحرمها و لم يوجبها .. وقد ترك الشرع هذه المساحة عفوا ..

قلت: مثل ماذا؟

قال: مثل ما اعتاده الناس في أطعمتهم وألبستهم وولائمهم وأفراحهم، وأدويتهم، وطرق بنائهم، وما شابه ذلك ..

قلت: وما حاجة الحكيم لهذا؟

قال: ألا تعرف المثل الذي يقول (إذا كنت في قوم فاحلب في إنائهم)؟

قلت: بلى .. أعرفه ..

---

(١)حلف المطيبين: وهو حلف عقد في أيام الجاهلية، وسمّي بهذا لأن المتحالفين طيّبوا الكعبة، وطيّبوا بعضهم، السيرة لابن هشام (١٥٠/١)

(٢)الفضول: هو حلف عقد في الجاهلية، وقيل: سمّي بذلك لأن معظم المتحالفين كانت أسماؤهم (الفضل) السيرة لابن هشام (١٥٣/١)

(٣) رواه أحمد والبيهقي في السنن الكبرى وصححه الحاكم ووافقه الذهبي..

قال: فالحكيم هو الذي يطبقه مع مخاطبيه .. فهو يراعي أعرافهم ويحترمها ليكون ذلك سببا في إقبالهم عليه، وانفعالهم له.

قلت: فهل لذلك أمثلة؟

قال: بل ترك النبي ﷺ لذلك قاعدة لها تحكم في كثير من فروع الأحكام .. لقد قال ﷺ في هذا: (أنتم أعلم بأمر دنياكم)[1]

(١)رواه مسلم.

٢ ـــ مراتب الخطاب

وضعت الدفتر الأول في محله، ثم فتحت الدفتر الثاني، وكان عنوانه (مراتب الخطاب) .. وقد زين غلافه بقوله تعالى:﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (البقرة:١٧٧)،وتحتها قوله تعالى :﴿ يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (البقرة:١٨٩)

قلت: أهذا الدفتر ـــ مثل الذي سبقه ـــ وضعته لأسماء من تريد أن تخاطبهم؟

قال: لا .. لقد وضعت في هذا الدفتر المعاني التي أريد أن أخاطب بها من أرى نفسي ملزما بدعوتهم إلى الله.

قلت: الدعوة تشمل الإسلام جميعا بجميع ما ورد فيه من تفاصيل ..

قال: والحكيم هو الذي يضع تفاصيل أحكام الإسلام في مراتبها الصحيحة .. فلا يتجاوز مرتبة قبل أن يحكم التي قبلها.

قلت: لم أفهم.

قال: بم وصى رسول الله ﷺ معاذا حين بعثه إلى اليمن؟

قلت: لقد قال له:(إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم)[1]

قال: ألا ترى كيف رتب ﷺ المواضيع التي أراد من معاذا أن يدعو إليها؟

قلت: ذلك صحيح ..

قال: أرأيت لو أن معاذا خلط هذا الترتيب .. فبدأ بالزكاة .. كيف سيتصوره الناس حينها؟

قلت: سيرونه جابيا أو لصا.

قال: فلهذا أمره رسول الله ﷺ أن يعمق الإيمان في قلوبهم أولا، فإن هم آمنوا أمرهم بالصلاة التي هي عبادة محضة .. فإن هم فعلوا، وزينت قلوبهم بحلاوة العبادة أمرهم حينها بالزكاة والصدقات.

قلت: نعم .. هذا ما تقتضيه الحكمة .. وأحفظ في هذا حديثا آخر قريب مما ذكرته، وهو ما حدث به بريدة ـــ رضي الله عنه ـــ قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال:(اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً، فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله تعالى الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم من الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، وإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله تعالى عليهم وقاتلهم ..)[1]

قال: إن حياة النبي ﷺ كلها كانت مخططة بهذه الطريقة .. فلم يكن ﷺ يتحرك حركة إلا بحسب ما يمليه عليه ظرفها.

الإيمان:

فتحت الدفتر، وكان أول عبارة قابلتني فيه (الإيمان قبل العمل)، فسألته عنها، فقال: لقد تأملت ما ورد في النصوص حول مرتبتي الإيمان والعمل .. فوجدتها جميعا تنص على تقديم الإيمان على العمل .. فالله تعالى يقول ــ مثلا ــ :﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾ (النساء:٣٩) .. فقد قدم الله في هذه الآية الإيمان على النفقات ..

قلت: أحفظ من ذلك الكثير .. فقد قدم الله تعالى الإيمان على الجهاد في قوله تعالى:﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (التوبة:٨٦)، وقوله تعالى :﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات:١٥)

وقدمه على أدب الاستئذان في قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور:٦٢)

وقدمه على النفقات في قوله تعالى :﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الحديد:٧)

قال: وهكذا .. لقد وجدت القرآن في كل المناسبات يرتب الإيمان قبل العمل، فهو يخاطب المؤمنين بالتكاليف بحسب ما عندهم من الإيمان، فيقول ــ مثلا ــ :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٨٣)، ويقول :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة:٢٠٨)، ويقول :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة:٢٥٤)

فهذا النداء المرتبط بالإيمان كأنه يقول للمخاطبين: ما دمتم قد تحققتم بالإيمان، وامتلأتم به، فإن ذلك يفرض عليكم أن تلتزموا بالسلوك الذي يقتضيه الإيمان.

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

وهكذا في تعليل أسباب دخول الكفار إلى جهنم، فقد قيد الإيمان على العمل، فقال تعالى:﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤)(الحاقة)

قلت: صدقت .. بل إن القرآن يحدد الإيمان كشرط لإمكانية التحقق بالعمل، كما قال تعالى ــ مثلا ــ :﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) (البقرة:٢٣٢) .. فكأن الله تعالى يقول في هذه الآية: إن من لم يؤمن بالله واليوم الآخر فإنه لن يتأثر بموعظة، ولن يستجيب لطلب .. ويكون حاله في ذلك كحال الكافرين في قولهم لأنبيائهم :﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الْوَاعِظِينَ)(الشعراء: ١٣٦)

ومثل ذلك ما ورد في السنة كقوله ﷺ :(من كان يؤمن باله واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليسكت)[١]، وقوله ﷺ :(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليسكت)[٢]، وقوله ﷺ :(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً، أو ليصمت)[٣]

فقد اعتبر ﷺ في هذه الأحاديث الإيمان بالله واليوم الآخر هو الأساس الذي تنبني عليه تلك المكارم التي حض عليها.

قال: ولهذا .. فإن النبي ﷺ مكث في قومه ثلاث عشرة سنة، يدعوهم إلى الإيمان، ويُربِّيهم عليه، دون أن يتعرض لمعظم الأحكام، أو ينهى عن معظم المحرمات .. مع أنه كان من أصحابه في ذلك الوقت من يمارس ما عُدّ بعد ذلك من الكبائر، كالخمر، والميسر وما شابه ذلك، و لم ينههم عنها ﷺ.

لقد حدث أبو أمامة قال: قلت لعمرو بن عبسة: بأي شئ تدعي أنك ربع الإسلام ؟ قال: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على غير شئ، وأنهم ليسوا بشئ وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارا، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيا جراء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له: ما أنت ؟ قال: نبي، قلت: وما نبي ؟ قال: أرسلني الله، قلت: بأي شئ أرسلك ؟ قال: أرسلني بصلة الرحم وكسر الأوثان وأن يوحد الله لا يشرك به، فقلت: من معك على هذا ؟ قال: حر وعبد، قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال[٤].

قلت: أجل .. فمن المشهور أن الخمر لم ينزل تحريمها إلا بعد ثلاث سنوات خَلَوْنَ من هجرته ﷺ إلى المدينة.

قال: ولذلك كان لذلك النهي تأثيره الكبير الذي لم يكن ليحدث لو لم تفرش تلك الأرضية الصحيحة

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه مسلم بهذا اللفظ، وروى البخاري بعضه.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) رواه البخاري ومسلم.

من الإيمان ..

قلت: لقد ذكر أنس ــ رضي الله عنه ــ تأثير ذلك النهي في الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ فقال: كان لنا خمر غير فَضِيخِكُم هذا الذي تسمونه الفَضِيخ[1]، فإني لقائم أسقي أبا طلحة وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وماذاك؟ قال: حرمت الخمر، قالوا: أهرق هذه القلاس يا أنس، قال: فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل[2].

قال: وهكذا استقبل النساء الأمر بالحجاب ..

قلت: أجل .. لقد حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأُوَل لما أنزل الله :﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنّ عَلَىَ جُيُوبِهِنّ)(النور: ٣١)، شققن مُرُوطَهُنَّ[3] فاختمرن بها)[4]

قال: ذكرتني بعائشة ــ رضي الله عنها ــ لقد كانت فقيهة من فقهاء هذا الباب، كما كانت فقيهة في غيره .. لقد قالت: إنما نزل أول مانزل منه (أي القرآن) سورة من الُمفصَّل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب :﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) (القمر:٤٦)، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده[5].

قلت: ومثلها في هذا الفقه ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ فإنه لما رأى إعراض الناس عن الأحكام، وعدم العمل بالقرآن ــ رغم حفظهم له ــ علَّلَ ذلك بمخالفة هذه القاعدة، وأن الأحكام سبقت عند هؤلاء الإيمان، فلم يعملوا بالأحكام حق العمل، فقال رضي الله عنه:(لقد عشنا بُرْهةً من دهرنا، وأحدُنا يُؤتى الإيمان قبل القرآن، فتترل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها، وآمِرَهَا وزَاجرَها، وما ينبغي أن يقف عنده منها كما تَعَلَّمُونَ أنتم اليوم القرآن، ثم لقد رأيت اليوم رجالاً يُؤتى أحدُهُم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحتِهِ إلى خاتمتِهِ، ما يَدْرِي ما آمِرُه ولا زاجرُه، ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه، فينثُرُه نَثْرَ الدَّقَلِ)[6]

قال: أتدري ما الثمرة التي ينالها من قدم الدعوة إلى العمل على الإيمان؟

قلت: هو لن ينال أي ثمرة .. فيستحيل على من لم يؤمن أن يخضع للتكاليف.

قال: الأصل هو ما قلت .. ولكنه بنوع من الهمة والاجتهاد قد ينال بعض الثمار .. ولكنها ثمار مرة سامة .. لقد عبر الله عن تلك الثمار، فقال :﴿ إِنّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوَاْ إِلَى الصّلاَةِ قَامُواْ كُسالَىَ يُرَآءُونَ النّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاّ قَلِيلاً مّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَىَ هـَـؤُلآءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلآءِ وَمَن يُضْلِلِ

---

(١) الفضيخ: شراب يتخد من البسر (التمر قبل أن يصبح رطباً ويسمى بلحاً) وحده من غير أن تمسه النار. انظر لسان العرب(٣/٤٥)

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) المرط: هو كساء للمرأة يصنع من صوف أو غيره، النهاية (٣/٣١٩)

(٤) رواه البخاري.

(٥) رواه البخاري.

(٦) رواه البيهقي وابن عساكر والحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علة، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي.

اللّهُ فَلَن تَجدَ لَهُ سَبِيلاً)(النساء: ١٤٢-١٤٣)

قلت: تقصد النفاق؟

قال: هكذا سماه القرآن .. فالمنافق هو الذي يتحرك بالحركات الظاهرة .. ولكن باطنه المقصود بتلك الحركات خاو منها .. ولهذا ذكر الله تعالى أنهم يقومون كسالى لأداء أوامر ربهم، ثم هم لا يقصدون بأدائها إلا الرياء والسمعة.

قلت: فهمت سر الرياء .. فما سر الكسل؟

قال: أرأيت لو أن الكسول النائم المستحلي لنومه عرض في السرير الذي ينام عليه حريق.. هل تراه يبقى نائما، أم تراه يسرع فارا بنشاط وحيوية؟

قلت: بل أراه يسرع فارا بنشاط وحيوية.

قال: لم؟

قلت: إن ما يراه من نار تريد أن تلتهمه يجعله يطير من غير جناحين.

قال: فإن لم ير النار في تلك الحال، ولكن ثقة أخبره بأن حريقا سيترل بتلك الدار على تلك الساعة التي ينام فيها .. أتراه يظل نائما؟

قلت: لا .. فالأمر في الحالين سواء.

قال: فالإيمان هو الذي جعله يتحرك إذن بذلك النشاط .. فلولا الإيمان ما حدثت حركة جادة في الوجود كله .. لا في عالم الإنسان وحده.

قلت: لقد ذكرتني بقوله تعالى :﴿ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)(البقرة: ٤٥-٤٦)، فالله تعالى يخبرنا ــ في هاتين الآيتين ــ أن أداء الصلاة شاق على الذين لا يؤمنون بها، ولا يخشعون فيها، وذلك لفقدان الإيمان بالعبادة المؤداة.

قال: قارن بين هذا وبين قوله ﷺ :(وجُعلت قرّة عيني في الصلاة)[١]

قلت: وقد كان ﷺ يقول لبلال ــ إذا حان وقت الصلاة ــ:(أرحنا بها يا بلال)[٢]

قال: وفوق هذا كله فإن الدعوة إلى الإيمان قبل الدعوة للأحكام نوع من مضيعة الوقت .. ذلك أن الإيمان شرطٌ لقبول العمل، فلا يصح عمل بلا إيمان، كما قال تعالى :﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ)(الأنبياء: ٩٤)

قلت: ولأجل هذا كان رسول الله ﷺ يذكر بالإيمان في كل مناسبة، كقوله ﷺ:(من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)[٣]، وقوله ــ للرجل الذي قال له: يا رسول الله مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحدا بعدك ــ :(قل آمنت بالله، ثم استقم)[٤]

([١])رواه أحمد والنسائي والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبي.

([٢]) رواه أبو داوود والطبراني في الكبير.

([٣]) رواه البخاري ومسلم.

([٤])رواه النسائي والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح .

لقد أشار القرآن الكريم إلى معنى هذا الحديث، فقال:(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نزلا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)(فصلت : ٣٠ -٣١)

١ ـــ الإلهيات:

رأيت مراتب كثيرة تحت (الإيمان) .. وهي مرتبة بمراتب مختلفة، فقلت: ما هذه المراتب .. أحسب الإيمان شيئا واحدا، فكيف عددت مراتبه؟

قال: في قضايا الإيمان أصول وفروع .. وليس من الحكمة أن أبدأ بالفروع قبل الأصول .. وفي الإيمان متفق عليه ومختلف فيه .. وليس من الحكمة أن أبدأ بالمختلف فيه قبل المتفق عليه.

قلت: ألم تقوله تأصيل شرعي، أم هو مجرد اجتهاد؟

قال: ما كان لعقلي أن يجتهد في أمر خطير كهذا .. إن هذا ما تدل عليه النصوص الصريحة القطعية .. فالله تعالى رتب مراتب الإيمان وأصوله فقال :﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (البقرة: من الآية١٧٧)، وقال :﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥)، وقال :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ (النساء:١٣٦)

وذكر ﷺ الأركان الأساسية للإيمان، فقال :(الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان وتؤمن بالبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره)[١]

قلت: ألهذا وضعت **الإلهيات** قبل النبوات، ووضعت النبوات قبل السمعيات؟

قال: أجل .. فلا يمكن أن ندعو إلى النبوة قبل أن نعرف بالله .. إن تعريف (رسول الله) لا يستقيم إلا بعد التعريف بالله .. والإيمان بالغيبيات لا يستقيم قبل إثبات النبوات.

قلت: الواو في اللغة لا تفيد الترتيب .. فكيف فهمت أنت منها الترتيب؟

قال: أنا أعلم أن كلام الله مفصل تفصيلا عجيبا .. فلذلك لا يقدم ولا يؤخر إلا لغرض.. وقد قال ﷺ مشيرا إلى هذا :(أبدأ بما بدأ الله به)[٢]

بالإضافة إلى أني وجدت أن الدعوة للإيمان بالله وتوحيده هي أساس دعوة الرسل ـــ عليهم السلام ـــ، كما قال تعالى :﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ)(الزخرف:٤٥)، وقال تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)(الانبياء:٢٥)

([١]) رواه النسائي، والطبراني في الكبير.
([٢]) رواه مسلم.

وقد ذكر الله تعالى عن كل من الرسل ــ عليهم السلام ــ أنهم افتتحوا دعوتهم بتوحيد الله، قال تعالى :﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (لأعراف: من الآية٥٩)، وقال تعالى :﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (لأعراف:٦٥)، وقال تعالى :﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (لأعراف: من الآية٧٣)، وقال تعالى :﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (لأعراف: من الآية٨٥)

ولهذا كان التوحيد هو أول ما يُدخل به إلى الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال ﷺ :(من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)[1]

ولهذا كان من سنة رسول الله ﷺ التأذين في أذن المولود، ليكون أول ما يسمعه توحيد الله، وقد كانت أم سليم الرميصاء أم أنس بن مالك خادم الرسول ﷺ ــ ورضي الله عنهم ــ أسلمت وكان أنس صغيراً، لم يفطم بعد، فجعلت تلقن أنساً قل : لا إله إلا الله، قل أشهد أن لا إله إلا الله، ففعل، فيقول لها أبوه : لا تفسدي على ابني فتقول : إني لا أفسده[2].

قلت: أراك وضعت قائمة بأسماء الله الحسنى، ومراتبها ..

قال: أجل .. إن أسماء الله الحسنى هي المعارف التي أذن الله فيها لوسائل إدراكنا البسيطة أن تتعرف بها على كمالات الألوهية، وهي لذلك من الأهمية بحيث لا يمكن مقارنتها بأي معرفة من المعارف الأخرى، لأن كل ما في الكون أثر من آثار أسماء الله.

وهي لذلك أبواب علاقتنا بالله، لأن لكل اسم من أسماء الله دلالته الخاصة التي تتطلب عبوديته الخاصة.

ولهذا أمرنا الله تعالى أن ندعوه بأسمائه الحسنى، مستشفعين بها إليه، ومتوسطين بها لديه، كما قال تعالى :﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (الأعراف: من الآية١٨٠)

قلت: صدقت في هذا .. فالدعاء ــ في أصله ــ مقتضى من مقتضيات المعرفة بالله، فالمعرفة بأسماء الله هي التي تدعو إلى الثقة فيه، وهي التي تدعو إلى سؤاله، وقد أشار ابن عقيل إلى سر الصلة بين الدعاء وأسماء الله الحسنى، فقال:(قد ندب الله تعالى إلى الدعاء، وفي ذلك معانٍ : أحدها : الوجود، فإن من ليس بموجود لا يُدعى، الثاني : الغنى، فإن الفقير لا يُدعى، الثالث : السمع، فإن الأصم لا يُدعى، الرابع : الكرم، فإن البخيل لا يُدعى، الخامس : الرحمة، فإن القاسي لا يُدعى، السادس : القدرة، فإن العاجز لا يُدعى)

قال: وهكذا لو ذهبنا نعد مع ابن عقيل ــ رحمه الله ــ لوجدنا أن أسماء الله تعالى تقتضي رفع أيدينا إليه بالسؤال، بل إفراده في هذا الرفع .. ولهذا نرى امتزاج أدعيته ﷺ بأسماء الله ..

قلت: أجل .. ومما أحفظه من ذلك أن رسول الله ﷺ كان جالسا ورجل يصلي، ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال

---

(1) رواه أحمد وأبو داود والحاكم.

(1) سير أعلام النبلاء ٢/٣٠٥ .

والإكرام، يا حي يا قيوم أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، فقال النبي ﷺ:(لقد دعا الله باسمه العظيم)[1]

وأخبر ﷺ أن دعاء يوشع بن نون الذي دعا به ربه به فحبست له الشمس بإذن الله كان :(اللهم إني أسألك باسمك الزكي الطهر الطاهر المطهر المقدس المبارك المخزون المكنون المكتوب على سرادق المجد وسرادق الحمد وسرادق القدرة وسرادق السلطان وسرادق السر إني أدعوك يا رب بأن لك الحمد لا إله لا أنت النور البار الرحمن الرحيم الصادق عالم الغيب والشهادة بديع السموات والأرض ونورهن وقيمهن ذو الجلال والإكرام حنان منان جبار نور دائم قدوس حي لا يموت)[2]

وقد علم ﷺ من أصابه هم أو حزن أن يقول :(اللهم إني عبدك، ابن عبدك ابن أمتك في قبضتك، ناصيتي بيدك ماض في حكمك، عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب غمي)[3]، ثم بين أثر ذلك في نفسه، فقال :(فما قالها عبد قط إلا أبدله الله بحزنه فرحا)

وعلم رسول الله ﷺ عائشة ــ رضي الله عنها ــ أن تقول إذا وافقت ليلة القدر :(قولى: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى)[4]

قال: إن تأثير الدعوة إلى هذه الأسماء ليس مقتصرا على الدعاء فقط .. بل إن لها تأثيرا تربويا عظيما .. إنها تغير الإنسان كله.

قلت: لقد ذكرتني بقول العز بن عبد السلام :(فهم معاني أسماء الله تعالى وسيلة إلى معاملته بثمراتها من : الخوف، والرجاء، والمهابة، والمحبة، والتوكل، وغير ذلك من ثمرات معرفة الصفات)[5]

ويقول مفصلا أسباب ذلك:(ذكرُ الله بأوصاف الجمال موجب للرحمة، وبأوصاف الكمال موجب للمهابة، وبالتوّحد بالأفعال موجب للتوكل، وبسعة الرحمة موجب للرجاء، وبشدة النقمة موجب للخوف، وبالتفرّد بالإنعام موجب للشكر)

ومثله يبين ابن القيم .. فقد ذكر تأثير أسماء الله الحسنى في كل عبادة من العبادات الظاهرة والباطنة، بل يجعل كل العبادات أثر من آثار المعرفة بأسماء الله الحسنى، فيقول:(لكل صفة عبوديةٌ خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها، أعني : من موجبات العلم بها والتحقيق بمعرفتها، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح)[6]

ثم يذكر الأمثلة الموضحة لذلك، فيقول :(فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضرّ والنفع، والعطاء والمنع،

---

(1) رواه أحمد وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي وابن ماجة وغيرهم.
(2) رواه أبو الشيخ في الثواب وابن عساكر والرافعي – عن أنس وليس في سنده متهم.
(3) رواه ابن السني وابن حبان عن ابن مسعود.
(4) رواه ابن النجار.
(5) شجرة المعارف والأحوال، ص ١ .
(6) مفتاح دار السعادة : ٢/ ٩٠ باختصار، وانظر : طريق الهجرتين، ص ٤٣.

والخلق والرزق، والإحياء والإماتة : يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً، ولوزام التوكل وثمراته ظاهراً، وعلمه بسمعه تعالى وبصره، وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة، وأنه يعلم السر، ويعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور : يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه على كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك: الحياء باطناً، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح، ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء ... وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه، تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة، هي موجباتها .. فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات)

ويبين أثر التعبد بأسماء الله تعالى في الوقاية من الأمراض القلبية، كالحسد، والكبر، اللذين هما منبع كل أمراض القلوب، فيقول :(لو عرف ربّه بصفات الكمال ونعوت الجلال، لم يتكبر ولم يحسد أحداً عى ما آتاه الله ؛ فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله ؛ فإنه يكره نعمة الله على عبده وقد أحبها الله، ويحب زوالها عنه والله يكره ذلك، فهو مضاد لله في قضائه وقدره ومحبته وكراهته)[1]

ويبين أثر التبعد بأسماء الله تعالى وصفاته في الوقوف الصلب أما المحن والبلايا، فيقول :(من صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته علم يقيناً أن المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما كره أعظم منها فيما يحب)[2]، ويقول :(فكل ما تراه في الوجود من شر وألم وعقوبة ونقص في نفسك وفي غيرك فهو من قيام الرب تعالى بالقسط، وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم، فالمسلط له أعدل العادلين، كما قال تعالى لمن أفسد في الأرض :﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ (الاسراء:٥)

وقد اهتم الغزالي في كتابه الجليل (المقصد الأسنى) بالبعد التربوي لأسماء الله الحسنى، فكان يذكر عند نهاية شرح كل اسم حظ العبد السلوكي منه، فهو يعتبر ولكل صفة من صفات الله تعالى أو اسم من أسمائه أثره الخاص به، والذي لا يمكن للإنسان الحصول عليه إذا لم يستولي على قلبه معنى ذلك الاسم او تلك الصفة، وهو معنى الإحصاء الذي ورد في قوله ﷺ :(إن لله تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة)[3]

قلت: لم أرك تذكر في هذا الباب ما يطنب الكثير في الدعوة إليه من ..

قال: دعنا من لغوهم .. فلسنا أعرف بالله من رسول الله ﷺ ..

قلت: ولكنهم يقتبسون ما يذكرونه من رسول الله ﷺ ..

قال: بم أمر الله نبيه ﷺ أن ينبئ عباده؟

قلت: لقد قال له :﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ

---

(1) الفوائد، ص ١٥٠ .

(2) الفوائد، ص ٨٥.

(3) الترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة.

(٥٠)(الحجر)

قال: فهل في أسماء الله الحسنى (ذو الساق .. وذو اليد ..)؟

قلت: لا .. ولا ينبغي أن يسمى الله إلا بما سمى به نفسه .. ولكنهم يعتبرون ذلك صفات ولا يعتبرونه أسماء.

قال: فأين كلمة (صفات الله) في القرآن الكريم أو في سنة رسول الله ﷺ ..

قلت: لا أحفظ نصا في ذلك.

قال: ولا يوجد نص في ذلك .. إن المعرفة التي طولبنا بها هي معرفة الله بأسمائه الحسنى .. أما ما عداها .. فعقولنا أعجز من أن تحيط به أو تدركه .. ولذلك نفوض لله علم ما لا نعلم، ولا نشغل عقول العوام الغارقة في التشبيه في مثله.

٢ ـــ النبوات:

رأيته في المرتبة الكبرى الثانية من مراتب الإيمان يضع **النبوات** .. فسألته عنها، فقال: إن النبوات هي العنصر الثاني من الأركان الأساسية للإيمان، ولذلك امتلأت آيات القرآن الكريم بالثناء عليهم وذكر قصصهم وأحوالهم لتملأ القلوب محبة لهم وإجلالا، وتشحن الطاقات قدوة وسلوكا، فيعيش المؤمن في صحبتهم، ويترفع من خلالها إلى الآفاق العليا من الكمال الإنساني.

قال: ولذلك كان رسول الله ﷺ يحبب الأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ إلى أصحابه، ويقص عليهم قصصهم .. بل يصف لهم أحيانا صورهم لتقريب ما يصفه القرآن الكريم من أحوالهم، قال ﷺ :(رأيت عيسى بن مريم وموسى وإبراهيم فأما عيسى فابيض جعد عريض الصدر وأما موسى فآدم جسيم قالوا فابراهيم قال انظروا إلى صاحبكم)[1]، وقال ﷺ :(رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلا طوالا جعدا كأنه من رجال شنؤة ورأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأي)

قال: لقد كان رسول الله ﷺ يعلم التأثير التربوي العظيم الذي يحمله الإيمان بالأنبياء ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ .. لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا، فقال :﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (الأنعام: من الآية٩٠)

قلت: لقد ظللت دهرا أبحث عن سر هذا .. فالنبي ﷺ في منتهى الكمال، فكيف يؤمر بالاقتداء بالأنبياء ـــ عليهم الصلاة ـــ .. أيؤمر الفاضل بالاقتداء بالمفضول؟

قال: ليس في هذا الباب فاضل ولا مفضول .. فالسلوك الطيب يمثل معناه ولا يمثل شخص من سلكه .. فسلوك الكرم الذي اشتهر به حاتم كان داعية للكرم و لم يكن داعية لحاتم.

قلت: فلم لم يكتف بالأمر بالمعاني، بل رأينا الله تعالى يأمرنا بالاقتداء بمن تلبس بها؟

قال: ذلك يرجع إلى أن المعارف تظل أرواحا مجردة قد لا تجد من يلتفت إليها حتى تجد الأجساد الطاهرة التي تمثلها، فتخرج من عالم المثال إلى عالم الواقع.

([1]) البخاري :٤/٢٢.

وكمثال على ذلك تمثيل الرسل ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ لدور التجرد والإخلاص في التعامل مع الله، وهذا ما تبرهن عليه خطبهم لأقوامهم في القرآن الكريم، والتي يحرص القرآن الكريم على ذكرها وتكرارها لتصبح في محل نظر المقتدي، فلا يتيه بالحوادث عن مواضع القدوة، قال تعالى على ألسنتهم:﴿ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (هود: ٥١)

ولهذا أمر رسول الله ﷺ أن يردد أقوالهم، اقتداء بهم فقال ﷻ:﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (الفرقان:٥٧)

ولهذا كان ﷺ يستحضر مواقف الأنبياء ليعيد إحياءها من جديد، فكان يستحضر في المواقف المختلفة ما حصل لإخوانه من الأنبياء، عن عبد اللّه بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: قسم رسول اللّه ﷺ ذات يوم قسماً فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه اللّه، قال، فقلت: يا عدو اللّه أما لأخبرن رسول اللّه ﷺ بما قلت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ثم قال :(رحمة اللّه على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر)[1]

وفي موقف آخر قال ﷺ :(أقول كما قال أخي يوسف :﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: من الآية٩٢))[2]

وقد استدل ابن عباس ﷺ بهذا على مشروعية سجدة سورة ص، فعن العوام قال: سألت مجاهداً عن سجدة (ص) فقال: سألت ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ من أين سجدت؟ فقال: أوما تقرأ :﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ (الأنعام: من الآية٨٤)، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: من الآية٩٠)؟ فكان داود عليه الصلاة والسلام ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود عليه الصلاة والسلام، فسجدها رسول اللّه ﷺ)[3]

قلت: لقد ذكرتني بقول جميل لابن القيم يدعو فيه إلى الاقتداء بالأنبياء في جدهم في طريق الله، فيقول :(يا مخنث العزم أين أنت، والطريق طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورمى في النار الخليل، وأضجع للذبح اسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد صلى الله عليه وسلم تزها أنت باللهو واللعب)[4]

قال: بورك فيه .. فنعم ما قال.

قلت: إن بعضهم لا يذكر الأنبياء إلا ويذكر معهم من الخطايا ما يندى له الجبين.

قال: أولئك حجب .. فلا تلتفت للحجب ..

قلت: كيف تقول هذا .. وهذا قد ذكر في كتب التفسير والحديث .. بل اعتبر الكلام فيه من الكتاب

---

(1) رواه البخاري ومسلم وأحمد، واللفظ لأحمد.

(2) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب ابن السني في عمل يوم وليلة.

(3) البخاري.

(4) الفوائد.

والسنة.

قال: ذلك دين كعب الأحبار ووهب بن منبه .. لا دين محمد ﷺ .. فمن رغب في دين محمد ﷺ فعليه أن يصفي عقله وقلبه وروحه وسره من كل تأثير غير التأثير الذي دعاه إليه نبيه ﷺ .

٣ ــ الغيبيات:

قلت: أرك وضعت الإيمان **بعوالم الغيب**[1] في المرتبة الأخيرة ..

قال: أجل .. لأنه لا يمكنك أن تدعو للإيمان بالملائكة قبل أن تدعو لله ولرسول الله.

قلت: وعيت أنه لا يمكن الدعوة للملائكة قبل الدعوة لله .. ولكن لم لم يمكن الدعوة للملائكة قبل الدعوة لرسل الله؟

قال: لأنه لولا رسل الله ما عرفنا الملائكة .. إن العلماء يسمون هذا الباب من العقائد (السمعيات) .. ذلك أنه يكتفى فيها بالأدلة المعصومة، ويعزل العقل عن البت فيها بقول أو بدليل إلا دليل الإمكان.

قلت: أجل .. وقد قال تعالى بعد ذكر كثر من الأخبار والقصص :﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران:٤٤)، وقال :﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود:٤٩)، وقال :﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف:١٠٢)، وقال:﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الكهف: من الآية٢٦)

قال: ولهذا الإيمان تأثيره النفسي والتربوي الكبير على الإنسان .. إنه ينقله من عالم البهيمية الذي تلقيه فيه غرائزه وأهواؤه إلى عالم الإنسانية الرفيع ..

قلت: لقد ذكرتني بسيد، فقد قال:(والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس – أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس – وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير . كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض ؛ فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته ؛ ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره

---

(1) عوالم الغيب ــ في أصلها ــ هي العوالم التي خفيت على المؤمن، أو التي لا تستطيع وسائل الإدراك العادية التعرف عليها، أوالتي جاءت النصوص المعصومة بالدلالة عليها، وهي بذلك تشمل كل قضايا الإيمان، كما قال تعالى في وصف المؤمنين:﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة:٣) ، وأخبر أن المؤمنين الصادقين لا يحول بينهم وبين الخوف من الله أو التعامل الإيماني معه كونه غيبا عن حواسهم، كما قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة:٩٤)

ولكن عالم الغيب أو السمعيات ــ كمصطلح ــ قصر على ما لا يمكن الاستدلال عليه بالعقل المجرد، وما كان في نفس الوقت في حيز الإمكان، فتخرج أبواب الألوهية والنبوات لانسجام العقل مع النصوص في الدلالة عليها.

القصير المحدود)[1]

ويرد على المفكرين المعاصرين الذين يتصورون الإيمان بعوالم الغيب نوعا من الهروب عن الواقع، فيقول :(لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة . ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان، كجماعة الماديين في كل زمان، يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقري . . إلى عالم البهيمة الذي لا وجود فيه لغير المحسوس ! ويسمون هذا "تقدمية " وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها، فجعل صفتهم المميزة، صفة: الذين يؤمنون بالغيب والحمد لله على نعمائه، والنكسة للمنتكسين والمرتكسين !)[2]

قال: صدق سيد وبورك فيه .. لقد كان صديقا عزيزا.

قلت: إن بعض الناس يمزجون الحديث بعالم الغيب بقصص هي أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق[3]؟

قال: عالم الغيب هو العالم الذي وردت النصوص المعصومة بالإخبار عنه، أما ما عداه فعالم خرافة.

قلت: ولكن تفاصيله مبثوثة في كتب العقيدة والتفسير والحديث والفقه؟

قال: كتبة تلك الكتب بشر .. يخطئون ويصيبون .. فخذ بصوابهم، واحذر من خطئهم.

قلت: فكيف أميز صوابهم من خطئهم؟

قال: ما جاءك من المعصوم، فهو معصوم .. وما جاءك من غيره، فخذ منه ودع.

قلت: فما آخذ، وما أدع؟

قال: ما دل عليه العقل .. فخذه .. وما لم يدل عليه، فدعه.

قلت: أأقدم عقلي على دين الله.

قال: لقد خلق الله لنا العقول لنميز بها الطيب من الخبيث والحق من الباطل، ولم يخلقها لنا لنودعها سجون الإهمال.

([1]) في ظلال القرآن: ١/٣٩.

([2]) في ظلال القرآن: ١/٤٠.

([3])والأمثلة على دخول الخرافة هذه العوالم الغيبية كثيرة، منها ــ مثلا ــ الخرافات التي نسجت حول الملائكة الموكلين بالعرش ــ عليهم السلام ــ والتي تلبست بلباس الحديث الشريف، فذكرت أنهم (ثمانية أملاك على صورة الأوعال)، وأن (لكل ملك منهم أربعة أوجه وجه رجل ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر وكل وجه منها يسأل الله الرزق لذلك الجنس)، و(أن فوق السماء السابعة ثمانية أو عال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء وفوق ظهورهن العرش)، وأنه أنشد بين يدي النبي ﷺ قول أمية بن أبي الصلت:

رجل وثور تحت رجل يمينه　　والنسر للأخرى وليث مرصد
والشمس تطلع كل آخر ليلة　　حمراء يصبح لونها يتورد
ليست بطالعة لهم في رسلها　　إلا معذبة وإلا تجلد

فقال النبي ﷺ :(صدق)

وقد رويت هذه الأساطير ــ للأسف ــ في كتب التفسير المعتمدة، وهي مما يحرص العامة على مثله، وهي خرافات لا حظ لها من العلم، ولا حظ لراويها وملفقها من الذوق، وقد رد عليها ــ بحمد الله ــ الشيخ محمد زاهد الكوثري، برسالة سماها « فصل المقال في بحث الأوعال) أو (فصل المقال في تمحيص أحدوثة الأوعال)، فذكر المصادر التي أخرجت هذه النصوص وتتبع أقوالهم تمحيصا وتحليلا وانتهى إلى أنّها أقاصيص دخيلة لا أصل لها.

العمل:

بعد أن انتهيت من سرد مراتب الإيمان على الكاندهلوي وشرحها لي .. وجدت مرتبة العمل، فسألته عنها، فقال: إذا باشر الإيمان القلب هان عليك أن تكلفه التكاليف .. بل إن المدعو نفسه هو الذي يرغب إليك في أن تعمله ما كلفه به ربه .. فيؤديه عن طواعية ومحبة.

١ ـــ العبادات:

رأيته وضع في المرتبة الأولى (**العبادات**) .. فسألته عنها، فقال: إن أول ما يبدأ به الداعية إلى الله في تقريب العباد إلى الله هو الدعوة إلى عبادة الله .. فإنه لا يثبت الإيمان في القلوب كالعبادات ..

قلت: والسلوك!؟

قال: كما أن الإيمان يمهد للعبادة .. فإن العبادة تمهد للسلوك .. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك :﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت:٤٥)، وقال :﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة:١٠٣)

وقال ﷺ: (صوم ثلاثة أيام من الشهر تذهب وحر الصدر[١])[٢]

وقال :(الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن، أو تملأ مابين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها)[٣]

قلت: تعلمت أن أبدأ الدعوة للإيمان من الإيمان بالله، فمن أين أبدأ الدعوة للعبادات؟

قال: بم أمرنا رسول الله ﷺ أن نبدأ .. فقد علمنا سيد الحكماء كيف نرتب الأمور في مراتبها، وكيف لا نعدو بها منازلها .. لقد حدث ابن عباس ـــ رضي الله عنه ـــ قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: (إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب)[٤]

وما ذكره ﷺ هو ما تدل عليه النصوص الكثيرة الدالة على أن أول ما بدأ به رسول الله ﷺ تربية أصحابه هو تربيتهم على إقامة الصلاة .. ومن ذلك ما ورد في سورة المزمل ـــ وهي من أوائل ما نزل من القرآن الكريم ـــ من الأمر بالصلاة، ومن الإخبار بحرص رسول الله ﷺ الصحابة عليها، كما قال تعالى :﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ

---

(١) وَحَرَ الصدر: أي تطهير القلب من الدنس، وما يلحقه من الأدران المعنوية من حقد وحسد، وما شابه.

(٢) رواه أحمد والنسائي في السنن وفي الكبرى.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (المزمل:٢٠)

وقد وردت الأحاديث الدالة على ما كان يبذله الصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ من جهد لتحقيق هذا الأمر الإلهي، فعن سعيد بن هشام أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال : ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : ائت عائشة فسلها، ثم ارجع إلي فأخبرني بردها عليك، ثم يقول سعيد بن هشام : قلت : يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ قالت : ألست تقرأ القرآن؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن، فهممت أن أقوم، ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ قلت : يا أم المؤمنين، أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ قالت : ألست تقرأ هذه السورة :﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ) (المزمل:١)؟ قلت : بلى . قالت : فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة؛ فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله ختامها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة[1] .

وقد استمر رسول الله ﷺ إلى آخر حياته يهتم بالصلاة باعتبارها أولى الأولويات، فعن جرير بن عبد الله ـــ رضي الله عنه ـــ قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم[2].

قلت: لقد ذكرتني بابن حجر، فقد قال مبينًا البدء بالصلاة بعد التوحيد:(وكان النبي ﷺ أول ما يشترط بعد التوحيد إقامة الصلاة لأنها رأس العبادات البدنية، ثم أداء الزكاة لأنها رأس العبادات المالية، ثم يعلم كل قوم ما حاجتهم إليه أمس)[3]

٢ ـــ الأخلاق:

بعد مرتبة (العبادات) وجدت مرتبة (الأخلاق)، فسألته عنها، فقال: إن من عرفته بالله، وعلمته كيف يعبد الله لن يصعب عليك أن تدعوه لمكارم الأخلاق..

قلت: لم .. ولم لم نبدأ بالدعوة لمكارم الأخلاق؟

قال: إن الأخلاق بجميع فروعها تستدعي قوة إيمانية عالية .. لأنها تستدعي ثبات داعي الحق أمام داعي الهوى .. ولا يمكن لداعي الهوى أن يدحر ويهزم إلا إذا قاومه داعي الإيمان.

قلت: ولكني أرى على البعض ـــ رغم عدم تدينه ـــ من الأخلاق ما ليس للمتدينين؟

قال: صدقت .. هناك من فطر على كثير من الأخلاق الطيبة، أو ربي عليها، وقد قال ﷺ في هذا لبعض أصحابه ـــ وهو أشج عبد القيس ـــ:(إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة)[4].. ومثل ذلك أخبر ﷺ عن

([1]) رواه أحمد.
([2]) رواه البخاري.
([3])فتح الباري ٢ / ١٨٨.
([4]) رواه مسلم.

معادن الناس، فقال:(تجدون الناس معادن: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجدون خيار الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهيةً، وتجدون شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ، وهؤلاء بوجهٍ)[1]

قلت: إن هذه النصوص تقضي على ما ذكرت من الدعوة للأخلاق .. فالأخلاق شيء فطري لا يحتاج إلى التكلف للدعوة إليها؟

قال: إن قولك هذا يشبه قول من يقول: إن الصحة شيء فطري .. ولا حاجة للأطباء .. أترى هذا القول مستقيما؟

قلت: لا .. فقد يمرض الصحيح، وقد يصح المريض.

قال: فكذلك الأخلاق .. فقد ينحرف صاحب الخلق الطيب، وقد يعتدل صاحب الخلق الخبيث ..

قلت: فما الذي يرجح الطيبة أو الخبث؟

قال: الدعوة .. الدعوة إلى السلوك الطيب تنشر الطيبة .. والدعوة إلى السلوك الخبيث تنشر الخبث ..

قلت: أهذه سنة رسول الله ﷺ ؟

قال: أجل .. بل إن النبي ﷺ أخبر أن من أساسيات دعوته الدعوة إلى مكارم الأخلاق، فقال :(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[2] ..

وكان يربي أصحابه على هذا .. فهو ﷺ يعرف البر ــ الذي هو جامع خصال الخير ــ بأنه حسن الخلق، فعن النواس بن سمعان ــ رضي الله عنه ــ قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: (البر حسن الخلق، والإثم: ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس)[3]

وبما أن كل مؤمن يود أن يثقل ميزان حسناته يوم القيامة، فقد أخبر ﷺ أنه (ما من شيءٍ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذي[4])[5]

وبما أن كل مؤمن يود أن يدخل الجنة، فقد أخبر ﷺ عن دور الخلق الحسن في ذلك .. فعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: تقوى الله وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: الفم والفرج[6].

وبما أن كل مؤمن يود أن يكون أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ، فقد أخبر ﷺ عن تأثير حسن الخلق في ذلك، فقال :(إن أقربكم مني مجلسا أحاسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون)[7]

---

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه.
(3) رواه مسلم.
(4) البذي: هو الذي يتكلم بالفحش ورديء الكلام.
(5) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
(6) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
(7)رواه الطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر بسند ضعيف.

وبما أن كل مؤمن يود أن يكون أكمل المؤمنين إيماناً، فقد أخبر ﷺ عن تأثير حسن الخلق في ذلك، فقال:(أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم)[1]

وكان ﷺ يصحح النظرة القاصرة التي تحصر الدين في العبادة المجردة، دون أن تجعل له أي علاقة بالأخلاق .. فكان يقول :(إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم)[2]

وفي حديث آخر عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رجل يا رسول الله إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها قال :(هي في النار)، قال: يا رسول الله فإن فلانة تذكر من قلة صلاتها وصيامها وإنها تصدق بالأثوار من الأقط ولا تؤذي جيرانها قال :(هي في الجنة)[3]

قلت: أعرف ما ورد في النصوص المقدسة من فضائل الخلق الحسن، وأنا لا أسألك عنه الآن، ولا أجادلك فيه .. ولكني أسألك عن مراتب الخطاب .. فكيف عرفت أن الدعوة للأخلاق مرتبة من المراتب السابقة؟

قال: لا شك أنك تعرف حديث جعفر ــ رضي الله عنه ــ مع النجاشي.

قلت: أجل .. كيف لا أعرف تلك الخطبة الجليلة التي هي من أعظم خطب الدعوة للإسلام.

قال: فماذا قال جعفر للنجاشي؟

قلت: لقد قال له :(: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصناما ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيئ الجوار ويأكل القوي الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام) .. فعدد عليه أمور الإسلام، ثم قال: (وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، فصدقناه وآمنا واتبعناه على ما جاء به من الله تعالى: فعبدنا الله تعالى وحده ولم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم الله علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا إلا نظلم عندك إيها الملك)[4]

قال: بورك في قراءتك للخطبة جميعا، فكلها تبين أهمية الخلق ومدى تأثيره .. ففيها أن خلق النبي ﷺ هو الذي جذب القلوب إليه .. وفيها أن النبي ﷺ كان يدعو إلى الأخلاق .. وفيها أن أساس اختيار النبي ﷺ الحبشة لهجرة أصحابه هو ما كان ينعم به ملكها من حسن الخلق.

قلت: إن هذا يتجلى ــ أيضا ــ في حديث أبي سفيان مع هرقل .. ففيه قول أبي سفيان ــ بعد أن سأله

---

(1) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
(2) رواه أبو داود.
(3) رواه أحمد والبزار وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه.
(4) رواه ابن إسحق وغيره.

هرقل قائلا: فما يأمركم ــ :(يأمرنا بالصلاة والصدقة، والعفاف والصلة)[1].. فانظر كيف رتب العفاف والصلة على الصلاة والصدقة.

٣ ــ الشرائع:

بعد مرتبة (الأخلاق) وجدت مرتبة (الشرائع)، فسألته عنها، فقال: إن من عرفته بالله، وعلمته كيف يعبد الله، ثم ملأته بالحنين للقيم الرفيعة والأخلاق النبيلة، لن يصعب عليه أن يتلقى الشرائع الإلهية .. بل إنه سيتلقاها بطيبة نفس ورحابة صدر.

قلت: فما سر ذلك؟

قال: لأن الشرائع هي التنفيذ العملي لما تتطلبه الأخلاق الكريمة .. ولذلك نحتاج إلى التوعية بقيمة الأخلاق قبل الدعوة للتنفيذ العملي لها.

قلت: اضرب لي مثالا يقرب هذا.

قال: سنة النبي ﷺ في دعوته إلى الله كلها تدل على هذا وتمثل له.. سأضرب لك مثالا عن شريعة مهمة وخطيرة من شرائع الإسلام، وهي شريعة (تحريم الخمر)، وهي الشريعة التي لم يطق أي دين من الأديان ولا قانون من القوانين تنفيذها .. ألا تعرف حديث عمر ــ رضي الله عنه ــ فيما يرتبط بها؟

قلت: أجل لقد روي أنه لما نزل تحريم الخمر قال: (اللهم بَيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا)، فنزلت هذه الآية التي في البقرة :﴿ يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)(البقرة: من الآية٢١٩)، فدُعي عمر فقرئتْ عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت الآية التي في النساء :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)(النساء: من الآية٤٣)، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: ألا يقربنّ الصلاة سكرانُ. فدُعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت الآية التي في المائدة. فدعي عمر، فقرئت عليه، فلما بلغ :﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)(المائدة: ٩١)؟ قال عمر: انتهينا، انتهينا[2].

قال: فما تفهم من هذا الحديث؟

قلت: هذا الحديث يذكره العلماء في موافقات عمر ــ رضي الله عنه ــ لكتاب الله.

قال: ليس عمر ــ رضي الله عنه ــ فقط هو الذي وافق كتاب الله ..

قاطعته قائلا بغضب: كيف تقول هذا .. هذه منقبة خاصة بعمر ــ رضي الله عنه ــ؟

قال: منقبة فرد لا تلغي منقبة الجمع .. واعتبارها مجرد منقبة يلغي الاستفادة منها.

قلت: ما تعني .. أو بالأحرى ماذا تفهم أنت من الحديث؟

قال: أفهم أمرا عمليا أعظم من مجرد ذكر الحديث في باب المناقب.

قلت: شوقتني .. فما هو؟

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي.

قال: لقد بث رسول الله ﷺ عن طريق الدعوة إلى الأخلاق الحسنة وعيا عاما بضرورة وضع التشريعات التي تحمي الأخلاق، وتحفظها، وتؤسس لها .. ولذلك صار المخاطبون هم الذين يطالبون بالتشريعات .. لا التشريعات هي التي تريد أن تفرض نفسها على المخاطبين.

قلت: ألا تضرب لي مثالا يقرب لي هذا؟

قال: أرأيت لو أن مدرسا أراد أن يضيف ساعات دراسة لتلاميذه مع إعطاء الحرية لهم في الحضور وعدمه .. هل تراهم سيحضرون؟

قلت: أما تلاميذ هذا الجيل .. فلا شك أنهم يتمردون عليه.

قال: ولو أنه قدم لذلك بما يملأهم رغبة في العلم وحبا له.

قلت: حينها سيطالبون هم بالساعات الإضافية.

قال: فهكذا يفعل الحكيم .. فهو لا يهجم على الناس بالتشريعات .. بل يدع واقعهم الإيماني والأخلاقي هو الذي يطلب تلك التشريعات.

قلت: لقد ذكرتني بموقف آخر لعمر ــ رضي الله عنه ــ يدرج في باب موافقاته يمكن أن يدرج في هذا المحل أيضا.

قال: تقصد موقفه من الحجاب؟

قلت: أجل .. فعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: إن أزواج رسول الله ﷺ كُنّ يخرجن .. وكان عمر يقول لرسول الله ﷺ: (احجب نساءك)، فلم يكن رسول الله ﷺ ليفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج رسول الله ﷺ، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر بصوته الأعلى: (قد عرفناك يا سودة)، حرْصًا أن ينزل الحجاب، قالت: فأنزل الله الحجاب[1].

قال: لقد ملأ النبي ﷺ أصحابه ــ رضي الله عنهم ــ بحب العفاف والحرص عليه، فلذلك صاروا يطالبون بالشرائع التي تساعد على تحقيق هذا الخلق الرفيع في المجتمع.

قلت: لقد وضع الإسلام منظومة كاملة من الشرائع التي تحقق هذا الخلق في المجتمع.

قال: ولولا أنه قدم لها بتلك المقدمات الطويلة من الوعي لما استطاع أن يفرض تلك الشرائع، ولا أن يجد النفوس المستعدة لتنفيذها.

قلت: إن بعض قومي يركزون في دعوتهم للدين على الدعوة للشرائع .. ولا أراهم يبدأون إلا بالحدود .. حتى توهم البعض أن الإسلام لم يأت إلا ليقطع ويجلد ويرجم ..

قال: أولئك جهلة منفرون .. إن مثلهم مثل من وصف طبيبا حكيما، فقال من غير مقدمات تبين مهنته: هذا رجل لا هم له إلا إسالة دماء من يقصده، وتقطيع أوصالهم .. فهل ترى أحدا من الناس سيقبل عليه؟

قلت: وكيف يقبلون عليه، وقد نفروا منه .. بل خوفوا منه؟

قال: ولو قال لهم: هذا طبيب خبير يستأصل الأدواء، وينعم الله على من يصحبه بالشفاء.. وهو إن اضطر

([1]) رواه ابن جرير.

إلى إسالة الدماء، فإنه لا يسيلها إلا ليداوي بها العلل، ويبرئ بها من الأسقام.

قلت: حينذاك سيقبل الجميع عليه .. بل يتوددون له حتى يطهرهم.

قال: وهذا ما فعله رسول الله ﷺ .. لقد بث من الوعي الإيمان والأخلاقي في المجتمع ما جعل المجتمع هو الذي يطالب بتطهيره وإقامة الشرائع عليه.

قلت: صدقت .. وقد قرأت قصة ماعز والغامدية في هذا ..

قال: وهي قصة لا يمكن أن تتحقق إلا في تلك البيئة الطيبة التي رباها رسول الله ﷺ أو رباها ورثته من بعده.

قلت: وعيت كل ما ذكرته في مراتب الخطاب، ولكن اعتراضا يفرض نفسه ..

قاطعني، وقال: تقصد قوله تعالى :﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً)(المائدة: من الآية٣)؟

قلت: أجل .. فإن ما ذكرته قد يصلح مع من عاش الإسلام في مراحله الأولى .. أما نحن الآن فلسنا في العهد المكي .. ولذلك قد ينهار كل ما ذكرته من مراتب.

قال: لا أقصد بما ذكرته لك أني أريد إعادة إحياء العهد المكي بحروفه وسنواته، فإن ذلك لم يقل به أحد من الناس، ولكني أقصد بأن الأسلوب الذي تعامل به رسول الله ﷺ مع من دعاهم سواء في المرحلة المكية أو المدنية كله يدل على هذا ..

سأذكر لك نصين قد يقربان لك هذا، ويفتحان لك من الآفاق في هذا الباب ما كان منغلقا:

أما أولهما .. فما ورد في حديث وفد ثقيف، فعن وهب قال: سألت جابراً عن شأن ثقيف إذ بايعت، قال: اشترطت على النبي ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد، وأنه سمع النبي ﷺ بعد ذلك يقول:(سيتصدقون، ويجاهدون إذا أسلموا)[1]

أما الحديث الثاني، فما حدث به نصر بن عاصم عن رجل منهم: أنه أتى النبي ﷺ، فأسلم على أنه لا يصلي إلا صلاتين فقبل ذلك منه[2].

فالنبي ﷺ في كلا الحديثين تنازل ــ في الظاهر ــ عن بعض الأحكام، ولكنه في الحقيقة يعلم أن من التزم ببعض أحكام الشريعة التزاما صادقا سيؤدي به ذلك على التزام سائر أحكامها.. فالشريعة سلسلة من سلاسل الرحمة يؤدي بعضها إلى بعض لا محالة.

قلت: إن ما ذكرته من الحديثين عظيم .. فهل يمكن القياس عليه؟

قال: قس عليه ما تشاء .. واعلم أن الموت على المعصية خير من الموت على الكفر.

قلت: صدقت .. لطالما كنت أحلم بنص يدلني على هذا .. فأنا ــ أحيانا ــ تأتيني المرأة الحريصة على

---

(1) رواه أحمد وأبو داود والبيهقي في دلائل النبوة.

(2) رواه أحمد وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني وأبو نعيم، واسناده صحيح، ورجاله ثقات، والرجل المبهم صحابي، وجهالة الصحابي لا تضر.

الإسلام .. ولكنه لا يحول بينها وبين دعوتها إليه إلا ترددها في الحجاب، فهي لا تحب أن تتخلى على ما تعودته من زينة .. وأنا أخشى أن أعرض لها الإسلام من دون حجاب، فأكون كمن أنقص من شرائع الإسلام ما لم يؤذن له بإنقاصه.

قال: فإذا لقيت مثل هذه المرأة .. فلا تحدثها عن الحجاب .. ولا عن أي شريعة قد تحجبها عن ربها .. فإن حلاوة الإيمان وحدها كافية لتجعلها تأتيك ــ بعد ذلك ــ لتسألك عن أحكام شريعة ربها .. بل لعلها تأتيك، وفي قلبها من الورع ما لم يكن يخطر على بالك.

٣ ـــ مراتب الأساليب

وضعت الدفتر الثاني في محله، ثم فتحت الدفتر الثالث، وكان عنوانه (مراتب الأساليب) .. وقد زين غلافه بقوله تعالى:﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل:١٢٥)

قلت: أهذا كتاب نحو، أم كتاب بلاغة؟

قال: هو كتاب نحو وكتاب بلاغة .. فهو يبحث في الأساليب .. والأساليب تحتاج إلى كلا العلمين.

فتحت الدفتر، فلم أجد فيه لا نحوا ولا بلاغة، فقلت: أتسخر مني .. وإنت إمام؟

قال: لم أسخر .. أنا لم أقل لك إلا الحقيقة .. أليس النحو هو التعرف على مراتب الكلمات، فلا توضع إلا في محالها الصحيحة؟

أليس اللحن في النحو هو خلط تلك المراتب، بنصب الفاعل أو رفع المفعول .. فتختلط المراتب؟

قلت: بلى .. ما تقوله صحيح ..

قال: فمن خلط في كلامه لمن يريد أن يدعوهم بأن رفع ما ينبغي أن ينصب، أو نصب ما ينبغي أن يرفع كان لاحنا .. واللحن في هذا أخطر من اللحن في النحو؟

قلت: ذلك صحيح .. فكيف ذكرت أنه يبحث في البلاغة؟

قال: أليست البلاغة هي أن يكون الكلام متناسبا مع موضوعه، فلا يتحدث في الرثاء بأسلوب التهنئة؟

قلت: بلى .. ذلك صحيح ..

قال: فلهذا كان هذا الدفتر دفترا لنحو الدعاة وبلاغتهم.

ابتسمت، وقلت: لقد عرفت كيف تتخلص.

قال: من العلوم الضرورية للدعاة أن يعرفوا كيف يتخلصوا .. وإلا فسيكونون حجابا لا دعاة.

قلت: التخلص يحتاج إلى الحيلة .. والمسلم أشرف من أن يترل إلى حضيض الاحتيال.

قال: حيلة أهل الحق ليست بالكذب ولا التزوير .. إنها حيلة تحاول أن تتسلل إلى القلوب لتطهرها من رجسها وتدلها على ربها .. وهي لا تجد لذلك من سبيل إلا الصدق .. فلا يمكن أن تكون النجاة في غيره.

الحكمة:

فتحت الدفتر، فوجدت أول كلمة فيه (الحكمة)، فقلت: أليست كل هذه الدفاتر تبحث في الحكمة؟

قال: بلى ..

قلت: فكيف يتحول الكل جزءا؟

قال: الحكمة نوعان: حكمة في المنهج .. وهي الكل الذي تنضم حوله كل ما رأيته من أجزاء .. وحكمة في الأسلوب .. وهو ما وضعت مراتبه هنا.

قلت: فما دليلك عليه؟

قال: الآية التي أذنت لي في أن أبحث في هذا ..

قلت: الآية التي زينت بها مدخل الكتاب؟

قال: كتاب الله أعظم من أن نختصره في التزيين .. إن كل آية من كتاب الله بحر من بحار العلم .. ولا خير في علم لم يزين مدخله بكلام ربه.

قلت: فما الفرق بين هذه الأساليب الثلاث؟

قال: من خلال اطلاعي على علاقة المخاطبين بالحقائق وجدت ثلاثة أصناف كبرى، تنطوي تحتها أصناف كثيرة .. وقد وجدت أن هذه الآية الكريمة تعلمنا الأسلوب الذي نخاطب به هؤلاء الثلاثة.

قلت: فما أول هذه الأصناف، وبم يخاطبون؟

قال: أولهم هم أهل البحث عن الحقائق، والاستعداد لتقبلها، وهم من غلبوا عقولهم على نفوسهم .. وهؤلاء يخاطبون بأسلوب (الحكمة) التي هي عرض الحقائق مع براهينها الدالة عليها.

قلت: وما الصنف الثاني، وبم يخاطبون؟

قال: هم من أصحاب النفوس التي تمتلئ رغبة ورهبة ..

قلت: إن هؤلاء محجوبون بنفوسهم عن عقولهم، فكيف يمكنك خطابهم، وبينك وبين عقولهم تلك الحجب الكثيفة؟

قال: بالموعظة التي دلنا عليها ربنا .. فالموعظة هي التي يمكن التسلل من خلالها إلى العقول والقلوب والأرواح وجميع اللطائف.

قلت: وما الصنف الثالث، وبم يخاطبون؟

قال: هم أصحاب عقول، وأصحاب نفوس .. فهم لم يتمحضوا لعقولهم، و لم يتمحضوا لنفوسهم ..

قلت: إن خطاب مثل هؤلاء صعب.

قال: لقد أرشدنا الله إلى استعمال الجدال الحسن مع هؤلاء ..

قلت: لم؟

قال: لنميز خطاب النفس من خطاب العقل، ولنتسلل من خلال ذلك إلى خطاب العقل والروح والسر وكل لطائف الإنسان.

قلت: أترى انحصار الطوائف في هذا؟

قال: أجل .. لقد استقرأت كل طوائف الناس، ونوع الأسلوب الذي يتناسب معهم، فوجدت أن الآية تعلمنا كيف نخاطبهم جميعا[1].

([1]) ذكر الفخر الرازي وجه الانحصار في هذه الأساليب، فذكر أن أهل العلم ثلاث طوائف:

١. الكاملون الطالبون للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية ، والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن إلا بالدلائل القطعية اليقينية وهي الحكمة.

٢. الذين تغلب على طباعهم المشاغبة والمخاصمة لا طلب المعرفة الحقيقية والعلوم اليقينية ، والمكالمة اللائقة بهؤلاء المجادلة التي تفيد الإفحام والإلزام ، وهذان القسمان هما الطرفان . فالأول : هو طرف الكمال ، والثاني : طرف النقصان.

قلت: فحدثني عن الأسلوب الأول.

قال: هذا الأسلوب هو أصل الأساليب، ومبدؤها، ولا مندوحة للداعية إلى الله من تحصيل العلوم الموصلة إليه.

قلت: أيحتاج هذا الأسلوب إلى علوم؟

قال: أجل .. كل أسلوب من الأساليب يحتاج علوما خاصة به.

قلت: فما الذي يحتاجه هذا الأسلوب من علوم؟

قال: يختلف ذلك باختلاف من تريد أن تخاطبهم .. فإن كنت تريد أن تخاطب فيلسوفا بالحكمة، فعليك أن تكون عارفا بفلسفته، ومنهج تفكيره لتتسلل إليه من خلاله.

وإن كنت تخاطب رجل دين .. أي دين .. فعليك أن تكون مطلعا على دينه، وعلى المنهج العقلي الذي ارتضاه لنفسه لتخاطبه من خلاله .. وهكذا .. فالحكمة أن تخاطب العقول بما تفهم .. وأن تنطلق من البديهيات والمسلمات إلى ما لم يسلم لك، وما لم يقبل منك.

قلت: إن الحكمة بذلك تحتاج قدرات كبيرة.

قال: أجل .. ولهذا، فإن الله تعالى أثنى على الحكمة وأهلها ثناء عظيما في القرآن[1] .. قال تعالى :﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة:٢٦٩)[2]

وقد اعتبر القرآن الكريم الحكمة نوعا من أنواع النعم التي من الله بها على عباده المؤمنين، فقال تعالى :﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: من الآية٢٣١)

وهو يخبره عن فضله على الأنبياء ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ بإعطائهم الحكمة، قال تعالى :﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ

---

٣. الواسطة ، وهم الذين ما بلغوا في الكمال إلى حد الحكماء المحققين ، وفي النقصان والرذالة إلى حد المشاغبين المخاصمين ، بل هم أقوام بقوا على الفطرة الأصلية والسلامة الخلقية ، وما بلغوا إلى درجة الاستعداد لفهم الدلائل اليقينية والمعارف الحكمية ، والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن إلا بالموعظة الحسنة.

ثم تحدث عن مراتب هذه الأساليب، فذكر أن أدناها المجادلة ، وأعلى مراتب الخلائق الحكماء المحققون ، وأوسطهم عامة الخلق وهم أرباب السلامة ، وفيهم الكثرة والغلبة ، وأدنى المراتب الذين جبلوا على طبيعة المنازعة والمخاصمة. (انظر: التفسير الكبير)

وقريب من هذا ما ذكره الغزالي في (القسطاس المستقيم) حين سأله رفيق التعليم عن أصناف الخلق وكيفية علاجهم ،فذكر أنهم ثلاثة :(عوام ، وهم أهل السلامة ، وخواص هم أهل البصيرة وخواص الذكاء ، ويتولد بينهم طائفة هم (أهل الجدل والشغب)

قال الغزالي :(فأدعو هؤلاء [العوام] بالموعظة،وأهل البصيرة بالحكمة ،وأدعو أهل الشغب بالمجادلة)

([1]) خلافا للعلم، فقد ذكر في مواضع الثناء والذم جميعا، كما سبق ذكره.

([2]) قال القرطبي تعليقا على هذه الآية:(إن من أعطي الحكمة والقرآن فقد أعطي أفضل ما أعطي من جمع علم كتب الأولين من الصحف وغيرها، لأنه قال لأولئك :﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (الاسراء: من الآية٨٥)، وسمى هذا خيرا كثيرا، لأن هذا هو جوامع الكلم(القرطبي: ٣/٣٣٠)

﴾ (آل عمران: من الآية٨١)، وقال:﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ (النساء:٥٤)، وقال :﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ (البقرة: من الآية٢٥١)، وقال :﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيلَ﴾ (آل عمران:٤٨)، وقال :﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ (صّ:٢٠)، وقال :﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الزخرف:٦٣)

وهو يمن على رسول الله ﷺ بأن الله أنزل عليه الحكمة، فقال :﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ (النساء: من الآية١١٣)، وقال :﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾ (الاسراء:٣٩)

قلت: فهل في سنة رسول الله ﷺ ما يدل على هذا الأسلوب؟

قال: سنة رسول الله ﷺ كلها تدل على هذا الأسلوب حتى أن من الناس من سمى السنة (حكمة) مستنبطا ذلك من قوله تعالى :﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) (البقرة:١٥١) وغيرها من الآيات[١].

قلت: فاذكر لي مثالا يقرب لي هذا.

قال: سأذكر لك أمثلة على ذلك .. ولعلك تلتقي من ورثة رسول الله ﷺ من يزودك بالكثير من الأمثلة على هذا[٢].

لقد حدث ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أن ضمادًا قدم مكة وكان من أزد شنوءة وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون : إن محمدا مجنون، فقال : لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي، قال: فلقيه فقال : يا محمد : إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء فهل لك ؟ فقال رسول ﷺ:(إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أما بعد ..)، قال : فقال أعد كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس[٣]البحر، قال : فقال : هات يدك أبايعك على الإسلام، قال : فبايعه، فقال رسول الله ﷺ :(وعلى قومك)، قال: وعلى قومي[٤].

انظر هذا الرجل الفاضل كيف اكتفى من رسول الله ﷺ بتلك الكلمات الممتلئة بفيوضات الحكمة ..

---

(١)كما قال الشافعي :(الحكمة سنة رسول الله ﷺ) وهو قول قتادة، قال أصحاب الشافعي :(والدليل عليه أنه تعالى ذكر تلاوة الكتاب أولاً وتعليمه ثانياً ثم عطف عليه الحكمة، فوجب أن يكون المراد من الحكمة شيئاً خارجاً عن الكتاب، وليس ذلك إلا سنة الرسول ﷺ)، قال ابن القيم :(وتفسيرها بالسنة أعم وأشهر)(مدارج السالكين: ٤٧٢/٢)

(٢) انظر فصل (المصلح) من هذه الرسالة.

(٣)قاموس البحر: هو وسطه ولجته (النهاية في غريب الحديث والأثر: ٥ / ٨١)

(٤)رواه مسلم.

اكتفى بها من غير جدل، ولا مراء، ولا خصومة .. وقد عرف النبي ﷺ ما تنطوي عليه نفسه من خير، فلذلك بايعه على أن يدعو قومه لله.

لقد كان أكثر السابقين للإسلام من هذا النوع ..

فأبو بكر ــ رضي الله عنه ــ وبقية العشرة المبشرين بالجنة كانوا من الحكماء الذين استعمل معهم رسول الله ﷺ هذا النوع من الأساليب .. حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: خرج أبو بكر يريد رسول الله ﷺ ــ وكان له صديقاً في الجاهلية ــ فلقيه فقال: يا أبا القاسم، فُقدْتَ من مجالس قومك واتَّهموك بالعيب لآبائها وأُمهاتها، فقال رسول الله ﷺ:(إني رسول الله أدعوك إلى الله)، فلما فرغ من كلامه أسلم أبو بكر، فانطلق عنه رسول الله ﷺ وما بين الأخشَبَيْن أحد أكثر سروراً منه بإسلام أبي بكر؛ مضى أبو بكر فراح لعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص فأسلموا، ثم جاء الغد بعثمان بن مظعون وأبي عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وأبي سَلَمة بن عبد الأسد والأرقم بن أبي الأرقم، فأسلموا ــ رضي الله عنهم ــ[1].

وذكر ابن إسحاق أن أبا بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ لقي رسول الله ﷺ فقال: أحقٌ ما تقول قريش يا محمد من تَرْكِ آلهتنا، وتسفيهك عقولنا، وتكفيرك آباءنا؟ فقال رسول الله ﷺ:(بلى، إنِّي رسول الله ونبيُّه، بعثني لأُبلِّغ رسالته، وأدعوك إلى الله بالحق فوالله إنه للحق، أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له، ولا تعبد غيره، والموالاة على طاعته)، وقرأ عليه القرآن، فلم يقرَّ و لم ينكر، فأسلم وكفر بالأصنام، وخلع الأنداد، وأقر بحق الإسلام، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدِّق.

وقد شهد رسول الله ﷺ بهذا لأبي بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ، فقال:(ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كَبْوة وتردّد ونظر إلا أبا بكر، ما عَكَم[2] عنه حين ذكرته ولا تردد فيه)[3]

وهكذا ما ورد في دعوة رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ، ففي حديث ثَوْبان ــ رضي الله عنه ــ: وأخذ رسول الله ﷺ بضَبْعَيه وهزه وقال: (ما الذي تريد؟ وما الذي جئت؟) فقال له عمر: اعرض عليَّ الذي تدعو إليه، فقال: (تشهد أن لا أله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله)، فأسلم عمر مكانه وقال: أخرج[4].

وهكذا ما ورد في دعوة رسول الله ﷺ لعثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ فعن عمرو بن عثمان قال: قال عثمان دخلت على خالتي أعودها ــ أَرْوَى بنت عبد المطلب ــ فدخل رسول الله ﷺ فجعلت أنظر إليه ــ وقد ظهر من شأنه يومئذٍ شيء ــ فأقبل عليَّ فقال: مالك يا عثمان؟ قلت: أعجب منك ومن مكانك فينا وما يقال عليك، قال عثمان: فقال: (لا إله إلا الله) ــ فالله يعلم لقد اقشعررت ــ ثم قال :﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣) ﴾ (الذاريات)، ثم قام فخرج

---

(1) رواه الحافظ أبو الحسن الأطرابلسي.

(2) عكم: أي تلبَّث.

(3) رواه ابن إسحاق.

(4)رواه الطبراني.

فخرجت خلفه، فأسلمت[1].

وهكذا في دعوته ﷺ لعلي بن أبي طالب ـــ رضي الله عنه ـــ .. لقد ذكر ابن إسحاق أنَّ علي بن أبي طالب ـــ رضي الله عنه ـــ جاء وهما ـــ أي النبي ﷺ وخديجة ـــ رضي الله عنها ـــ يصلِّين، فقال علي: يا محمد، ما هذا؟ قال: (دين الله الذي اصطفَى لنفسه وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وإلى عبادته، وأن تكفر اللات والعُزَّى)، فقال علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاض أمراً حتى أُحدِّث به أبا طالب؛ فكره رسول الله ﷺ أن يفشيَ عليه سرَّه قبل أن يستعلن أمره، فقال له: (يا علي، إذ لم تسلم فاكتم)، فمكث عليٌّ تلك الليلة، ثم إنَّ الله أوقع في قلب عليَ الإسلام فأصبح غادياً إلى رسول الله حتى جاءه، فقال: ماذا عرضت عليَّ يا محمد؟ فقال له رسول الله ﷺ :(تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزَّى، وتبرأ من الأنداد)، ففعل عليٌّ وأسلم، ومكث يأتيه على خوف من أبي طالب، وكتم عليٌّ إسلامَه و لم يظهره.

وهكذا في دعوته ﷺ لعمرو بن عَبَسة ـــ رضي الله عنه ـــ فعن شدّاد بن عبد الله قال: قال أبو أمامة: يا عمرو بن عَبَسَة، بأيِّ شيء تَدَّعي أنك رُبْعُ الإسلام؟ قال: إني كنت في الجاهلية أرى الناس على ضلالة ولا أرى الأوثان شيئاً، ثم سمعت عن رجل يخبِّر أخباراً بمكَّة ويحدِّث أحاديث، فركبت راحلتي حتى قدمت مكة فإذا أنا برسول الله ﷺ مستَخْفِياً، وإذا قومه عليه جُرَآء، تلطَّفت له فدخلت عليه فقلت: ما أنت؟ قال:(أنا نبي الله)، فقلت: وما نبي الله؟ قال: (رسول الله) قال: قلت: آلله أرسلك؟ قال: (نعم) قلت: بأي شيء أرسلك؟ قال: (بأن يوحَّد الله ولا يشرك به شيء، وكسر الأوثان، وصلة الرحم)، فقلت له: من معك على هذا؟ قال: (حرٌّ وعبد) ـــ أو عبد وحر ـــ وإذا معه أبو بكر ابن أبي قُحافة وبلال مولى أبي بكر، قلت: إنِّي متبعك، قال: (إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ولكن إرجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فالحق بي)، قال فرجعت إلى أهلي وقد أسلمت .. فخرج رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، فعلت أتخبَّر الأخبار حتى جاءَ رَكَبَة من يثرب، فقلت: ما هذا المكِّي الذي أتاكم؟ قالوا: أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك وحِيل بينهم وبينه، وتركْنا الناسَ إليه سراعاً، قال عمرو بن عبسة: فركبت راحلتي حتى قدمت عليه المدينة فدخلت عليه فقلت: يا رسول الله، أتعرفني؟ قال: (نعم، ألستَ أنت الذي أتيتني بمكة؟) قال قلت: بلى، فقلت: يا رسول الله، علمني ممَّا علمك الله، فذكر الحديث[2].

وهكذا في دعوته ﷺ لخالد بن سعيد بن العاص ـــ رضي الله عنه ـــ فعن محمد بن خالد بن الزُبير قال: كان إسلام خالد بن سعيد ابن العاص قديماً وكان أول إخوته أسلم، وكان بَدْء إسلامه أنه رأى في المنام أنه

([1]) رواه المدائني.

([2]) رواه أحمد، وهكذا أخرجه ابن سعد عن عمرو بن عبسة مطوّلاً، وأخرجه أيضاً أحمد عن أبي أُمامة عن عمرو بن عبسة، فذكر الحديث وفيه: قلت: بماذا أرسلك؟ فقال: (بأن تُوصل الأرحام، وتُحقَن الدماء، وتُؤمَن السبل، وتُكسر الأوثان، ويُعبد الله وحده لا يشرك به شيء)، قلت: نعْمَ ما أرسلك به وأُشهدُك أني قد آمنت بك وصدَّقتك، أفأمكث معك أم ما ترى؟ فقال: (قد ترى كراهة الناس لما جئتُ به فامكث في أهلك، فإذا سمعت بي قد خرجت مخرجي فائتني)، وأخرجه مسلم والطبراني وأبو نُعيم من طريق أبي أُمامة بطوله، وأبو نُعيم في دلائل النبوة.

وُقِفَ به على شفير النار.. فذكر من سَعَتها ما الله أعلم به، ويرى في النوم كأنَّ أباه يدفعه فيها، ويرى رسول الله ﷺ آخذاً بحَقْوَيه لئلا يقع، ففزع من نومه فقال: أحلف بالله إنَّ هذه لرؤيا حق. فلقي أبا بكر بن أبي قحافة فذكر ذلك له، فقال: أُريد بك خيرٌ، هذا رسول الله ﷺ اتْبَعْهُ فإنك ستتبعه وتدخل معه في الإسلام، والإسلام يحجُزُك أن تدخل فيها، وأبوك واقع فيها، فلقي رسول الله ﷺ وهو بأجْياد، فقال: يا محمد، إلامَ تدعو؟ قال: (أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يضر ولا يبصر، ولا ينفع ولا يدري مَنْ عَبدَه ممن لا يعبده)، قال خالد: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، فسُرَّ رسول الله ﷺ بإسلامه.

وتغيّب خالد وعلم أبوه بإسلامه، فأرسل في طلبه فأُتي به فأنَّبه وضربه بمَقْرعة في يده حتى كسرها على رأسه، وقال: والله لأمنعنَّك القوت، فقال خالد: إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله ﷺ فكان يلزمه ويكون معه[1].

وهكذا في دعوته ﷺ لرجل لم يحفظ التاريخ اسمه، ولكنه حفظ لنا حكمته، والأسلوب الذي خاطبه به رسول الله ﷺ .. فعن حرب بن سُريج قال: حدثني رجل من بلْعَدَوِيَّة، قال: حدثني جدِّي قال: انطلقت إلى المدينة فترلت عند الوادي، فإذا رجلان بينهما عتر واحدة وإذا المشتري يقول للبائع؛ أحسن مبايعتي، قال: فقلت في نفسي: هذا الهاشمي الذي قد أضلَّ الناس أهو هو؟ قال: فنظرت فإذا رجل حسن الجسم عظيم الجبهة، دقيق الأنف، دقيق الحاجبين، وإذا من ثُغْرة نحره إلى سُرّته مثل الخيط الأسود شعر أسود، وإذ هو بين طِمْرين قال: فدنا منا فقال: السلام عليكم، فرددنا عليه، فلم ألبث أن دعا المشتري فقال: يا رسول الله، قل له: يحسن مبايعتي، فمدَّ يده وقال: (أموالكم تملكون، إنِّي أرجو أن ألقى الله عزّ وجلّ يوم القيامة لا يطلبني أحد منكم بشيء ظلمته في مال ولا في دم ولا عرض إلا بحقه، رحم الله أمرأ سهل البيع، سهل الشراء، سهل الأخذ، سهل العطاء، سهل القضاء، سهل التقاضي)، ثم مضى، فقلت: والله لأقضينَّ هذا فإنه حسن القول، فتبعته فقلت: يا محمد، فالتفت إليَّ بجميعه فقال: (ما تشاء؟)، فقلت: أنت الذي أضللتَ الناس وأهلكتَهم وصدَدتَهم عمَّا كان يعبد آباؤهم؟ قال: (ذاك الله)، قال: ما تدعو إليه؟ قال: (أدعو عباد الله إلى الله)، قلت: ما تقول؟ قال: (أشهد أن لا إله إلا الله وأنِّي محمد رسول الله، وتؤمن بما أنزله عليَّ، وتفكر باللات والعُزَّى، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة)، قلت: وما الزكاة؟ قال: (يردّ غنينا على فقيرنا)؛ قلت: نعمَ الشيء تدعو إليه. قال: فلقد كان وما في الأرض أحد يتنفس أبغض إليّ منه، فما برح حتى كان أحب إليّ من ولدي ووالديَّ ومن الناس أجمعين، فقلت: قد عرفتُ؛ قال:(قد عرفتَ؟) قلت: نعم؛ قال: (تشهد أن لا إله إلا الله وأنِّي محمد رسول الله، وتؤمن بما أُنزل عليّ)، قلت: نعم، يا رسول الله، إنِّي أرد ماءً عليه كثير من الناس فأدعوهم إلى ما دعوتني إليه، فإنِّي أرجو أن يتَّبعوك، قال: نعم، فادعهم؛ فأسلم أهل ذلك الماء رجالهم ونساؤهم، فمسح رسول الله ﷺ رأسه[2].

الموعظة:

([1]) رواه البَيْهقي.
([2])رواه أبو يَعْلى قال الهيثمي وفيه: راوٍ لم يسمَّ، وبقية رجاله وُثِّقوا.

رأيت في المرتبة الثانية من مراتب الأساليب (مرتبة الموعظة)، فسألته عنها، فقال: هي كل أساليب التأثير التي تخاطب بها النفوس لتمتلئ بحقائق الإيمان.

قلت: فمن أصحاب هذه المرتبة؟

قال: لقد ذكرهم الرازي، فقال: (هم الذين ما بلغوا في الكمال إلى حد الحكماء المحققين، وفي النقصان والرذالة إلى حد المشاغبين المخاصمين، بل هم أقوام بقوا على الفطرة الأصلية والسلامة الخلقية، وما بلغوا إلى درجة الاستعداد لفهم الدلائل اليقينية والمعارف الحكمية)[1]

قلت: فهم وحدهم المخصوصون بهذه المرتبة إذن؟

قال: لا .. كل المخاطبين قد يحتاجون إلى هذه المرتبة .. وما ذكره الرازي هو الأعم الأغلب.

قلت: ما تعني؟

قال: إن كل إنسان مهما بلغت به مرتبته من الكمال العقلي، فإنه لا محالة صاحب نفس، وهي لا محالة تؤثر فيه، وتؤثر عليه .. ولذلك كان من كمال الخطاب العقلي مزجه بخطاب النفس.

قلت: فبم تخاطب النفس؟

قال: النفس ترغب وترهب، وتحب وتبغض، وتشح وتحرص .. فلذلك يتسلل إليها العاقل مما تحب ليوجهها إلى عوالم الحكمة والحقائق.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أرأيت اللص الحريص على جمع المال من حله وحرامه؟

قلت: هو مجرم بفعله.

قال: أعلم ذلك .. وأنا لا يهمني أن أحكم عليه .. بل كل همي هو التفكير في كيفية تخليصه من اللصوصية والإجرام.

قلت: أحسن وسيلة هي أن يزج به في السجن مع المجرمين.

قال: أترى السجن رادعا له؟

قلت: لو حوى السجن من أساليب التعذيب ما يقهر نفسه لتاب من جرائمه.

قال: فأنا أفعل هذا معه.

قلت: ألك علاقة بالشرطة؟

قال: لي علاقة بالشرطة الإلهية .. فأنا كما ذكرت لك من المخابرات الإلهية .. لا من المخابرات الأرضية.

قلت: صرح، فأنا لا أطيق فهم التلميح.

قال: إن هذا الرجل الذي برمجت نفسه على الخوف من الألم، والحرص على الراحة والسعادة .. أطرق نفسه من هذه الأبواب لأخرجه من ظلمات نفسه إلى نور الإيمان والحكمة.

قلت: كيف؟

---

(١) التفسير الكبير: ٢٨٨/٢٠.

قال: بالموعظة الحسنة.

قلت: فما الموعظة الحسنة .. وما ضوابطها .. وما سنة رسول الله ﷺ فيها؟

قال: لن أجيبك أنا عن هذا .. فأنا الحكيم ولست الواعظ .. ولا ينبغي لي أن أتحدث خارج تخصصي.

قلت: فمن يجيبني؟

قال: إن علم الله صدقك، فسيرسل لك من يعلمك الموعظة، كما أرسل لك من يعلمك الحكمة[1].

الحوار:

رأيت في المرتبة الثالثة من مراتب الأساليب (مرتبة الحوار)، فقلت له: لقد ذكر القرآن (الجدل)، فكيف وضعت أنت (الحوار)؟

قال: أنا لم أرغب عن المصطلح الذي وضعه القرآن الكريم، ولكني وجدت أن الحوار هو المصطلح المتعارف عليه للدلالة على (الجدال بالتي هي أحسن)، ولا مشاحة في الاصطلاح.

زيادة على أن هذا المصطلح استعمله القرآن الكريم، قال تعالى :﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (المجادلة:١)، ففي هذه الآية إخبار بأن رسول الله ﷺ استعمل الحوار في إقناعه المرأة.

وفي آية أخرى أخبر الله أن بعض ورثة الرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ استعمله في دعوة صاحبه لله، قال تعالى :﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ (الكهف:٣٧)

قلت: فمن يخاطب بهذا الأسلوب؟

قال: لقد ذكر الغزالي أنه يخاطب به اثنان من الناس: (إما من فيهم فطانة ظاهرة ترقوا بها عن العوام ولكنها ناقصة ،أو كانت في الفطرة كاملة ،ولكن باطنهم مشحون بالخبث والعناد والتعصب والتقليد)

قلت: فما المجادلة الحسنة، وما أصولها؟

قال: لقد ذكر الغزالي أنها (أخذ الأصول التي يسلم بها المجادل، واستنتاج الحق منها، مع الإبتعاد عن اللجاجة والمراء والجدال المنهي عنه) .. وقد ضرب الغزالي لها مثلا، فقال :(وليته كانت له أسوة حسنة بإبراهيم الخليل ــ صلوات الله عليه ــ حيث حاج خصمه، فقال :﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)(البقرة: من الآية٢٥٨)، فلما رأى أن ذلك لا يناسبه ،وليس حسنا عنده عدل إلى الأوفق بطبعه والأقرب لفهمه،فقال :﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ)(البقرة: من الآية٢٥٨)

قلت: فاذكر لي أصول هذا الأساليب وآدابه، فإن من قومي من يبدأون بالحوار، وينتهون بالجدل، ومنهم يبدأون بالحوار، وينتهون بالشغب.

قال: لست المكلف بتعليمك علوم هذا .. وإن تك صادقا، فسيقيظ الله لك من يعلمك ما طلبته[2] ..

([1]) سنتحدث عن الموعظة في فصل (الواعظ) من هذه الرسالة.

([2]) انظر فصل (المحاور) من هذه الرسالة.

ولكني أكتفي بذكر مثال لك يبرهن لك على سنية هذا الأسلوب، وعلى مدى جدواه.

لقد جاء شاب إلى رسول الله ﷺ يستأذنه ﷺ في الزنا بكل جرأة وصراحة، فهمَّ بعض الصحابة أن يوقعوا به؛ فنهاهم وأدناه وقال له ﷺ بكل هدوء:(أترضاه لأمك ؟!)، قال الشاب: لا، قال رسول الله ﷺ :(فإن الناس لا يرضونه لأمهاتهم)، ثم قال:(أترضاه لأختك ؟!)، فقال الشاب: لا، فقال ﷺ :(فإن الناس لا يرضونه لأخواتهم)[1] .. وهكذا بقي رسول الله ﷺ مع الشاب إلى أن اقتنع بأن من رحمة الله بعباده أن حرم عليهم الزنا ..

(٣) رواه أحمد بإسناد جيد.

٤ ـــ مراتب الوسائل

وضعت الدفتر الثالث في محله، ثم فتحت الدفتر الرابع، وكان عنوانه (مراتب الوسائل[١])[٢] ، وقد زين غلافه بقوله تعالى:﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد:٢٥)، وتحته قوله ﷺ :(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[٣]

قلت: ما الذي تقصد بالوسائل؟

قال: أقصد بها كل الأدوات التي يستخدمها الداعي إلى الله من أجل تبليغ رسالة الله.

قلت: ألهذه الأدوات المراتب؟ .. قد كنت أحسب أن الداعي إلى الله هو الذي لا يدخر أي أداة في سبيل تبليغ رسالة ربه.

قال: لكل شيء في هذا الوجود مرتبته الخاصة به .. فمن حاد به عنها وقع في الانحراف والضلال والإضلال.

قلت: فما الإضلال الذي يمكن أن يقع في هذا الباب؟

قال: أكثر الإضلال يقع في هذا الباب .. فقد يستعمل بعضهم من الوسائل ما لم يسمح له باستعماله، وقد يقدم بعضهم من الوسائل ما ينبغي أن يؤخر، وقد يؤخر ما ينبغي أن يقدم.

قلبت صفحات الدفتر، فوجدت أربعة مراتب كبرى، هي (العيان، واللسان، والإحسان، والسنان)، فقلت: أهذه مراتب هذا الباب؟

قال: هذه بعض مراتب هذا الباب .. أو هي مجامع مراتب هذا الباب.

العيان:

قلت: فما العيان؟

قال: الإنسان.

قلت: لم أفهم .. كيف يكون الإنسان وسيلة؟

قال: الإنسان هو أعظم الوسائل .. وليس في الدعوة إلى الله أعظم من الإنسان.

قلت: تقصد لسان الإنسان، أم جميع الإنسان؟

قال: لسان الإنسان بعض الإنسان .. وهو وسيلة من الوسائل .. وهو أقصر بكثير من وسيلة (الإنسان)

قلت: أنت تعلم صعوبة حلي للألغاز، فوضح لي ما ترمي إليه.

---

(١) الوسيلة هي : الأداة المستخدمة في إيصال المعاني ونقل الأفكار من الداعي إلى المدعو ..

(٢) استفدت الكثير من المادة العلمية هنا من كتاب (التدرج في دعوة النبي ﷺ) لإبراهيم بن عبد الله المطلق، الطبعة : الأولى، الناشر : وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – مركز البحوث والدراسات الإسلامية ، تاريخ النشر : ١٤١٧هـ

(٣)رواه مسلم.

قال: أرأيت لو أن خطيبا مفوها جاء بخطبة طويلة عريضة يصف فيها سلعة من السلع .. ثم جاء آخر لم يتحدث كلمة واحدة، وإنما عرض السلعة، وأراهم من خلال سلوكها وفوائدها قيمتها .. أيهم أقوم قيلا، وأفصح لسانا؟

قلت: لا شك أنه الثاني .. فـ (ليس الخبر كالعيان)[1]

قال: فهكذا في عرضنا للإسلام .. قد نعرضه في مقالات وخطب .. وتظل تلك المقالات والخطب مجرد كلمات قد تبث فيها الحياة، وقد تظل ميتة لا يهتم لها أحد، ولا يستفيد منها أحد .. لكنا لو عرضنا الإسلام عبر النماذج الإنسانية الراقية، وقلنا للعالم :(هذا هو الإنسان الذي لا يصنع إلا في مصنع الإسلام) حينها سيدخل الناس في دين الله أفواجا.

قلت: تقصد صناعة القدوة؟

قال: إن البشر بطبيعتهم التي جبلوا عليها لا تكفي في تغييرهم الأقوال، وهم لذلك يحتاجون إلى النماذج الراقية التي تبعث الحياة في أجساد الكلمات.

قلت: فما مجامع هذا، وما أصوله، وكيف نصل إليه؟

قال: ذلك علم من العلوم لم يؤذن لي أن أبثه لك .. وإن كنت صادقا، فسيقيض الله لك من يعلمك علومه[2].

قلت: فاذكر لي دليلا يدل عليه.

قال: قوله تعالى :﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب:٢١)، فقد أشار الله تعالى في هذه الآية إلى أن رسول الله ﷺ داعية إلى الله بأفعاله وسلوكه وآدابه.

اللسان:

قلت: فكيف جعلت اللسان في المرتبة الثانية؟

قال: لأن الله تعالى جعل اللسان هو وسيلة الخطاب .. ولذلك فإن الداعية إلى الله يستثمره أعظم استثمار في الدعوة إلى ربه .. لقد ورد لفظ : (قل) الداعي إلى استعمال هذه الوسيلة في القرآن الكريم في أكثر من ثلاثمائة آية .. وقد أثنى الله تعالى على أقوال الدعاة إلى الله، فقال :﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (فصلت:٣٣)

وقد أخبر الله تعالى أنه ما أرسل من رسول إلا بلسان قومه، فقال :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (ابراهيم:٤)

قلت: فهل استثمر رسول الله ﷺ هذه الوسيلة؟

قال: أعظم استثمار .. فلم يكن رسول الله ﷺ يدع مناسبة من المناسبات، ولا فرصة من الفرص إلا ودعا

---

(1) رواه أحمد وابن منيع والطبراني والعسكري وابن حبان والحاكم موقوفا على ابن عباس.

(2) انظر فصل (القدوة) من هذه الرسالة.

فيها إلى ربه ..

فحينما خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف دعاهم إلى الله بالقول، يقول ابن إسحاق : لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر ثقيف .. فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه.

وحينما أمره الله بعرض نفسه على القبائل، كان يدعوهم بالقول، يقول ابن إسحاق: فكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه، وما جاء به من الهدى والرحمة.

وبالقول استطاع رسول الله ﷺ إقناع وفد الأنصار بدعوة الحق حين التقى بهم، فقد قال لهم ــ كما يروي ابن إسحاق ــ: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا : بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان القول وسيلة مبعوثيه ﷺ في إقناع مدعويهم، فقد قال مصعب بن عمير ــ رضي الله عنه ــ وهو مبعوثه ﷺ إلى المدينة المنورة لزعيمي بني عبد الأشهل: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟

فهذه النصوص وغيرها كثير تبين أن اللسان من أهم وسائل الدعوة إلى الله.

قلت: فكيف نستثمر هذه الوسيلة؟

قال: بكل ما يمكن أن تستثمر به .. بالموعظة التي تدمع لها العيون .. والخطبة التي ترتجف لها القلوب .. والحوار الذي يصد عن الباطل ويهدي إلى الحق .. والمعلومة التي يقضى بها على الجهل .. وهكذا فميادين اللسان لا يمكن حصرها.

قلت: إن ذلك يستدعي علوما كثيرة.

قال: أجل .. ففاقد الشيء لا يعطيه .. وما اللسان إلا ثمرة لما غرس في الجنان.

قلت: فبأي لسان نتحدث .. فالألسنة كثيرة؟

قال: لقد قال الله تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (ابراهيم:٤)

قلت: إن ذلك يستدعي تعلم لغات العالم.

قال: أجل .. فما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب.

الإحسان:

قلت: فما الإحسان، وكيف جعلته في المرتبة الثالثة؟

قال: ألا تعرف البيت الذي يقول:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهمُ فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

قلت: بلى .. أعرفه .. فهذا البيت أشهر من نار على علم .. يعرفه منا الصغير والكبير، والنساء

والرجال.

قال: أتدري لم يحفظونه؟

قلت: أجل .. فهو يعبر عن حقيقة تمتلئ بها نفوسهم جبل عليهم طبعهم، فلا يستطيعون الانفكاك عنها.

قال: أي طبيعة؟

قلت: الإنسان بطبعه يميل إلى من أحسن إليه، ويحبه، ويخضع له.

قال: ولذلك كان الداعية إلى الله السائر على قدم رسول الله ﷺ هو الذي يستثمر هذه الطبيعة ليتسلل منها إلى القلوب ليملأها بأنوار الهداية[1].

قلت: ألا تخاف أن تنبت هذه الوسيلة المنافقين؟

قال: قد تنبت المنافقين .. ولكنها قد تنبت الصادقين.

قلت: فلم لم تسد الذريعة التي تنبت النفاق؟

قال: وكيف أسد الذريعة التي قد تنبت الصادقين؟

قلت: إن درء المفسدة أولى من جلب المصلحة.

قال: إن أعظم مفسدة هي الضلال .. والضلال يتحقق في كل ما يبعد عن الله سواء كان كفرا أو معصية أو نفاقا ..

قلت: فهل في السنة ما يدل على هذا؟

قال: ألم تقرأ قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:٦٠)؟

قلت: بلى .. إن هذه الآية تذكر مصارف الزكاة.

قال: ألا ترى أن من مصارف الزكاة التي نصت عليها الآية مصرف (المؤلفة قلوبهم)؟

قلت: بلى .. ولكني سمعت أن عمر ــ رضي الله عنه ــ منع هذا النوع من المصارف.

قال: عمر ــ رضي الله عنه ــ أورع من أن ينسخ حكما شرعيا.

قلت: ولكن النص في ذلك صحيح[2].

([1]) يثير المبشرون وغيرهم في كتبهم ومواقعهم التبشيرية بين الحين و الآخر شبهة مفادها أن إعطاء المؤلفة قلوبهم من مال الزكاة عبارة عن رشوة تستقبحها الضمائر النزيهة و أنه من غير المعقول أن يدعو المسلمون غير المسلمين إلى دينهم عن طريق دفع الرشاوى ، حتى وصلت جرأة أحدهم لأن يسأل في وقاحة:(أليست هذه رشوة؟ يعطي ثروة مهولة لقوم ، لكي يدخلوا الاسلام ، أليس هذا شراء للضمائر والذمم؟)، و يصيح آخر في هستيرية:(أليس هذا من أسوأ أنواع الرشوة؟ أليس هذا شراء لضمائر الناس؟ أيعجز محمد عن إثبات دينه بالمعجزات الربانية و الخوارق فيلجأ إلى أرخص الوسائل وأسهلها و هي شراء الولاءات؟ فبماذا تختلف هذه الأفعال عن قولنا أن الغرب يشتري حكّام العرب؟ فهي تدفع لهم حتى يخدموا مصالحها)

وسنتحدث عن جواب هذه الشبهة هنا.

([2]) وهو أنّ الأقرع بن حابسٍ وعيينة بن حصنٍ جاءا يطلبان من أبي بكر أرضًا ، فكتب لهما بذلك، فمرّا على عمر ، فرأى الكتاب فمزّقه ، وقال : هذا شيءٌ كان رسول اللّه ﷺ يعطيكموه ليتألّفكم ، والآن قد أعزّ اللّه الإسلام وأغنى عنكم ، فإن ثبتّم

قال: أرأيت لو أن معهدا من المعاهد يمنح لطلبته منحة مالية .. ثم تخرج بعض الطلبة، فقطعت عنه المنحة، فهل يحق له أن يطالب بها؟

قلت: لا يحق له أن يطالب بها، فهي منحة خاصة بالطلبة دون غيرهم.

قال: فهكذا فعل عمر ــ رضي الله عنه ــ .. لقد كان رسول الله ﷺ يعطي بعض الناس يؤلف قلوبهم، فلما رأى عمر ــ رضي الله عنه ــ أن هؤلاء قد قدموا في الإسلام، و لم يعودوا بحاجة إلى تأليف القلوب قطع هذه المنحة عنهم.

قلت: ففي السنة ما يدل على هذه الوسيلة من هذه الوسائل إذن؟

قال: أجل .. فما كان النبي ﷺ يهتدي إلا بهدي القرآن الكريم ..

قلت: فحدثني بما ورد في ذلك ليطمئن قلبي.

قال: لقد روى علماء السيرة أن رسول الله ﷺ ــ بعد غزوة حنين ــ بدأ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس، فأعطى أبا سفيان بن حرب ٤٠ أوقية من الفضة و١٠٠ من الإبل وكذا ابناه يزيد ومعاوية، وأعطى حكيم بن حزام ١٠٠ من الإبل، ثم سأله مئة أخرى فأعطاه إياها، وأعطى النضر بن الحارث بن كلدة ١٠٠ من الإبل، وكذا أسيد بن جارية الثقفي والحارث بن هشام، وصفوان بن أمية، وقيس بن عدي، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، والأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن، ومالك بن عوف.

وأعطى العباس بن مرداس ٤٠ من الإبل فقال في ذلك شعراً فأعطاه ١٠٠ من الإبل، وأعطى مخرمة بن نوفل ٥٠ بعير، وكذا العلاء بن حارثة وسعيد بن يربوع وعثمان بن وهب وهشام بن عمرو العامري، فبلغ ما أعطى ممن ذكروا ١٤٨٥٠ من الإبل.

قلت: إن البعض قد يرى في تفضيل أمثال هؤلاء الذين كانوا حربا على الإسلام إسرافا لا مبرر له؟

قال: لقد كان رسول الله ﷺ أعظم الناس حكمة .. لقد رأى أن أمثال هؤلاء لا يجذبهم شيء كما يجذبهم الإحسان، فلذلك راح يطوق أعناقهم به.

قلت: فهل أثر هذا العطاء فيهم؟

قال: لقد حدث صفوان بن أمية عن نفسه بعد أن أعطاه رسول الله ﷺ عطاءه، فقال:(والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي)[1]

وحدث أنس ــ رضي الله عنه ــ عن أثر ذلك العطاء، فقال:(إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها)[2]

قلت: ولكن .. ألم يهز ذلك أولئك المؤمنين البسطاء الذين قضوا حياتهم كلها جهادا وتضحية مع رسول الله ﷺ؟

على الإسلام ، وإلاّ فبيننا وبينكم السّيف، فرجعا إلى أبي بكرٍ ، فقالا ، ما ندري : الخليفة أنت أم عمر؟ فقال : هو إن شاء ، ووافقه، و لم ينكر أحد من الصّحابة ذلك.

([1]) رواه مسلم.

([2]) رواه مسلم.

قال: لقد وجد بعضهم من ذلك، لكنه ما إن بين لهم رسول الله ﷺ سر ذلك التفضيل حتى راحوا يسلمون لرسول الله ﷺ تصرفه ..

قلت: وما قال لهم؟

قال: سأحدثك بالحديث من أوله .. لقد حدث جمع من الصحابة[1] ــ رضي الله عنهم ــ أن رسول الله ﷺ أصاب غنائم حنين، وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم ــ وفي رواية: طفق يعطي رجلا المائة من الابل، ولم يكن في الأنصار منها شئ قليل ولا كثير ــ فوجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثر فيهم القالة حتى قال قائلهم: يغفر الله تعالى لرسول الله ﷺ إن هذا لهو العجب يعطي قريشا، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا، وددنا أنا نعلم ممن كان هذا، فإن كان من أمر الله تعالى صبرنا، وإن كان من رأي رسول الله ﷺ استعتبناه.

فمشى سعد بن عبادة ــ رضي الله عنه ــ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم، قال: (فيم؟)، قال: فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب، ولم يكن فيهم من ذلك شيء، فقال رسول الله ﷺ :(فأين أنت من ذلك يا سعد؟) قال: ما أنا إلا امرؤ من قومي، فقال رسول الله ﷺ :(فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة)، فخرج سعد يصرخ فيهم حتى جمعهم في تلك الحظيرة، حتى إذا لم يبق أحد من الانصار إلا اجتمع له، أتاه فقال يا رسول الله: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار حيث أمرتني أن جمعهم، فخرج رسول الله ﷺ فقال:(هل منكم أحد من غيركم؟) قالوا: لا يا رسول الله إلا ابن أختنا، قال: (ابن أخت القوم منهم)، فقام رسول الله ﷺ خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: (يا معشر الأنصار ألم آتكم ضلالا فهداكم الله تعالى وعالة فاغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم، ومتفرقين فالفكم الله؟)، قالوا: بلى يا رسول الله، الله ورسوله أمن وأفضل.

ثم قال رسول الله ﷺ :(ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟)، قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ وماذا نجيبك؟ المن لله تعالى ولرسوله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ :(والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم، جئتنا طريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك، وخائفا فأمناك، ومخذولا فنصرناك، ومكذبا فصدقناك)، فقالوا: المن لله تعالى ورسوله، فقال: (وما حديث بلغني عنكم؟)، فسكنوا، فقال: (ما حديث بلغني عنكم؟) فقال فقهاء الانصار: أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئا، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا يغفر الله تعالى لرسوله ﷺ يعطي قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم! فقال رسول الله ﷺ :(إن قريشا حديثو عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم وأتالفهم، أوجدتم يا معشر الانصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله تعالى لكم من الاسلام، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم تحوزونه إلى بيوتكم، فو الله لمن تنقلبون به خير مما ينقلبون به، فو الذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعبا وسلكت الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار .. أنتم الشعار والناس دثار .. الأنصار

---

(1) رواه ابن إسحاق، وأحمد عن أبي سعيد الخدري، وأحمد، والبخاري ومسلم من طريق أنس بن مالك، وهما عن عبد الله بن يزيد بن عاصم .. بروايات مختلفة، وقد حاولنا الجمع بينها.

كرشي وعيبتي، ولولا أنها الهجرة لكنت امرأ من الانصار، اللهم ارحم الانصار، وأبناء الانصار)، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا بالله ورسوله حظا وقسما.

قلت: لقد نجح رسول الله ﷺ في التعامل مع الحدث.

قال: بالصدق نجح في التعامل معه .. لقد كان رسول الله ﷺ يعلم ما تمتلئ به قلوبهم من محبة الله ومحبة رسوله، فلذلك خاطبهم بهما[1].

قلت: أبالمال وحده يمكن الإحسان؟

قال: لا .. الإحسان أعم من أن يقتصر على المال، ألم تسمع قوله تعالى :﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٣)؟

قلت: بلى ..

قال: فقد أشار الله في هذه الآية إلى أن القول المعروف والمغفرة قد يكونان خيرا من الصدقة.

قلت: فهل أثر عن رسول الله ﷺ في ذلك شيء.

قال: لقد كان رسول الله ﷺ يستعمل كل الوسائل ليجذب القلوب إلى التعرف على الله وعبادته ..

قلت: فحدثني عن المغفرة.

قال: المغفرة من الأخلاق التي أمر الله تعالى بها رسوله ﷺ، وأخبر أن لها من التأثير ما جعل القلوب تلتف به ﷺ .. قال تعالى :﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩)

وفي موضع آخر قال تعالى :﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (لأعراف:١٩٩)

وقد أخبر الله تعالى عن تأثير العفو والمقابلة بالحسنى في المودة، فقال :﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤)

قلت: فهل ورد في السنة ما يدل على هذا؟

قال: ذلك كثير .. منه ما حدث به جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنه ــ أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فترل رسول الله ﷺ وتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة، فعلق بها سيفه، قال جابر : فنمنا نومة فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: (إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتًا، فقال لي : من يمنعك مني ؟ قلت : الله، فها هو ذا جالس)، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ ..

---

(1) ذكر محمد بن عمر أن رسول الله ﷺ أراد حين إذا دعاهم أن يكتب بالبحرين لهم خاصة بعده دون الناس، وهي يومئذ أفضل ما فتح عليه من الارض، فقالوا: (لا حاجة لنا بالدنيا بعدك)، فقال رسول الله ﷺ :(إنكم ستجدون بعدي أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)

وقد كانت نتيجة هذا العفو أن رجع الرجل إلى قومه، وقال:(جئتكم من عند خير الناس)[1]

ومنه ما حدث به الرواة من قصة ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة، وأسره .. فقد ورد في بعض الروايات عن ابي هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ: أن رسول الله ﷺ بعث خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة ولا يشعرون من هو حتى أتوا به رسول الله ﷺ، فقال: (أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي، أحسنوا اساره)، فربطوه بسارية من سواري المسجد[2].

وفي رواية أخر أن ثمامة كان رسول مسيلمة إلى رسول الله ﷺ قبل ذلك وأراد اغتياله، فدعا رسول الله ﷺ ربه تبارك وتعالى أن يمكنه منه، فدخل المدينة معتمرا وهو مشرك فدخل المدينة حتى تحير فيها فأخذ، ورجع رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: (اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه)، وأمر بلقحته ان يغدى عليه بها ويراح، فجعل لا يقع من ثمامة موقعا ويأتيه رسول الله ﷺ فيقول: (ما عندك يا ثمامة ؟) فيقول: (إيها يا محمد، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن ترد الفداء فسل منه ما شئت)، فتركه رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد فقال: (ما عندك يا ثمامة ؟) قال: عندي ما قلت لك، وذكر مثله، فقال رسول الله ﷺ: (أطلقوا ثمامة)، فأطلقوه فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد، فقال: (أشهد ألا اله الا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلى، والله ما كان من دين أبغض إلى من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إلى، والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلى، وان خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟) فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر.

قال ابن هشام: فبلغني انه خرج معتمرا حتى إذا كان ببطن مكة لبى فكان أول من دخل مكة يلبي، فأخذته قريش فقالوا: لقد اجترأت علينا، فلما قدمو ه ليضربوا عنقه قال قائل منهم: دعوه فانكم تحتاجون إلى اليمامة لطعامكم فخلوه، وقالوا: أصبوت يا ثمامة ؟ فقال: لا، ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ اتبعت خير دين، دين محمد، ووالله لا تصل اليكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا منها شيئا إلى مكة حتى أكلت قريش العلهز.

فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: (إنك تأمر بصلة الرحم وانك قد قطعت أرحامنا)، فكتب رسول الله ﷺ إليه أن يخلي بينهم وبين الحمل، وأنزل الله عز وجل :﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) (المؤمنون:٧٦)[3]

ومنه الحديث الذي سارت به الركبان من عفوه ﷺ عن أهل مكة بعد كل ما صدر منهم في حقه وفي حق أصحابه وفي حق دعوته .. لقد روى جمع من الصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ وغيرهم[4] قالوا: إن رسول الله ﷺ

---

(1) رواه البخاري.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه البيهقي عن ابن اسحاق.

(4) رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن عبد الله بن عمر بن الخطاب والبخاري في صحيحه عن مجاهد، وابن أبي شيبة، وابن إسحاق عن صفية بنت شيبة، والبيهقي عن عبد الله بن عمر، وابن أبي شيبة عن عبد الله بن عبيدة.

لما خرج من البيت استكف له الناس، وأشرف على الناس وقد ليط بهم حول الكعبة ــ وهم جلوس ــ قام على بابه فقال:(لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الاحزاب وحده، يا معشر قريش ماذا تقولون؟ ماذا تظنون؟)، قالوا: نقول خيرا ونظن خيرا، نبي كريم، وأخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت، فقال رسول الله ﷺ :(فاني أقول كما قال أخي يوسف :﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(يوسف: من الآية٩٢)، اذهبو فانتم الطلقاء)، فخرجوا كأنما نشروا من القبور، فدخلوا في الاسلام.

السنان:

قلت: فما السنان، وكيف جعلته في المرتبة الرابعة؟

قال: السنان هو أداة السلطان .. و(الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)[١]

قلت: ما دام بيد السلطان، فكيف وضعته هنا؟

قال: لأعرف أهله، فأدل السلطان عليهم.

قلت: ألا تكون بذلك واشيا؟

قال: بل أكون داعيا .. لقد قال ﷺ :(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[٢]

قلت: لم يذكر رسول الله ﷺ في هذا الحديث السلطان، فكيف ذكرته؟

قال: كل من تولى شيئا كان له السلطة عليه، ألم تسمع قوله ﷺ :(كلكم راعٍ، وكلكم مسؤولٌ عن رعيته، والأمير راعٍ، والرجل راعٍ على أهل بيته؛ والمرأة راعيةٌ على بيت زوجها وولده، فكلكم راعٍ، وكلكم مسؤولٌ عن رعيته)[٣]

قلت: بلى .. وهذا الحديث أشهر من نار على علم.

قال: فلذلك لا تغير منكرا بيدك إلا إذا كانت لك سلطة عليه، أو إذن من السلطة.

قلت: فسر لي ذلك.

قال: انظر .. فقد وضعت لهذا خمس حالات .. ووضعت لكل حالة حلها.

نظرت، فرأيت مكتوبا في الحالة الأولى :(**أن يكون للمغيِّر ولاية خاصة على ذي المنكر**)، فقلت: ما الذي تقصد بهذا؟

قال: أقصد ما ذكره ﷺ من الولاية الخاصة، كولاية الوالد على ولده، والزوج على زوجته.. فلهؤلاء الحق في تغيير ما يرونه منكرا ممن تولوهم .. لقد أشار ﷺ إلى هذا النوع من الولاية بقوله :(مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر)[٤]، فقد أذن ﷺ في استعمال هذه الأسلوب في تربية

---

(١) روي عن عثمان موقوفا ونحوه عن عمر موقوفا.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤)رواه أبو داود والحاكم.

الأولاد، ولكن بعد ثلاث سنين تجرب فيها جميع الوسائل الأخرى.

وهكذا .. إذا رأى الزوج من زوجته منكرا، فإنه يجب عليه أن يغيره بيده ..

قلت: فللأب أن يقيم الحدود على ابنه، وللزوج أن يقيم الحدود على زوجته.

قال: لا .. ذلك للإمام الأعلى ..

قلت: فما التغيير باليد إذن؟

قال: التغيير باليد ذو صور ومراحل عديدة .. منها استخدام اليد في إفساد آلات المنكر، أو إذهاب عين المنكر، كتحطيم أدوات شرب الخمر وإراقتها، وهدم حاناتها، إذا لم تكن تصلح إلا لذلك، أو غلق الطرق المؤدية إليها، أو قطع المياه وأدوات الإنارة عنها، أو إفساد آلات الغناء الماجن المحرم، وإفساد أماكن بيعه وتوزيعه، إذا لم تكن تلك الأماكن صالحة إلا لذلك ..

قلت: فقد انحصر الأمر في إفساد آلة المنكر .. والضرب.

قال: أما إفساد آلة المنكر، فلا يفسدها إلا إذا كانت لمحض المنكر .. وأما الضرب، فله حدود وضوابط لابد من التزامها، وإلا كان التغيير نفسه منكرا[1].

نظرت، فرأيت مكتوبا في الحالة الثانية :(**أن يكون للمغيِّر ولاية عامة على ذي المنكر**)، فقلت: ما الذي تقصد بهذا؟

قال: الولاية العامة هي ولاية الحاكم على رعيته .. وبما أن هذا الحاكم مفوض من الرعية بإقامة العدل، وتوفير الأمن، فقد أعطاه الشرع حق استعمال الشدة في محلها، ولأهلها.

قلت: فلم لم يضع طرقا أكثر رحمة، وأميل إلى الرفق؟

قال: أرأيت لو أن مريضا من الأمراض أصابه ورم عجز كل علاج عن شفائه، فلم ير الطبيب حلا لذلك إلا استئصال الورم بعملية جراحية .. أكان في ذلك رحيما أم قاسيا؟

قلت: ما دام لم يجد أي علاج .. فما وصفه عين الرحمة؟

قال: وبهذا جاء الشرع الممتلئ بالحكمة .. لقد وضع منهجا متكاملا في التربية والإصلاح في كل المجالات .. ثم جعل بعد ذلك للحاكم من السلطة ما يفرض به قوانين العدالة والرحمة.

قلت: إن البعض يشنع في مثل هذا[2].

قال: دعهم يشنعون، فإنهم بذلك ينصرون المستكبرين المجرمين .. فلا يدافع عن المجرم إلا مجرم، أو من يحلم بأن يصير مجرما.

اسمع هذه الآية الشديدة التي تتحدث عن الجزاء المرتبط بهؤلاء:﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ

---

(1) ذكرنا الضوابط الشرعية لاستعمال هذه الوسيلة في كتاب (الأساليب الشرعية لتربية الأولاد) من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية)

(2) سنرى التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة.

لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة:٣٣)

واسمع الآية الأخرى التي تأمر بإقامة حد الزنا، وعدم الالتفات لما تمليه العواطف في ذلك:﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور:٢)

ألا ترى أن في تعليق الحاكم لافتة بأمثال هذا في كل المحال، سيردع كل محارب، وسيقمع نفس كل مجرم؟

قلت: بلى .. ذلك صحيح.

قال: فلهذا قال الصالحون (إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)

نظرت، فرأيت مكتوبا في الحالة الثالثة :(**ألا يكون للمغيِّر أي ولاية على ذي المنكر**)، فقلت: ما الذي تقصد بهذا؟

قال: هذا هو الأعم الغالب .. فأكثر أفراد الرعية لا سلطان لبعضهم على غيره.

قلت: فكيف يتم الإنكار باليد هنا؟

قال: ليس لذلك إلا سبيل واحد.

قلت: ما هو؟

قال: إذا كان الحاكم عادلا، وناصحا، ومهتما بشأن رعيته، أو فوض من يقوم بذلك، فإن على المؤمن أن يسعى إلى هؤلاء طالبا منهم أن يقوموا بتغيير المنكر بما أوتوا من وسائل الحزم.

قلت: فإن لم يكن.

قال: لم يبق حينها إلا الجهاد باللسان .. فلا يحق لمسلم أن ينشر الفتنة بتغيير المنكر بيده .. إنه بذلك يغير منكرا واحدا، ويحيي مناكر كثيرة.

قلت: الجهاد باللسان مع الحاكم المقصر، أم مع المحكوم؟

قال: مع كليهما .. فكلاهما في منكر .. أما الحاكم فبسكوته، وأما المحكوم فبفعله.

نظرت، فرأيت مكتوبا في الحالة الرابعة :(**أن يكون لذي المنكر ولاية خاصة على من يقوم بتغيير منكره**)، فقلت: ما الذي تقصد بهذا؟

قال: كأن يكون ذو المنكر والد المغيِّر أو زوجها ..

قلت: فما عسى هؤلاء المستضعفين أن يفعلوا؟

قال: يفرق هنا بين نوع المنكر ودرجته .. فإن لم يترتب عن تغيير المنكر باليد أي إيذاء أو ضرر، فلهما ذلك .. أما إذا ترتب عنه ضرر، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها[1].

([1])ذهب الإمام الغزالي إلى أن للولد مع والده الواقع في المنكر ، أن يغيره بالمنع ، بالقهر ، بطريق المباشرة ، (بأن يكسر مثلاً عوده ، ويريق خمره ، ويحل الخيوط من ثيابه المنسوجة من الحرير ، ويرد إلى الملاك ، ما يجده في بيته من المال الحرام الذي غصبه أو سرقه ، أو أخذه عن إدرار رزق من ضريبة المسلمين إذا كان صاحبه معيَّناً ، ويبطل الصور المنقوشة على حيطانه ، والمنقورة في خشب بيته ، ويكسر أوان الذهب والفضة ، فإنَّ فعله في هذه الأمور ليس يتعلق بذات الأب ، بخلاف الضرب والسب ، ولكن

نظرت، فرأيت مكتوبا في الحالة الخامسة :(**أن يكون ذو المنكر ذا ولاية عامة على من يقوم بتغيير منكره**)، فقلت: ما الذي تقصد بهذا؟

قال: هذه الحالة أخطر حالات إنكار المنكر، وأدقها، وأصعبها .. فهي ترتبط بالإنكار على الحاكم[1].

قلت: فما مصدر الصعوبة فيها؟

قال: الحاكم في نظر الشريعة يمثل أمرين: العدل، والأمن .. والحاكم الكامل هو الذي جمع بين الأمرين .. فلذلك إن لم يترتب عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إخلال بكلا الجانبين، وجب الإنكار.. أما إذا ترتب عنه الإخلال بهما، أو بأحدهما، وجب استعمال وسائل أخرى بديلة.

قلت: عرفت العدل .. فما الأمن؟

قال: أن تنتشر الفوضى التي هي مرتع الفتن ومنبعها ..

قلت: فهل نسالم مثل هذا الإمام؟

قال: السلام الذي يزين بالنصيحة، لقد أمرنا رسول الله ﷺ بذلك ..

قلت: أجل .. فقد حدث تميم بن أوس الداري ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ قال: الدين النصيحة، قلنا: لمن ؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم[2].

قال: وقد صرح ﷺ بالنهي عن قتال الأئمة الظالمين، ما داموا لم يتدخلوا في شؤون الدينية الأساسية، فقال:(إنه يُستعمل عليكم أُمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع)، قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم ؟ قال لا، ما صلُّوا[3].

***

الوالد يتأذى به ويسخط بسببه إلا أنَّ فعل الولد حق وسخط الأب منشؤه حبه للباطل وللحرام ، والأظهر في القياس أنه يثبت للولد ذلك بل يلزمه أن يفعل ذلك)(انظر: الإحياء: ٣١٨/٢)

([1]) فرق الفقهاء ــ هنا ــ بين حالين:

١. إن كان منكره منكراً خاصاً لا يتعلق بحق الرعية ، فإن كان يفعله سراً فلمن يراه أن يغيره ، بما يستطيع ، إذا لم يترتب على تغييره منكر أشد منه ، وأشنع ، وليس له الاعتداء على السلطان بدفع ، أو إيثاق ، أو حبس ، أو ضرب ، وليس له إفشاء هذا السر في الناس ، حتى يبقى للسلطان في قلوب العامة هيبة ، ما دام مسلماً .

٢. إن كان منكره مما يجهر به ، فعلى علماء الأمة تعريفه وتعليمه ، ليكف ما دام مسلماً يقيم الصلاة ، ثم منعه منه ، وعلى العامة مناصرة العلماء ، دون إحداث فتنة أشنع من منكره ، الذي يجاهر به ، ما دام هذا المنكر ليس كفراً بواحاً .. وإن كان منكر السلطان متعلقاً بحق رعيته ، كفرض مكوس وضرائب ظالمة تنفق فيما لا تنفع المسلمين والرعية ، أو كإشاعة الفسق ، أو مناصرة الطغاة من رعيته ، واحتجابه عن المظلومين من رعيته ، فعلى العلماء القيام أولاً بتعريفه الحق ونصحه ، فإن لم يفعل ، ومكث على ذلك ، سعى العلماء إلى منعه من ذلك ، باتحادهم ، والتصدي له ، وحشد العامة حولهم، حتى يرتدع خوفاً على سلطانه ، وليس لهم الخروج عليه بالسيف ، ما دام يعلن إسلامه ويقيم الصلاة ، فإنه وإن كان ظالماً فاسقاً ، فإنه مسلم ، وفي الخروج عليه بالسيف فتنة أشد وأنكى من منكره ، لأن في الخروج عليه بالسيف تهديماً لهيبة الأمة ، في عيون وقلوب أعدائها من الكافرين ، وعلى العلماء السعي إلى عزله ، بطريق غير طريق السيف.

([2])رواه مسلم.

([3]) رواه مسلم.

ما استتم صاحبي حديثه هذا حتى وجدنا أنفسنا قد قطعنا المرحلة الأولى من الطريق من غير أن نشعر بأي عناء أو تعب ..

لقد كنت أتخيل نفسي في الهند .. ومع هذا الرجل الحكيم .. ومع ذلك النبي الحكيم الذي امتلأ العالم جميعا بلطائف حكمته، وأنوار هدايته .. ولم يخطر على بالي طيلة هذه المرحلة ما كنا نقطعه من غابات موحشة، ومن سباع عادية تتربص بنا من كل اتجاه.

سألت صاحبي عن الكاندهلوي وكيف تركه، فقال: لقد ظللت فترة مهمة من عمري في صحبته، إلى أن توفاه الله، وهو في طريق الله .. وقد كان موته ــ كحياته ــ لا يختلفان.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد كنت أسير معه في بادية من البوادي .. وكان فيها بعض الحاقدين عليه، وعلى الدين الذي يدعو إليه، وعلى السلام الذي تمتلئ به نفسه .. فلذلك استغل فرصة من فرص غفلتنا، فراح يطعنه بما امتلأت به نفسه من حقد.

قلت: فكيف عرفتم الجاني؟

قال: لقد أقر بجنايته ..

قلت: عجبا .. كيف يقر بجنايته .. وهو لم يلحظه أحد؟

قال: عندما قدمنا، فوجدنا صاحبنا مضرجا في دمائه، والبسمة تملأ شفتيه، والأسارير الصافية تملأ وجهه، وجدنا بجانبه قاتله يبكي عليه كما يبكي على أعز الناس.

قلت: إن هذا لعجيب .. أمجنون من قتله؟

قال: بل عاقل .. ولكن حقده غلب على عقله، فقتله.

قلت: فكيف غلب عقله على حقده، فندم؟

قال: لقد كان الكاندهلوي هو سبب توبته وندمه .. لقد ظل الكاندهلوي داعية إلى الله إلى آخر قطرة من عمره.

قلت: إن ما تقوله عجيب .. كيف وقد قتل؟

قال: لقد حكى لنا قاتله من أمره ما قفت له شعورنا، وعلمنا منه أنه كان لصاحبنا من الصدق والإخلاص ما لم نكن نتصوره.

قلت: فما حكى؟

قال: بعد أن طعنه، ونفذت الطعنة القاتلة فيه، نظر إليه والبسمة تملأ شفتيه، وقال له: يا أخي .. ما أنا سوى بشر بسيط .. وجسدي الذي طعنته بشفرتك لا يختلف كثيرا عن التراب الذي تسير عليه .. فلا تنشغل بي عن السير إلى ربك .. سر إلى الله، فإنك إن سرت ترى العجائب.

ثم قال له: إن كان لي حق في قتلك لي .. فقد أسقطته .. وأرجو أن نلتقي عند ربنا أخوين لندخل جميعا جنة الرضوان .. تلك الجنة التي لا غل فيها ولا حقد ولا صراع ..

قال ذلك، ثم ابتسم ابتسامة عريضة، وقال: أعوذ بك يا رب أن يشقى هذا المسكين بسببي .. فافتح له من أبواب رحمتك وفضلك وهدايتك ما تريد الشياطين أن تغلقه في وجهه.

قلت: إن هذا مشهد مؤثر .. فما فعل القاتل؟

قال: لقد أخبرنا بما نزل على قلبه من أشعة النور التي حولته فردا من أهل الله، وقد صحبنا زمانا، ورأينا من علامات صدق توبته ما جعلنا نؤمن بعظم المنهج الذي اختاره الحكيم في الدعوة إلى ربه .. منهج الحكمة الذي استفاده من النبي الحكيم.

ما وصل الكاندهلوي من حديثه إلى هذا الموضع حتى شعرت بأشعة عظيمة تتترل علي اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ .

ثانيا ـــ الواعظ

قلت: فحدثني عن رحلتك الثانية.

قال: في رحلتي الثانية .. سرت إلى الطائف .. إلى تلك البلدة التي تشرفت بقدوم رسول الله ﷺ إليها، وهو يحمل أعظم رسالة في الأرض .. بل أعظم رسالة في الكون جميعا .. رسالة التعريف بالله، والدعوة إلى عبادته.

كنت قبل ذلك قد تشرفت بأداء عمرة في مكة المكرمة، ثم منها سرت إلى الطائف، وقد حاولت أن أنهج نفس الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ في رحلته إليها، لأستشعر الجهد العظيم الذي ناله ﷺ وهو يؤدي رسالة ربه .. فنالني من الجهد في تلك الطريق ما لم ينلني في حياتي جميعا.

في الطائف شد انتباهي رجل كانت سيما الدعاة إلى الله تتجلى على جبينه ولسانه وجميع حركاته، وكأنه يعد حركاته عدا، فلا يتحرك حركة إلا وخلط فيها من الدعوة إلى الله ما يملأك بالعجب ..

سأقص عليك القصة من البداية:

كان أول ما ظهر لي عند زيارتي للطائف أن أزور مقبرتها، فليس هناك واعظ يمسح الجفاء عن القلوب مثل المقابر ..

في المقبرة رأيت صاحبي الذي أرشدني إليه معلم الهداية، والذي كان الناس يطلقون عليه (الأمير)[1] ينشد

([1]) أشير به إلى الإمام إبراهيم بن محمد بن إسماعيل الحمزي الحسني الهاشمي المعروف بالأمير(١١٤١ - ١٢١٣ ه = ١٧٢٩ - ١٧٩٩ م) وهو واعظ، ومفسر، من متصوفي الزيدية، نعته الشوكاني بكونه (عالم الدنيا وحافظها، وخطيب الأمة وواعظها)، ولد وتعلم في صنعاء، ورحل إلى مكة مرات ثم استقر إلى أن توفي فيها.

من كتبه (فتح الرحمن في تفسير القرآن بالقرآن) ، و (فتح المتعال الفارق بين أهل الهدى والضلال) و (مجموع) ذكر فيه مؤلفات والده وشيوخه وتلاميذه وتراجم بعض معاصريه.

وله شعر فيه جودة وهو من (بيت الامير) بصنعاء، نسبتهم إلى جدهم يحيى بن حمزة بن سليمان الحسني المتوفي سنة ٦٣٦ ه، وكان (أميرا) مجاهدا، فعرف نسله ببيت الامير، ومنهم علي بن إبراهيم الامير (١٢١٩) ومحمد بن إسماعيل الامير (١١٨٢) وآخرون.

ومما قال فيه الشوكاني: (هو من أعيان العلماء، وأكابر الفضلاء جامع بين الشريعة والطريقة، عارف بفنون من العلم، لا سيما الحديث والتفسير، وله فى التصوف والتسليك يد طولى، قرأ على والده وعلى غيره، وأقرأ فى جامع صنعاء فى صحيح البخارى وغيره، وله في الوعظ يد طولى، وقد قعد لذلك فى مواطن، فانتفع به الناس)

انظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن علي الشوكاني، وانظر: الأعلام للزركلي.

وقد اخترناه لسببين: أولاهما أنه واعظ جمع بين الوعظ والسلوك، ولا يكمل الوعظ إلا بالسلوك.

والثاني: أنا أردنا أن نشير من خلاله إلى طائفة من طوائف الأمة التي لا تزال تتمسك بهدي نبيها ﷺ وبهدي أهل بيته الطاهرين، وهي (الزيدية)، وهي طائفة تنسب إلى زيد بن علي بن الحسين (٧٩ - ١٢٢هـ، ٦٩٨ - ٧٤٠م)، وتتفق مع الاثني عشرية (والتي سنشير إلى علم من أعلامها البارزين في عصرنا، وهو القمي في الفصل الأخير) في ترتيب الأئمة حتى الإمام علي زين العابدين، ولكنها تقول بإمامة زيد بدلاً من محمد الباقر.

ومن أعلامها البارزين غير الأمير محمد بن إبراهيم بن الوزير (٧٧٥ - ٨٤٠هـ)، ومحمد بن إسماعيل بن الأمير (١٠٩٩ - ١١٨٢هـ)، ومحمد بن علي الشوكاني (١١٧٣ - ١٢٥٠هـ)

مخاطبا نفسه بأبيات الحريري المعروفة، والتي ضمنها مقامته الساوية:

أيـــــا مـــــن يـــــدعي الفهـــــم   الى كـــــم يـــــا أخـــــا الـــــوهم
تعـــــبي الـــــذنب والـــــذم   وتخطـــــي الخطـــــأ الجـــــم
أمـــــا بـــــان لـــــك العيـــــب   أمـــــا أنـــــذرك الشـــــيب
ومـــــا في نصـــــحه ريـــــب   ولا سمعـــــك قـــــد صـــــم
أمـــــا نـــــادى بـــــك المـــــوت   أمـــــا أسمعـــــك الصـــــوت
أمـــــا تخشـــــى مـــــن الفـــــوت   فتحتـــــاط وتهتـــــم
فكـــــم تســـــدر في الســـــهو   وتختـــــال مـــــن الزهـــــو
وتنصـــــب الى اللـــــهو   كـــــأن المـــــوت مـــــا عـــــم
وحتـــــام تجافيـــــك   وإبطـــــاء تلافيـــــك
طباعـــــا جمعـــــت فيـــــك   عيوبـــــا شملـــــها انضـــــم
إذا أســـــخطت مـــــولاك   فمـــــا تقلـــــق مـــــن ذاك
وإن أخفـــــق مســـــعاك   تلظيـــــت مـــــن الهـــــم
وإن لاح لـــــك الـــــنقش   مـــــن الأصـــــفر تهـــــتش
وإن مـــــر بـــــك الـــــنعش   تغامـــــت ولا غـــــم

ومواطن الخلاف بين الزيدية وبقية المذاهب الإسلامية تخص الفروع، ولا تكاد تذكر، ويتركّز أكثر أتباع المذهب الزيدي في اليمن.

تعاصي الناصح البر وتعتاص وتزور

وتنقاد لمن غر ومن مان ومن نم

وتسعى في هوى النفس وتحتال على الفلس

وتنسى ظلمة الرمس ولا تذكر ما ثم

ولو لاحظك الحظ لما طاح بك اللحظ

ولا كنت إذا الوعظ جلا الأحزان تغتم

ستذري الدم لا الدمع إذا عاينت لا جمع

يقي في عرصة الجمع ولا خال ولا عم

كأني بك تنحط الى اللحد وتنغط

وقد أسلمك الرهط الى أضيق من سم

هناك الجسم ممدود ليستأكله الدود

الى أن ينخر العود ويمسي العظم قد رم

ومن بعد فلا بد من العرض إذا اعتد

صراط جسره مد على النار لمن أم

فكم من مرشد ضل ... ومن ذي عزة ذل
وكم من عالم زل ... وقال الخطب قد طم
فبادر أيها الغمر ... لما يحلو به المر
فقد كاد يهي العمر ... وما أقلعت عن ذم
ولا تركن الى الدهر ... وإن لان وإن سر
فتلفى كمن اغتر ... بأفعى تنفث السم
وخفض من تراقيك ... فإن الموت لاقيك
وسار في تراقيك ... وما ينكل إن هم
وجانب صعر الخد ... إذا ساعدك الجد
وزم اللفظ إن ند ... فما أسعد من زم
ونفس عن أخي البث ... وصدقه إذا نث
ورم العمل الرث ... فقد أفلح من رم
ورش من ريشه انحص ... بما عم وما خص
ولا تأس على النقص ... ولا تحرص على اللم
وعاد الخلق الرذل ... وعود كفك البذل

ولا تســـــــــــتمع العـــــــــــذل ونزههـــــــا عـــــــن الضـــــــم

وزود نفســـــــــــك الخـــــــــير ودع مـــــــا يعقـــــــب الضـــــــير

وهيـــــــــئ مركـــــــب الســـــــير وخـــــــف مـــــــن لجـــــــة الـــــــيم

كان ينشد هذه الأبيات بلحن عذب، زاد في عذوبته امتزاجه بحشرجة الدموع .. وقد أسال من دموعي بإنشاده وخشوعه ما غسل بعض القسوة من قلبي.

بعد أن انتهى من إنشاده خرج من المقبرة، فسرت خلفه من غير أن يشعر بي ..

كان أول ما صادفنا بعد المقبرة رجل يعرض سلعة في مدخل السوق، ما إن رأى (الأمير) حتى أقبل مسرعا إليه، وقال: يا طبيب القلوب .. جد لي بموعظة تلين ما قسا من قلبي.

نظر إليه (الأمير) نظرة ممتلئة بالرحمة، وقال: (يا ابن آدم إنما تغدو في كسب الأرباح، فاجعل نفسك فيما تكسبه، فإنك لم تكسب مثلها)[1]

عاد الرجل إلى محله، وقد امتلأ عزيمة وإرادة .. وكأنه في ذلك الموقف البسيط قد شحن قلبه بما يعيد له الحياة.

سرت خلفه .. فلقيه رجل آخر، وطلب منه ما طلب الأول، فقال (الأمير):(من امتطى الصبر قوي على العبادة، ومن أجمع اليأس استغنى عن الناس، ومن أهمته نفسه لم يول مرمتها غيره، ومن أحب الخير وفق له، ومن كره الشر جنبه، ومن رضي الدنيا من الآخرة حظا فقد أخطأ حظ نفسه)

لقيه بعد ذلك رجل يظهر من مظهره أنه صاحب وظيفة دينية في تلك البلدة، فأسرع إليه (الأمير)، وقال: أخي .. أنت مثل نفسي .. فاسمح لي أن أخاطبك بما أخاطب به نفسي.

قال الرجل: قل ما بدا لك .. فلطالما أحييت قلوبنا الميتة، وأسلت عيوننا الجافة.

قال (الأمير) :(أوصيك ـــ أخي ـــ بتقوى الله الذي هو نجيك في سريرتك ورقيبك في علانيتك، فاجعله من بالك على حالك، وخفه بقدر قربه منك وقدرته عليك، واعلم أنك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، فليعظم منه حذرك وليكثر منه وجلك، واعلم أن الذنب من العاقل أعظم من الأحمق، ومن العالم أعظم من الجاهل، وقد أصبحنا أدلاء بزعمنا والدليل لا ينام في البحر)

ثم سكت قليلا، وقال: لقد كان المسيح عليه السلام يقصدنا حين قال :(حتى متى تصفون الطريق للدالجين وأنتم مقيمون في محلة المتحيرين؟ تصفون البعوض من شرابكم وتسترطون الجمال بأجمالها) أي أخي كم من مذكر بالله ناس لله، وكم من مخوف بالله جريء على الله وكم من داع إلى الله فار من الله. وكم تال لكتاب الله منسلخ من آيات الله.

---

(1) هذه الموعظة والمواعظ التي أضعها بين قوسين هي لابن السماك، كما في (صفة الصفوة)

قال ذلك، ثم انصرف تاركا الرجل لدموعه .. سرت خلفه، فرأيته قصد جمعا يبدو أن الخلاف دب بين بعضهم، فما إن رأوه حتى فتحوا له الطريق، فقال :(إن استطعتم أن تكونوا كرجل ذاق الموت وعاش ما بعده، فسأل الرجعة، فأسعف بطلبه، وأعطي حاجته فهو متأهب مبادر، فافعلوا، فإن المغبون من لم يقدم من ماله شيئا ومن نفسه لنفسه)

قال ذلك، ثم انصرف عنهم، وقد عالج ما حل بهم من غير خطبة ولا قضاء.

سرت خلفه، فلقيه رجل في موكب كمواكب الملوك والأمراء .. فلما رآه (الأمير) أسرع، وكأنه يفر بنفسه، فأسرع خلفه بعض من كان في ذلك الموكب، وقال له: إن الأمير يطلبك ..

قال (الأمير): وما يريد من فقير مثلي؟

قال: يريد أن تلين من قلبه ما قسا، وتسيل من دموعه ما جف.

ذهب (الأمير) معه، وحدثه، ولم أسمع من حديثه إلا قوله له :(يا أمير المؤمنين إن لك بين يدي الله تعالى مقاما وإن لك من مقامك منصرفا، فانظر إلى أين منصرفك، إلى الجنة أم إلى النار؟)

قال له: زدني

فقال[1]: إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم:(إني قد ابتليت بهذا البلاء، فأشيروا علي) فعد الخلافة بلاء، وعددتها أنت وأصحابك نعمة.

فقال له سالم بن عبد الله :(إن أردت النجاة غدا من عذاب الله، فصم عن الدنيا، وليكن إفطارك من الموت)

وقال له محمد بن كعب القرظي :(إن أردت النجاة من عذاب الله، فليكن كبير المسلمين عندك أبا، وأوسطهم عندك أخا، وأصغرهم عندك ولدا، فوقر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك)

وقال له رجاء ين حيوة:(إن أردت النجاة غدا من عذاب الله عز وجل، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك ،ثم مت إذا شئت)

وإني أقول لك:(أني أخاف عليك أشد الخوف يوم تزل فيه الأقدام، فهل معك ــ رحمك الله ــ من يشير عليك بمثل هذا؟)

بكى الأمير بكاء شديدا، حتى قال بعض رفقاء الأمير مخاطبا (الأمير):(ارفق بأمير المؤمنين) فقال :(يا فلان .. تقتله أنت وأصحابك وارفق به أنا)

فقال الأمير: لا تسمع إليه .. زدني رحمك الله.

قال (الأمير): يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملا لعمر بن عبد العزيز شكا إليه، فكتب إليه عمر:(يا أخي أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله، فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء)، فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز، فقال له :(ما أقدمك ؟) قال :(خلعت قلبي بكتابك، لا أعود إلى ولاية أبدا حتى ألقى الله عز وجل)

---

(1) هذه الموعظة في الأصل مروية عن الفضيل بن عياض مع هارون الرشيد.

بكى الأمير بكاء شديدا ثم قال له : زدني رحمك الله.

قال (الأمير): يا حسن الوجه، أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار، فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك، فإن النبي ﷺ قال :(من اصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة)[1]

فبكى الأمير، وقال له: عليك دين.

قال (الأمير): نعم، دين لربي يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم ألهم حجتي.

قال الأمير: إنما أعني دين العباد.

قال (الأمير): إن ربي لم يأمرني بهذا، أمر ربي أن أوحده وأطيع أمره، فقال تعالى :﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذريات:٥٦ ــ ٥٨)

قال الأمير: هذه ألف دينار، خذها، فأنفقها على عيالك، وتقو بها على عبادتك.

قال (الأمير): سبحان الله، أنا أدلك على طريق النجاة، وأنت تكافئني بمثل هذا؟ سلمك الله ووفقك.

قال (الأمير) هذا، ثم انصرف تاركا الأمير لدموعه ..

ظللت طيلة النهار أسير خلف (الأمير) من غير أن يشعر بي، وقد رأيته لا يترك أحدا إلا وعظه ودعاه.

بعد أن رأيت كل ذلك اقتربت منه، وقلت: لكأني بك أحد الذين أبحث عنهم.

نظر إلي، وقال: إن كنت تبحث عن الذي يسيل ما جف من الدموع، ويلين ما قسا من القلوب[2]، فقد ظفرت بحاجتك، وأنا ذلك الرجل.

قلت: ففمك هو الفم الثاني.

قال: إن كان الفم الثاني هو فم الواعظ، ففمي هو فم ذلك الفم.

قلت: فهل تأذن لي في صحبتك لأتعلم على يديك من فنون الهداية ما يجعلني وارثا من ورثة النبي ﷺ؟

قال: ذلك لك لا لي .. فما كان لي أن أرد من قصدني.

قلت: كيف يكون ذلك لي، وأنا الذي أضع نفسي بين يديك لتعلمني مما علمك الله؟

قال: إن تحليت بحلة أهل العلم، وتأدبت بآداب أهل الورع، كنت صالحا لتلقي هذه العلوم، وإلا فإن في هذه العلوم فتنة، فلا تكفر.

قلت: فتنة .. أي فتنة؟ .. هل الدعوة إلى الله فتنة؟

---

(1) رواه ابن سعد وابن عساكر.

(2) أشير إلى حديث العرباض بن سارية ــ رضي الله عنه ــ الذي يقول فيه: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً بليغةً وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودِعٍ فأوصنا. قال: أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبدٌ حبشي، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً. فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعةٍ ضلالةٌ (رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح)

قال: ليست الدعوة إلى الله هي الفتنة .. ولكن الفتنة قد تعرض للداعية إلى الله بما يراه من إقبال الناس عليه، فيتخذهم إلها من دون الله.

قلت: فما المخرج من ذلك؟

قال: أن لا تدعو إلا نفسك، وأن لا تعظ إلا نفسك.

قلت: إنما قصدتك ليجعل الله مني نورا من أنوار الهداية، فكيف أكتفي بنفسي؟

قال: إذا وعظت غيرك، فكن في موعظتك لغيرك واعظا لنفسك، فلا خير فيمن يعظ ولا يوعظ.

قلت: أكل ما سمعته منك كان مواعظ لنفسك؟

قال: أجل .. ولولا ذلك ما خشعت القلوب، ولا سالت الدموع؟ .. لقد قال رسول الله ﷺ يدعونا إلى ذلك: (أوحى الله إلى عيسى ابن مريم : عظ نفسك بحكمتي ، فان انتفعت فعظ الناس ، وإلا فاستحي مني)[١]

***

لم أصحب هذا الرجل الفاضل إلا أربعة أيام فقط .. ولكنها كانت ـــ بالنسبة لثمراتها وعلومها ـــ كأربعة أعوام .. لقد كانت ـــ كما قال ابن عطاء الله في حكمه ـــ :(رب عمر اتسعت آماده وقلت أمداده، ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده)

(١) رواه الديلمي عن أبي موسى.

١ ــ القصة

في مساء اليوم الأول سرت معه إلى مجلس من المجالس، وكان ذلك المجلس مكتظا بالحضور، وكلهم شوق ولهفة لسماعه.

صعد (الأمير) منصة متواضعة، وقال: سلوني .. ولا تسألوني إلا ما ينفعكم ..

اختبار:

قام رجل تبدو عليه آثار النعمة، وقال: أصدقك القول .. أنا رجل من أثرياء هذه المدينة .. وهم في سائر المناطق ــ ماعدا هذه المدينة ــ يسمونني (رجل أعمال) .. وأنا ألقى الاحترام حيث حللت .. ولكني في هذه المدينة لا أجد من الاحترام ما أجد في تلك المناطق.

نظر إليه (الأمير)، وقال: ما حاجتك؟

قال الرجل: أريد منك أن تعظ هؤلاء في هذا .. ألم يأمر رسول الله ﷺ بإنزال الناس منازلهم؟ .. فأريد منك أن تعظهم في هذا.

قال (الأمير): أهذه هي حاجتك؟

قال الرجل: أجل .. هذه أول مرة أحضر مجلسك هذا .. وقد علمت مدى تأثيرك .. فلذا طلبت منك ما طلبت .. ولك عندي من الجزاء بعدها ما تريد.

قال (الأمير): فاسمع مني هذه القصة التي رواها النبي ﷺ لأمته .. واعلم أن النبي ﷺ لم يروها لنا لنتسلى، وإنما رواها لنتأدب ونتعظ.

قال الرجل: هات نسمع .. فما أحلى القصص .. أنا أسافر من أجل القصص المسافات الطويلة .. وأصرف الأموال الكثيرة.

قال (الأمير): لقد ذكر النبي ﷺ أن ثلاثةً من بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى، أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص فقال: أي شيءٍ أحب إليك ؟ قال: لونٌ حسنٌ، وجلدٌ حسنٌ، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس؛ فمسحه فذهب عنه قذره وأعطي لوناً حسناً. قال: فأي المال أحب إليك ؟ قال: الإبل، فأعطي ناقةً عشراء، فقال: بارك الله لك فيها.

فأتى الأقرع فقال: أي شيءٍ أحب إليك ؟ قال: شعرٌ حسنٌ، ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس: فمسحه فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً. قال: فأي المال أحب إليك ؟ قال: البقر، فأعطي بقرةً حاملاً، وقال: بارك الله لك فيها.

فأتى الأعمى فقال: أي شيءٍ أحب إليك ؟ قال: أن يرد الله إلي بصري فأبصر الناس، فمسحه فرد الله إليه بصره. قال: فأي المال أحب إليك ؟ قال: الغنم، فأعطي شاةً والداً.

فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجلٌ مسكينٌ قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيراً أتبلغ به في سفري،

فقال: الحقوق كثيرةٌ. فقال: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً، فأعطاك الله !؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجلٌ مسكينٌ وابن سبيلٍ انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري؟ فقال: قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيءٍ أخذته لله عز وجل. فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك[1].

صاح الرجل: حسبك .. حسبك .. والله لكأن النبي ﷺ يتحدث عني .. لقد كنت فقيرا، فأغناني الله .. وكنت مبتلى فعافاني الله .. وأنا أعوذ بالله من أن أسقط في الاختبار .. وإني أشهدك وأشهد هذا الجمع المبارك أن بابي مفتوح لمن يريد، وأناشد كل من رددته أو صددت دونه بابي أن يأتي إلي ليأخذ ما يريد، ويدع ما يريد.

أمانة:

قام آخر، وقال: أنا تاجر .. والتاجر ــ كما تعلم ــ يتعامل مع أموال الناس .. وأنا ــ أحيانا ــ يأتيني الرجل بسلعة من سلعه لأبيعها له .. ثم يغيب عني، فلا أراه.

قال (الأمير): فما تفعل في المال الذي تستفيده منها؟

قال الرجل: أنتفع به .. ليس لي إلا ذلك .. لقد ذكرت لك أن الرجل يضع سلعته عندي، ثم لا أراه بعدها.

قال (الأمير): اصدقني .. هل تسر لمجيئه إن جاء؟

قال الرجل: لولا أني في هذا المجلس، وأمامك، ما صدقتك .. أنا لا أسر لمجيئه، بل أحيانا أدعو الله أن يضل عن محلي، فلا يراه ولا يدله أحد عليه .. وأحسب أن كل إنسان في محلي يتخذ نفس الموقف.

قال (الأمير): فاسمع هذه القصة التي قصها علينا رسول الله ﷺ .. وحاول أن تطبقها على نفسك .. لقد ذكر رسول الله أن رجلا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيدا، قال : فائتني بالكفيل، فقال: كفى بالله كفيلا، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركبا يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركبا، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر فقال: اللهم إنك تعلم أني تسلفت من فلان ألف دينار، فسألني كفيلا فقلت: كفى بالله كفيلا، فرضى بك، وسألني شهيدا فقلت : كفى بالله شهيدا، فرضى بك، وإني قد جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذي له فلم أجد، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركبا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال،

([1]) رواه البخاري ومسلم.

فأخذها لأهله حطبا، فلما نظرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بألف دينار وقال: والله ما زلت جاهدا في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذي أتيت فيه! قال: هل كنت بعثت إلي شيئا؟ قال: أخبرتك أني لم أجد مركبا قبل الذي جئت فيه، قال : فان الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة ، فانصرف بألف دينار راشدا)[1]

قال الرجل: فهمت القصة .. وعلمت أمانة هذا الرجل .. ولكن هل ترى من الحكمة أن أرمي المال في الشارع، ثم أقول له:(اذهب إلى فلان)

قال (الأمير): رسول الله ﷺ لم يقصد هذا .. إن القصة لا تؤخذ بحروفها، بل بمعانيها.

قال الرجل: فكيف أطبقها علي .. أو: كيف أستفيد منها في وضعي.

قال (الأمير): إذا جاءك الرجل، فسجل كل ما يرتبط به من معلومات .. فإذا وفقك الله وبعت سلعته، فاكتف بحقك منها، وأرسل إليه ليأخذ حقه.

قال الرجل: أحيانا تكون السلع بسيطة .. فهل أتكلف كل هذا التكلف لأجلها.

قال (الأمير): ليس في الأمانة صغير ولا كبير .. ألم تسمع قوله تعالى :﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:٧٥)؟

أترضى ــ وأنت المنتسب إلى أمة محمد ﷺ ــ أن تكون أدنى من ذاك الإسرائيلي؟

قال الرجل: لا .. لا أرضى .. وبورك فيك .. وأعاهدك وأعاهد هذا الجمع المبارك أني سأبحث عن كل صاحب أمانة لأرد له أمانته .. فما كان لهمتي أن تكون أقصر من همة ذلك الإسرائيلي[2].

الفرج:

قام رجل آخر، وقال: اسمح لي يا طبيب القلوب .. واسمحوا لي أيها الجمع المبارك أن أبث إليكم شكواي .. أنا رجل كنت في رغد من الدنيا، وفي وافر من الصحة، وفي رفيع من المناصب .. لكن كل ذلك ولى وجهه عني .. ولست أدري لم .. ولست أدري ما المخرج .. أنا الآن أشعر كأني داخل كهف مظلم لا يتسرب إلي من خلاله أي شعاع من أشعة الأمل.

قال ذلك، ثم جلس، فقال (الأمير): سأقص عليك قصة رواها لنا المصطفى ﷺ .. حاول أن ترتقي لتفهمها، وتطبقها على حالك .. قال ﷺ: (انطلق ثلاثة نفرٍ ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غارٍ فدخلوه، فانحدرت صخرةٌ من الجبل، فسدت عليهم الغار؛ فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم.

قال رجلٌ منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً. فنأى بي طلب

---

(1) رواه البخاري.

(2) لم نقصد بهذا احتقار الإسرائيلي، فالمسلم يعتقد أن كل المسلمين في جميع الأزمنة والأمكنة أمة واحدة .. وإنما أردنا من هذا أن الهمة تستثار بذكر أعمال الصالحين.

الشجر يوماً فلم أرِح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقضهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت ـــ والقدح علي يدي ـــ أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي ـــ فاستيقظا فشربا غبوقهما .. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه.

قال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عمٍ كانت أحب الناس إلي، فأردتها على نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سنةٌ من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينارٍ على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قدرت عليها، قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فانصرفت عنها، وهي أحب الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها .. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجلٍ واحدٍ ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدِّ إلي أجري، فقلت: كل ما ترى من أجرك: من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال: يا عبد الله لا تستهزيء بي ؟! فقلت: لا أستهزيء بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون[1].

قال الرجل: بورك فيك .. لقد دللتني على المخرج .. لكأن رسول الله ﷺ يتحدث معي، ويبشرني .. فجزاك الله عني كل خير.

بلاء:

قام شاب من الجمع، وقال: أنا ـــ في الحقيقة ـــ أمثل مجموعة شباب من هذه المدينة .. نحن طلبة بالجامعة الأمريكية بلبنان .. نحن ملتزمون باطنا .. ولكنا ـــ في الظاهر ـــ نستحيي من إظهار انتسابنا للإسلام .. فلذلك نحاول إخفاءه قدر ما استطعنا .. حتى أنا ـــ إذا كنا في الجامعة ـــ لا نلقي السلام الذي علمنا إياه رسول الله ﷺ .. بل نلقي التحية التي تعارف عليها طلبة هذه الجامعة ..

قال (الأمير): أتخشون من إدارة الجامعة أن تطردكم منها إن أظهرتم التزامكم بالإسلام؟

قال الشاب: لا .. الإدارة تسمح بالحرية الدينية ..

قال (الأمير): فلا يمنعكم من الالتزام الظاهر بآداب الدين إلا ما ترونه من سخرية زملائكم؟

قال الشاب: أجل .. لقد جربنا أن نفعل ذلك .. فضحكوا علينا .. بل سمونا (رجعيين)، وبعضهم سمانا (إرهابيين)

قال (الأمير): فاسمع مني هذه القصة التي قصها رسول الله ﷺ لأصحابه في وقت كانوا يجدون أكثر مما تجدون .. قال رسول الله ﷺ : كان ملكٌ فيمن كان قبلكم، وكان له ساحرٌ، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر؛ فبعث إليه غلاماً يعلمه، وكان في طريقه إذا سلك راهبٌ، فقعد إليه

([1]) رواه البخاري ومسلم.

وسمع كلامه فأعجبه، وكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر.

فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابةٍ عظيمةٍ قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره. فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي؛ وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء.

فسمع جليسٌ للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرةٍ فقال: ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله تعالى، فإن آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك، فآمن بالله تعالى فشفاه الله تعالى، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك: من رد عليك بصرك ؟ قال: ربي. قال: ولك ربٌ غيري ؟! قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله تعالى، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب؛ فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل بأصحابك ؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقورٍ[1] وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلاّ فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل بأصحابك ؟ فقال: كفانيهم الله تعالى. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: ما هو ؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحدٍ، وتصلبني على جذعٍ، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: بسم الله رب الغلام ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيدٍ واحدٍ، وصلبه على جذعٍ، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه فمات. فقال الناس: آمنا برب الغلام، فأتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك. قد آمن الناس. فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخدت وأضرم فيها النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأةٌ ومعها صبيٌ لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أماه اصبري فإنك على الحق[2].

([1]) القرقور بضم القافين: نوعٌ من السفن.

([2]) رواه مسلم.

بكى الشاب، وقال: ما أعظم التضحية التي قدمها هؤلاء ..

قال (الأمير): لقد حدث خباب بن الأرت ــ رضي الله عنه ــ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[1]

بكى الشاب، وقال: لو ذكرت هذا لزملائي لامتلأوا حياء من أنفسهم.

قال (الأمير): لقد حدث ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال: (لما كانت الليلة التي أسرى بي فيها وجدت رائحة طيبة فقلت : ما هذه الرائحة الطيبة يا جبريل؟ قال : هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها، قلت: ما شأنها؟ قال : بينما هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها، فقالت : بسم الله، فقالت بنت فرعون: أبي؟ فقالت : لا ولكن ربي وربك ورب أبيك الله، قالت : وإن لك ربا غير أبي؟ قالت : نعم ، قالت : فأعلمه بذلك؟ قالت : نعم، فأعلمته، فدعا بها فقال : يا فلانة ! ألك رب غيري؟ قالت : نعم، ربي وربك الله، فأمر ببقرة من نحاس، فأحميت ثم أخذ أولادها يلقون فيها واحدا بعد واحد، فقالت : إن لي إليك حاجة! قال : وما هي ؟ قالت : أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد فتدفننا جميعا! قال : ذلك لك لما لك علينا من الحق، فلم يزل أولادها يلقون في البقرة حتى انتهى إلى ابن لها رضيع فكأنها تقاعست من أجله فقال لها : يا أمه! اقتحمي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، ثم ألقيت مع ولدها، وتكلم أربعة وهم صغار : هذا وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم)[2]

مقاييس:

قام رجل من الجمع، وقال: أنا رجل حبب الله إلي الصلاة .. وأحيانا يأتيني من يزعجني عنها .. فأرفع صوتي غضبا عليه .. فهل ترى في هذا ما يتنافى مع آداب الشريعة؟

سكت (الأمير)، حتى بدا للجمع أنه لا يريد إجابته .. فقام آخر، وقال: أصارحك .. أنا رجل أحب المظاهر .. وأعظم كل صاحب مظهر .. وأمتلئ بالاحتقار لكل متواضع .. حتى أن التواضع صار بالنسبة لي مرادفا للذلة.

التفت (الأمير) إلى الرجلين، وقال: لقد روى لنا النبي ﷺ قصة .. اسمعوها مني .. وحاولوا أن ترتقوا لتسمعوها من رسول الله ﷺ .. فلا خير فيمن لم يسمع من رسول الله .. قال: لم يتكلم في المهد إلا ثلاثةٌ: عيسى ابن مريم، وصاحب جريجٍ، وكان جريجٌ رجلاً عابداً، فاتخذ صومعةً فكان فيها، فأتته أمه وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: يا رب أمي وصلاتي. فأقبل على صلاته فانصرفت. فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: أي رب أمي وصلاتي. فأقبل على صلاته، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي

([1]) رواه البخاري.
([2]) رواه أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي.

فقالت: يا جريج، فقال: أي رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات. فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته، وكانت امرأةٌ بغيٌّ يتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه، فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته، فأمكنته من نفسها فوقع عليها. فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريجٍ، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم ؟ قالوا: زنيت بهذه البغي فولدت منك. قال: أين الصبي ؟ فجاؤوا به فقال: دعوني حتى أصلي، فصلى، فلما انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه وقال: يا غلام من أبوك ؟ قال: فلانٌ الراعي، فأقبلوا على جريجٍ يقبلونه ويتمسحون به وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طينٍ كما كانت، ففعلوا.

وبينا صبيٌّ يرضع من أمه، فمر رجلٌ راكبٌ على دابةٍ فارهةٍ وشارةٍ حسنةٍ، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليه فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع، ـــ قال الراوي: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فيه، فجعل يمصها ـــ قال: ومروا بجاريةٍ وهم يضربونها، ويقولون: زنيت سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللهم اجعلني مثلها، فهنالك تراجعا الحديث فقالت: مر رجلٌ حسن الهيئة فقلت: اللهم اجعل ابني مثله فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت، فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها فقلت: اللهم اجعلني مثلها؟! قال: إن ذلك الرجل كان جباراً فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها زنيت، ولم تزن وسرقت، ولم تسرق، فقلت: اللهم اجعلني مثلها)[1]

عدل:

قام رجل، وقال: أحيانا تأتيني فرص عظيمة .. ومن ناس بسطاء .. لو أتيحت لهم لخرجوا من الوضع الذي هم فيه إلى وضع أحسن وأكمل ..

سأضرب لك مثالا على ذلك .. في الأسبوع الماضي اشتريت سلعة بألف دينار .. ولم يمض يوم على شرائي لها حتى ارتفع سعرها في الأسواق العالمية عشرات الأضعاف .. فرحت لذلك فرحا كثيرا .. ولكني ما إن رأيت بائعها، وهو يعض أصابع الندم، حتى امتلأت حسرة، وتصورت أني في موقفه .. فما تراني أفعل في مثل هذه المواقف؟

قال: سأقص عليك قصة قصها علينا رسول الله ﷺ .. وافهم منها ما بدا لك .. لقد حدثنا رسول الله ﷺ عمن قبلنا من الأمم، فقال: اشترى رجل من رجل عقارا له، فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة يها ذهب، فقال له الذي اشترى العقار : خذ ذهبك مني، إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتع الذهب ، وقال الذي له الأرض : إنما بعتك الأرض وما فيها فتحاكما إلى رجل، فقال الذي تحاكما إليه : ألكما ولد؟ قال أحدهما : لي غلام، وقال الآخر لي جارية فقال : أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا على أنفسهما منه وتصدقوا[2].

قال الرجل: وعيت القصة .. ولكني لم أقدر على تنزيلها على حالتي.

([1]) رواه البخاري ومسلم.

([2]) رواه البخاري ومسلم.

قال (الأمير): النبي ﷺ في هذه القصة يحضنا على الأمانة والرحمة والعدالة .. فلا ينبغي للكريم السمح أن يكون أنانيا حريصا .. بل يحاول أن يشرك غيره ..

وأنا أرى أن تشرك هؤلاء في بعض ما يرزقك الله به من المكاسب ..

قال الرجل: بورك فيك .. نعم .. لا ينبغي لي أن أكون أنانيا .. ولا حريصا .. لقد استفتيت الفقهاء، فأفتوني .. ولكن قلبي لم يطمئن .. فلذلك سآخذ بما ذكرت.

علوم:

قام رجل من الجمع، وقال: أنا رجل حبب الله إلي العلم .. فأنا أنهل منه، ولا أكاد أشبع.. ولكني ــ أحيانا ــ أشعر، وكأني قد التهمت جميع العلوم .. وأحيانا ــ وبكل صراحة ــ أشعر أني أعلم أهل الأرض .. وأنه لا أحد يضاهيني في المعارف التي كتب لي أن أتعلمها.

نظر إليه (الأمير)، وقال: لقد قص علينا رسول الله ﷺ قصة، فاسمعها، وارتق لتسمعها منه ﷺ .. قال رسول الله ﷺ: إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ قال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك. فقال موسى: يا رب، وكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتا، تجعله بمكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم.

فأخذ حوتا، فجعله بمكتل، ثم انطلق وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون ــ عليهما السلام ــ حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه، فسقط في البحر واتخذ سبيله في البحر سربا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه :﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً)(الكهف: من الآية٦٢)، و لم يجد موسى النصب حتى جاوزا المكان الذي أمره الله به.

قال له فتاه :﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً)(الكهف: من الآية٦٣)، قال: فكان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا، فقال :﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً)(الكهف: من الآية٦٤)

فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام!. قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا، قال: ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً)(الكهف: من الآية٦٧)، يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه، لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. فقال موسى :﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً)(الكهف: من الآية٦٩)، قال له الخضر :﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً)(الكهف: من الآية٧٠)

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهما، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نول، فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئا إمرا :﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ

تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣)﴾ (الكهف)، قال: وقال رسول الله ﷺ :(كانت الأولى من موسى نسيانا)

وجاء عصفور فنزل على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، أو نقرتين، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان، فقتله، فقال له موسى :﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤)قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥)﴾ (الكهف)، قال :(وهذه أشد من الأولى)، ﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾ (الكهف:٧٦)

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض قال: مائل. فقال الخضر بيده، فأقامه، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا و لم يضيفونا، ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨)﴾ (الكهف)، فقال رسول الله ﷺ :(وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما)[1]

رحمة:

قام رجل من الجمع، وقال: أنا عضو في بعض جمعيات الرفق بالحيوان .. وقد عاتبني البعض في انتمائي لمثل هذه الجمعيات .. فهل ترى علي من بأس في ذلك؟

نظر إليه (الأمير)، وقال: لقد حكى لنا رسول الله ﷺ هذه القصة .. قال: (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها وشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي ! فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له ، قالوا: يا رسول الله ! وإن لنا في البهائم أجرا ؟ قال في كل ذات كبد رطبة أجر)[2]

وحكى لنا قصة أخرى، فقال: (غفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركي[3] كاد يقتله العطش، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك)[4]

وحكى لنا قصة أخرى، فقال: (دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها و لم تدعها تأكل من خشاش[5] الأرض حتى ماتت)[6]

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) ركي : الركي جمع للركية ، وهي البئر ، وجمعها ركايا. (النهاية:٢ / ٢٦١) .

(٤) رواه البخاري .

(٥) خشاش : الخشاش : حشرات الارض ، والطير ونحوها ، الواحدة خشاشة. (المعجم الوسيط:١/ ٢٣٥)

(٦) رواه البخاري ومسلم.

وحكى لنا قصة أخرى، فقال:(مر رجل بغصن شجرة على ظهر الطريق فقال: والله لانحين هذا عن طريق المسلمين لا يؤذيهم ، فأدخل الجنة)[1]

***

بعد أن عدنا إلى البيت في ذلك المساء قلت له: يا إمام .. كيف اكتفيت في ذلك المجلس بتلك القصص، و لم تعدها إلى المواعظ التي تعود الوعاظ إلقاءها.

قال: من آداب الواعظ أن يغير أسلوب موعظته حتى لا يصيب الناس السأم والملل .. فالملل هو أخطر ما يصيب المستمعين، ولذلك فإن الواعظ المستن بسنة رسول الله ﷺ هو الذي يحرص على أن لا يجر مستمعيه إليه .. فعن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: (كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام ، كراهية السآمة علينا)[2]

قلت: فلم اخترت القصص بالذات؟

قال: لم يكن لي خيار في ذلك .. لقد كانت حال المستمعين وأسئلتهم تستدعي أن أذكر لهم من القصص سمعت، فقصصت عليهم.

قلت: أترى أن للقصص من التأثير ما يمكن أن يؤثر في المستمعين؟

قال: أجل .. ولولا ذلك ما أمرنا الله تعالى باستعمال هذا الأسلوب، فقال:﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (لأعراف:من الآية ١٧٦) .. ولولا ذلك ما قص علينا ربنا، ولا قص علينا نبينا .. إن كلام ربنا، وهدي نبينا ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:٤٢)

قلت: فما وجه هذا التأثير؟

قال: لقد أخبر القرآن الكريم عن بعض تأثير القصص في نفس المتلقي ، فقال :﴿ وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (هود: من الآية١٢٠)، ففي هذه الآية الكريمة إخبار عن نوع من أنواع تأثير القصص القرآني في النفس ، وهو تثبيت المؤمن على دين الله ، وأخذه بالعزيمة في ذلك.

قلت: فما سر ذلك؟

قال: إن القاص ــ الذي يعرف كيف يتسلل إلى قلوب مستمعيه ــ ينشئ في نفس المستمع إلى القصة حب تقمص شخصية البطل، وهو ما يدعوه إلى التأسي به والاعتبار بمواقفه.

فمن يعجب مثلا بموقف إبراهيم عليه السلام مع قومه ، وعدم خوفه من أذاهم ، وتعرضه للفتن بسبب ذلك ، يمتلئ إعجابا وحبا لإبراهيم عليه السلام ، وهو ما يدعوه بتلقائية لأن يتقمص الأدوار التي أداها إبراهيم عليه السلام تقمصا لروح القصة لا لحقيقتها.

فقصة إبراهيم عليه السلام مع ابنه مثلا ، وكيف هم بذبحه طاعة لله في ذلك ينشئ في نفس المؤمن الاستسلام

([1]) رواه أحمد ومسلم.
([2]) رواه البخاري ومسلم.

المطلق لله بغض الظر عن أن يكون ذلك بنفس الطريقة التي حصل بها إسلام إبراهيم عليه السلام.

قلت: ولكن البعض ينحرف بالقصص انحرافات خطيرة[1]؟

قال: في كل مجال هناك المستن، وهناك المبتدع .. ولا ينبغي أن نترك السنة لأجل البدعة.

قلت: ألا يمكن أن نسد ذرائع البدع؟

قال: إذا سددنا ذرائع البدع بإماتة السنن، يكون ذلك من أعظم البدع .. ونكون قد حققنا أغراض البدع، لأنه لا غرض للبدعة إلا إماتة السنة.

قلت: لكني سمعت نهي السلف عن الجلوس إلى القصاصين؟

قال: هم لم يقصدوا كل القصاص .. وإنما قصدوا الكذابين منهم، كما روي عن الأعمش أنه دخل جامع البصرة، فرأى قاصا يقول: حدثنا الأعمش، فتوسط الحلقة وجعل ينتف شعر إبطه، فقال القاص: يا شيخ، ألا تستحي؟ فقال: لم؟ أنا في سنة، وأنت في كذب، أنا الأعمش وما حدثتك.

قلت: إن كل ما ذكرته من القصص مما ورد في السنة .. فهل تعني بذلك عدم جواز القص بما ورد في غيرها؟

قال: لا .. ومعاذ الله أن أضيق ما وسع الله ..

قلت: فهل يمكن وضع القصص كما يفعل الروائيون؟

قال: أجل .. ولابد من ذلك .. فلا يحق لمسلم يجد وسيلة يدعو بها إلى ربه، ثم يفرط فيها.

قلت: ولكنه يكذب بذلك .. لأنه يحكي شيئا لم يوجد.

قال: لو حكاه باعتباره وقع بالفعل كان كاذبا .. لكنه إن حكاه باعتباره حكاية موضوعة فلا حرج عليه في ذلك.

قلت: لقد نظر البعض إلى القصص التي ذكرها القرآن الكريم بهذا الاعتبار، فتصوروا أنها مجرد حكايات موضوعة للتربية ولا حظ لها من الوجود الواقعي[2].

([1]) وذلك مثل القصص الكثيرة التي تمتلئ بها كتب التفسير، والمتلقاة عن اليهود الذين أسلموا، وهي قصص أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق .

([2]) من ذلك أن أحد الطلاب الجامعيين في مصر قدم رسالة لنيل درجة (الدكتوراه) كان موضوعها (الفن القصصي في القرآن) أثارت جدلاً طويلاً سنة ١٣٦٧ هجرية ، وكتب عنها أحد أعضاء اللجنة الذين اشتركوا في مناقشة الرسالة ــ وهو الأستاذ أحمد أمين ــ تقريرًا بعث به إلى عميد كلية الآداب ، ونشر في مجة (الرسالة) وقد تضمن التقرير نقدًا لاذعًا لما كتبه الطالب الجامعي ، وإن كان أستاذه المشرف قد دافع عنه، وصدر الأستاذ (أحمد أمين) بالعبارة الآتية:(وقد وجدتها رسالة ليست عادية ، بل هي رسالة خطيرة ، أساسها أن القصص في القرآن عمل فني خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام لصدق التاريخ)

ثم قال:(وعلى هذا الأساس كتب كل الرسالة من أولها إلى آخرها ، وإني أرى من الواجب أن أسوق بعض أمثلة توضح مرامي كاتب هذه الرسالة وكيفة بنائها)

ثم أورد (أحمد أمين) أمثلة منتزعة من الرسالة تدل على هذا منها إدعاء صاحب الرسالة أن القصة في القرآن لا تلتزم الصدق التاريخي، وإنما تتجه كما يتجه الأديب في تصوير الحادث تصويرًا فنيًا ، وزعمه أن الفرآن يختلق بعض القصص وأن الأقدمين أخطأوا في عد القصص القرآني تاريخًا يعتمد عليه .

قال: كذبوا .. ألم يقرأوا قوله تعالى :﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ)(الكهف: من الآية١٣)؟

ألم يقرأوا قوله تعالى :﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) (آل عمران:٤٤)؟

ألم يقرأوا قوله تعالى :﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (هود:٤٩)؟

ألم يقرأوا قوله تعالى :﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) (يوسف:١٠٢)؟

انظر نقد كتاب (الفن القصصي في القرآن)، للأستاذ محمد الخضر حسين، بلاغة القرآن صـــ ٩٤.

٢ ــ المثل

في اليوم الثاني سرت مع الأمير إلى مجلس من المجالس، وكان ذلك المجلس ــ كسابقه ــ مكتظا بالحضور، وكلهم ــ مثل من قبلهم ــ شوق ولهفة لسماعه .. ولكن الفرق بين هؤلاء وأولئك هو أن هؤلاء كانوا من خلال مظهرهم وأسئلتهم على مستوى عال من الثقافة، فلذلك كانت أسئلتهم تختلف كثيرا عن أسئلة من قبلهم، وكانت أجوبة الأمير تميل إلى العلمية في هذا المحل أكثر منها إلا الوعظية.

صعد (الأمير) منصة متواضعة، وقال: عم تريدون أن أحدثكم.

قال رجل منهم: نريد أن تحدثنا عن سر قوله تعالى :﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)(ابراهيم: من الآية٢٥)، وقوله تعالى :﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) (العنكبوت:٤٣)

قال الأمير: في هذه الآيات وغيرها يخبرنا القرآن الكريم عن مسلك من المسالك التي تنفذ منها المواعظ إلى القلوب، وهو مسلك الأمثال .. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك :﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً) (الاسراء:٨٩)، وقال :﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْأِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً) (الكهف:٥٤) .. فتصريف الآيات يشمل تنويع الحجج والبراهين على قضية واحدة، فيؤتى للقضية الواحدة بأكثر من دليل وبرهان، فتتابع على عقولهم الحجج وتُصرَّف لها الأمثال والعبر.

انظروا القرآن الكريم، فسترونه ينوع الأساليب، فيؤتى بالدليل الواحد بأكثر من أسلوب: فتارة بالخبر، وتارة بالاستفهام، وأخرى بالنفي والإثبات، وأحيانا بضرب الأمثال أو القصص، ونحوها.

قالوا: فما الأمثال؟

قال: لقد عرفوها، فقالو: ادعاء التماثل الجزئي أو الكلي بين شيئين أو حالين طلباً لإثبات أو إيضاح أحدهما اعتماداً على ثبوت أو وضوح الثاني .. وهو لذلك يُستخدم في تقريب المعنى وإيضاحه والإقناع به والحث على الفعل ونحو ذلك.

قالوا: فاضرب لنا مثلا يقرب ذلك.

قال: انظروا كيف عبر لقمان عليه السلام عن لطف الله وخبرته، وهي قضية عقدية ، ترتبط بها ناحية سلوكية، وهي تأثير هذه المعرفة في الحذر من المعاصي ، والحرص على الطاعة ، فجاء بصورة حسية تقرب هذه المعاني جميعا، فقال :﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:١٦)

إن هذه الصورة هي أن المظلمة أو الخطيئة أو الطاعة لو كانت مثقال حبة خردل، وكانت مخفية في السماوات أو في الأرض ، فإن الله يحضرها يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، ويجازي عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، حتى لو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء، أو ذاهبة في أرجاء السماوات والأرض، فإن الله يأتي بها لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولهذا ختم الآية بقوله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أي لطيف العلم فلا تخفى عليه الأشياء، وإن

دقّت ولطفت وتضاءلت، خبير لا تعزب عنه الأخبار الباطنة فلا يجري في الملك والملكوت شيء ولا تتحرك ذرة ولا تسكن ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبرها[1].

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بغير هذه الصيغة كقوله تعالى :﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الانبياء:٤٧)

ولكن للصيغة التي ذكرها لقمان عليه السلام ، وفي المحل الذي ذكرها فيه تأثيرها الخاص ، وهي تتناسب مع ميل الإنسان بطبعه إلى توظيف الخيال في توضيح الحقائق.

أمثال قرآنية:

قالوا: وعينا ما ذكرت، فاضرب لنا من أمثال القرآن الكريم ما يؤكد ذلك ويحققه.

قال: لقد ورد القرآن الكريم بالكثير من الأمثال التي خصت بالبحث فيها المصنفات .. بل ورد في الحديث اعتبار الأمثال قسما من أقسام القرآن الكريم ، فقد قال رسول الله ﷺ :(إن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال. فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال)[2]

ومن الأمثال التي ورد بها القرآن الكريم قوله تعالى :﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٧٥) ، فهذا المثل يشير إلى أمرين كلاهما قاله السلف من المفسرين:

أما الأول فهو أن هذا مثل ضربه اللّه للكافر والمؤمن، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سراً وجهراً هو المؤمن، وهو يشير إلى حرية المؤمن نتيجة عبوديته لله ، وعبودية الكافر لأهوائه نتيجة تحرره في تصوره من العبودية لله.

وأما الثاني ، فهو كما قال مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟ وهو معنى ينشئ في المؤمن التحرر من ربقة العبودية لغير الله.

فهذ المثال صور كلا المفهومين تصويرا حسيا بديعا ، لا يجادل أحد في صحته ، ولذلك ختم المثال بقوله تعالى :﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾

ومن الأمثلة القرآنية قوله تعالى :﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ (النحل: من الآية٩٢)

فالله تعالى يصور لنا في هذا المثال حال من ينقض المواثيق والأيمان بعد توكيدها ، فضرب مثلا بامرأة خرقاء كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه .. لقد قال سيد مبينا التأثير التربوي لهذا المثل :(فمثل من ينقض العهد مثل امرأة حمقاء ملتاثة ضعيفة العزم والرأي ، تفتل غزلها ثم تنقضه وتتركه مرة أخرى قطعا منكوثة ومحلولة ! وكل جزيئة من جزئيات التشبيه تشي بالتحقير والترذيل والتعجيب . وتشوه الأمر في النفوس وتقبحه

---

(١) وهو بمعنى العليم ولكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة ويسمى صاحبها خبيرالمقصد الأسنى

(٢) رواه البيهقي.

في القلوب . وهو المقصود وما يرضى إنسان كريم لنفسه أن يكون مثله كمثل هذه المرأة الضعيفة الإرادة الملتاثة العقل ، التي تقضي حياتها فيما لا غناء فيه)[1]

ومن الأمثلة القرآنية قوله تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (ابراهيم:٢٤ ـــ٢٥)، وفي مقابلها :﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (ابراهيم:٢٦)

فهذا المثال يصور الكلمة الطيبة بصورة الشجرة الطيبة الثابتة التي تؤتي ثمرها كل حين ، وتصور الكلمة الخبيثة بصورة الشجرة الخبيثة التي لا قرار لها ، ولا ثمر ينتفع به، وقد قال سيد مبينا بعض أبعاد هذا المثل :(إن الكلمة الطيبة – كلمة الحق – لكالشجرة الطيبة . ثابتة سامقة مثمرة . . ثابتة لا تزعزعها الأعاصير ، ولا تعصف بها رياح الباطل ؛ ولا تقوى عليها معاول الطغيان – وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان – سامقة متعالية ، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل – وإن خيل إلى البعض أحيانا أن الشر يزحمها في الفضاء – مثمرة لا ينقطع ثمرها ، لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آنا بعد آن)

وبالمقابل فإن (الكلمة الخبيثة – كلمة الباطل – لكالشجرة الخبيثة ؛ قد تهيج وتتعالى وتتشابك ؛ ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى . ولكنها تظل نافشة هشة ، وتظل جذورها في التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض . . وما هي إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض ، فلا قرار لها ولا بقاء)[2]

ومن الأمثلة القرآنية هذا المثال الذي يصور عاقبة الصدقة في سبيل الله ، قال تعالى :﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦١)

فالله تعالى في هذه الآية يضرب مثلا لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فجاء بمثل يحوي القضية ودليلها، ليكون أكثر إقناعا وتأثيرا.

ومن الأمثال القرآنية ما نص عليه قوله تعالى :﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) (البقرة)

ففي هذه الآيات الكريمة ضرب الله تعالى للمنافقين بحسب حالهم مثلين[3]: مثلا ناريا، ومثلا مائيا، لما في الماء والنار من الإضاءة والإشراق والحياة، فإن النار مادة النور، والماء مادة الحياة.

---

(1) الظلال.
(2) الظلال.
(3) انظر : الأمثال في القرآن الكريم لابن القيم.

قد جعل الله سبحانه الوحي الذي أنزل من السماء متضمنا لحياة القلوب واستنارتها، ولهذا سماه روحا ونورا وجعل قابليه أحياء في النور، ومن لم يرفع به رأسا أمواتا في الظلمات، وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي أنهم بمترلة من استوقد نارا لتضيء له وينتفع بها، وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا به وانتفعوا به، ولكن لما لم يكن لصحبتهم مادة من قلوبهم من نور الإسلام طغى عنهم وذهب الله بنورهم و لم يقل (نارهم)، فإن النار فيها الإضاءة والإحراق، فذهب الله بما فيها من الإضاءة وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، فهذا حال من أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه لا يرجع إليه ولهذا قال (فهم لا يرجعون)

ثم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي، فشبههم بأصحاب صيب، وهو المطر الذي يصوب أي يترل من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق، فلضعف بصائرهم وعقولهم اشتدت عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه وخطابه الذي يشبه الصواعق فحالهم كحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فلضعفه وخوفه جعل أصبعيه في أذنيه خشية من صاعقة تصيبه.

قال بعض القوم: لكن المثل الواحد قد تفهم منه معاني مختلفة، ألا يحدث ذلك تلبيسا؟

قال: لا .. ذلك يثري المثل، ويجعله مادة تربوية غنية بالمعاني .. لقد كان الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ يتناظرون في معاني القرآن الكريم وفي حل مشكلاته، ومن ذلك ما روي أن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قال يومًا لأصحاب النبي ﷺ : فيمن ترون هذه الآية نزلت :﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة:٢٦٦)؟» ، فقالوا: الله أعلم، فغضب عمر، وقال: قولوا نعــلم، أو لا نعــلم، فقال ابن عباس:(في نفسي شيء يا أمير المؤمنين)، فقال عمر: يا ابن أخي، قل ولا تحقر نفسك، فقال: ضربت مثلاً بعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال :(لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله)

فهذا الذي ذكره ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ تطبيق من تطبيقات ذلك المثل القرآني ، وقد ذكر الحسن البصري ــ رضي الله عنه ــ تطبيقا آخر ، فقال :(هذا مثل قلّ والله من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه، وكثر صبيانه، أفقر ماكان إلى جنته، فجاءها الإعصار فأحرقها. وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا)

وهناك تطبيقات أخرى كثيرة يمكن تطبيقها من هذا المثل وغيره ، وهو ما يجعل المثل مادة غنية يمكن استغلالها تربويا استغلالا كبيرا.

أمثال نبوية:

قالوا: وعينا هذا .. فحدثنا عن الأمثال التي نطق بها حبيب القلوب، ومحيي النفوس سيدنا رسول الله ﷺ.

قال: لقد كان رسول الله ﷺ حريصا على اتباع سنة القرآن الكريم في ضرب الأمثال .. ولذلك كان من سننه ضربها للتعليم والموعظة.

قالوا: فحدثنا عن أمثاله ﷺ .

قال: من ذلك قوله ﷺ يحكي عن انتهاج الأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ لضرب الأمثال في المواعظ :(إن الله تعالى أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، فكأنه أبطأ بهن فأوحى الله تعالى إلى عيسى : إما أن يبلغهن أو تبلغهن ! فأتاه عيسى فقال له : إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وأن تأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فاما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن ! فقال له : يا روح الله ! إني أخشى أن سبقتني أو أن أعذب أو يخسف بي!

فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلا المسجد فقعد على الشرفات ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله تعالى أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن ، وأولهن : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، فان مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق ثم أسكنه دارا فقال : اعمل وارفع إلي ! فجعل العبد يعمل ويرفع إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ! وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأمركم بالصلاة ، وإذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفتوا فان الله عزوجل يقبل بوجهه إلى عبده ما لم يلتفت ، وأمركم بالصيام ، ومثل ذلك كمثل رجل معه صرة مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وأمركم بالصدقة ، ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال لهم : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم ! فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه ، وأمركم بذكر الله كثيرا ، ومثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا في اثره فأتى حصنا حصينا فأحرز نفسه فيه ، وإن العبد أحصين ما يكون من الشيطان إذا ان في ذكر الله تعالى وأنا آمركم بخمس أمرني الله بهن : الجماعة والسمع والطاعة ، والهجرة ، والجهاد في سبيل الله ، فانه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلق ربقة الاسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثى جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ، فادعو بدعوى الله الذي سماكم المسلمين والمؤمنين عباد الله)[1]

ومن ذلك قوله ﷺ :(ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتفرجوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب ، قال : ويحك لا تفتحه فإنك إن فتحته تلجه ، والصراط : الإسلام ، والسوران : حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة : محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله تعالى ، والداعي فوق الصراط :واعظ الله في قلب كل مسلم)[2]

وقد كان ﷺ يلغز أحيانا بالأمثال ، وهي قيمة أخرى من قيم الأمثال إذ يمكن تطبيق المثل الواحد على نواح كثيرة.

ومن ذلك الحديث الذي رواه ابن عمر ﷺ قال: كنا عند رسول اللّه ﷺ فقال :(أخبروني عن شجرة

([1]) رواه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم والبخاري في التاريخ عن الحارث بن الحارث الاشعري.

([2]) رواه أحمد والترمذي والنسائي.

تشبه – أو – كالرجل المسلم، لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها)، قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ :(هي النخلة)، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه والله وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إليّ من كذا وكذا[1].

وقد كان ﷺ يربط الأمثلة أحيانا بأمور حسية ليبقى أثرها في نفس المتلقي، ومن ذلك ما جاء في حديث أنس بن مالك ﷺ قال: أخذ النبي ﷺ غصناً ، فنفضه فلم ينتفض ، ثم نفضه فلم ينتفض ، ثم نفضه فانتفض ، فقال :(إن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ينفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها)

ومن ذلك أن رسول الله ﷺ كان يستعمل حركات معينة لتقرير المعاني وتشبيهها ، ومما روي عنه في ذلك في مواضع مختلفة التشبيك بين أصابعه الشريفة للكناية عن القوة والتماسك حينًا، وللتداخل بين شيئين حينًا آخر، وللاختلاط والاختلاف أحيانا أخرى.

ومن ذلك ما روي عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال :(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبك بين أصابعه)[2]

ومن ذلك ما روي عن عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال :(كيف بكم وبزمان يوشك أن يأتي، يغربل[3] الناس فيه غربلة، تبقى حثالة من الناس، قد مرجت[4] عهودهم وأماناتهم واختلفوا، وكانوا هكذا، وشبك بين أصابعه)[5]

أمثال الورثة:

قالوا: وعينا هذا .. فهل لنا أن نضع من الأمثال ما نقرب به الحقائق.

قال: أجل .. فأعظم الناس قربا من رسول الله ﷺ هو الذي لا يكتفي بأن يدعو لما دعا له رسول الله ﷺ، بل يضم إليه استعمال أساليبه ومنهجه، وطريقته .. فهو أعرف الخلق بالله، وأعرف الخلق بطريق الدلالة على الله.

قالوا: فحدثنا عن أمثال الورثة ما تقر به عيوننا.

قال: من ذلك قول الإمام أحمد لبعض أصحابه : كم يعيش أحدنا: خمسين سنة ؟ ستين سنة ؟ كأنك بنا قد متنا ، ما شبهت الشباب إلا بشيء كان في كمي فسقط.

ومن ذلك ما روي وعن يعلى بن عبيد قال: سمعت سفيان الثوري يقول : لو كان معكم من يرفع الحديث إلى السلطان أكنتم تتكلمون بشيء ؟ قلنا : لا ، قال : فإن معكم من يرفع الحديث .. يعني إلى الله.

---

(1) رواه البخاري.
(2) رواه البخاري.
(3)أي يذهب خيارهم ويبقى أرذالهم.
(4)أي اختلطت وفسدت.
(5) رواه ابن ماجة.

ومن ذلك ما روي أن عبد الواحد بن زيد قال للحسن البصري : يا أبا سعيد ! أخبرني عن رجل لم يشهد فتنة ابن المهلب بن أبي صفرة ، إلا أنه عاون بلسانه ورضي بقلبه، فقال الحسن: يا ابن أخي ! كم يد عقرت الناقة ؟ قلت: واحدة ، قال : أليس قد هلك القوم جميعاً برضاهم وتمالئهم؟

ومن ذلك ما ورد في كتابات الوارث النبوي الكبير بديع الزمان النوسي ، فقل أن تخلو رسالة من رسائله من مثل يضرب ، بل إن كثيرا من رسائله مؤسسة على أمثال متقنة غاية الإتقان.

ومن ذلك ضربه المثل عن قيمة الصلاة[1]، فقد قال في مقدمة هذا المثل:(إن كنت تريد ان تعرف أهمية الصلاة وقيمتها، وكم هو يسير نيلها وزهيد كسبها، وان من لا يقيمها ولا يؤدي حقها أبله خاسر.. ان كنت تريد ان تعرف ذلك كله بيقين تام ـــ كحاصل ضرب الاثنين في اثنين يساوي أربعاً ـــ فتأمل في هذه الحكاية التمثيلية القصيرة)

ثم يذكر مثلا في صيغة قصة ، فيذكر أن حاكما عظيما يُرسل اثنين من خَدَمه الى مزرعته الجميلة، بعد أن يمنح كلاً منهما أربعاً وعشرين ليرة ذهبية، ليتمكنا بها من الوصول الى المزرعة التي هي على بُعد شهرين.. ويأمرهما بأن ينفقا من هذا المبلغ لمصاريف التذاكر ومتطلبات السفر، ويقتنيا ما يلزمهما هناك من لوزام السكن والاقامة.. هناك محطة للمسافرين على بُعد يوم واحد، توجد فيها جميع انواع وسائط النقل من سيارة وطائرة وسفينة وقطار.. ولكلٍ ثمنه.

ويخرج الخادمان بعد تسلمهما الأوامر.. كان أحدهما سعيداً محظوظاً، اذ صرف شيئاً يسيراً مما لديه لحين وصوله المحطة، صرفه في تجارة رابحة يرضى بها سيدُه، فارتفع رأس ماله من الواحد الى الالف.

أما الخادم الآخر، فلسوء حظه وسفاهته صرف ثلاثاً وعشرين مما عنده من الليرات الذهبية في اللّهو والقمار، فأضاعها كلها إلا ليرة واحدة منها لحين بلوغه المحطة، فخاطبه صاحبه قائلا: يا هذا.. اشتر بهذه الليرة الباقية لديك تذكرة سفر، فلا تضيّعها كذلك، فسيدُنا كريمٌ رحيمٌ، لعلّه يشملك برحمته وينالك عفوه عما بدر منك من تقصير، فيسمحوا لك بركوب الطائرة، ونبلغ معاً محلٍ اقامتنا في يوم واحد. فان لم تفعل ما اقوله لك فستضطر الى مواصلة السير شهرين كاملين في هذه المفازة مشياً على الاقدام، والجوع يفتك بك، والغربة تخيم عليك وانت وحيد شارد في هذه السفرة الطويلة.

ثم يسأل النورسي: تُرى لو عاند هذا الشخص، فصرف حتى تلك الليرة الباقية في سبيل شهوة عابرة، وقضاء لذة زائلة، بدلاً من اقتناء تذكرة سفر هي بمثابة مفتاح كنزٍ له. ألا يعني ذلك أنه شقي خاسر، وأبله بليد حقاً.. ألا يُدرك هذا أغبى انسان؟

ثم يقول بعد ذلك مبينا تطبيق هذا المثل على الصلاة : فيا من لا يؤدي الصلاة! ويا نفسي المتضايقة منها! ان ذلك الحاكم هو ربُّنا وخالقنا جلّ وعلا..أما ذلكما الخادمان المسافران، فأحدهما هو المتديّن الذي يقيم الصلاة بشوق ويؤديها حق الأداء، والآخر هو الغافل التارك للصلاة..وأما تلك الليرات الذهبية الاربعة والعشرون فهي الاربع والعشرون ساعة من كل يوم من أيام العمر.. وأما ذلك البستان الخاص فهو الجنة.. وأما

[1] انظر هذا المثل في (الكلمة الرابعة) من (الكلمات)

تلك المحطة فهي القبر.. وأما تلك السياحة والسفر الطويل فهي رحلة البشر السائرة نحو القبر والماضية الى الحشر والمنطلقة الى دار الخلود. فالسالكون لهذا الطريق الطويل يقطعونه على درجات متفاوتة .. أما تلك التذكرة فهي الصلاة التي لا تستغرق خمسُ صلوات مع وضوئها أكثر من ساعة.

ثم يذكر النتيجة التربوية لهذا المثل ، فيقول: فيا خسارة مَن يصرف ثلاثاً وعشرين من ساعاته على هذه الحياة الدنيا القصيرة ولا يصرف ساعةً واحدة على تلك الحياة الابدية المديدة!. ويا له من ظالم لنفسه مبين! ويا له من احمق ابله .. لئن كان دفع نصف ما يملكه المرء ثمناً لقمار اليانصيب ــ الذي يشترك فيه اكثر من الف شخص ــ يعدّ أمراً معقولاً، مع أن احتمال الفوز واحد من ألف، فكيف بالذي يحجم عن بذل واحدٍ من اربعة وعشرين مما يملكه، في سبيل ربح مضمون، ولأجل نيل خزينة أبدية، بأحتمال تسع وتسعين من مائة.. ألا يُعدّ هذا العمل خلافاً للعقل، ومجانباً للحكمة.. ألا يدرك ذلك كلٌّ من يعدّ نفسه عاقلاً؟

٣ ـــ المعلومة

في اليوم الثالث، سرت مع الأمير إلى مدرسة من المدارس التقنية، وقد تعجبت من مسيره إليها، وقلت: ما عسى الرجل يتحدث في هذا المحل .. وهو محل لا يتحدث إلا عن الصنائع والأكوان؟

أحسست أنه قرأ ما في خاطري، فقال: لقد تحول هذا المحل ـــ بحمد الله ـــ وبفضل التوجيه الصادق إلى محراب من محاريب العبادة .. لقد صارت المخابر منابر .. وصارت المراقب والمراصد مجالي للتأمل في خلق الله وعبودية الله من خلال النظر إلى أكوانه .. وصارت الآلات التي انشغل بها الكثير عن الله مسابح يذكر الله عند كل حركة من حركاتها.

قلت: كيف ذلك؟

قال: تعال معي لأدلك على منهج ذلك.

سرت معه إلى داخل تلك المدرسة التي ما إن رآه أهلها حتى هبوا مسرعين إليه، وكأنهم معه على ميعاد، وقد رأيت في عيونهم من الأشواق لحديثه ما رأيت في سابقيهم.

في بداية حديثه أخذ يرتل بصوت عذب قوله تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٢)، وقوله تعالى:﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (فصلت: من الآية١٢)

ثم قال لرجل كان يستمع إليه بشوق عظيم: حدثنا يا فلان عما ورد في العلم من حفظ الله للأرض من كل ما يؤذيها.

أخذ الرجل يقول: إن هذه الآية تتحدث عن خاصية مهمة لبناء السماء أثبتتها الأبحاث العلمية الحديثة.. لا يمكنني أن أتحدث عنها هنا بالتفصيل.. ولكني سأحدثكم فقط على ناحية منها لها علاقة بالأرض التي نعيش فيها.. فالأرض تحاط بغلاف جوي يؤدي وظائف ضرورية لاستمرار الحياة، فهو يدمر الكثير من النيازك الكبيرة والصغيرة، ويمنعها من السقوط على سطح الأرض وإيذاء الكائنات الحية.

فلولا وجود الغلاف الجوي لسقطت ملايين النيازك على الأرض جاعلة منها مكاناً غير قابل للعيش، ولكن خاصية الحماية التي يتمتع بها هذا الغلاف سمحت للكائنات بالبقاء آمنة على قيد الحياة.

ليس ذلك فقط.. فالغلاف الجوي يصفي شعاع الضوء الآتي من الفضاء المؤذي للكائنات الحية.

والملفت للنظر، والجالب للدهشة أن الغلاف الجوي لا يسمح إلا للإشعاعات غير الضارة مثل الضوء المرئي والأشعة فوق البنفسجية، وموجات الراديو بالمرور.. وكل هذه الإشعاعات أساسية للحياة.

فالأشعة فوق البنفسجية التي يسمح بمرورها بشكل جزئي فقط عبر الغلاف الجوي ضرورية جداً لعملية التمثيل في النباتات، ولبقاء الكائنات الحية على قيد الحياة.

أما غالبية الإشعاعات فوق البنفسجية المركزة، فيتم تصفيتها من خلال طبقة الأوزون في الغلاف الجوي، ولا تصل إلا كمية محدودة وضرورية من الطيف فوق البنفسجي إلى الأرض.

وهذه الوظيفة الوقائية للغلاف الجوي لا تقف عند هذا الحد، بل إن الغلاف الجوي يحمي الأرض من برد

الفضاء المجمد الذي يصل إلى ٢٧٠ درجة مئوية تحت الصفر.

سكت قليلا، ثم قال: ليس الغلاف الجوي وحده هو الذي يقوم بهذه العملية الخطيرة.. فهناك ما يعرف بحزام فان ألن.. وهو طبقة ناتجة عن حقول الأرض المغناطيسية، وهي تشكل درعاً واقياً من الإشعاعات الضارة التي تهدد كوكبنا.

فلولا وجود حزام فان ألن، لكانت الانفجاريات العظيمة للطاقة المسماة التموجات أو الانفجارات الشمسية، والتي تحدث بشكل دائم في الشمس قد دمرت الأرض.

وقد قال الدكتور (هوغ روس) عن أهمية حزام فان آلن:(في الحقيقة إن الأرض تملك كثافة أعلى من كل ما تملكه باقي الكواكب في النظام الشمسي، وهذا القلب الغظيم للأرض المكون من الحديد والنيكل هو المسؤول عن الحقل المغناطيسي الكبير، وهذا الحقل المغناطيسي هو الذي ينتج درع إشعاعات فان آلن الذي يحمي الأرض من الإنفجارات الإشعاعية، ولو لم يكن هذا الدرع موجوداً لما كانت الحياة ممكنة على سطح الأرض، ولا يملك مثل هذا الدرع سوى الأرض وكوكب المريخ الصخري، ولكن قوة حقله المغناطيسي أقل بمائة مرة من قوة حقل الأرض المغناطيسي، وحتى كوكب الزهرة المشابه لكوكبنا ليس لديه حقل مغناطيسي.. إن درع فان آلن الإشعاعي هو تصميم فريد خاص بالأرض)

قال ذلك، ثم التفت إلى الأمير، وقال: هذا بعض ما أعرفه من تفسير تلك الآيات التي قرأتها.

أشار الأمير إلى رجل آخر، وقال: حدثنا عن تفسير ما ورد في النصوص المقدسة في مواضع كثيرة من الإخبار عن دقة الصنع الإلهي للكون، وأنه مبني على حسابات دقيقة، كما قال تعالى: ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يّـــس:٤٠)، وقال تعالى يعبر عن الموازين التي تضبط الكون، لئلا يختل اتزانه، فيقول:﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن:٧)

أخذ الرجل يتحدث بكلام مسهب مفصل عن دقائق الصنع الإلهي، ودقة الموازين التي ضبط بها الكون[1].

وبعد أن أنهى حديثه أشار الأمير إلى رجل آخر، وقال: حدثنا عما ورد في العلوم من تفسير قوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (فاطر:٤١)، وقوله:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (الحج:٦٥)، وقوله:﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (لقمان:١٠)، وقوله:﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (الرعد:٢)

أخذ الرجل يتحدث بمثل ما تحدث من قبله بكلام مسهب مفصل فيما قاله العلم الحديث في آخر أبحاثه في هذه المسائل.

ظللنا طول يومنا نسمع قرآنا وعلوما .. وقد رأيت دموع الحاضرين تنهمر بقوة، وهي تسمع تلك

---

(1) انظر تفاصيل ما ورد في هذا من كلام الخبراء في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

الأحاديث العذبة التي تفسر القرآن الكريم خير تفسير وأبين تفسير .. وقد رأيت بعضهم يصيح تائبا لله ومستغفرا له.

وقد عجبت من ذلك عجبا شديدا، فلم أر من الأمير إلا قراءته القرآن، ودعوته العلماء والمختصين للحديث، وقد سألته عن سر ذلك التأثير، فقال: إن أعظم حجاب بين الإنسان وبين الإيمان، وما يقتضيه الإيمان هو غفلته عن الله، وعن عظمة الله، ولذلك، فإن خير ما يعيد للقلب يقظته هو نظره في الكون، وعبادته الله من خلال ذلك النظر.

ولهذا يتكرر في القرآن الكريم الدعوة إلى النظر، والدعوة إلى العلم، بل إن القرآن الكريم أخبر بأن الخشية محصورة في العلماء .. فلا يعرف الله من لا يعرف أكوانه.

اسمع قوله تعالى:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:١٦٤).. وقوله تعالى:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠)

بل إن القرآن الكريم دعا أولي العقول إلى إعمال فكرهم في السماء.. ليعرفوا الله من خلالها، فقال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ (الروم:٨)

وأخبر الجاحدين الذين يجحدون قدرة الله على بعث مخلوقاته بعظمة خلق الكون، فقال:﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (غافر:٥٧)

٤ ـــ الحكمة

في اليوم الرابع سرت مع الأمير إلى محال مختلفة، ومن العجيب أني لم أره في تلك المحال جميعا ينطق بشيء إلا بما ورد في أحاديث رسول الله ﷺ من جوامع الحكمة.

سأكتفي بأن أذكر لك بعض ما قاله باختصار[١] لترى مدى عظمة الهدي الذي جاء به نبينا ﷺ:

أحاديات:

رأى رجلا، فحدثه بقوله ﷺ : (اعزل الاذى عن طريق المسلمين)[٢]

ورأى آخر، ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ :(إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر ، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه ، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه)[٣]

ورأى آخر، ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (إن الله تعالى محسن فأحسنوا)[٤]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (إن الله تعالى يحب أن يعمل بفرائضه)[٥]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (إن الله تعالى يحب معالى الامور وأشرافها ، ويكره سفسافها)[٦]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (إن الله تعالى يقول يا ابن آدم ! تفرغ لعبادتي أملا صدرك غنى وأسد فقرك ، وإن لا تفعل ملات يديك شغلا و لم أسد فقرك)[٧]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ:(من أفضل الاعمال إدخال السرور على المؤمن ، تقضي عنه دينا ، تقضي له حاجة ، تنفس له كربة)[٨]

وورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (إن من موجبات المغفرة إدخالك السرور على أخيك المسلم)[٩]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ألا أخبركم بخيركم من شركم! خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره ، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره)[١٠]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس ! إن من خير الناس رجلا عمل في سبيل الله تعالى عزوجل على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت ، وإن من شر الناس

---

(١) حاولنا أن نجمع هنا أكبر قدر من النصوص في جوامع كلمه ﷺ ، والتي تصنف في أبواب الحكم، وقد اكتفينا بذكرها دون شرحها، لأن لكل منها محله الخاص به.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه ابن ماجة.

(٤) رواه ابن عدي.

(٥) رواه ابن عدي.

(٦) رواه الطبراني في الكبير.

(٧) رواه أحمد والترمذي والحاكم.

(٨) رواه البيهقي عن ابن المنكدر مرسلا.

(٩) رواه الطبراني في الكبير.

(١٠) رواه أحمد والترمذي وابن حبان.

رجلا فاجرا جريئا يقرأ كتاب الله ولا يرعوي[1] إلى شئ منه)[2]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس)[3]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (لا تكونوا إمعة[4]تقولون : إن أحسن الناس أحسنا ، وإن أساؤا أسأنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسنوا أن تحسنوا، وإن أساؤا أن لا تظلموا)[5]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ما من عبد إلا وله صيت في السماء، فان كان صيته في السماء حسنا وضع في الأرض، وإن كان صيته في السماء سيئا وضع في الأرض)[6]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ما رأيت مثل النار نام هاربها ، ولا مثل الجنة نام طالبها)[7]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من دل على خير فله مثل أجر فاعله)[8]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من ذهب في حاجة أخيه المسلم فقضيت حاجته تكتب له حجة وعمرة ، فان لم تقض كتبت له عمرة)[9]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا مؤودة من قبرها)[10]، وورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من ستر أخاه المسلم في الدنيا ستره الله يوم القيامة)[11]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أيما مسلم كسا مسلما ثوبا كان في حفظ الله تعالى ما بقيت عليه منه رقعة)[12]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من عال أهل بيت من المسلمين يومهم وليلتهم غفر الله له ذنوبه)[13]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك)[14]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (خيار أمتي من دعا إلى الله وحبب عباده إليه)[1]

([1]) يرعوي : أي لا ينكف ولا يترجر ، من رعا يرعو إذا كف عن الامور (النهاية:٢/٢٣٦)

([2]) رواه أحمد والنسائي والحاكم.

([3]) رواه الترمذي.

([4]) إمعة : الامعة بكسر الهمزة وتشديد الميم : الذي لو رأى له ، فهو يتابع كل أحد على رأيه، والهاء فيه للمبالغة، ويقال فيه إمع أيضا، (النهاية:١/٦٧)

([5]) رواه البخاري.

([6]) رواه البزار.

([7]) رواه الترمذي.

([8]) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

([9]) رواه البيهقي.

([10]) رواه البخاري في الأدب وأبو داود والحاكم.

([11]) رواه أحمد.

([12]) رواه الطبراني في الكبير.

([13]) رواه ابن عساكر.

([14]) رواه البخاري.

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (إن الله تعالى يباهى بالشاب العابد الملائكة، يقول : انظروا إلى عبدي ! ترك شهوته من أجلي)[2]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (قال ربكم تعالى : لو أن عبادي أطاعوني لاسقيتهم المطر بالليل ، ولاطلعت عليهم الشمس بالنهار ، ولما أسمعتهم صوت الرعد)[3]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (خير الناس أنفعهم للناس)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[5]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)[6]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من سن في الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شئ ، ومن سن في الاسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شئ)[7]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان[8])[9]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من أذل نفسه في طاعة الله فهو أعز ممن تعزز بمعصية الله)[10]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله تعالى على النار)[11]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (يقول الله عزوجل : الشاب المؤمن بقدري ، الراضي بكتابي ، القانع برزقي ، التارك لشهوته من أجلي ، هو عندي كبعض ملائكتي)[12]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله إلا أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك)[13]

---

(1) رواه ابن النجار.
(2) رواه ابن السني.
(3) رواه أحمد والحاكم.
(4) رواه القضاعي.
(5) رواه البخاري ومسلم.
(6) رواه مسلم.
(7) رواه مسلم وغيره. .
(8) السغبان : السغب : الجوع وبابه طرب فهو ساغب وسغبان.
(9) رواه الحاكم.
(10) رواه أبو نعيم في الحلية.
(11) رواه البخاري وغيره.
(12) رواه الديلمي.
(13) رواه ابن جرير عن قتادة مرسلا.

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (حيثما كنتم فأحسنوا عبادة الله وأبشروا بالجنة)[1]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من سمع خيرا فأفشاه كان كمن عمل به ، ومن سمع شرا فأفشاه كان كمن عمل به)[2]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من آثر محبة الله على محبة الناس كفاه الله مؤنة الناس)[3]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من أطعم مريضا شهوته أطعمه الله من ثمار الجنة ، ومن سقى مؤمنا على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم يوم القيامة)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من فتح له باب من الخير فلينتهزه فانه لا يدري متى يغلق عنه)[5]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (يا حذيفة ! تدري ما حق الله على العباد ؟ يعبدونه لا يشركون به شيئا ، يا حذيفة ! تدري ما حق العباد على الله ؟ إذا فعلوا ذلك يغفر لهم)[6]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (يا يزيد بن أسيد! أتحب الجنة ؟ فأحب لأخيك ما تحب لنفسك)[7]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أقبل الحق ممن أتاك به صغير أو كبير وإن كان بغيضا ، واردد الباطل على ما جاء به من صغير أو كبير وإن كان حبيبا)[8]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ما من يوم طلعت شمسه إلا يقول : من استطاع أن يعمل في خيرا فليعمله فاني غير مكر عليكم أبدا ، وما من يوم إلا وينادي مناديان من السماء يقول أحدهما : يا طالب الخير أبشر ! ويا طالب الشر أقصر ! ويقول أحدهما : اللهم أعط منفقا مالا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا مالا تلفا)[9]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (مثلكم أيتها الأمة كمثل عسكر قد سار أولهم ونودي بالرحيل، فما أسرع ما يلحق آخرهم بأولهم! والله لا الدنيا في الآخرة إلا كنفحة[10] أرنب ، الجد الجد عباد الله ! واستيعنوا بالله ربكم)[11]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من أصلح فيما بينه وبين الله أصلح الله فيما بينه وبين الناس ، ومن أصلح جوانيه أصلح الله برانيه ، ومن أراد وجه الله أناله الله وجهه ووجوه الناس ، ومن أراد وجوه الخلق منعه

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه الرافعي عن أبي هريرة وابن عباس.

(3) رواه الديلمي عن عائشة.

(4) رواه أبو الشيخ ، وأبو نعيم في الحلية.

(5) رواه ابن المبارك عن حكيم بن عمير مرسلا.

(6) رواه النسائي.

(7) رواه الحاكم.

(8) رواه الديلمي عن ابن عباس.

(9) رواه البيهقي عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الاخنس مرسلا ، والديلمي عنه عن سعيد عن ابن عباس وزاد قوله (أبدا) (وكذلك يقول الليل)

(10) لعل الصحيح (نفجة أرنب) أي (وثبته من مجثمه) ، يريد تقليل مدتها، كما في (النهاية:٥/٨٨)

(11) رواه ابن السني والديلمي عن عمر.

ألله وجهه ووجوه الخلق)[1]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (والذي نفسي بيده ! ما لأحمر على أسود فضل إلا الفضل في دين الله)[2]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (يا علي! ما من أهل بيت كانوا حبرة[3]إلا استتبعهم بعد ذلك عبرة، يا علي! كل نعيم يزول إلا نعين أهل الجنة ، وكل هم منقطع إلا هم أهل النار ، يا علي! عليك بالصدق ، فان ضرك في العاجل كان فرجا لك في الآجل)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (يقول الله تعالى : يا ابن آدم ! ما تنصفني ، أتحبب إليك بالنعيم وتتمقت إلي بالمعاصي ، خيري إليك مترل وشرك إلى صاعد ، ولا يزال ملك كريم يأتيني عنك كل يوم وليلة بعمل قبيح ، يا ابن آدم ! لو سمعت وصفك من غيرك وأنت لا تعلم من الموصوف لسارعت إلى مقته)[5]

ثنائيات:

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أفضل الاعمال الصلاة لوقتها وبر الوالدين)[6]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أفضل العمل الصلاة لوقتها والجهاد في سبيل الله)[7]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من يتوكل لي ما بين لحييه وما بين رجليه أتوكل له بالجنة)[8]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (خير الناس ذو القلب المخموم واللسان الصادق ، قيل : ما القلب المخموم ؟ قال : هو التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد ، قيل : فمن على أثره ؟ قال : الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة ، قيل : فمن على أثره ؟ قال : مؤمن في خلق حسن)[9]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من ألطف مؤمنا أو خف له في شئ من حوائجه صغر أو كبر كان حقا على الله أن يخدمه من خدم الجنة)[10]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ .. تقوى الله وحسن الخلق، أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس النار؟ .. الأجوفان : الفم والفرج)[11]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من حفرماء لم يشرب منه كبد حرى من إنس وجن ولا سبع ولا طاهر إلا آجره الله يو القيامة ، ومن بنى مسجدا كمفحص قطاة أو أصغر بنى الله له بيتا في الجنة)[12]

([1]) رواه الديلمي.
([2]) رواه الديلمي عن جابر.
([3]) رواه حبرة : الحبرة بالفتح : النعمة وسعة العيش ، وكذلك الحبور(النهاية ١ / ٣٢٧)
([4]) رواه ابن أبي الدنيا وابن عساكر عن أنس.
([5]) رواه الديلمي والرافعي عن علي.
([6]) رواه مسلم.
([7]) رواه البيهقي.
([8]) رواه أحمد والترمذي والحاكم وابن حبان.
([9]) رواه ابن ماجة.
([10]) رواه البزار.
([11]) رواه أبو الشيخ في الثواب ، والخرائطي في مكارم الاخلاق.
([12]) رواه ابن خزيمة والشاشي وسمويه.

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أيما رجل أطعم جائعا أطعمه الله من طعام الجنة ، وأيما رجل آمن خائفا آمنه الله يوم القيامة من الفزع الأكبر)[1]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (لا تنافس بينكم إلا في اثنتين : رجل أعطاه الله قرآنا فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ويتبع ما فيه ، فيقول رجل : لو أن الله أعطاني مثل ما أعطى فلانا فأقوم به كما يقوم به ، ورجل أعطاه الله مالا فهو ينفق ويتصدق به ، فيقول رجل : لو أن الله أعطاني من المال كما أعطى فلانا فأتصدق به)[2]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ألا أنبئكم بخير الناس رجلا! رجل أخذ بعنان فرسه ينتظر أن يغير أو يغار عليه ، ألا أنبئكم بخير الناس رجلا بعده! رجل في غنمه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعلم حق الله عليه في ماله قد اعتزل شرور الناس)[3]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (عجب ربنا من رجلين: رجل ثار على وطئه ولحافه من بين حبه وأهله إلى صلاته ، فيقول الله تعالى لملائكته: انظروا إلى عبدي ثار من وطئه ولحافه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي وشفقا مما عندي ، ورجل غزا في سبيل الله فانهزم فعلم ما عليه في الانهزام وما له في الرجوع فرجع حتى أهريق دمه ، فيقول الله لملائكته : انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي وشفقا مما عندي حتى أهريق دمه)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم امرئ مسلم يهريقه كأنما يذبح دجاجة ، كلما يقوم لباب من أبواب الجنة حال بينه وبينه ، ومن استطاع منكم أن لا يدخل بطنه إلا طيبا فليفعل فإن أول ما ينتن من الانسان بطنه)[5]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ألا أدلكم على ما يكفر الخطايا والذنوب! إسباغ الوضوء على المكاره ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلك الرباط)[6]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من سره أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وليأت إلى الناس بما يحب أن يؤتي إليه)[7]

ثلاثيات:

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث يدرك بهن العبد رغائب الدنيا والآخرة : الصبر على البلايا ، والرضاء بالقضاء ، والدعاء في الرخاء)[8]

([1]) رواه الرافعي.
([2]) رواه أحمد ومحمد بن نصر في الصلاة، والطبراني في الكبير والبيهقي عن يزيد بن الاخنس السلمي.
([3]) رواه ابن سعد ، عن أم بشر بن البراء ابن معرور.
([4]) رواه أحمد وابن نصر وابن حبان والطبراني في الكبير والحاكم والبيهقي عن ابن مسعود.
([5]) رواه ابن أبي عاصم في الديات ، والطبراني في الكبير والبغوي عن جندب البجلي.
([6]) رواه يعقوب بن شيبة في مسند علي ، وابن جرير عن علي.
([7]) رواه الخرائطي في مكارم الاخلاق عن ابن عمر.
([8]) رواه أبو الشيخ عن عمران بن حصين.

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار)[1]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث من كن فيه ستر الله تعالى عليه كنفه وأدخله جنته : رفق بالضعيف ، وشفقة على الوالدين ، والاحسان إلى المملوك)[2]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث من كن فيه آواه الله في كنفه ونشر عليه رحمته وأدخله جنته: من إذا أعطي شكر ، وإذا قدر غفر ، وإذا غضب فتر)[3]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث من كن فيه حاسبه الله حسابا يسيرا وأدخله الجنة برحمته: تعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث من كن فيه فإن الله يغفر له ما سوى ذلك: من مات لا يشرك بالله شيئا ، و لم يكن ساحرا يتبع السحرة ، و لم يحقد على أخيه)[5]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث من كن فيه استوجب الثواب واستكمل الايمان : خلق يعيش به في الناس ، وورع يحجزه عن محارم الله ، وحلم يرده عن جهل الجاهل)[6]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث من كن فيه أظله الله تحت عرشه يوم لاظل إلا ظله : الوضوء على المكاره ، والمشي إلى المساجد في الظلم ، وإطعام الجائع)[7]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث من جاء بهن مع الايمان دخل من أي أبواب الجنة شاء وزوج من الحور العين حيث شاء : من عفا عن قاتله ، وأدى دينا خفيا ، وقرأ في دبر كل صلاة مكتوبة عشر مرات (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) (الاخلاص: ١)[8]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث من حفظهن فهو ولي حقا ، ومن ضيعهن فهو عدوي حقا: الصلاة ، والصيام ، والجنابة)[9]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة حق على الله تعالى عونهم : المجاهد في سبيل ، والمكاتب الذي يريد الاداء ، والناكح الذي يريد العفاف)[10]

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه الترمذي.
(٣) رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس.
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب ، والطبراني في الأوسط والحاكم عن أبي هريرة.
(٥) رواه البخاري في الأدب والطبراني في الكبير عن ابن عباس.
(٦) رواه البزار عن أنس.
(٧) رواه أبو الشيخ في الثواب ، والاصبهاني في الترغيب عن جابر.
(٨) رواه أبو يعلى عن جابر.
(٩) رواه الطبراني في الأوسط.
(١٠) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم.

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث من فعلهن ثقة بالله واحتسابا كان حقا على الله أن يعينه وأن يبارك له: من سعى في فكاك رقبة ثقة بالله واحتسابا كان حقاً على الله أن يعينه وأن يبارك له، ومن تزوج ثقة بالله واحتسابا كان على الله أن يعينه وأن يبارك له، ومن أحيا أرضاً ميتة ثقة بالله واحتسابا كان حقا على الله أن يعينه وأن يبارك له)[1]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث من أوتيهن فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود : العدل في الغضب ، والرضا والقصد في الفقر ، والغني وخشية الله في السر والعلانية)[2]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث من أخلاق الايمان : من إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل، ومن إذا رضي لم يخرجه رضاه من حق ، ومن إذا قدر لم يتعاط ما ليس له)[3]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث من أصل الايمان : الكف عمن قال (لا إله إلا الله) ولا نكفره بذنب ، ولا نخرجه من الاسلام بعمل ، والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال ، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل ، والإيمان بالأقدار)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث من كنوز البر: إخفاء الصدقة ، وكتمان المصيبة ، وكتمان الشكوى ، يقول الله تعالى : إذا ابتليت عبدي ببلاء فسبر و لم يشكني إلى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه ، فان أبرأته أبرأته ولا ذنب له ، وإن توفيته فإلى رحمتي)[5]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث من الايمان : الانفامن الاقتار ، وبذل السلام للعالم ، والانصاف من نفسك)[6]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ :(ثلاث من تمام الصلاة : إسباع الوضوء ، وعدل الصف ، والاقتداء بالإمام)[7]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ :(ثلاث من أخلاق النبوة : تعجيل الافطار ، وتأخير السحور ، ووضع اليمين على الشمال في الصلاة)[8]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث أقسم عليهن : ما نقص مال قط من صدقة فتصدقوا، ولا عفا رجل من مظلمة ظلمها إلا زاده الله تعالى بها عزا فاعفوا يزدكم الله عزوجل عزا ، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة يسأل الناس إلا فتح الله عليه باب فقر)[9]

---

(1) رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عبيد الله بن الوازع روى عنه حفيده عمرو بن عاصم فقط. وبقية رجاله ثقات.
(2) رواه الحكيم عن أبي هريرة.
(3) رواه الطبراني في الأوسط عن أنس.
(4) رواه أبو داود.
(5) رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية.
(6) رواه البزار والطبراني في الكبير عن عمار بن ياسر.
(7) رواه عبد الرزاق في الجامع عن زيد بن أسلم مرسلا.
(8) رواه الطبراني في الكبير عن أبي الدرداء.
(9) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن عبد الرحمن بن عوف.

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث كلهن حق على كل مسلم : عيادة المريض ، وشهود الجنازة، وتشميت العاطس إذا حمد الله تعالى)[1]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث خصال من سعادة المرء المسلم في الدنيا : الجار الصالح ، والمسكن الواسع ، والمركب الهنيئ)[2]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن ما أخذن إلا بسهمة حرصا على ما فيهن من الخير والبركة : التأذين بالصلاة ، والتهجير بالجماعات ، والصلاة في أول الصفوف)[3]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ:(ثلاثة أعين لا تمسها النار : عين فقئت في سبيل الله ، وعين حرست في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة عن كثبان المسك يوم القيامة يغبطهم الأولون والآخرون: عبد أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل يؤم قوما وهم به راضون ، ورجل ينادي بالصلوات الخمس في كل يوم وليلة)[5]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة على كثبان المسك يوم القيامة لا يهولهم الفزع ولا يفزعون حين يفزع الناس: رجل تعلم القرآن فقام به يطلب وجه الله وما عنده ، ورجل نادى في كل يوم وليلة خمس صلوات يطلب وجه الله وما عنده ، ومملوك لم يمنعه رق الدنيا من طاعة ربه)[6]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة في ظل الله عزوجل يوم لا ظل إلا ظله : رجل حيث توجه علم أن الله معه ، ورجل دعته امرأة إلى نفسها فتركها من خشية الله ، ورجل أحب لجلال الله)[7]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة في ظل العرش يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله : واصل الرحم يزيد الله في رزقه ويمد في أجله ، وامرأة مات زوجها وترك عليها أيتاما صغارا فقالت : لا أتزوج ، أقيم على أيتامي حتى يموتوا أو يغنيهم الله ، وعبد صنع طعاما فأضاف ضيفه وأحسن نفقته ، فدعا عليه اليتيم والمسكين فأطعمهم لوجه الله تعالى)[8]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة في ضمان الله عزوجل : رجل خرج إلى مسجد من مساجد الله ، ورجل خرج غازيا في سبيل الله ، ورجل خرج حاجا)[9]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة كلهم ضامن على الله : رجل خرج غازيا في سبيل الله فهو ضامن على الله حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بما نال من أجر أو غنيمة ، ورجل راح إلى المسجد فهو ضامن على

---

(1) رواه البخاري في الأدب عن أبي هريرة.
(2) رواه أحمد والطبراني والحاكم عن نافع بن الحارث.
(3) رواه ابن النجار عن أبي هريرة.
(4) رواه الحاكم عن أبي هريرة.
(5) رواه أحمد والترمذي عن ابن عمر.
(6) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر.
(7) رواه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة.
(8) رواه أبو الشيخ في الثواب، والاصبهاني، الديلمي في مسند الفردوس عن أنس.
(9) رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة.

الله حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرد بما نال من أجر ورجل دخل بيته بسلام فهو ضامن على الله)[1]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة ليس عليهم حساب فيما طعموا إذا كان حلالا : الصائم ، والمتسحر ، والمرابط في سبيل الله)[2]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة من كن فيه يستكمل إيمانه : رجل لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يرائي بشئ من عمله ، وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة اختار أمر الآخرة على الدنيا)[3]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة من السعادة ، وثلاثة من الشقاوة ، فمن السعادة: المرأة الصالحة تراها فتعجبك وتغيب عنها فتأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون وطيئة فتلحقك بأصحابك ، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق ، ومن الشقاوة: المرأة تراها فتسوءك وتحمل لسانها عليك ، وإن غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون قطوفا فان ضربتها أتعبتك وإن تركتها لم تلحقك بأصحابك ، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة من مكارم الاخلاق عند الله : أن تعفو عن من ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك)[5]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة هم حداث الله يوم القيامة : رجل لم يمش بين اثنين بمراء قط ، ورجل لم يحدث نفسه بزنا قط ، ورجل لم يخلط كسبه بربا قط)[6]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة لا ترى أعينهم النار يوم القيامة : عين بكت من خشية الله ، وعين حرست في سبيل الله ، وعين غضت عن محارم الله)[7]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق سيده فله أجران، ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها، ثم أدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران)[8]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة يتحدثون في ظل العرش آمنين والناس في الحساب: رجل لم تأخذه في الله لومة لائم ، ورجل لم مد يديه إلا ما لا يحل له ، ورجل لا ينظر إلى ما حرم الله عليه)[9]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة يحبهم الله ، وثلاثة يبغضهم الله ، فأما الذين يحبهم الله فرجل أتى قوما فسألهم بالله و لم يسألهم بقرابة بينه وبينهم فمنعوه فتخلف رجل بأعقابهم فأعطاه سرا لا يعلم بعطيته إلا الله

---

(1) رواه أبو داود وابن حبان والحاكم عن أبي أمامة.
(2) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس.
(3) رواه ابن عساكر عن أبي هريرة.
(4) رواه الحاكم عن سعد.
(5) رواه الخطيب في التاريخ عن أنس .
(6) رواه أبو نعيم في الحلية عن أنس .
(7) رواه الطبراني في الكبير عن معاوية بن حيدة.
(8) رواه البخاري ومسلم.
(9) رواه الاصبهاني في ترغيبه عن ابن عمر.

والذي أعطاه ، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به فوضعوا رؤسهم فقام أحدهم يتملقني ويتلو آياتي ، ورجل كان في سرية فلقي العدو فهزموا فأقبل بصدره حتى يقتل أو يفتح له ، والثلاثة الذين يبغضهم الله : الشيخ الزاني ، والفقير المختال، والغني الظلوم)[١]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة يحبهم الله ، وثلاثة يشنؤهم الله ، الرجل يلقى العدو في فئة فينصب لهم نحره حتى يقتل أو يفتح لأصحابه ، والقوم يسافرون فيطول سراهم حتى يحبوا أن يمسوا الارض فيترلون فيتخي أحدهم فيصلي حتى يوقظهم لرحيلهم ، والرجل يكون له الجار يؤذيه جواره فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن. والذين يشنؤهم الله: التاجر الحلاف ، والفقير المختال ، والبخيل المنان)[٢]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة يحبهم الله عزوجل : رجل قام من الليل يتلو كتاب الله ، ورجل تصدق صدقة بيمينه يخفيها عن شماله ، ورجل كان في سرية فانهزم أصحابه فاستقبل العدو)[٣]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة يظلهم الله في ظله يوم لا ظله إلا ظله : التاجر الامين ، والامام المقتصد ، وراعي الشمس بالنهار)[٤]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة : شهيد عفيف متعفف ، وعبد أحسن عبادة الله ونصح لمواليه)[٥]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من فارق الروح جسده وهو برئ من ثلاث دخل الجنة : الكبر والدين والغلول)[٦]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار ، فأما ثلاثة يدخلون الجنة فالشهيد ، ومملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده ، وعفيف متعفف ، وأما أول ثلاثة يدخلون النار فأمير مسلط ، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله في ماله ، وفقير فخور)[٧]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث منجيات : خشية الله تعالى في السر والعلانية ، والعدل في الرضاء والغضب ، والقصد في الفقر والغنى ، وثلاث مهلكات : هوى متبع وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه)[٨]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أحب الاعمال إلى الله: إيمان بالله ، ثم صلة الرحم ، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأبغض الأعمال إلى الله الإشراك بالله ، ثم قطيعة الرحم)[٩]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أد ما افترض الله عليك تكن من أعبد الناس ، واجتنب ما حرم الله

---

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن أبي ذر.
(٢) رواه أحمد عن أبي ذر.
(٣) رواه الترمذي عن ابن مسعود.
(٤) رواه الحاكم في تاريخه، والديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة.
(٥) رواه الترمذي عن أبي هريرة.
(٦) رواه أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وابن حبان عن ثوبان.
(٧) رواه أحمد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة.
(٨) رواه أبو الشيخ في التوبيخ ، والطبراني في الأوسط عن أنس.
(٩) رواه أبو يعلى عن رجل من خثعم.

عليك تكن من أورع الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن من أغنى الناس)[1]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أتدرون من السابقون إلى ظل الله عزوجل ! الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوه بذلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم)[2]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن مسرورا ، أو تقضى عنه دينا ، أو تطعمه خبزا)[3]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أفضل الفضائل أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتصفح عمن ظلمك)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أفضل العمل الصلاة على ميقاتها ، ثم بر الوالدين ، ثم أن يسلم الناس من لسانك)[5]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أفضل الاعمال الصلاة لوقتها ، وبر الوالدين ، والجهاد في سبيل الله)[6]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه ، وإكرام ذي السلطان المقسط)[7]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا ، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال)[8]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (إن الله تعالى يقول يوم القيامة : يا ابن آدم ! مرضت فلم تعدني ؟ قال : يا رب ! كيف أعوذك وأنت رب العالمين ! قال : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ! أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ، يا ابن آدم ! استطعمتك فلم تطعمني ؟ قال : يا رب ! كيف أطعمك وأنت رب العالمين ! قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ! أما علمت لو أنك أطعمته لوجدت ذلك عندي ، يا ابن آدم ! استسقيتك فلم تسقني؟ قال : يا رب ! كيف أسقيك وأنت رب العالمين ! قال : اسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي)[9]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (إن أحببتم أن يحبكم الله ورسوله فأدوا إذا أئتمنتم ، واصدقوا إذا حدثتم

---

(1) رواه ابن عدي عن ابن مسعود.
(2) رواه أحمد وأبو نعيم في الحلية عن عائشة.
(3) رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج ، والبيهقي عن أبي هريرة وابن عدي عن ابن عمر.
(4) رواه أحمد والطبراني في الكبير عن معاذ بن أنس.
(5) رواه البيهقي عن ابن مسعود.
(6) رواه الخطيب في التاريخ عن أنس.
(7) رواه أبو داود عن أبي موسى .
(8) رواه مسلم عن أبي هريرة.
(9) رواه مسلم عن أبي هريرة .

، وأحسنوا جوار من جاوركم)[1]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (استحيوا من الله حق الحياء ، احفظوا الرأس وما حوى ، والبطن وما وعى ، واذكروا الموت والبلى ، فمن فعل ذلك كان ثوابه جنة المأوى)[2]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أفلح من كان سكوته تفكرا ، ونظره اعتبارا ، أفلح من وجد في صحيفته استغفارا كثيرا)[3]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (عليك بطيب الكلام ، وبذل السلام ، وإطعام الطعام)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أين الراضون بالمقدور؟ أين الساعون للمشكور؟ عجبت لمن يؤمن بدار الخلود كيف يسعى لدار الغرور)[5]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (عليك بتقوى الله تعالى ما استطعت، واذكر الله عند كل حجر وشجر ، وإذا عملت سيئة فأحدث عندها توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية)[6]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أوصيك بتقوى الله فانه رأس كل شئ ، وعليك بالجهاد فانه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله بتلاوة القرآن فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض)[7]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (اعبدوا الرحمن ، وأطعموا الطعام ، وأفشوا السلام ، تدخلوا الجنة بسلام)[8]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أيما مسلم كسا مسلما ثوبا على عري كساه الله من خضر الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلما على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقى مسلما على ظمأ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحق المختوم)[9]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (طوبى للسابقين إلى ظل الله ! الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوا بذلوه، والذين يحكمون للناس بحكمهم لأنفسهم)[10]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (طوبى لمن ترك الجهل ، وآتى الفضل ، وعمل بالعدل)[11]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (طوبى لمن ملك لسانه ، ووسعه بيته ، وبكى على خطيئته)[12]

---

(1) رواه الطبراني في الكبير عن عبد الرحمن بن أبي قراد.
(2) رواه الطبراني في الكبير عن الحكيم بن عمير .
(3) رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أبي الدرداء.
(4) رواه البيهقي عن هانئ بن يزيد.
(5) رواه هناد عن عمرو بن مرسلا.
(6) رواه أحمد في الزهد والطبراني في الأوسط عن معاذ.
(7) رواه أحمد عن أبي سعيد.
(8) رواه الترمذي عن أبي هريرة.
(9) رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد.
(10) رواه الحكيم عن عائشة.
(11) رواه أبو نعيم في الحلية عن زيد بن أسلم مرسلا.
(12) رواه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية عن ثوبان.

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (إذا أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وهجرت الفواحش ما ظهر منها وما بطن فأنت مهاجر ، وإن مت بالحضرمة)[1]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (اعبدوا الرحمن ، وأفشوا اسلام ، وأطعموا الطعام)[2]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ألا أدلكم على ما يكفر الله به الخطايا ويزيد به في الحسنات: إسباغ الوضوء على المكروهات ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة)[3]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من صام رمضان، وصلى الصلوات، وحج البيت كان حقا على الله أن يغفر له إن هاجر في سبيل الله أو مكث بأرضه التي ولد بها)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ما عمل ابن آدم شيئا أفضل من الصلاة، وصلاح ذات البين، وخلق حسن)[5]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من أعان مجاهدا في سبيل الله أو غارما في عسرته أو مكاتبا في رقبته أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله)[6]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)[7]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (اسمع وأطع ولو لعبد مجدع الاطراف ، فإذا صنعت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه بمعروف ، وصل الصلاة لوقتها ، فإن وجدت الإمام قد صلى فقد أحرزت صلاتك وإلا فهي نافلة)[8]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أحدثكم حديثا ، ثلاثا أقسم عليهن : ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزوجل بها عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح له باب فقر)[9]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ارحموا ثلاثة : عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر ، وعالما بين جهال)[10]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أسد الاعمال الثلاثة : إنصاف الناس من نفسك ، ومؤاساة الاخ من مالك ، وذكر الله على كل حال)[11]

---

(1) رواه أحمد عن ابن عمرو.
(2) رواه ابن جرير ، والطبراني في الكبير والحاكم عن العرباض.
(3) رواه ابن ماجة عن أبي سعيد.
(4) رواه الترمذي عن معاذ .
(5) رواه البخاري في التاريخ والبيهقي عن أبي هريرة.
(6) رواه أحمد والحاكم عن سهل بن حنيف.
(7) رواه أحمد والترمذي، وقال: حديث حسن ...
(8) رواه البخاري في الأدب عن أبي ذر.
(9) رواه الطبراني في الكبير عن أبي كبشة الانماري .
(10) رواه ابن حبان في الضعفاء، أورده الامام السيوطي في الجامع الكبير، وقال: الحديث عن أنس وفيه عيسى بن طهمان .
(11) رواه الرافعي ، قال المناوى في الفيض(١/٤٠٤) وفيه ابراهيم بن ناصح عده الذهبي في الضعفاء ، قال أبو نعيم: متروك الحديث لهذا رمز السيوطي لضعفه .

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أسد الاعمال ثلاثة : ذكر الله على كل حال ، وإنصاف الناس بعضهم من بعض ، ومؤاساة الاخوان)[1]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (إذا مات المؤمن كانت الصلاة عند رأسه والصدقة عن يمينه ، والصيام عند صدره)[2]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (إن أحب الاعمال إلى الله عزوجل ثلاث : مؤاساة الأخ في المال ، وإنصاف الناس من نفسك ، وذكر الله على كل حال)[3]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (حجوا تستغنوا ، وسافروا تصحوا ، وتناكحوا تكثروا فإني مباه بكم الأمم)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، واستقبلوا البلاء بالدعاء)[5]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (إن الرجل إذا أدب الأمة فأحسن أدبها ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران اثنان ، وإن الرجل من أهل الكتاب إذا آمن بكتابه ثم آمن بكتابنا فله أجران أثنان ، وأن العبد إذا أدى حق الله وحق سيده كان له أجران اثنان)[6]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أول ثلاثة يدخلون الجنة : الشهيد ، ورجل عفيف فقير مستعفف وذو عيال ، وعبد أحسن عبادة ربه وأدى حق مواليه ، وأول ثلاثة يدخلون النار : أمير مسلط، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله ، وفقير فخور)[7]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة لا يكترثون للحساب ولا يفزعهم الصيحة ولا يحزنهم الفزع الأكبر ، حامل القرآن يؤديه إلى الله بما فيه يقدم على ربه سيدا شريفا حتى يرافق المسلمين ، ومن أذن سبع سنين لا يؤخذ على أذانه طمعا ، وعبد مملوك أدى حق الله من نفسه وحق مواليه)[8]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك أسود لا يهولهم الفزع الأكبر ولا ينالهم الحساب حتى يفرغ الله مما بين الناس : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عزوجل وأم به قوما وهم به راضون ورجل أذن في مسجد دعا إلى الله ابتغاء وجه الله عزوجل، ورجل مملوك بالرق فلم يشغله ذلك عن طلب الآخرة)[9]

---

(1) رواه الديلمي عن علي.
(2) رواه أبو نعيم في الحلية عن ثوبان .
(3) رواه ابن النجار عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين معضلا.
(4) رواه الديلمي عن ابن عمر.
(5) رواه العسكري عن الحسن مرسلا.
(6) رواه عبد الرزاق في المصنف عن أبي موسى.
(7) رواه ابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة.
(8) رواه البيهقي عن ابن عباس.
(9) رواه البيهقي وأبو نصر السجزي في الابانة ، والخطيب عن أبي هريرة وأبي سعيد معا .

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر ولا ينالهم الحساب هم على كثيب من مسك حتى يفرغ من حساب الخلائق : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وأم به قوما وهم يرضون به ، وداع يدعو إلى الصلوات ابتغاء وجه الله وعبد أحسن فيما بينه وبين ربه وفيما بينه وبين مواليه)[1]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (إن في الجنة درجة لا يبلغها إلا ثلاثة : إمام عادل ، أو ذو رحم وصول ، أو ذو عيال صبور لا يمن على أهله بما ينفق عليهم)[2]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ألا أخبركم بخياركم: من لان منكبه ، وحسن خلقه ، وأكرم زوجته إذا قدر)[3]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ألا أدلكم على خير أخلاق أهل الدنيا والآخرة: من وصل من قطعه ، وعفا عمن ظلمه ، وأعطى من حرمه)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ! إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ! فذلكم الرباط ! فذلكم الرباط)[5]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث من لم يكن فيه فليس مني ولا من الله : حلم يرد به جهل الجاهل ، وحسن خلق يعيش به في الناس ، وورع يحجزه عن معاصي الله)[6]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث من كن فيه حرم على النار وحرمت النار عليه : إيمان بالله ، وحب الله تبارك وتعالى ، وأن يلقى في النار فيحترق أحب إليه من أن يرجع في الكفر)[7]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاثة معصومون من شر إبليس وجنوده : الذاكرون الله كثيرا بالليل والنهار ، والمستغفرون بالاسحار ، والباكون من خشية الله)[8]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ :(من أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، ومن عمل لآخرته كفاه الله دنياه)[9]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من أصبح صائما ، من عاد مريضا ، من شيع جنازة ، من جمعهن في يوم دخل الجنة)[10]

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر.
(2) رواه الديلمي عن أبي هريرة.
(3) رواه ابن لال في مكارم الاخلاق من طريق بشر بن الحسين الاصبهاني عن الزبير بن عدي عن أنس .
(4) رواه الطبراني في الكبير عن كعب بن عجرة.
(5) رواه مسلم وغيره.
(6) رواه الرافعي عن علي.
(7) رواه أحمد والموصلي وأبو نعيم في الحلية عن أنس.
(8) رواه أبو الشيخ في الثواب عن ابن عباس .
(9) رواه الحاكم في التاريخ عن ابن عمرو.
(10) رواه الطبراني في الكبير والموصلي عن ابن عباس .

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من أوتي ثلاثا فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود: خشية الله في السر والعلانية ، والعدل في الغضب والرضى ، والقصد في الفقر والغنى)[1]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من تظاهرت عليه النعم فليكثر (الحمد لله) ومن كثر همومه فعليه بالاستغفار ، ومن ألح عليه الفقر فليكثر من قول : لا حول ولاقوة إلا بالله)[2]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من سره أن يحب الله ورسوله أو يحبه الله ورسوله فليصدق في حديثه إذا حدث ، وليؤد أمانته إذا ائتمن ، ليحسن جوار من جاوره)[3]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من كان يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر فليتق الله وليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل حقا أو ليسكت)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت ، وإذا حكمت عدلت، وإذا استرحمت رحمت)[5]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (يا أبا بكر ! إذا رأيت الناس يسارعون في الدنيا فعليك بالآخرة ! واذكر الله عند كل حجر ومدر يذكرك إذا ذكرته ، ولا تحقرن أحدا من المسلمين ، فان صغير المسلمين عند الله كبير)[6]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (يا أبا الدرداء ! أحسن جوار من جاورك تكن مؤمنا ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ، وارض بقسم الله لك تكن من أغنى الناس)[7]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (يجمع الناس في صعيد واحد ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي ، ثم ينادي مناد : سيعلم أهل الجمع لمن الكرم اليوم ــ ثلاث مرات ــ ثم يقول : أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ ثم يقول : أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله؟ ثم ينادي مناد : سيعلم أهل الجمع لمن الكرم اليوم ! ثم يقول أين الحمادون؟ أين الذين كانوا يحمدون ربهم؟)[8]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (يا سائب ! انظر أخلاقك التي كنت تصنعها في الجاهلية فاجعلها في الاسلام ، اقر الضيف ، وأكرم اليتيم ، وأحسن إلى جارك)[9]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من ضم يتيما إلى طعامه وشرابه حتى يستغني عنه وجبت له الجنة البتة ، ومن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار فأبعده الله ، ومن أعتق رقبة مسلمة كانت فكاكه من النار مكان كل

---

(1) رواه ابن النجار عن أبي ذر.
(2) رواه الخطيب عن أنس.
(3) رواه البيهقي عن عبد الرحمن بن أبي قراد.
(4) رواه أحمد عن رجال من الصحابة.
(5) رواه الموصلي والخطيب في المتفق والمفترق عن أنس.
(6) رواه (السلمي والديلمي عن علي .
(7) رواه الخرائطي في مكارم الاخلاق عن أبي الدرداء.
(8) رواه الحاكم وابن مردويه والبيهقي وأبو نعيم في الحلية عن عقبة بن عامر .
(9) رواه أحمد والبغوي عن السائب بن أبي السائب عبد الله المخزومي .

عظم من عظام محرره بعظم من عظامه)[1]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (يا عقبة بن عامر: أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك)[2]

رباعيات:

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ألا إنما هي أربع : لا تشركون بالله ، ولا تقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنون ، ولا تسرقون)[3]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث ، وحفظ الامانة ، وحسن الخلق ، وعفة مطعم)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أربع حق على الله عونهم : الغازي ، والمتزوج ، والمكاتب ، والحاج)[5]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أربع من كن فيه حرمه الله تعالى على النار وعصمه من الشيطان ، من ملك نفسه حين يرغب ، وحين يرهب ، وحين يشتهى ، وحين يغضب ، وأربع من كن فيه نشر الله تعالى عليه رحمته وادخله الجنة: من آوى مسكينا ، ورحم الضعيف ، ورفق بالمملوك ، وأنفق على الوالدين)[6]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وبدن على البلاء صابر ، وزوجة لا تبغيه خونا في نفسها ولا ماله)[7]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أربع من سعادة المرء : أن تكون زوجته صالحة ، وأولاده أبرارا ، وخلطاؤه صالحين ، وأن يكون رزقه في بلده)[8]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ثلاث أحلف عليهن لا يجعل الله تعالى من له سهم في الاسلام كمن لا سهم له ، وأسهم الاسلام ثلاثة : الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، ولا يتولى الله عبدا في الدنيا فيوليه غيره يوم القيامة ، ولا يحب رجل قوما إلا جعله الله معهم ، والرابعة لو حلفت عليها رجوت أن لا آثم : لا يستر الله عبدا في الدنيا إلا ستره يوم القيامة)[9]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أفضل المؤمنين إسلاما من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وأفضل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وأفضل المهاجرين من هجر ما نهى الله عنه ، وأفضل الجهاد من جاهد نفسه في

---

(1) رواه الباوردي عن أبي بن مالك العامري ، وأحمد عن مالك بن عمر.
(2) رواه أحمد والطبراني في الكبير والخطيب عن عقبة بن عامر .
(3) رواه أحمد والترمذي والحاكم عن سلمة بن قيس .
(4) رواه الطبراني في الكبير والحاكم والبيهقي عن ابن عمر .
(5) رواه أحمد عن أبي هريرة .
(6) رواه الحكيم عن أبي هريرة.
(7) رواه الطبراني في الكبير والبيهقي عن ابن عباس .
(8) رواه ابن عساكر والديلمي في مسند الفردوس عن علي ، ابن أبي الدنيا في كتاب الاخوان عن عبد الله بن الحكم عن أبيه عن جده.
(9) رواه أحمد والحاكم والنسائي والبيهقي عن عائشة ...

ذات الله عزوجل)[1]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (لو يعلم الناس ما في النداء والصف الاول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا ، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا عليه ، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لاتوهما ولو حبوا)[2]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (إن الله تعالى حد حدودا فلا تعتدوها ، وفرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وترك أشياء من غير نسيان من ربكم ولكن رحمة منه لكم فاقبلوها ولا تبحثوا عنها)[3]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (إن الله تعالى عزوجل قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين ، إلا من أحب ، ومن أعطاه الدين فقد أحبه ، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه غشمه وظلمه ، ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيئ بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أتاني جبرئيل فقال : يا محمد ! ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالغنى ولو أفقرته لكفر ، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالفقر ولو أغنيته لكفر ، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالسقم ولو أصححته لكفر ، وإن من عبادي من لا يصلح إلا بالصحة ولو أسقمته لكفر)[5]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (يا غلام ! إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الامة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك ، جفت الاقلام ورفعت الصحف)[6]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (بادروا بالأعمال هرما ناغضا، وموتا خالسا، ومرضا حابسا، وتسويفا مؤيسا)[7]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (فكوا العاني، وأجيبوا الداعي ، وأطعموا الجائع ، وعودوا المريض)[8]

([1]) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمرو.
([2]) رواه البخاري ومسلم.
([3]) رواه الحاكم عن أبي ثعلبة.
([4]) رواه أحمد والحاكم والبيهقي عن ابن مسعود.
([5]) رواه الخطيب في التاريخ عن عمر.
([6]) رواه أحمد والترمذي والحاكم عن ابن عباس.
([7]) رواه البيهقي في شعب الايمان عن أبي امامة.
([8]) رواه أحمد والبخاري عن أبي موسى.

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ، ومن أشفق من النار لهى عن الشهوات ، ومن ترقب الموت هانت عليه اللذات ، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات)[١]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ا عبد الله ولا تشرك به شيئا ، وزل مع القرآن أينما زال ، واقبل الحق ممن جاءه من صغير أو كبير وإن كان بغيضا بعيدا ، واردد الباطل على من جاء به من صغير أو كبير وإن كان حبيبا قريبا)[٢]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أوصيكم بأصحابي خيرا ثم الذين يلوهم ، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف ، ويشهد الشاهد ولا يستشهد ، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان ، عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن)[٣]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (أطب الكلام ، وأفش السلام ، وصل الارحام ، وصل بالليل والناس نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام)[٤]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (طوبى لمن شغله عيب عن عيوب الناس ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السنة و لم يعد عنها إلى البدعة)[٥]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (إذا وقف السائل على الباب وقفت الرحمة معه ، قبلها من قبلها وردها من ردها ، ومن نظر إلى مسكين نظر رحمة نظر الله إليه رحمة ، ومن أطال الصلاة خفف الله عنه يوم يقوم الناس لرب العالمين ، ومن أكثر الدعاء قالت الملائكة : صوت معروف ودعاء مستجاب وحاجة مقضية)[٦]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ليس شئ أحب إلى الله من قطرتين وأثرين : قطرة دموع من خشية الله ، وقطرة دم تهراق في سبيل الله ، وأما الاثران فأثر في سبيل الله ، وأثر في فريضة من فرائض الله)[٧]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (ائت المعروف واجتنب المنكر ، وانظر ماذا يعجب أذنك أن يقول لك القوم إذا قمت من عندهم فأته ، وانظر الذي تكره أن يقول لك القوم إذا قمت من عندهم فاجتنبه)[٨]

خماسيات:

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (اغتنم خمسا قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ،

---

(١) رواه البيهقي في شعب الايمان عن علي.
(٢) رواه ابن عساكر عن ابن مسعود.
(٣) رواه أحمد والترمذي والحاكم عن عمر .
(٤) رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة.
(٥) رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس.
(٦) رواه أبو نعيم في الحلية عن ثور بن يزيد مرسلا.
(٧) رواه الترمذي عن أبي أمامة.
(٨) رواه البخاري في الأدب وابن سعد والبغوي في معجمه والباوردي في المعرفة والبيهقي في شعب الإيمان عن حرملة بن عبد الله بن أوس وماله غيره.

وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناءك قبل فقرك)[1]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (خمس من فعل واحدة منهن كان ضامنا على الله : من عاد مريضا، أو خرج مع جنازة ، أو خرج غازيا ، أو دخل على إمامه يريد تعزيره وتوقيره ، أو قعد في بيته فسلم الناس منه وسلم من الناس)[2]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئا ، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي وأن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط ، وإياك وإسبال الازار فإن إسبال الازار من المخيلة ولا يحبها الله ، وإن امرؤ شتمك وعيرك بأمر هو فيك فلا تعيره بأمر هو فيه ، ودعه يكون وباله عليه وأجره لك ، ولا تسبن أحدا)[3]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (يا أبا هريرة كن ورعا تكن من أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن من أغنى الناس ، وأحب للمسلمين والمؤمنين ما تحب لنفسك وأهل بيتك ، وأكره لهم ما تكره لنفسك وإهل بيتك تكن مؤمنا ، وجاور من جاورت باحسان تكن مسلما ، وإياك وكثرة الضحك ! فان كثرة الضحك فساد القلب)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من استعاذكم بالله فأعيذوه ، ومن سألكم بالله فأعطوه ومن استجار بالله فأجيروه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع إليكم فكافؤه ، فان لم تجدوا ما تكافؤه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه؟[5]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من بسط رضاه ، وكف غضبه ، وبذل معروفه ، وأدى أمانته ، ووصل رحمه فهو في نور الله الأعظم)[6]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (لا ينال عبد صريح الإيمان حتى يصل من قطعه ويعطي من حرمه ، ويعفو عمن ظلمه ، ويغفر لمن شتمه ، ويحسن إلى من أساء إليه)[7]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (يا ابن مسعود! هل تدري أي عرى الايمان أوثق؟ أوثق عرى الايمان الولاية في الله ، والحب في الله ، والبغض في الله ، يا ابن مسعود ! هل تدري أي المؤمنين أفضل ؟ أفضل الناس أحسنهم عملا إذا فقهوا في دينهم ، يا ابن مسعود ! هل تدري أي المؤمنين أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس وإن كان في عمله تقصير ، وإن كان يزحف من أسته زحفا ، يا ابن مسعود ! هل علمت أن بني إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة لم ينج منها إلا ثلاث فرق وهلك سائرهن ! فرقة أقامت في الملوك

(1) رواه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس، وأحمد في الزهد، وأبو نعيم في الحية عن عمرو بن ميمون.
(2) رواه أحمد والطبراني في الكبير عن معاذ.
(3) رواه الطيالسي والترمذي والبيهقي في شعب الإيمان عن جابر بن سليم الهجيمي.
(4) رواه ابن ماجة عن أبي هريرة.
(5) رواه رواه أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم عن ابن عمر.
(6) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن الحسن ، والديلمي عن علي.
(7) رواه أبو الشيخ والديلمي عن أبي هريرة.

والجبابرة فدعت إلى دين عيسى فأخذت وقتلت ونشرت بالمناشير وحرقت بالنار فصبرت حتى لحقت بالله ، ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لهم قوة ولم تطق القيام بالقسط فلحقت بالجبال فتعبدت وترهبت وهم الذين ذكرهم الله تعالى (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) هم الذين آمنوا بي وصدقوني (وكثير منهم فاسقون) الذين لم يؤمنوا بي ولم يصدقوني ، ولم يرعوها حق رعايتها وهم الذين فسقهم الله)[1]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (يا خباب! خمس إن فعلت بهن رأيتني ، وإن لم ترني : تعبد الله ولا تشرك به شيئا وإن قطعت وحرقت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولا تشرب الخمر فان خطيئتها تفرع[2] الخطايا كما أن شجرتها تعلو الشجر ، وبر والديك وإن أمراك أن تخرج من كل شئ من الدنيا ، وتعتصم بحبل الجماعة فان يد الله مع الجماعة يا خباب ! إنك إن رأيتني يوم القيامة لا تفارقني)[3]

سباعيات:

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه)[4]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[5]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (لقد سألتني عن عظيم ! وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، ألا أدلك على أبواب الخير ! الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل ، ألا أخبرك برأس الامر وعموده وذروة سنامه ! رأس الامر الاسلام ، من أسلم سلم وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد ، لا أخبرك بملاك ذلك كله ! كف عليك هذا - وأشار إلى لسانه ، ثكلتك أمك يا معاذ ! وهل

---

(1) رواه عبد بن حميد ، والحكيم ، والموصلي والطبراني في الكبير والحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود.
(2) تفرع : الفرع من كل شئ أعلاها يعني تعلو الخطايا.
(3) رواه الطبراني في الكبير عن خباب.
(4) رواه مسلم وغيره.
(5) رواه البخاري ومسلم.

يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم)[1]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (اتق الله ، وأقم الصلاة ، وآت الزكاة ، وحج البيت واعتمر ، وبر والديك ، وصل رحمك ، واقر الضيف ، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، وزل مع الحق حيثما زال)[2]

ورأى آخر، فحدثه بقوله ﷺ : (لقد سألتني عن عظيم ! وإنه ليسير على من يسره الله عليه تعبد الله لا تشرك بالله شيئا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤتي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، ألا أدلكم على أبواب الخير ! الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل ، ألا أخبرك برأس الامر وعموده وذروة سنامه ! رأس الامر الاسلام ، من أسلم سلم ، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد ، ألا أخبرك بملاك ذلك كله ! كف عليك هذا – وأشار إلى لسانه ، قال : يا نبي الله ! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم قال : ثكلتك أمك يا معاذ ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم – أو مناخرهم – إلا حصائد ألسنتهم)[3]

***

لم أمكث في الطائف إلا تلك الأيام الأربعة التي تشرفت فيها بصحبة ((الأمير)) .. لقد كانت تلك الأيام من أكثر الأيام بركة في حياتي ..

لقد شعرت ــ وأنا أسير في الطائف بصحبة (الأمير) ــ برسول الله ﷺ، وهو يتجول في شوارع المدينة وأسواقها يدعوها لربها ويهديها لسبيله .. بل شعرت، وكأن أحفاد أهل الطائف يكفرون عن ذنب أسلافهم في مقابلة رسول الله ﷺ بما قابلوه به، بذلك الإكرام وتلك الحفاوة التي أفاضوها على وريثه (الأمير).

وشعرت في نفس الوقت بأن رسول الله ﷺ هو سيد الوعاظ، ومعلمهم، وأن من لم يتعلم الوعظ على يديه، فسيتيه في أودية الهوى، وسيغرق من يعظه وديان الردى.

سألت صاحبي عن سبب تركه للأمير بعد جميل صحبته له، فقال: لقد كان الأمير رجلا رحالة .. لقد كان يشعر أنه كالطبيب الذي يبحث عن الأمراض ليعالجها ..

فلذلك نهض ذلك اليوم باكرا، وحزم أمتعته، فسألته عن قصده، فقال: أنت تعلم أن رسول الله ﷺ لم يترك سوقا، ولا قبيلة، ولا مجتمعا، ولا أفرادا إلا وبث فيهم من أنوار الهداية ما يقيم به عليهم الحجة، ويدلهم على المحجة.

قلت: ذاك رسول الله ﷺ .

قال: ولا خير فيمن لم يحمل من الهم ما كان يحمل رسول الله ﷺ .. إن الوارث لن يناله حظه من وراثة نبيه إلا بعد أن يمتلئ قلبه ألما لكل معصية، وحزنا على كل عاص.

قلت: ما جاء ديننا إلا بالرحمة، فكيف تدعوني إلى الألم؟

---

(1) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة الحاكم والبيهقي في الشعب عن معاذ.

(2) رواه الطبراني في الكبير عن مخول السلمي.

(3) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح .. ورواه الحاكم وأحمد وغيرهم.

قال: الرحمة هي التي تدعو إلى الألم.

قلت: كيف تقول هذا؟

قال: ألا تتألم عندما ترى الفقير الجائع، واليتيم الضائع؟

قلت: بلى .. الكل ينشق قلبه لهذه المرائي.

قال: والورثة يرون في الناس ما ترون.

قلت: ليس كل الناس لهم من الفقر واليتم ما ذكرت.

قال: أعظم الفقر أن تكون فقيرا من ربك، مستغنيا عنه، وأعظم اليتم أن تكون بعيدا عن مولاك الذي لا خير إلا منه.

قلت: فأولياء الله يرون عباد الله بهذا المنظار؟

قال: أجل .. وقد ورثوا ذلك من رسول الله ﷺ .. فلذلك لا ترى لهم سرورا إلا في إقبال الخلق على الله، واهتدائهم بهدي الله.

***

ما استتم صاحبي حديثه هذا حتى وجدنا أنفسنا قد قطعنا المرحلة الثانية من الطريق من غير أن نشعر بأي عناء أو تعب ..

لقد كان خيالي منصرفا تمام الانصراف لما يتحدث به صاحبي .. وكأني مع ذلك النبي الواعظ الذي امتلأ العالم جميعا بأنوار عظاته، وتقوت بجمال كلماته .. ولم يخطر على بالي طيلة هذه المرحلة ما كنا نقطعه من غابات موحشة، ومن سباع عادية تتربص بنا من كل اتجاه.

لقد نزلت علي بمجرد قطعي لتلك المرحلة أنوار جديدة .. اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

ثالثا ـــ المحاور

قلت: فحدثني عن رحلتك الثالثة.

قال: في رحلتي الثالثة، سرت إلى طوس .. تلك البلدة العريقة من بلاد فارس .. البلاد التي تشرفت بقوله ﷺ :(لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجل من أبناء فارس حتى يتناوله)[1]

خطر على بالي، وأنا أتجول في بعض شوارعها العتيقة هذا الحديث .. وخطر على بالي بعدها الجموع الكثيرة من العلماء والأولياء والربانيين من الفرس الذين ورثوا رسول الله ﷺ أكمل وراثة، وأحسن وراثة ..

ولست أدري كيف خطر على بالي فجأة الإمام أبو حامد الغزالي .. وخطر على بالي ـــ بالتحديد ـــ المدرسة والخانقاه اللذين أسسهما بعد عودته من الخلوة ليكونا رمزا لإحياء علوم الدين[2] ..

ما خطر ذلك الخاطر على خاطري حتى رحت أسأل بعض المارة عن آثار المدرسة الغزالية، فابتسم، وقال: ولماذا تبحث عن آثارها؟

قلت: أنا سائح .. وأهتم بالآثار .. ولذلك أحببت أن أراها .. فهل بقي لها وجود بعد تلك القرون الطوال؟

ابتسم، وقال: ما أسس على التقوى لا يهدم .. وما رفع بنيانه على ذكر الله حفظ بالله .. وما حفظ بالله لا يصيبه البلى.

قلت: أتقصد أن آثار المدرسة لا تزال موجودة؟

قال: بل المدرسة نفسها لا تزال موجودة .. وأنا الذي تراني أمامك طالب من طلبتها.

قلت: فمن أستاذها؟

قال: الغزالي[3] ..

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) وذلك لما روي أن الغزالي لما رجع إلى مسقط رأسه مدينة طوس بعد فترة الخلوة (اتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية، ووزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ومجالسة أرباب القلوب والتدريس لطلبة العلم وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى)

(3) نشير به إلى الإمام أبي حامد الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـــ، ١٠٥٨ – ١١١١م) الملقب بحجة الإسلام، وهو محمد بن محمد بن محمد، أبو حامد الغزاليّ وُلِدَ في طُوس، وفقد أباه صبيًّا، فرباه وصيٌّ صوفي فترة من الزمن، ثم وضعه في مدرسة خيرية يعيش ويتعلم. أتى نيسابورَ، وتعلّم التصوف على الفرامدي، والفقه والكلام على إمام الحرمين، ثم أتى مجلس نظام المُلك، وزير السلاجقة سنة ٤٧٨هـــ (١٠٨٥م)، حيث أقام ست سنوات، عيّنه بعدها الوزير أستاذاً في نظامية بغداد. درّس في بغداد أربع سنوات (٤٨٤–٤٨٨هـــ) مرّ أثناءها بشكوك وألف كتابين هما: مقاصد الفلاسفة؛ حيث عرض فلسفة الفارابي وابن سينا، وتهافت الفلاسفة، حيث انتقد هذه الفلسفة. ترك بغداد، وتفرغ للخلوة عشر سنوات، عاد بعدها إلى التعليم في نيسابور. اعتزل التعليم بعد سنة ٥٠٠ هـــ، ١١٠٦م وأسس مدرسة وخانقاه.

من أهم كتبه: مقاصد الفلاسفة (٤٨٧هـــ)؛ تهافت الفلاسفة (٤٨٨هـــ)؛ المستظهري؛ الاقتصاد في الاعتقاد (٤٨٨ هـــ)؛ إحياء علوم الدين (٤٨٨هـــ)؛ أيها الولد، ويسمى الولدية (٥٠١ هـــ)؛ المنقذ من الضلال (٥٠٢هـــ)؛ المستصفى (٥٠٣هـــ)؛ إلجام العوام عن علم الكلام (بين ٥٠٤ – ٥٠٥هـــ)، وغيرها.

قلت: ما بك يا رجل .. الغزالي طوت جسده السنون .. ؟
قال: ولكن علمه وما تركه لم تطوه السنون .. هو لا يزال حيا نابضا بالحياة.
قلت: فأنت تتملذ على كتبه؟
قال: أنا أتتلمذ على رجل من أحفاده .. لكأنه الغزالي نفسه عاد للحياة من جديد.
قلت: فأسرع بي إليه .. فما أشد شوقي لأن أجلس بين يدي الغزالي، وأتعلم منه.

سار بي الرجل إلى مدرسة جمعت بين القديم والحديث .. وبين الأصالة والمعاصرة.. لست أدري هل كانت عتيقة، فرممت، فصارت حديثة بترميمها، أم أنها أنها حديثة طليت ببعض مظاهر القديم .. فصارت تجمع بين القديم والحديث؟

دخلت إليه، فاستقبلنا رجل عليه سيما الورثة، قال لي صاحبي: هذا هو الغزالي ..
لم أدر إلا وأنا أسرع إليه، وأقبل يديه، فابتسم، وقال: هل جئت لتتعلم الحوار[1]؟
قلت: أنا جئت لأتلقى، لا لأجادل .. فمن جلس أمام الغزالي لم يصلحه إلا الصمت.

وقد اخترناه لهذا الفصل باعتباره من أئمة الحوار الكبار وأعلامه والدعاة إليه، وقد ترك لنا نموذجا طيبا للحوار في كتابه (القسطاس المستقيم)، فقد جاء هذا الكتاب على شكل حوار بينه وبين رجل من الباطنية، وقد استهله بقوله :(إخواني، هل فيكم من يعيرني سمعه لأحدثه بشيء من أسماري؟ فقد استقبلني رفيق من رفقاء أهل التعليم وغافصني بالسؤال والجدال مغافصة من يتحدى باليد البيضاء والحجة الغراء)، ثم ذكر الحوار الذي دار بينهما ،والذي شمل الكتاب جميعا.

والذي يدل على أن قصد الغزالي ليس الرد على (التعليمية) فحسب، وإنما ذكر نموذج للمجادلة الحسنة قوله في آخر الكتاب:(وهاكم ــ إخواني ــ قصتي مع رفيقي ،تلوتها بعجرها وبجرها لتقضوا منها العجب، وتنتفعوا في تضاعيف هذه المحادثات بالتفطن لأمور هي أجل من تقويم مذهب أهل التعليم، فلم يكن ذلك من غرضي)

وكتابه (تهافت الفلاسفة) نموذج جيد أيضا للحوار، فقد كان يلزمهم بأقوالهم، وأقوال غيرهم التي لا يعتقدها حتى يبين تهافت ما ذهبوا إليه.

([1]) الحوار ــ لغة ــ من الفعل (حَوَرَ) والحوار: الرجوع إلى الشيء وعنه .. والمحاورة: مراجعة الكلام، وحاورت فلاناً في المنطق، وأحرت إليه جواباً، وما أحار بكلمة.

وقد عرف الحوار ــ اصطلاحا ــ عند المُحْدَثِين بأنه (تبادل الحديث)، أو (الكلام المتبادل بين طرفين)، أو (الكلام وتبادل الرأي من أجل الوصول إلى الحقيقة)النسائي أو (هو تردد الكلام ــ أو ما يقوم مقامه ــ بين المتخاطبين على وجه المراجعة في القول وانتظار الجواب للوصول إلى الحقيقة)

والفرق بين الحوار والجدال أن كلمة الحوار تتسع لكل أساليب التخاطب، سواء كانت منطلقة من وضع لا يوحي بالخلاف أو يوحي به.

بينما كلمة (الجدال) تختزن في داخلها معنى الخلاف والشجار، وتحمل في عمقها أيضاً معنى التحدي والصراع، ولهذا ورد ذمه في القرآن الكريم كقوله تعالى :﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ (غافر: ٥)

وفي حال اعتباره أسلوبا من أساليب الدعوة إلى الله قيد بالحسن، كما قال تعالى :﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت: من الآية٤٦)، وقال تعالى :﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل:١٢٥)

قال: بل لن يصلحه إلا الحوار .. فالحوار هو الكشاف الذي تكشف به الجواهر عن معدنها، ولا يمكن التعامل مع الجواهر قبل التعرف على معدنها.

قلت: إذن أفتضح؟

قال: لا يصلح إلا من افتضح .. ألا ترى أن المريض لا يتعرف الطبيب على دوائه إلا بعد أن يفضح داءه؟

قلت: صحيح ذلك ..

قال: فلذلك نحن نكشف عن الجواهر بالقيل والقال، والجواب والسؤال، لا بالمراء والجدل.

قلت: إن هذا ما ذكره لي معلم الهداية .. فهل فمك هو الفم الثالث؟

قال: إن كان الفم الثالث هو فم المحاور، ففمي هو ذلك الفم.

قلت: فهل تأذن لي أن أصحبك لأتعلم منك هذا الفم؟

قال: آذن لك في أن تتعلم في هذه المدرسة .. فهذه المدرسة مدرسة الحوار .. أسستها بعد جدي لأعلم الدعاة إلى الله السائرين على قدم النبي ﷺ كيف يحاورون، وفيم يحاورون، و لم يحاورون.

قلت: فما شروط التسجيل فيها .. فأنا لست من هذه البلاد؟

قال: الصدق والطهارة والهمة العالية.

قلت: فما الشهادة التي تسلم لطلبة هذه المدرسة؟

قال: وراثة النبوة في فنون الحوار.

قلت: ما أعظمها من شهادة .. وأنا ــ من الآن ــ أتشرف بأن أنضم إلى هذه المدرسة .. فما أقسامها؟

قال: أربعة .. لا يمكن للأقسام إلا أن تكون أربعة .. ألم تر أن جدي أبا حامد أسس إحياءه على أربع؟

قلت: أجل .. فما الأربع التي أسست عليها مدرستك؟

قال: الطهارة، والخبرة، والأدب، والسعة.

قلت: فما الطهارة؟

قال: لا يمكن للمحاور أن ينجح في حواره، وقلبه ممتلئ بالخبائث، ولا يمكن له أن ينجح في حواره وهمته متوجهة إلى نفسه، لا إلى الحق الذي يدعو إليه.

قلت: إن هذا يستدعي مدرسة تربوية .. لا مدرسة علمية ..

قال: لا خير في علم لا يربي صاحبه ..

قلت: فما الخبرة؟

قلت: لا يمكن للمحاور أن يحاور إلا فيما له خبرة فيه.

قلت: الخبرة أعمق من العلم.

قال: ولهذا سمينا هذا القسم قسم الخبرة، لا قسم العلم.

قلت: فما الأدب؟

قال: لا يمكن للحوار أن ينجح إلا في ظلال الأدب .. فالأدب هو فراش الحوار ودثاره .. ومن لم يتأدب

مع من يحاوره لن يزيده حواره معه إلا بعدا.

قلت: فما السعة؟

قال: المحاور السائر على قدم النبي ﷺ هو الذي يحاور الكل وفي الكل .. ولا يتكبر على أحد من الناس كما لا يتكبر الطبيب على أي مرض، ولا على أي مريض.

١ ــ الطهارة

كان أول قسم دخلته بعد التحاقي يالمدرسة الغزالية للحوار .. هو قسم (الطهارة) .. كان ممتلئا بالطلاب .. سأحكي لك باختصار عن بعض ما جرى في اليوم الأول من دراستي فيه .. فلم تكن لدراستنا في سائر الأيام في ذلك القسم من قصد إلا تعميق ما درسناه في ذلك الدرس.

بدأ الدرس بسؤال لأحد الطلبة قال فيه: يا إمام .. لم اعتبرت الطهارة شرطا من شروط الحوار، وأصلا من أصوله؟

قال الغزالي: قياسا لها على الصلاة .. أليست الصلاة هي حوار بين العبد وربه؟

قال الطالب: أجل .. وقد ورد في الحديث القدسي قوله ﷺ :(قال الله عز وجل: قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد :﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة: ٢)، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال :﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة: ٣)، قال الله: أثنى علي عبدي، فإذا قال :﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (الفاتحة: ٤)، قال: مجدني عبدي فإذا قال :﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة: ٥)، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال:﴿ اهدنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٦، ٧)، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)[١]

قال الغزالي: ألا ترى أنه يشترط لصحة الصلاة تحقق الطهارة؟

قال الطالب: أجل .. وقد ورد في الحديث قوله ﷺ :(لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ)[٢]

قال الغزالي: فهكذا الحوار بين العبد والعبد لا يمكن أن يؤتي ثماره إلا إذا تقدمته الطهارة.

قال الطالب: لم أسمع بهذا .. هل يشترط على المتحاورين أن يقصدوا دورات المياه قبل ابتداء حوارهم؟

قال الغزالي: ألم تقرأ ما قاله جدي أبو حامد في أول وظائف طالب العلم؟

قال الطالب: بلى .. لقد ذكر أول وظيفة من وظائف طالب العلم، فقال:(تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف)

وعلل ذلك بقوله :(إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى؛ وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف)

ثم استدل لذلك بقوله تعالى :﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ (التوبة: من الآية٢٨) ففي هذه الآية (تنبيه للعقول على أن الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر بالحس، فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن، ولكنه نجس الجوهر أي باطنه ملطخ بالخبائث، والنجاسة عبارة عما يجتنب ويطلب البعد منه، وخبائث

---

(١) رواه مالك في الموطأ وسفيان بن عيينة في تفسيره وأبو عبيد في فضائله وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في جزء القراءة ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن الأنباري في المصاحف وابن حبان والدارقطني والبيهقي في السنن عن أبي هريرة .

(٢) رواه البخاري ومسلم.

صفات الباطن أهم بالاجتناب فإنها مع خبثها في الحال مهلكات في المآل)

واستدل بقوله ﷺ :(لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب)[1] وعلق عليه بقوله :(والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحل استقرارهم؛ والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة، فأنى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة، كما قال تعالى :﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) (الشورى:٥١)، وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها، وهم المقدسون المطهرون المبرؤون عن الصفات المذمومات، فلا يلحظون إلا طيباً ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيباً طاهراً)

نهض طالب من الطلبة غاضبا، وقال: هل الغزالي هو الذي ذكر هذا؟

قال الغزالي: أجل .. فهو في الإحياء[2] ..

قال الطالب: فكيف ينكر على الباطنية إذن .. وهو يسلك سبيلهم.

قال الطالب الأول: اصبر .. فلا ينبغي لك أن تحكم على الرجل قبل أن تسمع جميع قوله.

قال الثاني: ولكن قوله واضح في ذلك .. وهو لا يحتاج منك أي تبرير.

قال الأول: لقد قال الغزالي بعد قوله ذلك استدراكا على من يسيء فهم قوله:(ولست أقول: المراد بلفظ البيت هو القلب، وبالكلب هو الغضب والصفات المذمومة، ولكني أقول: هو تنبيه عليه، وفرق بين تعبير الظواهر إلى البواطن، وبين التنبيه للبواطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر، ففارق الباطنية بهذه الدقيقة، فإن هذه طريق الاعتبار وهو مسلك العلماء والأبرار إذ معنى الاعتبار أن يعبر ما ذكر إلى غيره، فلا يقتصر عليه، كما يرى العاقل مصيبة لغيره فيكون فيها له عبرة بأن يعبر منها إلى التنبيه لكونه أيضاً عرضة للمصائب، وكون الدنيا بصدد الانقلاب، فعبوره من غيره إلى نفسه ومن نفسه إلى أصل الدنيا عبرة محمودة، فاعبر أنت أيضاً من البيت الذي هو بناء الخلق إلى القلب الذي هو بيت من بناء الله تعالى، ومن الكلب الذي ذم لصفته ــ لا لصورته ــ وهو ما فيه من سبعية ونجاسة إلى الروح الكلبية وهي السبعية، واعلم أن القلب المشحون بالغضب والشره إلى الدنيا والتكلب عليها والحرص على التمزيق لأعراض الناس كلب في المعنى وقلب في الصورة، فنور البصيرة يلاحظ المعاني لا الصور، والصور في هذا العالم غالبة على المعاني والمعاني باطنة فيها، وفي الآخرة تتبع الصور المعاني وتغلب المعاني، فلذلك يحشر كل شخص على صورته المعنوية، فيحشر الممزق لأعراض الناس كلباً ضارياً، والشره إلى أموالهم ذئباً عادياً، والمتكبر عليهم في صورة نمر، وطالب الرياسة في صورة أسد، وقد وردت بذلك الأخبار وشهد به الاعتبار عند ذوي البصائر والأبصار)[3]

قال الغزالي: إذا وعيتم هذا، فاعلموا أن أول شرط من شروط الحوار هو تصفية النفس بمياه التوبة والإنابة

---

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) انظر: الإحياء: ١/٤٩ .
(3) الإحياء: ١/ ٤٩.

والتسليم لله .. فلا يمكن أن تحاور من تحاوره إلا وأنت صاحب قلب نقي صاف سليم من كل درن.

قال أحد الطلبة: إن ذلك يقلل أهل الحوار.

قال الغزالي: ولكن الحوار لن يؤتي ثماره إلا بذلك .. فلا يمكن للكدورات أن تثمر إلا الكدورات.

قال الطالب: لم ذلك؟

قال الغزالي: لقد ذكر جدي أبو حامد في (الإحياء) وفي جميع كتبه أن أكبر الآفات التي تفسد المناظرات وأخطرها هي الآفات النفسية، فهي السبب الأكبر في فشل الحوار وعدم إتيانه ثماره ، بل إن ثماره تصبح عكسية ، تزيد الطين بلة.

وقد قام بتحليل نفسي رائع لنفسيات المتحاورين التي لم تتأدب بآداب الشرع ، فذكر الآفات النفسية الكثيرة التي تسببها المناظرات العلمية ــ والتي هي نوع من أنواع الحوار ــ ، ويعتبرها منبع جميع الأخلاق المذمومة ، بل يقيسها على كبائر الفواحش الظاهرة ، باعتبارها لا تختلف عنها ، وقد قال في فصل عقده بعنوان (بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق) :(اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل والشرف والتشدّق عند الناس، وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عدوّ الله إبليس)[1]

ويتفرع عن هذه الخصال خصال أخرى كثيرة ، قال الغزالي :(ثم يتشعب من كل واحدة من هذه الخصال العشر عشر أخرى من الرذائل لم نطول بذكرها وتفصيل آحادها مثل: الأنفة، والغضب، والبغضاء، والطمع، وحب طلب المال، والجاه للتمكن من الغلبة، والمباهاة، والأشر، والبطر، وتعظيم الأغنياء والسلاطين والتردد إليهم والأخذ من حرامهم، والتجمل بالخيول والمراكب والثياب المحظورة، والاستحقار للناس بالفخر والخيلاء، والخوض فيما لا يعني، وكثرة الكلام، وخروج الخشية والخوف والرحمة من القلب، واستيلاء الغفلة عليه لا يدري المصلي منهم في صلاته ما صلى، وما الذي يقرأ، ومن الذي يناجيه؟ ولا يحس بالخشوع من قلبه مع استغراق العمر في العلوم التي تعين في المناظرة مع أنها لا تنفع في الآخرة: من تحسين العبارة وتسجيع اللفظ وحفظ النوادر إلى غير ذلك من أمور لا تحصى. والمناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم ولهم درجات شتى ولا ينفك أعظمهم ديناً وأكثرهم عقلاً عن جمل من مواد هذه الأخلاق وإنما غايته إخفاؤها ومجاهدة النفس بها)[2]

والغزالي يقيس هذه المنكرات الباطنة على الكبائر من الفواحش الظاهرة، فيقول :(ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل والسرقة)

ويستدل على ذلك بعلة جامعة ينص عليها بقوله:(كما أن الذي خير بـين الشرب وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش في سكره، فكذلك من غلب عليه حب

([1]) الإحياء: ١/٤٥.

([2]) الإحياء: ١/٤٥..

الإفحام والغلبة في المناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها في النفس وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة)

بل يذكر أن هذه الفواحش الباطنة مما يقع فيه المتماسكون أما غيرهم ، فيقع منهم (من الخصام المؤدي إلى الضرب واللكم واللطم وتمزيق الثياب والأخذ باللحى وسب الوالدين وشتم الأستاذين والقذف الصريح)

قال أحد الطلبة: لقد صدق الغزالي فيما ذكره من ذلك .. ونحن نرى في وسائل الإعلام الكثير مما يؤكد قوله هذا .. فهل بحث عن أسبابه؟

قال الغزالي: أجل .. فلا يمكن وصف الدواء قبل تشخيص الداء.

قال الطالب: فما الذي ذكره من أسباب ذلك الدنس الذي تمتلئ به نفوس المتحاورين، والذي يحيل حوارهم وقودا لا يزيد نيران العلاقات إلا اشتعالا.

قال الغزالي: لقد رأيت أن فروع تلك الخبائث التي تملأ نفوس المتحاورين تنطلق من أربعة أمراض كبرى .. الحسد، والكبر، والرياء، والبغي .. وكلها ذكرها جدي أبو حامد، بحمد الله.

قال الطالب: فما منبع **الحسد**، وما علاقته بالحوار .. وما تأثيره فيه؟

قال الغزالي: لقد ذكر أبو حامد الحسد باعتباره الآفة الكبرى التي تنخر العلاقات .. كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ :(الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب)[1] .. فكل الحسنات التي تنبت من العلاقات الطيبة بين المتحاورين تأكلها نار الحسد.

قال الطالب: فما العلة النفسية لذلك؟

قال الغزالي: أنت تعلم أن المحاور تارة يغلب وتارة يُغلب، وتارة يحمد كلامه وأخرى يحمد كلام غيره .. وهو لذلك إن حمد كلامه امتلأ إعجابا بنفسه .. وإن حمد كلام غيره امتلأ حسدا وحقدا .. فهو لذلك يتمنى زوال النعم عنه وانصراف القلوب والوجوه عنه إليه، ولهذا قال ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ :(خذوا العلم حيث وجدتموه، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فإنهم يتغايرون كما تتغاير التيوس في الزريبة)

قال الطالب: فما منبع **الكبر**، وما علاقته بالحوار .. وما تأثيره فيه؟

قال الغزالي: لقد ذكر أبو حامد ما ينشئه اعتقاد المحاور لغلبته وتفضله على مخالفه، فقال :(ولا ينفك المناظر عن التكبر على الأقران والأمثال والترفع إلى فوق قدره حتى إنهم ليتقاتلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيه في الارتفاع والانخفاض والقرب من وسادة الصدر والبعد منها والتقدّم في الدخول عند مضايق الطرق، وربما يتعلل الغبي والمكار الخداع منهم بأنه يبغي صيانة عز العلم، وأن المؤمن منهيٌّ عن الإذلال لنفسه، فيعبر عن التواضع الذي أثنى الله عليه وسائر أنبيائه بالذل، وعن التكبر الممقوت عند الله بعز الدين تحريفاً للاسم وإضلالاً للخلق به)

ولهذا ورد التحذير في النصوص من الكبر، وأمر بالتواضع، وربط كل ذلك بالاهتداء إلى الحق.. ففي الحديث أن رجلا أتى النبي ﷺ ، فقال : يانبي الله إنه ليعجبني الجمال حتى أود أن علاقة سوطي وقبالة نعلي

(1) رواه ابن ماجة.

حسن، فهل ترهب علي الكبر ؟ فقال نبي الله ﷺ : (كيف تجد قلبك؟) قال : أجده عارفا للحق مطمئنا إليه، قال : (فليس ذاك بالكبر، ولكن الكبر أن تبطر الحق، وتغمص الناس فلا ترى أحدا أفضل منك وتغمص الحق فتجاوزه إلى غيره)[1]

انظروا .. ألا ترون (أن أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر على لسان خصمه الحق، ومهما ظهر تشمر لجحده وإنكاره بأقصى جهده وبذل غاية إمكانه في المخادعة والمكر والحيلة لدفعه حتى تصير المماراة فيه عادة طبـــيعية، فلا يسمع كلاماً إلا وينبعث من طبعه داعية الاعتراض عليه حتى يغلب ذلك على قلبه)؟

قال الطلبة جميعا بلسان واحد: بلى ..

قال الغزالي: فلذلك تبدأ مدرستنا بتربية المتحاورين على التواضع، وعلى تقبل الحق من أي كان .. فلا يمكن أن ندنس سنة الحوار التي سنها لنا نبينا ﷺ بما تمتلئ به نفوسنا من أمراض.

قال الطالب: فما منبع **الرياء**، وما علاقته بالحوار .. وما تأثيره فيه؟

قال الغزالي: الرياء هو أن تنشغل النفس برؤية نفسها عن رؤية الحق أو الدفاع عنه أو الدعوة إليه .. ومحال أن يتجلى الحق والنفس في مرآة واحدة.

قال الطالب: فكيف تطهر النفس من الرياء؟

قال الغزالي: بتحقيق التوحيد والإخلاص، فلا يقصد المحاور إلا نصرة الحق .. لا يهمه في ذلك إن ظهر على لسانه أو ظهر على لسان غيره.

لقد كان الشافعي وارث رسول الله ﷺ يصيح بهذا، ويخبره عن نفسه به .. كان يقول :(ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطئ) .. وكان يقول :(ما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله تعالى، وما كلمت أحداً قط وأنا أبالي أن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه) .. وكان يقول :(ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته واعتقدت محبته، ولا كابرني أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته)

قال الطالب: فما منبع **البغي**، وما علاقته بالحوار .. وما تأثيره فيه؟

قال الغزالي: من امتلأت نفسه بالحسد والكبر والإعجاب بالنفس والتباهي بها لن ينظر إلى غيره إلا بعين البغي والظلم والعدوان .. فلذلك تجده في حواره كسبع ضار ليس له من هم إلا افتراس فريسته.

لقد ذكر الغزالي بعض ما كان في عصره من مظاهر البغي، فقال :(المناظر لا ينفك عن طلب عثرات أقرانه وتتبع عورات خصومه حتى إنه ليخبر بورود مناظر إلى بلده، فيطلب من يخبر بواطن أحواله ويستخرج بالسؤال مقابحه حتى يعدها ذخيرة لنفسه في إفضاحه وتخجيله إذا مست إليه حاجة، حتى إنه ليستكشف عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه فعساه يعثر على هفوة أو على عيب به من قرع أو غيره، ثم إذا أحس بأدنى غلبة من جهته عرّض به إن كان متماسكاً، ويستحسن ذلك منه، ويعد من لطائف التسبب، ولا يمتنع عن الإفصاح به إن كان متبجحاً بالسفاهة والاستهزاء، كما حكي عن قوم من أكابر المناظرين المعدودين من فحولهم)

([1]) رواه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

لقد ذكر القرآن الكريم كيف يقف البغي والظلم حجابا دون الحق، فقال :﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام:٣٣)

لقد أخبر الله في هذه الآية الكريمة أن الظلم هو السبب في جحود الظالمين لآيات الله، لا كون الآيات في نفسها تستحق أن تكذب.

قال أحد الطلبة: أهذه هي الآفات التي يتم التكوين فيها في هذا القسم؟

قال الغزالي: أجل .. نحن في هذا القسم نحاول أن نعلم الطلبة كيف يتخلصون من هذه الآفات الخطيرة، وكيف تمتلئ نفوسهم بالصفاء .. ليتمكنوا بعدها من إجراء حوار ناجح يؤتي الثمار التي يطلبونها.

٢ ــ الخبرة

بعد أن مكثت ما شاء الله أن أمكث في القسم الأول أذن لي مع بعض رفاقي أن ننتقل إلى القسم الثاني، وهو قسم (الخبرة) .. لقد كان مكتوبا في مدخل ذلك القسم قوله تعالى :﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ) (الحج:٨)، وبجانبها قوله تعالى:﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) (آل عمران:٦٦)

وقد رأينا في مدخل ذلك القسم أربعة فروع ..

الوجهة:

بدأنا بالفرع الأول، وكان اسمه (الوجهة)، وقد علق على بابه قوله تعالى :﴿ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ (البقرة: من الآية١٤٨) .. قابلنا الغزالي في ذلك الفرع، وهو يقول: مبارك لكم تخرجكم من القسم الأول، فقلما يتخرج منه المتخرجون إلا بعد عناء وتعب.

قال أحد رفاقي: لقد وفقني الله في أوائل حياتي، فصحبت رجلا من أهل الله اسمه (محمد الوارث) .. فإن يكن هناك من سبب لنجاحي في ذلك القسم، فلا أراه يعود إلا إليه.

صحت: أنا كذلك .. وفقني الله لصحبته فترة من الزمن ..

صاح جميع أصحابي بذلك ..

قال الغزالي: كلنا صحب ذلك الرجل .. وبركات ذلك الرجل لا نزال ننهل منها بحمد الله.

قلت: فما الذي سنتعلمه في هذا القسم؟

قال: تفسير ما قرأته في مدخل باب هذا القسم.

قلت: أتقصد قوله تعالى :﴿ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ (البقرة: من الآية١٤٨)

قال: أجل .. فهذه الآية هي عنوان دراستكم في هذا الفرع.

قال بعض رفاقي: أتقصد أنا سنبحث عن أنواع الوجهات التي تتوجه إليها الأديان في شعائرها؟

قال: سنبحث في هذا الفرع عن أنواع الوجهات التي تتوجه لها العقول والقلوب والأرواح والأسرار في شعائرها وفي حياتها.

قلت: إن ذلك سيستفرغ منا جهدا كبيرا.

قال: هو جهد لابد منه .. فلا يمكن لمن يريد أن يحاور جهة من الجهات ليهديها إلى الله إلا أن يتعرف على ما تعتقده تلك الجهة، وما تستدل به على اعتقادها .. ليخاطبها بالعلم لا بالجهل، وبالحقائق لا بالأباطيل ..

عندما لاح لجدي أبي حامد أن ينتقد الفلسفة اليونانية، وما كانت تحمله من أنواع الضلال، لم يكتف بأن يكتب قصيدة أو خطبة يملؤها سبابا وشتائم .. وإنما راح لكتب الفلسفة يقرؤها بتمعن وتمحيص وتدقيق ..

لقد ذكر سر ذلك، فقال :(ثم إني ابتدأت – بعد الفراغ من علم الكلام – بعلم الفلسفة، وعلمت يقيناً: أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك

العلم، ثم يزيد عليه، ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم، من غوره وغائله، وإذا ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقاً، و لم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك، و لم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم ــ حيث اشتغلوا بالرد عليهم ــ إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد، لا يظن الاغترار بها بعاقل عامي، فضلاً عمن يدعي دقائق العلم، فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والإطلاع على كنه رمى في عماية.

فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب، بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية، وأنا ممنو بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفس من الطلبة ببغداد، فأطلعني الله سبحانه وتعالى بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة، على منتهى علومهم في أقل من سنتين، ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره، حتى اطَّلعت على ما فيه من خداع، وتلبيس وتحقيق وتخييل، واطلاعاً لم أشك فيه)[1]

وهكذا .. فلا ينبغي لمن يريد محاورة أي جهة من الجهات إلا أن يكون له القدرة على فهمها واستيعاب ما تطرحه من أفكار.

قال أحد رفاقي: فإن لم يكن له القدرة على ذلك؟

قال: من لم تكن له القدرة .. فليلزم الصمت .. فلا يمكن للجاهل أن يكون معلما ..

قال الطالب: إن ذلك يقلل الدعاة إلى الله.

قال: للدعوة إلى الله أساليب كثيرة .. والحوار العلمي أسلوب من أساليبها .. ولا يمكن أن يمارس هذا الأسلوب جاهل .. لأنه لا يزيد طين الحوار إلا بلة.

قلت: إن من قومي من يدعو المسيحيين إلى مناظرات علمية .. وهو لا يعرف حتى فصول الكتاب المقدس.

قال: ذلك مغرور .. فانهره .. وأخبره بقوله تعالى :﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ) (الحج:٨)

قلت: إن هذه الآية تتحدث عن الكفار .. لا عن المسلمين.

قال: الآية تتحدث عن المجادل بغير علم .. ويستوي في ذلك المسلم وغير المسلم.

قلت: فهل في النصوص المقدسة ما يدل على مراعاة هذا في الحوار؟

قال: أجل .. وما كان لنا أن نتخطى النصوص المقدسة، أو نتجاهلها ..

قلت: أين ذلك؟

قال: ألست تقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى :﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (البقرة:١١٣)، وقوله تعالى :﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ

([1]) المنقذ من الضلال.

اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)(المائدة: من الآية١٨)، وقوله تعالى :﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ)(المائدة: من الآية٦٤)، وقوله تعالى :﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) (التوبة:٣٠)؟

قلت: بلى .. وفي القرآن الكريم الكثير من هذا.

قال: إن القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمة يذكر لنا وجهات اليهود والنصارى ومعتقداتهم ليخاطبهم على أساسها .. وهو ــ بذلك ــ يدعونا أن نتعرف على الوجهات المختلفة قبل التعامل معها.

قلت: ولكن الحوار قد لا يكون في تلك الوجهات بذاتها .. أي أن حوارنا مع النصارى مثلا لا يرتبط بما يقولونه عن المسيح ﷺ .

قال: ولو .. إن الأفكار والمعتقدات سلسلة واحدة .. ولا يمكنك أن تتعامل مع حلقة من حلقات السلسلة، وأنت تجهل السلسلة جميعا.

قلت: ولكن الوجهات كثيرة جدا ..

قال: كل من أراد أن يحاور جهة .. فعليه أن يتعرف على القبلة التي تتوجه إليها ..

قلت: أتقصد أنا لن ندرس في هذا الفرع كل الوجهات؟

قال: لو فعلنا ذلك .. فلن تخرجوا من هنا .. لقد عرفت كيف استمر جدي أبو حامد أكثر من سنتين في دراسة الفلسفة اليونانية وحدها.

قلت: فماذا سندرس في هذا الفرع إذن؟

قال: سنتعرف على الوجهات العامة للملل والنحل .. ونتعرف على المصادر التي يمكن أن تكون مرجعا لنا إذا أردنا العلم التفصيلي عنها.

قلت: لم نكتف بهذا؟

قال: لأن العلم بالملل والنحل وحصرها وتصنيفها من العلوم التي استفدناها من نبينا ﷺ .. ألم تسمع حديثه في افتراق الملل والنحل؟

قلت: بلى .. فقد ورد في الحديث قوله ﷺ :(افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)[1]

قال: ألا ترى كيف حصر رسول الله ﷺ أصناف الفرق المتفرعة عن اليهودية، وعن النصرانية، وذكر ما سيصل إليه المسلمون من تفرق.

قلت: بلى .. ولكن من قومي من يتخذ من هذا الحديث مطية للتفريق بين المسلمين، وزرع الأحقاد بينهم.

قال: أولئك جهلة أو غافلون .. وهم لا يفهمون من النصوص المقدسة إلا ما توحي لهم به نفوسهم المدنسة بالحقد والتعصب والكبرياء.

---

(1) رواه أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم.

قلت: فما تفهم أنت؟

قال: إن رسول الله ﷺ أعظم الناصحين .. وهو يدلنا على التعرف على مقولات الفرق والملل والنحل .. لا لنصب عليها نيران أحقادنا، وإنما لنصيبها ببلسم شفائنا .. ألا ترى كيف يصنف الأطباء المرض الواحد إلى أنواع مختلفة .. تحت كل نوع منها أنواع أخرى .. وهكذا؟

قلت: بلى .. وقد مارست الطب زمنا، وعرفت من علوم ذلك ما وفقني الله لمعرفته.

قال: فاعبر من طب الأجساد إلى طب الأرواح .. واعبر من طب الأفراد إلى طب المجتمعات.

قلت: لقد ذكرني حديثك هذا بجدك أبي حامد .. فقد كان رجلا حكيما .. لقد قال بعد أن ذكر ما تعلمه من علوم الفلاسفة :(اعلم أنهم ــ على كثرة فرقهم، واختلاف مذاهبهم ــ ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: الدهريون، والطبيعيون، والإلهيون)

ثم ذكر مقولات كل طائفة، وما تميزت به عن غيرها، فذكر أن الدهريين (هم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر، العالم القادر، وزعموا: أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه، وبلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كذلك كان، وكذلك يكون أبداً وهؤلاء هم الزنادقة)

وذكر أن الطبيعيين (هم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات، فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى، وبدائع حكمته، مما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم، مطلع على غايات الأمور ومقاصدها، ولا يطالع التشريح، وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان، لا سيما بنية الإنسان..! إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم ــ لاعتدال المزاج ــ تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم، ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم، كما زعموا، فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود فجحدوا الآخرة، وأنكروا الجنة والنار، والحشر والنشر، والقيامة، والحساب، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب، ولا للمعصية عقاب، فانحل عنهم اللجام، وانهمكوا إنهماك الأنعام. وهؤلاء أيضاً زنادقة، لأن أصل الإيمان هو: الإيمان بالله واليوم الآخر، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر، وإن آمنوا بالله وصفاته)

وذكر أن الإلهيين (ــ وهم المتأخرون منهم مثل سقراط وهو أستاذ أفلاطون وأفلاطون أستاذ أرسطاطاليس وأرسطاطاليس هو الذي رتب لهم المنطق، وهذَّب لهم العلوم، وحرر لهم ما لم يكن محرراً من قبل، وأنضج لهم ما كان فجاً من علومهم ــ وهم بجملتهم، ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية، والطبيعية، وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)(الأحزاب: من الآية٢٥) بتقاتلهم، ثم رد أرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الإلهيين، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم)[1]

قال: انظر .. إن ما قرأته من هذا النص يدل على منهج حكيم للمحاور الحكيم .. وهو منهج أشار إليه

([1]) المنقذ من الضلال.

قوله تعالى :﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (البقرة:١١٣)

قلت: ما تعني؟

قال: إن الآية الكريمة تشير إلى العداوة المستفحلة بين اليهود والنصارى .. وهي عداوة يمكن للمحاور الحكيم أن يستثمرها .. فيغني نفسه عن جهد كبير قد لا يكون بحاجة إليه.

قلت: نعم .. لقد ذكر جدك أبو حامد أنه استثمر العداوة فيما بين الفلاسفة، والصراع الذي كان بينهم.

قال: وهكذا الحكيم يستثمر الصراع بين الفلسفات المختلفة .. فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها، فهو أحق بها.

سكت قليلا، ثم قال: سأضرب لك مثالا ..

قاطعه بعض رفاقي قائلا ــ وهو يبتسم ــ : هو لجدك أم لك.

ابتسم، وقال: ليس جدي سواي .. ولست سوى جدي .. لقد امتلأت حبا له، ففنيت فيه .. فلا تراني أتحدث إلا عنه .. فاعذروني ..

أما هذا المثال .. فأنا الذي اكتشفته بحمد الله .. ولو أن لجدي سبب في اكتشافه ..

لقد أردت مرة أن أحاور بعض أهل الكتاب في التحريف الذي طال كتبهم، و لم يكن لدي الوقت الكافي للبحث في المخطوطات والتراجم والنسخ المختلفة .. وقد سمعت حينها أن اسبينوزا .. الفيلسوف اليهودي المعروف .. كان قد كتب رسالة في اللاهوت والسياسة، وهو أساساً نقد للعهد القديم ولأسفار موسى الخمسة .. وقرأت أنه من أوائل المفكرين الذين وضعوا دعائم العلم الذي يُسمَّى (نقد العهد القديم)، أو (النقد التاريخي للكُتب المقدَّسة) .. فرحت أستثمر كل ما قاله في ذلك.

قلت: وماذا لو كان اسبينوزا أخطأ في استنتاجاته؟

قال: أنا لا تهمني الاستنتاجات .. و لم أكن أطلب الاستنتاجات .. بل كنت أطلب الحقائق، والتوثيقات المرتبطة بها .. أما النتائج .. فيمكنك أن تستثمرها في أي محل .. ألست ترى من الناس من يأكل التفاح ناضجا، ومنهم من يأكله مربى، ومنهم من يأكله مطبوخا؟

قلت: المهم أنه أكل تفاحا ..

قال: وهكذا فعلت .. لقد كنت أبحث عن تفاح الحقائق من جميع أنواع البساتين لأطبخ منه بعد ذلك ما أراه صالحا للمعد المختلفة.

المسائل:

بعد أن مكثنا فترة في الفرع الأول .. انتقلت مع بعض رفاقي إلى الفرع الثاني من قسم (الخبرة) .. وقد كتب على بابه قوله تعالى :﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (آل عمران:٦٤)

وقد قابلنا في مدخل هذا الفرع الغزالي مبتسما مهنئا، فسألناه عن سر وضع الآية في مدخل هذا الفرع، فقال: هنا نبحث في المسائل المهمة التي نحتاج إلى الحوار فيها.

قلت: كنت أتصور أن الحوار يمكن أن يكون في كل شيء؟

قال: أجل .. ولكنا في هذه المدرسة خصوصا آلينا على أنفسنا أن نبتعد عن كل لغو .. فلذلك جعلنا هذا القسم مركز أبحاث في المسائل المهمة التي ينبغي الحوار فيها.

قلت: فما علاقة ذلك بالآية؟

قال: الآية الكريمة هي التي هدتنا إلى ذلك .. فالله تعالى يخاطب أهل الكتاب داعيا لهم إلى الاجتماع مع نبيه ﷺ حول القضايا العقدية الكبرى .. والتي هي إفراد العبودية لله، وترك الخلافات الجانبية ..

قلت: أهناك خلافات جانبية؟

قال: هي كثيرة جدا .. وأكثرها مما يستنفذ الجهود .. وأكثرها مما ينفخ فيه الشيطان.

قلت: فهل وجدتم ما تخمدون به نيران الشياطين؟

قال: أجل .. وجدنا ــ بحمد الله ــ الكثير .. ونحن نتدارس ذلك في هذا الفرع.

قال بعض الطلبة: هل يمكن أن تذكر لنا مثالا على ذلك ..

قال: مثالا من عندي .. أم من عند جدي؟

قال الطالب: ألم تذكر لنا أنك وجدك واحد؟

قال: بلى .. أنتم تعلمون أن من الفرق التي حاورها جدي فرقة التعليمية[1] .. وقد حاول ــ كعادته في التعامل مع مثل هذه القضايا ــ أن يحصر نقاط الاختلاف المهمة، ويناقشها بعد ذلك.. وقد رأى من خلال استقرائه أن السبب في انتشار أفكارها هو ما سماه بسوء نصرة الصديق الجاهل ..

اسمعوا إليه، لقد قال في (المنقذ) عن هذه الفرقة:(أنه لا حاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم، ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل، لما انتهت تلك البدعة ــ مع ضعفها ــ إلى هذه الدرجة، ولكن شدة التعصب دعت الذابين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم في مقدمات كلامهم، وإلى مجاحدتهم في كل ما نطقوا به، فجاحدوهم في دعواهم: الحاجة إلى التعليم والمعلم، وفي دعواهم أنه: لا يصلح كل معلم، بل لا بد من معلم معصوم وظهرت حجتهم في إظهار الحاجة إلى التعليم والمعلم، وضعف قول المنكرين في مقابلته، فاغتر بذلك جماعة وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق وجعله بطريقه، بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلم، وأنه لا بد وأن يكون المعلم معصوماً، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد ﷺ فإذا قالوا: هو ميت فنقول: ومعلمكم غائب فإذا قالوا: معلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل فنقول: ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد وأكمل التعليم إذ قال الله تعالى :﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً

([1]) نحن لا نقصد هنا أي فرقة من فرق المسلمين، فنحن ــ بحمد الله ــ نحترم المسلمين جميعا بمذاهبهم وفرقهم وطوائفهم، وإنما ذكرنا هذا هنا لنعرف منهج الحوار، لا لنحكم على طائفة بعينها.

)(المائدة: من الآية٣)، وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا يضر غيبته)[1]

وهكذا في تعامله مع الفلسفة، والفلاسفة، فقد حاول أن يحصر نقاط الاختلاف المهمة في عدد محدود من المسائل .. ضمنها كتابه (تهافت الفلاسفة)

لقد بدأ فقسم العلوم التي خاض فيها الفلاسفة إلى ستة أقسام، مبينا حكم كل قسم، وعلاقته بالشريعة، لأنه لا حاجة للإنكار عليهم في مسائل لا علاقة لها بالشريعة.

قال أحد الطلبة: فما هذه الأقسام لعلنا نقيس عليها غيرها.

قال الغزالي: أولها العلوم الرياضية، وهي العلوم التي تتعلق بالحساب والهندسة،وعلم هيئة العالم، وحكمها كما يقرر الغزالي أنه (لا يتعلق شيء منها بالأمور الدينية،بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجا حدتها بعد فهمها)، بل إنه يجعلها من الفروض الكفائية ما دام يحتاج إليها ، ولكنه مع ذلك يحذر من بعض النتائج السلبية المنجرة عن النظر فيها ، ولعل أهمها هو اعتقاد أن جميع الآراء الفلسفية من الدقة والوثوق مثل العلوم الرياضية، (فيكفر يالتقليد المحض)؛ وليس في هذا التحذير من الغزالي إلا تنبيه للسبيل الانتقائي الذي اختاره وبنى عليه مواقفه.

وأما ثانيها، فهي العلوم المنطقية: وتتعلق بالنظر في طرق الأدلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها، ولا يتعلق شيء منها بالدين ــ كما يذكر الغزالي ــ إلا ما حشيت به من أمثلة تتناقض وتتعارض مع الأصول الدينية، ولأجل ذلك ألف الغزالي كتبه المنطقية،كمعيار العلم وغيره، وحشاها بدلا من ذلك بالأمثلة الفقهية.

وأما ثالثها، فالعلوم الطبيعية: وتشمل في مدلولها القديم الطب والكيمياء والفلك وغيرها، ويرى الغزالي عدم تعرضها للدين، ولذلك لا ينبغي مخالفتهم في شيء منها إلا بما هدى إليه الدليل العلمي، ولكنه مع ذلك ينبه إلى قضية مهمة، وكأنه يدعو من خلالها إلى أسلمة هذه العلوم، فهي إلحادية من حيث جعلها الطبيعة فاعلة بذاتها، ولذلك يجب أثناء مطالعة هذه العلوم (أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى ،ولا تعمل بنفسها ،بل هي مستعملة من جهة فاطرها، والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره ،لا فعل لشيء منها لذاته)

وكذلك ينتقدهم في حكمهم بأن الاقتران المشاهد في الوجود بين الأسباب والمسببات اقتران ضروري لازم، وليس في الإمكان إيجاد السبب دون المسبب، وذلك لما يلزم عنه من إنكار المعجزات أو تأويلها تأويلا يعطل معناها، كما ينقل الغزالي تأويل بعضهم إحياء الموتى بإزالة موت الجهل بحياة العلم، وتأويل تلقف العصا سحر السحرة على إبطال الحجة الإلهية شبهات المنكرين على يد موسى عليه السلام .

وقد رد الغزالي على الفلاسفة هذه الجوانب لاعتمادهم فيها على الظن والتخمين دون التحقيق العلمي المبني على الحجة والدليل، ولذلك تكتسب أدلته النقدية لها قوة علمية تنبئ عن مدى اعتماده المنهج التجريبي في العلوم الطبيعية.

وأما رابعها، فالعلوم السياسية: ويبحث فيها الفلاسفة عن الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية، ولا

([1]) المنقذ من الضلال.

يرى الغزالي لذلك أي تعلق بالدين، بل يمكن الاستفادة من أبحاثهم فيها باعتبارها مستمدة ــ كما يرى ــ من كتب الله المنزلة على الأنبياء، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء.

وأما خامسها، فالعلوم الأخلاقية :وكلامهم فيها ــ كما يلخصه الغزالي ــ يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها وأجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها، وهو لا يرى ردها باعتبارها لا تناقض الشرع، بل يرى أن كلامهم فيها مأخوذ من كلام الصوفية والمتألهين الذين لم يخلو من وجودهم أي عصر من العصور، ولذلك فإن الاستفادة منهم تلق لمزيد من التجارب والفوائد التي لم تمنعنا الشريعة من الأخذ بها.

وأما سادسها، فالعلوم الإلهية: وهي التي انصب عليها نقد الغزالي، لأن أكثر أغاليطهم فيها.. وهو لم ينقدهم كفيلسوف، ولم يحكم عليهم بالكفر أو البدعة كفقيه إلا بعد النظر في علاقة آرائهم بما جاءت به الشريعة، لأنها عقل من الخارج، ويستحيل تصادم العقل الخارجي مع العقل الداخلي ،ولذلك جمع من أقوالهم في الإلهيات عشرين مسألة، حكم بالكفر على ثلاثة منها، وبالبدعة على الباقي، (وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات، وقولهم :إنه عليم بالذات، وما يجري مجراه، فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك)

بعد هذا التقسيم لا يرى الغزالي حرجا أن يستفيد اللبيب من كل علومهم ما عدا ما عارض الشرع منها ،لأن معرفة الحق مطلب كل عاقل، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها.

وهو ينكر على من يرد عليهم بمجرد كونهم فلاسفة، ويشبه ذلك بالذي يسمع من النصراني قول :(لا إله إلا الله عيسى رسول الله)، فينكره،ويقول: هذا كلام نصراني ،ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني كافر باعتبار هذا القول أو باعتبار إنكار نبوة محمد ﷺ .

البراهين:

بعد أن مكثنا فترة في الفرع الثاني .. انتقلت مع بعض رفاقي إلى الفرع الثالث من قسم (الخبرة) .. وقد كتب على بابه قوله تعالى :﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة: من الآية١١١)، وقد لاقانا الغزالي كعهدنا به في بداية الدخول إلى كل فرع، وبعد أن هنأنا بتخرجنا من الفرع السابق، قال: مرحبا بكم في القسم الثالث من أقسام الخبرة .. إنه القسم الذي ترثون به سنة البراهين من إرث الحوار النبوي.

قال بعض رفاقي: عهدنا بالبراهين تدرس في العلوم العقلية، لا في العلوم النقلية .. فكيف تعتبر البراهين العقلية إرثا من إرث النبوة؟

قال: لأنه لم يكتمل تطبيق البراهين العقلية لأحد من الناس كما اكتمل للنبي ﷺ، ولإخوانه من الأنبياء الكرام ..

قلت: نحن نعرف أن أرسطو هو واضع البراهين العقلية .. فكيف تنسب ذلك للأنبياء؟

قال: ألا تعرف الخليل بن أحمد؟

قلت: وكيف لا أعرفه؟ .. إنه واضع علم العروض، فهو مكتشف أوزان البحور الشعرية المعروفة وواضع تفعيلاتها.

قال: أمعلقته أجمل، أم معلقة زهير بن أبي سلمي؟

ضحكت، وقلت: ما بالك؟ .. لا شك أن بضاعتك مزجاة في الشعر .. كيف تقارن بين رجل باحث لا علاقة له بالشعر بأولئك الفحول الكبار من الشعراء؟

قال: فعلم من ذكرت من الفحول بالعروض أكبر أم علم الخليل؟

قلت: بل علم الخليل .. فلم يكن في الجاهلية من يعرف بحور الشعر.

قال: وهكذا البراهين العقلية .. فرق كبير بين أن تعرف المقدمات والمقاييس وبين أن تطبقها .. نعم ربما يكون أرسطو أعلم بمصطلحات المنطق .. لكن التطبيق المثالي للمنطق لم يتحقق بكماله لغير الأنبياء وورثة الأنبياء.

قلت: ألست تحجر واسعا؟

قال: لا .. لم أحجر واسعا .. إن الأحكام العقلية تقتضي عقلا سليما لا تؤثر فيه أي شهوة أو شبهة .. فلا يمكن أن يكون الاستنتاج العقلي سليما، وهو محاط بأكوام الشهوات والشبهات.

قلت: أكوام الشبهات والشهوات !؟

قال: أجل .. ونحن في هذا الفرع من هذا القسم نبحث في هذه الأكوام لنطهر العقل منها، فلا يمكن للعقل الملطخ بذلك الدنس أن يصدر منه إلا الدنس.

قلت: اضرب لي أمثلة عنها ..

قال: منها الكبر الذي تمتلئ به تلك العقول عن سماع غيرها .. لقد ذكر بعض هؤلاء، فقال :﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(البقرة:١٧١) .. إن في هذه الآية تشبيها بليغا للمؤمن الذي قد يكون محدود الثقافة، ومع ذلك يخاطب الكفار الذين قد يكون منهم العلماء والباحثون وأهل الفكر فلا يسمعون منه إلا صوته، ولا يفهمون ما يقول، أو قد يضحكون مما يقول، فهم كالراعي الذي ينعق بالغنم والإبل فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه ولا تفهم ما يقول، لأن موجات الحديث مختلفة، وطريقة التفكير مختلفة، وبعد النظر متفاوت.

قال بعض رفاقي: صدقت .. فكثيرا ما نرى عقلا رياضيا جبارا يحل أعقد المعضلات الرياضية، أو عقل اقتصادي يحل أفتك أزمات مجاعة، أو عقل فيلسوف يقسم الشعرة بذكائه، ولكنه إذا ما حدث عن أبسط القضايا الإيمانية صعر خده ولوى عنقه، وقال: هذه قضايا هامشية، أو مسائل غير مطروحة، ويرضي ــ بعد ذلك ــ بأن يموت على إلحاد أو على إيمان لا وجود لأي أثر له في حياته.

قال: لقد شبه الله أمثال هؤلاء بالأنعام تشبيها صريحا في القرآن وفي مواضع كثيرة، بل يزيد في تفضيل الأنعام عليهم، قال تعالى :﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾(المائدة:٢٢)، وقال :﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(الفرقان:٤٤)

قلت: صدق الله العظيم .. إن هؤلاء الذين يتيهون بمعارفهم وصنائعهم الدنيوية البسيطة يوجد ما يماثلها في الحيوانات التي لم تدرس في الجامعات، ولم تقرأ الكتب، ولم تتلق أي تدريبات، فإن أي عنكبوت يتحدى أبرع

مهندس، وأي نملة تتحدى وزارة تموين، وأي نحلة تفوز على جميع خبراء التغذية، بل أي نبات يفقه أسرار الجو كما لا يفقهه خبراء الإرصاد فيلبس لكل مناخ لبوسه.

قال بعض رفاقي: فهل هناك غير الكبر من حجب العقل؟

قال: كل ما درستموه في القسم الأول هو حجب من حجب العقل .. فالعقل الذي امتلأ صاحبه بالحسد والحقد لن يفكر إلا فيما يرضي سموم الحسد والحقد التي تمتلئ بها نفسه.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال :﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:١٠٩) .. لقد ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن الحسد هو الذي حال بين هؤلاء وبين التسليم للحق ..

قلت: ولكن مع ذلك .. فإن المقاييس العقلية يمكنها أن تطهر العقل من ران هذه الأكوام..

قال: ذلك صحيح .. إذا استطاع صاحب العقل أن يعمل عقله .. ويلغي ما تطلبه نفسه من نوازع الشر.

قلت: أي منطق تعتمدون في هذه المدرسة .. فإن للمنطق مدارس مختلفة.

قال: هو باختلاف مدارسه يؤول إلى شيء واحد .. ونحن نعتمد كل ما ورد في ذلك .. لقد كان المنطق السائد في عهد جدي أبي حامد هو ما وضعه الفلاسفة في كتبهم .. وقد استخدمه جدي ــ بحمد الله ــ خير استخدام .. لقد قال فيه :(ولكن المنطق ليس مخصوصا بهم [أي بالفلاسفة]،وإنما هو الأصل الذي نسميه في فن الكلام (كتاب النظر)، وقد نسميه (كتاب الجدل)، وقد نسميه (مدارك العقول)؛ فإذا سمع المتكايس المستضعف اسم (المنطق) ظن أنه فن غريب لا يعرفه المتكلمون ، ولا يطلع عليه إلا الفلاسفة)

بل إن الغزالي ألف في المنطق مجموعة كتب، وأدخل المنطق كتمهيدات لبعض العلوم كعلم الأصول، فقد كان يقدم له قبل الغزالي بمقدمات كلامية كتأسيس فكري لقضايا أصول الفقه وربطها بأصول الدين ،فرأى الغزالي أن الأولى ربطها بالمنطق لحاجة علم الأصول لقضايا المنطق، قال عن مقدمة المستصفى : (وليست هذه المقدمة من جملة علم الأصول ولا من مقدماته الخاصة به، بل هي مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط بها،فلا ثقة بعلومه أصلا)

قلت: فأنتم تعتمدون هنا على المنطق اليوناني ..

قال: بل نعتمد المنطق القرآني .. لقد كان أهم كتاب ألفه جدي في المنطق، وأشار إليه كثيرا معتبرا إياه الميزان الذي ينفي الخلاف عن الخلق هو (القسطاس المستقيم) الذي وضعه في الأصل ردا على التعليمية، يقول عنه في (المنقذ من الضلال) الذي ألفه في المرحلة الأخيرة من حياته:(أقول :قواعد العقائد يشتمل عليها الكتاب والسنة وما وراء ذلك من التفصيل والتنازع فيه يعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم، وهي الموازين التي ذكرها الله تعالى في كتابه، وهي خمسة ذكرتها في كتاب القسطاس المستقيم)

قال أحد رفاقي: فما تلك الموازين؟

قال: هي موازين تجمع بين المنطق الذي يعرفه أهل الفلسفة، وبين النصوص القرآنية .. وهي بذلك تجمع

بين النقل والعقل .. لقد ذكر الغزالي غايته من ذلك، فقال :(لا يتصور أن يفهم ذلك الميزان، ثم يخالف فيه أهل التعليم لأني استخرجته من القرآن وتعلمته منه ، ولا يخالف فيه أهل المنطق ، لأنه موافق لما شرطوه في المنطق غير مخالف له، ولا يخالف فيه المتكلم، لأنه موافق لما يذكره في أدلة النظريات، وبه يعرف الحق في الكلاميات)

قلت: لقد شوقتنا إلى هذه الموازين .. فما هي؟

قال: هي ثلاثة موازين: ميزان التعادل .. وميزان التلازم .. وميزان التعاند.

قلت: فما ميزان التعادل؟

قال: له ثلاثة أشكل[1] ..

أما أولهما، فالميزان الأكبر .. ومثاله قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام :﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ)(البقرة: من الآية٢٥٨)، وصياغة هذا الميزان هي: كل من يقدر على إطلاع الشمس فهو الإله، فهذا أصل؛ وإلهي هو القادر على الإطلاع، وهذا أصل آخر؛ فلزم من مجموعهما بالضرورة أن إلهي هو الإله، ويمكن صياغته رمزيا هكذا : أ هي ب، وب هي ج ،إذن :أ هي ج.

وأما الثاني، فالميزان الأوسط .. ومثاله قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام :﴿ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ)(الأنعام: من الآية٧٦)، وصياغة هذا الميزان هي : أن القمر آفل، والإله ليس بآفل؛ فالقمر ليس بإله .. ويمكن صياغته رمزيا هكذا :أ هي ب، وج ليست ب ،إذن : أ ليست ج.

قلت: فما الفرق بين هذا الميزان والميزان الأكبر؟

قال: الفرق بينهما واضح .. فالصفة في الميزان الأكبر عامة تشمل جزئيات الموصوف كلها، بخلاف ما هي عليه في الميزان الأوسط حيث تنحصر في شيئين متباينين كل التباين بحيث ينفي عن أحدهما ما يثبت للآخر.

قلت: فما الشكل الثالث من أشكل ميزان التعادل؟

قال: الميزان الأصغر .. ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى :﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ ت)(الأنعام: من الآية٩١)، ووجه الوزن بهذا الميزان هو أن موسى عليه السلام بشر، وقد أنزل عليه الكتاب، إذن بعض البشر أنزل عليهم الكتاب .. وصياغته الرمزية هي: ب هي أ، وب هي ج، إذن بعض أهي ج.

والفرق بين هذا الميزان وما قبله أته يستخدم في التخصيص والتمييز بين الصفات الذاتية التي تشترك فيها عموم جزئيات الجنس والصفات العرضية التي لا يشترك فيها إلا قسم من هذه الجزئيات.

قلت: فما الميزان الثاني؟

قال: ميزان التلازم[2] .. وهو ــ كما عرفه الغزالي ــ أن كل ما هو لازم للشيء تابع له في كل حال،

([1]) هذه الموازين الثلاثة المشكلة لميزان التعادل تشبه ما يعبر عنه في المنطق بأشكال قياس أرسطو الاقتراني الثلاثة.

([2]) وهذا الميزان هو المسمى في المنطق بالقياس الشرطي المتصل.

فنفي اللازم يوجب بالضرورة نفي الملزوم، ووجود الملزوم يوجب بالضرورة وجود اللازم، أما نفي الملزوم ووجود اللازم فلا نتيجة لهما.

وقد ضرب له مثالا بقوله تعالى :﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)(الانبياء: من الآية٢٢)، وصياغة هذا الميزان هي أنه لو كان في السموات والأرض إلهان لفسدتا، فهذا أصل، ومعلوم أنهما لم تفسدا، وهذا أصل آخر؛ فيلزم منهما ضرورة نفي الإلهين، وإثبات الإله الواحد.

قلت: فما الميزان الثالث؟

قال: ميزان التعاند .. وهو ــ كما يعرفه الغزالي ــ بأن (كل ما انحصر في قسمين، فيلزم من ثبوت أحدهما نفي الآخر، ومن نفي أحدهما ثبوت الآخر بشرط أن تكون القسمة منحصرة، لا منتشرة)[1]

وقد ضرب له مثالا من القرآن الكريم بقوله تعالى :﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) (سبأ:٢٤)، ووجه الاستدلال به هو: (إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين، ومعلوم أننا لسنا في ضلال، والنتيجة هي: أنتم ضالون)

قال بعض رفاقي: إن ما ذكرته من الموازين العقلية هي نفس المقاييس المنطقية ..

قال: لقد ذكرت لكم ذلك .. والغزالي يقر بذلك ،ولا يرى بأسا به، يقول في (القسطاس المستقيم) بعدما سأله رفيق التعليم عن تلك الموازين :(أما هذه الأسامي فأنا ابتدعتها، وما عندي أني سبقت إلى استخراجها من القرآن؛ وأما أصل الموازين فقد سبقت إلى استخراجها، ولها عند مستخرجيها من المتأخرين أسام سوى ما ذكرتها، وعند بعض الأمم الخالية السابقة على بعثة محمد وعيسى ــ صلوات الله عليهما ــ أسام أخر كانوا قد تعلموها من صحف إبراهيم وموسى ــ عليهما السلام ــ)

قلت: فهل سندرس في هذا الفرع هذه الموازين؟

قال: في هذا الفرع ستتدربون على هذه الموازين وغيرها.. فلا يمكن للمحاور أن يحاور وعقله لا يعرف كيف يزن، وكيف يتثبت مما يزن.

التسيير:

بعد أن مكثنا فترة في الفرع الثالث .. انتقلت مع بعض رفاقي إلى الفرع الرابع والأخير من قسم (الخبرة) .. وقد كتب على بابه قوله تعالى :﴿ يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)(البقرة: من الآية١٨٩)، وقد لاقانا الغزالي كعهدنا به في بداية الدخول إلى كل فرع، وقد كان أول ما سألته هو عن سر وضع آية الأهلة في مدخل الفرع، فقال: هذه الآية تشير إلى العلم الذي ستدرسونه في هذا الفرع.

قلت: أي علم؟

قال: علم التسيير.

قلت: عهدي بالتسيير يدرس في الاقتصاد والسياسة.

قال: ونحن نستثمر التسيير في الاقتصاد والسياسة لنحفظ به الحوار من أن يتحول إلى جدل.. أو نحفظ به

---

(1) رواه .

الجدل من أن يتحول إلى الجدال بالتي هي أسوأ، لأنا أمرنا أن لا نجادل إلا بالتي هي أحسن.

قلت: فما علاقة الآية بذلك؟

قال: لقد ورد في سبب نزولها عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال : نزلت في معاذ بن جبل ، وثعلبة بن غنمة ، وهما رجلان من الأنصار قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حال واحد؟ فنزلت[1].

قلت: أعرف سبب نزول الآية .. وأنا لم أسأل عن ذلك ، وإنما أسأل عن الحكمة من وضع هذه الآية في هذا المحل.

قال: إن الله تعالى في هذا الجواب يعلمنا كيف نجيب، وكيف نحاور .. لقد سأل هؤلاء عن مسألة ترتبط بعلم الفلك، وهي فوق ذلك ترتبط بعلوم لا قبل لهم بها في ذلك الحين .. فصرفوا عنها صرفا حسنا إلى ما ينفعهم.

قلت: إن ذلك يشبه ما ورد في الحديث من أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ : متى الساعة يا رسول الله؟ فقال ﷺ :(ما أعددتَ لها؟)، قال: ما أعددتُ لها من كثير صلاة، ولا صوم، ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال: (أنت مع من أحببت)[2]

قال: أحسنت بذكر هذا المثال، فرسول الله ﷺ صرف السائل عما لا ينفعه إلى ما ينفعه.. دون أن يشعر السائل .. فلو قال له رسول الله ﷺ :(لا أعلم متى يوم القيامة)، فربما يقع في نفس الأعرابي ما يقع، لقرب عهده بالجاهلية، أو لجهله .. بالإضافة إلى أن ذلك لا يفيده أي فائدة جديدة .. ولهذا كان من حكمة رسول الله ﷺ صرفه عن سؤاله الذي لا ينفعه جوابه، إلى جواب ينفعه في دينه وآخرته، وينفع الأمة من بعده، فقال له ﷺ: (وما أعددتَ لها؟)، فانصرف الأعرابي عن سؤاله .. وانشغل بما ينفعه عما لا ينفعه.

قلت: لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا أيضا في قوله تعالى مخبرا عن الحوار الذي جرى بين موسى u وفرعون، كما قال :﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣)﴾ (الشعراء)

---

(1) رواه ابن عساكر بسند ضعيف.

(2) رواه البخاري ومسلم.

قال: في هذه المحاورة فوائد جليلة، ونكت بديعة، ونحن نستثمرها هنا خير استثمار ..

فمنها أن موسى عليه السلام بدأ محاورته بالبيان، وأنه وأخاه رسولا رب العالمين .. وهذا توجيه للحوار، وتحكم في موضوعه حتى لا يصرفه فرعون إلى أي موضوع آخر ..

ومنها عدم انسياق موسى عليه السلام وراء ما يثيره فرعون، مما ليس هو محل المحاروة، فقد اعترض عليهما فرعون بقوله :﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ (الشعراء:١٨) إشغالاً لهما عن نقطة البحث، وهي إثبات الربوبية لله.

ثم ذكّره بقتل الرجل .. :﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الشعراء:١٩)

فتنبه موسى عليه السلام إلى ما يريده فرعون من صرف الحوار عن موضوعه الحقيقي، فبادره بالاعتراف، حتى لا يضيع الوقت في ذلك، فالوقت ثمين، والموقف لا يسمح بضياع شيء منه، ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (الشعراء:٢٠)

فقطع موسى عليه السلام بذلك الطريق على فرعون، كي لا يخرج عن الموضوع، وحتى لا يحول المحاورة إلى قضايا شخصية.

ثم رد على شبهته في مسألة تربيته باختصار رابطا لها بالموضوع الذي جاء من أجله، والذي هو تحرير بني إسرائيل :﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيّ أَنْ عَبّدتّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (الشعراء:٢٢)، أي: هل تعادل نعمة تربيتك لي، بالإساءات والأذيات لبني إسرائيل، أوَ تريد أن تستر ظلمك، وتعبيدك بني إسرائيل، بتربيتك لي، وبعبارة أخرى: أتذكر وتمن علي بتربيتك لي، وتتناسى ظلمك واستعبادك لبني إسرائيل.

فلما فشل فرعون في إشغال موسى عليه السلام والحضور بإثارة الماضي، لجأ إلى الاتهام المباشر، وحاول السخرية من موسى واتهامه بالجنون، فلم يعبأ موسى عليه السلام بمثل هذه الاتهامات، لأن فرعون أُسقط في يديه، فلا حاجة بعد ذلك للرد على الأمور الشخصية، فالقضية أكبر، والوقت أثمن.

لقد استمر موسى عليه السلام في بيانه، وفي عرض أدلته .. فلما استهزأ فرعون به قائلاً :﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء:٢٣) كان جواب موسى :﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ (الشعراء: ٢٤)

ولما قال فرعون للملأ حوله :﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ (الشعراء:٢٥) ، قال موسى عليه السلام ردا عليه :﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (الشعراء: ٢٦)

ولما اتهمه فرعون بتهمة الجنون، أجابه موسى عليه السلام في غير مبالاة بما يمس شخصه :﴿ رَبّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِب وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الشعراء:٢٨)

وهكذا لم يلتفت موسى عليه السلام لكل ما يرتبط بشخصه، بل بقي مصرا على الموضوع الذي جاء من أجله إلى آخر لحظة.

٣ ـــ الأدب

بعد أن مكثت ما شاء الله أن أمكث في القسم الثاني بفروعه الأربع، أذن لي مع بعض رفاقي أن ننتقل إلى القسم الثالث، وهو قسم (الأدب) .. لقد كان مكتوبا في مدخل ذلك القسم قوله تعالى :﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(العنكبوت: من الآية٤٦)، وقوله تعالى :﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾(النحل: من الآية١٢٥)

وقد رأينا في ذلك القسم الذي يشبه المسجد حلقات كثيرة، أمامها مصنفات قديمة، سألنا الغزالي الذي كان في استقبالنا عن هذه الحلقات، فقال: هؤلاء أساتذة جاءوا من أصقاع الأرض يتدارسون ما ورد في السنة والسيرة المطهرة من آداب الحوار[1] ..

قلت: لم يفعلون ذلك؟

قال: هم يعلمون أن الكمال مرتبط بسلوك رسول الله ﷺ ، فلا يصدر عن الإنسان الكامل إلا الكمال .. فلذلك راحوا يبحثون في هديه عن آداب الحوار ..

قلت: أهذه الآداب سنن وفضائل .. أم مباحات وجائزات .. أم واجبات وفرائض؟

قال: السائر على قدم رسول الله ﷺ لا يفرق في هذا بين واجب ومستحب ومباح.. فمحمد ﷺ هو رمز الكمال، وهو الذي أدبه ربه، فأحسن تأديبه .. وما على من يريد الكمال إلا أن يسير على هديه من غير أن يتيه في الجدل أو يغرق في أوحال التكلف والفضول.

قلت: فكيف نتعلم في هذه الحلقات الكثيرة؟

قال: طوفوا عليها كما يطوف النحل على الأزهار .. ففي كل زهرة من الرحيق ما ليس في غيرها.

كانت أول حلقة بدأت بها جلس فيها قوم من البدو .. يبدو أنهم قدموا من جزيرة العرب.. فقد كانوا يرتدون ما يرتديه أهل تلك المناطق من ثياب ..

قرأ قارئهم من الكتاب الضخم الذي كان بين يديه ما حدث به ابن عباس ـــ رضي الله عنه ـــ قال: لما نزلت :﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤) صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟!.. فنزلت :﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد:١)[2]

بعد أن أنهى المحدث حديثه التفت إلى المحيطين به، وقال: ما الذي يمكن استثماره من هذا الحديث من الهدي النبوي في الحوار؟

([1]) استفدنا في هذا المبحث خصوصا من البحوث المقدمة في (مؤتمر الحوار مع الآخر في الفكر الإسلامي) المقام في مدينة الشارقة في دولة الإمارات العربية المتحدة في الفترة من ٢٨ – ١٤٢٨/٣/٣٠هـــ ..

([2]) رواه البخاري.

قال أحدهم: الجهر بالحوار .. أحيانا لا بد من الجهر بالحوار لينتفع به الجميع، ولهذا ترون النبي ﷺ لم يبدأ حديثه حتى اجتمعت الجموع حوله.

قال آخر: اختيار المكان والزمان المناسبين .. فالنبي ﷺ اختار مكانا عاليا متوسطا يعرفه كل الناس، وهو جبل الصفا.

قال آخر: حسن الاستهلال .. ففي الحديث إشارة مهمة إلى أهميته في بدء الحوار .. وذلك لشد انتباه السامعين.

قال آخر: في قوله ﷺ :(أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقيّ؟) إلزام للمحاور .. حيث مهّد ﷺ لخطابه معهم بجعلهم يُقرّون له بالصدق والأمانة، مما يلزمهم التصديق بما يقول خاصة في قوله على الله تعالى ، فما كان ليترك الكذب على الناس ثم يكذب على الله تعالى.

قال آخر: في الحديث نرى ــ أيضا ــ ما كان عليه ﷺ من الصبر على رد الطرف المخالف، ولو أساء الأدب .. فالنبي ﷺ لم يرد على أبي لهب إساءته، إنما تولى الله تعالى الرد، وذلك ليكون عبرة لمن يعتبر.

فالمطلوب منا هو التحمل والصبر، ولا نغضب لأنفسنا، لعل الطرف الآخر يرعوي أو يشعر بسوء تصرفه فيندم ويكون سبا في تراجعه عن مذهبه السيىء، كما قال تعالى :﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤)

انتقلت إلى حلقة أخرى .. سمعت القارئ فيها يقرأ ما حدث به ابن اسحق من أن عتبة بن ربيعة ــ وكان سيدا ــ قال يوما ــ وهو جالــس في نادي قريـــش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده ــ : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنّا؟ ــ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ــ فقالوا: يا أبا الوليد قُم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال له: (يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم وسفّهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها)

قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنتَ تريد به شرفا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه...

حتى إذا فرغ عتبة، ورســـول الله ﷺ يستمع منه، قال : أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال : فاسمع مني ؟ قال: أفعل، فقرأ رسول الله ﷺ :﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آَيَاتُهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) ﴾ (فصلت)، ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما، يسمع منه، ثم انتهي رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: (قد سمعت يا أبا الوليد ما

سمعت، فأنت وذاك)

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال : هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم .

وفي روايات أخرى : أن عتبة استمع حتى إذا بلغ الرسول ﷺ قوله تعالى :﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (فصلت:١٣) قال : حسبك، حسبك، ووضع يده على فم رسول الله ﷺ ، وناشده بالرحم أن يكف، وذلك مخافة أن يقع النذير، ثم قام إلى القوم فقال ما قال .

التفت القارئ إلى المحيطين به، وقال: ما ترون في هذا الحديث من آداب الحوار وسننه؟

قال أحدهم: الإنصات .. بل الإنصات الكامل حتى يفرغ الطرف الآخر دون مقاطعة، بل إتاحة المجال له إن أمكن لإضافة ما يريده إن كان غفل عن شيء أو نسيه، كما قال ﷺ:(أقد فرغت يا أبا الوليد)، وهذا غاية في الإنصاف ونهاية في الذوق الرفيع .. فالنبي ﷺ استمع لوجهة نظر الخصم بصدر رحب، مع أنها وجهة نظر مرفوضة، وذلك لضمان استماع الطرف الآخر لوجهة نظره.

قال آخر: عدم إظهار الاشمئزاز من الطرف الآخر مهما بلغت به الخصومة .. فالنبي ﷺ لم يعنف عتبة، و لم يسخر منه .. وحاشاه من كل ذلك.

قال آخر: بل فوق ذلك نرى النبي ﷺ أعطى الطرف الآخر حقه من الاحترام اللائق به في المخاطبة، والكلام معه بأدب وتقدير ، ويظهر ذلك من مخاطبة الرسول ﷺ لعتبة بكنيته :﴿ أفرغت يا أبا الوليد)

قال آخر: مما يتجلى في الحديث من هديه ﷺ في الحوار أهمية الاستعانة بالقرآن الكريم وما فيه من مواعظ، خاصة إذا كان الطرف الآخر ممن يفهم ذلك ويُحسن تدبره، وقد اختار النبي الكريم ﷺ آيات من أول سورة فصلت تناولت موقف المشركين من الإسلام وتعرضت لعقيدة التوحيد وقدرة الله تعالى الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود .

وقد كان لهذه الآيات وقع شديد على نفس عتبة بن الوليد حيث أثرت فيه تأثيرا شديدا، حتى جاء قومه وقال :﴿ سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم)

انتقلت إلى حلقة أخرى .. سمعت القارئ فيها يقرأ ما حدث به ابن اسحق عن عبد الله بن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، أخو بني عبد الدار، وأبو البَختري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود ... قال: اجتمعوا بعد

غروب الشمس عند ظَهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعذِروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشارف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فأتهم فجاءهم رسول الله ﷺ ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصا يحب رُشدهم ويَعزّ عليه عنَتَهُم ، حتى جلس إليهم، فقالوا له : يا محمد إنا بعثنا إليك لنكلمك وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة، وسفّهت الأحلام وفرّقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح قد جئته فيما بيننا وبينك ـــ أو كما قالوا له ـــ فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئيا تراه قد غلب عليك ـــ وكانوا يُسمون التابع من الجن رِئيا ـــ فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نُبرئك منه، أو نُعذر فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ : (ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل عليّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ـــ أو كما قال رسول الله ﷺ ـــ

قالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقل ماءً ولا أشد عيشا منا، فسلْ لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسيّر عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، ليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن لنا منهم قُصي بن كلاب، فإنه كان شيخَ صِدْق، فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألنا صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما بهذا بُعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخـــرة ، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فخُذ لنفسك، سلْ ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جِنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يُغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا ـــ أو كما قال ـــ فإن تقبلوا ما جئت به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله بيني وبينكم .

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال رسول الله ﷺ: ذلك إلى الله ، إن يفعله بكم فعل.

قالوا : يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تُراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذ لم نقبل منك ما جئتنا به، إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نُهلكك أو تُهلكنا؟

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم.

التفت القارئ إلى المحيطين به، وقال: هذا هو نص هذه الرواية .. فالتمسوا منها بدائع الأدب، وغرائب الحكمة .. فلا أدب أرفع من أدب رسول الله ﷺ ، ولا حكمة أحكم من حكمته.

قال أحدهم: من الملاحظات المهمة المرتبطة بهذا الحديث أن قريشا هي التي طلبت إجراء الحوار، فبادر رسول الله ﷺ إلى إجابتها على الرغم مما كانوا عليه من العناد والمكابرة .. وهذا يدل على أن الواجب يحتم على الدعاة وأهل العلم اقتناص كل فرصة فيها حوار، لعلها تكون مفتاحا لهداية الآخرين ، ولأن ذلك فرصة ثمينة لعرض ما عندنا من الحق والخير واستماع وجهة نظر الآخر لمعرفة طريقة تفكيرهم وما هي بواعثهم وأهدافهم.

قال آخر: ومن الملاحظات المهمة ــ كذلك ــ أن الرسول الكريم ﷺ قد استمع لمطالبهم حتى انتهوا من ذلك دون أن يقاطعهم ، وهذا يذكرنا بأهم أدب من آداب الحوار، وهو حسن الاصغاء للآخر حتى ينتهي ، لأن المقاطعة توغر الصدور وتشتت الأفكار، وتُعكّر الحوار.

قال آخر: ومنها أن الرسول ﷺ لم يتعرض لهم في هذا الحوار بتسخيف أو تعنيف أو شتم، مع أنهم تفننوا في تقبيح ما جاء به والتشنيع عليه في ذلك ، حتى أنهم لم يستبعدوا كونه مريضا أو أنه يتلقى تعليمه من شخص آخر، ونحو ذلك مما يسيء له .. وذلك لأن الحرص على هداية الناس وإقناعهم بالحق يحتاج جواً من المودة والتسامح وإبداء التغاضي دون أي تشنج.

قال آخر: ومنها أن الرســول ﷺ بادر بإيضاح موقفه عندما قال لهم: (ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولا ..)، وهذا الجواب الصريح ضروري ليقطع عليهم وساوسهم وأمنياتهم بتخذيله ومحاولة ثنيه عن هدفه، فالجواب الحازم فيما يتعلق بالمبادىء والثوابت أمر في غاية الأهمية، وذلك لإدراك الرسول ﷺ أن الطرف الآخر عندما يشتد عليه الضغط ويخشى من عواقب ظهور أصحاب الحق يلجا إلى العروض المغرية من منصب أو جاه أو مال.

قال آخر: ومنها أهمية إظهار الصبر قولا وعملا، لأن الصبر دليل على الإيمان العميق بالفكرة ، وبرهان على الصدق في المضي بها إلى آخر المطاف مهما كانت النتائج، ولهذا كان في جوابه ﷺ :(فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم ..)، وإظهار الصبر أحد عوامل اقتناع الطرف الآخر بصدق المحاور وأنه صاحب هدف نبيل يضحي من أجله .

قال آخر: ومنها عدم انسياق المحاور وراء رغبات وتعجيزات الطرف الآخر، لأن الدعوات إنما تقوم على العقيدة التي قامت البراهين على صدقها، ثم إن طلبات التعجيز لا تنتهي لأن الهدف منها إضاعة الوقت أو جر الداعية إلى سلسلة من الطلبات غير الواقعية.

قال القارئ: لقد ذكر المؤرخون ما أنزله الله تعالى على نبيه ﷺ جوابا على ما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وبعث من مضى من آبائهم من الموتى .. ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (الرعد:٣١)، أي لا أصنع من ذلك إلا ما شئت.

ومنها قوله تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ (الفرقان:٢٠)، أي جعلت بعضكم لبعض بلاءً لتصبروا، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رُسلي فلا يُخالفوا لفعلت.

ومنها قوله تعالى :﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣)﴾ (الإسراء)

وأنزل الله تعالى عليه فيما عرضوا عليه من أموالهم :﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سبأ:٤٧)

انتقلت إلى حلقة أخرى، فسمعت القارئ يقرأ فيها ما حدث به ابن إسحق عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ من أن أشراف قريش مشوا إلى أبي طالب عندما علموا بأنه على فراش الموت ، فقالوا له: يا أبا طالب ، إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه فخذ له منا ، وخذ لنا منه ، ليكف عنا، ونكف عنه ، وليدعنا وديننا وندعه ودينه.

فبعث إليه أبو طالب فجاءه، فقال: يا ابن أخي .. هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك، ليعطوك وليأخذوا منك.

فقال رسول الله ﷺ : نعم ، كلمة واحدة تُعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم.

فقال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات.

قال : تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه .

فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ، إن أمرك لعجب!

ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا عل دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ، قال : ثم تفرقوا .

فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ : والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططا.

التفت القارئ إلى الجمع، وقال: ما ترون في هذا الحديث؟

قال أحدهم: لقد حدد رسول الله ﷺ طلبه بدقة، فلا يحق لمن دخل في حوار أن يكون جاهلا بمطالبه، ولا مطالب خصمه.

قال آخر: انظروا كيف لم يتأثر رسول الله ﷺ بذلك الاستهزاء الذي أبدوه عندما صفقوا.

تركتهم يستنبطون من الحديث وجوه الآداب والحكمة، وانتقلت إلى حلقة أخرى كان قارئها يروي ما حدث به ابن إسحق عن حوار رسول الله ﷺ مع نفر من الخزرج، قال: لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم ؟

قالوا: نفر من الخزرج

قال: أمن موالي اليهود؟

قالوا: نعم.

قال :أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قالوا : بلى.

فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام، أن يهودا كانوا معهم في بلادهم... فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدَكم به يهود، فلا تسبقَنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام[1].

التفت القارئ إلى الجالسين، وقال: ما تقولون في هذا الحوار؟

قال أحدهم: أرى أن رسول الله ﷺ استفاد في هذا الحوار من المناخ النفسي والظروف المحيطة بالطرف الآخر، فالطرف الآخر هنا ــ وهم الخزرج من أهل المدينة ــ يجاورهم اليهود وهم أهل كتاب، فلم يكن غريبا على أذهانهم الحديث عن الله تعالى وكتبه ورسله فيما يسمعونه دائما من اليهود، وكانوا مهيئين نفسيا لسماع حديث الإسلام، فقد كانوا يحسون دائما بالحسرة أمام اليهود، فهم أميون ليس عندهم رصيد يواجهون به اليهود الذين يشعرون بتفوقهم العلمي وأفضليتهم على غيرهم، لأنهم أهل كتاب، ثم إن الحديث عن النبي المرسل كان يملأ جو يثرب، بل يهددهم اليهود به، فما إن تناهى إلى سمع الخزرج حديث الرسول ﷺ حتى قالوا : (والله إنه للنبي الذي توعدَكم يهود فلا يسبقُنكم إليه)

قال آخر: وأرى كذلك ذلك الثبات والهدوء الذي كان عليه رسول الله ﷺ وهو يخاطبهم .. إن ذلك السمت وحده كاف للتأثير في القلوب والعقول.

تركتهم، وانصرفت إلى حلقة أخرى سمعت قارئها يقرأ حواره ﷺ مع عمير بن وهب الجُمحي .. فقد حدث أن عمير بن وهب ــ وهو مشرك، قبل إسلامه ــ قدم المدينة يقصد قتل النبي ﷺ وقد كان ابنه وهب بن عمير أسيرا بأيدي المسلمين على إثر غزوة بدر.

وعندما جاء يستأذن رسول الله ﷺ دخل عمر على رسول الله ﷺ وقال: يا نبي الله هذا عدو الله عُمير بن وهب قد جاء متوشحا سيفه، قال : فأدخله عليّ.

فأقبل عمر حتى أخذ بحِمالة سيفه في عنقه فلبّبه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على

---

(1) رواه ابن إسحق.

رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله وعمرُ آخذٌ بحِمالة سيفه في عنقه، قال: أرسله يا عمر ، أدنُ يا عُمير ؛ فدنا ثم قال :أنعِموا صباحا، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم .

فقال رسول الله ﷺ : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عُمير، بالسلام تحية أهل الجنة.

فقال: أما والله يا محمد إن كنتُ بها لحديث عهد.

قال : فما جاء بك يا عُمير؟

قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه.

قال : فما بال السيف في عنقك؟

قال : قبّحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئا !

قال : اصدقني ، ما الذي جئت له؟

قال : ما جئت إلا لذلك .

قال: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحِجر فذكرتما أصحاب القَليب من قريش، ثم قلتَ:لولا دَيْن عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدا ، فتحمّل صفوان بدينك وعيالك، على أن تقتلني له ، والله حائل بينك وبين ذلك.

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنّا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما يترل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك بـــه إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق.

ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ :(فقّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره)، ففعلوا.

فلما قدم عُمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ، ويُؤذي من خالفه أذى شديدا ،فأسلم علي يديه ناس كثير[1] .

التفت القارئ إلى السامعين، وقال: ما تقولون في هذا الحديث، فـــ (رب مبلغ أوعى من سامع)[2]

قال أحدهم: انظروا كيف انقلب ذلك المشرك في خلال لحظات إلى مؤمن يدعو للإسلام بعد أن تأثر بما سمعه في حواره مع الرسول ﷺ، وبعد أن أيقن أن من جاء لقتله لا يريد به إلا الخير، وبعد أن علم أنه نبي، وهذا يدل على أن كثيرا من أهل الضلال إنما ينقصهم أن تقوم الحجة عليهم، وأنهم على استعداد للإيمان لكن بعد أن يسمعوا ويروا ما هو جدير بأن يأخذ بأيديهم نحو الحق.

قال آخر: إن مقابلة الآخر ــــ ولو كان مضمرا للشر ــــ باللطف، ثم الحوار العقلاني يفعل الشيء الكثير،

([1]) رواه ابن إسحق.

([2]) جزء من حديث نصه :(نضر الله امرأ سمع منا شيئا، فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع) (رواه أحمد والترمذي وابن حبان عن ابن مسعود) .

وهو ما نتعلمه من سيرة سيد المعلمين وقدوة التربويين رسول الله ﷺ .

تركتهم، وانصرفت إلى حلقة أخرى كان قارئها يقرأ ما جرى يوم الحديبية من مفاوضات وحوار .. قال: لما اطمأن رسول الله ﷺ بالحديبية: جاءه بديل بن ورقاء ــ واسلم بعد ذلك ــ في رجال من خزاعة، منهم: عمرو بن سالم، وخراش بن أمية وخارجة بن كرز، ويزيد بن أمية وكانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ بتهامة، منهم المسلم ومنهم الموادع، لا يخفون عنه بتهامة شيئا.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ سلموا، فقال بديل بن ورقاء: جئناك من عند قومك، كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم، قد نزلوا عند مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل والنساء والصبيان، يقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت حتى تبيد خضراؤهم، فقال رسول الله ﷺ :(انا لم نأت لقتال أحد، إنما جئنا لنطوف بهذا البيت، فمن صدنا عنه قاتلناه، إن قريشا قد أضرت بهم الحرب ونهكتهم فإن شاءوا ماددتهم مدة يأمنون فيها، ويخلون فيما بيننا وبين الناس، ــ والناس أكثر منهم ــ فإن اصابوني فذلك الذي أرادوا وإن ظهر أمري على الناس كانوا بين أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس أو يقاتلوا وقد جمو، وان هم أبو فوالله لأجهدن على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن الله تعالى أمره)

فوعى بديل مقالة رسول الله ﷺ، وقال: سأبلغهم ما تقول، وعاد وركبه الى قريش، فقال ناس منهم: هذا بديل وأصحابه، وإنما يريدون أن يستخبروكم فلا تسألوهم عن حرف واحد، فلما رأى بديل أنهم لا يستخبرونه قال: إنا جئنا من عند محمد، أتحبون أن نخبركم عنه ؟ فقال عكرمة بن ابي جهل، والحكم بن العاص ــ وأسلما بعد ذلك ــ: ما لنا حاجة بأن تخبرونا عنه، ولكن أخبروه عنا انه لا يدخلها علينا عامه هذا أبدا حتى لا يبقى منا رجل، فأشار عليهم عروة بن مسعود الثقفي ــ وأسلم بعد ذلك ــ بأن يسمعوا كلام بديل فان اعجبهم قبلوه والا تركوه، فقال صفوان ابن امية والحارث بن هشام ــ وأسلما بعد ذلك ــ اخبرونا بالذي رأيتم وسمعتم، فقال بديل لهم: انكم تعجلون على محمد ﷺ إنه لم يات لقتال إنما جاء معتمرا وأخبرهم بمقالة النبي ﷺ فقال عروة: يا معشر قريش اتتهمونني ؟ قالوا: لا.

قال: ألستم بالوالد ! قالوا: بلى.

قال: ألست بالولد ؟ قالوا: بلى، وكان عروة لسبيعة بنت عبد شمس القرشية.

قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ لنصركم فلما تبلحوا على نفرت إليكم بنفسي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا: قد فعلت، ما أنت عندنا بمتهم.

قال: إني لكم ناصح، وعليكم شفيق، لا ادخر عنكم نصحا، فإن بديلا قد جاءكم خطة رشد لا يردها أحد أبدا إلا أحد شر منها.

فاقبلوا منه، وابعثوني حتى آتيكم بمصداقها من عنده، وانظر الى من معه، وأكون لكم عينا اتيكم بخبره، فبعثته قريش إلى رسول الله ﷺ فجاء رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، تركت كعب ابن لؤي وعامر بن لؤي على اعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل قد استنفروا لك الاحابيش ومن اطاعهم، قد لبسوا جلود النمور، وهم يقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم، وأنما أنت ومن قاتلهم بين احد امرين ان تجتاح قومك

و لم يسمع برجل اجتاح قومه وأهله قبلك.

أو بين أن يخذلك من ترى معك، واني والله لا ارى معك وجوها واني لا ارى الا اوباشا، من الناس، لا أعرف وجوههم ولا انسابهم، وخليقا أن يفروا ويدعوك[1].

وجعل عروة يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه، ويتعجب من تعظيمهم له.

فلما فرغ عروة من كلام رسول الله ﷺ ورد عليه رسول الله ﷺ مثل ما قال لبديل بن ورقاء وكما عرض عليهم من المدة، فأتى عروة قريشا، فقال: يا قوم انى وفدت إلى الملوك: كسرى وقيصر والنجاشي وإني والله ما رأيت ملكا قط أطوع فيما بين ظهرانيه من محمد في اصحابه، والله ان رأيت ملكا قط يعظمه اصحابه ما يعظم اصحاب محمد محمدا، وليس بملك إذا أمرهم بامر ابتدروا امره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ايهم يظفر منه بشئ، ولا يسقط شئ من شعره الا اخذوه، وإذا تكلم خفضوا اصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيما له، ولا يتكلم رجل منهم حتى يستاذن، فان هو اذن له تكلم، وان لم ياذن له سكت، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، قد حرزت القوم، واعلموا انكم ان اردتم منهم السيف بذلوه لكم، وقد رأيت قوما لا يبالون ما يصنع بهم إذا منعتم صاحبهم، والله لقد رايت معه نساء ما كن ليسلمنه ابدا على حال، فروا رايكم فاتوه يا قوم، واقبلوا ما عرض عليكم، فاني لكم ناصح، مع اني اخاف ان لا تنصروا على رجل اتى زائرا لهذا البيت معظما له، معه الهدى ينحره وينصرف، فقالت قريش: لا تتكلم بهذا يا ابا يعفور، أو غيرك تكلم بهذا ؟ ولكن نرده عامنا هذا، ويرجع الى قابل، فقال: ما اراكم تصيبكم قارعة، فانصرف هو ومن تبعه الى الطائف.

ثم قرأ القارئ بقية الحوار الذي أجراه رسول الله ﷺ مع سائر المفاوضين[2]، ثم قال: ما ترون في هذا الحوار، وهذه المفاوضات؟

قال أحدهم: نرى جنوح رسول الله ﷺ إلى السلم الذي هو أصل أصول هذا الدين .. و لم ينتصر رسول الله ﷺ في هذا الحوار، كما لم ينتصر في حياته جميعا إلا بذلك السلام الذي كان يحمله.

ذلك أن الله تعالى خلق الناس لمقصد عبادته وتوحيده، قال تعالى :﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذريات:٥٦)، والدعوة إلى ذلك تحتاج جوّا من الأمن والسلم حتى يتهيأ الناس للحوار ولسماع كلمة الحق فيؤمنوا بها عن رضى واقتناع، وظرف الحرب والعداوة يثير الأحقاد والتربص والعناد والاستكبار، ومن هنا آثر النبي الكريم ﷺ تسهيل أمر صلح الحديبية مع أن شروطه كانت في الظاهر في صالح قريش التي تمثل جانب الباطل والعدو الذي يصد عن دين الله تعالى.

قال آخر: لقد ذكر ابن حجر هذا الصلح، ثم قال: (ومما ظهر من مصلحة الصلح المذكور غير ما ذكره الزهري أنه كان مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي دخل الناس عقبه في دين الله أفواجا، كانت الهدنة مفتاحا لذلك، ولما كانت قصة الحديبية مقدمة لذلك سميت فتحا... وكان في الصورة الظاهرة ضيما للمسلمين، وفي الصورة الباطنة عِزًّا لهم، فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهم ببعض من غير نكير وأسمع

([1]) وفي رواية: وكاني بهم لو قد لقيت قريشا أسلموك فتؤخذ أسيرا، فأي شئ أشد عليك من هذا؟

([2]) انظر: رسالة (النبي المعصوم)

المسلمون المشركين القرآن وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية، وظهر من كان يُخفي إسلامه، فذلّ المشركون من حيث أرادوا العزة)

قال آخر: صدق الله العظيم .. لقد كان صلح الحديبية هو الفتح المبين، إذ لا فتح أعظم من فتح القلوب وتمهيد الأمر لدخول الناس في دين الله تعالى ، وقد رأينا كيف جنح النبي الكريم ﷺ للمسالمة والموادعة من أجل حقن الدماء ، وهو يعلم أن أمر الله ماض، وأن النصر قريب، وأنه مهما أمكن أن يكون الحوار بديلا للسلاح فهو الأمر الحكيم والتصرف القويم، وهو في ذلك يتمشى مع مقصد الشريعة الأعظم وهو هداية الناس والرحمة بهم وحقن دمائهم.

قال آخر: ألا ترون كيف تنازل النبي الكريم ﷺ عن بعض الأمور التي رآها بعض المسلمين مُجحفة، لكن نظر النبي ﷺ كان بعيدا يستشرف المستقبل، ويأمل بنصر الله وخضوع قريش في نهاية الأمر لدين الله، فوعد الله بالتمكين لا بد منه، لكن العجلة غير مطلوبة، قال الله تعالى :﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:١٧٩)

قال آخر: ألا ترون بلاغة رسول الله ﷺ في حواره؟ .. لقد كان حواره ﷺ في منتهى البلاغة دون تكلف أو عياء، يلف ذلك كله جودة في الإلقاء وحسن في العرض وسلاسة في العبارة .. لقد كان من صفة الرسول ﷺ ــ كما تذكر عائشة ــ رضي الله عنها ــ :(لم يكن يسرد الحديث كسردكم ولكن كان يقول كلاماً لو شاء العاد أن يحصيه لأحصاه)[1]

تأملوا حديث الحديبية حين هدد بالعوذ المطافيل فقال له النبي ﷺ :(إن قريشاً قد نهكتهم الحرب، فإن شاؤوا ماددناهم مدة ويدعوا ما بيني وبين الناس، فإن أظهر عليهم وأحبوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس، وإلا كانوا قد جموا وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي هذه، ولينفذن الله أمره)، إنها بلاغة واستيفاء في المعنى وقصد في اللفظ.

تأملوا قوله :(حتى نفرد سالفتي هذه)، أي عنقي وكيف تصور معنى الانفراد الذي لا يستوحش منه، لأن الثقة منه بالله، والقلة لا يخاف منها لأن الكثرة فيها من الله.

تركتهم، وانتقلت إلى حلقة أخرى كان القارئ يقرأ فيها حوار الرسول ﷺ مع أبي سفيان في قصة فتح مكة، ومما جاء فيها قال العباس: قلت: ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش، والله!

قال: فما الحيلة ؟

قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجزها آتي بك رســـول الله ﷺ فأستأمنه لك، قال: فركب خلفي ورجع صاحباه، قال: فجئت به، كلما مررت بنيران من نيران المسلمين، قالوا: من هذا ؟ فإذا رأوا ناقة رسول الله ﷺ وأنا عليها، قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب

---

[1] رواه البخاري.

ــ رضي الله عنه ــ فقال: من هذا ؟ وقام إليّ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان، عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رســـول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ: اذهب به يا عباس إلى رَحلك، فإذا أصبحت فأتني به، قال: فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي ، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلهٌ غيره لقد أغنى عني شيئا بعد.

قال: ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله ؟

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئا.

فقال له العباس: ويحك ! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تُضرب عنقك.

قال: فشهد شهادة الحق، فأسلم.

قال العباس: قلت يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئا.

قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن[1].

التفت القارئ إلى المتحلقين به، وقال: ما تقولون في هذا الحوار؟

قال أحدهم: انظروا كيف أن النبي الكريم ﷺ لم يأمر بقتله أو اعتقاله أو نحو ذلك مما كان من الممكن أن يتصرف فيه قائد آخر غير النبي ﷺ تحفزه الأحقاد والضغائن القديمة، إنما الذي يحفز هذا النبي الكريم ﷺ هداية الناس ودخولها في دين الله مغلبا جانب الصفح والعفو عمن عاداه وحاربه في كل المواطن، فالانتقام ليس من شيمة الدعاة لأنهم أكبر من ذلك.

قال آخر: لقد وقع تصرف الرسول الكريم ﷺ في نفس أبي سفيان موقعا بالغا فكسب قلبه ومودته، وجعله يرجع إلى مكة داعية إلى السلم والموادعة، ولا شك أن لدعوة مثل أبي سفيان للسلم والموادعة أثر كبير في نفوس أهل مكة لما يعلمونه من مترلته.

تركتهم، وانصرفت إلى حلقة أخرى كان قارئها يقرأ حوار الرسول ﷺ مع وفد ثقيف، فذكر أن وفد ثقيف قدم بعد مقدم النبي ﷺ من تبوك في رمضان من سنة تسع، وكان من خبرهم: أنهم أبطأوا عن الإسلام، ثم أجمعوا أمرهم أن يُرسلوا وفدا إلى النبي ﷺ، وأنزل رسول الله ﷺ وفد ثقيف في المسجد، وبني لهم خياما لكي يسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا ، ومكث الوفد أياما عديدة يختلفون إلى رسول الله ﷺ ويختلف إليهم ، وهو يدعوهم إلى الإسلام.

ومما روي من مجالسه معهم أنه ﷺ كان يأتيهم كل ليلة بعد العشاء فيقف عليهم يحدثهم حتى يراوح بين قدميه، وقد سألوا رســـول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية وهي اللات، لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رســـول الله ﷺ ذلك عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم، حتى سألوا شهرا واحدا بعد مقدمهم، فأبى عليهم

([1]) رواه ابن إسحق.

أن يدعها شيئا مسمى، وإنما يريدون بذلك فيما يُظهرون أن يتسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويَكرهون أن يُروّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلوا في الإسلام، فأبى رسول الله ﷺ عليهم إلّا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها، وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يُعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ : أما كسر أوثانكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه، فقالوا : يا محمد سنؤتيكها[1].

وجاء في خبر إسلامهم أيضا: أن كنانة بن عبد ياليل ــ وكان من وجهائهم ــ قال لرسول الله ﷺ : أفرأيت الزنا ، فإنا قوم نغترب ولا بدّ لنا منه.

فقال ﷺ : هو عليكم حرام، فإن الله تعالى يقول :﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ (الاسراء:٣٢)

قالوا: أفرأيت الربا، فإنه أموالنا كلها.

قال: لكم رؤوس أموالكم، إن الله تعالى يقول :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة:٢٧٨)

قالوا : افرأيت الخمر ، فإنه عصير أرضنا ، لا بدّ لنا منها.

فقال ﷺ: إن الله حرّمها، وقرأ آية تحريم الخمر.

قال المغيرة بن شعبة: فدخلت ثقيف في الإسلام، فلا أعلم قوما من العرب بني أب ولا قبيلة كانوا أصح أسلاما ،ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه منهم.

التفت القارئ إلى الحاضرين، وقال: ما تقولون في هذا؟

قال أحدهم: في قصة إسلام ثقيف وما حصل من حوار النبي ﷺ لهم، وعدم التفكير بالتعرض لهم بإساءة أو انتقام، فوائد وعبر كثيرة، فكلنا يتذكر ما حصل للنبي الكريم ﷺ عندما هاجر إلى الطائف، وما تعرض له من الأذى البالغ ، حتى قيل له : ادع على ثقيف . فقال :(اللهم اهد ثقيفا، وأتِ بهم مؤمنين)[2]

وها هي ثقيف تأتي مُذعنة راغبة في الإسلام، تحاور بلسانها بعد أن حاورت بسنانها سنين عديدة، فلله الفضل والمنة.

قال آخر: يُستفاد من خبر إسلام ثقيف وغيره: جواز عقد المحاورات والمناظرات العلمية في المساجد بين المسلمين وغيرهم، إذا رُجي إسلامهم، فقد حاور النبي ﷺ وفد ثقيف في المسجد، وكذا حاور وفد نصارى نجران، وكان المشرك يدخل عليه المسجد ويسأله ويحاوره، مثلما حصل مع ضمام وافد سعد بن بكر وغيره.

قال آخر: ونستفيد من خبر وفد ثقيف، أهمية حسن المعاملة والإكرام، وما لذلك من تأثير في نفوس المخاطبين.

---

(1) رواه ابن سعد.

(2) الحديث رواه الترمذي عن جابر ــ رضي الله عنه ــ قال: قالوا: يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم، فقال ﷺ :(اللهم اهد ثقيفا)، ثم قال: هذا حديث حسن غريب.

قال آخر: ونستفيد ــ كذلك ــ أن المحاور والداعية إلى الإسلام مهما استعمل المداراة واللين، فإنه ينبغي أن لا يكون ذلك على حساب أصول الإسلام وثوابته، من إيمان أو فرائض أو محرمات بينة ، فقد لاحظنا أن ثقيفا طلبوا ترك الصلاة أو ارتكاب الزنى أو شرب الخمر ونحو ذلك، وكيف أن النبي ﷺ كان حازما في هذا الجانب، لكن دون تعنيف أو سخرية ونحو ذلك مما يمكن أن يصدر من المحاور عندما يسمع من الطرف الآخر كلاما يتعارض مع قواعد الشريعة، فالذي ينبغي هو الإسراع ببيان الحكم صريحا مع تغليفه بالرفق واللطف.

تركتهم، وانصرفت إلى حلقة أخرى سمعت قارئها يقرأ حواره ﷺ مع عدي بن حاتم ــ رضي الله عنه ــ فروى عن ابن إسحق قوله: وأما عدي بن حاتم، فكان يقول فيما بلغني: ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به مني ، أما أنا فكنت امرأً شريفا، وكنت نصرانيا، وكنت أسير في قومي بالمرباع .. فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته.

ثم ساق ابن إسحق قصة هروب حاتم إلى الشام، ثم قصة المنّ على أخته، وكيف أنها أشـــارت عليه أن يلحق بالنبي ﷺ ليبايعه على الإسلام.

قال: فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه، وهو في مسجده فسلمت عليه، فقال: من الرجل؟ فقلت: عدي بن حاتم، فقام رسول الله ﷺ، فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته، فوقف لها طويلا تُكلمه في حاجتها، قال : فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك.

قال: ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته، تناول وسادة من أدَم محشوة ليفا، فقذفها إليّ، وقال: اجلس على هذه، قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: بل أنت، فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض، قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك.

ثم قال : إيهِ يا عدي بن حاتم ، ألم تك رَكوسيّا؟ قال : قلت : بلى.

قال : أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟

قال: قلت: بلى.

قال: فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك.

قال: قلت: أجل والله، وعرفت أنه نبي مرسل ، يعلم ما يُجهل .

ثم قال: لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيْمُ الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم.

قال: فأسلم حاتم.

التفت القارئ إلى المستمعين، وقال: ما تقولون فيما سمعتم؟

قال أحدهم: لقد استطاع رسول الله ﷺ بتلك المعاملة الطيبة التي سبقت الحوار أن يلين قلب عدي بن

حاتم الذي كان شديد البغض لرسول الله ﷺ .. وهذا يدل على أن المحاور الناجح هو الذي يتسلل إلى القلب قبل أن يتسلل إلى العقل.

قال آخر: إن موقفه ﷺ هذا يذكر بموقفه مع ثُمامةَ بن أُثَال ــ سيدِ أهل اليمامة ــ الذي امتلأ بغضاً للنبي ﷺ لكنه لما رآه وحاوره وشاهد سمو خلقه انقلب حاله وحسن مآله[1].

***

ظللت فترة من الزمن أتردد على تلك الحلقات أستمع فيها إلى هدي النبي ﷺ في الحوار، وآدابه فيه، وقد ملأني بالغرابة ما أراه من قوم يدعون أنهم يحتكرون السنة، وهم أبعد الناس عن تلك الآداب الراقية التي لم يكن يبديها رسول الله ﷺ مع من معه من المسلمين فقط، بل كان يبديها مع ألد أعداء الإسلام، وأشنع خصومه حتى لم يجدوا إلا أن يسلموا له، ويسلموا على يديه.

(1) ذكرنا حديث ثمامة في الفصل الأول من هذه الرسالة.

٤ ـــ السعة

بعد أن مضت تلك المدة التي تشرفت فيها بدراسة ما ورد في السنة المطهرة والسيرة العطرة من مجالس الحوار التي عقدها رسول الله ﷺ مع أصناف الناس، انتقلت مع بعض رفاقي إلى القسم الرابع من أقسام الحوار، وقد وجدنا على بابه مكتوبا قصة حوار الله تعالى مع إبليس، وقد تعجبنا من وضع تلك القصة في ذلك المحل، ولذلك ما إن لاقانا الغزالي في مدخل ذلك القسم ــ كعادتنا به ــ حتى رحنا نسأله عن سر وضع تلك القصة في ذلك المحل، فقال: أتعرفون إبليس؟

ابتسمنا، وقلنا: ومن لا يعرفه؟ .. ذلك الذي راح يتحدى ربه، لا يمكن أن يجهله أحد.

قال: ألا ترون كيف حاوره الله تعالى[1]، فبدأ بسؤاله عن سر تصرفه، ثم لما طلب منه النظرة أمهله؟

قلنا: أجل .. ذلك واضح.

قال: أرأيتم لو أن إبليس بدل أن يقول :﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (لأعراف: من الآية١٢)، قال: (يا رب .. لقد عظم علي أن أسجد لغيرك، فاغفر لي إن كنت قد أخطأت)[2]

قلنا: لو قال ذلك ما كان إبليس إبليسا.

قال: أتقصدون أنه لو قال ذلك لم يطرد من رحمة الله.

قلت: أجل .. وفي السنة ما يدل على ذلك .. ففي الحديث قال رسول الله ﷺ :(إن عبدا من عباد الله آتاه الله مالا وولدا ، فذهب من عمره عمر وبقي عمر ، فقال لبنيه: أي أب كنت لكم؟ قالوا : خير أب ، قال : إني والله ما أنا بتارك عند أحد مالا كان مني إليه إلا أخذته أو تفعلون بي ما أقول لكم ، فأخذ منهم ميثاقا، قال : أما الأول، فانظروا إذا أنا مت، فأحرقوني بالنار ، ثم اسحقوني ، ثم انظروا يوما ذا ريح، فأذروني لعلي أضل الله ، فدعي واجتمع ، فقيل: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشية عذابك، قال: استقل ذاهبا فتيب عليه[3].

فإن هذا الرجل تصور أنه قادر على إضلال الله، ولكنه في حواره مع الله تأدب، وأبدى حجته في تواضع وعبودية، فغفر له.

قال أحد رفاقي: بل في القرآن الكريم ما يدل على ذلك .. فإن القرآن كما ذكر ما وقع فيه إبلس، ذكر ما وقع فيه آدم عليه السلام .. ولكن الفرق بينهما أن إبليس تعنت واستكبر، وآدم عليه السلام تواضع، وقال مخاطبا ربه ــ ومعه زوجه ــ :﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)(لأعراف: من الآية٢٣)

([1]) اعتبر العلماء حوار الله تعالى مع إبليس مناظرة ، قال الرازي :(دلّت المناظرات المذكورة في القرآن بين الله تعالى وبين إبليس على أنه تعالى كان يتكلم مع إبليس من غير واسطة، فذلك هل يسمى وحياً من الله تعالى إلى إبليس أو لا، الأظهر منعه، ولا بد في هذا الموضع من بحث غامض كامل) التفسير الكبير: ٦١٩/٢٧.

([2]) روي أن إبليس استشفع بموسى عليه السلام إلى ربه أن يتوب عليه فشفع، فقال : يا موسى إن سجد لقبر آدم، فأعلمه ، فقال بعد أن أظهر الغضب: لم أسجد له حيا فكيف أسجد له ميتا.

([3]) رواه أحمد والحكيم والطبراني في الكبير عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده.

قال الغزالي: فقد عرفتم سر ما كتب في الباب من قصة إبليس وحواره مع ربه.

قلنا: لا .. لم نفهم .. نحن نعرف القصة من قبل.

قال: ألا ترون أن الله تعالى .. مع تعاليه وعظمته .. يحاور إبليس، وهو الذي عصاه، بل يعطيه فوق ذلك ما يطلبه من الإنظار؟

قلنا: ذلك صحيح.

قال: فهل هناك من هو شر من إبليس؟

قلنا: لا نعلم أحدا شرا منه .. فكل شر يحصل في الأرض له نصيب منه.

قال: فهل هناك من هو أعظم من الله؟

قلنا: ما تقول؟ .. لو قلنا: نعم لكفرنا.

قال: فاعلموا إذن بأن الله تعالى في قدسه حاور شر خلقه، وأعدى أعدائه، فمن تكبر على أي شخص يريد أن يحاوره ــ مهما كان ــ فقد وضع نفسه في مرتبة أعظم من مرتبة الله، أو وضع من طلب محاورته في محل أخطر من المحل الذي جعل الله فيه إبليس.

رأينا فروعا كثيرة في ذلك القسم، فقلنا: ما هذه الفروع؟

قال: هذه الفروع تستن بقوله ﷺ :(أنزلوا الناس منازلهم)[1]

قلنا: إن هذا الحديث يترل كل مترل، فما مترله هنا؟

قال: المحاور الذي كلف بأن يخاطب الكل يعرف الأساليب التي يتعامل بها مع كل صنف، فلكل أسلوبه الخاص، ولكل منافذه الخاصة.

قلنا: فهل نترل بهذه الفروع لنتعلم من أهلها؟

قال: أجل .. فلا يمكن لمن يريد أن يستن بسنة رسول الله ﷺ في الحوار أن يجهل هذا.

العشيرة:

كان أول فرع بدأنا به في هذا القسم هو قسم (حوار العشيرة)، وقد كتب على بابه قوله تعالى:﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤)

كانت كل دروسنا في هذا الفرع هو تحليل ما ورد في القرآن الكريم من حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه الوارد في قوله تعالى :﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاًوَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً ﴾ (مريم:٤١ ــ ٤٨)

---

[1] رواه أبو داود .

وحوار الأب مع ابنه الوارد في قوله تعالى حاكيا عن نوح عليه السلام :﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ (هود:٤٢ ـــ ٤٣)

وقد رأينا أن هذين النموذجين من نماذج الحوار مع الأقربين قد جمعا خلاصة ما يمكن أن يجري عليه الحوار داخل الأسرة أو العشيرة الواحدة.

فهو حوار ينطلق من المودة والرحمة .. فإبراهيم عليه السلام يحادث أباه بكل رقة ولطف، مع أن أباه لا يبادله تلك المودة وذلك اللطف إلا بالشدة والعنف.

وهو حوار منهجي علمي يتلو الحجة تلو الحجة، والدليل تلو الدليل، حتى لا يبقى للطرف الآخر إلا التسليم.

وهو حوار ينتهي بالخاتمة الطيبة، كما يستهل بالاستهلال الطيب، فإبراهيم عليه السلام يقول لأبيه بعد أن بدر منه ما بدر، وهدده بما هدده :﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾(مريم: من الآية٤٧)

وفي نفس الوقت يخبره عن ثباته على مبدئه ودينه، قال تعالى على لسانه :﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾ (مريم:٤٨)

وقد رأينا في سنة رسول الله ﷺ تطبيقات كثيرة على هذا النوع من الحوار، منها ما سبق ذكره من دعوته ﷺ لعشيرته وتلطفه في حواره معهم، بل روي أنه ﷺ صنع لهم طعاما، ليوفر ذلك الطعام من الجو النفسي ما يتيح لهم حسن الاستماع، وحسن التلقي.

الملأ:

بعد أن درسنا الكيفيات المختلفة التي يتم من خلالها التوصل إلى قلوب العشيرة وعقولها انتقلنا إلى فرع آخر، اسمه (حوار الملأ)، وقد عرفنا في هذا الفرع سر ذكر القرآن الكريم حوار الأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ مع الملأ من أقوامهم .. ذلك أن أولئك الملأ ـــ بسبب ما أوتوا من قوة السلطان ـــ هم أكبر من يقف في وجه الرسل ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ كما قال تعالى عن ملأ رسول الله ﷺ :﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (الأنعام:٢٦)

وقد رأينا أن ما ذكره القرآن الكريم من ذلك الحوار دروس تربوية عميقة للمؤمنين في كل الأزمان ليقتدوا بهدي الأنبياء في حوار الملأ من أقوامهم.

وقد شد انتباهنا في دراستنا المفصلة المحللة لتلك النصوص الحوارية حوار شعيب عليه السلام مع الملأ من قومه .. فقد كان بعض السلف يسمي شعيباً عليه السلام خطيب الأنبياء ، لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته، ويروى في ذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا ذكر شعيبا قال :(ذاك خطيب الأنبياء)[1]

سأذكر لك بعض ما استفدنا من حواره عليه السلام مع الملأ من قومه، وفيه بيان لمنهج رسول الله ﷺ وسائر

---

(1) رواه ابن أبي حاتم والحاكم.

الأنبياء في حوارهم مع الملأ من أقوامهم[1].

أما موضوع حواره، فقد بدأه شعيب عليه السلام بالتوحيد، وهي الدعوة التي جاء بها جميع الأنبياء والرسل ــ عليهم السلام ــ لأن المخالف إذا آمن بالله وحده ، واستسلم له، فإنه لا بد بعدها أن يمتثل لكل ما أمر الله به ، ونهى عنه، قال تعالى :﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (العنكبوت:٣٦) أي : أخشوا الآخرة التي فيها الجزاء على الأعمال، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، أي : لا تكفروا فإنه أصل كل فساد.

وهذا ما بدأ به رسول الله ﷺ دعوته، فقد بدأ بدعوتهم إلى قول (لا إله إلا الله)، مرغباً إيّاهم بأنهم إذا قالوها ملكوا بها العرب والعجم، و لم يأمرهم بصلاة ولا صيام في بداية دعوته.

ذلك أن وحدانية الله هي القاعدة التي تنبثق منها كل مناهج الحياة، كما تنبثق منها قواعد السلوك والخلق والتعامل، ولا تستقيم كلها إلا إذا استقامت هذه العقيدة.

ثم انتقل بهم أعظم مخالفة كان يفعلها قومه بعد الشرك، وهي التطفيف في الكيل والميزان، وبخس الناس أشياءهم، قال تعالى حاكيا قوله :﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)(لأعراف: من الآية٨٥)، وقال تعالى :﴿ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)(هود: من الآية٨٤)، أي: لا ترتكبوا ما أنتم عليه، وتستمروا فيه، فيمحق الله بركة ما في أيديكم ويفقركم، وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة ، ومن جمع له هذا وهذا فقد باء بالصفقة الخاسرة.

فنهاهم أولاً عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف، وحذّرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم، وعذابه الأليم في أخراهم وعنفهم أشد تعنيف، ثم قال لهم آمراً :﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ (هود:٨٥ – ٨٦)، أي : رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس.

ثم نهاهم عن جريمة الصد عن سبيل الله وظلم الناس، أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم وتوعدهم إن فعلوا خلاف ذلك فقال تعالى :﴿ وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ (الأعراف:٨٦)، نهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية بأخذ أموال الناس من مكوس وغيرها، وإخافة السبل، كما ذكر المفسرون أنهم (كانوا قوماً طغاة بغاة يجلسون على الطريق يبخسون الناس، يأخذون العشور من أموال المارة، وكانوا أول من سن ذلك)، ونهاهم عن قطع الطريق المعنوية الدينية.

وفي هذا دلالة على أن المحاور لا ينبغي أن يكتفي فقط بمسائل الدين، بل عليه أن يتحدث عن شؤون الحياة، ومشاكل الناس، ليؤلف بذلك القلوب، بالإضافة إلى كون ذلك من دين الله، ومن مقتضيات عبادة الله.

([1]) انظر: (حوار شعيب عليه السلام مع قومه في القرآن الكريم)، الدكتور : محمد أحمد عيد الكردي، الأستاذ المشارك في جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا / فرع الفجيرة، مؤتمر:الحوار مع الآخر في الفكر الإسلامي، تنظيم كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الشارقة:٣٠ / ربيع الأول ١٤٢٨هـ الموافق ١٦-١٨ / ٤/ ٢٠٠٧م.

أما **أسلوب حواره**، فقد استعمل شعيب عليه السلام من الألفاظ ما فيه مودة ورحمة ولين وعطف وحنان، و لم يتكبر أو يتعالى على قومه، لأن الألفاظ القاسية والفاحشة ، تؤدي إلى نفور الناس من الداعية، كما وجه الله رسوله ﷺ إلى ذلك بقوله :﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران:١٥٩)، والفظ : الغليظ الجافي ، وغلظ القلب : قسوته، والمعنى : (لو كنت فظا غليظ القلب لا ترفق بهم لتفرقوا من حولك هيبة لك واحتشاما منك بسبب ما كان من توليهم)

لقد خاطب شعيب عليه السلام قومه بلفظ (يا قوم)، وبلفظ الأخوة كما سجل القرآن الكريم، لم يقل (يا كفار) ، (يا مجرمين)، قال تعالى :﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (الأعراف:٨٥)، أي : دلالة وحجة واضحة وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به، وأنه أرسلني إليكم، وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التي لم تنقل إلينا تفصيلاً، وإن كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالاً.

بالإضافة إلى هذا، فقد وظف شعيب عليه السلام جميع الأساليب التي يتسلل بها إلى القلوب، فقد خاطبهم مرغبا ومرهبا، وذكرهم بنعم الله الكثيرة عليهم ، قال تعالى :﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف:٨٦)، لقد ذكرهم بنعمة كثرة النسل بعد القلة، وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه.

ورغبهم في الربح الحلال المبارك فيه وإن قل، وأن الحرام لا يجدي وإن كثر، كما قال تعالى:﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (هود:٨٦)

ورغبهم في الإخلاص لله وحده والبعد عن الرياء، قال تعالى :﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) (هود:٨٦)، أي افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه .

ثم استعمل أسلوب الترهيب، فقال :﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (هود:٨٩)، أي : لا تحملنكم مخالفتي وبغضكم ما جئتكم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم، فيحل الله بكم من العذاب والنكال نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم، من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين.

ثم مزج الترهيب بالترغيب، فقال :﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) (هود:٩٠)، أي : اقلعوا عما أنتم فيه، وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود، ترهيب من عدم التوبة ، وترغيب فيها، فإنه من تاب إلى الله تاب الله عليه ، فإنه رحيم بعباده ودود يحبهم ويحبونه[1].

ثم إن شعيبا عليه السلام نوع حواره مع قومه بحسب ما يقتضيه المقام، فقد كان من قوم شعيب عليه السلام الملأ، ومنهم دون ذلك، والحوار والمواجهة مع علية القوم وأشرافهم تختلف عن الحوار مع الآخرين؛ فالمواجهة مع الملأ تتطلب مزيداً من ضبط النفس والحكمة معاً، والثبات على قول الحق، والتمسك بلغة الحوار الجيد، كما حدث

([1]) للودود معينان: أحدهما أنه محب للمؤمنين، والثاني: هو بمعنى المودود أي: محبوب المؤمنين.

بين شعيب عليه السلام والملأ من قومه إذ واجهوه بلغة القوة والتهديد والاستهزاء، وواجههم باللطف واللين، قال تعالى :﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (لأعراف: من الآية٨٨)

انظر كيف يرتفع حوار الملأ إلى درجة التحدي، وكأهم يقولون له :(إما أن تكون معنا، فنرحب بك، أو ضدنا فنخرجك ونحاصرك ونضيق عليك)، فيرد عليهم شعيب عليه السلام بالرد المناسب الدال على ثباته مهما حاولوا زعزعته:﴿ قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ) (لأعراف:٨٨-٨٩)

انظر كيف يمتزج الثبات مع الهدوء .. فهو ثابت، ولكنه بهدوء لا انفعال فيه، وبقوة لا غضب معها ..

وفوق هذا، فقد واجه شعيب عليه السلام استهزاء قومه به، باتهامه بأنه مسحور وكاذب، فلم ينفعل، ولم يغضب ، بل تحلى بسعة الصدر .. وهذا ما سنه لنا النبي ﷺ ، فالداعية المسلم المحاور هو الذي يضبط أعصابه، ويسيطر على نفسه؛ فيواجه خصمه بوجه طلق، وابتسامة عريضة، وسعة صدر، قال تعالى :﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) (هود:٨٧)

يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والسخرية والتهكم :(أصلاتك هذه التي تصليها هي الآمرة لك بأن تحجر علينا، فلا نعبد إلا إلهك ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون ، وأسلافنا الأولون؟ أو أن لا نتعامل إلاّ على الوجه الذي ترتضيه أنت ونترك المعاملات التي تأباها وإن كنا نحن نرضاها؟)

وانتقل الاستهزاء إلى تحد من لون جديد، قال تعالى حاكيا عنهم :﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ الْمُسَحَّرِينَ، وَمَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنْ الْكَاذِبِينَ ، فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنْ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ، قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ، فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(الشعراء:١٨٥ — ١٨٨)

لقد طلبوا أن يسقط عليهم كسفا من السماء إن كان صادقاً فيما يدعو إليه، بل راحوا يسألونه عن عذاب الله ، أين هو؟ وكيف هو؟ ولماذا تأخر؟ سخروا منه ، وانتظر شعيب أمر الله، وتحقق وعد الله الذي لا يتخلف.

ومع كل هذه الأصناف من الاستهزاء والسخرية كان شعيب عليه السلام يجيبهم بالأدلة والبراهين والحجج الدامغة بعيدا عن كل انفعال يجعله يسلك سلوكهم، قال تعالى :﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (هود:٨٨)

انظر كيف تلطف معهم في العبارة ودعاهم إلى الحق بأبين إشارة، وقال لهم: (أرأيتم إن كنت على أمر بيِّن من الله تعالى، وأنه أرسلني إليكم، ورزقني النبوة والرسالة، وعمى عليكم معرفتها، فأي حيلة لي فيكم؟)، وهكذا يبين المحاور أنه يمتلك الحجة والدليل، وأن رأيه ليس مبنياً على الهوى والمزاج.

ولكن شعيبا عليه السلام ـــ مع كل هذا اللطف واللين ـــ استعمل الشدة في خطابه لما اقتضى المقام ذلك، وبعد

أن لم يجد معهم أي لين أو لطف، قال تعالى مخبار عن خطابه لقومه بعد أن يئس منهم :﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (هود:٩٣)، فهذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم، فسوف يعلمون ــ في الأخير ــ من يخزيه الله في هذه الحياة الدنيا، ويحل عليه الهلاك والبوار، ومن تكون له عاقبة الدار.

وهذا كقوله تعالى :﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (الأعراف:٨٧ – ٨٩)، فقد ظنوا بزعمهم أنهم يستطيعون أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم، فانتصب شعيب عليه السلام للمحاجة عن قومه، وقال :﴿ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ أي : هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً، وإنما يعودون إليكم إن عادوا اضطراراً مكرهين، وذلك لأنَّ الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب ، لا يرتد أحد عنه، ولهذا قال :﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ (الأعراف:٨٩)

وفي الأخير .. وبعد أن يئس شعيب عليه السلام من قومه يأسا تاماً استفتح على قومه، واستنصر ربه عليهم في تعجيل ما يستحقونه، فقال :﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ)(لأعراف: من الآية٨٩)

وقد ذكر الله تعالى أن شعيبا عليه السلام استمر في حوارهم بعد هلاكهم، قال تعالى :﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ) (لأعراف:٩٣)[1]

العامة:

بعد أن درسنا بالتفصيل ما يرتبط بحوار الأنبياء ــ عليهم السلام ــ مع الملأ من أقوامهم، والذي أفاض القرآن الكريم في ذكره، انتقلنا إلى فرع آخر، اسمه (حوار العامة)، وقد عرفنا في هذا الفرع ضرورة اطلاع الداعية على ما يجري من شبهات بين عامة من يريد أن يدعوهم، ليناقشهم من خلالها.

ومن أهم ما درسناه في هذا الفرع التحليل التفصيلي للآيات التي أجاب فيها القرآن الكريم عن الشبهات التي كانت تنتشر بين المشركين وغيرهم .. وفي ذلك الجواب استفدنا الكثير من الطرق والمناهج الربانية للحوار الإيجابي.

سأذكر لك بعض ما درسنا من ذلك، لترى أن القرآن الكريم كفانا كل ما يهمنا في هذا الجانب، وأنا لو تدبرناه لاستخرجنا منه من كنوز الحكمة ما يغنينا عن غيره[2].

---

(١) مما يدل على ذلك أن الله تعالى ذكر هذا بعد قوله :﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢)﴾(الأعراف)

(٢) وعلى هذا اتفق كل المتكلمين من المسلمين، قال ابن القيم :(القرآن مملوء من الحجج والادلة والبراهين في مسائل التوحيد واثبات الصانع والمعاد وإرسال الرسل وحدوث العالم فلا يذكر المتكلمون وغيرهم دليلا صحيحا على ذلك إلا وهو في القرآن بأفصح عبارة وأوضح بيان وأتم معنى وأبعده عن الإيرادات والأسئلة، وقد اعترف بهذا حذاق المتكلمين من المتقدمين والمتأخرين)

لقد ذكر القرآن الكريم القضايا التي أكثر فيها الملأ من المشركين الجدال[1]، وأكثرها يدور حول اعتراضهم على رسول الله ﷺ، وأنه بشر مثلهم، وأنه ليس من ذوي الثراء والغنى، ولا من أهل المنصب والزعامة فيهم، وطلبهم أن يكون ملَكاً من الملائكة، أو أن يأتيهم بملَك .. ومنها ادعاء المشركين أن الملائكة بنات الله .. ومنها اعتراضهم على نزول القرآن مفرقاً، وطلبهم أن يترل جملة واحدة .. ومنها إنكارهم التوحيد واتخاذهم الأصنام والأوثان أنداداً لله، وعبادتهم إياها بدعوى التقرب إلى الله .. ومنها إنكارهم البعث والنشور، ورفضهم فكرة اليوم الآخر.. وغير ذلك من الأطروحات التي ذكرها القرآن الكريم، وأجاب عنها.

أما جدالهم في نزول الرسالة على رسول الله ﷺ، فقد تساءل المشركون ــ كما يذكر القرآن الكريم ــ متعجبين: كيف تترل هذه الرسالة على بشر يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق؟ .. ولَم لم يترل هذا القرآن على أحد أغنياء مكة أو الطائف، أو أصحاب الجاه والزعامة فيهما؟ .. ولِمَ لا يرسل الله تعالى ملكاً من الملائكة، ليكون بشيراً ونذيراً للناس؟

وقد أورد القرآن الكريم هذه الشبهات، فقال تعالى :﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ (الأنبياء)، وقال :﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧)﴾ (الفرقان) .. وغير ذلك من الآيات

وكان من رد القرآن الكريم عليهم بيان أنهم لم يبتدعوا هذا القول، بل رددوا أقوال الأمم السابقة التي واجهت رسلها بهذه الشبهة، وجعلت منها سلاحاً تشهره في وجوههم، في محاولة لإقناع عامة الناس أن من كان بشراً لا يصلح أن يكون رسولاً، قال تعالى :﴿ واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩)﴾ (يس)

ثم نقل عن أبي حامد الغزالي قوله في الإحياء :(فإن قلت فلم لم تورد في أقسام العلم الكلام والفلسفة وتبين أنهما مذمومان أو ممدوحان فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه الكلام من الأدلة التي ينتفع بها، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع ــ كما سيأتي بيانه ــ وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترهات وهذايانات تزدريها الطباع وتمجها الأسماع، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفا في العصر الأول، ولكن تغير الآن حكمه إذا حدثت البدع الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة لفقت لها شبها ورتبت لها كلاما مؤلفا فصار ذلك المحظور بحكم الضرورة مأذونا فيه)

ونقل عن الرازي قوله في كتابه (أقسام اللذات) :(لقد تأملت الكتب الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تروي غليلا ولا تشفي عليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن) (انظر: مفتاح دار السعادة: ١/١٤٥)

([1]) انظر: حوار النبي ﷺ مع قومه كما يعرضه القرآن، إعداد:الدكتور أحمد محمد مفلح القضاة، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دبي، أعد هذا البحث للمشاركة في ندوة الحوار التي أقامتها جامعة الشارقة.

وقال تعالى :﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آَخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)﴾ (المؤمنون)

فهذه الشبهة تتابعت عليها أمم كثيرة في مواجهة رسل الله تعالى، وهؤلاء المشركون يرددونها دون أن يعقلوا أو يتفكروا.

وقد استفدنا من هذا أن نبحث في تواريخ الشبهات، وفي القائلين بها، وفي دراسة مصادرهم، ليكون ردنا منطلقا من تلك المنطلقات النفسية والعلمية التي أوحت لهم بتلك الشبهات.

ومما رد به القرآن الكريم على هذه الشبهات القديمة الجديدة تأكيده على أن الرسل ــ عليهم السلام ــ جميعاً كانوا من البشر، لم يشذ عن هذه القاعدة أحد، فإذا كنتم يا معشر قريش تفخرون بانتمائكم إلى إبراهيم عليه السلام فقد كان رجلاً من البشر، وإذا كنتم تصدقون بنبوة نوح وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ فلتعلموا أنهم كانوا بشراً مثل سائر البشر، قال تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (الفرقان:٢٠)، وقال تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٩)

وقد استفدنا من هذا أن نبحث في مدى انسجام المخالف مع ما يقوله .. هل هو يسير معه وفق ما يتطلبه المنهج العلمي، أم أنه يكيل بالمكاييل المختلفة[1].

ومما رد به القرآن الكريم على تلك الشبهات بيانه أنه لو كان أهل الأرض ملائكةً لأنزل الله إليهم رسلاً من الملائكة، وبما أنهم بشر فلا بد أن يكون الرسل إليهم من البشر، حتى يتم التخاطب والتفاهم بينهم وبين البشر، قال تعالى :﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) ﴾ (الإسراء)

([1]) وهذا يسري في كل شيء، فقلما يخلو المخالف من تناقض، فيرد ــ مثلا ــ على من يقول:(إن كنت من أهل الجنة، فلماذا أعمل ؟ وإن كنت من أهل النار، فلماذا أتعب نفسي؟) بأن يقال له: إن الله كتب لك أن تجوع ثم كتب أن تأكل، ثم كتب لك أن تشبع بعد أكلك، فإذا جعت، فلا تأكل، وقل : إن كان الله قد قدر لي أن أشبع، فما حاجتي لتكلف الأكل.

لهذا ربط النبي ﷺ بين حقائق القدر، وبين العمل، فقد روي في الحديث أن غلامين شابين سألا النبي ﷺ فقالا: يا رسول الله، أنعمل فيما جَفَّت به الأقلام وجَرَتْ به المقادير، أو في شيء يستأنف؟ فقال ﷺ :(بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير) قالا: ففيم العمل إذاً؟ قال: (اعملوا فكل عامل ميسر لعمله الذي خلق له)، وقد كان هذا القول محفزا لهذين الشابين، فقالا:(فالآن نجد ونعمل)(تفسير الطبري (١٤٤/٣٠)

واستفدنا من هذا أهمية تعليل الأحكام بمقاصدها .. فلا شيء أبلغ ولا أحكم ولا أعظم تأثيرا في الإقناع من ربط الأشياء بمقاصدها.

ومما رد به القرآن الكريم على تلك الشبهات تأكيده على الفرق الجوهري بين الأنبياء وسائر البشر، فالنبي بشر لكنه يوحى إليه من ربه، ويؤيد بالبرهان الظاهر والحجة البينة، ليعلم الناس أنه رسول الله حقاً، قال تعالى :﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (الكهف:١١٠)، وقال تعالى :﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آَذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧)﴾ (فصلت)، ولأن النبي يوحى إليه، ويتلقى الرسالة عن طريق ملَك من الملائكة، فلا بد أن يكون مهيأً تهيئة خاصة للاتصال بملك الوحي والتلقي عنه، وهذا ما ليس لسائر البشر.

وقد استفدنا من هذا أن ندعو المخالف إلى النظر بعين التحقيق فيما يطرحه من شبهات، فقد يكفي مجرد نظره وتحقيقه في رد الشبهة عنه.

أما القضية الثانية التي جادل فيها المشركون، فقد اعتبروا نزول القرآن على رسول الله ﷺ أمراً مستغرباً، لأنه ـــ كما يقولون ـــ ليس من ذوي الزعامة والنفوذ، ولا من أهل المال والثراء، فليس جديراً بهذا الشرف، ولا خليقاً بأن يختصه الله بالرسالة من بينهم[1]، قال تعالى :﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآَنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف:٣١)

وقد رد القرآن الكريم عليهم رداً حاسماً مبيناً أن هذا من فضل الله تعالى ورحمته، وليس لأحد أن يقسم رحمة الله أو يختص بها أحداً، قال تعالى :﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (الزخرف:٣٢)

كما رد عليهم في موضع آخر بقوله :﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آَيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ (الأنعام:١٢٤)، فالله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وليس لأحد أن يعترض، أو ينكر فضل الله ورحمته.

أما القضية الثالثة التي ألجأهم إليهم الحوار المنهجي إلجاء، فقد طلب المشركون أن يكون الرسول ملَكاً من الملائكة، حتى يصدقوا أنه مرسل من عند الله، ويؤمنوا به ويتبعوه.

وقد رد القرآن الكريم على هذه الشبهة في عدد من السور، كما في قوله تعالى :﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ

---

(1) قال الآلوسي مبينا سر لجوء المخالف إلى هذا :(وهذا باب آخر من إنكارهم للنبوة، وذلك أنهم أنكروا أولاً أن يكون النبي بشراً، ثم لما بُكتوا بتكرير الحجج، ولم يبق عندهم تصور رواج لذلك جاءوا بالإنكار من وجه آخر، فتحكموا على الله سبحانه أن يكون الرسول أحد هذين ـــ أي الرجلين من مكة والطائف ـــ كأنهم قالوا: لو كان الذي يدعيه محمد حقاً لكان الحقيقَ به رجل من القريتين عظيم، وهذا منهم لجهلهم بأن رتبة الرسالة إنما تستدعي عظيم النفس بالتخلي عن الرذائل الدنية، والتحلي بالكمالات والفضائل القدسية، دون التزخرف بالزخارف الدنيوية)

مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨)وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩)﴾(الأنعام)

فهذه الآية حصرت الاحتمالات المرتبطة بموقفهم من إرسال الملك إليهم في حالتين:

أما الأولى، فأن يرسله الله على هيئته الملائكية التي خُلق عليها، ولأن الملائكة مخلوقات نورانية عظيمة، فإن البشر لا يتحملون رؤيتهم، ولا يستطيعون أن يثبتوا لها، وهذا يعني أنهم سيهلكون إذا رأوا ملكاً من الملائكة على هيئته التي خلق عليها.

وقد أشار القرآن الكريم إلى عظم خلق الملائكة، وأن رسول الله ﷺ مع ما أوتي من طاقات لم يرهم، بل لم ير جبريل، في صورته الحقيقية إلا مرتين، قال تعالى :﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥)﴾ (النجم)

وأشار القرآن الكريم ــ كذلك ــ إلى أن رؤية البشر للملائكة في صورهم التي خلقوا عليها، لا تكون إلا عند الموت أو يوم القيامة، وعند ذلك لا يكون للمشركين بشارة ولا خير، بل سيسعى كل منهم إلى التعوذ بما لا ينفعه، رغبة في دفع العذاب عن نفسه. قال تعالى :﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً) (الفرقان:٢٢)

وأما الحالة الثانية، فأن يرسل الله ملكاً من الملائكة على هيئة البشر، وحينها لابد أن يقول الناس :(هذا بشر مثلنا)، ولن يصدقوا أنه من الملائكة، وعندئذ يبقى الإشكال قائماً.

هذه كبرى القضايا التي حاور فيها القرآن الكريم المشركين مفندا شبهة واحدة واحدة، متدرجا بهم على حسب عقولهم.

أما القضية الثانية، فهي تلك **الضلالات الباطلة**، والتصورات الفاسدة، التي ابتدعوها من عند أنفسهم، أو قلدوا فيها آباءهم وأجدادهم، دون علم، وتتابعوا على ذلك حتى جعلوه ديناً مقدساً، واعتقدوه حقاً وصواباً.

ومن ذلك زعمُهم أن الله تعالى اتخذ زوجة من بنات سروات الجن، فأنجبت له الملائكة، وزعمُهم أن الملائكة بنات.

وقد أخبر القرآن الكريم عن هذه الأباطيل، وردّ عليها بالحجة الدامغة والبرهان الساطع، قال تعالى :﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)﴾ (الصافات)

لقد استفدنا من هذا أن نرتب حججنا ونعددها، بحسب ما يقتضيه المقام[1]، فالله تعالى في هذه الآيات طلب منهم سلطانا مبينا على قولهم (إن الملائكة بنات الله) .. وتفرع على إنكار أن تكون لهم حجة بما قالوا أن خوطبوا بالإتيان بكتاب من عند الله على ذلك إن كانوا صادقين فيما زعموا، أي فإن لم تأتوا بكتاب على ذلك فأنتم غير صادقين.

والأمر في قوله: (فَأْتُوا) أمر تعجيز.. ومجادلتهم بهذه الجمل المتفننة رُتبت على قانون المناظرة؛ فابتدأهم بما يشبه الاستفسار عن دعويين: دعوى أن الملائكة بنات الله، ودعوى أن الملائكة إناث بقوله :﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ (الصافات:١٥٠)، ثم لما كان تفسيرهم لذلك معلوماً من متكرر أقوالهم نزّلوا مترلة المجيب بأن الملائكة بنات الله وأن الملائكة إناث.

وإنما أريد من استفسارهم صورة الاستفسار مضايقةً لهم، ولينتقل من مقام الاستفسار إلى مقام المطالبة بالدليل على دعواهم، فذلك الانتقال ابتداء مِن قوله :﴿ وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ وهو اسم فاعل من شهد إذا حضر ورأى، ثم قوله :﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(١٥٧) ﴾ (الصافات)، فرددهم بين أن يكونوا قد استندوا إلى دليل المشاهدة أو إلى دليل غيره، وهو هنا متعين لأن يكون خبراً مقطوعاً بصدقه، ولا سبيل إلى ذلك إلاّ من عند الله تعالى، لأن مثل هذه الدعوى لا سبيل إلى إثباها غير ذلك، فدليل المشاهدة منتفٍ بالضرورة، ودليل العقل والنظر منتفٍ أيضاً، إذ لا دليل من العقل يدل على أن الملائكة إناث، ولا على أنهم ذكور.

فلما علم أن دليل العقل غير مفروض هنا انحصر الكلام معهم في دليل السمع وهو الخبر الصادق لأن أسباب العلم للخلق منحصرة في هذه الأدلة الثلاثة: أشير إلى دليل الحس بقوله:﴿ وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾، وإلى دليلي العقل والسمع بقوله :﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴾ (الصافات: ١٥٦)، ثم فرع عليه قوله :﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الصافات: ١٥٧)، وهو دليل السمع، فأسقط بهذا التفريع احتمال دليل العقل لأن انتفاءه مقطوع إذ لا طريق إليه، وانحصر دليل السمع في أنه من عند الله كما علمت، إذ لا يعلم ما في غيب الله غيرُه.

ثم خوطبوا بأمر التعجيز بأن يأتوا بكتاب أي بكتاب جاءهم من عند الله، وإنما عيّن لهم ذلك لأنهم يعتقدون استحالة مجيء رسول من عند الله، واستحالة أن يكلم الله أحداً من خلقه، فانحصر الدليل المفروض من جانب السمع أن يكون إخباراً من الله في أن يترّل عليهم كتاب من السماء لأنهم كانوا يجوّزون ذلك لقولهم :﴿ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ ﴾ (الاسراء: من الآية٩٣)، ولن يستطيعوا أن يأتوا بكتاب.

فذكر لفظ :﴿ بِكِتَابِكُمْ ﴾ إظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال: فأتوا به، أي السلطان المبين، فإنه لا يحتمل إلا أن يكون كتاباً من عند الله، وإضافة كتاب إلى ضميرهم من إضافة ما فيه معنى المصدر إلى معنى المفعول على طريقة الحذف والإيصال، والتقدير: بكتاب إليكم، لأن ما فيه مادة الكتابة لا يتعدّى إلى المكتوب إليه بنفسه، بل بواسطة حرف الجر وهو (إلى)

فلا جرم قد اتضح إفحامهم بهذه المجادلة الجارية على القوانين العقلية، ولذلك صاروا كالمعترفين بأن لا

([1]) انظر تحليل الاستدلال في هذه الآيات في تفسير (التحرير والتنوير)

دليل لهم على ما زعموه، فانتقل السائل المستفتي من مقام الاعتراض في المناظرة إلى انقلابه مستدلاً باستنتاج من إفحامهم، وذلك هو قوله :﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢)﴾ (الصافات)

ومن الردود القرآنية في هذا المقام ما نص عليه قوله تعالى :﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢)﴾ (الزخرف)

لقد تضمنت هذه الآيات وجوها من الرد عليهم استفدنا منها أي فائدة:

فالآيات الكريمة تشير إلى أن هؤلاء بعد أن اعترفوا بأن الله سبحانه هو الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض جعلُوا له ــ سبحانَهُ ــ بألسنتِهم واعتقادِهم من عبادِه ولداً، وإنَّما عبَّر عنهُ بالجُزءِ لمزيدِ استحالتهِ في حقِّ الواحدِ الحقِّ من جميعِ الجهاتِ.

وبما أن الولد يشمل الذكور والإناث، فقد نسبوا إلى الله تعالى البنات دون البنين، مع أنهم يترفعون عن نسبة البنات إلى أنفسهم، ويكرهون أن يبشروا بولادتهن، فكيف ينسبون إلى الله سبحانه ما يكرهون؟ والمَعْنى: هَبُوا أنكم اجترأتُم على إضافةِ اتخاذِ جنسِ الولدِ إليه سُبحانَهُ مع ظهورِ استحالتِه وامتناعِه، أما كانَ لكم شيءٌ من العقلِ ونُبذٌ من الحياءِ حتى اجترأتُم على التفوُّهِ بالعظيمةِ الخارقةِ للعقولِ من ادعاءِ أنَّه تعالى آثرَكُم على نفسه بخيرِ الصنفينِ وأعلاهُما وهم الذكور، وتركَ له الإناث؟ وهم يعلمون أن الإناث يُنَشَّأن ويربين في الحلية والزينة، ومن كان كذلك فهو عاجزٌ عنْ أنْ يتولَّى أمره بنفسِهِ، كما أنه في الخصام والجدالِ الذي لا يكادُ يخلُو عنه الإنسانُ في العادةِ (غَيْرُ مُبِينٍ)، ولا قادرٍ على تقريرِ دعواهُ وإقامةِ حُجَّتِه.

وقد تضمن كفرهم المذكور كفراً آخرَ، حيث جعلوا الملائكة إناثاً، فرد القرآن عليهم مطالباً إياهم بالدليل فقال :﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾، أي أَحَضَرُوا خلقَ الله تعالى إيَّاهم فشاهدُوهم إناثاً حتى يحكموا بأنوثتِهم؟ فإنَّ ذلكَ مما يُعلم بالمشاهدةِ، وهو تجهيلٌ لهُم وتهكُّمٌ بهم.

ولم يكتف المشركون بهذا، بل عبدوا الملائكة من دون الله، ظناً منهم أن ذلك كان بمشيئة الله ورضاه :﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ أيْ لو شاءَ عدمَ عبادتِنا للملائكةِ مشيئةَ ارتضاءٍ ما عبدناهُم أرادُوا بذلكَ بيانَ أنَّ ما فعلُوه حقٌّ مرضيٌّ عندَهُ تعالى.

ومَبْنى كلامِهم الباطلِ على مقدمتين: إحداهُما أنَّ عبادتَهُم لهم بمشيئتهِ تعالى، والثانيةُ أنَّ ذلكَ مستلزمٌ لكونها مرضيةً عندَهُ تعالَى، ولقد أخطأُوا في الثانيةِ حيث جهلُوا أن المشيئةَ عبارةٌ عن ترجيحِ بعضِ الممكناتِ على بعضٍ كائناً ما كانَ من غيرِ اعتبارِ الرِّضا أو السَّخطِ في شيءٍ من الطرفينِ، ولذلكَ جُهِّلُوا بقولِه تعالى :﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ ﴾ أي بما أرادُوا بقولِهم ذلكَ من كونِ ما فعلُوه بمشيئةِ الارتضاءِ لا بمطلقِ المشيئةِ فإنَّ ذلكَ محققٌ

ينطقُ بهِ ما لا يُحصَى من الآياتِ الكريمةِ :﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ يستندُ إلى سندٍ مَا :﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ يتمحَّلُونَ تمحُّلاً باطلاً.

وقد جُوِّزَ أنْ يشارَ بذلكَ إلى أصلِ الدعوى، كأنَّه لما أظهرَ وجوه فسادِها وحكى شُبهَهم المزيفةَ نَفَى أن يكونَ لهم بها علمٌ مِن طريقِ العقلِ، ثم أضربَ عنه إلى إبطالِ أن يكونَ لهم سندٌ من جهةِ النقلِ فقيلَ :﴿ أَمْ ءاتيناهم كتاباً مّن قَبْلِهِ ﴾ من قبلِ القُرآنِ أو من قبلِ ادعائِهم، ينطقُ بصحةِ ما يدَّعُونَهُ :﴿ فَهُم بِهِ ﴾ بذلكَ الكتاب :﴿ مُسْتَمْسكُونَ ﴾ وعليهِ معوّلونَ :﴿ بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا ءابَاءنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على ءاثارهم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي لم يأتُوا بحجةٍ عقليةٍ أو نقليةٍ، بل اعترفُوا بأن لا سندَ لهم سوى تقليدِ آبائِهم الجهلةِ مثلِهم[١].

أما القضية الثالثة، فهي **اعتراض المشركين على نزول القرآن مفرقاً، وطلبهم أن ينزل جملة واحدة**، وقد أورد القرآن الكريم اعتراضهم هذا ورد عليهم مبيناً بعض الحكم من نزول القرآن مفرقاً، فقال تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾(الفرقان:٣٢)

لقد استفدنا من هذا أن نبدأ بذكر قول المخالف قبل الرد عليه، كما قال تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ أي هلاَّ أُنزل كلُّه (جُمْلَةً واحدة) كالكتب الثَّلاثةِ السابقة.

وبُطلان هذه الكلمةِ ظاهرٌ، فإنَّ الكتبَ المتقدِّمةَ لم يكُن شاهِدَ صحَّتِها ودليلَ كونَها من عندِ الله تعالى إعجازُها، وأمَّا القرآنُ الكريمُ فمنْ بينات[٢] كونه من عند الله تعالى نظمُه المعجزُ الباقي على مرِّ الدّهورِ المتحقّقُ في كلِّ سورة من سوره، ولا ريبَ في أنَّ ما يدور عليه فَلَكُ الإعجاز هو المطابقةُ لما تقتضيه الأحوالُ، ومن ضرورة تغيّرها وتجدُّدها تغيُّر ما يُطابقها حتماً.

على أنَّ فيه فوائدَ أخرى قد أُشير إلى بعضٍ منها بقوله تعالى :﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، فإنَّه استئناف واردٌ من جهته تعالى لردِّ مقالتهم الباطلة وبيانِ الحكمة في التَّنزيلِ التَّدريجيِّ.

ومنها ما ورد في قوله تعالى :﴿ ورتلناه[٣] ترتيلاً ﴾ أي لنقويَ بذلك التَّنزيلِ المفرَّق فؤادَك فإنَّ فيه تيسيراً لحفظِ النَّظمِ وفهم المعاني وضبطِ الأحكامِ والوقوفِ على تفاصيلِ ما رُوعي فيها من الحِكَمِ والمصالحِ المبنيَّةِ المُناسبة على أنَّها منوطةٌ بأسبابها الدَّاعيةِ إلى شَرعها ابتداءً أو تبديلاً بالنَّسخِ من أحوال المكلَّفينَ، وكذلك عامة ما ورد في القرآنِ المجيدِ من الأخبار وغيرها متعلِّقةٌ بأمورٍ حادثةٍ من الأقاويل والأفاعيل ومن قضية تجدُّدِها تجددُ ما يتعلَّقُ بها كالاقتراحاتِ الواقعة من الكَفَرة الدَّاعيةِ إلى حكايتِها وإبطالِها وبيانِ ما يؤول إليه حالُهم في الآخرة[٤].

ويظهر من هذه الشبهات التي كان المشركون يثيرونها، أنهم يريدون التعلق بأي حجة مهما تكن واهية، والتشبث بأي قول مهما يكن ساقطاً مردوداً، ليواجهوا الحق بعنادهم وإصرارهم على ما هم فيه من الكفر

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود.

(٢) لأن نواحي إعجاز القرآن الكريم لا يمكن حصرها، لارتباطه بالأزمنة المختلفة، فالقرآن معجز لكل العصور، ولذلك لا يمكن لأي جيل من الأجيال حصره فيما تعرف عليه منه.

(٣) الترتيل: تلاوة القرآن مفرقاً متتابعاً بتؤدة وأناة، للبيان والتفصيل.

(٤) انظر: تفسير أبي السعود.

والضلال، وإلا فما الفرق عندهم بين أن يترل القرآن مفرقاً، أو جملة واحدة؟ لو كانوا يؤمنون!

أما القضية الرابعة، وهي من أخطر القضايا التي عالجها القرآن الكريم، وأفاض في ذكر الحجج الدامغة التي ترد عليها، فهي **اتخاذ المشركين الأنداد لله، وعبادتهم إياها بدعوى التقرب إلى الله:**

ومما ورد في ذلك قوله تعالى :﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣)﴾ (النجم)

فقد ذكرت هذه الآيات الكريمة اعتقادات المشركين في هذا الباب، وخلوها من أي حجة، بل اعتمادها على مجرد الهوى.

وقد دلهم القرآن الكريم ــ بدل هذا الاعتقاد الخالي من أي حجة ــ إلى اعتقاد أعظم حجة، وأقوم برهانا، وهو توحيد الله تعالى، قال تعالى :﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦)﴾ (الزمر)

ومن الحجج التي استعملها القرآن الكريم إخبارهم أن هذه الآلهة التي عبدوها من دون الله لا تضر ولا تنفع، ولا تملك لأحد شيئاً، قال تعالى :﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (الفرقان:٣)

ومنها كون هذه الآلهة مخلوقات، لم تخلق شيئاً، وليس لها في هذا الكون شرك، قال تعالى :﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ (سبأ:٢٢)، وقال تعالى :﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢)﴾ (النحل)

ومنها اعتراف عابديها بأنها لا تغني عنهم شيئاً، وهذا الاعتراف يظهر بوضوح عندما يمسهم الضر، قال تعالى :﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْأِنْسَانُ كَفُوراً ﴾ (الاسراء:٦٧)

ومنها اعترافهم بأنهم يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى، وهذا الاعتراف يتضمن إقرارهم بوجود الخالق سبحانه، وبأن هذه الآلهة ليست إلا واسطة يتقربون من خلالها إلى الله سبحانه، قال تعالى :﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر:٣)

ومنها بيان أن هذه الآلهة سوف تتخلى عنهم، ولن تنصرهم من دون الله، قال تعالى :﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ

مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦)﴾ (غافر)

كما حلل القرآن الكريم دوافعهم النفسية والاجتماعية التي حملتهم على عبادتها من دون الله، وهي كلها دوافع لا نصيب لها من العلم.

فمنها تقليدهم لآبائهم واتباعهم على ضلالهم، قال تعالى :﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)﴾ (الزخرف)

ومنها اتباع الهوى، بغير حجة ولا سلطان، قال تعالى :﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ (النجم:٢٣)

ومنها احتجاجهم بمشيئة الله، وأنهم ما عبدوا هذه المعبودات إلا بمشيئة الله سبحانه، قال تعالى :﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (الزخرف:٢٠)

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن المشركين لم يكتفوا بعبادة الأصنام والأوثان من دون الله، بل إن منهم من عَبد الملائكة، ومن عَبد الجن، ومنهم من زعم أن لله صاحبةً وولداً، وأن هؤلاء المشركين قد خلطوا في عبادتهم، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً، قال تعالى :﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠)﴾ (الزخرف)، وقال تعالى :﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١)﴾ (سبأ)

كما عرض القرآن الكريم كثيراً من أخبار الأمم السابقة التي أشركت بالله تعالى، واتخذت آلهة من دون الله، كقوم نوح وعاد وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم فرعون وأصحاب مدين، وبيَّن كيف كانت عاقبتهم بعد أن أنذرهم أنبياؤهم وبلغوهم الدعوة وأقاموا عليهم الحجة.

قال تعالى ذاكرا قوم نوح عليه السلام :﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤)﴾ (نوح)

وقال ذاكرا قوم إبراهيم عليه السلام :﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ

لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣)﴾ (الشعراء)

وقال ذاكراً قوم موسى عليه السلام:﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠)﴾ (الأعراف)

والقرآن الكريم حين يقصُّ علينا أخبار تلك الأمم، ويبين كفرهم وتكذيبهم وعبادتهم للأصنام والأوثان، يُعرّض بمشركي مكة وتقليدهم للآباء، واتباعهم سنن الأمم السابقة، ويؤكد على مدى استحواذ الشيطان على أكثر الناس، وصرفه إياهم عن جادة الإيمان.

أما القضية الخامسة، وهي من أخطر القضايا التي عالجها القرآن الكريم، وأفاض في ذكر الحجج الدامغة التي ترد عليها، فهي **إنكار المشركين البعث والنشور، ورفضهم ما جاء به الإسلام عن اليوم الآخر.**

لقد كان عامة المشركين ينكرون عقيدة البعث والنشور، ويرون أن الحياة الدنيا هي نهاية المطاف، فإذا مات الإنسان صار تراباً، ولا إمكان لبعثه وإعادته إلى الحياة من جديد.

وقد ذكر القرآن الكريم مذهبهم هذا في مواضع عديدة، وبين بطلان حججهم، وفساد قولهم، وأكد على عقيدة البعث والنشور بجملة وافرة من الأدلة والحجج الدامغة:

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢)﴾ (الإسراء)، أي فالذي فطركم، وابتدأ خلقكم من العدم قادرٌ على أن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى .. أما وقت ذلك ومتى يكون؟ فعسى أن يكون قريباً، ذلك أن هذه الحياة الدنيا مهما تمتد مدتها ويتطاول زمانها، لن تكون شيئاً إذا قورنت بالآخرة التي لا نهاية لها.

ومنه قوله تعالى :﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠)﴾ (الواقعة)، أي إن الجمع لن يقتصر عليكم وحدكم، بل سيشمل من بعدكم ومن قبلكم، ويتناول أبناءكم وأحفادكم، كما يتناول آباءكم وأجدادكم، ولن يغيب عنه أحد.

ومنه قوله تعالى :﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ (السجدة:١٠)، ثم يأتي الجواب تلقيناً للرسول ﷺ ، وبياناً لحقيقة جديدة لم يكونوا يؤمنون بها، حقيقة وجود ملك موكل بقبض أرواح الناس، ثم تأكيد حقيقة البعث، والرجوع إلى الله سبحانه :﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (السجدة:١١)

ومنه قوله تعالى :﴿ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤)﴾ (النازعات)، ففي هذه الآيات الكريمة نجد الإنكار يبلغ بالمشركين غايته، فيتساءلون: هل سيُردون مرة أخرى إلى الأرض، ويرجعون ثانية إلى

الحياة؟ أبعد أن يكونوا عظاماً نخرة بالية يمكن أن يُبعثوا؟ إنها لكرة خاسرة، وإنهم لخاسرون إذا بُعثوا، ولأنهم يحرصون على الربح دائماً، فلو كان لديهم أدنى احتمال في وقوع الآخرة لآمنوا بها حتى لا يخسروا، ولكنهم متيقنون أنه لا آخرة ولا بعث.

ويأتي الجواب القرآني على هذا الصلَف والعناد :﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤)﴾ (النازعات)

أي أن الأمر أهون بكثير مما يتصور هؤلاء الجاهلون! إنما هي زجرة واحدة، نفخة واحدة في الصور، فإذا هم ينهضون من قبورهم، وقد عادوا إلى الحياة، ودبت الأرواح في أجسادهم، وعندئذ يواجهون الحقيقة التي كانوا يجحدونها.

ومنه قوله تعالى :﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾(يس)، أي أن هذا المشرك الجاحد يتساءل قائلاً :﴿ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟﴾ ، فيأتي الجواب القرآني لهذا المشرك الذي نسي أنه خُلق من عدم، وكان بعد أن لم يكن :﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾، وهو جواب مفحم ملزم، لأن المشركين لا يستطيعون أن يجادلوا في حقيقة وجودهم بعد العدم.

وهكذا نجد القرآن الكريم يرد على المشركين مبيناً بطلان ما تشبثوا به من حجج واهية، وضلال ما ذهبوا إليه من اعتقاد، ويبين ــ مع ذلك ــ العقيدة الصحيحة التي يجب أن يؤمن الناس بها إن كانوا يحترمون أنفسهم وعقولهم.

الأحبار:

بعد أن درسنا بالتفصيل ما يرتبط بمناهج الحوار مع العامة، وكيفية إجابتهم على ما ينتشر بينهم من شبهات، انتقلنا إلى الفرع الرابع من فروع قسم السعة، وهو الفرع المسمى (الأحبار)، وقد كتب على باب هذا الفرع قوله تعالى :﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٦)

وقد كان هذا الفرع من أهم الفروع الدراسية في هذه المدرسة، وقد استفدنا منه مناهج كثيرة في التعامل مع أحبار الأديان المختلفة ..

لا يمكنني أن أذكر لك كل ذلك، ولكني سأذكر لك حادثة وقعت بين بعض زوار هذه المدرسة والغزالي .. سأحكيها لك بحروفها .. فقد كانت هذه الحادثة من أهم ما رغبنا في الدراسة في هذا الفرع.

بمجرد أن دخلنا إلى هذا الفرع، رأينا رجلا جسيما صاحب لحية طويلة، يمسك بالغزالي بشدة، ويقول: اتق الله يا رجل .. ما الذي تريد أن تفعل بالمسلمين؟ .. ألم ترتدع وقد حرق سلفنا كتب جدك؟

ابتسم الغزالي، ولم يرد عليه .. أردنا أن نتدخل، فنهرنا .. ثم قال للرجل الذي لا يزال يمسك بتلابيبه: رويدك ــ يا أخي ــ فلا يمكنني أن أنتصح لما لم أنصح به .. انصحني ــ أولا ــ ثم عنفني كما تشاء.

أطلق الرجل الغزالي، ثم قال : لك الحق في هذا .. لقد استفزني الغضب لله، ولرسول الله، فرحت ــ من

غير شعور ــ أفعل ما أفعل.

قال الغزالي: تعال نجلس .. ولتذكر حجتك بتفاصيلها .. وليكن هؤلاء شهودا على ما نقول .. ألسنا في مدرسة حوار؟

جلس الغزالي مع الرجل، وجلسنا في محل قريب منهما نسمع ما يقولان:

قال الرجل: لقد مررت على جمع هنا يقول كلاما تنهد له الجبال.

قال الغزالي: وما يقولون؟

قال الرجل: كله كفر وضلال .. فكيف أردده عليك؟

قال الغزالي: ألك حجة على إنكار ذلك؟

قال الرجل: بل لدي حجج كثيرة .. منها ما يرتبط بمصادرنا المقدسة، ومنها ما يرتبط بواقعنا[١].

قال الغزالي: يسرنا أن نسمعها منك، فحدثنا .. وابدأ بالدين .. فالدين مقدم على الواقع .. فلا اجتهاد مع نص.

قال الرجل: أول ذلك، وأبلغه قوله تعالى :﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:٦٤)، وقوله تعالى :﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ (آل عمران:٢٠)، وقوله تعالى :﴿ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الحج: ٦٨)، فهذه الآيات الكريمة وأمثالها تغلق الباب أمام الحوار في العقائد، حيث أنها تحث النبي ﷺ في حال المجادلة على تفويض الأمر إلى الله، وعدم الخوض في الحوار الكلامي مع الآخرين.

هذا زيادة على أن قضايا العقيدة الإيمانية، يتعذر إخضاعها للمحاجة والجدل، ومن ثم ينبغي أن يترك شأنها لرب القلوب والضمائر.

قال الغزالي: فما تقول في قوله تعالى :﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت: من الآية٤٦)

قال الرجل: هذه الآية تتعلق بالأمور الدنيوية المتصلة بالمعاملات الدائرة في إطار التعايش في علاقة المسلمين بغيرهم، فالخلاف حول العقائد يتعذر تجاوزه أو حتى الوصول فيه الى حل وسط، بل إن الحوار في مثل هذه الأمور العقدية قد يبعد ولا يقرب، ويورث المرارة ولا يبددها.

قال الغزالي: هذه حجتك الدينية، فما حجتك الواقعية؟

قال الرجل: لدي سبعة حجج واقعية لن تملك إلا التسليم لها.

---

(١) انظر:الحوار الإسلامي المسيحي ــ رؤيــــة تأصيلية ــ د. علي بن العجمي العشي، أستاذ مساعد ومدير تحرير مجلة الدراسات الاجتماعية (مجلة محكمة) ومسؤول برنامج الدراسات الإسلامية جامعة العلوم والتكنولوجيا ــ صنعاء.

والحوار الإسلامي- المسيحي الواقع وآفاق المستقبل، أ.د. أحمد محمد أحمد الجلي، جامعة أبو ظبي-كلية الآداب والعلوم.

كلا المحاضرتين قدمتا في (مؤتمر الحوار مع الآخر في الفكر الإسلامي) المقام في مدينة الشارقة في دولة الإمارات العربية المتحدة في الفترة من ٢٨ – ١٤٢٨/٣/٣٠هـ .

قال الغزالي: فما أولاها؟

قال الرجل: لقد رأيت أن الحوار ما هو إلا وسيلة أراد القائمون عليه من خلالها اختراق عقول صفوة المفكرين المسلمين بهدف تحييدهم واخراجهم من دائرة الحوار الحقيقي، وذلك بإضفاء صفات السماحة والعصرية والتحضر والمرونة والتنوير وغير ذلك من المصطلحات التي تطلق على بعض المشاركين في هذه المؤتمرات، والذين يختارون بعناية لكسب صداقتهم وتمييع حماسهم للدعوة الإسلامية، ومقاومة التبشير في بلادهم، واستخدامهم أدوات ضغط لتحقيق مكاسب للكنيسة، مثل التوسع في بناء الكنائس، وكسر الموانع الشرعية لزواج المسلمة بالكتابي، وإلغاء حكم الردة.

من الأمثلة القريبة على ذلك ندوة الحوار الاسلامي المسيحي التي عقدت في طرابلس ليبيا عام ١٩٧٦م، باشراف ودعوة الفاتيكان ووزارة الخارجية الليبية، إذ كان من النتائج التي أسفرت عنها الندوة افتتاح الكنيسة الكاثوليكية في مدينة بنغازي في الشهر الثاني عشر من عام ١٩٧٧م.

ومن الأمثلة القريبة اللقاء الإسلامي المسيحي التحضيري الذي عقد في جنيف بسويسرا عام ١٩٦٨ بدعوة واشراف مجلس الكنائس العالمي، وكان من ضمن الموضوعات التي بحثت فيه قضية الردة وأحكامها في الشريعة الإسلامية، وهدف المؤتمر إلى الحث على إلغاء قانون الردة في الإسلام، وبعد نقاش مستفيض للمسألة أصدر المؤتمر من ضمن توصياته توصية بالغائها.

قال الغزالي: هذه الأولى .. فما الثانية؟

قال الرجل: الثانية أخطر من الأولى .. فإن هدف مؤتمرات الحوار مع الأحبار تذويب الاسلام عن طريق الإخاء الديني والحوار بين الأديان في ظل الدعوة الابراهيمية، ومثل هذه الدعوات دعوات خطيرة وخبيثة تستهدف عقيدة التوحيد عند المسلمين تحت شعار الوحدة بين الأديان، وما تفرع عن ذلك من محاولة طبع القرآن والتوراة والانجيل في غلاف واحد، وبناء مسجد وكنيسة وبيعة في محيط واحد.

ولخطورة هذه الدعوة أصدرت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والافتاء بالسعودية فتوى جاء فيها: (لا يجوز لمسلم يؤمن بالله رباً وبالإسلام دينا وبمحمد نبياً ورسولاً الدعوة إلى هذه الفكرة الآثمة والتشجيع عليها وتسليكها بين المسلمين، فضلاً عن الاستجابة لها، والدخول في مؤتمراتها وندواتها)

قال الغزالي: هذه الثانية.. فما الثالثة؟

قال الرجل: اختراق اليهود الصهاينة لمؤتمرات الحوار .. فأصابع إسرائيل المنبثة في دوائر الفاتيكان ليست بعيدة عن فكرة الحوار، وأنَّ شعار السلام الذي يشار اليه عادة كهدف للحوار يوظف في ذلك الاتجاه بشكل جاد، لكي ينتهي سلاماً مع إسرائيل وتصالحاً مع مشروعها الاستيطاني.

ولعل أثر هذه الحركات والجماعات الصهيونية يظهر في مواقف المتحاورين المسيحيين من القضايا المتعلقة بإسرائيل، ففي المؤتمر الذي عقد بطرابلس رفض الجانب المسيحي المشارك في الندوة التصديق على الفقرتين (٢٠ و٢١) من قررات وتوصيات البيان المشترك، وكانت الفقرتان تتعلقان بالقضية الفلسطينية والصهيونية العالمية، وحوَّل الجانب المسيحي هاتين الفقرتين الى الفاتيكان للتصديق عليهما، ولكن الفاتيكان رفض التصديق

عليهما أيضا.

كما يذكر أنَّ أحد كبار المسؤلين في الفاتيكان عقد اجتماعاً في الأزهر مع لجنة الحوار، وطولب المجتمعون بأن يصدروا بياناً يدين الممارسات الإسرائيلية في القدس والأراضي المحتلة، فأصر الجانب الفاتيكاني على الرفض القاطع، وبعد إلحاح صدر البيان يدين إسرائيل والفلسطينيين معاً، و لم يذكر كلمة واحدة عن مآسي فلسطين.

قال الغزالي: هذه الثالثة.. فما **الرابعة؟**

قال الرجل: أنت ترى عدم اعتراف المسيحية بالإسلام كدين سماوي، وعدم اعترافهم بنبوة الرسول ﷺ، بل هم يعتبرون الإسلام ثقافة وحضارة تماما كما يضعون البوذية والهندوسية والكونفوشيوسية، بنفس المترلة، في الوقت الذي يعترف فيه الاسلام بالمسيحية، ويشيد بكلمة الله المسيح، ويكرم من سماهم قسيسين ورهبانا.

وقد فسر بعض المسيحيين سبب إعراضهم عن الاعتراف بمشروعية النبي والإسلام أنه بقود في النهاية إلى إلغائهم، بينما عدم اعترافهم يشكك في مصداقيتهم في الاعتراف بالإسلام كدين ،وبحقيقة الوحي الإلهي للرسل والأنبياء.

قال الغزالي: هذه الرابعة.. فما **الخامسة؟**

قال الرجل: ضعف استراتبجية المتحاور المسلم، فبينما المحاور المسيحي ينطلق في حواره من استراتيجية متكاملة، ويمارس الحوار برؤى وآليات متسقة تخدم أهدافه وغاياته بكل جدارة وموضوعية، نجد أن الطرف الإسلامي المحاور يتعامل مع الحوار بعفوية، الأمر الذي يستلزم ترتيب البيت من الداخل أولا، ووضع استراتيجية وخطط مرحلية تحكمها منطلقات وثوابت على أساس من قيم الدين والهوية الإسلامية والمصلحة الحضارية.

قال الغزالي: هذه الخامسة.. فما **السادسة؟**

قال الرجل: لقد رأيت أنه في الوقت الذي يدعو فيه منظمو الحوارات من الغربيين إلى التعايش بين الأديان، نجد أن الكنيسة تنطلق في مجالات التبشير بين المسلمين وتبذل الجهود ومختلف الوسائل المشروعة وغير المشروعة لردهم عن دينهم.

انظر .. فرغم تغير موقف الفاتيكان وإعلانه الاعتراف بالمسلمين كأصحاب ديانة، ودعوته إلى التعايش معهم، فقد صدرت العديد من التصريحات من رجال الكنيسة، وعلى رأسهم البابا، تدل على أن الكنيسة الكاثوليكية لم تغير موقفها من استهداف المسلمين كمجال للتنصير[1]، بل تؤكد على أن الحوار في رأيهم وسيلة من وسائل التبشير، ومن تلك التصريحات:(إن الحوار بين الديانات يشكل جزءاً من رسالة الكنيسة التبشيرية، فهو باعتباره طريقة ووسيلة لمعرفة وإغناء متبادلين، لا يتعارض مع الرسالة إلى الأمم ، إنه بالعكس يرتبط بها، بنوع خاص وهو تعبير عنها)

([1]) من العجب أن يطرح مثل هذا .. فكما أن للمسلم الحق في أن يدعو لدينه، فللمسيحي الحق كذلك في أن يدعو لدينه .. والمسلم الذي يطالب بمثل هذا عليه ــ أيضا ــ أن يقبل بأن لا يدعو المسيحيين للإسلام .. هذا هو العدل الذي أمرنا به ديننا في التعامل مع غيرنا.

والمنهج الأسلم لمواجهة التبشير، ليس نهي المبشرين عن التبشير، وإنما توعية المسلمين ليصبحون دعاة للمبشرين إلى دين الله.

ثم يستطرد التصريح إلى التأكيد على أنَّ الخلاص يأتي من المسيح، وأنَّ الحوار لا يعفي من التبشير بالإنجيل،بل إن الكنيسة لا تعتبر أن هناك ثمة أي تعارض بين البشارة بالمسيح والحوار بين الديانات.

فالكنيسة ترى أنه لا تعارض بين الحوار والتبشير،وأن باستطاعة الحوار أن يمضي نحو غايته دون أن يعطل مسيرة التبشير، بل إن الكنيسة تؤكد أن الحوار يخدم أغراض التبشير، لما يترتب عليه من المعرفة الجيدة بالديانات والحضارات الأخرى.

ويعبر البابا صراحة عن الهدف التنصيري من وراء دعوات الحوار، قائلاً: (إنَّ الكنيسة تستعمل الحوار لكي تحسن حمل الناس عن الارتداد والتوبة عن طريق تجديد ضميرهم وحياتهم تجديدا في ضوء سر الفداء والخلاص، إن الحوار الصحيح يرمي إذن بادىء ذي بدء الى تجديد كل الناس بالارتداد الباطني والتوبة مع احترام كل الضمائر)

ويعلن البابا عن خطة مرحلية يتم فيها حسب زعمه تنصير العالم بنهاية القرن العشرين، وأطلق على تلك الخطة الاستراتيجية عبارة: Inculturation بمعنى اختلاط الثقافات أو التهجين hyberdization بين الثقافات،وتهدف الى استغلال التقارب بين الأديان من أجل نشر المسيحية والدعوة الى اعتناقها.

وفي (العظة الرسولية، وتبليغ التعليم الديني) يؤكد البابا عام ١٩٧٩ على أهمية تغيير العالم، وخاصة في بلدان ما بعد الشيوعية خشية من استمرارها في الإلحاد، أو من تحولها إلى الإسلام، ومن هنا بات ضرورة — كما يقول — ضرب الإسلام، لأنه يمثل الملجأ الوحيد أمام الذين يكفرون بمسيحيتهم عند اكتشافهم كل ما جرى في عقيدتهم من تحريف، ولا يمكنهم العيش في الإلحاد.

ونتيجة لهذه التصريحات نجد أنه لا غرابة أن يشكك كثير من علماء المسلمين في مؤتمرات الحوار، ويعتبرونه أسلوباً من أساليب التنصير، لقد سمعت بعضهم يقول :(إنَّ الحوار بين الأديان أسلوب جديد من أساليب التنصير والتبشير والغزو الفكري حيث أنَّ الحوار ظاهره الرحمة وباطنه العذاب.. ففي الوقت الذي كان فيه الفاتيكان يدعو للحوار نرى الفاتيكان يتحرك وعلى مدى امتداد ساحة العالم ليهاجم الإسلام في معاقله، وليدمر قواعد الإيمان في بلاده، وليشكك المسلمين في النبي الخاتم)

وسمعت آخر يقول:(لا نستطيع أن نمضي في الحوار، بينما تتعرض العديد من المجتمعات الإسلامية التي تعاني الفقر والحاجة للإختراق من قبل المنظمات التبشيرية، واذا لم تكن القيادات الإسلامية قادرة على تقديم العون لهم، فعليها على الأقل أن تمتنع عن دعم الطرف الذي يحاول اختراقهم وإخراجهم من ملتهم، حتى ولو كان الدعم أدبياً ومعنوياً، والأمر المؤكد أنَّ إجراء الحوار هو في جانب منه يعد من قبيل ذلك الدعم)

قال الغزالي: هذه السادسة.. فما السابعة؟

قال الرجل: لعلك تعلم أن النصف الثاني من القرن العشرين شهد سيلا من الحوارات بين المسلمين والمسيحيين، وخلال هذه الفترة التي تقرب من الخمسين عاماً، عقدت مئات المؤتمرات في أنحاء عدة من العالم امتدت من استراليا وماليزيا مرورا بالعالم العربي وأوروبا إلى أمريكا وكندا، وقد اتخذت تلك الحوارات أشكالا متعددة وأنواعا مختلفة، وقد نظم تلك الحورات ودعمها جهاتٌ عديدة.

ومن خلال استقرائي لتلك المؤتمرات وجدت أنها لا يمكن أن تخدم الإسلام بحال من الأحوال، بل إنها لا تزيد المسلمين إلا شكا في دينهم وبعدا عن قيمه ومبادئه.

سأذكر لك بعض النماذج عن ذلك:

لقد حضرت (المؤتمر الإسلامي المسيحي الأول)، الذي عقد بضاحية بحمدون قرب بيروت في (٢٢-٢٧/٤/١٩٥٤م)، وهو من أشهر المؤتمرات في هذا المجال، وقد قامت بالإعداد له جمعية أصدقاء الشرق الأوسط الأمريكية .. وقد رأيت أنه أرادا أو أريد به تحقيق هدفين أساسيين:

أما أولهما، فامتصاص نقمة العرب على بريطانيا وفرنسا بسبب تخليهما عن الوعود التي التزمتا بها للعرب بإقامة الدولة العربية الواحدة، وتواطئهما على إنفاذ وعد بلفور بإقامة وطن لليهود في فلسطين.

والثاني: محاولة ربط الإسلام والمسلمين بحركة عداء الغرب الراسمالي للشيوعية التي قامت في الاتحاد السوفياتي والصين، وبدأت تنتشر في أوروبا الشرقية ومناطق عديدة أخرى في آسيا وأفريقيا.

ومن المؤتمرات التي حضرتها: مؤتمرين عقدهما المجلس العالمي للأديان، وهو من المنظمات التي ابتدرت الحوار بين المسيحية والإسلام.

أما أولهما، فعقد بلندن عام ١٩٣٦م، وأما الثاني، فعقد بجامعة السوربون في باريس عام ١٩٣٧م.

وقد كان الدافع للمؤتمر الأول السعي إلى نبذ التقاتل بين أتباع الأديان، واتجاه الجميع لمواجهة التحديات التي تواجههم من إباحية جامحة ومادية مستحكمة.

بينما هدف المؤتمر الثاني إلى دراسة أوضاع العالم الذي كان على أبواب الحرب العالمية الثانية.

ومن المؤتمرات التي حضرتها المؤتمرات التي عقدها مجلس الكنائس العالمي، وهو من المنظمات التي كان لها دور كبير في إثارة الحوار الإسلامي المسيحي، والإشراف عليه.

لقد صحب تأسيسه عام ١٩٤٨، تأسيس دائرة خاصة للتبشير والدراسات التبشيرية، كما وضع مؤسسوه مشروعاً دراسياً حمل عنوان :(كلمة الله والأديان الحية للبشر)

ومن القضايا الحساسة التي طرحتها هذه المؤتمرات مسألة الردة التي ناقشها المؤتمر الإسلامي المسيحي التحضيري الذي عقد عام ١٩٦٨، وأصدر توصية بإلغائها.

سكت الرجل، فقال الغزالي: هل فرغت ــ يا أخي ــ من ذكر حججك؟

قال الرجل: وهل ترى أن مثل هذه الحجج يمكن أن تقاوم .. إنها الصارم المسلول المجهز على كل محاور مشلول؟

قال الغزالي: فهل تأذن لي في أن أدلي بحججي؟

قال الرجل: تحدث كما تشاء .. ولكن إياك وبديهيات الدين .. فلا ينبغي أن يناقش أحد في البديهيات.

قال الغزالي: سأكتفي بأربع حجج .. وستجد فيها الجواب المفصل على ما ذكرته، فلا تقاطعني حتى أكملها لك واحدة واحدة.

قال الرجل: فما أولاها؟

قال الغزالي: **القرآن الكريم** .. اذهب، وافتح القرآن الكريم، فستجده يقرر في مواضع كثيرة مبدأ الحوار مع أهل الكتاب وغيرهم، بل يضع ضوابط الحوار معهم، ويدعو إلى استخدام أرقى أنواع الخطاب وألطف العبارات في الحوار.

بل إنه فوق ذلك يقدم العديد من النماذج لأنواع من الحوار..

بل إنك في قراءتك للقرآن الكريم تجد كل شيء قابلا للحوار، فلا مقدسات ولا محرمات في الحوار، حتى في وجود الله تعالى وشخصية النبي ﷺ، فنحن نعلم أن القرآن الكريم بسط كل هذه الموضوعات للحوار مع أهل الشرك والإلحاد فقد عرض لكل المفردات التي اتهم بها النبي ﷺ في شخصه وفي رسالته: هل هو مجنون أم عاقل؟ ساحر أم نبي؟ كاذب أم صادق؟ قرآنه بشري أم إلهي؟ .. ثم عالج القرآن كل هذه المسائل بكل موضوعية وعلمية.

قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ (النحل: ١٠٣)، وقال:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (النحل: ٢٤)

ولعل التحدي الكبير الذي ردّ القرآن الكريم عليه هو قولهم (إنه لمجنون)، فانظر كيف حاورهم في هذا المجال :﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سبأ: ٤٦)

إن الإنسان، وهو داخل اتجاه فكري جماعي لا يستطيع أن يكون محايداً، بل سيكون متابعاً للكثرة وللجو الصاخب، ولكن القرآن الكريم يدعوهم أن يبتعدوا قليلاً عن مثل هذه الأجواء، وأن يتفرقوا اثنين اثنين، أو فرادى واحداً واحداً، ثم يتفكروا في كلمات الرسول ﷺ وفي شخصه الكريم فسيرون عندها أنه ليس بمجنون.

بل إن الله تعالى مع عظمته وقدسيته حاور إبليس، قال تعالى :﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (لأعراف:١٢)

وذكر القرآن الكريم حواره تعالى مع ملائكته، قال تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (البقرة:٣٠)

ويذكر القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام حاور الملائكة، بل اعترض عليهم، قال تعالى:﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)﴾ (العنكبوت)، بل إن الله سمى حواره للملائكة جدالا، وهو دليلا على تكرر مراجعته لهم، قال تعالى :﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)﴾ (هود)

وفوق هذا كله، فإن القرآن الكريم يحاور أهل الكتاب في قضايا دينهم، لا يترك في ذلك قضية من القضايا الكبرى إلا طرحها.

بل إنه ــ فوق ذلك كله ــ أمرنا بحوارهم دون أن يستثني عقيدة أو غيرها، قال تعالى :﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٦)

فهذه الآية الكريمة ــ فضلاً عن مطالبتها بالجدال بالتي هي أحسن ــ كأنها تقول للمسلمين: إذا لم يكن في جعبتكم الأسلوب الأحسن في الجدال فلا تجادلوا أهل الكتاب.

وهي دعوة صريحة للحوار مع أهل الكتاب، حوار يركز على الانطلاق من مواطن اللقاء في الفكر والرسالة، والقواسم المشتركة مع أهل الكتاب، وعلى هذا الأساس كانت الدعوة إلى بدء الحوار من قاعدة مشتركة في قضية الإيمان التي يمكن أن توحي بإمكانية اللقاء في القضايا الأخرى..

قاطعه الرجل قائلا : ولكن الولاء والبراء[1] ..

قال الغزالي: ألم أطلب منك أن تمهلني إلى أن أكمل حججي الأربع؟

قال: لا بأس .. قد وعيت الأولى .. فاذكر لي الثانية.

قال الغزالي: الثانية هي **السنة المطهرة** .. ففي السنة المطهرة الكثير من النصوص الدالة على أن رسول الله ﷺ حاور من جاءه من أهل الكتاب سواء كانوا من اليهود أو النصارى ..

لاشك أنك تعرف كيف قابل رسول الله ﷺ نصارى نجران وإحسانه وفادتهم وسماحه لهم بالصلاة في مسجده، وفوق ذلط محاورتهم في أمور الدين .. وهكذا وحواره ﷺ مع اليهود، ودعوتهم للإسلام.

وهكذا فعل صحابته ــ رضي الله عنهم ــ في عهده، فأقرهم .. لاشك أنك تعرف ما جرى في مجلس النجاشي بأرض الحبشة بين مهاجري المسلمين والوفد القرشي الذي ذهب لردهم، حيث تلى جعفر بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ قدرا من سورة مريم يخبر عن المسيح وأمه مريم، وانتهى الحوار بمناصرة النجاشي للمسلمين على وفد قريش، والإذن لهم بالاقامة في الحبشة ما شاءوا معززين مكرمين.

ولاشك أنك تعرف ما وقع في مجلس هرقل ملك الروم، بإيلياء (بيت المقدس)، وتولى عرض الإسلام دحية الكلبي الذي كان رسول رسول الله ﷺ إلى هرقل،وانتهي الحوار بقبول هرقل لرسالة النبي إليه[2].

ولاشك أنك تعرف ما وقع في المدينة المنورة بين الرسول ﷺ وبين وفد نجران الذي جاء محتجاَ على وصف عيسى بن مريم عليه السلام بأنه بشر وليس إلهاَ ولا ابن إله، وقال رسول الله ﷺ : نعم إنه أخي وإنه عبد الله ورسوله،وأن الله تعالى لم يلد ولم يولد، ودعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام، فأبوا فدعاهم الرسول إلى المباهلة،فرفضوا وقبلوا الجزية، وأعطاهم الرسول عهد الأمان مؤكدا فيه الالتزام التام بحمايتهم والدفاع عنهم، وحماية دور عبادتهم ضامناً لهم الحرية في العبادة وممارسة شعائرهم[3].

قال الرجل: وعيت الثانية .. فاذكر لي الثالثة.

([1]) ذلك أن من ذرائع المعارضين للحوار اعتبارهم الحوارتنازلاً عن مبادئ الإسلام وهدماً لقاعدة الولاء والبراء.. وما أكثر ما جني على الإسلام تحت ذريعة الولاء والبراء، وسوء الفهم للولاء والبراء.

([2]) سنذكر التفاصيل المرتبطة بهذه الرسائل في فصل (الشاهد) من هذه الرسالة.

([3]) انظر التفاصيل المرتبطة بهذا في فصل (الشاهد) من هذه الرسالة.

قال الغزالي: الثالثة هي **مقاصد الشريعة** .. فقد ورد في النصوص الكثير الإخبار بأن الأمور بمقاصدها، ولا يمكن لأحد أن يحرم ما ثبتت مصلحته، أو يبيح ما ثبتت مفسدته.

قال الرجل: وهذا الذي دخلت إليك منه .. فإن مقاصد الشريعة هي دليلي الذي اعتمدت عليه في تحريم الحوار.

قال الغزالي: ومقاصد الشريعة هي دليلي الذي أعتمد عليه في الدعوة إليه.

قال الرجل: كيف ذلك؟

قال الغزالي: بغض النظر عن الاستعمال السيء للحوار، فإن نتائجه الإيجابية لا شك فيها، سأذكر لك بعضها.

أولا .. لقد رأيت أن الحوار هو أحد السبل الكبرى لتقريب وجهات النظر بين الأديان، وإزالة سوء الفهم القائم بينها، ومن ثم تحقيق التعايش السلمي بين الناس .. وذلك هو السبيل الأمثل لعرض الإسلام، فلا يمكن أن يعرض الإسلام إلا في جو السلام.

ثانيا .. لقد حققت بعض المؤتمرات الحوارية نتائج إيجابية تشجع على الاستمرار فيه، ومن ذلك ــ مثلا ــ المؤتمر الذي دعت له وأشرفت عليه جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية في إسبانيا، وشارك فيه قرابة مائتي باحث وعالم مسلم ومسيحي، وكان تحت عنوان (التقدير الإيجابي لمحمد والمسيح ــ عليهما الصلاة والسلام ــ في المسيحية والاسلام) .. فقد صدرت عن هذا المؤتمر عدة توصيات منها الاعتراف من قبل الجانب المسيحي بأنَّ الإسلام دين سماوي،وأنَّ محمداً ﷺ نبيٌّ ورسولٌ من عند الله تعالى .. ومنها تكليف فريق من قبل الجانب المسيحي بدراسة مائتين وخمسين كتاباً يتداوله التلاميذ في مختلف المراحل التعليمية في إسبانيا، وحصر وتصحيح العبارات التي تشوه صورة الإسلام ونبيه محمد ﷺ، واستبعاد كل ما هو مختلق ومكذوب منها.

ثالثا .. إظهار محاسن الإسلام، ومحاربة الصور السلبية عنه، فعن طريق الحوار يمكن عرض محاسن الإسلام، وبيان ما يتسم به من شمول وكمال وتنظيم لعلاقة الإنسان بينه وبين نفسه وبينه وبين خالقه وبينه وبين أخيه الانسان وبينه وبين سائر المخلوقات.

كما يمكن أن يكون الحوار وسيلة لمحو الصورة المشوهة للإسلام في العالم الغربي، والتي أسهمت في رسمها جهات عديدة، من بينها الكنيسة ، وعبر قرون طويلة، من خلال بث الحقد والكراهية ضد المسلمين ودينهم، ورمي الاسلام عقيدة وشريعة بكل المثالب والنواقص، وبخاصة في الكتب والدراسات التي تحدثت عن الاسلام.

كما يمكن أن يكون الحوار وسيلة لتنقية الكتب المدرسية التي تدرس في مدارس الدول الغربية المسيحية، وتصفيتها من كل الشوائب والتشويهات والأفكار الخاطئة التي لحقت بالإسلام.

رابعا .. يمكن أن يكون الحوار سبيلاً للتعاون بين أهل الأديان في صد الهجمة الشرسة التي يشنها أهل الباطل على الإيمان وعلى الأخلاق الفاضلة والمثل النبيلة التي جاءت بها الأديان جميعاً.

فالقيم المشتركة بين أصحاب الأديان السماوية يمكن أن تشكل رابطاً حقيقياً بينهم تدفعهم ــ رغم ما يوجد بينهم من خلافات ــ إلى أن يتعاونوا في العديد من الميادين التي تهمهم جميعا، لا سيما في مجال القيم

الدينية والأخلاقية، وقيم العدل ورفع الظلم عن الناس.

ومن ذلك ـــ مثلا ـــ الوقوف ضد الإلحاد في العقيدة، ورد الدعوات اللادينية التي ترمي إلى هدم العقائد الإيمانية، والتي أصبحت خطراً يتهدد القيم الإنسانية في مجالات الاقتصاد والسياسة والأسرة والأخلاق .. فاللقاء بين الأديان أمر ضروري لصد ذلك الخطر، ورد الهجمة على الإيمان وعلى الأخلاق الفاضلة والمثل النبيلة التي جاءت بها الأديان جميعا.

ومن ذلك، التصدي لدعاة الإباحية الداعين إلى الخروج على القيم الإنسانية والأخلاق الفاضلة ممن ينادون بالحرية المطلقة والإباحية الأخلاقية والفوضى في العلاقات الجنسية، وعدم القيد في السلوك والخروج على القيم والآداب.

وقد حدث أن تم تعاون في مؤتمر السكان في القاهرة عام ١٩٩٤م، وفي مؤتمر بكين عن المرأة عام ١٩٩٥م، ووقفت الكنيسة الكاثوليكية، وممثلو الفاتيكان، مع رجال الأزهر ورابطة العالم الاسلامي، وجمهورية إيران الاسلامية، جنبا الى جنب ضد دعاة الاباحية.

ومن ذلك مناصرة قضايا المستضعفين، والتعاون بين أتباع الأديان المختلفة، لدعم قضايا العدل، وقضايا المستضعفين في الأرض، ومناصرة الشعوب المظلومة التي تعاني ما تعاني من اضطهاد وقتل وتشريد وهتك للأعراض وسفك للدماء وتدمير للبيوت والممتلكات ودور العبادة والمدارس.

قال الرجل: إن ما ذكرته من نتائج إيجابية يستدعي حصر الحوار في مواضيع محددة لا يتجاوزها حتى لا يفسد علينا عقيدة الولاء والبراء.

قال الغزالي: لقد رأيت ـــ من خلال الواقع، ومن خلال النصوص المقدسة ـــ أن كل المواضيع يصلح الحوار فيها ..

فالله تعالى يقول :﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (آل عمران:٦٤)

ففي هذه الآية الكريمة بدأ الله تعالى بذكر الحوار العقدي .. نعم هم الآن ينفرون من هذا النوع من الحوار .. ولكن لابد لنا من دعوتهم إليه .. لنقيم عليهم الحجة.

ثم ثنى بقوله :﴿ وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾، وانطلاقا من هذا يمكن أن يثير المحاور المسلم إشكالية العلاقة السياسية بين الغرب الصليبي الاستعماري والعالم الإسلامي، وهي المسألة التي تحمل في طياتها مسائل السيطرة الاستعمارية، وحروب العدوان الدولي، والحصار التجويعي، والاستغلال الاقتصادي، ومحاولات سحق الآخر، وعدم الاعتراف له بحقه في الاستقلال الثقافي والحضاري، وحقه في التنمية، بل حتى الاستقلال الذي هللت له الشعوب الإسلامية حوّله الغرب الاستعماري إلى شكل من أشكال الاستعمار غير المباشر.

وبما أن الغرب هو المسؤول الأول عن طبيعة هذه العلاقة بيننا وبينهم، ولهذا فإن الحوار الإسلامي المسيحي مطالب بمواجهة شجاعة لهذه الإشكالية.

بالإضافة إلى هذين الموضوعين يمكن أن يطال الحوار موضوع المفاهيم الأخلاقية العامة التي يلتقي فيها الإسلام بالمسيحية في معظم المواطن من أجل وضع القاعدة المشتركة التي تحكم الواقع السلوكي للإنسان المسلم والمسيحي.

بالإضافة إلى هذا يمكن استثمار الحوار في مناصرة المستضعفين في الأرض .. لقد ذكر رسول الله ﷺ هذا، فعن جبير بن مطعم، وطلحة بن عبيد الله ــ رضي الله عنهما ــ قالا: قال رسول الله ﷺ : (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعي به في الإسلام لأجبت)[1]

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال: (ما شهدت حلفا لقريش إلا حلف المطيبين شهدته مع عمومتي، وما أحب أن لي به حمر النعم، وأني كنت نقضته)[2]

فإذا كان اللقاء مع أهل الشرك من قريش في سبيل نصرة المظلومين استحسنه رسول الله ﷺ، ولو دعي إلى مثله في الإسلام فأجاب، فأولى أن تعقد الأحلاف مع غيرهم، فهم أقرب إلينا من الملحدين والمشركين لأجل نصرة المظلومين.

قال الرجل: وعيت هذا، فما حجتك الرابعة؟

قال الغزالي: **التاريخ الإسلامي** ..

قاطعه الرجل قائلا: قد كنت أحسبك عاقلا .. متى كان التاريخ الإسلامي حجة؟

قال الغزالي: اصبر علي .. وسترى أن الكل يحتج به ..

قال الرجل: سأصبر .. فاذكر ما تريد.

قال الغزالي: لقد شهد التاريخ الإسلامي الكثير من الحوارات بين المسلمين وغيرهم، وخصوصا المسيحيين منهم .. وقد تنوعت أساليبها وطرقها ما بين حوارات فردية، وحوارات خوطبت بها جماعات هنا وهناك، وحوارات أخذت شكل رسائل أو كتب أريد بها إحقاق الحق وكشف زيف الباطل.

وكان الهدف من تلك الحوارات جميعاً الدعوة إلى الإسلام وإقامة الحجة على الناس ببيان محاسنه وفضائله وحثهم على اتباعه، وبيان ما عليه المشركون من ضلال، وما وقع فيه أهل الكتاب أو غيرهم من أصحاب الملل والنحل من انحراف.

قال الرجل: فحدثني عن **الحوارت الفردية**.

قال الغزالي: لقد سجلت كتب التراث الإسلامي العديد من الحوارات التي جرت بين أفراد من المسلمين، وبين أصحاب الأديان المختلفة، ومن ذلك الحوارات التي جرت مع النصارى،كحوارات المسعودي مع أبي زكريا النصراني، الذي يقال انه كان متفلسفاً جدلاً، وكان محور تلك المحاورات معتقدات النصارى حول (الثالوث) و(الصلب)، وغيرها من المعتقدات.

ومنها محاورة القاضي الباقلاني مع ملك الروم التي بين القاضي خلالها مدى الخطأ الذي يقع فيه النصارى

---

[1]) رواه ابن إسحاق وابن سعد والبيهقي.

([2]) رواه البيهقي، قال بعض رواته: والمطيبون هاشم وزهرة ومخزوم.

عند نسبتهم الولد لله تعالى[1]، في الوقت الذي يترهون أنفسهم عن ذلك.

ومنها الحوار الذي جرى بين فخر الدين الرازي وقسيس من خوارزم، وأثيرت خلاله عدة قضايا يتعلق بعضها برسالة الرسول ﷺ وشكه فيها، وبعضها بألوهية عيسى عليه السلام .

ومنها حوارات الشيخ محمد عبده مع القسيس إسحق تيلور الإنكليزي، ومع المستشرق غبريال هانوتو، وقد رد ــ خلالها ــ الشيخ محمد عبده على مطاعن المستشرقين، وافتراءاتهم ضد الإسلام.

ومنها حوارات الشيخ أحمد ديدات مع المنصرين المسيحيين، والتي بلغت أكثر من ٣٢ حواراً مع القساوسة في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وايرلنده وكندا وهونج كونج وسنغافورة والهند وزيمبابوي وموريتانيا وملاوي، وفي موطنه الأصلي جنوب أفريقيا.

وقد أحدثت تلك المناظرات هزة في عقيدة كثير من المسيحيين، ونتج عنها إسلام عدد كبير من المنصرين الذين دخلوا معه في مناظرات ومساجلات من مختلف أنحاء العالم، كما أعطت تلك المناظرات المسلمين ثقة أكبر بصحة دينهم وقدرته على مواجهة الاعتراضات التي يثيرها الآخرون حول الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً.

ويدخل في هذا الباب الرسائل الحوارية المتبادلة بين المسلمين وغيرهم، ومن بين تلك الرسائل (رسالة الحسن بن أيوب) (ت. نحو:٣٧٨هـ/٩٨٨م) الذي أثار إسلامه تساؤلات لدي أخيه علي بن أيوب، فتضمنت الرسالة كشفاً لأخطاء النصرانية التي دفعته إلى تركها، وبياناً لفضائل الإسلام التي دعته لاعتناقه.

ومنها (رسالة القاضي أبي الوليد الباجي) (ت.٤٧٤هـ/١٠٨١م) التي كتبها رداً على رسالة أرسلها راهب فرنسي إلى الأمير المقتدر بالله (ت.٤٧٥هـ/١٠٨١م) داعياً إيَّاه إلى اعتناق المسيحية، وقد جاء رد الباجي مدللاً على بطلان معتقدات النصارى في المسيح عارضاً لمحاسن الإسلام عقيدةً ونظاماً وعبادةً وأخلاقاً، داعياً الراهب إلى الدخول في الإسلام، وشرح صدره للاستماع لتعاليمه.

ومنها (رسالة أبي عبيدة الخزرجي) (ت.٥٨٢هـ/١١٨٧م) التي جاءت رداً على رسالة بعث بها قسيس مدينة طليطلة هاجم فيها الإسلام منتصراً لديانته، فرد عليه أبو عبيدة مبيناً بطلان معتقدات النصارى، وما عليه الإسلام من حق ومفنداً مزاعم القسيس.

ومنها (الرسالة القبرصية)، وهي رسالة كتبها ابن تيمية الى سراجوس ملك قبرص، يدعوه فيها إلى الإسلام، ويبين العلاقة بين الإسلام والمسيحية، ويوضح وسطية الشريعة الإسلامية في العقائد والعبادات والأخلاق.

ويدخل في هذا الباب الكتب التي كتبت ردا على أصحاب الديانات والملل المخالفة للإسلام ومفندةً ما أثاروه من شبهات او أباطيل حول الإسلام، ومن تلك الكتب: (الإعلام بمناقب الإسلام) لأبي الحسن محمد بن يوسف العامري (ت.٣٨١هـ /٩٩٢م)، و(الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل) لأبي حامد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ)، و(الفصل في الملل والأهواء والنحل) لابن حزم الأندلسي، و(شفاء العليل في بيان ما وقع في التوراة

([1]) سنرى المعنى الحقيقي للبنوة على حسب ما يدل عليه الكتاب المقدس في رسالة (الله جل جلاله) من هذه السلسلة.

والإنجيل من التبديل) لأبي المعالي عبد الملك الجويني (ت:٤٧٨هـ)، و(الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) لابن تيمية.

ويلاحظ أنَّ جميع هذه الحوارات في جملتها ومهما اختلف نوعها لا تخرج عن مضمون موضوعات الحوار القرآني الذي اهتم بالدفاع عن العقيدة الإسلامية، وإبطال ما يخالفها من معتقدات، وبيان حقائق الدين الإسلامي في مقابل أباطيل خصومه.

قال الرجل: وعيت هذا، فحدثني عن **الحوارات الجماعية؟**

قال الغزالي: لقد سجلَّ التاريخ الإسلامي أنواعاً من الحوارات الجماعية التي اتخذت أشكالاً مختلفة، معظمها جرى في بلاط الخلفاء ، ومجالس الأمراء الأمويين والعباسيين وغيرهم من ملوك وأمراء الدول الإسلامية ، وكان يشهدها الخاصة، وتتناقل أخبارها العامة.

ومن أفضل النماذج لذلك: الحوارات التي جرت في مجلس الخليفة المأمون الذي اشتهر باهتمامه الثقافي، وإجادته لكثير من فروع المعرفة، وإلمامه بالعلوم الشرعية واللغوية، وبعض العلوم التجريبية، فضلاً عن حبه للفلسفة والجدل الكلامي.

وقد شهد مجلسه العديد من المناظرات والحوارات التي كانت تجري بين أصحاب المذاهب الإسلامية فيما بينهم، وبينهم وبين أصحاب العقائد والملل والنحل المخالفة لهم.

وقد كان للمعتزلة الذين اشتهروا بالنظر والكلام ــ لا سيما كبار علمائهم كالنظام (ت: ٢٢١ هـ)، وأبو الهذيل العلاف (ت:٢٣٠هـ) ــ دور كبير في تلك المناظرات، حيث استغلوا ملكاتهم الفكرية وذخيرتهم الثقافية والعلمية في محاورة النصارى والثنوية والديصانية والدهرية، وألفوا الكتب رداً عليهم .

ومن الأمثلة على ذلك في عصرنا المناظرة التي تمت بين المسلمين وطائفة من مسيحي جنوب السودان في الخرطوم بتاريخ ١٩٨٠/١٢/١م، بدعوة واشراف: هيئة إحياء النشاط الإسلامي بالسودان والملحق الديني للسفارة السعودية في الخرطوم، وقد جرت وقائع اللقاء في شكل أسئلة ألقاها الجانب المسيحي، يتعلق جانب منها بالديانة المسيحية مثل: موقف القرآن من المسيح والإنجيل،وكيف تم النسخ والتحريف في الانجيل كما يزعم المسلمون .. وغيرها من الأسئلة.

والجانب الآخر يتعلق بالإسلام، مثل: حياة الرسول ﷺ، وكيفية نزول القرآن عليه.. وهل انتشر الإسلام بالسيف .. ولماذا يحرم القرآن لحم الخنزير .. وغيرها.

وقد قام الجانب الإسلامي بالإجابة على تلك الأسئلة، وانتهت المناظرة بإعلان القساوسة المسيحيين اعتناقهم الإسلام، وقال المتحدث باسمهم: (إننا لا نملك أي رد غير إعلان الإسلام ديناً لنا، والتمسك بكل قيمه ومثله لأنه الحق والنور لخير الأمم في الدنيا والآخرة)

هذه نماذج عن بعض الحوارات الجماعية المرتبطة بالدين، أما ما عداها مما يرتبط بقضايا الحياة، فكثيرة .. وسلبية بعضها لا يعني سلبية الجميع[1].

([1]) ومن تلك المؤتمرات:

التفت الغزالي إلى الرجل، وقال: هذه بعض حججي، فما تقول فيها؟

قال الرجل: ولكن .. سد الذرائع .. ألا تعلم أن المفسدة مقدمة على جلب المصلحة؟

قال الغزالي: أنت تخاف على المسلمين أن ينحرفوا إلى غير الإسلام.

قال الرجل: أجل .. أليس هذا الخوف معتبرا؟

قال الغزالي: أجل هو معتبر .. ولكن .. ألا تخاف على هذه البشرية التائهة عن الإسلام أن تموت على غيره؟

---

١. **مؤتمر ممثلي الأديان في اندونسيا:** الذي دعت إليه الحكومة الاندونيسية، وعقد في نوفمبر ١٩٦٧م للتباحث حول مستقبل البلاد، وقضية الوحدة الوطنية والحفاظ على التعايش السلمي بين أتباع الديانتين: الإسلام والمسيحية.

ودارت موضوعات المؤتمر حول ضرورة التعايش والتسامح الديني والكف من قبل المسيحيين عن الإساءة للإسلام وإلى النبي ﷺ وإلى القرآن الكريم.

وطلب المسلمون من المسيحيين التوقف عن عمليات التنصير بين المسلمين لما لذلك من أثر في اثارة الفتنة وتأجيج العداء، وتوجيه جهودهم نحو القبائل الوثنية واللادينية الموجودة في بعض الجزرالأندونيسية.

وقوبلت هذه الدعوة برفض مطلق واستفزاز من قبل المسيحيين، وانتهى المؤتمرون دون الوصول إلى نتيجة ملموسة بسبب تعنت الجانب المسيحي واصراره على خرق التعايش السلمي والإساءة الى الإسلام والمسلمين.

٢. **مؤتمر الحوارالاسلامي المسيحي الوطني بالفلبين:** عقد هذا المؤتمر بدعوة واشراف الجمعية الإسلامية في الفلبين في مدينة تاغايتي الفلبينية ١٩٧٨/٧/٢٨م، وبحثت فيه المشاكل والعلاقات الإسلامية المسيحية،وخاصة في جنوب الفلبين.

كما ناقش المؤتمرون أحوال المسلمين في الفلبين والتوتر في العلاقات الإسلامية المسيحية، والتي كان ضحيتها المسلمون،كما وضع توصيات وقرارات تدعو الى الحوار بين الأطراف المتنازعة، ووضع معالجات قانونية للأوضاع التي يسودها التوتر.

٣. **مؤتمرات الحوار بين الاديان في السودان:** شهد السودان قبيل استقلاله تفجر الأوضاع الأمنية في جنوبه، وظهور مشكلة الجنوب، التي سعت الدوائر الاستعمارية الى تصعيدها فيما بعد، وربطها بقضية الصراع بين الإسلام والمسيحية في الوقت الذي يمثل السودان خلال تاريخه الطويل النموذج الأمثل للتعايش السلمي بين أتباع الديانتين.

واسهاما في ازالة هذا الفهم الخاطئ للمشكلة سعت بعض الهيئات الشعبية وعلى رأسها مجلس الصداقة الشعبية العالمية الى تنظيم ملتقى السلام العالمي، في نوفمبر ١٩٩١م، ،كما قامت مؤسسة السلام والتنمية بالسودان بتنظيم مؤتمر الأديان في أبريل عام ١٩٩٣م، كما تبنى مجلس الصداقة الشعبية العالمية فكرة إنشاء جمعية أو هيئة للحوار الإسلامي المسيحي، عقدت اجتماعها التمهيدي الأول في ٩ نوفمبر ١٩٩٤م،وابثقت من ذلك الاجتماع ،الدعوة إلى عقد مؤتمر الحوار بين الأديان في تاريخ: ٨-١٠/اكتوبر/١٩٩٤م،تحت شعار (حوار الأديان سلام للجسيع)، وتقوم تلك الهيئة بنشاط مميز على المستوى المحلي والعالمي، وتعقد العديد من المؤتمرات.

٤. **اللجنة الوطنية الإسلامية المسيحية للحوار:** أنشئت بعد اتفاقية الطائف للسلام بلبنان(١٩٨٩)،وحملت الدعوة إلى أن تكون لبنان مساحة إنسانية رحبة للحرية والحوار بين معتنقي الرسالات السماوية، وأرض حياة مشتركة مسيحية إسلامية، كما دعت إلى التآخي الوطني بين المسيحين والمسلمين في لبنان في بناء الدولة وإشاعة روح التعاون والوحدة بين أبناء الوطن الواحد.

٥. **الفريق العربي للحوار الإسلامي المسيحي:** وهي مؤسسة أنشئت في عام ١٩٩٥م، وتعنى بشئون الحوار الإسلامي المسيحي بصفة عامة مع التركيز على إشاعة روح الحوار داخل البلاد العربية والشرق الوسط لا سيما في مصر ولبنان وقبرص.

وقد نظمت المؤسسة عدة حوارات ذات طابع محلي منها: (مسلمون ومسيحيون معاً من أجل القدس) في بيروت بتاريخ يونية ١٩٩٦م،وحوار حول (المواطنة والديمقراطية وحقوق الإنسان) في القاهرة بتاريخ اكتوبر ١٩٩٧م،و حوار (العيش المشترك والتوترات الدينية في بعض البلدان العربية) في بيروت بتاريخ مارس ٢٠٠٠م، كما أصدرت المؤسسة وثيقة باسم : الحوار والعيش الواحد ،ميثاق عربي إسلامي في ديسمبر ٢٠٠١م، كما عقدت ندوة بعنوان: (إشكالية الحوار والعيش المشترك) بتاريخ ٦- ٧ يوليو ٢٠٠٤م ،ومؤتمر بعنوان : (التعددية من منظور المواطنة) بتاريخ ٣/٣٠ و٤/٢ ٢٠٠٦م بالقاهرة.

قال الرجل: هي تائهة لا محالة.

قال الغزالي: ولكنا مسؤولون عن تيههم .. إذا جاءوا يوم القيامة، وقالوا: يا رب .. إن هؤلاء قاطعونا، وحرمونا من النور الذي أنزلته، واستأثروا به دوننا، فما عسانا نجيب ربنا؟

قال الرجل: نقول: يا رب .. إنهم أسمعونا كلاما عظيما.

قال الغزالي: ألا تعلم أن الحوار هو الذي يكشف عن الجواهر، أم أنك تريد منهم أن ينافقوك، فيظهروا خلاف ما يبطنوا.

سكت الرجل قليلا، ثم قال: صدقت .. لا أجد ما أجيبك به إلا أن أطلب منك أن تسمح لي أن أنضم إلى هذه المدرسة، فعسى الله أن يفتح علي فيها من العلم ما أتمكن به من إنقاذ أخ من إخواني في الإنسانية من ظلمات الجهل إلى نور الإسلام.

قال الغزالي: بورك لك هذه الهمة .. وأبشر بما بشر به رسول الله ﷺ من يهتم بهمتك، فقال مخاطبا عليا ــ رضي الله عنه ــ :(انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم)[1]

***

مكثت في ذلك الفرع برهة طويلة من الزمن درست خلالها كل ما جادت به قريحة علماء المسلمين في الحوار بينهم وبين سائر الملل والنحل.

وقد عرفت من تلك الدراسة المفصلة العميقة .. أنها جميعا لم تكن تنهل إلا من بحار القرآن الكريم، وبحار الرسول الهادي الذي جعله الله نورا للعالمين، كما جعله رحمة لهم.

قلت: فما حال تلك المدرسة، وكيف تركتها؟

قال: لقد تركتها بخير .. ولكنها تحولت إلى شر.

قلت: ما هذا؟ .. وهل يتحول الخير إلى شر؟

قال: ليست المدارس بجدرانها .. ولكنها بأصحابها .. لقد كان الغزالي هو مدير تلك المدرسة وأستاذها، وكان النبي المحاور هو روح تلك المدرسة وسر حياتها ..

قلت: فما حصل لهما؟

قال: أما الغزالي، فقد طعنه بعض الحاقدين الذين أحرقوا كتب جده .. وأما النبي المحاور، فقد راح أولئك الحاقدون يصورونه بصورة لا أستطيع أن أذكرها لك.

قلت: ما هي؟

قال: صورة نفوسهم المملوءة بالأحقاد، فهم لا يسمعون إلا أنفسهم وأهواءهم .. فلذلك راحوا يصفون الحوار بالهرطقة، والمحاورين بالمبتدعة.

قلت: فما وضعوا بدل الحوار؟

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

قال: السيف بنوعيه.

قلت: أللسيف نوعان؟

قال: نعم .. أما أحدهما، فالسيف الذي تعرفه، وقد انتدبت له طائفة منهم .. وأما الثاني، فسيف الحرمان؟

قلت: ما سيف الحرمان؟

قال: أنت أدرى الناس به .. ألا تعلم أن الكنيسة تعاقب من تنتقم عليه بحرمانه من بركات الكنيسة، والمسيحية؟

قلت: بلى .. أعلم ذلك.

قال: فقد راح هؤلاء يسلطون هذا السيف على كل الناس .. يرموهم بما شاءت لهم أهواؤهم أن يرموهم به.

قلت: والمدرسة .. كيف حالها؟

قال: أما بنيالها، فباق .. ويوشك أن يقيض الله لها حفيدا من أحفاد الغزالي ليعيد لها الحياة.

***

ما استتم صاحبي حديثه هذا حتى وجدنا أنفسنا قد قطعنا المرحلة الثالثة من الطريق من غير أن نشعر بأي عناء أو تعب .. ولم يخطر على بالي طيلة هذه المرحلة ما كنا نقطعه من غابات موحشة، ومن سباع عادية تتربص بنا من كل اتجاه.

لقد تترلت علي بمجرد قطعي لتلك المرحلة أشعة جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

رابعا ــ المعلم

قلت: فحدثني عن رحلتك الرابعة.

قال: كانت الحاضرة الرابعة من حواضر الإسلام التي قدر لي أن ألتقي فيها بوارث الهدي النبوي في مجال التعليم مدينة (شنقيط) ..

وقد بدأت قصة التقائي بورثة هذا الهدي العظيم في صحراء قريبة منها ..

كنت أسير في تلك الصحراء التي امتلأت حرا وجفافا، وأتعجب كيف استطاع النبي ﷺ أن يخرج من مثل هذه الصحراء أساتذة لا تزال جامعات العالم ومدارسه تنهل من علومهم، وتستفيد من حكمتهم، وتطمح لأن يكون لها من اتقاد الذهن، وحدة الذكاء، وصفاء الذاكرة ما كان لهم.

وبالرغم من أن هذه الخواطر كانت تملؤني بالأشواق الجميلة إلا أني مع ذلك كنت أشعر بألم عظيم .. لقد قلت لنفسي: كيف قصرت الأمة في حق هدي نبيها حتى جفت تلك الآبار التي حفرها لنا، فصرنا لا نجد ما نروي به العالم المتعطش إلى أكمل هدي، وأعظم هدي، وأنبل هدي؟

لقد صارت مدارسنا لا تخرج أمثال ابن عباس ومعاذ وزيد بن ثابت ممن تربوا في مدرسة رسول الله ﷺ .. وتعلموا فيها .. بل صارت تخرج المشاغبين والمشردين ومشتتي الذهن، وممن يستعملون علومهم لاقتناص الدنيا ..

صارت تخرج أمثال بلعم بن باعوراء .. وأمثال أولئك الذين شبههم الله بالحمير التي تحمل أسفارا.

بينما أنا كذلك تتنازعني خواطر مسرة، وخواطر حزن، إذا بي أسمع صوتا عذبا يترنم بلامية الشنفرى[1] الممتلئة بالغريب، ومما سمعته منها قوله:

أقيمـــوا بـــني أمـــي ، صـــدورَ مَطِـــيكم   فـــإني ، إلى قـــومٍ سِـــواكم لأميـــلُ !

فقـــد حمـــت الحاجـــاتُ ، والليـــلُ مقمـــرٌ   وشُـــدت ، لِطيـــاتٍ ، مطايـــا وأرحُـــلُ؛

وفي الأرض مَنْـــأىً للكـــريم ، عـــن الأذى   وفيهـــا ، لمـــن خـــاف القِلـــى ، مُتعـــزَّلُ

([1]) الشَّنْفَرَى (توفي نحو ٧٠ ق هـ ــ٥٢٢م)، هو عمرو بن مالك الأزدي، شاعر جاهلي من الشعراء الصعاليك المقدمين، عاش ونشأ في بطن من بني فهم الذين أسروه وهو طفل، فلما شب عرف قصة أسره، فحلف أن يقتل منهم مائة رجل.

وقد اشتهر بأنه من أسرع عدَّائي الصعاليك وأكثرهم جرأة وأشدهم دهاءً، وقد عاش تارة مع رفيقيه ــ وابن أخته ــ تأبط شرًا وعمرو بن برامة وغيرهما من شعراء الصعاليك، وتارةً أخرى في البراري والجبال، يغزو على قدميه مرة، وعلى فرسه مرة أخرى، ويهاجم الأحياء ويسلبها، مات مقتولاً على يد أحد أفراد القبيلة التي انتقم منها. وتقول الروايات إنه قتل تسعة وتسعين من رجالها قبل أن يتمكنوا منه.

وما ذكرناه من شعره هنا هو جزء من قصيدته المطولة المعروفة باسم لامية العرب، وقد نقلت كتب الأدب قصائد ومقطوعات أخرى منسوبة إليه، ولكن لامية العرب تظل هي المتفوقة، ليس من أجل طولها فقط، ولكن من حيث بروز الخصائص الفنية واللغوية والنفسية التي أشهرت الشنفرى وأثارت اهتمام الدارسين به قديمًا وحديثا.

لَعَمْرُكَ ، ما بالأرض ضيقٌ على أمرئٍ سَرَى راغباً أو راهباً ، وهو يعقلُ
ولي ، دونكم ، أهلونَ : سِيْدٌ عَمَلَّسٌ وأرقطُ زُهلول وَعَرفاءُ جيألُ
هم الأهلُ . لا مستودعُ السرِّ ذائعٌ لديهم ، ولا الجاني بما جَرَّ ، يُخْذَلُ
وكلٌّ أبيٌّ ، باسلٌ . غير أنني إذا عرضت أولى الطرائدِ أبسلُ
وإن مدتْ الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم ، إذ أجْشَعُ القومِ أعجل
وماذاك إلا بَسْطَةٌ عن تفضلٍ عَلَيهِم ، وكان الأفضلَ المتفضِّلُ
وإني كفاني فَقْدُ من ليس جازياً بِحُسنى ، ولا في قربه مُتَعَلَّلُ
ثلاثةُ أصحابٍ : فؤادٌ مشيعٌ ، وأبيضُ إصليتٌ ، وصفراءُ عيطلُ

اقتربت من صاحب الصوت، فوجدته راعيا قد استلقى على رمال تلك الصحراء.. وهو يترنم بتلك الأبيات بلذة لا تعدلها لذة، وكأنه يتوهم نفسه في محفل كبير، وقد طرح جلابيب الرعاة، ليرتدي طيالسة الأدباء والبلغاء والعلماء ..

حييته، فلم يشعر بتحيتي، فحركته بيدي، وقلت: مرحبا بصديقنا الشنفرى .. هل رضي الشنفرى من حياته بعد عودته بأن يصير راعيا؟

ابتسم، وقال: وهل يمكن أن يتكبر على الرعي أحد بعد رعي رسول الله ﷺ ؟

ثم أردف يقول: لو أن الشنفرى سمع ما حدث به أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ : (ما بعث الله نبيا إلا راعي غنم)، فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله ؟ قال: (وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط[1])

([1]) اختلف العلماء في (قراريط) على قولين:

القول الأول: أنها اسم موضع .. قال الإمام أبو إسحاق الحربي: قراريط: اسم موضع بمكة، ولم يرد القراريط من الفضة، وصوبه ابن الجوزي تبعا لابن ناصر وخطأ سويدا في تفسيره.

واستدل بعضهم لذلك بأن العرب لم تكن تعرف القراريط الذي هو من النقد، ولذلك جاء في الصحيح: (ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط)

وسمع ما حدث به جابر بن عبد الله ـــ رضي الله عنه ـــ من قوله: كنا مع رسول الله ﷺ بجني الكباث، فقال: عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه فإني كنت أجنيه إذ كنت أرعى الغنم، قلنا: وكنت ترعى الغنم يا رسول الله ؟ قال: (نعم، وما من نبي إلا وقد رعاها)[2]

وسمع ما حدث به أبو سعيد ـــ رضي الله عنه ـــ قال: افتخر أهل الإبل والشاء، فقال رسول الله ﷺ :(بعث موسى وهو راعي غنم وبعث داود وهو راعي غنم، وبعثت وأنا راعي غنم لأهلي بأجياد)[3]

لو أن سمع كل هؤلاء الشهود لترك رماحه وسيوفه وجلس مع غنماته كما أجلس أنا الآن معها .. وقد كفى العالم من شره، وكفاه العالم شره.

قلت: كيف رضيت لنفسك ـــ مع ما منحته من قدرة على التعلم ـــ على الجلوس بين الغنم .. ألم يكن الأجدى بك أن تجلس بين يدي تلاميذك، يقبل هذا يدك، ويسعى ذاك لخدمتك، وفوق ذلك تنال من الأجور ما لا تناله من هذه المهنة؟

قال: ومن لهذه الغنم المسكينة يرويها ويطعمها .. ومن للبشر الذين ينتظرون صوفها ولبنها ولحمها .. ؟

قلت: لكل حرفته التي تصلح له .. وأنا لا أرى هذه الحرفة تصلح لك.

قال: إن كل من تراه في هذه الصحارى مثلي يحفظون ما أحفظ .. ويعلمون ما أعلم .. فهل نترك حرفنا ووظائفنا لنجلس جميعا معلمين وأساتذة؟

قلت: فهل تعلمتم إذن لتصيروا رعاة؟

قال: العلم شيء .. والحرفة شيء آخر .. نحن نتعلم لوجه الله، وابتغاء مرضاة الله، ثم نكل إلى الله أحوالنا .. فإن شاء أن يجعلنا في زمر الأساتذة حمدنا الله على ذلك مع اعتقادنا بعظم المسؤولية المنوطة بنا .. وإن شاء أن يجعلنا رعاة غنم حمدنا الله، واعتقدنا فضل ما نحن فيه .. فلسنا أشرف من رسول الله ﷺ ولا أشرف من الأنبياء.

قلت: متى توقفت عن طلب العلم؟

القول الثاني: أنها الأجر الذي كان يتقاضاه على رعيه .. أي القيراط الذي هو جزء من الدينار أو الدرهم، ويدل لهذا ما ورد في رواية ابن ماجه، عن سويد بن سعيد، والإسماعيلي عن حسان بن محمد كلاهما عن عمرو بن يحيى: كنت أرعاها لأهل مكة بالقراريط قال سويد بن سعيد: يعني كل شاة بقيراط.

وقد رجح ابن حجر هذا القول لأن أهل مكة لا يعرفون بها مكانا يقال له قراريط.

وزعم بعضهم أن في قوله ﷺ في الرواية الأخرى: (وبعثت وأنا راعي غنم بأجياد) رد لتأويل سويد لأنه ما كان يرعى بالأجرة لأهله، فتعين أنه أراد المكان فعبر تارة بأجياد وتارة بقراريط.

وليس الرد بجيد إذ لا مانع من الجمع بأن يرعى لأهله بغير أجرة ولغيرهم بأجرة.

والمراد بقوله: (أهلي) أهل مكة فيتحد الخبران ويكون في أحد الحديثين بين الأجرة وفي الآخر بين المكان فلا تنافي في ذلك.. (انظر: فتح الباري وغيره)

([1]) رواه ابن سعد والبخاري وابن ماجه.

([2]) رواه البخاري ومسلم.

([3]) رواه أبو داود الطيالسي والبغوي وابن منده وأبو نعيم وابن عساكر عن بشر بن حرب البصري مرسلا، ورواه أحمد وعبد بن حميد عن أبي سعيد.

ابتسم، وقال: ومتى توقفت أنت عن أداء الصلاة؟

قلت: كيف تقول هذا؟ .. لقد كنت أحسبك ذا علم وذا عقل .. هل يجوز للمسلم أن يتوقف عن أداء الصلاة؟ .. إن الصلاة مفروضة في جميع الأحوال، ولو أن تؤديها بالإيماء.

قال: ومثلها العلم .. كلاهما فريضة من فرائض الله .. وكلاهما مما لا يجوز التوقف عن طلبه .. ألم تسمع قوله تعالى مخبرا عن دعاء النبي ﷺ :﴿ وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ (طه: ١١٤)، وقوله تعالى وهو يبين رفعة أهل العلم :﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩)، وقوله تعالى :﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (المجادلة: ١١)، وقوله تعالى وهو يحصر الخشية في أهل العلم :﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر: ٢٨)؟

وفوق ذلك .. فقد أخبر رسول الله ﷺ بأن العلم نوع من أنواع العبادة، بل هو من أفضلها، فقال:(أفضل العبادة الفقه، وأفضل الدين الورع)[1]، وصرح ﷺ بذلك فقال:(فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع)[2]

وقال ﷺ في حديث آخر:(قليل العلم خير من كثير العبادة، وكفى بالمرء فقها إذا عبد الله، وكفى بالمرء جهلا إذا أعجب برأيه)[3]

وقال ﷺ:(ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه) قال أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ وهو راوي الحديث: لأن أجلس ساعة فأفقه أحب إلي من أن أحيي ليلة القدر[4].

وقايس ﷺ بين بعض النوافل وبين طلب العلم، فقال لأبي ذر ــ رضي الله عنه ــ وقد رأى حرصه على النوافل :(يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم بابا من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلي ألف ركعة)[5]

وأخبر ﷺ أن تعليم العلم لا يختلف عن الصدقات، فقال:(أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم)[6]

ويروى أنه ذكر لرسول الله ﷺ رجلان: أحدهما عابد والآخر عالم، فقال ﷺ:(فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)، ثم قال رسول الله :(إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرض حتى النملة في

([1]) رواه الطبراني في معاجيمه الثلاثة وفي إسناده محمد بن أبي ليلى.

([2]) رواه الطبراني في الأوسط، والبزار بإسناد حسن.

([3]) رواه الطبراني في الأوسط وفي إسناده إسحاق بن أسيد وفيه توثيق لين، ورفع هذا الحديث غريب، قال البيهقي: ورويناه صحيحاً من قول مطرف بن عبد الله بن الشخير ثم ذكره.

([4]) رواه الدارقطني والبيهقي.

([5]) رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

([6]) رواه ابن ماجه بإسناد حسن من طريق الحسن عن أبي هريرة.

جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير)[1]

وطلب العلم لذلك دليل على خيرية العبد الطالب للعلم، بل دليل على اجتباء الله له، قال ﷺ:(من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)[2]، وقال ﷺ:(يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، و﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾(فاطر: من الآية٢٨))[3]

قلت: أراك تحفظ الكثير مما ورد في فضل العلم؟

قال: إن هذه الأحاديث وغيرها هي المحرك الذي حرك هممنا وحرك همم الأجيال الكثيرة من ورثة رسول الله ﷺ لطلب العلم .. فكيف لا أحفظها؟

قلت: من رواها لك .. أأخذتها من الثقاة العدول .. أم تراك أخذتها من المدلسين والضعفاء؟

نظر إلي بغضب، وقال: أتتهمني في ديني؟ .. كيف أرضى أن آخذ علم ديني وأقوال نبيي من المدلسين والضعفاء .. إن كل ما أرويه لدي أسانيده العالية إلى رسول الله ﷺ .. ولولا خشية الإطالة عليك لذكرتها لك سندا سندا .. وعرفتك برجالها رجلا رجلا ..

قلت: أنت محدث إذن .. فكيف ترضى بالرعي؟

قال: أراك تعود إلى ما بتتنا فيه .. أنا عبد لله .. وعبد الله لا يختار إلا ما اختار الله له .. ثم إن كل من تلاقيه من الرعاة والتجار والبنائين والخياطين يعلم ما أعلم، أو يعلم أكثر مما أعلم .. فهل يتركون حرفهم جميعا؟

قال ذلك، ثم انتبه إلى بعض نعجاته، وقد ابتعدت عن صواحبها، فأسرع إليها، وهو يحدو بقول الحافظ العراقي في ألفية السيرة:

مَـــــرُّوا علــــــى خَيمَـــــةِ أمِ مَعبَـــــدِ   وهْــــــيَ علَــــــى طـــــريقِهِمْ بمَرْصَـــــدِ

وعنــــــدَها شَـــــاةٌ أضـــــرَّ الجَهْـــــدُ   بِهـــــا ومـــــا بِهـــــا قــــوًى تَشــــتَدُّ

فَمَسَــــــحَ الــــــنبيُّ منــــــها الضَــــرْعَا   فَحَلَبَــــتْ مــــا قــــدْ كفَــــاهُمْ وُســــعَا

وَحَلَبَــــــتْ بعــــــدُ إنــــــاءً ءاخــــــرَا   تــــــرَكَ ذاكَ عنــــــدَها وَسَــــــافَرَا

جــــزى الله ربُّ النـــــاس خـــــيرَ جزائــــه   رفـــــيقين حَـــــلاَّ خيمتَـــــي أم معبـــــد

([1]) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه البزار من حديث عائشة مختصراً قال: «مُعَلِّمُ الْخَيْرِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْبَحْرِ».

([2]) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه.

([3]) رواه الطبراني في الكبير، وفي إسناده راوٍ لم يسمّ.

همـــــا نزلاهـــــا بالهــــدى فاهتــــدت بـــــه فقـــد فــــاز مـــــن أمســــى رفيـــق محمـــد

فمـــا حملــت مـــن ناقـــة فـــوق رَحْلِهــا أبـــــرّ وأوفى ذمــــــة مـــــن محمـــــد

عادت الشاة إلى حيث صواحبها، فاقتربت منه، وقلت: أرى الشاة قد أطاعتك، أترى فهمت ما كنت تقرؤه عليها؟

قال: وما يمنعها أن تفهم .. إن لله في خلقه من الأسرار ما لا تطيق عقولنا أن تحيط به.

قلت: لقد كنت تقرأ من ألفية العراقي في السيرة .. فما تحفظ منها؟

ابتسم، وقال: أحفظها ــ بحمد الله ــ جميعا ..

صحت متعجبا: أتحفظ ألف بيت كاملة؟

ابتسم، وقال: وما ألف بيت .. إنها أيسر علينا بحمد الله من شربة ماء ..

قال ذلك، ثم نظر إلي، وقال: إن الذي تراه أمامك يحفظ عشرات الآلاف من أبيات الشعر والنظم .. وأذكر أن أمي كانت تسكتني في صباي بألفية ابن مالك؟

قلت: أأمك تحفظها؟

قال: وكيف لا تحفظها؟ .. وما لها لا تحفظها؟ .. ألم تحفظ لنا الألفية النحو الذي نطق به رسول الله ﷺ؟

قلت: بلى ..

قال: فلذلك ترى الجميع يحفظها هنا.

قلت: أراكم انشغلتم بعلوم الآلات عن علوم المقاصد؟

قال: وما علوم المقاصد؟

قلت: حفظ القرآن الكريم مثلا .. أليس الأجدر بكم بذل الجهد في حفظه بدل حفظ الأشعار التي لا تصلح إلا للأسمار.

قال: نحن لا نتحدث عن حفظ القرآن ..

قلت: لم؟ .. لقد يسره الله للذكر، فكيف عسر عليكم؟

قال: أرأيت لو أن من أهل بلدك من راح يعدد في محفوظاته سورة الفاتحة، ويفخر بها .. ما ترى موقف الناس منه؟

قلت: سيضحكون من بلاهته.

قال: فهكذا الأمر عندنا .. لو راح أحدنا يذكر حفظه للقرآن لأضحك الناس عليه.

قلت: أبلغ بهم احتقار القرآن الكريم إلى هذه الدرجة؟

قال: لا .. هذا من تعظيم القرآن لا من احتقاره .. هم يعتقدون أن حفظه فريضة لا نافلة، ولا يحق لأحد

أن يزهو بأدائه الفريضة.

قلت: ما سر هذه الذاكرة العجيبة التي أوتيتموها من دون الناس؟

قال: نحن بحمد الله أخلصنا لله، وسلمنا أمورنا له .. ثم جلسنا بين أيدي ورثة رسول الله ﷺ نتأدب على أيديهم، وننهل من علومهم، وكأنا بين يدي رسول الله ﷺ فرزقنا الله من الفتوح على أيديهم ما لم نكن نحلم به.

قلت: فدلني عليهم .. فأنا لا همة لي في حياتي إلا البحث عن ورثة رسول الله ﷺ .

قال: هم كثيرون، فأيهم تطلب؟

قلت: لقد ذكر لي معلم الهداية فما لعل هذه الحاضرة هي بلده .. ولعل ورثتها هم حملة مشعله.

قال: إن كان قد ذكر لك الفم الذي طهر لسانه بماء الحقائق، وزين بمواثيق الرقائق، وعتق من سجون العلائق، فصار بين الناس كالبدر المتلألئ، تنشق له حجب الظلمات، وتندك له صروح الطغاة .. فهذه البلاد هي بلاده، وهذه الأرض هي أرضه، وهذه الحاضرة هي حاضرته.

قلت: بلى .. لقد ذكر لي هذا .. إنك تحفظ ما قاله حرفا حرفا .. فهل التقيت بمعلم الهداية؟

قال: دعك من الفضول، فما وصل للأصول من تعلق بالفضول.

قلت: فأين أجد حامل هذا المشعل من مشاعل الهداية النبوية؟

قال: اذهب إلى مركز هذه المدينة .. وزر أي محضرة من محاضرها .. وستجد كل واحد منهم فمه هو ذلك الفم .. ووظيفته هي تلك الوظيفة.

***

سرت إلى حيث أرشدني الراعي، وأنا ممتلئ عجبا وإعجابا .. لقد أزاح ذلك الراعي ما تراكم على نفسي من الهموم والأحزان .. بل جعلني أشعر بأن البئر التي تركها رسول الله ﷺ .. بل الآبار التي تركها .. لا تزال ممتلئة بالمياه العذبة التي يمكن أن تسقي كل من يفد إليها ليرتوي من ينابيعها.

لا يمكنني أن أحدثك عن كل من لاقيته من الأساتذة والطلبة .. ولكني سأكتفي برجلين من الورثة .. أما أحدهما، فعرفت من صحبتي له قيمة الأدب وارتباط العلم بالأدب والأخلاق والروحانية.

وأما الثاني، فعرفت من صحبتي له أنواع المعارف وقيمتها وعلاقتها بالهدي النبوي.

١ ـــ الآداب

أما أول الرجلين، فقد كان اسمه محمد الأمين[1] .. وكان رجلا ممتلئا بالحكمة والأدب والالتزام التام بالهدي النبوي ..

لقد كان أول رجل لاقيته عندما دخلت حاضرة (شنقيط) .. فقد دخلت أول محضرة من محاضر العلم فيها .. وقد كتب على بابها قوله تعالى :﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: ٧٩)

في مدخلها التقيته، وقد كان عليه سيما المتوسمين، ونور ورثة النبيين .. سلمت عليه، وقد أصابني من هيبته ما منعني من الاقتراب منه أو الحديث معه مع ما كان يظهر عليه من التواضع والبساطة.

لكنه دعاني، وقال: مرحبا بك في بلدك، وأمام أهلك .. ومبارك لك تخرجك من مدرسة الحوار الغزالية، فقل من يتخرج من تلك المدرسة هذه الأيام.

قلت: كيف عرفت ذلك؟ .. أنا لم أر أحدا لأخبره.

قال: ألم ينبهك الراعي إلى أن لا تسأل مثل هذه الأسئلة؟

قلت: أجل .. وأعتذر إليك .. لاشك أنك صاحبي الرابع الذي أرشدني إليه معلم الهداية.

قال: أنا أحدهم .. فكل من تراه في هذه المدينة ورثة من ورثة الهدي النبوي في التعليم .. ولذلك ترى بركاته علينا معشر الشناقطة.

قلت: بمن أبدأ منكم .. فإني الآن في متاهة ..

قال: بي تبدأ .. وبي يبدأ كل طلبة العلم في هذه الحاضرة من حواضر الإسلام.

قلت: لم؟

قال: أنا الذي أكسو الطلبة حلة أهل العلم .. ولا يمكن للطالب الذي لم يكتس بهذه الحلة أن يقبله أي معلم في هذه المدينة.

قلت: أعمامة هي تلك الحلة، أم قميص؟ .. وهل تشبه حلة الأزهر، أم تشبه حلة القرويين؟ .. أم تراها تشبه تلك الحلة التي أهداها الصالحي لمحمد الوارث[2]؟

---

(1) نشير به إلى العلامة الجليل محمد الأمين الشنقيطي (١٣٢٥ - ١٣٩٣هـ، ١٩٠٧ - ١٩٧٣م)، وهو عالم ومحقق ومفسر، ولد في بلاد شنقيط (موريتانيا الآن)، طلب العلم في سن مبكرة، فحفظ القرآن ودرس الفقه المالكي، ثم رحل إلى الحج، وآثر البقاء في البقاع المقدسة وما يحيط بها، حيث درس على شيوخها وتتلمذ على كثير من علمائها، تولى التدريس في المعاهد العلمية والكليات الشرعية في الرياض والمدينة، وكان ضمن هيئة كبار العلماء وعضوًا في رابطة العالم الإسلامي، ترك عدة كتب أبرزها تفسيره المشهور (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن) الذي وصل فيه إلى سورة المجادلة، وأتمه فيما بعد تلميذه الشيخ عطية سالم، ومنها (نثر الورود على مراقي السعود)، و(مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر)، و(آداب البحث والمناظرة)، انظر: الأعلام ٦ / ٤٥.

(2) ذكرناها في الرسالة السابقة.

قال: هذه الحلة هي حلة سيد المرسلين .. فلا يمكننا أن نلقن طالبا أي علم من العلوم ما لم يتحل بتلك الحلة المباركة.

قلت: فأين وجدتموها؟

قال: في هديه ﷺ .. وفي هدي ورثته من بعده .. فنحن ننهل منهما، ونربي عليهما، ونبدأ بهما.

قلت: فما أثواب هذه الحلة؟

قال: أربع .. ولا تكتمل الحلة إلا بها.

قلت: فما هي؟

قال: العبودية .. والمجاهدة .. والسمت .. والإفادة[1].

قلت: أهذه سنة سننتموها في هذه الحاضرة من حواضر الإسلام، أم هي هدي تلقاه سلفكم عن خلفكم؟

قال: بل هي هدي تلقاه سلفنا عن خلفنا .. لقد كانت الأمة جميعا، وإلى فترة قريبة لا تعرف في العلم إلا هذا الهدي[2] إلى أن غزتها شلة المراهقين، فحولت مدارسها إلى مدارس المشاغبين.

قلت: ولكني أرى أن مدراس المشاغبين أكثر تطورا من هذه المحاضر التي أراها في هذه المدينة؟

قال: نعم هي أكثر منها تطورا في العمران .. ولكنها أعظم انحدارا في الإنسان.

قلت: فلم لم تجعلوها متفوقة في العمران؟

قال: لقد قعدت بنا الفاقة دون ذلك .. ثم إنا رأينا أن أكثر ما في ذلك العمران ترف، ولا يمكن للطالب أن يجمع بين الحقائق والترف.

قلت: فهل تسمح لي أن أستفيد منك ما ذكرته من حلة طلاب العلم النبوية؟

قال: ذلك واجب علي وعليك .. على أن تلتحق بطلبة هذه المحضرة .. لتنهل من آدابها ما يؤهلك لسائر المحاضر.

([1]) استفدنا الكثير من الآداب التي نذكرها من كتاب (آداب العلماء والمتعلمين)، الحسين ابن المنصور اليمني، وغيرها من المراجع الكثيرة في هذا الباب.

([2]) ويدل لهذا كثرة ما ألف في هذا الباب من متون وشروح ومؤلفات، ومن بينها (الجامع) و(الفقيه والمتفقه) كلاهما للخطيب البغدادي، و(تعليم المتعلم طريق التعليم) للزرنوجي، و(آداب الطلب) للشوكاني، و(أخلاق العلماء) للآجري، و(آداب المتعلمين) لسحنون، و(الرسالة المفصلة لأحكام المتعلمين) للقابسي، و(تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة، و(الحث على طلب العلم) للعسكري، و(فضل علم السلف على الخلف) لابن رجب، و(جامع بيان العلم) لابن عبد البر، و(العلم فضله وطلبه) للأمين الحاج، و(فضل العلم) لمحمد أرسلان، و(مفتاح دار السعادة) لابن القيم، و(آداب العلماء والمتعلمين) للحسين بن منصور و(قانون التأويل) لابن العربي، و(مناهج العلماء) لفاروق السامرائي .. وغيرها كثير.

بالإضافة إلى الكتب الكثيرة المعاصرة في هذا الجانب.

العبودية

كان أول فرع من فروع الآداب بدأنا به دراستنا في محضرة الآداب هو فرع (العبودية)، وقد سألت الشنقيطي عن سر البدء بالعبودية، فقال: لقوله تعالى :﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق:١) .. فلا يمكن أن يتعلم من يتعلم إلا بتعليم الله .. ولا يحق لمن تعلم بتعليم الله أن يغفل عن الله، أويحاد الله، أو ينشغل بعلمه عن الله.

قلت: فما أركان العبودية التي سنتعلم آدابها في هذا القسم؟

قال: اثنان: التجرد، والعمل .. فلا تتحقق العبودية إلا لمن تجرد بعلمه لله، ثم عمل بما يقتضيه علمه لوجه الله.

قلت: فهل ستعلمني علوم ذلك؟

قال: اجلس مع زملائك من طلبة العلم، وستتعلم معهم أسرار هذين الركنين.

التجرد:

جلست مع زملائي في حلقة العلم، وقد بدا لي أنهم كلهم طلبة جدد، فلم يكن أحد منهم يعرف الآخر .. لم نلبث إلا قليلا، حتى جاء الشنقيطي، وسلم علينا بأدب وتواضع، ثم راح يردد قوله ﷺ :(إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[1]

ثم قال: إن هذا الحديث الذي دأب أهل العلم على استفتاح مجالسهم ومصنفاتهم به[2] هو الأساس الذي ينبغي أن تبدأ حياتكم به .. فلا يمكن للعالم ولطالب العلم أن يتحقق بعبودية العلماء حتى يعيشه ويتذوقه وتسير عليه حياته جميعا.

لقد ورد عن نبينا ﷺ الأحاديث الكثيرة المنبئة عن خطر قصد غير الله بطلب العلم، ففي الحديث الصحيح يصور رسول الله ﷺ مشهدا من مشاهد الآخرة، فيقول :(إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبك ولكنك قاتلت ليقال فلان جريء ، فقد قيل ثم أمر ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فرفعها قال : قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ومن قرآت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) قال النووي بعد روايته لهذا الحديث في كتابه (الأذكار) :(هذا حديث صحيح متفق على صحته ، مجمع على عظم موقعه وجلالته، وهو أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، وكان السلف وتابعوهم من الخلف ــ رحمهم الله ــ يستحبون استفتاح المصنفات بهذا الحديث ، تنبيها للمطالع على حسن النية ، واهتمامه بذلك والاعتناء به)

ثم ذكر من أقوالهم في ذلك قول عبد الرحمن بن مهدي ــ رحمه الله ــ :(من أراد أن يصنف كتابا، فليبدأ بهذا الحديث)، وقال الإمام أبو سليمان الخطابي ــ رحمه الله ــ:(كان المتقدمون من شيوخنا يستحبون تقديم حديث (الأعمال بالنية) أمام كل شئ ينشأ ويبتدأ من أمور الدين لعموم الحاجة إليه في جميع أنواعها) (انظر: الأذكار: ٦)

بن فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر فسحب على وجهه حتى ألقي في النار)[1]

وفي حديث آخر قال ﷺ :(ثلاثة مهلكون عند الحساب : جواد وشجاع وعالم)[2]

وقال ﷺ :(إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عنده فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك)[3]

وفي الحديث القدسي يقول ﷺ :(قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه ، إذا كان يوم القيامة أتي بصحف مختمة فتنصب بين يدي الله تعالى ، فيقول الله لملائكته : اقبلوا هذا وألقوا هذا ، فتقول الملائكة: وعزتك ما رأينا إلا خيرا ، فيقول : نعم لكن كان لغيري ولا أقبل اليوم إلا ما ابتغي به وجهي)[4]

وفي رواية أخرى:(إذا كان يوم القيامة يجاء بالأعمال في صحف مختمة، فيقول الله ـــ عز وجل ـــ: اقبلوا هذا وردوا هذا ، فتقول الملائكة وعزتك ما كتبنا إلا ما عمل ، فيقول : إن عمله كان لغير وجهي ، وإني لا أقبل اليوم إلا ما كان لوجهي)

وفي رواية أخرى مرسلة :(إن الملائكة يرفعون عمل العبد من عباد الله يستكثرونه حتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه فيوحي الله إليهم : إنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه ، إن عبدي هذا لم يخلص لي في عمله فاجعلوه في سجين ، ويصعدون بعمل العبد يستقلونه ويحقرونه حتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه فيوحي إليهم إنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على نفسه ، إن عبدي هذا أخلص لي عمله فاجعلوه في عليين)[5]

وفي حديث آخر قال ﷺ :(إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة)[6]

وفي حديث آخر قال ﷺ :(تعوذوا بالله من جب الحزن واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة يدخله القراء المراءون بأعمالهم ، وإن أبغض القراء إلى الله تعالى الذين يزورون الأمراء)[7]

قال بعض الطلبة: فكيف نتقي هذا الخطر العظيم الذي يهدد أهل العلم؟

قال: لا يتحقق ذلك إلا بأن تتجردوا لله، فلا تقصدوا بعلمكم أي غرض دنيوي، من تحصيل مال أو جاه

([1]) رواه مسلم عن أبي هريرة ، ورواه الترمذي بمعناه و قال في آخره :(ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي ، فقال : يا أبا هريرة : أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة)

([2]) رواه الحاكم.

([3]) رواه وأحمد والترمذي وابن ماجه.

([4]) رواه مسلم وابن ماجه.

([5]) رواها ابن المبارك.

([6]) رواه ابن ماجه.

([7]) رواه البخاري في التاريخ ، والترمذي وابن ماجه.

أو شهرة أو سمعة أو تميز عن الأقران .. وغير ذلك مما تشتهيه النفوس ..

قلت: ألا ترى ــ يا شيخنا الجليل ــ أن ذلك قد يقف بعجلة العلم؟

قال: و لم؟

قلت: نحن نرى في واقعنا أن طلبة العلم لا يستحثهم إلا الجاه، والشهادات العالية، والمناصب الرفيعة، والأموال التي تدر عليهم من كل محل .. وفوق ذلك كله نيلهم الجوائز العالمية الكبرى التي يسيل لها لعاب الحريصين.

قال: لا حرج أن يسلم الطالب المجد، والعالم الفحل كل تلك الجوائز .. ولكن الخطر الكبير في أن يقصدها.

قلت: ما الفرق بينهما؟

قال: لقد فرق رسول الله ﷺ بينهما عندما قيل له: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ فقال: (تلك عاجل بشرى المؤمن)[1]

قلت: فما سر هذا التفريق؟

قال: عندما تقصد شيئا، وتجعله هدفا بين عينيك، فإنك لن تتحرك إلا من خلاله، وذاك يحجزك عن خير كثير .. وقد يضعك بين يدي شر كثير.

قلت: فاضرب لي مثالا على ذلك.

قال: لقد كنت في المدرسة الغزالية .. ولعلك سمعت الغزالي، وهو يقول :(كم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة، ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاترون على علم الفقه لاسيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع؛ فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولي الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء؟)[2]

قلت: بلى .. سمعت هذا.

قال: أرأيت لو أن هؤلاء الطلبة الذين انشغلوا بما كفوا .. وضعوا بين أعينهم طاعة الله، فراحوا يبحثون في فروض الأعيان والكفاية ما يحققها .. هل ترى مثل هؤلاء يتركون لأهل الذمة الانشغال بهذه العلوم دونهم؟

قلت: لا .. لا أحسبهم يفعلون ذلك ..

قال: وحينذاك ستكفى الأمة هذه الناحية كما تكفى غيرها من النواحي، ولا يتحقق ذلك إلا ببركة الإخلاص والتجرد.

قلت: صحيح ما ذكرت .. ولو أنهم فعلوا ذلك لكنا الآن أحسن حالا .. ولكن الوضع الآن مختلف.

---

(1) رواه مسلم.
(2) إحياء علوم الدين: ١/ ٢١ .

قال: لا .. الوضع واحد .. الإنسان واحد في جميع الأزمان.

قلت: كيف ذلك .. ونحن نرى أن أكثر ما وصلنا إليه من تطور لم نصل إليه إلا ببركات حب الجاه والمال والشهرة؟

قال: ولكن شؤم حب المال والجاه والشهرة جعل هذا التطور الذي تفخر به البشرية تطورا ممحوق البركة .. ولو أنها رعته بالإخلاص والتجرد لكان شأنها الآن مختلفا تماما.

قلت: كيف ذلك؟

قال: نحن ننظر إلى ما أوتينا، ولم ننظر إلى ما لم نؤت .. فانشغلنا بما أوتينا، وتصورنا أنه النهاية .. ولو فكرنا فيما لم نؤت مع قدرتنا على أن يكون لنا لاعتبرنا أنفسنا متخلفين لا متقدمين، وفقراء لا أغنياء، وجهلة لا متعلمين.

قلت: كيف ذلك؟

قال: سأضرب لك مثالا على ذلك .. ألا ترى أن الشركات والأفراد .. وكل مراكز البحث تحتكر الكثير من بحوثها .. بل تشح به حتى يبقى غيرها تابعا لها .. وحتى تنسب براءات الاكتشاف والاختراع إليها لا إلى غيرها.

قلت: أجل .. أرى ذلك.

قال: ألا ترى أن ذلك يقف في وجه البحث العلمي؟

قلت: بلى ..

قال: وكيف يكون الحال لو أن هذه الجهات تحلت بالإخلاص، فراحت تنشر بصدق كل ما توصلت إليه من علم، لا يهمها هل نسب إليها أم لم ينسب؟

قلت: حينها يختلف الوضع تماما .. حينها ستتحول الأرض جميعا إلى مركز أبحاث موحد .. وحينها سيكون الإنتاج العلمي مضاعفا.

قال: ذلك بعض بركات الإخلاص ..

قلت: وما جميع بركاته؟

قال: الإخلاص يحول بين العلماء وطلبه العلم وبين الأهواء .. فلذلك سيخدم العلم الحاجات التي تتطلبها الحكمة، لا الحاجات التي يتطلبها الهوى.

قلت: وحينها ماذا سيحصل؟

قال: حينها لن تكون هناك قنابل نووية، ولا تلوث بيئة، ولا انحراف إنترنت، ولا قنوات ماجنة، ولا صحف فضائح ..

قلت: تقصد أن يمتلئ العالم بالسلام.

قال: أجل .. حينها يعم السلام الذي جاء به الإسلام العالم .. فلن تشعر البشرية بلذة السلام إلا في رحاب الإسلام.

قلت: كل ما ذكرته جميل .. ولكن .. ألم تقرأ ما ذكر الغزالي من أن الجاه محبوب بالطبع؟

قال: بلى .. قرأت ذلك.

قلت: أتريد منا أن نقهر طبعنا، أم تريد من البشرية أن تتمرد على الفطرة التي فطرت عليها.

قال: لقد ذكر لنا نبينا ﷺ ما نملأ به هذه الفطرة .. وبما هو أكمل وأعظم من كل جاه ومنصب.

قلت: فحدثني حديث ذلك.

قال: من ذلك ما أخبر ﷺ عنه وهو يعدد فضل طالب العلم، فقال:(من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السم؟وات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[1]

وقال ﷺ:(ما من رجل تعلم كلمة، أو كلمتين، أو ثلاثا، أو أربعا، أو خمسا مما فرض الله عز وجل فيتعلمهن ويعلمهن إلا دخل الجنة)[2]

ويخبر ﷺ عن بعض صور التكريم التي يقابل بها الملأ الأعلى أهل العلم، فعن صفوان بن عسال المرادي ــ رضي الله عنه ــ قال: أتيت النبي وهو في المسجد متكيء على برد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله إني جئت أطلب العلم، فقال: (مرحبا بطالب العلم إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب)[3]

بل إنه ﷺ يرفع درجة أهل العلم إلى درجة الأنبياء، فيقول:(من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقي الله و لم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة)[4]

أما الأجور المعدة لأهل العلم، فإنها أضعاف مضاعفة، قال ﷺ :(من طلب علما فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر، ومن طلب علما فلم يدركه كتب الله له كفلا من الأجر)[5]

وروي عن أبي ذر، وأبي هريرة ــ رضي الله عنهما ــ أنهما قالا :(لباب يتعلمه الرجل أحب إلي من ألف ركعة تطوعا)، وقالا: قال رسول الله : (إذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحالة مات وهو شهيد)[6]

ومن أجور العلم أنه يكفر الذنوب، مر رجلان على رسول الله ﷺ ، وهو يذكر فقال: (اجلسا فإنكما

([1]) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي، وقال الترمذي: لا يعرف إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة، وليس إسناده عندي بمتصل، وإنما يروى عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء عن النبيّ وهذا أصح. الترغيب والترهيب: ٥٩/١.

([2]) رواه أبو نعيم، وإسناده حسن لو صح سماع الحسن من أبي هريرة.

([3]) رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد واللفظ له، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وروى ابن ماجه نحوه باختصار.

([4]) رواه الطبراني في الأوسط.

([5]) رواه الطبراني في الكبير، ورواته ثقات وفيهم كلام.

([6]) رواه الطبراني في الكبير، ورواته ثقات وفيهم كلام.

على خير)، فلما قام رسول الله، وتفرق عنه أصحابه قاما فقالا: يا رسول الله إنك قلت لنا: اجلسا فإنكما على خير، ألنا خاصة أم للناس عامة، قال: (ما من عبد يطلب العلم إلا كان كفارة ما تقدم)[1]

ومن أكبر ميزات أجر العلم أن أجره غير منقطع، قال ﷺ :(إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[2]

وفي حديث آخر مفصل، قال رسول الله ﷺ:(إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علما علمه ونشره وولدا صالحا تركه أو مصحفا ورثه، أو مسجدا بناه أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته)[3]

وفوق هذا .. فقد ورد في حديث اختلف العلماء في رفعه ووقفه ــ وقد كان شيخنا الوارث يرى أن كلا الأمرين متقاربين، فكل ما ورد فيه مما ورد التنصيص عليه، وقول الصحابة أثر من آثار النبوة وهدي من هديها ــ وهذا الحديث هو ما حدث به معاذ بن جبل ــ رضي الله عنه ــ قال :(تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة لانه معالم الحلال والحرام ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة قائمة تقتص آثارهم ويقتدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء)[4]

العمل:

بقينا فترة مع الشنقيطي نتعلم أسرار التجرد لطلب العلم حتى شعرنا بأنفسنا ترق، وبعقولنا تتقدس، وبأرواحنا تطمح إلى ما طمحت إليه أرواح الهمم العالية ..

بعد أن رأى الشنقيطي منا ذلك، قال في حلقة من الحلقات، بعد أن أجرى لنا بعض الاختبارات: مبارك لكم فهمكم لسر الإخلاص والتجر .. فهلموا إلى العمل .. فلا ينفع الإخلاص من دون عمل.

لقد ورد في النصوص الكثيرة عن رسول الله ﷺ اعتبار العمل ركنا من أركان العلم النافع .. فلا يكمل

---

(1) رواه البزار والطبراني في الأوسط، إلا أنه قال: «خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَلْفِ رَكْعَةٍ».

(2) رواه مسلم وغيره.

(3) رواه ابن ماجه بإسناد حسن والبيهقي، ورواه ابن خزيمة في صحيحه مثله إلا أنه قال: أَوْ نَهَراً كَرَاهُ، وقال: يعني حفره ولم يذكر المصحف.

(4) رواه ابن عبد البر في كتاب العلم من رواية موسى بن محمد بن عطاء القرشي، حدثنا عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن الحسن عنه وقال: هو حديث حسن ولكن ليس له إسناد قوي، وقد رويناه من طرق شتى موقوفا، قال المنذري : ورفعه غريب جدًّا، والله أعلم.

العلم إلا بالعمل، كما لا يصلح العمل إلا بالعلم.

ولهذا كان ﷺ يستعيذ من العلم الذي لا ينفع، وهو العلم الذي لا يستفيد منه صاحبه عملا صالحا يقربه إلى ربه، قال ﷺ :(اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها)[1]

وأخبر ﷺ عن بعض مشاهد المعاناة التي يجدها من لم يعمل بعلمه، فقال :(يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: يا فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن الشر وآتيه)[2]

وقال ﷺ :(الزبانية أسرع إلى فسقة القراء منهم إلى عبدة الأوثان، فيقولون: يبدأ بنا قبل عبدة الأوثان؟ فيقال: لهم ليس من يعلم كمن لا يعلم)[3]

وقال ﷺ :(إن أناسا من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار فيقولون: بم دخلتم النار، فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم ؟ فيقولون: إنا كنا نقول ولا نفعل)[4]

وقال ﷺ :(كل علم وبال على صاحبه إلا من عمل به)[5]

وقال ﷺ :(أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه)[6]

وأخبر ﷺ أن من الأسئلة الخطيرة التي يسأل عنها العبد يوم القيامة، وعلى أساسها يقرر مصيره، سؤاله عن علمه فيما عمل فيه، قال ﷺ :(لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه فيم فعل ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه)[7]

وقال ﷺ :(لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وماذا عمل فيما علم)[8]

وقال ﷺ :(ما من عبد يخطب خطبة إلا الله عز وجل سائله عنها ما أراد بها)[9]، قال جعفر: كان مالك بن دينار إذا حدث بهذا الحديث بكى حتى ينقطع، ثم يقول : تحسبون أن عيني تقر بكلامي عليكم، وأنا أعلم

(1) رواه مسلم وغيره.
(2) رواه البخاري ومسلم.
(3) رواه الطبراني وأبو نعيم وقال: غريب، قال الحافظ المنذري : ولهذا الحديث مع غرابته شاهد صحيح، وهو ما في الحديث السابق في مبحث الرياء :(أول من يدعى يوم القيامة رجل جمع القرآن ليقال له قارئ)وفي آخره :(أولئك الثلاثة نفر أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة)
(4) رواه الطبراني في الكبير.
(5) رواه ابن حبان وفي سنده من تكلم فيه.
(6) رواه الطبراني والبيهقي.
(7) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.
(8) رواه الترمذي بسند حسن في المتابعات.
(9) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي مرسلا بإسناد جيد عن الحسن.

أن الله ــ عز وجل ــ سائلي عنه يوم القيامة ما أردت به.

ولهذا اعتبر ﷺ من لم يعمل بعلمه شر الناس، فقد سئل ﷺ : يا رسول الله أي الناس شر؟ فقال ﷺ :(اللهم اغفر ، سل عن الخير ولا تسل عن الشر ، شرار الناس شرار العلماء)[1]

وفي الحديث عن عمار بن ياسر ــ رضي الله عنه ــ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى حي من قيس أعلمهم شرائع الإسلام، قال: فإذا هم قوم كأنهم الإبل الوحشية طامحة أبصارهم ليس لهم هم إلا شاة أو بعير، فانصرفت إلى رسول الله ﷺ فقال: يا عمار ما عملت؟ فقصصت عليه قصة القوم وأخبرته بما فيهم من السهوة، فقال : (يا عمار ألا أخبرك بأعجب منهم؟ قوم علموا بما جهل أولئك، ثم سهوا كسهوهم)[2]

وشبه رسول الله ﷺ من يعلم الناس الخير، وينسى نفسه بالسراج الذي يضيء لغيره، وهو يحرق نفسه، قال ﷺ :(مثل الذي يعلم الناس الخير، وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه ..)[3]

بل إنه ﷺ ــ وفق ذلك كله ــ سماه منافقا، فقال:(إني لا أتخوف على أمتي مؤمنا ولا مشركا، فأما المؤمن فيحجزه إيمانه، وأما المشرك فيقمعه كفره، ولكن أتخوف عليكم منافقا عليم اللسان، يقول ما تعرفون، ويعمل ما تنكرون)[4]

وفي حديث آخر نفى ﷺ الإيمان على من لم يجمع بين العلم والعمل، فقال :(ما آمن بالقرآن من استحل محارمه)[5]

قلت: ما سر هذا التشدد الذي ورد في النصوص المقدسة على المزج بين العلم والعمل؟

قال: لقد كنت في المدرسة الغزالية، ولعلك سمعت الغزالي، وهو يقول عند ذكره لأصناف الغرور والمغترين .. لقد قال :(ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار؛ المشغولين بالفسق والفجور القاصرين هممهم على مماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى، وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائباً عن الدجال يتكالب على الدنيا، ويتبع الهوى عن التقوى، ويستجرئ الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله تعالى، ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضاً آلة ووسيلة في الشر وإتباع الهوى، ويتسلسل ذلك، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده، ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله وفي مطعمه وملبسه ومسكنه، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلاً وألفي سنة، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، ثم العجب من جهله حيث يقول: (إنما الأعمال بالنيات)[6]، وقد قصدت بذلك نشر علم

([1]) رواه البزار، وهو غريب.

([2]) رواه البزار والطبراني.

([3]) رواه الطبراني بسند حسن.

([4]) رواه الطبراني بسند فيه الأعور ، وثقه ابن حبان وغيره.

([5]) رواه الترمذي وقال: إسناده ليس بالقوي.

([6]) رواه البخاري ومسلم.

الدين؛ فإن استعماله هو الفساد، فالمعصية منه لا مني، وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير، وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك في قلبه، والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه، وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفاً من قاطع طريق وأعد له خيلاً وأسباباً يستعين بها على مقصوده؛ ويقول إنما أردت الذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة؛ وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله تعالى، فإن إعداد الخيل والرباط والقوة للغزاة من أفضل القربات، فإن صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي)[1]

قلت: بلى .. سمعته يذكر ذلك .. وسمعته يذكر ــ مع ذلك ــ تشدد الورثة في هذا الباب .. فقد ذكر أن عمر ــ رضي الله عنه ــ قال : إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محب يخوض فيما أحب.

وذكر أن رجلا قال لأبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال: (كفى بترك العلم إضاعة له)

وقال ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ : ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم الخشية.

وقال : سيأتي على الناس زمان تملح فيه عذوبة القلوب، فلا ينتفع بالعلم يومئذ عالمه ولا متعلمه، فتكون قلوب علمائهم مثل السباخ من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء، فلا يوجد لها عذوبة، وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة، فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة ويطفىء مصابيح الهدى من قلوبهم، فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله بلسانه والفجور ظاهر في عمله، فما أخصب الألسن يومئذ وما أجدب القلوب! فوا الله الذي لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله تعالى والمتعلمين تعلموا لغير الله تعالى.

وقال : أنزل القرآن ليعمل به فاتخذتم دراسته عملاً، وسيأتي قوم يثقفونه مثل القناة ليسوا بخياركم والعالم الذي لا يعمل كالمريض الذي يصف الدواء وكالجائع الذي يصف لذائذ الأطعمة ولا يجدها.

وقال أبو الدرداء ــ رضي الله عنه ــ : ويل لمن لا يعلم مرة وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات.

وقال حذيفة ــ رضي الله عنه ــ : إنكم في زمان من ترك فيه عشر ما يعلم هلك، وسيأتي زمان من عمل فيه بعشر ما يعلم نجا وذلك لكثرة البطالين.

وقال الحسن: تعلموا ما شئتم أن تعلموا فوالله لا يأجركم الله حتى تعملوا فإن السفهاء همتهم الرواية والعلماء همتهم الرعاية.

وقال: لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجري في العمل مجرى السفهاء.

وقال : عقوبة العلماء موت القلب، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة.

وقيل لإبراهيم بن عيينة: أي الناس أطول ندماً؟ قال:أما في عاجل الدنيا، فصانع المعروف إلى من لا يشكره، وأما عند الموت فعالم مفوط.

وقال سفيان الثوري : يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل.

---

(1) إحياء علوم الدين: ٤/٣٦٩.

وقال الفضيل ابن عياض: إني لأرحم ثلاثة: عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر، وعالماً تلعب به الدنيا.

وقال يحيى بن معاذ: إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب بهما الدنيا.

وكان يقول لعلماء الدنيا: يا أصحاب العلم قصوركم قيصرية وبيوتكم كسروية واثوابكم ظاهرية وأخفافكم جالوتية ومراكبكم قارونية وأوانيكم فرعونية ومآثمكم جاهلية ومذاهبكم شيطانية فأين الشريعة المحمدية؟ وقال سعيد بن المسيب : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فهو لص.

وقال مالك بن دينار : قرأت في بعض الكتب السالفة إن الله تعالى يقول إن أهون ما أصنع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتي من قلبه.

وكتب رجل إلى أخ له: إنك قد أوتيت علماً فلا تطفئن نور علمك بظلمة الذنوب، فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور عملهم.

وقيل لبعض العارفين: أترى أن من تكون المعاصي قرة عينه لا يعرف الله؟ قال: لاشك أن من تكون الدنيا عنده آثر من الآخرة أنه لا يعرف الله تعالى.

وقال سهل : العلم كله دنيا والآخرة منه العمل به والعمل طله هباء إلا الإخلاص.

وقال: الناس كلهم موتى إلا العلماء والعلماء سكارى إلا العاملين والعاملون كلهم مغرورون إلا المخلصين والمخلص على وجل حتى يدري ماذا يختم له به.

وقال صالح بن كيسان البصري: أدركت الشيوخ وهم يتعوذون بالله من الفاجر العالم بالسنة.

وقال سرى السقطي: اعتزل رجل للتعبد كان حريصاً على طلب علم الظاهر فسألته فقال: رأيت في النوم قائلاً يقول لي :(إلى كم تضيع العلم ضيعك الله)، فقلت: إني لأحفظه، فقال :(حفظ العلم العمل به)، فتركت الطلب وأقبلت على العمل.

وقال مالك : إن طلب العلم لحسن، وإن نشره لحسن إذا صحت فيه النية، ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فلا تؤثرون عليه شيئاً.

وقال الأوزاعي : شكت النواويس ما تجد من نتن جيف الكفار فأوحى الله إليها: بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه.

وقال الفضيل بن عياض : بلغني أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان.

وقال حاتم الأصم: ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علماً فعملوا به و لم يعمل هو به ففازوا بسبب وهلك هو.

وقال مالك بن دينار: إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا.

وقال إبراهيم بن أدهم: مررت بحجر بمكة مكتوب عليه (اقلبني تعتبر)، فقلبته فإذا عليه مكتوب أنت بما تعلم لا تعمل فكيف تطلب علم ما لم تعلم؟

وقال ابن السماك : كم من مذكر بالله ناس لله! وكم من مخوف بالله جريء على الله: وكم من مقرب إلى الله بعيد من الله! وكم من داع إلى الله فار من الله! وكم من تال كتاب الله منسلخ عن آيات الله!

وقال إبراهيم بن أدهم : لقد أعربنا في كلامنا فلم نلحن ولحنا في أعمالنا فلم نعرب.

وقال بعضهم: يكون في آخر الزمان علماء يزهدون الناس في الدنيا ولا يزهدون، ويخوفون الناس ولا يخافون، وينهون عن غشيان الولاة ويأتوهم، ويؤثرون الدنيا على الآخرة يأكلون بألسنتهم، يقربون الأغنياء دون الفقراء، يتغايرون على العلم كما تتغاير النساء على الرجال؛ يغضب أحدهم على جليسه إذا جالس غيره، أولئك الجبارون أعداء الرحمن.

قال طالب كان يجلس بجانبي: وسمعته يحدثنا من أحاديث الأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ في هذا مما وردت به الآثار، فذكر أن عيسى ﷺ قال: (مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر لا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع، ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها جص وباطنها نتن، ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى)

وذكر لنا عنه قوله :(كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته، وهو مقبل على طريق دنياه، وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به؟)

وقال: (مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت في السر فحملت فظهر حملها، فافتضحت فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد)

وفي أخبار داود ﷺ حكاية عن الله تعالى :(إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي، يا داود لا تسأل عني عالماً قد أسكرته الدنيا، فيصدك عن طريق محبتي، أولئك قطاع الطريق على عبادي، يا داود إذا رأيت لي طالباً فكن له خادماً؛ يا داود من رد إلي هارباً كتبته جهبذاً، ومن كتبته جهبذاً لم أعذبه أبداً)

وذكر لنا أن رجلاً كان يخدم موسى ﷺ، فجعل يقول: حدثني موسى صفي الله، حدثني موسى نجي الله، حدثني موسى كليم الله، حتى أثرى وكثر ماله، ففقده موسى ﷺ فجعل يسأل عنه، ولا يحس له خبراً حتى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خترير وفي عنقه حبل أسود، فقال له موسى ﷺ : أتعرف فلاناً؟ قال: نعم، قال: هو هذا الخترير، فقال موسى: يا رب أسألك أن ترده إلى حاله حتى أسأله بم أصابه هذا؟ فأوحى الله عز وجل إليه: لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه، ولكن أخبرك لم صنعت هذا به؟ لأنه كان يطلب الدنيا بالدين.

قال الشنقيطي: أتدرون سر كل هذه التشديدات؟

قلنا: ما سرها؟

قال: شيئان: أما أحدهما، فيرتبط بالعالم الذي انشغل بالعلم عن العمل، وأما الثاني، فبالذين يرون العالم، ويسمعون منه.

قلنا: فحدثنا عن الأول.

قال: لقد ضرب الله تعالى لذلك مثلين، فقال في أولهما :﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ

إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (لأعراف:١٧٥ ـــ ١٧٦)، فهو مثال على من تبحر في علوم كثيرة، ربما نال منها ثمرات غيرت مسار حياته المادية، ولكنه لم يلتفت إلى حقيقته التي تحولت كلبا إن تحمله يلهث أو تتركه يلهث، انسلخ من إنسانيته لأنه انسلخ قبل ذلك من آيات ربه.

ولذلك ورد في الآثار تشبيهه بالسراج الذي يضيئ لغيره، بينما هو يحترق.

أما الثاني، فقوله تعالى عن بني إسرائيل :﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الجمعة:٥)، فبنو إسرائيل حملوا كتبهم وعرفوا ما فيها، ولكنهم نسوا ما فيها من الهدي، و لم يشتغلوا بما يخرج حقيقتهم عن البهيمية التي أوقعتها فيها شهواتهم.

قلت: فكيف تطبق هذين المثلين على ما ورد في النصوص المقدسة من عقوبة الذي لم يعمل بعلمه؟

قال: إن القرآن الكريم يخبرنا عن الحقيقة من منبعها الصافي .. هو لا يستعمل ألوان الطلاء التي نملأ بها حياتنا خداعا وغرورا .. إنه يواجهنا بالحقيقة .. إنه يقول بصراحة لمن تعلم العلوم الكثيرة، واجتهد في أن يقرأ المجلدات الضخمة: تريث قليلا، وانظر إلى نفسك في مرآة الحقائق، واقرأها .. ولا تنشغل بالقراءة عنها، فلعلك تجد فيها من الأدواء ما يعيد لها استقامتها وصحتها وعافيتها.

قلت: ولكن القرآن الكريم يشبه هذا الذي يصيح فيه بهذا بالحمار والكلب؟

قال: أجل .. إنه يقول له: إن لم تفعل ذلك، فلا فرق بينك وبين الحمار والكلب.. فالحمار يحمل العلوم لكنه لا يستوعبها، ولا يعيشها .. والكلب ليس له من هم إلا اللهث، إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث.

وهكذا طالب العلم الذي يظل يلهث وراء العلوم غافلا عن التحقق بها، أو لاهثا وراء مكاسب العلوم المرتبطة بالطين، غافلا عن مكاسب العلوم المرتبطة بحقيقته.

قلت: ولكن كيف يهان العالم وطالب العلم كل هذه الإهانة؟

قال: هو الذي أهان نفسه ..

قلت: كيف ذلك؟

قال: أرأيت لو لقنا آلة جميع المعارف والعلوم .. ووهبنا لها من الذكاء من الاصطناعي ما يجعلها تستطيع أن تقوم بأي عمل .. هل يخرجها ذلك من كونها آلة؟

قلت: لا .. نعم هي آلة ثمينة .. ولكنها تظل آلة .. ولو عرضت نفسها على المرآة، فلن ترى غير آلة.

قال: فهكذا العالم الذي لم يعمل بعلمه .. إنه كسائر الناس .. له شهواتهم وأهواؤهم ومطامحهم، هو في الظاهر اختلف عنهم بعلمه، لكنه في الحقيقة بقي هو هو .. بل ربما يكون قد غذى لطائفه بالكبر والخداع والغش، فزاد في انحرافه على انحراف العوام .. ولذلك إذا ذهب إلى محكمة الله، فإنه لن يرى في مرآتها إلا حقيقته التي سترها بالألفاظ التي أجاد استعمالها والتلاعب بها.

قلنا: وعينا هذا .. وأدركنا خطره .. فحدثنا عن السر الثاني المرتبط بالذين يرون العالم، ويسمعون منه.

قال: هذا مما يزيد طين العالم بلة .. إن العالم في هذا المحل كاللص، بل هو أخطر من ذلك .. هو كالمجرم .. لا .. بل هو كالمحارب .. بل هو أعظم من ذلك بكثير.

قلنا: كيف ذلك؟

قال: لقد عبر عمر ــ رضي الله عنه ــ عن ذلك، فقال: (إذا زل العالم زل بزلته عالم من الخلق)، وقال :(ثلاث بهن ينهدم الزمان إحداهن زلة العالم)

وعبر عن ذلك معاذ ــ رضي الله عنه ــ فقال :(احذروا زلة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم فيتبعونه على زلته)

قلت: زلة العالم هي خطؤه في علمه .. وخطؤه لا علاقة له بسلوكه .. ففرق بين الخطأ والخطيئة.

قال: الزلة زلتان: زلة الخطأ وزلة الخطيئة، وكلاهما مما لا ينجو منهما من لم يعمل بعلمه ..

لقد أشار الله تعالى إلى ذلك، فقال :﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (الحديد:١٦)

وبين في موضع آخر سبب قسوة قلوبهم، فقال :﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة:١٣)

لقد ذكر الله في هاتين الآيتين أن أول ما يصيب العالم قسوة القلب .. ذلك أن مقصد العلوم تهذيب الطباع وتليين القلوب .. فمن لم يلن قلبه مع أدوية العلوم، فلن يلين أبدا.

قلت: عرفت قسوة القلب .. وهي الخطيئة .. فأين زلة الخطأ؟

قال: لقد ذكرت الآية الثانية ذلك .. لقد ذكرت أن قسوة القلب أورثت فيهم خصلتين مذمومتين: أما إحداهما، فتحريف الكلم من بعد مواضعه .. وأما الثانية، فنسيانهم حظاً مما ذكروا به.

قلت: كيف ذلك؟

قال: العالم الذي لم يعمل بعلمه، سيجعل من علمه شباكا تصيد له ما يطلبه هواه، فلذلك قد يكتم ما أمر بنشره، وقد يحرف ما أمر بحفظه.

قلت: تقصد الفتاوى الضالة؟

قال: وأقصد الخطب الضالة والمواعظ الضالة والاحتساب الضال .. إن الانحراف يدخل على كل مشاعل الهداية إذا انحرف صاحبها.

قلت: أهذه فقط زلة الخطأ؟

قال: هناك زلة أخطر وأعمق .. إن الناس لا يسمعون بقدر ما يرون .. فلذلك تجدهم يتأثرون بسلوك العالم أكثر من تأثرهم بكلماته .. ومثل هذا العالم لن ينتج إلا المنحرفين.

وهناك صنف أخطر وأعظم يحول من العالم المنحرف معولا يهدم به الحقائق.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألا ترى كيف تنهار الأحزاب الكبرى نتيجة للفضائح التي يقع فيها رؤساؤها؟

قلت: ذلك صحيح.

قال: فالعالم ــ في أذهان الناس ــ ممثل للدين وللقيم، فإذا انحرف كان ذلك فرصة لمن يريد ضرب الدين أو تشويهه.

قال بعض الطلبة: لقد روي في هذا أن رجلا قال لابن عباس ــ رضي الله عنه ــ: أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، فقال :(إن لم تخش أن تفضحك هذه الآيات الثلاث فافعل، وإلا فابدأ بنفسك، ثم تلا :﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ) (البقرة:٤٤)، وقال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ (الصف)، وقوله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام :﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)(هود: من الآية٨٨)[١]

قال آخر: إن أذن لي سيدي أنشدته من الأشعار ما يؤيد كل ما ذكره من فنون الحكمة.

قال الشنقيطي: أنشدنا، فقد قال رسول الله ﷺ :(إن من البيان سحرا ، وإن من الشعر حكما)[٢]

قال الطالب: لقد أنشد بعضهم يقول:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها

أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهداً فالموبقات لعمري أنت جانيها

تعيب ديناً وناساً راغبين لها وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال آخر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال آخر:

---

(١) وهذا ليس على الإطلاق، فالأرجح من أقوال الفقهاء عدم اشتراط عدالة الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، وإن كان ذلك هو الأكمل والأفضل .

وذلك أنه لو لم يعظ الناس إلا معصوم أو محفوظ لتعطل الأمر والنهي مع كونه دعامة الدين، وقد قيل في هذا:

إذا لم يعظ الناس من هو مذنب فمن يعظ العاصين بعد محمد

وروى ابن أبي الدنيا بإسناد فيه ضعف عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قوله:(مروا الناس بالمعروف وإن لم تعملوا به كله، وانهوا عن المنكر وإن لم تتناهوا عنه كله)

وقيل للحسن البصري : إن فلانا لا يعظ، ويقول أخاف أن أقول ما لا أفعل، فقال الحسن : وأينا يفعل ما يقول؟ ود الشيطان أنه قد ظفر بهذا فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر .

(٢) رواه أحمد وأبو داود وغيرهما.

عجبت لمن يبكي على موت غيره دموعا ولا يبكي على موته دما

وأعجب من ذا أن يرى عيب غيره عظيما وفي عينيه عن عيبه عمى

وقال آخر:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما إذ عبت منهم أمورا أنت آتيها

كالملبس الثوب من عري وعورته للناس بادية من أن يواريها

وأعظم الإثم بعد الشرك تعلمه في كل نفس عماها عن مساويها

عرفانها بعيوب الناس تبصرها منهم ولا تبصر العيب الذي فيها

وقال آخر:

مواعظ الواعظ لن تقبلا حتى تعيها نفسه أولا

يا قوم من أظلم من واعظ خالف ما قد قاله في الملا

أظهر بين الناس إحسانه وبارز الرحمن لما خلا

وقال آخر:

وبخت غيرك بالعمى فأفدته بصرا وأنت محسن لعماكا

وفتيلة المصباح تحرق نفسها وتضيء للأعشى وأنت كذاكا

وقال آخر:

يا أيها الرجل المقوم غيره هلا لنفسك كان ذا التقويم

فابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهنـــاك يقبـــل مـــا تقـــول ويقتـــدى   بـــالقول منـــك وينفـــع التعلـــيم

لا تنـــه عـــن خلـــق وتـــأتي مثلـــه   عـــار عليـــك إذا فعلـــت عظـــيم

قال آخر: وعينا ــ يا شيخنا ــ كل ما ذكرته من ضرورة مزج العلم بالعمل، وقد ملأتنا شوقا إلى العمل، كما ملأتنا رهبة من تركه .. فما الذي ييسر علينا العمل الذي يجعلنا نتحقق بالعبودية؟

قال: ستدرسون هنا عشرة علوم .. كلها علوم عمل .. ولن تخرجوا من هذا القسم حتى تتقنوها جميعا.

قلت: فما أولها؟

قال: أن يشغلكم علم العمل عن علم الجدل .. لقد ضرب الغزالي لذلك مثالا، فقال :(فمثال من يعرض عن علم الأعمال، ويشتغل بالجدال مثل رجل مريض به علل كثيرة، وقد صادف طبيباً حاذقاً في وقت ضيق يخشى فواته، فاشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والأدوية وغرائب الطب، وترك مهمه الذي هو مؤاخذ به، وذلك محض السفه)[1]

وفي هذا روي أن رجلاً جاء رسول الله ﷺ فقال: علمني من غرائب العلم، فقال له: ما صنعت في رأس العلم؟ فقال: وما رأس العلم؟ فقال ﷺ :(هل عرفت الرب تعالى؟) قال: نعم، قال: (فما صنعت في حقه؟) قال: ما شاء الله، فقال ﷺ : (هل عرفت الموت؟) قال نعم، قال: (فما أعددت له؟) قال: ما شاء الله، قال ﷺ :(إذهب فأحكم ما هناك، ثم تعال نعلمك من غرائب العلم)[2]

قال آخر: فما الثاني؟

قال: أن لا تشينوا العلم بشيء من الطمع .. فلا أضيع للعلم من الطمع .. على هذا اتفق أهل الله من ورثة رسول الله ﷺ :

قال سفيان بن عيينة: كنت قد أوتيت فهم القرآن، فلما قبلت الصرة من أبي جعفر سلبته.

وقال أبو مزاحم الخاقاني: قيل لأبي الأحوص حدثنا، فقال: ليت لي نية، فقالوا له: إنك تؤجر، فقال شعراً:

يمنـــوني الخـــير الكـــثير وليـــتني	نجـــوت كفافـــاً لا علـــيّ ولا ليـــا

قال آخر: فما الثالث؟

قال: أن تتعلموا المداومة على مراقبة الله تعالى في السر والعلانية، والمحافظة على خوفه في جميع الحركات والسكنات والأقوال والأفعال .. فإن العلم أمانة، وقد قال تعالى آمرا هذه الأمة :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (لأنفال:٢٧)، وقال مخبرا عن علماء بني إسرائيل ضاربا

(1) الإحياء: ٦٥/١.
(2) رواه ابن السني وأبو نعيم في كتاب الرياضة لهما، وابن عبد البر من حديث عبد الله بن المسور مرسلا وهو ضعيف جدا.

لنا المثل بهم :﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَاب اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (المائدة:٤٤) .. لقد اتفق على هذا جميع أهل الله من ورثة رسول الله ﷺ :

قال الشافعي: ليس العلم ما حفظ، العلم ما نفع، وعليه بدوام السكينة والوقار والخشوع والورع والتواضع والخضوع.

ومما كتب مالك إلى الرشيد: إذا علمت علماً، فلْيُرَ عليك أثره، وسكينته وسمته، ووقاره، وحلمه. لقوله ﷺ :(العلماء ورثة الأنبياء)[1]

وقال عمر: تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والوقار.

وعن بعض السلف قال: حق على العالم أن يتواضع لله، في سره وعلانيته ويحترس من نفسه ويقف عما أشكل عليه.

قال آخر: فما **الرابع**؟

قال: أن تتعلموا المحافظة على القيام بشعائر الإسلام، وظواهر الأحكام، كإقامة الصلوات في مساجد الجماعات، وإفشاء السلام للخواص والعوام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى بسبب ذلك، صادعين بالحق عند السلاطين، باذلين أنفسكم لله لا تخافون فيه لومة لائم، ذاكرين قوله تعالى :﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (لقمان:١٧)، ذاكرين ما كان عليه رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ من الصبر على الأذى، وما كانوا يتحملونه في الله تعالى حتى كان لهم العقبى.

قال آخر: فما **الخامس**؟

قال: أن تتعلموا القيام بإظهار السنن، وإخماد البدع، والقيام لله في أمور الدين، وما فيه من مصالح المسلمين على الطريق المشروع، والمسلك المطبوع، لا ترضون من أفعاله الظاهرة والباطنة بالجائز منها، بل تأخذون أنفسكم بأحسنها وأكملها، فإن العلماء هم القدوة، وإليهم المرجع في الأحكام، وهم حجة الله تعالى على العوام، وقد يراقبهم للأخذ عنهم من لا ينظرون، ويقتدي بهديهم من لا يعلمون، وإذا لم ينتفع العالم بعلمه فغيره أبعد من الانتفاع به ..

قال آخر: فما **السادس**؟

قال: أن تكثروا من الصلاة على النبي ﷺ وتعظيمه، فإن محبته وإجلاله وتعظيمه ﷺ واجب، والأدب عند سماع اسمه وذكر سنته مطلوب وسنة.

لقد اتفق على هذا جميع أهل الله من ورثة رسول الله ﷺ :

كان جعفر الصادق ــ رضي الله عنه ــ إذا ذكر النبي ﷺ عنده: اصفرّ لوَنه، وكان مالك ــ رضي الله

---

[1] رواه أحمد والترمذي وغيرهما.

عنه ـــ إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني. وكان ابن القاسم إذا ذكر النبي ﷺ يجف لسانه في فيه هيبة لرسول الله ﷺ .

قال آخر: فما **السابع**؟

قال: أن تلازموا تلاوة القرآن الكريم، وأن تتعلموا الفكر في معانيه، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، والوقوف عند حدوده.

لقد كان سلفكم من أهل العلم يختمون القرآن في كل سبعة أيام ، وكانوا يقولون:(من قرأ من القرآن في كل سبعة أيام لم ينسه قط)

قال آخر: فما **الثامن**؟

قال: أن تتعلموا كيف تستعملون الرخص في محالها وعند الحاجة إليها، ووجود سببها ليقتدي به نجيها، فإن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه.

قال آخر: فما **التاسع**؟

قال: أن تطهروا قلوبكم من كل غش، ودنس، وغل، وحسد، وسوء عقيدة وخلق، ليصلح بذلك لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائق معانيه وحقائق غوامضه، فإن العلم كما قال بعضهم: صلاة السر، وعبادة القلب، وقربة الباطن، فكما لا تصح الصلاة التي هي عبادة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الظاهر من الحدث والخبث، فكذلك لا يصح العلم الذي هو عبادة القلب إلا بطهارته عن خبث الصفات وحدث مساوئ الأخلاق ورديها. وقالوا: يطيب القلب للعلم كما تطيب الأرض للزرع، فإذا طيب العلم ظهرت بركته، ونما كما ينمو زرعها، ويزكو إذا طيبت.

قال آخر: فما **العاشر**؟

قال: أن تأخذوا أنفسكم بالورع في جميع شؤونكم، وتتحروا الحلال في الطعام والشراب واللباس والمسكن، وفي جميع ما تحتاجون إليه لتستنير قلوبكم، وتصلح لقبول العلم ونوره، والنفع به.

ولا تقنعوا لأنفسكم بظاهر الحل شرعاً، مهما أمكنكم التورع، ولم تلجئكم حاجة، بل تطلبون الرتبة العالية، وتقتدون بمن سلف من العلماء الصالحين في التورع عن كثير مما كانوا يفتون بجوازه، وأحق من اقتدى به في ذلك سيدنا رسول الله ﷺ حيث لم يأكل التمرة التي وجدها في الطريق خشية أن تكون من الصدقة، مع بعد كونها منها[1]، ولأن أهل العلم يقتدي بهم ويؤخذ عنهم، فإذا لم يستعملوا الورع فمن يستعمله؟

---

(١) رواه البخاري ومسلم، وانظر فصل (الورع) من رسالة (النبي الإنسان)

المجاهدة

بعد أن مكثنا مدة في الفرع الأول نتعلم علومه، ونتدرب على آدابه، انتقلنا إلى الفرع الثاني، وهو فرع المجاهدة، وقد سألنا ــ ونحن في الركن المرتبط بهذا من محضرة الآداب ــ شيخنا محمد الأمين الشنقيطي عن سر اعتبار المجاهدة ركنا من أركان آداب طلبة العلم وأهله، فقرأ قوله تعالى :﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (العنكبوت: ٦٩)

ثم قال: هذه الآية تجيبكم على سؤالكم .. لقد وعد الله المجاهدين فيه أن يهديهم لسبيله .. فلذلك لا يمكن لطالب العلم أن يهتدي لسبل الله ما لم يجاهد نفسه في ذات الله.

ألستم ترون أن أول ما فعل جبريل عليه السلام مع رسول الله ﷺ في أول لقاء له به أن غطه ثلاث مرات حتى بلغ منه الجهد[١]؟

قلنا: بلى.

قال: وكان بالإمكان في أول مرة أن يقول له :﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١)؟

قلنا: بلى.

قال: ألم يكن رسول الله ﷺ إذا نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي يتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، فإذا كان على ناقة جثت الناقة، وأصاب عنقها الأرض من شدة ما يناله ﷺ عند نزول الوحي؟

قلنا: بلى .. ذلك كذلك .. فما سره؟ وما علاقته بالمجاهدة؟

قال: العلم ثقيل، فلا ينبغي أن يستخف به، ورسالة عظمى، فلا ينبغي إهانتها.

قلنا: وكيف يستخف به؟ وكيف تهان؟

قال: إذا لم يعطه طالبه حقه من الجهد والبحث والنظر والمعاناة كان مستخفا به، وكان مستهينا بالرسالة التي يحملها.

قلت: فما حقه من الجهد؟

قال: لقد جعل الله لكل مسألة من مسائل العلم مفتاحها من المجاهدة، فمن لم تبلغ مجاهدته حق مفتاحها، فإنه لن يظفر من ذلك العلم إلا بالظواهر التي تملؤه بالغفلة، وتملأ نفسه بالغرور.

قلت: ألهذا سمى العلماء الباحث في مسائل العلم مجتهدا؟

قال: أجل .. ولم يطلقوا عليه هذه اللقب العظيم إلا بعد أن عانى الأمرين في البحث عن حقيقة العلم الذي صار مجتهدا فيه.

قلت: ما نوع هذا الجهد؟

قال: يختلف باختلاف المسائل: قد يكون رحلة تحقيق، وقد يكون اجتهاد تحصيل ومراجعة ومطالعة، وقد يكون معاناة تأمل، وقد يكون معاناة حفظ.

---

(١) رواه البخاري وغيره.

الرحلة:

قلت: فحدثنا عن الرحلة .. هل هي شرط في المجاهدة؟

قال: قد تكون شرطا .. فمن لم يظفر بالعلم في أرضه، فعليه أن يرحل إلى غيرها .. إن طالب العلم كتلك الشياه التي رأيتها في الصحراء، إذا لم نجد لها كلأ في محل بحثنا لها عن كلأ في غيره.

قلت: فهل في السنة ما يدل على ذلك؟

قال: كل السنة تدل على ذلك .. لقد قال رسول الله ﷺ :(اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم)[1]، إن رسول الله ﷺ في هذا الحديث يأمرنا بالرحلة، ولو إلى الصين .. فكل مكان يمكن أن ننال منه من العلم ما لم نكن نحلم بالتعرف عليه.

وقال في حديث آخر :(يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم، فلا يجدون أحدا أعلم من عالم المدينة)[2]

قلت: لقد ذكرتني برحلة موسى عليه السلام الطويلة من أجل البحث عن بعض مسائل العلم .. لقد مشي على قدميه إلى مجمع البحرين قاصداً الخضر عليه السلام حتى بلغ منه الجهد، ومع ذلك لم يستقر، ولم يهدأ له بال حتى بلغ مكان العالم الذي ذكره الله له.

قال تعالى يذكر ذلك :﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾ (الكهف)

قال أحد الطلبة: وقد ذكر الله تعالى رحلة ذي القرنين الطويلة، وهي ممتلئة بالبحث عن العلم وأسبابه[3]، قال تعالى :﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢)﴾ (الكهف)

قال آخر: هذه رحلة موسى عليه السلام .. فهل رحل محمد ﷺ في طلب العلم؟

قال: أجل .. ألم يتلق محمد ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج من العلوم ما لم يتلق مثله في مكة المكرمة؟

---

(1) رواه ابن عدي البيهقي وابن عبد البر في العلم.

(2) رواه الترمذي وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(3) ذكرنا أدلة هذا، وما يمكن أن يستنبط منه أهل العلم في رسالة (مفاتيح المدائن)

قلنا: بلى .. وقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال عن الإسراء :﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الاسراء:١)، فاعتبر علة إسرائه هو أن يريه من آيات الله، وكل العلوم آيات الله.

وقال عن المعراج :﴿ النَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨)﴾ (النجم)، فاعتبر رؤية آيات ربه الكبرى من مقاصد رحلته إلى السموات العلى.

قال: وهكذا وردت الآثار الكثيرة من هدي أهل الله من ورثة رسول الله ﷺ .. فقد أجمعوا على أنه لن ينال العلم من اكتفى بالراحة دون الرحلة إلى أهل العلم[1].

قال بعض الطلبة: لقد حدث أبو الدرداء ــ رضي الله عنه ــ صاحب رسول الله ﷺ قال: (لو أعيتني آية من كتاب الله، فلم أجد أحدا يفتحها علي إلا رجل ببرك الغماد لرحلت إليه)

قال آخر: وقد روي عن عامر بن شراحيل الشعبي .. الإمام الكبير من أئمة التابعين.. أنه خرج إلى مكة المكرمة من أجل ثلاثة أحاديث ذكرت له، فقال :(لعلي ألقى رجلا لقي النبي ﷺ أو من أصحاب النبي ﷺ)

وعن علي بن المديني قال: قيل للشعبي: من أين لك هذا العلم كله؟ فقال :(بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وصبر كصبر الجماد، وبكور كبكور الغراب)

قال آخر: وعن أحمد بن حنبل رضي أنه قيل له: أيرحل الرجل في طلب العلو[2]؟ فقال: بلى والله شديدا، لقد كان علقمة والأسود يبلغهما الحديث عن عمر ــ رضي الله عنه ــ فلا يقنعهما حتى يخرجا إلى عمر فيسمعانه منه.

قال آخر: وعن الشعبي قال ما علمت أن أحدا من الناس كان أطلب لعلم في أفق من الآفاق من مسروق .. وعن سفيان عن رجل: أن مسروقا رحل في حرف، وأن أبا سعيد رحل في حرف.

قال آخر: وعن مكحول الدمشقي الإمام قال: كنت عبدا بمصر لامرأه من بني هذيل، فأعتقتني، فما خرجت من مصر وبها علم إلا حويت عليه فيما أرى، ثم أتيت الحجاز فما خرجت منها وبها علم إلا حويت عليه فيما أرى، ثم أتيت العراق فما خرجت منها وبها علم إلا حويت عليه فيما أرى، ثم أتيت الشام فغربلتها، كل ذلك أسأل عن النفل، فلم أجد أحدا يخبرني فيه بشيء، حتى أتيت شيخا يقال له زياد بن جارية التميمي، فقلت له: هل سمعت في النفل شيئا؟ قال: نعم، سمعت حبيب بن مسلمة الفهري يقول: (شهدت النبي ﷺ نفل

([1]) ما سنذكره من أخبار منقول بتصرف من كتاب (الرحلة في طلب الحديث) لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، بتحقيق: نور الدين عتر.

([2]) أي علو الإسناد، وهو قلة رجال السند، وهو من أهم أسباب الرحلة في طلب الحديث.

الربع في البدأة، والثلث في الرجعة)[1]

وعن ابن إسحاق قال: سمعت مكحولا يقول :(طفت الأرض في طلب العلم)

قال آخر: لقد حكى يعقوب بن سفيان عن نفسه حديثا عجيبا، فقال: كنت في رحلتي، فقلت نفقتي، فكنت أدمن الكتابة ليلا، وأقرأ نهارا، فلما كان ذات ليلة كنت جالسا أنسخ في السراج، وكان شتاء، فنزل الماء في عيني، فلم أبصر شيئا، فبكيت على نفسي لانقطاعي عن بلدي وعلى ما فاتني من العلم، فغلبتني عيناي، فنمت، فرأيت النبي ﷺ في النوم، فناداني: يا يعقوب، لم بكيت؟ فقلت: يا رسول الله، ذهب بصري، فتحسرت على ما فاتني، فقال لي ﷺ : أدن مني، فدنوت منه، فأمر يده على عيني، كأنه يقرأ عليهما، ثم استيقظت، فأبصرت، فأخذت نسخي، وقعدت أكتب.

قال آخر: وحكى ابن أبي حاتم عن نفسه قال: بقيت بالبصرة في سنة أربع عشرة ومائتين ثمانية أشهر، وكان في نفسي أن أقيم سنة، فانقطعت نفقتي، فجعلت أبيع ثياب بدني شيئا بعد شيء، حتى بقيت بلا نفقة، ومضيت أطوف مع صديق لي إلى المشيخة وأسمع منهم إلى المساء، فانصرف رفيقي، ورجعت إلى بيت خال، فجعلت أشرب الماء من الجوع، ثم أصبحت من الغد، وغدا علي رفيقي، فجعلت أطوف معه في سماع الحديث على جوع شديد، فانصرف عني، وانصرفت جائعا، فلما كان من الغد غدا علي، فقال: مر بنا إلى المشايخ، قلت: أنا ضعيف، لا يمكنني، قال: ما ضعفك، قلت: لا أكتمك أمري، قد مضى يومان ما طعمت فيهما شيئا، فقال: قد بقي معي دينار، فأنا أواسيك بنصفه، ونجعل النصف الآخر في الكراء، فخرجنا من البصرة، وقبضت منه نصف دينار.

قال آخر: لقد ذكر ابن المؤمل الحافظ الإمام الجوال الفضل بن محمد بن المسيب البيهقي الشعراني المتوفي سنة ٢٨٢ هـ وكان أديبا فقيها عابدا عارفا بالرجال :(كنا نقول ما بقي بلد لم يدخله الفضل الشعراني في طلب الحديث إلا الأندلس)

قال آخر: وقال الإمام أبو عبد الله الحاكم يتحدث عن الحافظ البارع الجوال الزاهد القدوة محمد بن المسيب بن إسحاق الأرغياني المتوفي سنة ٣١٥ هـ :(كان من العباد المجتهدين، سمعت غير واحد من مشايخنا يذكرون عنه أنه قال: ما أعلم منبرا من منابر الإسلام بقي علي لم أدخله لسماع الحديث، وسمعت أبا إسحاق المزكي يقول: سمعت محمد بن المسيب يقول: كنت أمشي في مصر، وفي كمي مائة جزء، في كل جزء ألف حديث، وسمعت أبا علي الحافظ يقول: كان محمد بن المسيب يمشي بمصر، وفي كمه مائة ألف حديث، كان دقيق الخط، وصار هذا كالمشهور من شأنه)

قال آخر: وكان المحدث الحافظ محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده الأصبهاني الرحالة من أئمة هذا الشأن وثقاتهم ولد سنة ٣١٠ ، وسمع سنة ثماني عشرة وبعدها ورحل سنة ثلاثين إلى نيسابور، فأدرك أبا حامد بن بلال، وكتب عن الأصم نحوا من ألف جزء، ثم رحل إلى بغداد، فلقي ابن البختري والصفار، ولقي بدمشق خيثمة بن سليمان وطبقته، ولقي بمكة أبا سعيد بن الأعرابي، وبمصر أبا الطاهر المديني، وببخارى ومرو وبلخ

([1]) رواه أبو داود وابن ماجة.

جماعة .. وطوف الأقاليم، وكتب بيده عدة أحمال، وبقي في الرحلة نحوا من أربعين سنة، ثم عاد إلى وطنه شيخا، فتزوج ورزق الأولاد، ويقال: إنه رجع إلى بلده أصبهان قدمها أربعون حملا من الكتب والاجزاء.

قال آخر: ومنهم الحافظ العالم المكثر الجوال أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي المقدسي (المتوفى سنة ٥٠٧) ما كان على وجه الأرض له نظير، قال متحدثا عن نفسه:(كتبت الصحيحين وسنن أبي داود سبع مرات بالأجرة) .. وقال :(بلت الدم في طلب الحديث مرتين، مرة ببغداد، ومرة بمكة، كنت أمشي حافيا في الحر، فلحقني ذلك، وما ركبت دابة قط في طلب الحديث، وكنت أحمل كتبي على ظهري)

قال آخر: ومنهم الحافظ الإمام عبيد الله بن سعيد بن حاتم أبو نصر السجزي المتوفي سنة ٤٤٤ هـ ، وقد كان من أحفظ أهل زمانه للحديث طوف الآفاق في طلب الحديث، قال عنه الحافظ أبو إسحاق الحبال: كنت يوما عند أبي نصر السجزي، فدق الباب، فقمت ففتحته، فدخلت امرأة، وأخرجت كيسا فيه ألف دينار، فوضعته بين يدي الشيخ، وقالت: أنفقها كما ترى، قال: ما المقصود، قالت: تتزوجني، ولا حاجة لي في الزوج، ولكن لأخدمك، فأمرها بأخذ الكيس، وأن تنصرف، فلما انصرفت قال: (خرجت من سجستان بنيه طلب العلم، ومتى تزوجت سقط عني هذا الاسم، وما أوثر على ثواب طلب العلم شيئا)

قال آخر: ومنهم الإمام الكبير الجهبذ أبو حاتم محمد بن إدريس بن منذر الحنظلي الرازي إمام المحدثين في الحديث وفي الجرح والتعديل ومعرفة العلل والرجال (ت ٢٧٧هـ) قال عن نفسه :(أول سنة خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ، لم أزل أحصي حتى زاد على ألف فرسخ، فتركته .. أما ما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد، فمالا أحصي كم مرة، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة، وخرجت من البحرين من قرب مدينة صلا إلى مصر ماشيا، ومن مصر إلى الرملة ماشيا، ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان، ومن الرملة إلى طبرية، ومن طبرية إلى دمشق، ومن دمشق إلى حمص، ومن حمص إلى أنطاكية، ومن انطاكية إلى طرسوس، ثم رجعت من طرسوس إلى حمص، وكان بقي علي شيء من حديث أبي اليمان، فسمعت، ثم خرجت من حمص إلى بيسان، ومن بيسان إلى الرقة، ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل، ومن النيل إلى الكوفة، كل ذلك ماشيا .. كل هذا في سفري الأول، وأنا ابن عشرين سنة أجول سبع سنين، خرجت من الري سنة ثلاث عشرة ومائتين في شهر رمضان، ورجعت سنة احدى وعشرين ومائتين)

التحصيل:

قلت: عرفنا الرحلة، وعرفنا جهود أهل الله من ورثة رسول الله ﷺ فيها .. فحدثنا عن التحصيل والمراجعة .. وهل هي شرط في المجاهدة؟

قال: أجل .. هي شرط لا مناص منه لطالب العلم .. لقد أشار القرآن الكريم إليها، فقال تعالى مخبرا عن حرص رسول الله ﷺ أن لا ينسى حرفا واحدا مما يوحى إليه :﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه : ١١٤)، وقال :﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾ (القيامة)

وبمثل هذا وردت الأسانيد، فعن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التزيل شدة، فكان يحرك شفتيه، فأنزل الله عز وجل :﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ أي جمعه في صدرك، ثم تقرأه، ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ فاستمع له وأنصت، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه[1].

وفي رواية أخرى عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي يلقى منه شدة، وكان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفتيه، يتلقى أوله ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره، فأنزل الله :﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾

وقال في الآية واصفا رسول الله ﷺ :(كان لا يفتر من القراءة مخافة أن ينساه، فقال الله له :﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا ﴾ أن نجمعه لك ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ أن نقرئك فلا تنسى)[2]

قلت: ولكن الله طمأن نبيه ﷺ إلى أنه لن ينسى حرفا مما قرأه، فقال مبشرا نبيه ﷺ: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى) (الأعلى:٦)

قال: ولكن الله تعالى لم يبشرنا بما بشر به نبيه ﷺ .. فلذلك لا ينبغي أن يفتر طالب العلم لحظة عن علمه .. لقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك، فقال :(إن مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت)[3]، وفي حديث آخر قال ﷺ :(تعاهدوا القرآن، فوالذى نفسي بيده لهو أشد تفصيا من قلوب الرجال من الإبل من عقلها)[4]

قلت: فحدثنا عن هدي الورثة في ذلك.

قال: لقد حدث عبد الله بن عباس ــ رضي الله عنه ــ عن نفسه قال: طلبت العلم فلم أجد أكثر منه في الأنصار، فكنت آتي الرجل فأسأل عنة، فيقال لي: نائم، فأتوسد ردائي ثم اضطجع، حتى يخرج إلي الظهر، فيقول: متى كنت هنا يا ابن عم رسول الله ﷺ؟ فأقول: منذ زمن طويل، فيقول: بئس ما صنعت.. هل أعلمتني ؟ فأقول: أردت إن تخرج إلي وقد قضيت حاجتك.

وقال: وجدت أكثر حديث رسول الله ﷺ عند هذا الحي من الأنصار، والله إن كنت لآتي الرجل منهم فيقال: هو نائم، فلو شئت أن يوقظ لي، فأدعه حتى يخرج لأستطيب بذلك حديثه[5].

وقال: لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير، فقال: واعجباً لك يا ابن عباس، أترى الناس يفتقرون إليك، وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم، قال: فتركته وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن الحديث، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل، فأتوسد الباب، فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله ﷺ ما جاء بك؟ ألا أرسلت

---

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه ابن جرير.
(3) رواه البخاري ومسلم.
(4) رواه البخاري ومسلم.
(5) رواه الدارمي في مسنده.

إلي فآتيك، فأقول: بل أنت أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث، فعاش ذلك الرجل الأنصاري حتى رآني، وقد اجتمع الناس حولي يسألوني، فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني[1].

وقال محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ـــ رضي الله عنهم ـــ: كنت أطلب العلم في دور الأنصار حتى أني لأتوسد عتبة أحدهم فيوقظني الإنسان فيقول: إن سيدك قد خرج إلى الصلاة وما يحسبني إلا عبده.

قال بعض الطلبة: لقد سُئل بعض السلف: ما بلغ من اشتغالك بالعلم؟ قال: هو سلوتي إذا اهتممت، ولذتي إذا سلوت.

وأنشد الشافعي لنفسه:

وما أنا بالغيران من دون أهله ... إذا أنا لم أضح غيوراً على علمي

طبيب فؤادي مذ ثلاثين حجة ... و صيقل ذهني والمفرج عن همي

وقال: حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من العلم، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله في إدراك علمه نصاً واستنباطاً، والرغبة إلى الله تعالى في العون عليه.

وقال الربيع يصف الشافعي: لم أر الشافعي آكلاً بنهار ولا نائماً بليل لاشتغاله بالتصنيف، ومع ذلك فلا يحمل نفسه من ذلك فوق طاقتها كيلا تسأم ويمل، فربما نفرت نفرة لا يمكنه تداركها، بل يكون أمره في ذلك قصداً، وكل إنسان أبصر بنفسه.

قلت: فما الذي يعيننا على الوصول إلى ما وصل إليه أصحاب هذه الهمم العالية؟

قال: لقد ذكر سلفنا من العلماء نقلا عن سلفهم إلى السلف الأول الذي تربى على يدي رسول الله ﷺ في ذلك سننا، سأذكر لكم سبعة منها.

قلت: فما أولاها؟

قال: أن يبادر طالب العلم شبابه وأوقات عمره فيصرفها إلى التحصيل، ولا يغتر بخدع التسويف والتأمل فإن كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها.

قال المنصور بن المهدي المأمون : أيحسن بمثلي أن يتعلم؟ فقال: والله لأن تموت طالبًا للعلم خيرا أن تموت قانعًا بالجهل.

وحكى عن ثعلب: أنه كان لا يفارقه كتاب يدرسه ، فإذا دعاه رجل إلى دعوة شرط عليه أن يوسع له مقدار سورة يضع فيها كتاب ويقرأ.

وكان أبو بكر الخياط النحوي يدرس جميع أوقاته حتى في الطريق، وكان ربما سقط في جرف أو خبطته دابة.

---

(1) رواه الخطيب في الجامع.

وقال بعضهم: متى تبلغ من العلم مبلغًا يرضى، وأنت تؤثر النوم على الدرس والأكل على القراءة .
وكان بعضهم إذا دخل الحمام يجعل من خارجه قارئاً يقرأ عليه.
وذكر عن النضر بن شميل قوله :(لن تجد لذة العلم حتى تجوع وتنسي أنك جائع)
وكان الخليل بن أحمد يقول : (أثقل ساعات عليَّ ساعة آكل فيها)
قلت: فما الثاني؟
قال: أن يقطع طالب العلم ما يقدر على قطعه من العلائق الشاغلة والعوائق المانعة عن تمام الطلب وبذل الاجتهاد وقوة الجد في التحصيل، فإنها كقواطع الطريق، ولذلك استحب الورثة التغرب عن الأهل والبعد عن الوطن تقليلاً للشواغل، لأن الفكرة إذا توزعت قصرت عن درك الحقائق، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، ولذلك يقال:(العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك)
قلت: فما الثالث؟
قال: أن يقنع من القوت بما تيسر، وإن كان يسيراً، ومن اللباس بما ستر مثله، وإن كان خلقاً .. فبالصبر على ضيق العيش، ينال سعة العلم، ويجمع شمل القلب عن متفرقات الآمال، فتتفجر فيه ينابيع الحكم.
قال الشافعي : لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح.
وقال: لا يدرك العلم إلا بالصبر على الذل، ومن آثر طلب العلم على الاحتراف فإن الله يعوضه ويأتيه بالرزق من حيث لا يحتسب.
قلت: فما الرابع؟
قال: أن يقسم أوقات ليله ونهاره، ويغتنم ما بقي من عمره، فإن بقية العمر لا قيمة لها، وأجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الأبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل، وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع، وأجود الأماكن للحفظ كل مكان بعيد عن الملهيات، كالنبات، والخضرة، والأنهار، وقوارع الطرق، وضجيج الأصوات، لأنها تمنع من خلو القلب غالباً.
قلت: فما الخامس؟
قال: أكل القدر اليسير من الحلال، لأن كثرة الأكل جالبة لكثرة الشرب، وكثرته جالبة للنوم والبلادة، وقصور الذهن، وفتور الحواس، وكسل الجسم، هذا مع ما فيه من الكراهة الشرعية، والتعرض لخطر الأسقام البدنية، كما قيل:

فإن الداء أكثر ما تراه	يكون من الطعام أو الشراب

ومن رام الفلاح في العلم وتحصيل البغية منه، مع كثرة الأكل والشرب والنوم، فقد رام مستحيلاً في العادة.
والأولى أن يكون أكثر ما يؤخذ من الطعام ما ورد في الحديث عن النبي ﷺ قال :(ما ملأ ابن آدم وعاء

شراً من بطن، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه)[1]، فإن زاد فهو إسراف، وقد قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (لأعراف: ٣١)

قلت: فما **السادس**؟

قال: أن يقلل نومه ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه، ولا يزيد في نومه في اليوم والليلة على ثمان ساعات، وهي ثلث الزمان، فإن احتمل حاله أقل من ذلك فعل.

ضحك بعض أصحابي، وقال: لقد ذكرتني برجل قال لخالد بن صفوان : مالي إذا رأيتكم تذاكرون الأخبار وتدارسون الآثار وتناشدون الأشعار وقع عليَّ النوم؟ فقال: لأنك حمار في مسلاخ إنسان.

وذكر عن سليمان الداري قال: إذا رأيت الرجل ينام عند الحديث، فأعلم أنه لا يشتهيه، فإن كان يشتهيه طار نعاسه.

قال: ومع ذلك ينبغي لطالب العلم أن يريح نفسه وقلبه وذهنه وبصره بتتره وتفرج في المستترهات بحيث يعود إلى حاله، ولا يضيع عليه زمانه، فقد كان بعض أكابر العلماء يجمع أصحابه في بعض أماكن التتره في بعض أيام السنة، ويتمازحون بما لا يضرهم في دين ولا عرض.

وينبغي أن يتجنب ما يعاب من الهزل والبسط بالفعل وفرط التمطي، والتمايل على الجنب والقفا والضحك الفاحش بالقهقهة.

قلت: فما **السابع**؟

قال: أن يترك كثرة المخالطة، فإن تركها من أهم ما ينبغي لطلب العلم، ولا سيما لغير الجنس، وخصوصاً لمن كثر لعبه وقلت فكرته، فإن الطباع شر آفة، وآفة العشرة ضياع العمر بغير فائدة، وذهاب المال والعرض إن كانت لغير أهل، وذهاب الدين إن كانت لغير أهله.

والذي ينبغي لطالب العلم أن لا يخالط إلا من يفيد أو يستفيد منه، كما روي عن النبي ﷺ :(اغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس فتهلك)[2]، فإن شرع أو تعرض لصحبة من يضيع عمره معه، فليتلطف في قطع عشرته في أوائل الأمر قبل تمكنها، فإن الأمور إذا تمكنت عسرت إزالتها، ومن الجاري على ألسنة الفقهاء :(الدفع أسهل من الرفع)

فإن احتاج إلى من يصحبه فليكن صالحاً، ديناً، تقياً، ورعا، كثير الخير، قليل الشر، حسن المداراة، قليل المماراة، فإن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن احتاج واساه، أو ضجر صبره، وقد قال علي ــ رضي الله عنه ــ :

لا تصـــــحب أخـــــا الجهـــــــل و إيَّـــــــــــــاك وإيَّـــــــــــــاه

---

(1) رواه الترمذي.
(2) رواه البزار والطبراني في الأوسط.

فكـــــــم مـــــــــن جاهـــــــــل أردى حليمــــــــــاً حــــــــين آخـــــــــاه

يقـــــــاس المـــــــــرء بـــــــــالمرء	إذا مـــــــا هـــــــو ماشـــــــاه

وقال آخر:

إن أخـــــاك الصـــــدق مـــــن كـــــان معـــــك و مـــــن يضـــــر نفســـــه لينفعـــــك

و مـــــن إذا ريـــــب زمـــــان صـــــدعك	شـــــتت شمـــــل نفســـــه ليجمعـــــك

التأمل:

قلت: عرفنا ضرورة بذل الجهد للتحصيل .. فحدثنا عن التأمل .. وما مرادك منه؟ وهل هو شرط في المجاهدة؟

قال: أجل .. فلا ينبغي لطالب العلم أن يشغل جسده، ويترك عقله كسولا لا يبحث ولا يتأمل ولا يفكر.

قلت: فهل لهذا من دليل؟

قال: كل الأدلة مع هذا .. إن القرآن الكريم لا يحض على شيء كما يحض على استعمال العقل والتأمل، لقد قال تعالى مبينا الغرض من نزول القرآن الكريم:﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (صّ:٢٩)

فلآلئ الحقائق وجواهرها لا يمكن أن ينالها من قعد به عقله عن التفكير والتأمل، التفكر الذي لا ينشغل بالظواهر عن البواطن، أو ينشغل بالطلاء على الحقيقة.

ألم تسمع إلى الغزالي، وهو يقول في (جواهر القرآن) :(إني أنبهك على رقدتك أيها المسترسل في تلاوتك، المتخذ دراسة القرآن عملا، المتلقف من معانيه ظواهر وجملا، إلى كم تطوف على ساحل البحر مغمضا عينيك عن غرائبها، أو ما كان لك أن تركب متن لجتها لتبصر عجائبها، وتسافر إلى جزائرها لاجتناء أطايبها، وتغوص في عمقها، فتستغني بنيل جواهرها، أوما تعير نفسك في الحرمان عن دررها وجواهرها بإدمان النظر إلى سواحلها وظواهرها، أوما بلغك أن القرآن هو البحر المحيط، ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارها وجداولها، أوما تغبط أقواما خاضوا في غمرة أمواجها، فظفروا بالكبريت الأحمر، وغاصوا في أعماقها فاستخرجوا الياقوت الأحمر والدر الأزهر والزبرجد الأخضر، وساحوا في سواحلها، فالتقطوا العنبر الأشهب والعود الرطب الأنضر، وتعلقوا الى جزائرها واستدروا من حيواناتها الترياق الأكبر والمسك الأذفر)[1]

([1]) جواهر القرآن:٢١.

قلت: بلى .. وقد سمعته ينقل عن محمد بن كعب القرظي قوله :(من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله، وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه)

ونقل عن بعض العلماء قوله:(هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده، نتدبرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات)

ونقل عن مالك بن دينار أنه كان يقول: (ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن، إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض)

قال بعض الطلبة: بل نقل على علي ــ رضي الله عنه ــ قوله :(لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب)، مع أن تفسيرها الظاهر لا يصل إلى هذا المقدار، بل هو دونه بكثير.

وقال أبو الدرداء ــ رضي الله عنه ــ :(لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً)

ونقل عن بعض العلماء قوله: (لكل آية ستون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر)، وعن آخر قوله :(القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم إذ كل كلمة علم. ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع)

قال: لا تحسبن هؤلاء الورثة مبتدعين في هذا، فإن القرآن كلام الله، وكلام الله لا يمكن لأحد أن يحصي أغراضه..

ولكن تحصيل كل هذا يحتاج إلى التأمل والتدبر والمعاناة .. فلا يمكن لعقول كسول أن يخرج بالقرآن عن كسوة الألفاظ التي جاء بها .. ولهذا، فإن المعلم الكامل هو الذي يربي تلاميذه على استعمال عقولهم، لا الذي يحضهم على التقليد.

ولهذا يعقب الله تعالى على القضايا التي لا يمكن للعقل أن يعرفها بادئ الرأي بكونها من اختصاص أولي الألباب، وكأنه يقول لنا: (اشحذوا عقولكم بالفكر النير لتصير ألبابا، فلا يمكنكم أن تفهموا حقائق القرآن إلا بذلك)

اسمع إلى الله تعالى وهو يقول:﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَاب) (البقرة:٢٦٩)، وقال :﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَاب) (آل عمران:٧)، وقال :﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (آل عمران:١٩٠)، وقال:﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة:١٧٩)، وقال:﴿ قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة:١٠٠)، وقال:﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (يوسف:١١١)، وقال:﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ

كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الرعد:١٩)، وقال:﴿ هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (ابراهيم:٥٢)

ولهذا، فإن الأستاذ الماهر المستن بسنة رسول الله ﷺ هو الذي لا يكتفي بأن يعطي تلاميذه المعلومة جاهزة من دون أن يمنحهم فرصة للتأمل والاجتهاد للوصول إليها، بل يدع لعقولهم فرصا كثيرة للنظر والبحث والتأمل.

قال بعض الطلبة: لقد ذكرتني بحديث لرسول الله ﷺ رواه أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: دخل النبي ﷺ المسجد، فدخل رجل فصلى ، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ، فرد النبي ﷺ عليه السلام قال : ارجع فصل فإنك لم تصل، فرجع الرجل فصلى كما كان صلى، ثم جاء إلى النبي ﷺ فسلم عليه، فقال رسول الله ﷺ :(وعليك السلام) ثم قال:(ارجع فصل فإنك لم تصل) حتى فعل ذلك ثلاث مرات، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق! ما أحسن غير هذا علمني، فقال ﷺ:(إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها)[1]

فقد علم ﷺ هذا الرجل الذي أساء في صلاته، و لم يحسن فيها بأسلوب عملي يجعل المتعلم يكتشف الخطأ الذي وقع فيه بنفسه، قال القاضي عياض : (فإن قيل: لم سكت النبي ﷺ عن تعليمه أولاً حتى افتقر إلى المراجعة كرة بعد أخرى ، قلنا: لأن الرجل لما لم يستكشف الحال مغتراً بما عنده سكت عن تعليمه زجراً له وإرشاداً إلى أنه ينبغي له أن يستكشف ما استبهم عليه ، فلما طلب كشف الحال بينه بحسن المقال)

وقال ابن دقيق العيد : (لا شك في زيادة قبول المتعلم لما يلقى إليه بعد تكرار فعله واستجماع نفسه وتوجه سؤاله مصلحة مانعة من وجود المبادرة إلى التعليم لا سيما مع عدم الخوف)[2]

قال آخر: وأروي في ذلك حديثا عن ابن عمر – رضي الله تعالى عنه – قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتى بجماد، فقال: أن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المسلم، حدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر الوادي، قال عبد الله: فوقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، فقالوا: يا رسول الله أخبرنا ما هي يا رسول الله ؟ قال: (هي النخلة)، قال عبد الله: فحدثت أبي بما وقع في نفسي، فقال: لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا[3].

الحفظ:

قلت: عرفنا التأمل .. فحدثنا عن الحفظ، و لم كان شرطا في المجاهدة؟

قال: إن طالب العلم المتفرغ له هو الذي يستعمل جميع ما وهبه الله من طاقات في خدمة العلم الذي يطلبه .. وبما أن الذاكرة من طاقات الإنسان، فإن طالب العلم يستثمرها أعظم استثمار.

---

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) انظر: فتح الباري . (١٢ / ٣٢٨)
(3) رواه البخاري.

فالعالم يحتاج إلى إحضار المعارف المختلفة في كل حين ليستنتج منها معارف جديدة، أو ليخدم بها من يريد أن يخدمه، وما لم تكن هذه المعارف حاضرة في ذهنه، فإنه لا يمكن أن يفيد بها أحدا، بل لا يمكن أن يستفيد هو نفسه منها.

قلت: فهل ورد في النصوص المقدسة ما يدل على ذلك؟

قال: أجل .. ألم تسمع قوله تعالى :﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ) (العنكبوت:٤٩)؟

قلت: بلى ..

قال: إن هذه الآية تحمل دعوة عظيمة للحفظ، فلا يمكن أن يتعلم من لم يحفظ .. ولهذا ربطت الآية بين الحفظ في الصدور، وبين أهل العلم، وكأنها تقول لطالب العلم: إن أردت أن تصير من أهله، فاشحذ ذاكرتك، ووسع صدرك ليصبح مخزنا للعلوم.

قلت: هذا في القرآن .. فهل ورد في السنة ما يدل عليه؟

قال: السنة تمتلئ بذلك .. فالرسول ﷺ ــ تشجيعا على الحفظ ــ يقدم حافظ القرآن على غيره في الإمامة وغيرها:

ففي الحديث عن أبي مسعود الأنصاري ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ :(يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء، فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء، فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء، فأقدمهم سلما[1]، ولا يؤمن الرجل الرجل في سلطانه، ولا يقعد في بيته على تكرمته إلا بإذنه)[2]

وعن نافع بن عبد الحارث أنه لقي عمر ــ رضي الله عنه ــ بعسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا قال: فاستخلفت عليهم مولى!؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل ، وإنه عالم بالفرائض، فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين)[3]

وعن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد، ثم يقول: أيهما اكثر أخذا للقرآن؟ فإن أشير إلى أحدهما قدمه في اللحد[4].

وعن أبي موسى الأشعري ــ رضي الله عنه ــ أن الرسول ﷺ قال: (إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه ، وإكرام ذي السلطان المقسط)[5]

وقد كان لحفظة القرآن الكريم في عهد السلف الأول مكانة أي مكانة، فقد كانوا المقدمين في الإفتاء والشورى وأخذ الرأي، فعن عبد الله بن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال :(كان القراء أصحاب مجالس عمر

---

(1) قال الأشج في روايته: مكان سلما (سنا)
(2) رواه مسلم.
(3) رواه مسلم.
(4) رواه البخاري.
(5) رواه أبو داود.

ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا)[1]

وفي موقعة اليمامة الشهيرة، كان المسلمون إذا حدثت لهم هزة أو انتكاسة استنجدوا بأهل القرآن، وكانوا ينادون عليهم يقولون: (يا أهل القرآن)، فيقومون، ويقوم من ورائهم المسلمون، حتى استشهد في اليمامة خمسمائة حافظ للقرآن، ثم قام المسلمون بعد ذلك ينادون على حفاظ سورة البقرة: (يا أهل البقرة)، فقاموا حتى مات منهم خلق كثير.

قلت: هذا في حفظ القرآن الكريم .. فهل ورد في النصوص ما يدل على حفظ غيره؟

قال: كل ما ذكر في حفظ القرآن يدل على حفظ غيره، فلا يمكن أن يصير العالم عالما، وهو ناس لما تعلمه.

عن حذيفة قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقاما ما ترك شيئا، يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه)[2]

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : (حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم)[3]

وعن بنت لحارثة بن النعمان ــ رضي الله عنها ــ قالت : (ما حفظت ق إلا من في رسول الله ﷺ يخطب بها كل جمعة قالت: وكان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحدا)[4]

وعن أبي إسحاق قال : كنت مع الأسود بن يزيد جالسا في المسجد الأعظم، ومعنا الشعبي، فحدث الشعبي بحديث فاطمة بنت قيس أن رسول الله ﷺ لم يجعل لها سكنى ولا نفقة، ثم أخذ الأسود كفا من حصى فحصبه به، فقال: ويلك تحدث بمثل هذا، قال عمر: لا نترك كتاب الله وسنة نبينا ﷺ لقول امرأة لا ندري لعلها حفظت أو نسيت، لها السكنى والنفقة قال الله عز وجل :﴿ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ (الطلاق: من الآية ١)

قلت: كل ما ذكرته لا يمكن لأحد أن يجادل فيه .. لكني أرى البعض يتهمون من يحفظ .. ويعتبرونه مجرد وعاء .. وأن الكامل من يفهم، لا من يحفظ.

قال: والأكمل من يجمع بينهما، فيحفظ، ويفهم .. بل إنه لا يعين على الفهم شيء كما يعين عليه الحفظ .. فالحافظ الذي يردد بلسانه ما يحفظه لا محالة سيردده في عقله وقلبه، فيفهمه ويستوعبه، فيجمع بين الحسنيين.

بالإضافة إلى أن الذي لا يحفظ لا يطيق أن يفيد بعلمه كل حين، فهو معلق بكراريسه وكتبه إن حضرت أجاب، وإلا لم يطق جوابا.

قال بعض الطلبة: لقد ذكرتني بحادثة حصلت للغزالي كانت سببا في لجوئه إلى الحفظ، قال يحكي عن

---

(1) رواه البخاري.
(2) رواه مسلم.
(3) رواه البخاري.
(4) رواه البخاري.

نفسه: قطعت علينا الطريق، وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا، فتبعتهم، فالتفت إلى مقدمهم، وقال: ارجع ويحك وإلا هلكت، فقلت له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقتي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به، فقال لي: وما هي تعليقتك؟ فقلت: كتب في تلك المخلاة، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها، فضحك، وقال: كيف تدعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك، فتجردت من معرفتها، وبقيت بلا علم، ثم أمر بعض أصحابه، فسلم إلى المخلاة.

قال الغزالي: فقلت: هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته، وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمي[1].

قال آخر: وقال عبد الرزاق :(كل علم لا يدخل مع صاحبه الحمام فلا تعده علماً)

قال آخر: وقال الأصمعي: (كل علم لا يدخل معي الحمام فليس بعلم)

قال آخر: وقال يموت بن الزرع العبدي: (ليس العلم ما حواه القمطر، إنما العلم ما حواه الصدر)

قال آخر: وقال الخليل بن أحمد : الاحتفاظ بما في صدرك أولي من درس ما في كتابك واجعل كتابك رأس مالك ، وما في صدرك للنفقة .

قال آخر: وقال أبو عيسى عبد الرحمن بن إسماعيل: قال لي أبي، وهو يحضني على النظر في عملي: استب رجلان فقال أحدهما للأخر: يا رفغي، فاتذل ذلك الرجل، وظن أنه قد قابله بشيء عظيم، ثم عمل في صلاح ما بينهما فاصطلحا، فلما كان في بعض الأيام تمازحا فقال له : استببنا يوم ما كذا وكذا فقلت لي : يا رفغي ما الرفغي؟ قال : رأيتك تكتب العلم وتضعه على الرف.

قال آخر: وقد أنشد أبو الفتح هبة الله بن عبد الواحد البغدادي لبشار قوله:

علمـــــــي معـــــــي أينمـــــــا يممـــــــت يتـــــــبعني
بطـــــــني وعـــــــاء لـــــــه لا بطـــــــن صـــــــندوق

إن كنـــــــت في البيـــــــت كـــــــان العلـــــــم فيـــــــه معـــــــي
أو كنـــــــت في الســـــــوق كـــــــان العلـــــــم في الســـــــوق

قال آخر: وأنشد بعض البصريين:

رب إنســـــــان مـــــــلأ أســـــــفاطه   كتـــــــب العلـــــــم وهـــــــو بعـــــــد يخـــــــط

---

[1] وقد روى هذه الحكاية عن الغزالي أيضا الوزير نظام الملك كما هو مذكور في ترجمة نظام الملك من ذيل ابن السمعاني، انظر: طبقات الشافعية الكبرى: ٦/٨٥.

فـــــإذا فتشـــــته عــــن علمـــــه قـــــال علمـــــي يـــــا خليلـــــي في الســــفط

بكــــــــراريس جيـــــــاد أحـــــــرزت وبخـــــــط أي خـــــــط أي خــــــط

فـــــإذا قلـــــت لـــــه هـــــات أرنـــــا حـــــك لحييـــــه جميعًـــــا وامـــــتخط

قال آخر: وقال ابن بشير الأزدي : ــ

أشـــــهد بالجهـــــل في مجلســـــي وعلمـــــي في البيـــــت مســــتودع

إذا لم تكـــــن حافظًـــــا واعيًـــــا فجمعـــــك للكتـــــب لا تنفـــــع

قلت: ولكن العلوم كثيرة .. بل هي أكثر من أن تنحصر .. فكيف يمكن حفظ كل ذلك؟

قال: إن الله تعالى بحكمته ورحمته زود الإنسان بطاقات عظيمة لا يمكن تصورها أو حدها .. نحن فقط بكسلنا وضعفنا وقصورنا نتوهم أن الله أعطانا القليل، فلذلك نستسلم للعجز، ونتعلل بالطاقة المحدودة.

لقد قال الزهري يذكر هذا: إن الرجل ليطلب العلم وقلبه شِعْبٌ من الشِّعَاب، ثم لا يلبث أن يصير واديًا ، لا يوضع فيه شيء إلا التهمه .

وعن الحارث ابن أبي أسامة قال: كان العلماء يقولون:(كل وعاء أفرغت فيه شيئا فإنه يضيق إلا القلب ، فإنه كلما أفرغ فيه أتسع)

قلت: سلمت لك في هذا .. وفي تاريخنا ما يدل عليه .. فما أكثر حفاظ الإسلام.

قال بعض الطلبة: لقد كان أحمد يحفظ ألف ألف حديث ..

قال آخر: وكان ابن جرير الطبري يحفظ حمل ثمانين بعيرا من الكتب ..

قال آخر: وحفظ ابن الأنباري في كل جمعة ألف كراس، وحفظ ثلاثمائة ألف بيت من الشعر استشهادا للنحو ..

قال آخر: وكان الإمام الشافعي يحفظ من مرة أو نظرة ..

قال آخر: وحفظ ابن سينا القرآن الكريم في ليلة واحدة ..

قال آخر: وحفظ أبو زرعة ألف ألف حديث[1] .

قلت: إنها لذاكرة عجيبة هي تلك الذاكرة التي تحمل كل هذا .. فما سرها؟

قال: الهمة والصدق والصفاء .. ألا ترى كيف يحفظ قومك الأفلام، فيوردونها مشهدا مشهدا ولقطة

([1]) ذكر ذلك في (غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب)، نقلا عن (ثمار منتهى العقول في منتهى النقول) للحافظ جلال الدين السيوطي.

لقطة؟

قلت: بلى .. أرى ذلك.

قال: فكم مجلدا هي تلك اللقطات المحفوظة؟

قلت: هي مجلدات كثيرة لا يمكن حصرها.

قال: فأفلام أهل العلم هي تلك الكتب .. لقد ترفعت همتهم عن السفاسف، ففتح الله عليهم من العلوم ومن حفظ العلوم ما ملأ غيرهم بالعجب.

قلت: رغبتنا في الحفظ .. فما الذي يعين عليه؟

قال: أوله الصفاء .. فلا يمكن أن تكتب في أوراق مكتوبة .. قال تعالى :﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) (البقرة:١٥١) .. انظر كيف قدم الله تعالى التزكية على العلم .. فلا يمكن لمن تلطخ بالأوزار أن يستوعب الأسرار.

وقال تعالى :﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)(البقرة: من الآية٢٨٢) .. انظر كيف قرن الله التقوى بالعلم .. فلا يتعلم حقيقة العلم إلا من اتقى الله حق التقوى.

قلت: هذا الأول .. فما الثاني؟

قال: تكرير ما تريد حفظه على قلبك .. فلا يثبت الحفظ مثل التكرار .. فعن علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ قال: تزاوروا وتدارسوا الحديث، ولا تتركوه يدرس.

وقال علقمة: أطيلوا ذكر الحديث لئلا يدرس.

وقال الليث بن سعد: وضع طست بين يدي ابن شهاب، فتذكر حديثًا، فلم تزل يده في الطست حتى طلع الفجر حتى صححه.

وقال سفيان الثوري : اجعلوا الحديث حديث أنفسكم ، وفكر قلوبكم تحفظوه.

وقيل للأصمعي : كيف حفظت ونسي أصحابك؟ قال : درست وتركوا.

وقال جعفر المراغي : دخلت مقبرة بتُستَر، فسمعت صائحًا يصيح : والأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة، والأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة، والأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة .. ساعة طويلة ، فكنت أطلب الصوت إلى أن رأيت ابن زهير، وهو يدرس مع نفسه من حفظه حديث الأعمش .

قلت: هذا الثاني .. فما الثالث؟

قال: المذاكرة .. مذاكرة ما تحفظ مع غيرك .. ليضبط لك ما لم تضبطه، ويفتح عليك ما نسيته ، ويضيف لك جديدا إن كان عنده .. حدث سعيد بن جبير أن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ كان يقول : يا سعيد أخرج بنا إلي النخل، ويقول: يا سعيد، حدث، قلت: أحدَّث وأنت شاهد ؟ قال : إن أخطأت فتحت عليك.

وعن إبراهيم النخعي قال : إنه ليطول عليَّ الليل حتى ألقي أصحابي فأذاكرهم.

وعن عبد الله بن المعتز قال : من أكثر مذاكرة العلماء لم ينس ما علم واستفاد ما لم يعلم.

وعن إبراهيم الأصبهاني قال : كل من حفظ حديثاً فلم يذاكر به تفلت منه .

قلت: هذا الثالث .. فما الرابع؟

قال: تعليم الناس ما تحفظ .. فليس شيء أكثر ترسيخا للعلم في الذهن من إنفاقه .. فعن إبراهيم النخعي قال : من سره أن يحفظ الحديث فليحدث به، ولو أن يحدث به من لا يشتهيه، فإنه إذا فعل ذلك كان كالكتاب في صدره.

وحدث إسحاق بن راهويه قال: سألت وكيعاً عن الرجل يطلب العلم ، وفي نيته أن يذاكر به ويتحدث به أو نحو ذلك، أتراه يأثم في ذلك؟ قال : يا ابن أخي، حدثنا سفيان عن حبيب بن أبي ثابت قال : طلبنا هذا العلم ومالنا فيه نية، ثم جاءت النية والعمل بعد.

وعن ابن شهاب أنه كان يسمع العلم من عروة وغيره، فيأتي إلى جارية له، وهى نائمة، فيوقظها، فيقول: اسمعي حدثني فلان كذا وفلان كذا، فتقول: مالي وما لهذا الحديث ؟! فيقول : قد علمت أنك لا تنتفعين به، ولكن سمعته الآن فأردت أن استذكره.

وعن زياد بن سعد قال : ذهبنا مع الزهري إلى الشِّعب، قال : فكان الزهري يجمع الأعاريب فيحدثهم يريد الحفظ.

قلت: وعينا كل هذا فما السنة التي ورثتموها في كيفية ذلك؟

قال: لقد ورثنا عن سلفنا من العلماء .. وهم ورثوه عن أسلافهم إلى السلف الأول من ورثة رسول الله ﷺ في ذلك منهجا متكاملا:

يبدأ الطالب فيه بتصحيح ما يقرؤه قبل حفظه تصحيحاً متقناً، إما على الشيخ وإما على غيره ممن يعينه، ثم يحفظه بعد ذلك حفظاً محكماً، ثم يكرر عليه بعد حفظه تكراراً جيداً، ثم يتعاهده بعد ذلك، ولا يحفظ شيئاً قبل تصحيحه، لأنه يقع في التحريف والتصحيف.

وفي منهجنا أن العلم لا يؤخذ من الكتب، فإنه من أضر المفاسد، بل ينبغي أن يحضر معه الدواة والقلم للتصحيح في مجلس التصحيح، وأما التصحيح حال الدرس، فكان بعضهم يمنع منه لما فيه من الاشتغال عن تقرير الشيخ، وإنما يجعل عليه علامة ليصلحه بعد فراغه وبضبط ما يصححه لغةً وإعراباً.

وإذا رد الشيخ عليه لفظة، وظن أن رده خلاف الصواب أو علمه، كرر اللفظة مع ما قبلها لينتبه لها الشيخ، أو يأتي بلفظ الصواب على سبيل الاستفهام، فربما وقع ذلك سهواً أو سبق لسان لغفلة، ولا يقل بل هي كذا، بل يتلطف في تنبيه الشيخ له، فإن لم ينتبه قال: فهل يجوز فيها كذا؟ فإن رجع الشيخ إلى الصواب فلا كلام، وإلا ترك تحقيقها إلى مجلس آخر يتلطف لاحتمال إن يكون الصواب مع الشيخ، وذلك أنه إذا تحقق خطأ الشيخ في جواب مسألة لا يفوت تحقيقه، ولا يعسر تداركه.

فإن كان السائل غريباً، أو بعيد الدار، تعين تنبيه الشيخ على ذلك في الحال بإشارة أو تصريح، فإن ترك ذلك خيانة للشيخ فيجب نصحه بما أمكن من تلطف أو غيره، وإذا وقف على مكان كتب قبالته بلغ العرض والتصحيح.

ثم على الطالب أن يبدأ بالحفظ ويبكر به ..

ثم عليه أن يبحث عن شرح محفوظاته المختصرات وضبط ما فيها من الاشكالات والفوائد المهمات.

ثم عليه أن ينتقل إلى بحث المبسوطات مع المطالعة الدائمة، وتعليق ما يمر به أو يسمعه من الفوائد النفيسة، والمسائل الدقيقة، والفروع الغريبة، وحل المشكلات والفروق بين أحكام المتشابهات من جميع أنواع العلوم، ولا يستقل فائدة يسمعها أو يتهاون بقاعدة يضبطها، بل يبادر إلى تعليقها وحفظها.

ثم عليه أن يكون صاحب همة في طلب العلم عالية، فلا يكتفي بقليل العلم مع إمكان كثيره، ولا يقنع من إرث الأنبياء بيسيرة، ولا يؤخر تحصيل فائدة تمكن منها أو يشغله الأمل والتسويف عنها، فإن للتأخير آفات، ولأنه إذا حصلها في الزمن الحاضر، حصل في الزمن الثاني غيرها ويغتنم وقت فراغه ونشاطه، وزمن عافيته وشرخ شبابه، ونباهة خاطره، وقلة شواغله، قبل عوارض البطالة، أو موانع الرياسة.

السمت

بعد أن انتهينا من دراسة ما يتطلبه الفرع الثاني من علوم وآداب، انتقلنا إلى الفرع الثالث، وهو فرع (السمت)

وقد سألنا ــ ونحن في الركن المرتبط بهذا من محضرة الآداب ــ شيخنا محمد الأمين الشنقيطي عن معنى السمت، وضرورته لطالب العلم، فقال: السمت الحسن هو التزام هيئة الصالحين في أحوالهم جميعا من كلام وفعال ومعاملات وهيئات وحركات وسكنات وغيرها .. فلا يمكن لطالب العلم إلا أن يميز عن غيره ليستفيدوا منه.

قلت: أليس قد أمرنا أن نكون كالناس؟ .. فكيف تعتبر التميز شعارا للصالحين؟

قال: التميز نوعان: نوع هو محض كبر وسمعة ورياء .. وهذا قد حذر منه الصالحون .. روي أن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ نظر إلى رجل، وهو يطأطئ رقبته فقال: يا صاحب الرقبة إرفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب.

وأتى أبو أمامة الباهلي ــ رضي الله عنه ــ على رجل في المسجد، وهو ساجد يبكي في سجوده ويدعو، فقال له أبو أمامة: أنت أنت .. لو كان هذا في بيتك.

وقال محمد بن المبارك الصوري: أظهر السمت بالليل، فإنه أشرف من إظهاره بالنهار، لأن السمت بالنهار للمخلوقين، والسمت بالليل لرب العالمين.

وقال علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ : للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه، وينقص إذا ذم به.

قلت: هذا السمت الأول .. وهو السمت المذموم، وهو الذي كنت أعنيه، فما الثاني؟

قال: هو في ظاهره كالسمت الأول .. ولكن صاحبه ابتدأ بسمت الباطن، فحسنه وجمله وزينه .. فلما اعتدل باطنه بالطاعات زين الله ظاهره بما يملأ الله القلوب هيبة منه وتوقيرا له.

ولهذا اعتبر ﷺ هذا النوع من السمت من النبوة، فقال :(الهَدْي الصالح ، والسمت الصالح ، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة)[1]

وهذا يبين لنا أن الذي يتحلى بالسمت الصالح والهدي الصالح يُقتدى به ويحاكي بعض صفات النبوة ، وكفى بذلك شرفاً.

قلت: أفي القرآن الكريم ما يشير إلى هذا؟

قال: يستحيل على الكتاب الذي فيه بيان كل شيء ألا يكون فيه مثل هذا.

قلت: فأين هو فيه؟

قال: فيه جميعا .. فكل آية في القرآن الكريم تحمل أدبا يزين به الباطن، ليبرز أثره بعد ذلك إلى الظاهر ..

---

(1) رواه أحمد وأبو داود عن ابن عباس.

ألم تسمع قوله ﷺ :(أدبني ربي فأحسن تأديبي)[1]، وقول عائشة ــ رضي الله عنها ــ عن رسول الله ﷺ :(كان خلقه القرآن)[2]؟

قلت: بلى .. فاذكر لي نموذجا ييسر لي فهم ذلك.

قال: اقرأ ما ورد في صفات (عباد الرحمن) في القرآن الكريم.

أخذت أقرأ :﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾ (الفرقان:٦٣)

قال: حسبك .. ألا ترى أن الآية بدأت وصف عباد الرحمن بكونهم يمشون؟

قلت: بلى .. ولكنها لو اكتفت بمشيهم فقط لما كان لعباد الرحمن في هذا أي ميزة.

قال: فبم وصفت مشيتهم؟

قلت: بالهون .. إنها ذكرت أنهم ﴿ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً ﴾

قال: فهذا هو السمت الحسن الصالح .. والذي هو جزء من النبوة .. والذي نحرص على تعليمه هنا في هذه المحضرة.

قلت: أهو مرتبط بالمشي فقط؟

قال: بكل سلوك من سلوكيات الحياة .. فلكل سلوك هونه الخاص به.

قلت: فما سر بدئكم به قبل التعليم؟

قال: لأنه لا يمكن أن يتعلم من لم يكن له سمت أهل العلم .. فالمدارس المستنة بسنة رسول الله ﷺ تخرج المتأدبين لا المشاغبين.

قلت: أللسمت الحسن تأثيره في التحصيل؟

قال: لو لم يكن له تأثيره في التحصيل لم نبدأ به .. لقد صحبت الوارث .. ولعله أخبرك عن مجالس رسول الله ﷺ .. فحدثنا عما رواه لك من أحاديث في هذا.

قلت: أجل .. لقد حدثنا عن أسامة بن شريك ــ رضي الله عنه ــ قال: كنا عند رسول الله ﷺ ما يتكلم منا متكلم، كأن على رؤوسنا الطير[3].

وفي رواية: أتيت رسول الله ﷺ ، وأصحابه حوله، وعليهم السكينة، كأنما على رؤوسهم الطير، فسلمت، ثم قعدت، وذكر الحديث[4].

وحدثنا عن البراء بن عازب ــ رضي الله عنه ــ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من

---

(1) رواه أبو سعد بن السمعاني في أدب الإملاء من حديث ابن مسعود، والعسكري في الأمثال، وابن الجوزي في الأحاديث الواهية من حديث علي، وقال: لا يصح، وصححه أبو الفضل بن ناصر.

(2) رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

(3) رواه ابن حبان والحاكم، والذهبي، وأقره، ورواه الطبراني بسند صحيح.

(4) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه.

الأنصار فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله، كأنما على رؤوسنا الطير[1].

وحدثنا عن ابن بريدة عن أبيه قال: كنا إذا قعدنا عند رسول الله ﷺ لم ترتفع رؤوسنا إليه إعظاما له[2].

قال: هل كان يمكن لرسول الله ﷺ أن يعلم أصحابه، ويستفيد أصحابه من أحاديثه وتعليمه في مجلس ترتفع فيه الأصوات، ولا يرعى بعضهم حرمة بعض؟

قلت: لا .. لا يمكن ذلك.

قال: ولهذا كان رسول الله ﷺ يبدأ بالأدب قبل التعليم .. وهو سنة رسول الله ﷺ وسنة سلف الأمة الصالح .. بل إن القرآن الكريم حض عليه وأمر به، فقال :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (الحجرات:٤)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾ (الحجرات)

قال بعض الطلبة: إن ما روي في سبب نزول الآيات يدل على ما ذكرت .. فمما روي في ذلك عن ابن أبي مُلَيْكَة قال: كاد الخيِّران أن يهلكا، أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، رفعا أصواهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك. فارتفعت أصواهما في ذلك، فأنزل الله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات:٢)، قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمعُ رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه[3].

قال آخر: وروي عن أبي بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ أنه قال: لما نزلت هذه الآية :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾، قلت: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخي السّرار[4].

قال آخر: وحدث أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده في بيته مُنَكِّسًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يَرْفَعُ صوته فوق صوت النبي ﷺ ، فقد حبط عمله، فهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال: اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك

(١) رواه الطيالسي بسند صحيح، وابن أبي شيبة، وأحمد بن منيع.

(٢) رواه ابن حبان، والحاكم، وصححه الذهبي، وأقره.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه البزار في مسنده وقال: لا نعلمه يروى متصلا إلا عن أبي بكر، وحصين حدث بأحاديث لم يتابع عليها، ومخارق مشهور، ومن عداه أجلاء.

من أهل الجنة)[1]

قال آخر: وحدث أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: لما نزلت هذه الآية :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ) (الحجرات:٢)، وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ حبط عملي، أنا من أهل النار، وجلس في أهله حزينا، ففقده رسول الله ﷺ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ، ما لك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ ، وأجهر له بالقول حبط عملي، أنا من أهل النار. فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال: (لا، بل هو من أهل الجنة)، قال أنس: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة. فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفنه، فقال: بئسما تُعوّدون أقرانكم. فقاتلهم حتى قُتل[2].

قال آخر: وحدث بعضهم عن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ أنه سمع صَوت رجلين في مسجد رسول الله ﷺ قد ارتفعت أصواهما، فجاء، فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: مِن أين أنتما؟ قالا من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا[3].

قال: أرأيتم كيف كانت حساسية صحابة رسول الله ﷺ تجاه هذا .. إن الأدب هو أساس الدين .. ولا يمكن لطالب العلم أن يتعلم، وهو يفتقد أساس الدين.

قال بعض الطلبة: فما الذي سنتعلمه في هذا الفرع؟

قال: أربعة أنواع من السمت لابد لطالب العلم الذي يريد أن يستن بسنة رسول الله ﷺ منها، ليبارك له في علمه، وليحصل في أقل مدة ما لا يحصل غيره في أكثر منها.

قلنا: فما هي؟

قال: سمت مرتبط بنفسه، وسمت مرتبط بعلمه، وسمت مرتبط بدرسه، وسمت مرتبط بمعلمه.

مع نفسه:

كان أول ما بدأنا به دراستنا في فرع (السمت) السمت المرتبط بنا، وبسلوكنا تجاه أنفسنا، وكان أول درس جمعنا بشيخنا الشنقيطي قرأ لنا فيه قوله ﷺ :(طلب العلم فريضة على كل مسلم، وواضع العلم عند أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب)[4]

ثم قال: إن رسول الله ﷺ في هذا الحديث يدعونا إلى أن نقدم التخلص من الخنزيرية قبل التعلم .. ألا ترون كيف أمرنا بطلب العلم، ثم نهى أن يوضع العلم عند غير أهله، وشبه من يفعل ذلك بمن يقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب؟

قلنا: ذلك صحيح .. فما المخرج من الخنزيرية؟

---

(1) رواه البخاري.
(2) رواه أحمد.
(3) رواه البخاري.
(4) رواه ابن ماجه وغيره.

قال: لقد حفظ سلفنا عن سلفهم إلى رسول الله ﷺ في ذلك أربعة سنن، وستتعلمون أصولها وأركانها في هذا الفرع.

قلنا: فما أولها؟

قال: أن يتخلق طالب العلم بما حث الشرع عليه من الزهد في الدنيا، والتقلل منها بقدر الإمكان، فإن ما يحتاج إليه منها على الوجه المعتدل من القناعة لا يعد من الدنيا.

قال الشافعي: لو أوصى لأعقل الناس صرف إلى الزهاد، فمن أحق من العلماء بزيادة العقل وكماله.

وقال يحيى بن معاذ: لو كانت الدنيا تبراً يفنى والآخرة خزفاً يبقى، لكان ينبغي للعاقل إيثار الخزف الباقي على التبر الفاني، فكيف والدنيا خزف فانٍ والآخرة تبر باق.

قلت: فما سر احتياج الطالب للزهد[1]؟

قال: لأن الطالب الذي امتلأ قلبه بالشهوات والأهواء والرغبات لن يبقى فيه محل للاستفادة من العلم .. وكيف يستفيد وآلة العلم هي مرآة القلب .. ومرآة القلب منصرفة إلى الرغبات.

قلنا: فما الثاني؟

قال: أن يتجنب كل خوارم المروءة من دنيء المكاسب ورذيلها، ويتجنب مواضع التهم وإن بعدت، ولا يقيل شيئاً يتضمن نقص مروءة، وما يستنكر ظاهراً، وإن كان جائزاً باطناً، فإنه يعرض نفسه بذلك للتهمة، ويوقع الناس في الظنون المكروهة، فإن اتفق وقوع شيء من ذلك منه لحاجة أو نحوها، أخبر من شاهده بحكمه، وبعذره ومقصوده، كيلا يأثم من رآه بسببه، أو ينفر عنه، فلا ينتفع بعلمه ولا يستفيد بذلك الجاهل به، ففي الحديث عن عن أم المؤمنين صفية بنت حيي ــ رضي الله عنها ــ قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته ثم قمت لأنقلب، فقام معي ليقلبني، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال ﷺ :(على رسلكما، إنها صفية بنت حيي)، فقالا: سبحان الله يا رسول الله ؟ فقال: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً)[2]

قلنا: فما الثالث؟

قال: أن يطهر باطنه وظاهره من الأخلاق الردية، كالغل، والحسد، والبغي، والغضب لغير الله تعالى، والغش، والكبر، والرياء والعجب، والسمعة، والبخل، والجبن والبطر والطمع، والفخر، والخيلاء، والتنافس في الدنيا، والمباهاة فيها، والمداهنَة والتزين للناس، وحب المدح بما لم يفعل، والعمى عن عيوب النفس، والاشتغال عنها بعيوب الخلق، والحمية، والعصبية لغير الله، والرغبة والرهبة لغيره، والغيبة، والنميمة، والبهتان، والكذب، والفحش في القول، واحتقار الناس ولو كانوا دونه، وغيرها من الصفات الخبيثة، والأخلاق الرذيلة، فإنها باب كل شر، بل هي الشر كله.

قلنا: فما المخرج من هذه الرذائل، وهي لا يكاد تنجو منها نفس؟

---

(1) ذكرنا بتفصيل مفهوم الزهد وآثاره السلوكية في رسالة (كنوز الفقراء)

(2) رواه البخاري ومسلم.

قال: لكل علاجه الذي به يعالج .. ألم يقل رسول الله ﷺ :(إن الله تعالى حيث خلق الداء خلق الدواء فتدواوا)[1]

قلت: إن رسول الله ﷺ يذكر في هذا الحديث دواء الأجساد.

قال: بل هو يذكر كل الأدوية .. فلا فرق بين مرض الروح ومرض الجسد.

قلت: فهل تضرب لنا أمثلة على ذلك؟

قال: من أدوية الحسد مثلا: الفكر في أنه اعتراض على الله تعالى في حكمته المقتضية تخصيص المحسود بالنعمة، مع أنه محض ضرر على الحاسد يجلب له الغم، وتعب القلب، وتعذيبه بما لا ضرر فيه، على المحسود.

ومن أدوية العجب، تذكر أن علمه وفهمه وجودة ذهنه وفصاحته وغير ذلك من النعم، فضل من الله عليه، وأمانة عنده ليرعاها حق رعايتها، وأن العجب بها كفران لنعمتها فيعرضها للزوال، لأن معطيه إياها قادر على سلبها منه في طرفة عين.

ومن أدوية الرياء الفكر في أن الخلق كلهم لا يقدرون على نفعه وضرره، فلم يحبط عمله ويضر دينه ويشغل نفسه بمراعاة من لا يملك له في الحقيقة نفعاً ولا ضراً مع أن الله تعالى يطلعهم على نيته، وقبح سريرته، كما قال ﷺ :(من سمع سمع الله به ، ومن رايا رايا الله به ، ومن شاق شق الله عليه يوم القيامة)[2]

ومن أدوية احتقار الناس، تدبر قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْأِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات:١١)، وقوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣)

وربما كان المحتقر أطهر عند الله قلباً وأزكى عملاً، وأخلص نية كما قيل: (إن الله تعالى أخفى ثلاثة في ثلاثة، وليه في عباده، ورضاه في طاعته، وغضبه في معصيته)، مع أن احتقار عباد الله مجرد خسران يورث الذل لفاعله.

وفي خبر للحارث بن معاوية: أنه سأل عمر عن القصص، وأن عمر قال له: أخشى عليك أن تقص فترتفع في نفسك، ثم تقص فترتفع في نفسك، حتى يخيل إليك أنك فوقهم بمترلة الثريا فيضعك الله تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك[3].

قلنا: فما الرابع؟

قال: أن يعمر باطنه بالأخلاق المرضية، كدوام التوبة، والإخلاص، واليقين، والتقوى، والصبر، والرضى، والقناعة، والزهد، والتوكل، والتفويض، وسلامة الباطن، وحسن الظن، والتجاوز، وحسن الخلق، ورؤية

---

(1) رواه أحمد، وللحديث روايات أخرى كثيرة لغير أحمد.

(2) رواه أحمد والبخاري وابن ماجة.

(3) رواه أحمد، والحارث ابن معاوية وثقه ابن حبان وبقية رجاله رجال الصحيح.

الإحسان، وشكر النعمة، والشفقة على خلق الله والحياء من الله ومن الناس، ومحبة الله تعالى، هي الخصلة الجامعة لمحاسن الصفات.

وكل ذلك لا يتحقق إلا بمتابعة الرسول ﷺ كما قال تعالى :﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١)

مع علمه:

بعد أن درسنا وتدربنا على الآداب المرتبطة بالسمت مع النفس مدة، انتقلنا إلى الفرع الثاني للسمت، وهو السمت مع العلم، وقد بدأ الشنقيطي حديثه عن هذا النوع من السمت بقراءة عشر آيات من القرآن الكريم:

أما الأولى، فقوله تعالى :﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة: من الآية١٢٠)

وأما الثانية، فقوله تعالى :﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٤٧)

وأما الثالثة، فقوله تعالى :﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:١٨)

وأما الرابعة، فقوله تعالى :﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ ﴾ (الرعد:٣٧)

وأما الخامسة، فقوله تعالى :﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً﴾ (الاسراء:١٠٧)

وأما السادسة، فقوله تعالى :﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾ (مريم:٤٣)

وأما السابعة، فقوله تعالى :﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الحج:٥٤)

وأما الثامنة، فقوله تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (القصص:٨٠)

وأما التاسعة، فقوله تعالى :﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (سبأ:٦)

وأما العاشرة، فقوله تعالى :﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(آل عمران: من الآية٧)

وقد سألناه عن سر قراءة هذه الآيات، فقال: لابد لمن يريد أن يدرس هذا النوع من السمت أن يقرأ هذه الآيات، ويكررها على نفسه، ويتدبرها، ويمعن في تدبيرها.

قلنا: لم؟

قال: لأنها الأساس الذي يبنى عليه السمت مع العلم.

قلنا: فما الذي يفهمه طالب العلم من الآية الأولى[1]؟

قال: الآية الأولى تبين أن للعلم من المكانة ما يجعل صاحبه مترفعا عن اتباع غيره، فالعلم يُتبع ولا يتبع .. والعالم يُطلب ولا يطلب.

ولهذا نصحنا جميع مشايخنا، وهم كذلك نصحوا خلفا عن سلف، أن نصون العلم كما صانه علماء السلف، ونقوم له بما جعله الله تعالى له من العزة والشرف، فلا ندنسه بالأطماع، ولا نذله بذهابنا ومشينا إلى غير أهله من أبناء الدنيا من غير ضرورة أو حاجة أكيدة، ولا إلى من يتعلمه منا منهم، وإن عظم شأنه وكبر قدره وسلطانه.

وقد روى لنا شيوخنا عن الزهري قوله: هوان بالعلم أن يحمله العالم إلى بيت المتعلم.

ورووا أن مالك بن أنس قال للمهدي، وقد استدعاه لولديه يعلمهما: (العلم أولى أن يوقر ويؤتى)، وفي رواية: (العلم يزار ولا يزور ويؤتى ولا يأتي)، وفي رواية: (أدركت أهل العلم يؤتون ولا يأتون)

ويروى عنه أنه قال: دخلت على هارون الرشيد فقال يا أبا عبد الله: ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ، قال: فقلت أعزك الله إن هذا العلم منكم خرج، فإن أنتم أعززتموه عز، وإن أذللتموه ذلَّ، والعلم يؤتى ولا يأتي، فقال: صدقت اخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا من سمع الناس.

ويروى أن الرشيد سأله: هل لك دار؟ فقال: لا. فأعطاه ثلاثة آلاف دينار، وقال: اشتر بها داراً، فأخذها ولم ينفقها، فلما أراد الرشيد الشخوص إلى العراق قال لمالك: ينبغي لك أن تخرج معنا، فإني عزمت أن أحمل الناس على الموطأ، كما حمل عثمان الناس على القرآن، فقال له: أما حمل الناس على المَوَطأ فليس إلى ذلك سبيل، لأن أصحاب رسول الله ﷺ افترقوا بعده في الأمصار، فحدثوا فعند أهل كل مصر علم، وقد قال ﷺ: (اختلاف أمتي رحمة)[2]، وأما الخروج معك فلا سبيل إليه، قال ﷺ : (المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون)[3]، وقال ﷺ :(المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد)[4]، وهذه دنانيركم كما هي أن شئتم فخذوها، وإن شئتم فدعوها ــ يعني أنك إنما حملتني على مفارقة المدينة بما اصطنعت لدي فلا أوثر الدنيا على الأخرى ــ)

قال بعض الطلبة: وعن مقاتل بن صالح الحميدي قال: دخلت على حماد بن سلمة فبينما أنا عنده إذ دق رسول محمد بن سليمان فدخل فسلم وناوله كتابه فقال: أقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن

---

(1) .

(2) رواه البيهقي عن الضحاك عن ابن عباس، رفعه في حديث طويل (واختلاف أصحابي لكم رحمة)، ورواه الطبراني والديلمي والضحاك عن ابن عباس منقطعا، وقال العراقي: مرسل ضعيف.

وقد أورده ابن الحاجب في المختصر في القياس وكثر السؤال عنه وزعم كثير من الأئمة أنه لا أصل له، لكن ذكره الخطابي، وقال: اعترض على الحديث رجلان أحدهما ماجن والآخر ملحد، وقالا: لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق عذابا، ثم رد الخطابي عليهما، ولم يقع في كلامه شفاء في عزو الحديث، ولكنه أشعر بأن له أصلا عنده. (انظر: تذكرة الموضوعات: ١/٩٠.

(3) رواه مالك وغيره.

(4) رواه أحمد ومسلم.

سليمان إلى حماد بن سلمة، أما بعد فصبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته، وقعت مسألة فأتنا نسألك عنها، فقال لي: اقلب الكتاب واكتب: أما بعد، وأنت صبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته، إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحداً، فإن وقعت مسألة، فأتنا، فاسألنا عما بدا لك، وإن أتيتني فلا تأتني إلا وحدك، ولا تأتني بخيلك ورجالك فلا أنصحك ولا أنصح نفسي، والسلام.

فبينما أنا عنده جالس إذ دق داق الباب، فقال: يا صبية اخرجي فانظري من هذا؟ قالت: هذا محمد بن سليمان، قال: قولي له يدخل وحده، فدخل، فسلم، ثم جلس بين يديه، ثم ابتدأ فقال: مالي إذا نظرت إليك امتلأت رعباً، فقال حماد سمعت ثابتاً البناني يقول: سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن العالم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شيء، وإذا أراد أن يكثر به الكنوز هاب من كل شيء)[1]، فقال: ما تقول يرحمك الله؟ وذكر مسألته وجوابها، ثم قال: وحاجة إليك قال: ما لم تكن رزية في دين، قال: أربعون ألف درهم تأخذها تستعين بها على ما أنت عليه، قال: أرددها على من ظلمته بها، قال: والله ما أعطيتك إلا ما ورثته قال: لا حاجة لي فيها، ازوها عني زوى الله عنك أوزارك، قال: فغير هذا، قال: هات ما لم يكن رزية في دين، قال: تأخذها فتقسمها، قال: فلعلي إن عدلت في قسمتها أن يقول بعض من لم يرزق منها إنه لم يعدل في قسمتها فيأثم، إزوها عني، زوى الله عنك أوزارك[2].

قلت: فما تقول في زيارة بعض علماء السلف الأمراء والوزراء؟

قال: ذلك يختلف باختلاف النيات .. فإن حسنت النية حسنت الزيارة.

قلت: فكيف تحسن النية؟

قال: إن خرج إليه ليصطاد من دنياه كان من علماء السلاطين .. واصطيد من دينه ما اصطاد من دنياهم .. أما إن خرج لله وفي الله، فإن الله يحفظه بخروجه .. ولعله يفيد بخروجه، وعلى هذا يحمل ما جاء عن بعض السلف من المشي إلى الملوك وولاة الأمر، كالشافعي وغيره.

أما المشي لغيرهم، فلا حرج فيه لأنه لا طمع فيه، وقد كان سفيان الثوري يمشي إلى إبراهيم بن أدهم ويفيده، وكان أبو عبيد يمشي إلى علي بن المديني يسمعه غريب الحديث.

قلنا: عرفنا ما يفهمه طالب العلم من الأولى، فما الذي يستفيد من الثانية[3]؟

قال: ألا ترون كيف أثنى الله تعالى على ما آتى لوطا من سعة العلم .. وكيف ــ في المقابل ــ احتقره بنو إسرائيل لأنه لم يؤت سعة من المال؟

([1]) قال العراقي في تخريج الإحياء: معضل، وروى أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث واثلة بن الأسقع :(من خاف الله خوف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله خوفه الله من كل شيء)، وللعقيلي في الضعفاء نحوه من حديث أبي هريرة وكلاهما منكر.

([2]) رواه الخطيب البغدادي في الجامع.

([3]) قوله تعالى :﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٤٧)

قلنا: بلى .. ذلك واضح في الآية.

قال: فمن احتقر العلم، وعظم المال، أو جعل العلم وسيلة للمال، فقد سلك سلوك بني إسرائيل في هذا.

قلت: ولكن المال لابد منه، وقد قال الله تعالى تعالى :﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً)(النساء: من الآية٥)، فقد أخبر الله تعالى أن بالمال تقوم حياة الناس.

قال: فرق بين أن تستعمل المال، وبين أن تعظم المال .. من استعمل المال جعله خادما له، وانتفع بخدمته .. ومن عظم المال استعبده ماله، فصار خادما لماله .. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال :﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣)﴾ (الهمزة) .. وقد أخبر الله تعالى عن مصير من هذا حاله، فقال :﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)﴾ (الهمزة)

قلت: هذا جزاؤه في الآخرة.

قال: وهناك جزاء في الدنيا لمن انشغل بماله عن علمه .. وهو جزاء يكاد يشبه ما ذكره الله تعالى من جزاء الآخرة ..

قلنا: فما هو؟

قال: إن هذا الذي استعبده ماله ستحطم إنسانيته بماله، وسيسجن في سجون ماله، وسيحرق بلهب ماله ..

لقد اتفق على هذا جميع أهل الله من ورثة رسول الله ﷺ .. ولهذا تراهم يحضون على تعظيم العلم واحترامه وعدم الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل عندما قدموا المال على العلم.

قال بعض الطلبة: أروي في ذلك ما قاله علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ لتلميذه النجيب كميل، فقد قال له: (يا كميل، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق)

قال آخر: وأروي عن أبي الأسود قوله: (ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك)

قال آخر: وأروي عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قوله: خير سليمان بن داود ــ عليهما السلام ــ بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطي المال والملك معه.

قال آخر: وأروي عن ابن المبارك أنه سئل: من الناس؟ فقال: العلماء. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد. قيل: فمن السفلة؟ قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين.

وقد علق الغزالي على هذا بقوله :(ولم يجعل غير العالم من الناس، لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم؛ فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله، وليس ذلك بقوة شخصه، فإن الجمل أقوى منه، ولا بعظمه فإن الفيل أعظم منه، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطناً منه، بل لم يخلق إلا للعلم)

قال آخر: وأروي عن بعض العلماء قوله: (ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فاته من أدرك العلم)

قال آخر: وأروي عن الزبير بن أبي بكر قوله: كتب إلي أبي بالعراق: عليك بالعلم فإنك إن افتقرت كان لك مالاً، وإن استغنيت كان لك جمالاً.

قلنا: عرفنا ما يفهمه طالب العلم من الثانية، فما الذي يستفيد من **الثالثة**[1]؟

قال: ألا ترون كيف عطف الله تعالى أهل العلم على نفسه، وعلى ملائكته؟

قلنا: بلى .. ذلك واضح.

قال: أفترون من شرف بالجلوس في ذلك المجلس الرفيع، وأحل في تلك المكانة الشريفة يرضى بالسفاسف، أو يرى أن هناك مجلسا أفضل من مجلسه، أو محلا أعلى من محله؟

قلنا: لا ..

قال: فطالب العلم المستن بسنة رسول الله ﷺ عليه أن يشهد هذا .. فلا يرى أحدا أفضل منه مجلسا، ولا مكانة ..

قلت: ولا الوزراء .. والأمراء .. والمدراء ..

قال: وماذا يساوي الوزراء والأمراء والمدراء أمام الله .. إنهم كهباءة .. أو كقلامة.. أو كلا شيء ..

وماذا يساوي الوزراء والأمراء والمدراء أمام الملائكة الذين هم رسل الله والمدبرات أمرا والمصطفين الأخيار.

قلت: فهذه الآية تعالج الجاه إذن؟

قال: أجل .. فجاه أهل العلم هو العلم.

قال بعض الطلبة: أروي في ذلك عن سالم بن أبي الجعد قوله: اشتراني مولاي بثلثمائة درهم وأعتقني، فقلت: بأي شيء أحترف؟ فاحترفت بالعلم، فما تمت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائراً، فلم آذن له.

قال الشنقيطي: بهؤلاء العلماء ارتفعت منارة العلم والدين .. لا الذين يحتبون على أبواب الملوك والأمراء يستجدونهم ويكتبون المعلقات الطوال في مدحهم.

قلنا: عرفنا ما يفهمه طالب العلم من الثالثة، فما الذي يستفيد من **الرابعة**[2]؟

قال: ألا ترون كيف نفى الله ولايته ووقايته على من اتبع ما يتطلبه الهوى، وغفل عما يتطلبه العلم؟

قلنا: أجل .. ذلك واضح.

قال: فالعلم الذي ترفع على المال وترفع على السلطان لا ينبغي أن يذل أمام الهوى، فقد ذم الله تعالى طالب العلم الذي يقع أسير هواه، فقال :﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ

---

(1) وهي قوله تعالى :﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:18)

(2) وهي قوله تعالى :﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ ﴾ (الرعد:37)

مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾ (الأعراف)

قال بعض الطلبة: بل إن الله تعالى اعتبر الهوى صنما من الأصنام التي تعبد من دون الله، فقال :﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آَلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا (٤٣)﴾ (الفرقان)

قال آخر: وقد ذكر رسول الله ﷺ ذلك، فقال :(ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع)[1]

قال الشنقيطي: وذلك لأن صاحب الهوى لن ينتقل من الخطأ إلى الصواب، أو من الصلاح إلى الفساد .. بل هو أسير هواه إن تراجع عن خطأ، فلن يقع إلا في غيره، وإن تاب عن معصيةن فلن يقع إلا في غيرها.

قال بعض الطلبة: لقد روي في هذا عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قوله: (كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زماناً من الدهر في الجاهلية، فإذا وجد حجراً أحسن منه رمى به وعبد الآخر)[2]

قال آخر: وعن أبي رجاء العطاردي قال: (كانوا في الجاهلية يأكلون الدم بالعلهز، ويعبدون الحجر ، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه رموا به وعبدوا الآخر، فإذا فقدوا الآخر أمروا منادياً فنادى: أيها الناس إن إلهكم قد ضل فالتمسوه)[3]

قال: وهكذا عباد الهوى من العلماء: يتوب من صنم الشيوعية ليقع في صنم الليبرالية.. ويتوب من عبودية الحاكم ليقع في عبودية الوزير .. ويتوب من عبودية المال ليقع في عبودية الجاه .. وهكذا يظل يتردد بين عبودية وعبودية.

قلت: فمتى يتحرر؟

قال: إذا طلق الهوى، وكفر به .. وجعل الحقيقة هدفه .. حينذاك فقط سيتحرر.

قلنا: عرفنا ما يفهمه طالب العلم من الرابعة، فما الذي يستفيد من **الخامسة**[4]؟

قال: ألا ترون كيف وصف الله أهل العلم من الذين تحرروا من إسار الهوى؟

قلنا: أجل .. لقد وصفهم بالسجود.

قال: فأي علم لا يدلك على السجود، فهو جهل .. وأي علم لم يملأك بالعبودية فالجهل خير منه.

قلت: ولكن العلم أوسع من أن يختصر في هذا .. فالعلوم كثيرة؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى :﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ

---

(1) رواه الطبراني.
(2) رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه.
(3) رواه ابن مردويه.
(4) وهي قوله تعالى :﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً) (مريم:٤٣)

ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)﴾ (الروم)؟

قلت: بلى .. فما فيها من العلم؟

قال: ألا ترى كيف نفى الله تعالى العلم عن أكثر الناس .. أي وصفهم بالجهل .. ولكنه استدرك على من يتصور أن ما لديهم من رسوم علما .. فذكر أنه مجرد ظواهر لا تحمل اسم العلم الحقيقي؟

قلت: كيف لا تحمل اسم العلم الحقيقي؟

قال: لأن العلم الذي لا يثبت، ولا يسير مع صاحبه هو إلى الجهل أقرب منه إلى العلم.

قلت: لم أفهم .. فالعلم يظل علما .. ولن يصير جهلا أبدا.

قال: الصبي في صباه له علوم كثيرة .. فهو يظن أن السماء تنتهي حيث انتهى بصره .. وأن لعبته أفضل من تيجان الملوك ..

قلت: وهل هذا يسمى علما؟

قال: بالنسبة له هو علم ..

قلت: نحن لا نسميها علوما.

قال: فهكذا الأمر بالنسبة للحقائق الأزلية .. فأكثر المعارف التي يزهو بها العلماء لا تختلف كثيرا عن تلك المعارف التي يزهو بها الصبيان.

قلت: فهمت هذا .. فقربه لي .. فإني من قوم عبدوا علومهم، وصار يصعب عليهم فهم مثل هذا؟

قال: أرأيت لو أن البشرية استطاعت في يوم من الأيام أن تنفذ من أقطار السماء .. كيف يصبح ــ حينها ــ صعودها إلى القمر؟

قلت: يصبح مجرد لعبة .. فالبشرية لو وصلت إلى هذا، فإن القمر حينها يصبح جزيرة لا كوكبا .. بل لعل الصبيان ــ حينها ــ يمتطون دراجاتهم للصعود إليه.

قال: فما ورد في النصوص المقدسة من الحقائق عن الكون يجعل من كل ما نراه شيئا هينا لا يكاد يذكر ..

قلت: فكيف يدل العلم على السجود؟

قال: من وعى هذا سجد لله لا محالة .. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك :﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) (فاطر:٢٨)

قلنا: عرفنا ما يفهمه طالب العلم من الخامسة، فما الذي يستفيد من **السادسة**[1]؟

قال: أليس الابن تابعا لأبيه؟

قلنا: بلى .. وقد حدث جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول

---

(1) وهي قوله تعالى :﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً) (الاسراء:١٠٧)

الله، إن لي مالا وعيالا، وأنه يريد أن يأخذ من مالي إلى ماله، فقال رسول الله ﷺ :(أنت ومالك لأبيك)[1]

قال: وفي العلم .. هل يجوز للعالم أن يترك ما هداه إليه علمه في مسألة لأن أباه يقول بها؟

قال بعض الطلبة: لو فعل ذلك لصدق عليه قوله تعالى :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ) (البقرة:١٧٠)

قال آخر: لو فعل ذلك لصدق عليه قوله تعالى :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ) (المائدة:١٠٤)

قال آخر: لو فعل ذلك لصدق عليه قوله تعالى :﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) (لأعراف:٢٨)

قال آخر: لو فعل ذلك لكان مثل الذين حكى الله تعالى قولهم، فقال:﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ) (الانبياء:٥٣)، وقال :﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) (الشعراء:٧٤)

قال: فكما تحرر العالم من سلطان المال والجاه والهوى .. ينبغي أن يتحرر من سلاطين الآباء والأجداد والجذور .. فليس للعالم من سلطان غير سلطان علمه.

قلنا: عرفنا ما يفهمه طالب العلم من السادسة، فما الذي يستفيد من **السابعة**[2]؟

قال: ألا ترون كيف وصف الله أهل العلم بالإخبات؟

قلنا: أجل .. ونحن نعلم أن الإخبات هو الخضوع.

قال: متى وصفهم بذلك؟

قلنا: بعد علمهم بأنه الحق.

قال: فالعالم الذي وصف بأنه تخلص من إسار الهوى والسلطان والمال والجذور وصف بالخضوع للحق.

قلنا: ذلك صحيح.

قال: وما كان جزاء من أخبت للحق؟

قلنا: لقد ذكر الله ذلك، فقال :﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

قال: فهذا وعد من الله تعالى لمن لم يخضع إلا لما يطلبه الحق بأن يهديه إلى الصراط المستقيم.

قلنا: ذلك صحيح.

قال: وهذا يعني أن من تكبر على الحق، أو كتم الحق بعد أن علمه، أو لم يسلك السبيل الصحيح التي تهديه إلى الحق، فلن يهتدى سواء السبيل.

قلنا: ذلك كذلك.

قال: فهذه الآية ترسم لنا المنهج الموضوعي في العلم .. وهو المنهج المتحرر من كل قيد سوى قيد البحث

---

(1) رواه ابن ماجه باختصار، ورواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح خلا شيخ الطبراني حبوش بن رزق الله ولم يضعفه أحد.

(2) وهي قوله تعالى :﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الحج:٥٤)

عن الحقيقة .. وطالب العلم الذي لم يمتلئ بهذا، لن يزيده علمه إلا نفورا من الحق وإعراضا عنه.

قلت: ولكن المعلمين عندنا يربون تلاميذهم على التقليد؟

قال: من ربى تلاميذه على التقليد، فقد أحدث، ومن أحدث فقد ابتدع، ولا يبتدع إلا ضال.

قلنا: عرفنا ما يفهمه طالب العلم من السابعة، فما الذي يستفيده من **الثامنة**[1]؟

قال: ألا ترون كيف تحرر أهل العلم من إسار مجتمعاتهم، فراحوا يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر لا يبالون في ذلك لومة لائم.

قلنا: أجل .. فقد حكى الله تعالى عن موقف مجتمع هؤلاء لما عاينوا زينة قارون، فقال :﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) (القصص:٧٩)

قال: وذكر في نفس الوقت موقف أهل العلم المترفع الناصح.

قلنا: أجل ..

قال: فالعالم هو الذي لا يستسلم للتقاليد والأعراف، فلا يخضع لسلطانها، ولا تستعبده بأهوائها، بل تكون له السلطة عليها .. فالعالم مؤثر لا متأثر، وفاعل لا مفعول، ومغير لا متغير.

قال بعض الطلبة: صدقت .. وقد ذكر رسول الله ﷺ بعض علماء بني إسرائيل، فقال :(لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم وأسواقهم وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم ﴿ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)(المائدة: من الآية٧٨)، وكان رسول الله ﷺ متكئًا فجلس فقال: (لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا)[2]

قال آخر: وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ :(إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال :﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) (المائدة:٧٨)، ثم قال: (كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذُنَّ على يد الظالم، ولَتَأطرنَّه على الحق أطْرا أو تقصرنه على الحق قصرًا)[3]

([1]) وهي قوله تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ) (القصص:٨٠)

([2]) رواه أحمد.

([3]) رواه الترمذي وابن ماجه، من طريق علي بن بَذيمة، به وقال الترمذي: (حسن غريب)، ثم رواه هو وابن ماجه، عن بُنْدَار، عن ابن مَهْدِيّ، عن سفيان، عن علي بن بَذيمة، عن أبي عبيدة مرسلا.

قلنا: عرفنا ما يفهمه طالب العلم من الثامنة، فما الذي يستفيد من **التاسعة**[1]؟

قال: ألا ترون كيف وصف الله النهاية التي يبلغها أهل العلم .. أو النتيجة التي يصلون إليها؟

قلنا: أجل .. لقد ذكر الله أن النتيجة النهائية التي يصل إليها أهل العلم هي أن يعلموا أن ﴿ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

قال: فالعالم هو الذي لا يغفل عن هذا النوع من العلم .. لأنه لن يصل إلى لباب العلم به.

قلنا: فأين نجد هذا العلم؟

قال: العلوم صنفان: علوم حقائق .. وهي تدلك على أن كل ما أنزل على محمد ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه.

وعلوم سياسات .. وهي تدلك على أن كل ما أنزل على محمد ﷺ هو الصراط المستقيم الذي يتوافق مع الفطرة، ولا يصلح الإنسان إلا به.

قلت: فما فائدة هذا لطالب العلم؟

قال: أن لا يقتنع طالب العلم بأي نهاية حتى يصل إلى هذه النهاية .. وهذه النهاية لا حد لها .. فلذلك يظل طول عمره باحثا سالكا سائرا.

قلنا: عرفنا ما يفهمه طالب العلم من التاسعة، فما الذي يستفيد من **العاشرة**[2]؟

قال: ألا ترون كيف وصف الله أهل العلم الراسخين فيه بالتسليم المطلق لله؟

قلنا: بلى.

قال: فطالب العلم لن يرسخ في العلم حتى يسلم هو وعلمه لله.

قلنا: عرفنا إسلام العبد لله .. فكيف يسلم علمه؟

قال: إذا عرف العلم قدره، فلم يتجاوز حدود ما أمر بعلمه، كان مسلما .. ألا ترون كيف سلم الراسخون لله في الحين الذي راح فيه المشاغبون يبحثون عن المتشابه ليجادلوا في دين الله.

قلنا: ذلك صحيح.

قال: فلن يصل طالب العلم للرسوخ في العلم حتى يكون هذا حاله ..

مع درسه:

بعد أن درسنا وتدربنا على الآداب المرتبطة بالسمت مع العلم مدة، انتقلنا إلى الفرع الثالث للسمت، وهو السمت مع الدرس، وقد بدأ الشنقيطي حديثه عن هذا النوع بقوله ﷺ :(ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله تعالى ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة

---

(1) وهي قوله تعالى :﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) (سبأ:٦)

(2) وهي قوله تعالى :﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)(آل عمران: من الآية٧)

وذكرهم الله فيمن عنده)[1]

وحدثنا أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: ما مجلسكم ؟ قالوا: جلسنا نذكر الله تعالى، ونحمده لما هدانا للإسلام، ومن علينا به، فقال : (أتاني جبريل عليه السلام فأخبرني أن الله تبارك وتعالى يباهي بكم الملائكة)[2]

وحدثنا أن رسول الله ﷺ قال: إن لله تعالى ملائكةً يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل[3]، تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، فيحفوهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم ــ وهو أعلم ــ : ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك، فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا والله ما رأوك، فيقول: كيف لو رأوني؟! قال: يقولون لو رأوك أشد لك عبادةً، وأشد لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً. فيقول: فماذا يسألون؟ قال: يقولون: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها؟! قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبةً. قال: فمم يتعوذون؟ قال: يتعوذون من النار؛ قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رأوها. فيقول: كيف لو رأوها؟! قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافةً. قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، قال: يقول ملكٌ من الملائكة: فيهم فلانٌ ليس منهم، إنما جاء لحاجةٍ، قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم)[4]

وحدثنا أن رسول الله ﷺ بينما هو جالسٌ في المسجد، والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ، وذهب واحدٌ، فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما، فرأى فرجةً في الحلقة، فجلس فيها وأما الآخر، فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً. فلما فرغ رسول الله ﷺ، قال: (ألا أخبركم عن النفر الثلاثة: أما أحدهم، فأوى إلى الله، فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر، فأعرض، فأعرض الله عنه)[5]

قلنا: ما سر إيرادك لهذه الأحاديث، وما علاقتها بسمت أهل العلم مع دروسهم؟

قال: هذه الأحاديث هي المنبع الذي منه يستقي طالب العلم ومعلمه ما ينشر فيهما سمت أهل العلم مع دروسهم.

قلنا: كيف ذلك؟

قال: لقد أخبر رسول الله ﷺ أن مجلس العلم مجلس يأوي فيه طلبة العلم إلى الله، فيكونون بجلوسهم فيه ضيوفا على الله .. وأخبر أنه مجلس تحضره الملائكة .. وأخبر أنه مجلس يرفع تقريره إلى الله .. وأخبر أنه مجلس

---

(1) رواه مسلم وأبو داود.
(2) رواه الترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن صحيح.
(3) الذكر ينصرف في هذا النص وغيره إلى ذكر الله من تسبيح وتحميد وتكبير وغيرها، كما ذكرنا في الرسالة السابقة، كما ينصرف إلى مجالس العلم، فكل ذلك يصدق عليه مصطلح الذكر.
(4) رواه البخاري ومسلم.
(5) رواه البخاري ومسلم.

تستجاب فيه الدعوات، وتلبى فيه الطلبات.. ومثل هذا المجلس الذي شرف هذا التشريف ينبغي أن لا تقل هيبته عن هيبة الصلاة.

قلنا: نحن نعرف أركان الصلاة وفضائلها وموانعها ونواقضها .. فهل أثر عن سلفكم من أهل العلم ما يرتبط بمجلس العلم من أحكام؟

قال: أجل .. لقد اتفق جميع أهل الله من ورثة رسول الله ﷺ على أن لمجلس العلم من الحرمة ما لا يقل عن حرمة الصلاة .. فلذلك سنوا فيه من الآداب ما يحفظ حرمته، ويعطيه حقه من التعظيم.

قلنا: فحدثنا عن ذلك.

قال: سأحدثكم عن عشر تجمع أصول ذلك .. أما فروعه فستتدربون عليها في هذا المجلس حتى لا تطردوا من حلق العلم.

قلت: وهل يمكن لمعلم أن يطرد من يتعلم على يديه؟

قال: لقد كان ذلك سنة السلف الصالح .. كانوا لا يرون أحدا يعكر مجلس العلم بالجدال وسوء الأدب إلا طردوه.

قلت: ألا ترى أنهم يقسون عليه بذلك؟

قال: رب قسوة تحمل من الرحمة ما لا تحمله أي رحمة، ألم تسمع الشاعر الحكيم، وهو يقول:

وقسا ليزدجروا ومن يك راحما ... فليقس أحيانا على من يرحم

قلنا: بلى .. فحدثنا عن **الأول**.

قال: لقد ذكر سلفنا عن سلفهم من أهل العلم أن من آداب الطالب والأستاذ إذا عزم على الجلوس بمجلس التدريس أن يتطهر من الحدث، وينظف، ويتطيب، ويلبس من أحسن ثيابه اللائقة به بين أهل زمانه، قاصداً بذلك تعظيم العلم وتبجيل الشريعة.

لقد كان مالك ــ رحمه الله ــ إذا جاءه الناس لطلب الحديث، اغتسل، وتطيب، ولبس ثياباً جدداً، ووضع رداءه على رأسه، ثم يجلس على منصبته، ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ؛ وقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ .

قال بعض الطلبة: لقد قرأت في جامع الخطيب من شعر على ــ رضي الله عنه ــ الممتلئ بالحكمة قوله:

أجد الثياب إذا اكتسيت فإنها ... زين الرجال بها تعز وتكرم

دع التواضع في الثياب تحريا ... فالله يعلم ما تجن وتكتم

فرثاث ثوبك لا يزيدك زلفة ... عند الإله وأنت عبد مجرم

و بهـــــاء ثوبـــــك لا يضـــــرك بعـــــد أن   تخشـــــى الإلـــــه وتتقـــــي مـــــا يحـــــرم

قلنا: فحدثنا عن **الثاني**.

قال: أنتم تعرفون صلاة الاستخارة؟

قلنا: وما علاقتها بهذا؟

قال: لقد كان من سلفنا من يقدم على مجلسه هذه الصلاة.

قلنا: لم؟

قال: حتى يكون تحركه للعلم والتعليم بتحريك الله لا بتحريكه .. ثم إن في العلم مجاهيل، فهو يحتاج من الله أن يوفقه لسلوك متاهاتها .. ثم إن في العلم فروعا كثيرة، فهو يحتاج لأن يخير الله له خيرها، وأوفقها بالنسبة له.

قلنا: فما نقول؟

قال: لقد ورد في السنة ما نقول .. وحسبنا بها.

قلنا: ولكن السنة تركت لنا ذكر الحاجة، فما نقول فيما يرتبط بهذا؟

قال: كان بعض أهل الله من أهل العلم يقول :(اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب، اللهم أن كنت تعلم أن جميع ما أتحرك فيه وانطق به في حقي وفي حق غيري، وجميع ما يتحرك فيه غيري وينطق به في حقي وحق أهلي وولدي وما ملكت يميني، من ساعتي، هذه إلى مثلها من الغد، خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فأقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن جميع ما أتحرك فيه وأنطق به في حقي وفي حق غيري، وجميع ما يتحرك فيه غيري في حقي وفي حق أهلي وولدي، وما ملكت يميني من ساعتي هذه إلى مثلها من الغد، شر لي في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري فاصرفه عني وأصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به)

قلنا: فحدثنا عن **الثالث**.

قال: أن ينوي بطلب العلم أو نشره تبليغ أحكام الله تعالى التي ائتمن عليها، وأمر ببيانها والازدياد من العلم، وإظهار الصواب، والرجوع إلى الحق والاجتماع على ذكر الله تعالى والسلام على إخوانه من المسلمين والدعاء للسلف الصالحين.

يحكى عن بعضهم أنه كان يكتب حتى تكل يده، فيضع القلم ثم ينشد من باب الإشارة:

لـــــئن كـــــان هـــــذا الـــــدمع يجـــــري صـــــبابةً   علـــــى غـــــير ليلـــــى فهـــــو دمـــــع مضـــــيع

قلت: حقيق بطالب العلم ومعلمه أن يفرح، فكيف يبكي هذا؟ .. ألم يبلغه فضل أهل العلم؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى :﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)﴾ (المؤمنون)؟

قلت: بلى .. وقد ورد في تفسيرها عن عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت : قلت: يا رسول الله، قول الله :﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾، أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو مع ذلك يخاف الله؟ قال: (لا، ولكن الرجل يصوم ويتصدق ويصلي، وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه)[1]

قال: فأهل العلم هم أولى بالخشية من غيرهم .. ألم تسمع قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)(فاطر: من الآية٢٨)

قلت: بلى ..

قال: فأعظم الخشية هو أن يخاف المؤمن أن لا يقبل منه .. لقد قال بعضهم يعبر عن ذلك:(الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم)

قلنا: فحدثنا عن **الرابع.**

قال: من آداب طالب العلم أن لا يتحرك في طريقه إلى مجلس العلم إلا بصحبة ذكر.. فإذا وصل إليه سلم على من حضر وصلى ركعتين، إن لم يكن وقت كراهة، فإن كان مسجداً تأكدت مطلقاً، ثم يدعو الله تعالى بالتوفيق والإعانة والعصمة، ويجلس مستقبلاً القبلة لقوله ﷺ :(أكرم المجالس ما استقبل القبلة)[2]

ويكون جلوسه بسكينة، ووقار، وتواضع، وخشوع، متربعاً، أو غير ذلك مما لا يكره من الجلسات، ولا يجلس مقعياً، ولا مستفزاً، ولا رافعاً إحدى رجليه على الأخرى، ولا ماداً رجليه أو إحداهما من غير عذر، ولا متكئاً على يديه إلى جنبه أو وراء ظهره، وليصن بدنه عن الزحف، والتنقل عن مكانه، ويديه عن العبث والتشبيك بهما، وعينيه عن تفريق النظر من غير حاجة، ويتقي المزاح وكثرة الضحك، لأنه يقلل الهيبة، ويسقط الحشمة.

قلت: فهل ورد في السنة ما يدل على كل هذا؟

قال: أجل .. ألم تسمع حديث جبريل عليه السلام الذي جاء يعلمنا فيه ديننا؟

قلت: بلى .. بل أحفظه.

قال: فحدثنا به.

قلت: لقد حدث عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قال: بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله ﷺ ، ذات يومٍ إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحدٌ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه ! قال:

---

(1) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة وابن أبي الدنيا في نعت الخائفين وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان.

(2) رواه أبو يعلي والطبراني في الأوسط، عن ابن عمر مرفوعاً والطبراني في الكبير عن ابن عباس نحوه مرفوعاً .

فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة. قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان. ثم انطلق، فلبثت ملياً، ثم قال: يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت. الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم[١].

قال: إن هذا الحديث أصل من أصول أدب طالب العلم في درسه .. انظر كيف جلس، وكيف سأل، وكيف سمع، وكيف أجاب .. إن جبريل عليه السلام لم يعلمنا فقط أصول ديننا، بل علمنا مع ذلك السمت الذي نطلب به علوم ديننا .. فلا يمكن أن نتعلم الدين في مدارس المشاغبين.

قلنا: فحدثنا عن **الخامس**.

قال: أن يقطع طالب العلم كل ما يحول بينه وبين التفرغ للعلم والتنصت له والتأمل فيه .. فلا يدرس وقت جوعه، أو عطشه، أو همه، أو غضبه، أو نعاسه، أو قلقه، ولا في حال برده المؤلم، أو حره المزعج، فربما سمع ما لم يتحقق من سماعه، أو فهم ما لا يصح أن يفهمه .. وإن كان أستاذا ربما أجاب أو أفتى بغير الصواب، لأنه لا يتمكن من استيفاء النظر.

قلت: أهذا قياس على ما ورد في الحديث من نهيه ﷺ عن صلاة الحاقن، فعن أبي أمامة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ نهى أن يصلي الرجل وهو حاقن[٢] .. وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ :(لا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصلي وهو حاقن)[٣] .. وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ عن النبي ﷺ:(لا صلاة بحضرة طعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان)[٤]

ونهيه ﷺ عن صلاة الحازق[٥]، وهو صاحب الخف الضيق، وقوله :(لا رأي لحازق)[٦]

قال: ليس ذلك قياسا .. بل العلم لا يختلف عن الصلاة .. فكما أن هذه الشواغل تصرف عن الصلاة، وتؤثر في خشوعها، فهي كذلك تصرف عن العلم، وتؤثر على معايشة الطالب ما يتعلمه .. وذلك يحول بينه وبين الاستفادة منه.

قال بعض الطلبة: لقد ذكرتني بكلام جميل قاله ابن الجوزي، إن أذنت ــ يا شيخنا ــ حدثتكم به.

أشار إليه آذنا، فأخذ الطالب يقرأ من ذاكرته .. وكأنه ابن الجوزي حضر معنا ..:(رأيت نفسي كلما صفا فكرها أو اتعظت بدارج أو زارت قبور الصالحين تترك همتها في طلب العزلة والإقبال على معاملة الله تعالى، فقلت لها يوما وقد كلمتني في ذلك: حدثني ما مقصودك؟ وما نهاية مطلوبك؟ أتراك تريدين مني أن

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه ابن ماجه والدار قطني.
(٣) رواه وأبو داود وللترمذي وحسنه نحوه من حديث ثوبان.
(٤) رواه مسلم.
(٥) عزاه رزين إلى الترمذي.
(٦) ذكره أصحاب الغريب.

أسكن قفرا لا أنيس به، فتفوتني صلاة الجماعة، ويضيع مني ما قد علمته لفقد من أعلمه؟ أو أن آكل الجشب الذي أتعوده فيقع نضوى طلحا في يومين؟ أو أن ألبس الخشن الذي لا أطيقه، فلا أدري من كرب محمولي من أنا؟ أو أن أتشاغل عن طلب ذرية تتعبد بعدي بقاء القدرة على الطلب.

با الله ما نفعني العلم الذي بذلت فيه عمري إن وافقتك وأنا أعرفك غلط ما وقع لك بالعلم.

اعلمي أن البدن مطية، والمطية إذا لم يرفق بها لم تصل براكبها إلى المترل، وليس مرادي بالرفق الإكثارمن الشهوات، وإنما أعني أخذ البلغة الصالحة للبدن، فحينئذ يصفو الفكر، ويصح العقل، ويقوى الذهن.

ألا ترى إلى تأثير المعوقات عن صفاء الذهن في قوله ﷺ :(لا يقضي القاضي بين اثنين، وهو غضبان)[1].. وقاس العلماء على ذلك الجوع، وما يجري مجراه من كونه حاقنا أو حاقبا.

وهل الطبع إلا ككلب يشغله الآكل؟ فإذا رمى له ما يتشاغل به طاب له الكل، فأما الإنفراد والعزلة، فعن الشر، لا عن الخير.

ولو كان فيها لك وقع خير لنقل ذلك عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه ــ رضي الله عنهم ــ

هيهات لقد عرفت أن أقواما ما دام بهم التقلل واليبس إلى تغير فكرهم، وقوى الخلط السوداوي عليهم، فاستوحشوا من الناس ومنهم من اجتمعت له من المآكل الردية أخلاط مجة، فبقي اليوم واليومين والثلاثة لا يأكل وهو يظن ذلك من أمداد اللطف وإذا به من سوء الهضم، وفيهم من ترقي به الخلط إلى رؤية الأشباح فيظنها الملائكة، .

فالله الله في العلم، واالله الله في العقل، فإن نور العقل لا ينبغي أن يتعرض لإطفائه، والعلم لا يجوز الميل إلى تنقيصه، فإذا حفظا حفظا وظائف الزمان ودفعا ما يؤذي وجلبا ما يصلح وصارت القوانين مستقيمة في المطعم والمشرب والمخالطة)[2]

قلنا: فحدثنا عن **السادس.**

قال: أن يعطي لمجلس العلم حقه من الأدب .. لقد قال الله تعالى يشير إلى مجامع ذلك :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة:١١) .. انظروا كيف ربط الله تعالى بين المجالس والعلم .. وانظروا كيف أمر الله تعالى الجالسين بالطاعة المطلقة لمن يريد أن ينظم مجلسهم، فإذا أمرهم بالفسح فسحوا، وإذا أمرهم بالنشوز نشزوا؟

قال بعض الطلبة: لقد روي في سبب نزول هذه الآية عن مقاتل بن حيان قوله: أنزلت هذه الآية يوم جُمُعة وكان رسول الله ﷺ يومئذ في الصفة، وفي المكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار،

([1]) في الحديث عن أبي بكرة ــ رضي الله عنه ــ :(لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان) رواه مسلم والترمذي والنسائي.
وفي الحديث عن أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ أن النبي ﷺ قال :(من ابتلي بالقضاء بين المسلمين فلا يقضين وهو غضبان) رواه الطبراني في الكبير وأبو يعلى وفيه عباد بن كثير الثقفي وهو متروك.
وعن عطية بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ :(إذا استشاط السلطان تسلط الشيطان) رواه أحمد والطبراني في الكبير.

([2]) صيد الخاطر.

فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس، فقاموا حيال رسول الله ﷺ ، فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. فرد النبي ﷺ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك، فردوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف النبي ﷺ ما يحملهم على القيام، فلم يُفْسَح لهم، فشق ذلك على النبي ﷺ ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار، من غير أهل بدر: (قم يا فلان، وأنت يا فلان)، فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وعرف النبي ﷺ الكراهة في وجوههم، فقال المنافقون: ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس؟ والله ما رأيناه قبلُ عدل على هؤلاء، إن قوما أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب لنبيهم، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه. فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: (رحم الله رجلا فَسَح لأخيه)، فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعًا، فَتَفَسَّحَ القومُ لإخوانهم، ونزلت هذه الآية يوم الجمعة[1].

قال الشنقيطي: انظروا كيف تولى رسول الله ﷺ تنظيم المجلس .. ولولا أنه من الآداب اللازمة في مجلس العلم ما فعله.

قلنا: فما هي آداب المجالس التي يجب على طالب العلم أن يراعيها؟

قال: أولها .. أن يجلس حيث انتهى به المجلس، فلا يتخير محلا دون غيره إلا لغرض، ولا ينبغي أن يزاحم من هو أولى منه على مجلسه .. لقد روي في الحديث: أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس، وكان الصحابة، رضي الله عنهم، يجلسون منه على مراتبهم، فالصديق يجلسه عن يمينه، وعمر عن يساره، وبين يديه غالبًا عثمان وعلي؛ لأنهما كانا ممن يكتب الوحي، وكان يأمرهما بذلك.

وورد في الحديث تعميم هذا، فعن أبي مسعود ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ كان يقول: (لِيَلِيني منكم أولوا الأحلام والنُّهَى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)[2]

ولهذا أمر ﷺ أولئك النفر بالقيام ليجلس الذين وردوا من أهل بدر، إما لتقصير أولئك في حق البدريين، أو ليأخذ البدريون من العلم بنصيبهم، كما أخذ أولئك قبلهم، أو تعليما بتقديم الأفاضل إلى الأمام.

قلت: ألا يحمل هذا التقديم نوعا من الجور كما ذكر المنافقون؟

قال: يستحيل على رسول الله ﷺ أن يقع في الجور .. بل هذا عين العدل .. أليس العدل هو أن تضع كل شيء في موضعه الذي وضعه الله فيه؟

قلنا: بلى ..

قال: فالمجالس كذلك .. إن مجالس العلم قد تحتاج حوارا ومراجعات، ولا يصلح لهذا غير أولي الأحلام والنهى ..

إن مجالس العلم كصفوف الصلاة تماما، وقد روي عن أبي مسعود ـــ رضي الله عنه ـــ قوله :(كان

---

(1) رواه ابن أبي حاتم.
(2) رواه مسلم.

رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: (استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، ليليني منكم أولو الأحلام والنُّهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم) قال أبو مسعود فأنتم اليوم أشد اختلافًا[1].

أتدرون لم قدم أولي الأحلام والنهى بهذه المرتبة دون غيرهم؟

قلنا: الحكمة في ذلك يسيرة .. فالإمام قد يحتاج إلى من يفتح عليه، وقد يحتاج إلى من يستخلفه .. ولا يصلح لذلك إلا أولو الأحلام والنهى.

قال: فهكذا مجلس العلم .. قد ينسى المعلم، فيذكر، وقد يخطئ فيصوف، وقد يراجع فيحقق ..

قلنا: عرفنا هذا، فهل هناك أدب غيره.

قال: من آداب المجالس التي لا تستقيم مجالس العلم إلا بها أن يحترم الجالس الجلساء، فلا يقيم أحدا من مجلسه ليجلس فيه دون.

قلت: أحفظ في ذلك قوله ﷺ :(لا يقيم الرَّجُلُ الرَّجُلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تَفَسَّحُوا وتَوسَّعوا)[2]

قال آخر: وأحفظ في ذلك قوله ﷺ :(لا يقيمن أحدُكم أخاه يوم الجمعة، ولكن ليقل: افسحوا)[3]

قال آخر: وأحفظ في ذلك قوله ﷺ :(لا يقوم الرجلُ للرجل من مجلسه، ولكن افسحوا يفسح الله لكم)[4]

قلنا: وعينا هذا، ووعينا كل ما ورد في السنة من مثله[5] .. فهل أثر عن سلفكم من العلماء تخصيص مجالس العلم بمزيد من الآداب؟

قال: لقد اتفق على هذا جميع أهل الله من ورثة رسول الله ﷺ على أن طالب العلم إذا حضر مجلس الشيخ، سلم على الحاضرين بصوت يسمع جميعهم، وخص الشيخ بزيادة تحية وإكرام، وكذلك يسلم إذا انصرف، وإذا سلم، فلا يتخطى رقاب الحاضرين إلى قرب الشيخ، من لم يكن مترلته كذلك، بل يجلس حيث انتهى به المجلس، كما ورد في الحديث، فإن صرح له الشيخ والحاضرون بالتقدم أو كانت مترلته، أو كان يعلم إيثار الشيخ والجماعة لذلك فلا بأس، ولا يقيم أحداً من مجلسه، أو يزاحمه قصداً فإن آثره بمجلسه لم يقبله إلا إن يكون في ذلك مصلحة يعرفها القوم، وينتفعون بها من بحثه مع الشيخ لقربه منه أو لكونه كبير السن، أو كثير الفضيلة والصلاح، ولا ينبغي لأحد إن يؤثر بقربه من الشيخ إلا لمن هو أولى بذلك، لسن أو علم أو صلاح، بل يحرص على القرب من الشيخ إذا لم يرتفع في المجلس على من هو أفضل منه، وإذا كان الشيخ في صدر مكان فأفضل الجماعة أحق بما على يمينه ويساره، وإن كان على طرف صفه أو نحوها، فالمبجلون مع الحائط ومع طرفها قباله، وينبغي للرفقاء في درس واحد، أو دروس، أن يجتمعوا إلى جهة واحدة ليكون نظر الشيخ إليهم جميعاً عند الشرح، ولا يخص بعضهم في ذلك دون بعض.

ومن الآداب التي ذكروها في هذه المجالس أن يتأدب مع حاضري مجلس الشيخ، فإنه أدب معه واحترام

---

(1) رواه رواه مسلم وأهل السنن، إلا الترمذي.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه الشافعي على شرط السنن و لم يخرجوه.

(4) رواه أحمد.

(5) انظر الكثير من هذه الآداب المرتبطة بهذا في الرسالة السابقة (النبي الإنسان)

لمجلسه، وهم رفقاؤه فيوقر أصحابه ويحترم كبراءه وأقرانه، ولا يجلس وسط الحلقة، ولا قدام أحد، إلا لضرورة، كما في مجلس التحديث. ولا يفرق بين رفيقين، ولا بين متصاحبين، إلا برضاهما معا، فقد جاء النهي عن الجلوس بين الرجلين إلا بإذنهما، فإذا وسعوا جلس وجمع نفسه، ولا يجلس فوق من هو أولى منه.

قال أبو محمد اليزيدي: أتيت الخليل بن أحمد في حاجة فقال لي: ههنا يا أبا محمد، فقلت: أضيق عليك، فقال إن الدنيا بحذافيرها تضيق عن متباغضين، وإن شبراً في شبر لا يضيق على متحابين.

وينبغي للحاضرين إذا جاء القادم أن يرحبوا به، ويوسعوا له، ويتفسحوا لأجله، ويكرموه بما يكرم به مثله، فإذا تفسح له في المجلس وكان حرجاً ضم نفسه ولا يتوسع، ولا يعطي أحداً منهم جنبه ولا ظهره، ويتحفظ من ذلك ويتعهده عند بحث الشيخ له ولا يجنح على جاره، أو يجعل مرفقه قائماً في جنبه، أو يخرج عن بنية الحلقة بتقدم أو تأخر. ولا يتكلم في أثناء درس غيره أو درسه بما لا يتعلق به، أو بما يقطع عليه بحثه، وإذا شرع بعضهم في درس، فلا يتكلم بكلام يتعلق بدرس فرغ، ولا بغيره مما لا تفوت فائدته، إلا بإذن الشيخ وصاحب الدرس. ولا يتكلم بشيء حتى ينظر فيه فائدة وموضعاً، ويحذر المماراة في البحث والمغالبة فيه، فإن ثارت نفسه ألجمها بلجام الصمت والصبر، فإن ذلك أقطع لانتشار الغضب وأبعد عن منافرة القلوب، وإن أساء بعض الطلبة أدباً على غيره لم ينهره غير الشيخ، إلا بإشارته أو سراً بينهما على سبيل النصيحة، وإن أساء أحد أدبه على الشيخ، تعين على الجماعة انتهاره ورده، والانتصار للشيخ بقدر الإمكان وفاء بحقه، ولا يشارك أحد من الجماعة أحداً في حديثه ولا سيما الشيخ، فإن علم إيثار الشيخ ذلك أو المتكلم فلا بأس به.

قلنا: هذه آداب طالب العلم في مجلسه .. فما آداب المعلم؟

قال: لقد ذكر سلفنا عن سلفهم في ذلك أن يجلس بارزاً لجميع الحاضرين موقراً فاضلهم بالعلم والسن، والصلاح والشرف، ويتلطف بالباقين، ويكرمهم بحسن السلام، وطلاقة الوجه ومزيد الاحترام، ويلتفت إلى الحاضرين التفاتاً قسطاً بحسب الحاجة، ويخص من يكلمه أو يسأله، أو يبحث معه على الوجه عند ذلك بمزيد التفات إليه وإقبال عليه، وإن كان صغيراً وضعيفاً، فإن ترك ذلك من أفعال المتجبرين المتكبرين.

قلنا: فحدثنا عن **السابع**.

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١٠٤)

قال بعض الطلبة: لقد نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية أن يتشبهوا بالكفار في مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يُعَانُون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص، فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا يقولون: راعنا، يورون بالرعونة، كما قال تعالى مخبرا عنهم :﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إلا قَلِيلا ﴾ (النساء: ٤٦)

وهكذا ورد في الأحاديث أنهم كانوا إذا سَلَّموا يقولون: السامُ عليكم، والسام هو: الموت. ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـــ (وعليكم)، وأخبرنا أنه إنما يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا.

قلنا: عرفنا هذا .. فما وجه الإشارة فيه إلى آداب طالب العلم مع درسه؟

قال: لقد ذكر سلفنا عن سلفهم تطبقا لهذا أن أن يصان مجلس العلم عن اللغط، فإن الغلط تحته، وعن رفع الأصوات واختلاف وجهات البحث.

قال الربيع: كان الشافعي إذا ناظره إنسان في مسألة فغدا إلى غيرها يقول: نفرغ من هذه المسألة ثم نصير إلى ما تريد.

ويتلطف في دفع ذلك في مباديه قبل انتشاره وثوران النفوس، ويذكر الحاضرين بما جاء في كراهة المماراة، لا سيما بعد ظهور الحق، وأن مقصود الاجتماع ظهور الحق وصفاء القلوب، وطلب الفائدة، وأنه لا يليق بأهل العلم تعاطي المنافسة والشحناء لأنها سبب العداوة والبغضاء، بل يجب أن يكون الاجتماع ومقصودة خالصاً لله تعالى ليثمر الفائدة في الدنيا والسعادة في الآخرة، ويتذكر قوله تعالى :﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (لأنفال:٨)، فإنه يفهم أن إرادة إبطال الحق أو تحقيق الباطل صفة إجرام فليحذر منه.

قلنا: فإن حصل التعدي في هذا .. فماذا على المعلم؟

قال: لقد ذكر سلفنا عن سلفهم في هذا أن يزجر من تعدى في بحثه، أو ظهر منه لدد وسوء أدب، أو ترك إنصافا بعد ظهور الحق، أو أكثر الصياح بغير فائدة، أو أساء أدبه على غيره من الحاضرين أو الغائبين، أو ترفع في المجلس على من هو أولى منه، أو نام أو تحدث مع غيره أو ضحك، أو استهزأ بأحد من الحاضرين، أو فعل ما يخل بأدب الطلب في الحلقة، وكل ذلك بشرط أن لا يترتب على ذلك مفسدة تربو عليه.

قلنا: فحدثنا عن **الثامن**.

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى :﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(البقرة: من الآية٢٢٣)

قال بعض الطلبة: كيف تستشهد بهذا في هذا المحل؟ .. إن هذا ورد في محل أنت تعرفه[1].

قال: فما قال ابن عباس في التقديم؟

قال الطالب: لقد ذكر أنه قول بسم الله .. وفي حديث آخر جمع التسمية مع الاستعاذة من الشيطان[2].

قال: فإن كنا قد أمرنا في ذلك المحل الذي قد تنتشر فيه الغفلة أن نقدم لأنفسنا بذكر، فكيف لا نفعل ذلك في مجلس العلم الذي هو محارب من محاريب التعبد لله.

قلنا: فما أثر عن سلفكم من العلماء في هذا؟

قال: لقد اتفق على هذا جميع أهل الله من ورثة رسول الله ﷺ على أن على أهل العلم أن يقدموا على الشروع في البحث والتدريس قراءة شيء من كتاب الله تعالى تبركاً وتيمناً، فإن كان في مدرسة شرط فيها

([1]) وهو قوله تعالى :﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة:٢٢٣)

([2]) وهو الحديث الذي رواه البخاري، عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ :(لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله، اللهم جنِّبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبدًا)

ذلك اتبع الشرط، ويدعو عقيب القراءة لنفسه، وللحاضرين، وسائر المسلمين، ثم يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويسمى الله تعالى ويحمده، ويصلي على النبي ﷺ، ويترضى عن أئمة المسلمين ومشايخه، ويدعو لنفسه وللحاضرين ووالديهم أجمعين، وهو واقف مكانه إن كان في مدرسة أو نحوها جزاء لحسن فعله وتحصيلاً لقصده.

قلت: ألا ترى أن في هذا تضييعا لوقت كثير؟

قال: الوقت يضيع باللغو .. لا بذكر الله .. والمدرسة عندنا هي المدرسة التي تعمق بالإيمان بالله، وتملأ القلب بحبه، وتملأ النفس بالتهذيب والأدب .. ولم نجد داواء يجمع لنا كل ذلك ككتاب الله وذكر الله، وقد قال رسول الله ﷺ :(ما اجتمع قوم في مجلس فتفرقوا، ولم يذكروا الله ولم يصلوا على النبي ﷺ إلا كان مجلسهم تره عليهم يوم القيامة)[1]

قال بعض الطلبة: وفي حديث آخر، قال ﷺ :(ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله تعالى ولم يصلوا على نبيهم الا كان عليهم ترة فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم)[2]

قال آخر: وفي حديث آخر، قال ﷺ :(ما اجتمع قوم، ثم تفرقوا عن غير ذكر الله وصلاة على النبي ﷺ إلا قاموا عن أنتن جيفة)[3]

قال آخر: وفي حديث آخر، قال ﷺ :(ما اجتمع قوم فتفرقوا عن غير ذكر الله إلا كأنما تفرقوا عن جيفة حمار، وكان ذلك المجلس عليهم حسرة)[4]

قلت: عرفنا بما يبدأ الدرس، فبم ينتهي؟

قال: لقد اتفق أهل الله من ورثة رسول الله ﷺ على أن يقول المدرس عند ختم كل درس: (والله أعلم)، أو غيرها من الصيغ التي تدل على البراءة من الذات، واللجوء إلى الله .. أو يقول كلاما يشعر بختم الدرس كقوله: (وهذا آخره) أو (ما بعده يأتي إن شاء الله تعالى) ونحو ذلك، ليكون قوله (والله أعلم) خالصاً لذكر الله تعالى ولقصد معناه.

وقد ذكر سلفنا عن سلفهم في هذا أن الأولى للمدرس أن يمكث قليلاً بعد قيام الجماعة فإن فيه فوائد وآداباً له ولهم، منها عدم مزاحمتهم، ومنها أنه إن كان في نفس أحدهم بقايا سؤال سأله، ومنها عدم ركوبه بينهم إن كان يركب وغير ذلك.

واستحبوا له إذا قام أن يدعو بقوله:(سبحانك اللّهم وبحمدك لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك)

قال بعض الطلبة: لقد نص الحديث على هذا، فقد قال ﷺ :(من جلس في مجلسٍ، فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا الله، أستغفرك وأتوب إليك؛ إلا

([1]) رواه أحمد وابن حبان.
([2]) رواه الترمذي وابن ماجة.
([3]) رواه الطيالسي والبيهقي.
([4]) رواه أحمد.

غفر له ما كان في مجلسه ذلك)[1]

قال آخر: وفي الحديث عن أبي برزة ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ يقول بأخرةٍ إذا أراد أن يقوم من المجلس: (سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك)، فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى ؟ قال: (ذلك كفارةٌ لما يكون في المجلس)[2]

قال آخر: وفي الحديث عن ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلسٍ حتى يدعو بهؤلاء الدعوات: (اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون عينا مصائب الدنيا. اللهم متعنا بأسماعنا، وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا)[3]

قلنا: فحدثنا عن **التاسع**.

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى :﴿ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (لقمان: من الآية١٩)

قلنا: تقصد خفض الصوت.

قال: بحيث يسمعه السامعون .. فلا يتجاوز به مسامعهم، ولا يقصر به عنها.

قلنا: فما أثر عن سلفكم في هذا؟

قال: لقد اتفق أهل الله من ورثة رسول الله ﷺ على أن على المعلم في درسه أن لا يرفع صوته زائداً على قدر الحاجة، ولا يخفضه خفضاً لا يحصل معه كمال الفائدة.

ورووا في ذلك عن النبي ﷺ قوله :(إن الله يحب الصوت الخفيض، ويبغض الصوت الرفيع)[4]

وذكروا أن الأولى أن لا يجاوز صوته مجلسه، ولا يقصر عن سماع الحاضرين، فإن حضر فيهم ثقيل السمع فلا بأس بعلو صوته بقدر ما يسمع.

وذكروا أنه لا ينبغي له أن يسرد الكلام سرداً، بل يرتله ويرتبه ويتمهل فيه ليفكر فيه هو وسامعه .. وقد رووا في ذلك عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت :(لم يكن رسول الله ﷺ يسرد الحديث[5] كسردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام فصل[6]، يحفظه من يجلس إليه، لو عده العاد لأحصاه)[7]

وقالت :(كان كلام رسول الله ﷺ فصلا، يفهمه كل من يسمعه)[8]

([1]) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
([2]) رواه أبو داود، ورواه الحاكم أبو عبد الله في المستدرك من رواية عائشة، وقال: صحيح الإسناد.
([3]) رواه الترمذي وقال حديث حسن.
([4]) رواه الخطيب في الجامع.
(٥)يسرد الحديث: يسوق سياقا جيدا.
(٦)بكلام فصل: بين ظاهر محكم، لا يعاب قائله، وحقيقته الفاصل بين الحق والباطل، والخطأ والصواب.
(٧) رواه البخاري ومسلم.
(٨) رواه أبو داود.

وقالت :(كان رسول الله ﷺ إذا تكلم تكلم نزرا[1]، وأنتم تنثرون الكلام نثرا)[2]

وكان من سنته ﷺ أن يكرر الكلام ــ إذا اقتضى المقام ذلك ــ حتى يعقل عنه .. فعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال:(كان رسول الله ﷺ يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه)

وقال:(كان رسول الله ﷺ إذا سلم سلم ثلاثا، وإذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا)[3]

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال:(كان رسول الله ﷺ إذا تحدث بالحديث، أو سئل عنه كرره ثلاثا ليفهم عنه)[4]

وعن أبي أمامة ــ رضي الله عنه ــ قال:(كان رسول الله ﷺ إذا تكلم تكلم ثلاثا)[5]

قلنا: فحدثنا عن **العاشر**.

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى :﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩)

قلنا: هذه الآية جامعة من جوامع العلم، فما حظ المعلم منها؟

قال: لقد ذكر سلفنا عن سلفهم في ذلك آدابا:

منها أن يتودد المعلم لكل غريب أو جديد حضر عنده، وينبسط له لينشرح صدره، فإن للقادم دهشة .. ونصحوا بأن لا يكثر الالتفات والنظر إليه استغراباً له، فإن ذلك يخجله.

وذكروا أنه إذا أقبل بعض الفضلاء، وقد شرع المعلم في مسألة أمسك عنها حتى يجلس، وإن جاء وهو يبحث في مسألة أعادها له أو أعاد مقصودها، وإذا أقبل فقيه وقد بقي لفراغه وقيام الجماعة بقدر ما يصل الفقيه إلى المجلس، فليؤخر تلك البقية ويشتغل عنها ببحث أو غيره إلى أن يجلس الفقيه، ثم يعيدها أو يتم تلك البقية كيلا يخجل المقبل بقيامهم عند جلوسه.

ومنها أن يلازم الإنصاف في بحثه وخطابه، ويسمع السؤال من مورده على وجهه وإن كان صغيراً، ولا يترفع عن سماعه فيحرم الفائدة، وإذا عجز السائل عن تقرير ما أورده أو تحرير العبارة فيه لحياء أو قصور، ووقع على المعنى عبر عن مراده، وبين وجه إيراده ورد على من رد عليه، ثم يجيب بما عنده أو يطلب ذلك من غيره، ويقصد بكل ذلك النصح والإرشاد وطلب النجاة، وما يعود نفعه على الكل، ويكلم كل أحد على قدر عقله وفهمه، فيجيب بما يحتمله حال السائل، ويتروى فيما يجيب به، وإذا سئل عما لم يعلمه قال: لا أعلم أو لا أدري فمن العلم أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم، أو الله اعلم، فقد قال ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ: (يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم)،

---

(١)النزر: القليل.
(٢) رواه الخلعي.
(٣) رواه أحمد والبخاري.
(٤) رواه أبو سعد النيسابوري في شرف النبي ﷺ.
(٥) رواه أبو بكر الشافعي.

وعن بعضهم: (لا أدري نصف العلم)، وعن ابن عباس: (إذا أخطأ العالم لا أدري أصيبت مقاتله)

قلت: ألا ترى أن في قوله هذا حطا من قدره .. بحيث يتهمه طلبته بالجهل، وهو ما يرفع ثقتهم فيه، ويمنعهم من الاستفادة منه؟

قال: ذلك عند أهل الدينا .. أما عند أهل الدين .. فالأمر مختلف تماما .. إن هذا القول عند أهل الدين والورع يدل على عظم محله، وقوة دينه، وتقوى ربه، وطهارة قلبه، وكمال معرفته، وحسن تثبته.

وإنما يأنف من قول لا أدري من ضعفت ديانته، وقلت معرفته، لأنه يخاف من سقوطه من عيون الحاضرين، ولا يخاف من سقوطه من نظر رب العالمين، وهذه جهالة ورقة دين، وربما يشتهر خطؤه بين الناس، فيقع فيما فر منه ويتصف عندهم بما احترز عنه.

مع معلمه:

بعد أن درسنا وتدربنا على الآداب المرتبطة بالسمت مع الدرس مدة، انتقلنا إلى الفرع الرابع للسمت، وهو السمت مع المعلم، وقد بدأ الشنقيطي حديثه عن هذا النوع بقوله ﷺ : (ليس منا من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه)[1]

فسألناه عن حق العالم، فقال: أول حق للعالم أن يعز ويكرم ويرفع قدره .. فرفع قدر العالم رفع لقدر العلم .. ومن أذل عالما، فقد أذل العلم، ومن أذل العلم، فقد أذل ما أمر الله بأن يعز.

قلت: فما علاقة ذلك بالعلم، وما تأثيره فيه؟

قال: لقد قال الشاعر الحكيم يبين سر ذلك:

إن المعلـــــم والطبيــــــب كلاهمـــــا لا ينصــــــحان إذا همـــــا لم يكرمـــــا

فاصـــــبر لـــــدائك إن أهنــــت طبيبـــــه واصـــــبر لجهلـــــك إن جفـــــوت معلمـــــا

قال بعض الطلبة: لقد أنشد صالح بن عبد القدوس يقول:

وإن عنـــــاء أن تعلـــــم جـــــاهلا فيحســـــب أهـــــلا أنـــــه منـــــك أعلـــــم

مـــــتى يبلـــــغ البنيـــــان يومـــــا تمامـــــه إذا كنـــــت تبنيـــــه وغـــــيرك يهـــــدم

مـــــتى ينتـــــهي عـــــن ســـــيئ مـــــن أتـــــى بـــــه إذا لم يكـــــن منـــــه عليـــــه تنـــــدم

قال آخر: وقال الشاعر الآخر يذكر ترجيح حق المعلم على حق الوالد:

يـــــا فـــــاخرا للســـــفاه بالســـــلف وتاركـــــا للعـــــلاء والشـــــرف

---

(1) رواه أحمد والترمذي.

آبـــــاء أجســـــادنا هـــــم ســـــبب   لأن جعلنـــــا عـــــرائض التلـــــف

مـــن علـــم النـــاس كـــان خـــير أب   ذاك أبـــو الـــروح لا أبـــو النطـــف

قلت: ألا يعني إعزاز العالم إذلالا للمتعلم؟

قال: هي ذلة عزة لا ذلة هوان .. لقد عبد الله بن عباس ــ رضي الله عنه ــ : ذللت طالبا فعززت مطلوبا .. وقال آخر: من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبدا .. وقال آخر: إذا قعدت ، وأنت صغير حيث تحب قعدت ، وأنت كبير حيث لا تحب.

قلت: عرفنا الإجمال، فهات التفصيل ..

قال: حقوق المعلم سبعة .. وهي بالسبعين أشبه منها بالسبعة.

قلنا: فما أولها؟

قال: أن لا يتكبر طالب العلم عن أخذ العلم عن أي عالم .. كان غنيا أو فقيرا .. معروفا بين الناس أو خاملا .. فرب علم تجده عند خامل، ولا تجد عند معروف.

قال بعض الطلبة: لقد قال رسول الله ﷺ يذكر ذلك:(الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها)[1]

قال آخر: وقال علي ــ رضي الله عنه ــ: (خذ الحكمة أنى كانت ، فهي تكون في صدر المنافق ، فتلجلج من صدره حتى تخرج ، فتسكن إلى صواحبها في صدر المؤمن)، وقال: (الحكمة ضالة المؤمن ، فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق)

قال آخر: لقد قال الشاعر يذكر ذلك:

لا تحقـــرن عالمـــا وإن خلقـــت أثوابـــه في عيـــون رامقـــه

وانظـــر إليـــه بعـــين ذي أدب مهـــذب الـــرأي في طرائقـــه

فالمســـك بينـــا تـــراه ممتـــهنا بفهـــر عطـــاره وســـاحقه

حـــتى تـــراه في عارضـــي ملـــك وموضـــع التـــاج مـــن مفارقـــه

قال آخر: وقد قال الشاعر الآخر، وأحسن:

---

(1) رواه الترمذي وابن ماجه والإسناد ضعيف.

العـــــــــالم العاقـــــــــل ابـــــــــــن نفســــــــــه

أغنـــــــاه جـــــــنس علمــــــــه عـــــــن جنســـــــه

كـــــن ابـــــن مـــــن شـــــئت وكـــــن مؤدبــــــا

فإنمــــــــا المـــــــــرء بفضـــــــــــل كيســـــــــه

ولــــــيس مــــــــن تكرمــــــــه لغــــــــيره

مثــــــــل الـــــــــذي تكرمـــــــــه لنفســـــــــه

قال آخر: وقد روي أن علياً بن الحسين ـــ رضي الله عنهما ـــ كان يذهب إلى زيد بن أسلم، فيجلس إليه يعني للأخذ عنه، فقيل له: أنت سيد الناس وأفضلهم، تذهب إلى هذا العبد فتجلس إليه ؟ فقال: (العلم يتبع حيث كان وممن كان)، أي أن الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها.

قال آخر: وقال علي بن أبي طالب ـــ رضي الله عنه ـــ : (الشريف كل الشريف من شرفه علمه، والسؤدد حق السؤدد لمن اتقى ربه، والكريم من أكرم عن ذل النار وجهه)

قلنا: فما الثاني؟

قال: أن يقدر الجهد الذي يبذله معلمه، فيعترف له به، ويشكره عليه، فقد قال رسول الله ﷺ :(من لم يشكر الناس لم يشكر الله)[1]، وفي رواية :(لا يشكر الله من لا يشكر الناس)[2]

بل ورد في حديث آخر ما هو أعظم من ذلك ، حيث عبر بأفعل التفضيل ليدل على أن من الكمال شكر وسائط الجود الإلهي ، لينفي ما قد يتوهم من أن ذلك مناف للتوحيد ، قال ﷺ :(إن أشكر الناس لله تعالى أشكرهم للناس)[3]

قال بعض الطلبة: لقد دعا رسول الله ﷺ إلى مقابلة الإحسان بالشكر والثناء والاعتراف بالفضل لأهل الفضل ، فقال ﷺ :(من أعطى عطاء فوجد فليجز به، فإن لم يجد فليثن فإن من أثنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر)[4]

---

(١) رواه أحمد والترمذي بسند صحيح.

(٢) أبو داود والترمذي وقال حديث صحيح ، قال الحافظ المنذري: روى هذا الحديث برفع الله وبرفع الناس، وروى أيضا بنصبهما وبرفع الله وبنصب الناس وعكسه، أربع روايات.

(٣) أحمد ورواته ثقات والطبراني.

(١) الترمذي وأبو داود وابن حبان في صحيحه.

قال آخر: وقال ﷺ :(من أولى معروفا فليذكره فمن ذكره فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره)[1]

قال آخر: وقال ﷺ :(من لم يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لا يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر)[2]

قال آخر: بل اعتبر ﷺ المثني على الخير والشاكر له في درجة العامل به ، فعندما أعجب المهاجرون بأخلاق الأنصار وتضحياتهم في سبيل الله ، قالوا لرسول الله ﷺ :(يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله؟ ما رأينا قوما أحسن بذلا للكثير، ولا مواساة في القليل منهم، ولقد كفونا المؤونة)، فقال ﷺ :(أليس تثنون عليهم به وتدعون لهم؟) قالوا : بلى، قال :(فذاك بذاك)[3]

قال آخر، وقد كان أكبر الجماعة سنا: صدق رسول الله ﷺ .. لقد مارست في فترة طويلة من عمري التدريس في مدارس الصراع[4] .. وكنت أرى الطلبة كيف يستهنون بمعلميهم، وكيف يحتقرونهم ..

وقد كان لي بعض الأصدقاء من المعلمين، اسمه إبراهيم طوقان، وكان شاعرا، وقد جمعه مجلس ذات يوم مع أحمد شوقي، فأخذ شوقي يترنم بقصيدته المعروفة، والتي يقول مطلعها:

قـــم للمعلـــم وفـــه التبجـــيلا كـــاد المعلـــم أن يكـــون رســـولا

وقد لاقت القصيدة ترحيبا كبيرا من السامعين إلا من صديقي، الذي قام مغضبا، وراح يقول مرتجلا:

شـــوقي يقـــول ومـــا درى بمصـــيبتي (قـــم للمعلـــم وفِّـــه التبجـــيلا)

اقعـــدْ فـــديتُك هـــل يكـــون مُبَجَّلًـــا مـــن كـــان للـــنشء الصـــغار خلـــيلا

ويكـــاد يقلقـــني الأمـــير بقولـــه (كـــاد المعلـــم أن يكـــون رســـولا)

لـــو جـــرب التعلـــيمَ شـــوقي ســـاعةً لقضـــى الحيـــاةَ شـــقاوةً وخمـــولا

حســـبُ المعلـــمِ غمـــةً وكآبـــةً مـــرأى الـــدفاتر بكـــرةً وأصـــيلا

مائـــةٌ علـــى مائـــةٍ إذا هـــي صُـــلِّحتْ وجـــد العمـــى نحـــو العيـــون ســـبيلا

---

(٢) الطبراني وابن أبي الدنيا

(٣) ابن أبي الدنيا وغيره بإسناد لا بأس به.

(٤) أبو داود والنسائي واللفظ له.

(٤) هذا مصطلح استعملناه كثيرا في رسائل السلام خاصة في مجموعاتها الأولى، ونريد به كل ما لم ينبن على أسس السلام الذي جاء به الإسلام.

ولَـــــو آن في التصــــليح نفعًـــــا يرتجـــــى   وأبيـــــــك لم أكُ بـــــــالعيون بخـــــــيلا

لكــــــن أصـــــلِّح غلطـــــــةً نحويــــــةً   مثلًـــــا وأتخـــــذ الكتـــــاب دلـــــيلا

مستشــــــهدًا بـــــــالغر مــــــن آياتـــــه   أو بالحـــــــديث مُفَصـــــــلًا تفصــــــيلا

وأغــــوص في الشـــــعر القـــــديم وأنتقـــــي   مــــــا لــــــيس ملتبسًـــــا ولا مبـــــذولا

وأكــــاد أبعـــــث ســـــيبويه مــــن البلـــــى   وذويــــــه مــــــن أهـــــل القـــــرون الأولى

فـــــأرى حمـــــارا بعــــــد ذلـــــك كلـــــه   رفـــــع المضـــــاف إليـــــه والمفعـــــولا

لا تعجبـــــوا إن صِـــــحْتُ يومًـــــا صـــــيحةً   ووقعـــــت مـــــا بـــــين البنـــــوك قتـــــيلا

يـــــا مــــن يريـــــد الانتحـــــار وجدتـــــه   إن المعلـــــــم لا يعـــــــيش طـــــــويلا

قال آخر: صدقت .. لقد جربت مثلك التدريس في مدارس الصراع، وقد رأيت أن أكبر ما يبذله المعلم من جهد جهد ضائع، وما ذاك إلا لما ينقصهم من إكسير الأدب الذي دعا إليه رسول الله ﷺ .. وقد كان لي مثلك صديق أديب اسمه عبد الله بن سليم الرُّشَيد، وقد كتب في ذلك شعرا يقول فيه:

أروح وأغـــــــدو بالـــــــدفاتر مثقلًـــــا   ويـــــا بـــــؤس مـــــن يمســـــي قـــــرينَ الـــــدفاترِ

أريـــــق عليهـــــا أعـــــيني كـــــلَّ ليلـــــةٍ   بهمـــــة وقَّـــــادٍ وعزمـــــة صـــــابر

وكـــــم وقفـــــةٍ بـــــين التلاميـــــذ قُمتُهـــــا   بلهجـــــة خَضَّـــــاضٍ علـــــى الحـــــرب هـــــادر

أمـــــزِّق ســـــاعاتي لترقيـــــع وقتـــــهم   وأهـــــدر عمـــــري بـــــين جـــــد وذاكـــــر

وأحســـــب أني بالتلاميـــــذ مُبـــــدِلٌ   شـــــيوخًا كبحـــــر بـــــاللآلئ زاخـــــرِ

فألقـــــاهمُ مـــــن بعـــــد شـــــرٍّ عصـــــابةٍ   وإذ بصـــــياحي كـــــان صـــــفقةَ خاســـــرِ

(زوامـــــلُ للأشـــــعار لا علـــــم عنـــــدهم   بجيِّـــــدها إلا كعلـــــم الأبـــــاعر)

قال آخر: واأسفاه على ذلك الزمان الذي كان فيه الأمراء يتسابقون على أحذية العلماء.

قلنا: كيف ذلك ومتى؟

قال: لقد روي أن المعلّم النحوي الشيخ الفراء كان يقوم بتعليم ولدَيْ الخليفة العباسي المأمون علوم العربية، وذات يوم أراد أن يقوم من درسه، فتسابق الأميران إلى حذائه ليقدِّماه إليه، وتنازعا على ذلك لحظة، ثم اتفقا على أن يحمل كل منهما من الحذاء واحدة، ولما علم الخليفة الوالد (المأمون) بالقصة تأثر منها وأعجب بها.

قال آخر: لقد كان للمسلمين أسوة حسنة فيمن رباهم رسول الله ﷺ على هذا التبجيل لأهل العلم .. لقد حدث الشعبي قال: أخذ ابن عباس ـــ رضي الله عنه ـــ بركاب زيد بن ثابت ـــ رضي الله عنه ـــ فقال له: أتمسك بي، وأنت ابن عم رسول الله ﷺ، قال: إنا هكذا نصنع بالعلماء[1].

قال آخر: وروي عن الحسن البصري ـــ رضي الله عنه ـــ قال: رئي ابن عباس ـــ رضي الله عنه ـــ آخذاً بركاب أبي بن كعب، فقيل له: أنت ابن عم رسول الله ﷺ وتأخذ بركاب رجل من الأنصار؟ فقال: إنه ينبغي للحبر أن يعظم ويشرف.

قلنا: فما الثالث؟

قال: أن تأخذ من العالم علمه، وما بدا لك من الحكمة منه، وتدع ما سوى ذلك.

قلنا: أذلك واجب أم حق؟

قال: هو واجب وحق .. أما كونه واجبا، فلأن الله تعالى حدد شرط الاتباع بالطاعة لله ورسوله، فقال :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات:١)

وأما كونه حقا .. فلأنه لا ينبغي لطالب العلم أن يكلف معلمه عنتا.

قلنا: وما العنت الذي يكلفه في هذا؟

قال: إن من يفعل هذا يطلب ـــ من حيث لا يشعر ـــ عصمة معلمه، وذلك مما لا يكون إلا فيمن عصمهم الله، ونصت النصوص على عصمتهم، أما من عداهم، فهم عرضة للخطأ، ولا ينبغي لمن هو عرضة للخطأ أن نكلفه بالعصمة.

قال بعض الطلبة: لقد ذكرني حديثكم هذا برجل سمعته يناظر في مجلس حافل، وقد استدل عليه مخالفه بدلالة صحيحة، فكان جوابه عنها أن قال :(إن هذه دلالة فاسدة، وجه فسادها أن شيخي لم يذكرها، وما لم يذكره الشيخ لا خير فيه)، فأمسك عنه المستدل تعجبا ؛ ولأن شيخه كان محتشما.

([1]) رواه الخطيب في الجامع.

قال الشنقيطي: لا تحسبن هذا محدودا فيمن رأيت .. فما أكثر من يلبس لباس العلم ظاهرا، بينما هو ــ في حقيقته ــ مقلد بشع التقليد، لا يتعصب إلا لمن ولاهم أمره، فهو يقبل على قوم إقبالا تاما، كان حقا ما جاءوا به أو باطلا، ويدبر عن قوم من المسلمين غيرهم، أو عن أقوام، كان حقا ما جاءوا به أو باطلا.

قال بعض الطلبة: لقد تصرفت مع هؤلاء تصرفا لست أدري مدى صوابه.

قال الشنقيطي: فما فعلت؟

قال: لقد رأيته يبغض الغزالي بغضا تاما، ويقبل على فلان الفلاني إقبالا تاما .. فكنت أبدل الأسماء في نقولي، فأضع مقولات الغزالي باسم من أحبه، فكانت تعجبه، وكان يثني عليها أتم الثناء .. وكنت أضع مقولات من أحبه باسم الغزالي، فكان ينكر عليها إنكارا شديدا، ويستعمل النصوص المقدسة في الإنكار عليه.

قال الشنقيطي: لقد ذكرتني بحادثة وقعت في عهد رسول الله ﷺ .. فقد حدث أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: سمع عبد الله بن سلام بقدوم النبي ﷺ، فأتى النبي ﷺ فقال: إني سألك عن خلال لا يعملهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام أهل الجنة؟ وما بال الولد يترع إلى أبيه أو إلى أمه؟ وما هذا السواد الذي في القمر؟ قال ﷺ :(أخبرني بهن جبريل آنفا)، قال: جبريل؟ قال: (نعم)، قال: عدو اليهود من الملائكة، ثم قرأ: :﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (البقرة:٩٧)، قال: (أما أول أشراط الساعة: فنار تخرج على الناس من المشرق (تسوقهم) إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد حوت، وأما الولد: فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد، وأما السواد الذي في القمر: فإنهما كانا شمسين، قال الله تعالى :﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ)(الاسراء: من الآية١٢)، فالسواد الذي رأيت هو المحو)[1]، فقال: (أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله)، ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم فأسلموا وكتم إسلامه.

ثم خرج إلى رسول الله ﷺ فقال: (يا رسول الله، إن اليهود قد علمت أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، وأنهم قوم بهت، وأنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني، وقالوا في ما ليس في، فأحب أن تدخلني بعض بيوتك)

فأدخله رسول الله بعض بيوته، وأرسل إلى اليهود فدخلوا عليه فقال: يا معشر يهود، يا ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله قد جئتكم بالحق فأسلموا)، فقالوا: ما نعلمه، فقال: (أي رجل فيكم الحصين بن سلام؟)، قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا، فقال: (أرأيتم إن أسلم)، قالوا: أعاذه الله من ذلك، فقال: (يا ابن سلام اخرج إليهم)

فخرج عبد الله فقال: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله، يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله حقا، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة: اسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدقه وأعرفه.

قالوا: كذبت أنت شرنا وابن شرنا، وانتقصوه.

---

(1) انظر التفاصيل العلمية المرتبطة بهذا في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله، ألم أخبرك أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور؟ قال: وأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث وحسن إسلامها[1].

قلت: ألأجل هذا ورد نهي العلماء عن اتباعهم اتباعا مطلقا؟

قال: أجل .. لقد خاف العلماء الورعون أن يكونوا حجبا عن أشعة الحقيقة، فلذلك يحذرون من يتعلم على أيديهم من التبعية المطلقة لهم.

قال بعض الطلبة: لقد كان ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ يقول: (ما من أحد إلا ويؤخذ من قوله ويُترَك إلا صاحب هذا القبر)

قال آخر: وكان الشافعي يقول لتلاميذه :(إذا رأيتم قولي يعارض قول الرسول صلى الله عليه وسلم فاضربوا بقولي عرض الحائط)، وكان يقول :(إذا صح الحديث فهو مذهبي)

قال آخر: وكان أحمد يقول: لا تقلدني ولا تقلدن أبا حنيفة ولا مالكًا ولا الشافعي وخذ من حيث أخذوا.

قال آخر: وكان أبو حنيفة يقول : إذا خالف الحديث قولي فاضرب بقولي عرض الحائط.

قال آخر: وكان مالك يقول: كل يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر ، يقصد النبي ﷺ .

قال الشنقيطي: لقد كان قوله تعالى عن أهل الكتاب:﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:٣١) هو الذي جعلهم يذكرون هذا ..

قال بعض الطلبة: لقد ورد في تفسيرها عن عدي بن حاتم ــ رضي الله عنه ــ قوله: أتيت النبي ﷺ، وهو يقرأ في سورة براءة :﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:٣١)، فقال: (أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه)[2]

قلنا: فما الرابع؟

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى :﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾(الفرقان: من الآية٥٩)

قلنا: فما في هذه الآية من حقوق العالم؟

قال: من حق العالم أن يسأل .. فلا أضيع للعلم من ترك السؤال والبحث والنظر، وقد روي أن سفيان الثوري ــ رضي الله عنه ــ قدم عسقلان، فمكث لا يسأله إنسان، فقال: اكروا لي لأخرج من هذا البلد، هذا بلد يموت فيه العلم.

وقال عطاء: دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: ليس أحد يسألني عن

---

(1) رواه البيهقي.

(2) رواه ابن سعد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه.

شيء.

قال بعض الطلبة: لقد سمعت المبرد ينشد عن أبي سليمان الغنوي قوله:

فسـل الفقيـه تكـن فقيهـا مثلـه ... لا خـير في علـم بغـير تـدبر

وإذا تعسـرت الأمـور فأرجهـا ... وعليـك بـالأمر الـذي لم يعسـر

قلت: فما تقول في قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (المائدة:١٠١)

ومثلها ما ورد في أن النبي ﷺ (كان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)[١]

قال: السؤال نوعان: سؤال عن علم يحتاج إليه، فذلك فضل، وهو ما ورد في النصوص الأمر به.

وسؤال هو أقرب إلى الجدل منه إلى العلم، وقد ضرب له القرآن الكريم ببني إسرائيل في قصة البقرة، فقد راحوا يضيقون على أنفسهم حتى ضيق الله عليهم، وقد قال ابن عباس ـــ رضي الله عنه ـــ : فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا وتعنتوا على موسى فشدد الله عليهم.

ولهذا كان النبي ﷺ يحذر من مثل هذا النوع من الأسئلة، ففي الحديث عن النبي ﷺ:(إن أعظم المسلمين جُرْمًا من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته)[٢]، ولما سُئِل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد مع امرأته رجلا فإن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكتَ سكتَ على مثل ذلك؛ فكره رسول الله ﷺ وعابها، ثم أنزل الله حكم الملاعنة[٣].

ولهذا ورد في الحديث قوله ﷺ :(ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه)[٤]، وقد قال لهم ﷺ هذا بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج، فقال رجل: أكُل عام يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثًا، ثم قال ﷺ : (لا، ولو قلت: نعم لوجَبَتْ، ولو وَجَبَتْ لما استطعتم)

وهكذا قال أنس بن مالك ـــ رضي الله عنه ـــ : نُهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع[٥].

وعن البراء بن عازب ـــ رضي الله عنه ـــ قال: إن كان ليأتي علَيَّ السنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن شيء فأتهيب منه، وإن كنا لنتمنى الأعراب[٦].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه مسلم.
(٦) رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده.

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: ما رأيت قوما خيرا من أصحاب محمد ﷺ ، ما سألوه إلا عن ثنْتي عشرة مسألة، كلها في القرآن :﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾(البقرة:٢١٩) ، و﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾ (البقرة: ٢١٧)، و﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ﴾ (البقرة: ٢٢٠) يعني: هذا وأشباهه[1].

قلت: أراك تكر على ما دعوتنا إليه لتنهانا عنه؟

قال: لا .. لقد ميزت بين الأمرين .. فهناك فرق كبير بين أن تسأل لتعمل أو لتتعلم، وبين سؤالك الذي هو أقرب إلى الاقتراح منه إلى السؤال..

لقد قال الله تعالى يذكر الثاني :﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ (النساء: ١٥٣)

وقد ضرب له المثل بسؤال للحواريين، فقال تعالى :﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (المائدة:١١٢)

ولهذا نهيت هذه الأمة أن يقع منها ما وقع لأهل الكتاب قبلها، فقال تعالى :﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) (البقرة:١٠٨)

وقد حدث أبو العالية في سبب نزول الآية أن رجلا قال: يا رسول الله، لو كانت كَفَّاراتنا كَفَّارات بني إسرائيل! فقال النبي ﷺ :(اللهم لا نبغيها ــ ثلاثًا ــ ما أعطاكم الله خَيْر مما أعطى بني إسرائيل، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدُهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفَّارتها، فإن كفرها كانت له خزْيًا في الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزيًا في الآخرة، فما أعطاكم الله خير مما أعطى بني إسرائيل، قال :﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (النساء: ١١٠)، وقال: (الصلوات الخمس من الجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن) وقال: (من هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، وإن عملها كتبت سيئة واحدة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن عملها كتبت له عشر أمثالها، ولا يهلك على الله إلا هالك)، فأنزل الله :﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾

قلنا: فما **الخامس**؟

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ)(الأحزاب: من الآية٥٣)

قلنا: فما وجه الإشارة فيه؟

قال: أنتم تعلمون أن العلماء ورثة الأنبياء .. ولذلك، فإن هذا النوع من الأدب ليس خاصا برسول الله ﷺ .. بل هو مرتبط بورثته من العلماء.

قلنا: فهل أثر عن سلفكم من العلماء في تطبيق هذا أي سنة من سنن الهدى؟

قال: لقد اتفقوا جميعا أن طالب العلم لا يدخل على الشيخ في غير المجلس العام إلا بالاستئذان، سواء كان

---

(1) رواه البزار.

الشيخ وحده أو كان معه غيره، ولا يكرر الاستئذان، وإن شك في علم الشيخ به، فلا يزيد في الاستئذان فوق ثلاث مرات أو ثلاث طرقات بالباب أو الحلقة، وليكن طرق الباب خفيفاً بآداب بأظفار الأصابع، ثم بالأصابع، ثم بالحلقة قليلاً، قليلاً، فإن كان الموضع بعيداً عن الباب أو الحلقة، فلا بأس برفع ذلك بقدر ما يسمع لا غير، وإذا أذن وكانوا جماعة يقدم أفضلهم وأسنهم بالدخول والسلام عليه، ثم يسلم عليه الأفضل فالأفضل.

ونصوا على أنه ينبغي أن يدخل على الشيخ كامل الهيئة، متطهر البدن والثياب، نظيفهما، بعدما يحتاج إليه من أخذ ظفر وشعر، وقطع رائحة كريهة، لا سيما إن كان يقصد مجلس العلم فإنه مجلس ذكر واجتماع في عبادة.

ومتى دخل على الشيخ في غير المجلس العام، وعنده من يتحدث معه فيسكتوا من الحديث، أو دخل والشيخ وحده يصلي، أو يذكر، أو يكتب أو يطالع، فترك ذلك أو سكت ولم يبدأه بكلام أو بسط حديث، فيسلم ويخرج سريعاً، إلا أن يحثه الشيخ على المكث، وإذا مكث فلا يطيل إلا أن يأمره بذلك.

وينبغي أن يدخل على الشيخ أو يجلس عنده وقلبه فارغ من الشواغل له، وذهنه صاف لا في حال نعاس أو غضب أو جوع شديد أو عطش أو نحو ذلك، لينشرح صدره لما يقال، ويعي ما يسمع.

وإذا حضر مكان الشيخ فلم يجده جالساً، انتظره كيلا يفوت على نفسه درسه، فإن كل درس يفوت لا عوض له، ولا يطلب من الشيخ قراءة في وقت يشق عليه فيه، أو لم تجر عادته بالإقراء فيه، ولا يخترع عليه وقتاً خاصاً به دون غيره، وإن كان رئيساً أو كبيراً، لما فيه من الترفع والحمق على الشيخ والطلبة والعلم، فإن بدأه الشيخ بوقت معين أو خاص لعذر عائق له عن الحضور مع الجماعة أو لمصلحة رآها الشيخ فلا بأس بذلك.

ونصوا على أن على طالب العلم أن يجلس بين يدي الشيخ جلسة الأدب، كما يجلس الصبي بين يدي المقرئ، أو متربعاً بتواضع وخضوع وسكون، وخشوع، ويصغي إلى الشيخ ناظراً إليه، ويقبل بكليته عليه، متعقلاً لقوله، بحيث لا يحوجه إلى إعادة الكلام مرة ثانية، ولا يلتفت من غير ضرورة، ولا ينفض كمه ولا يحسر عن ذراعيه، ولا يعبث بيديه أو رجليه، ولا يضع يده على لحيته أو فمه، أو يعبث بها في أنفه، أو يستخرج بها منه شيئاً، ولا يفتح فاه ولا يقرع سنه، ولا يضرب الأرض براحته، أو يخط عليها بأصابعه، ولا يشبك يديه أو يعبث بإزاره. ولا يستند بحضرة الشيخ إلى حائط، أو مخدة أو يجعل يده عليها أو نحو ذلك، ولا يعطي الشيخ جنبه أو ظهره، ولا يكثر كلامه من غير حاجة، ولا يحكي ما يضحك منه وما فيه بذاءة، أو يتضمن سوء مخاطبة أو سوء أدب، ولا يضحك لغير عجب ولا لعجب دون الشيخ، فإن غلبه تبسم، تبسم من غير صوت، ولا يكثر التنحنح من غير حاجة ولا يبصق ولا يتنخع ما أمكنه، ولا يلفظ النخامة من فيه، بل يأخذها من فيه بمنديل أو خرقة أو طرف ثوب، ويتعاهد تغطية أقدامه وسكون يديه عند بحثه، أو مذاكرته، وإذا عطس خفض صوته جهده، وستر وجهه بمنديل أو نحوه، أو إذا تثاءب ستر فاه بعد رده جهده.

قال بعض الطلبة: أروي في هذا عن علي ـــ رضي الله عنه ـــ قوله :(من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة، وتخصه بالتحية وأن تجلس أمامه، ولا تشيرن بيدك، ولا تغمزن بعينك عنده، ولا تقولن: قال فلان:

خلاف قولك، ولا تغتابن عنده أحداً ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره لله تعالى، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته، ولا تسار في مجلسه ولا تأخذ بثوبه، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تشبع من طول صحبته، فإنما هو كالنخلة ينتظر متى يسقط عليك منها شيء، وإن المؤمن العالم لأعظم أجراً من الصائم القائم الغازي في سبيل الله، وإذا مات العالم انثلمت في الإسلام ثلمة لا يسدها شيء إلى يو م القيامة)[1]

قال آخر: وأروي عن بعضهم قوله: (من تعظيم الشيخ، أن لا يجلس إلى جانبه ولا على مصلاه أو وسادته، وإن أمره الشيخ بذلك فلا يفعله إلا إذا جزم عليه جزماً يشق عليه مخالفته، فلا بأس بامتثال أمره في تلك الحال، ثم يعود إلى ما يقتضيه الأدب)

قلنا: فما السادس؟

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى :﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً) (الاسراء:٤٧)، وقوله تعالى مقابل ذلك:﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الزمر:١٨)، وقوله :﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ) (الاحقاف:٢٩)

قلت: هذه آداب الاستماع.

قال: أجل .. وما ذكرته هذه الآيات حاصر لها ..

قلت: لاشك أن السماع شرط أساسي للتعلم، فلا يمكن أن يتعلم من لم يسمع.

قال: ولهذا حرص سلفنا من العلماء والصالحين من ورثة النبي ﷺ على تعليم طلبتهم حسن الاستماع، فلا يمكن أن يتعلم من لم يحسن الاستماع.

قلنا: فما ذكروا من ذلك؟

قال: مما ذكروا في ذلك أن الطالب إذا سمع الشيخ يذكر حكماً في مسألة أو فائدة مستغربة أو يحكي حكاية، أو ينشد شعراً وهو يحفظ ذلك، أصغى إليه إصغاء مستفيد له في الحال كأنه لم يسمعه قط.

وقد ذكروا عن عطاء قوله في هذا: (إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به منه، فأريه من نفسي أني لا أحسن منه شيئاً)، وعنه قال: (إن الشاب ليتحدث، فأسمع له كأن لم أسمعه، ولقد سمعته قبل إن يولد)

فإن سأله الشيخ عند الشروع في ذلك عن حفظه له، فلا يجيب بنعم لما فيه من الاستغناء عن الشيخ فيه، ولا يقل لا لما فيه من الكذب، بل يقول :(أحب إن أستفيده من الشيخ، أو أن أسمعه منه، أو هو من جهتكم أصح)، ولا يكرر السؤال لما يعلمه ولا يشغل ذهنه بفكر أو حديث، ثم يستعيد الشيخ ما قاله لأن ذلك إساءة أدب، بل يكون مصغياً لكلامه حاضر الذهن لما سمعه من أول مرة، فإن لم يسمع كلام الشيخ لبعده أو لم يفهمه مع الإصغاء والإقبال عليه، فله إن يسأل الشيخ الإعادة والتفهيم بعد بيان عذره.

ومن هذا الباب نصوا على أن على طالب العلم أن لا يسبق الشيخ إلى شرح مسألة أو جواب سؤال منه،

([1]) رواه الخطيب في الجامع.

أو من غيره ولا يساوقه فيه ولا يظهر معرفته به أو إدراكه قبل الشيخ، وينبغي أن لا يقطع على الشيخ كلامه أي كلام كان، ولا يسابقه فيه ولا يساوقه، بل يصبر حتى يفرغ الشيخ من كلامه ثم يتكلم ولا يتحدث مع غيره والشيخ يتحدث معه، أو مع جماعة المجلس.

وقد ورد في حديث هند بن أبي هالة، في وصفه للنبي ﷺ قوله :(كان إذا تكلم أطرق جلساؤه، كأن على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا)[1]

قلنا: فما السابع؟

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (المجادلة:٨)

قلت: هذه الآية تؤكد النهي عن التناجي .. وهو نهي وردت فيه النصوص الكثيرة، وقد ذكر ﷺ علة النهي عنه، فقال :(إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَينَّ اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه)[2]، وفي رواية :(إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه؛ فإن ذلك يحزنه)[3]

قال آخر: وفي الآية نهي عن التحية بما لم يعلمنا ديننا أن نحيي به.

قال آخر: وفي الآية نهي أن نتحدث في نفوسنا بما يخالف حديث ألسنتنا.

قال الشنقيطي: إن هذه الآية تتحدث عن جميع الآداب التي ترتبط بالكلام .. وهي في مجلس العلم أوجب منها في غيره، فلا يمكن لمن لم يضبط لسانه بضوابط الآداب أن يستفيد من معلمه شيئا.

قلنا: فما أثر عن سلفكم في هذا غير ما ذكرت الآية؟

قال: لقد ذكر سلفنا عن سلفهم أن على الطالب أن يحسن خطابه مع الشيخ بقدر الإمكان، ولا يقول له (لم، ولا نسلم)، ولا من يقول هذا، ولا أين موضعه؟ وشبه ذلك، فإن أراد استفادته تلطف في الوصول إلى ذلك في مجلس آخر على سبيل الاستفادة، وإذا ذكرت شيئاً لا تقل (هكذا قلت)، أو خطر لي أو سمعت أو هكذا قال فلان. وهكذا لا تقول: قال فلان خلاف هذا، أو روى فلان خلافه، أو هذا غير صحيح أو نحو ذلك.

وإذا أصر الشيخ على قول أو دليل، و لم يظهر له أو على خلاف صواب سهواً، فلا يغير وجهه أو عينيه أو يشير إلى غيره كالمنكر عليه، لما قاله بل يأخذه ببشر ظاهر، وإن لم يكن الشيخ مصيباً لغفلة، أو سهو، أو قصور نظر في تلك الحال، فليس بمعصوم.

وليتحفظ من مخاطبة الشيخ بما يعتاده بعض الناس في كلامه ولا يليق خطابه به، مثل ما بك، وفهمت، وسمعت، وتدري، ويا إنسان ونحو ذلك.

---

(١)رواه البيهقي.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه مسلم.

وكذلك لا يحكي له ما خوطب به غيره، مما لا يليق خطاب الشيخ به، وإن كان حاكياً مثل قال فلان لفلان، أنت قليل البر وما عندك خير وشبه ذلك، بل يقول: إذا أراد الحكاية ما جرت العادة بالكناية به، مثل، قال فلان لفلان: إلا بعد قليل البر وما عند البعيد خير وشبه ذلك.

ويتحفظ من مفاجأة الشيخ بصورة رد عليه، فإنه يقع ممن لا يحسن الأدب من الناس كثيراً مثل، إن يقول له الشيخ: مرادك في سؤالك كذا، أو خطر لك كذا، فيقول: لا، وما هذا مرادي أو ما خطر لي هذا وشبه ذلك. بل طريقه أن يعيد كلامه ولا يقول الذي قلته، والذي قصدته ليضمنه الرد عليه، وكذلك ينبغي أن يقول في موضع، لم ولا نعلم، فإن قيل لنا كذا أو فإن منعنا ذلك، أو فإن سئلنا عن كذا أو فإن أورد كذا وشبه ذلك ليكون سائلاً له بحسن أدب ولطف عبارة.

٤ ــ الإفادة

بعد أن انتهينا من دراسة ما يتطلبه الفرع الثالث من علوم وآداب، انتقلنا إلى الفرع الرابع، وهو فرع (الإفادة)[١]

وقد سألنا ــ ونحن في الركن المرتبط بهذا من محضرة الآداب ــ شيخنا محمد الأمين الشنقيطي عن معنى الإفادة، فقال: إن طالب العلم كما لا يختلف عن النبتة التي تسقى، ويعتنى بها .. فهو لا يختلف ــ كذلك ــ عن النبتة في انتظار ثمارها ونتاجها وفوائدها.

قلنا: إن النباتات تختلف في ثمارها .. فما ثمار طالب العلم المستن بسنة رسول الله ﷺ ؟

قال: لقد ذكر رسول الله ﷺ أصناف الثمار، فقال :(إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضاً فكانت منها طائفةٌ طيبةٌ، قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفةٌ منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً. فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)[٢]

ففي هذا الحديث ذكر رسول الله ﷺ ثمرتين صالحتين، وثمرة فاسدة.

أما الثمرة الأولى، وهي أصلح الثمار وأكملها، فهي ثمرة انتفعت بالعلم انتفاعا عظيما، حيث أنبتت من غيثه الكلأ والعشب الكثير الذي انتفع به الإنسان وغير الإنسان.

وأما الثمرة الثانية، فأمسكت من الماء ما انتفع به الناس بعد ذلك في سقيهم وزرعهم.

وأما الثمرة الثالثة، فلم تنتفع بشيء .. فلم تنبت كلأً، ولم تسق عطشانا.

قلت: فهل طلبة العلم يتوزعون على هذه الأصناف الثلاثة؟

قال: أجل .. فمن طلبة العلم من يداوم على طلبه ويحرص عليه، ويكون له من الذكاء وجودة الذهن ما يعينه عليه .. فذلك هو المحقق الذي ينتفع به الكل.

ومنهم من يحفظ للأمة دينها، ويحفظ ما جاء به نبيها من هدي، فيبلغه كما حفظه، فيستفيد من حفظه العموم والمحققون ..

ومنهم الذي لا يطيق هذا ولا ذاك .. والأولى به أن ينصرف إلى ما قدر عليه من تجارة أو غيرها من المكاسب.

قلنا: فحدثنا عن الثمرتين الأوليين.

قال: لقد عبر العلماء عن علوم الأولى بأنها علوم دراية وتحقيق .. وعبروا عن علوم الثانية بأنها علوم رواية وحفظ .. وقد جمع بينهما ﷺ في قوله :(نضر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها، ثم بلغها عني، فرب حامل فقه غير

---

(١) من المراجع المهمة التي رجعنا إليها في هذا المبحث: (المدرس ومهارات التوجيه، محمد بن عبدالله الدويش، الطبعة الثانية) و(المعلم الأول ﷺ، فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب)

(٢) رواه البخاري ومسلم.

فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)[1]

قلنا: فحدثنا عن واجبات كلا الصنفين ليحقق من الإفادة ما أمر الله به.

قال: هما ثنتان، من تحقق بهما، فقد تحققت له الإفادة بأكمل معانيها.

قلنا: فما هما؟

قال: النصح والتعليم .. فالعالم لا يكتفي بأحدهما عن الآخر .. لأن أحدهما لا يغني عن الآخر.

قلنا: فبأيهما يبدأ؟

قال: هما قرينان لا ينفك أحدهما عن الآخر .. فالنصيحة لا تكون إلا بعلم .. والعلم لا يكون إلا بنصيحة وعن نصيحة.

قلنا: فكيف نجمع بين العلم والنصح، فيكون علمنا نصحا، ونصحنا علما؟

قال: هي تسعة .. من استكملها، فقد استكمل الجمع بينهما، ومن ضيعها، أو ضيع آحادها، فإن له منهما بحسب ما له منها.

النية:

قلنا: فحدثنا عن أولها.

قال: هو ما أشار إليه ﷺ في حديث النيات .. فقد علمتم أن ذلك الحديث يدخل كل باب من الأبواب.

قلنا: فكيف يدخل هذا الباب؟

قال: لقد ذكر سلفنا عن سلفهم في هذا جملة نيات، والكامل هو من استجمعها جميعا .. فأجره على قدر نيته.

ومما ذكروه أن يقصد بتعليمهم وتهذيبهم وجه الله تعالى، ونشر العلم، وإحياء الشرع، ودوام ظهور الحق، وخمول الباطل، ودوام خير الأمة بكثرة علمائها، واغتنام ثوابهم، وتحصيل ثواب من ينتهي إليه علمه من بعدهم وبركه دعائهم له، وترحمهم عليه، ودخوله في سلسلة العلم بين رسول الله ﷺ وبينهم، وعداده في جملة مبلغي وحي الله وأحكامه، فإن تعليمه العلم من أهم أمور الدين، وأعلى درجات المؤمنين.

ومما يعينه على ذلك ويرغبه فيه ذكره لما أعد الله تعالى للعلماء من منازل الكرامات، وأنهم ورثة الأنبياء، وعلى منابر من نور، ونحو ذلك مما ورد في فضل العلم والعلماء من الآيات والأخبار، والآثار، والأشعار.

قلت: فما علاقة النية بالنصح؟

قال: لا نصح بدون نية .. ألم تسمع قوله تعالى :﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)(النساء: من الآية٣٥)؟

قلت: بلى .. وأروي في ذلك عن سالم بن عبد اللّه أنه كتب إلى عمر بن عبد العزير يقول: (اعلم يا عمر أنّ للّه تعالى عون للعبد بقدر النية، فمن تمّت نيته تم عون اللّه تعالى إياه، ومن قصرت عنه نيته قصر عنه من عون اللّه تعالى بقدر ذلك، وقد قال اللّه تعالى في تصديق ذلك :﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)(النساء:

([1]) رواه أحمد وابن ماجة.

من الآية٣٥)، فجعل سبب التوفيق إرادة الإصلاح؛ فذلك هو أول التوفيق من الموفق المصلح للعامل الصالح.

قال: فقد أجابك سالم بدل عني .. وإن شئت المزيد، فقد كتب عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ إلى أبي موسى الأشعري يقول: (إنه من خلصت نيته كفاه اللّه تعالى ما بينه وبين الناس، ومن تزيّن للناس بما يعلم اللّه تعالى منه غير ذلك شانه اللّه تعالى)

وقال آخر: رأيت الخير إنما يجمعه حسن النية وكفاك به خيراً وإن لم ينصب ربّ عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبر تصغره النية.

وكتب بعض الأدباء إلى أخيه: أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل.

وقال داود الطائي: من أكبر همه التقوى لو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوماً إلى نية صالحة، فكذلك الجاهل باللّه تعالى وأيامه همه الدنيا والهوى، ولو تعلقت جوارحه بكل أعمال الصالحات لكان مرجوعًا إلى إرادة الدنيا وموافقة الهوى، لأن سرّها كان همه النفس لعاجل عرض الدنيا.

وقال محمد بن الحسين: ينبغي للرجل أن تكون نيته بين يدي عمله.

وقال أيوب السجستاني وغيره: تخلص النيّات على العمّال أشدّ عليهم من جميع الأعمال.

وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العلم.

وقال بعض العلماء: طلب النية للعمل قبل العمل وما دمت تنوي الخير فأنت بخير.

وقال زيد بن أسلم: خصلتان هما كمال أمرك تصبح ولا تهّم للّه تعالى بمعصية وتمسي ولا تهّم للّه تعالى بمعصية.

وقال بعض السلف في معناه: إنّ نعمة اللّه تعالى أكثر من أن تحصوها وإنّ ذنوبكم أخفى من أن تعلموها ولكن أصبحوا توّابين وأمسوا توّابين يغفر لكم ما بين ذلك.

ويروى عن بعض المريدين، أنه كان يطوف على العلماء يقول: من يدلّني على عمل لا أزال فيه عاملاً للّه تعالى فإني أحبّ أن لاتجيء عليّ ساعة من ليل أو نهار إلاّ وأنا عامل من عمال اللّه تعالى، فقيل له: قد وجدت صاحبك اعمل الخير ما استطعت، فإذا أفترت أو تركته فهمّ بعمله، فإن الهامّ بعمل الخير كعامله.

قلت: لقد روي في السنة ما يدل على تصديق ذلك .. فقد جاء في الحديث عن عبد الله بن عباس ــ رضي الله عنه ــ عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه، تبارك وتعالى قال: (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك: فمن هم بحسنةٍ فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنةً كاملةً، وإن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسناتٍ إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وإن هم بسيئةٍ فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملةً، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئةً واحدةً)[1]

التبسيط:

قلنا: عرفنا الأولى .. فما الثانية؟

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧)

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

قلنا: فما فيها من العلم المرتبط بهذا؟

قال: إن العالم المستن بسنة رسول الله ﷺ هو الذي يقرب لك المعلومة، ويبسطها، فتفهمها من غير عناء.

قلنا: فهل ورد في السنة ما يدل على ذلك؟

قال: كل السنة تدل على ذلك، فقد سلك رسول الله ﷺ في التعليم أساليب تربوية كثيرة تبسط المعلومات وتقربها: فكان تارة يضرب لهم الأمثلة ، وتارة يستخدم الإشارة الحسية ، كأن يحكي فعل شخص ما ، وتارة يلغز لهم لينشطهم ، وتارة يقص عليهم من أحوال الأمم الماضية، ليكون في ذلك عبرة لهم ، وتارة يعلمهم عمليا ، بأن يفعل هو ما يريد فيتابعونه عليه، وتارة يسألهم عن الشيء ، و لم يسألوا عنه ثم يجيبهم ، وتارة يجيبهم على سؤالهم بأكثر مما أرادوا لأجل فائدة عظيمة لهم ، وغير ذلك كثير ..

قال بعض الطلبة: مما يروى في ذلك أن النبي ﷺ كان يستعمل يديه للإشارة إذا احتاج إلي ذلك .. ومما ورد في ذلك قوله ﷺ :(أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا)، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرَّج بينهما شيئاً[1].. ومن ذلك قوله ﷺ :(الفتنة من هاهنا)، وأشار إلى المشرق[2].

قال آخر: ومما يروى في ذلك ما ورد في سياق حجه ﷺ ، فقد روي أنه ﷺ أمر أصحابه، أن لمن لم يسق الهدي أن يحل من إحرامه بعد طوافه بين الصف والمروة ويجعلها عمرة، وقال: (لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل، وليجعلها عمرة)، فقام سراقة بن مالك بن جشم، فقال : يا رسول الله ألعامنا هذا أم للأبد؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى، وقال: (دخلت العمرة في الحج[3]) مرتين (لا .. بل لا بل لأبد الأبد)[4]، فالنبي ﷺ شبك بين أصابعه ــ في هذا الحديث ــ ليبين ويؤكد على أن هذا الحكم مستمر للأبد، ولا يخفى ما في هذه الحركة من معان قوية، تزيد الكلام تأكيداً ، وقوة إلى قوة .

قال آخر: ومما يروى في ذلك أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة، فقال:(فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه)، وأشار بيده يقللها[5].

فإشارته ﷺ ــ في هذا الحديث ــ أفادت معنى جديدً زائداً على كلامه ﷺ ، وهو أن هذه الساعة أمرها يسير في مقابل نيل أمر عظيم ، وهذا من فضل الله على عباده.

قال آخر: ومما يروى في ذلك ما حدث به جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنه ــ عن خطبة النبي ﷺ بالناس في نمرة يوم عرفة ، حيث بين لهم في هذه الخطبة أموراً كثيرة وعظيمة، ثم بعد أن بلغهم قال لهم : (وأنتم تسألون عني . فما أنتم قائلون ؟) قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فقال : بإصبعه السبابة

([1]) رواه البخاري.

([2]) رواه البخاري ومسلم.

([3]) قال النووي: اختلف العلماء في معناه على أقوال أصحها به قال جمهورهم معناه أن العمرة يجوز فعلها في أشهر الحج إلى يوم القيامة ، والمقصود به بيان إبطال ما كانت الجاهلية تزعمه من امتناع العمرة في أشهر الحج (مسلم بشرح النووي)

([4]) رواه مسلم.

([5]) رواه البخاري ومسلم.

، يرفعها إلى السماء، وينكتها[1] إلى الناس (اللهم اشهد، اللهم اشهد) ثلاث مرات[2].. ففي رفع الرسول ﷺ لأصبعه إلى السماء، ثم الإشارة بها إليهم جذب لأنظار الناس لهذا الأمر الهام والخطير وهو مقام الشهادة على التبليغ.

قال آخر: ومما يروى في ذلك قوله ﷺ :(يقبض العلم ، ويظهر الجهل والفتن ، ويكثر الهرج) قيل : يا رسول الله وما الهرج ؟ فقال هكذا بيده، فحرفها كأنه يريد القتل[3].

قال آخر: وكان ﷺ يستعمل ــ أحيانا ــ الرسوم التوضيحية، ومما يروى في ذلك أنه خطَّ مرة خطًّا مربعاً، وخطَّ خطًّا في الوسط خارجاً منه، وخطَّ خططا صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: (هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، أو قد أحاط به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا)[4]

قال آخر: ومما يروى في ذلك عن عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال:(هذا سبيل الله مستقيماً)، وخط عن يمينه وشماله ثم قال:(هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه)، ثم قرأ :﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾(الأنعام: من الآية١٥٣)[5]

قال آخر: وكان ﷺ ــ أحيانا ــ يربط المعنى المعقول بالصورة المحسوسة، فينظر مرة إلى القمر ليلة البدر ثم يقول:(إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ :﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ (قّ:٣٩)[6]، وقال لعلي ــ رضي الله عنه ــ :(قل: اللهم اهدني، وسددني، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، وبالسداد سداد السهم)[7]

قال آخر: وكان ﷺ يضرب المثل ليبسط بها المعلومة، ويقربها، ومما يروى في ذلك قوله ﷺ:(مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً و لم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً)[8]

ومثله قوله ﷺ :(لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل مترلا وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتى اشتدَّ عليه الحرُّ والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع

---

(1) أي يشير بها إلى الناس كالذي يضرب بها الأرض.
(2) رواه مسلم.
(3) رواه البخاري .
(4) رواه البخاري.
(5) رواه الحاكم، وقال: صحيح و لم يخرجاه.
(6) رواه البخاري ومسلم.
(7) رواه مسلم.
(8) رواه البخاري.

إلى مكاني، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده)[1]

قال آخر: وكان ﷺ ــ أحيانا ــ يحكي قصة واقعية من الأمم السابقة، كما في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فدعوا الله بصالح أعمالهم[2]، وقصة الذي قتل تسعة وتسعين نفسا[3] .. وغيرها.

قال آخر: وكان ﷺ ــ في أحيان كثيرة ــ يصور المعلومة في واقع محسوس، ليصفو فهمها، ويشتد رسوخها، ومما روي في ذلك ما حدث به أبو حازم ، قال : سألوا سهل بن سعد ، من أى شيء المنبر؟ فقال: ما بقى بالناس أعلم مني ، هو من أثل الغابة ، عمله فلان مولى فلانة ، لرسول الله ﷺ ، وقام عليه رسول الله ﷺ ، حين عمل ووضع ، فاستقبل القبلة ، كبر ، وقام الناس خلفه ، فقرأ ، وركع ، وركع الناس خلفه ، ثم رفع رأسه ، ثم رجع القهقرى ، فسجد على الأرض ، ثم عاد إلى المنبر ، ثم قرأ ثم ركع ، ثم رفع رأسه ، ثم رجع القهقرى حتى سجد بالأرض ، فهذا شأنه.

وفي رواية : أن رجالا أتوا سهل بن سعد الساعدى ، وقد امتروا فى المنبر ، مم عوده ، فسألوه عن ذلك ، فقال : والله إنى لأعرف مما هو ، ولقد رأيته أول يوم وضع ، وأول يوم جلس عليه رسول الله ﷺ . أرسل رسول الله ﷺ إلى فلانة ، امرأة من الأنصار ــ قد سماها سهل ــ :(مرى غلامك النجار ، أن يعمل لى أعوادا ، أجلس عليهن ، إذا كلمت الناس)، فأمرته فعملها من طرفاء الغابة ، ثم جاء بها ، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ ، فأمر بها فوضعت ها هنا ، ثم رأيت رسول الله ﷺ صلى عليها ، وكبر ، وهو عليها ، ثم ركع وهو عليها ، ثم نزل القهقرى ، فسجد فى أصل المنبر ، ثم عاد ، فلما فرغ أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس ، إنما صنعت هذا لتأتموا ولتعلموا صلاتى[4].

قال آخر: ومثل ذلك ما ورد في الحديث عن أنس ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ رأى نخامة في القبلة فشق ذلك عليه حتى رؤي في وجهه ، فقام فحكه بيده فقال : (إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه ــ أو إن ربه بينه وبين القبلة ــ فلا يبزقن أحدكم قبل قبلته ، ولكن عن يساره أو تحت قدمه)، ثم أخذ طرف ردائه فبصق فيه، ثم رد بعضه على بعض، فقال:(أو يفعل هكذا)[5]

قال آخر: ومثل ذلك ما ورد في الحديث عن عثمان ــ رضي الله عنه ــ أنه توضأ، ثم قال: قال رسول الله ﷺ :(من توضأ نحو وضوئي هذا ، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه)[6]

التشويق:

قلنا: عرفنا الثانية .. فما الثالثة؟

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

---

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه البخاري ومسلم.
(3) رواه البخاري ومسلم.
(4) رواه البخاري ومسلم.
(5) رواه البخاري ومسلم.
(6) رواه البخاري.

(الصف: ١٠)

قلنا: فما فيها من العلم المرتبط بهذا؟

قال: إن العالم المستن بسنة رسول الله ﷺ هو الذي يشوقك إلى المعلومة، ويحببها لك، فتقبل عليها بكل كيانك، ولن تتحقق بالعلم، ولن تحقق فيه إلا إذا أقبلت عليه بكل كيانك.

قلنا: فهل ورد في السنة ما يدل على هذا؟

قال: كل السنة تدل على هذا .. فالنبي ﷺ كان يشوقهم إلى كل خير، ويحببهم فيه، فيقبلون عليه بقلوبهم وعقولهم ونفوسهم وجميع كيانهم.

وإن شئتم التقريب .. فقد روي في ذكل عن أبي سعيد المعلي ــ رضي الله عنه ــ قال : كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فقلت : يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال : ألم يقل الله :﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)(لأنفال: من الآية٢٤)؟ ثم قال لي : (لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد)، ثم أخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال :﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة)، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته)[1] .. ففي هذا الحديث يظهر شوق هذا الصحابي إلى معرفة أعظم سورة في القرآن، فهو لم يصبر، و لم يمهل الرسول ﷺ حتى يخرج، بل بادره بقوله: (ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟) .. و لم يكن هذا الصحابي ليكون له هذا الشوق لو لم يتعامل معه رسول الله ﷺ بذلك الأسلوب المشوق.

قال بعض الطلبة: ومما يروى في هذا عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ :(احشدوا (أي اجتمعوا) فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن)، فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ :﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) (الاخلاص:١)، ثم دخل فقال بعضنا لبعض : إني أرى هذا خبر جاءه من السماء، فذاك الذي أدخله، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال:(إني قلت لكم: سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن)[2]

ففي هذه القصة نرى تلهف الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ لسماع ثلث القرآن من في رسول الله ﷺ ، ومنها أن قوله (احشدوا) ثم دخوله وخروجه مرة أخرى يلزم منه رسوخ هذه القصة بأحداثها عند الصحابة وحفظهم لها، ومنها ما فيها من دلالة واضحة على فضل قراءة سورة الإخلاص.

قال آخر: ومما يروى في ذلك عن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ، فقال: (يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة)، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغد، قال رسول الله ﷺ مثل ذلك فطلع الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: إني لاحيت أبي، فأقسمت أني لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى

---

(1) رواه البخاري وغيره.

(2) رواه مسلم وعند مسلم أيضاً عن أبي الدرداء ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال:(أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟) قالوا : وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال:(قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن)

تمضي فعلت قال:(نعم) قال أنس فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار[1] وتقلب على فراشه ذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أحتقر عمله قلت: يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات (يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة)، فطلعت أنت في الثلاث المرات، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به فلم أرك تعمل كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قاله رسول الله ﷺ ، قال : هو ما رأيت ، فلما وليت دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه، قال عبد الله: فهذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق[2].

انظروا كيف شوق رسول الله ﷺ من كان في مجلسه إلى البحث عن سر كون ذلك الرجل من أهل الجنة .. وهو ما حدا بعبد الله بن عمرو بن العاص إلى أن يقوم بتلك التمثلية للاحتيال لمعرفة هذا السر.

قال آخر: وهكذا ورد في الأحاديث الكثيرة .. فالنبي ﷺ في أحيان كثيرة كان يطرح المسألة على أصحابه متسائلاً: (أتدرون ما الغيبة؟)[3] .. (أتدرون ما المفلس؟)[4] .. (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي؟)[5]

فهذه الأسئلة، وغيرها كانت تستحث على التفكير والبحث والتأمل .. وهو ما يجعل الدرس مشوقا بعيدا عن كل أسباب الملل.

قال آخر: ومما يدخل في هذا الباب ما كان يفعله ﷺ من تغيير نبرات صوته في خطبه، فقد كان ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول:(صبحكم ومساكم)[6]

قال آخر: وكان ـــ أحياناً ـــ يغيِّر جلسته، كما في حديث أكبر الكبائر: (وجلس، وكان متكئاً فقال:(ألا وقول الزور)[7]

العناية:

قلنا: عرفنا الثالثة .. فما الرابعة؟

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى:﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران:١٥٩)

---

(1) تعار: هب من النوم مع كلام.
(2) رواه أحمد ، والنسائي في اليوم والليلة.
(3) رواه مسلم.
(4) رواه مسلم.
(5) رواه البخاري ومسلم.
(6) رواه مسلم.
(7) رواه البخاري ومسلم.

قلنا: فما فيها من العلم المرتبط بهذا؟

قال: إن العالم المستن بسنة رسول الله ﷺ هو الذي يحل من تلاميذه محل الوالد من ولده، فهو يعطف عليهم، ويرحمهم، ويستعمل كل الوسائل التي تؤلف قلوبهم، لينصرفوا إلى العلم انصراف محب لا مبغض، وانصراف راغب فيه لا راغب عنه.

قال بعضهم: صدقت .. فكم من علوم لم يحل بيننا وبينها إلا سوء خلق معلميها، وكم من علوم لم يحببنا فيها إلا ما طبع الله عليه أساتذتها من خلق ونبل.

قال الشنقيطي: ولهذا، فإن العالم المستن بسنة رسول الله ﷺ هو الذي يستعمل كل الوسائل ليقرب قلوب تلاميذه إليه، وإلى العلم الذي يحمله.

قلنا: فهل ورد في السنة ما يدل على هذا؟

قال: كل السنة تدل على هذا .. وإن شئتم التقريب، فقد ورد في الحديث أن أبا هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ سأل رسول الله ﷺ يوماً :من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال ﷺ :(لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث .. أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه)[1]

انظروا التأثير الذي يحدثه هذا الثناء في نفس أبي هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ .. إنه ـــ بلا شك ـــ لن يزيده إلا حرصا وعناية.

قال آخر: ومثله ما ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ سأل أبيَ بن كعب ـــ رضي الله عنه ـــ فقال:(يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟)، فقال أبي :﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)(البقرة: من الآية٢٥٥)، فقال له ﷺ :(ليهنك العلم أبا المنذر)[2]

قال آخر: وقريب من هذا ما ورد في الحديث أنه ﷺ كان يحدث، فجاءه أعرابي، فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال، فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال ﷺ :(أين أراه السائل عن الساعة؟)، قال: ها أنا يا رسول الله، قال:(فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة)، قال:كيف إضاعتها؟ قال:(إذا وسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)[3]

فرغم أنه ﷺ لم يقطع حديثه إلا أنه لم ينس هذا السائل ولم يهمله، وهو أمر يكشف عن تلك النفس العالية، والخلق السامي من المعلم الأول ﷺ .

قال آخر: وهكذا حين خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع قال أبو شاه: اكتبوا لي، فقال ﷺ :(اكتبوا لأبي شاه)[4]

قال آخر: ومما يدخل في هذا الباب ما ورد في أحاديث المناقب من ثنائه ﷺ على بعض أصحابه لسلوكات

([1]) رواه البخاري .
([2]) رواه مسلم.
([3]) رواه البخاري.
([4]) رواه البخاري ومسلم.

معينة، كقوله ﷺ :(أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أُبي، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح)[1]

وفي هذا الحديث ــ زيادة على ما فيه من التأليف ــ علمه ﷺ بالقدرات المختلفة لتلاميذه، ومعاملتهم معهم على أساسها.

قال آخر: صدقت .. فمعرفة المدرس لتلامذته تنعكس على تدريسه وعطائه، فالذي يعرف تلامذته معرفة دقيقة هو القادر أن يعلمهم ما يحتاجون إليه ويتناسب معهم، وهو القادر على توجيههم للتخصص المناسب، وعلى الإجابة الدقيقة عن تساؤلاتهم، وهو القادر أيضاً على العدالة والدقة في تقويمهم وإعطائهم الدرجات التي يستحقونها.

قال آخر: ومما يدخل في هذا الباب مراعاته ﷺ للفروق الفردية، فعن أبي رفاعة ــ رضي الله عنه ــ قال:انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب قال: فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه، قال: فأقبل عليَّ رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إلي فأتي بكرسي حسبت قوائمه حديداً، قال: فقعد عليه رسول الله ﷺ وجعل يعلمني مما علمه الله ثم أتى خطبته فأتم آخرها[2].

قال آخر: صدقت .. فالاعتناء بالفروق الفردية أمر لم تبتكره التربية المعاصرة، بل أشار إليه ورثة النبي ﷺ وأدركوه وأوصوا المعلم به، قال النووي:(وينبغي أن يكون باذلاً وسعه في تفهيمهم، وتقريب الفائدة إلى أذهانهم، حريصاً على هدايتهم، ويفهم كل واحد بحسب فهمه وحفظه، فلا يعطيه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عما يحتمله بلامشقة، ويخاطب كل واحدٍ على قدر درجته، وبحسب فهمه وهمته، فيكتفي بالإشارة لمن يفهمها فهماً محققاً، ويوضح العبارة لغيره ويكررها لمن لا يحفظها إلا بتكرار، ويذكر الأحكام موضحة بالأمثلة من غير دليل لمن لا ينحفظ له الدليل، فإن جهل دليل بعضها ذكره له)[3]

قال آخر: وكانوا ــ لهذا ــ ربما خصوا بعض الطلاب بالتعليم والتحديث دون غيرهم، قال أبو عاصم:ربما رأيت سفيان يجذب الرجل من وسط الحلقة، فيحدثه بعشرين حديثاً، والناس قعود، قالوا: لعله كان ضعيفاً. قال:لا[4].

قال آخر: وقريب من هذا ما كان يفعله ﷺ من توجيه كل واحد للتخصص المناسب .. فعن زيد بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ أن قومه قالوا للنبي ﷺ : هاهنا غلامٌ من بني النجار حفظ بضع عشرة سورة، فاستقرأني فقرأت سورة ق، فقال:(إني أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا علي أو ينقصوا، فتعلم السريانية)، فتعلمها ــ رضي الله عنه ــ في سبعة عشر يوماً، وفي رواية : خمسة عشر[5].

([1]) رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد .
([2]) رواه مسلم.
([3]) المجموع شرح المهذب (٣١/١)
([4]) الرامهرمزي في المحدث الفاصل.
([5]) رواه البخاري.

لقد رأى رسول الله ﷺ ما ينعم به زيد من قدرة على الحفظ، فأرسله لتعلم لغة من اللغات، باعتبار اللغات تعتمد بالدرجة الأولى على قدرات الذاكرة.

الرفق:

قلنا: عرفنا الرابعة .. فما الخامسة؟

قال: هو ما أشار إليه قوله ﷺ :(إن الله رفيقٌ يحب الرفق في الأمر كله)[1]، وقوله ﷺ :(إن الله رفيقٌ يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه)[2]، وقوله ﷺ :(إن الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه، ولا يترع من شيءٍ إلا شانه)[3]

قلنا: فما فيها من العلم المرتبط بهذا؟

قال: إن العالم المستن بسنة رسول الله ﷺ هو الذي يرفق بتلاميذه أثناء تعليمه، فلا ينهرهم، ولا يكهرهم، ولا يؤذهم، ولا يغضب عليهم، بل يلين لهم، ويعفو عما يبدر منهم إلى أن تهذب نفوسهم وتصفو طباعهم.

قلنا: عرفنا فضل الرفق .. فهل في السنة ما يدل عليه في هذا الباب؟

قال: أجل .. ومن ذلك ما حدث به معاوية بن الحكم قال : بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله ، فرماني القوم بأبصارهم ، فقلت : واثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني، لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي ، ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه ، فوالله ما كهرني[4]، ولا ضربني ولا شتمني ، قال : (إن هذه الصلاة لا يصح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح ، والتكبير، وقراءة القرآن)، أو كما قال رسول الله [5]ﷺ.

قال آخر: ومما يروى في ذلك ما حدث به أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ ، إذ جاء أعرابي ، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : مه مه[6]، فقال رسول الله ﷺ :(لا تزرموه[7]، دعوه)، فتركوه حتى بال ، ثم أن رسول الله ﷺ دعاه ، فقال له : (إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر ، إنما هي لذكر الله والصلاة ، وقراءة القرآن)، وأمر رجلاً من القوم ، فجاء بدلو من ماء فصبه عليه[8].

وفي رواية زيادة على هذا، قال الأعرابي بعد أن فقه : فقام النبي ﷺ إلي بأبي هو وأمي فلم يسب و لم

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه مسلم.

(4) ما كهرني : أي ما انتهرني ، والكهر الانتهار قاله أبو عبيد . وفي النهاية يقال كهره إذا زجره واستقبله بوجه عبوس (عون المعبود ٣ / ٩٢٦).

(5) رواه مسلم وأبو داود.

(6) مه مه : أي اكفف ، والتكرير للتأكيد وزيادة التهديد.

(7) لا تزرموه : أي لا تقطعوا عليه بوله فيضره ، أو تنتشر النجاسة في المسجد بعد أن تكون بمحل واحد.

(8) رواه مسلم.

يؤنب و لم يضرب[1].

ففي هذا الحديث يظهر رفق النبي ﷺ بالأعرابي وحسن تعليمه له ، وذلك لأن الأعرابي كان يجهل ذلك الحكم، ولهذا السبب لم يعنفه النبي ﷺ و لم يوبخه ، بل دعاه وعلمه برفق الأمر الذي يجهله.

قال آخر: ومما يدخل في هذا الباب ما ورد من عدم تصريحه ﷺ بالأسماء أثناء التوبيخ .. ومن ذلك ما حدث به أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ من أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أتزوج النساء . وقال بعضهم لا آكل اللحم . وقال بعضهم : لا أنام على فراش، فلما سمع رسول الله ﷺ خبرهم، حمد الله وأثنى عليه، ثم قال : (مابال أقوام قالوا كذا وكذا ؟ لكني أصلي وأنام .وأصوم وأفطر وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس مني)[2]

لقد قال النووي معلقا على هذا :(ما بال أقوام قالوا كذا وكذا: هو موافق للمعروف من خطبه ﷺ في مثل هذا أنه إذا كره شيئاً فخطب له ذكر كراهيته ولا يعين فاعله، وهذا من عظيم خلقه ﷺ فإن المقصود من ذلك الشخص وجميع الحاضرين وغيرهم ممن يبلغه ذلك ولا يحصل توبيخ صاحبه على الملأ)[3]

قال آخر: ومما يروى في هذا ما حدث به أبو حميد الساعدي ــ رضي الله عنه ــ قال : استعمل النبي ﷺ رجلاً من بني أسد يقال له ابن اللتبية على صدقة، فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام النبي ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : (ما بال العامل نبعثه فيأتي فيقول : هذا لك وهذا لي ، فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا؟)[4] ، فلم يفصح الرسول ﷺ عن اسمه مع أن كثيراً من الصحابة يعلمون هذا الذي عناه الرسول ﷺ، ولكن لما كان القصد هو التحذير من الفعل المذموم وبيان ضرره وسوء عاقبته حتى لا يقع في الآخرون ، شهر بالفعل دون الفاعل ، إذ ليس هناك مصلحة ترجى من ذكر اسم الفاعل.

التأليف:

قلنا: عرفنا الخامسة .. فما السادسة؟

قال: هو ما أشار إليه قوله ﷺ :(المؤمن إلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)[5]، وقوله ﷺ :(إن أقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون)[6]

قلنا: فما فيها من العلم المرتبط بهذا؟

قال: إن المعلم المستن بسنة رسول الله ﷺ هو الذي يملأ مجلسه بالطمأنينة والراحة والسعادة، فلا يشعر تلاميذه بأي ثقل أو ضيق أو ملل.

قلنا: فكيف يكون ذلك؟

---

(1) وهي عند أحمد وابن ماجه.
(2) رواه البخاري ومسلم.
(3) شرح النووي على مسلم.
(4) رواه البخاري ومسلم.
(5) رواه أحمد والطبراني من حديث سهل بن سعد ، والحاكم من حديث أبي هريرة وصححه.
(6) رواه الطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر بسند ضعيف.

قال: بأن يكون لهم صاحبا قبل أن يكون لهم أستاذا، وأن يكون معهم رعية قبل أن يكون عليهم أميرا.

قلنا: فهل في السنة ما يدل على ذلك؟

قال: كل السنة تدل على ذلك .. فقد كان رسول الله ﷺ كأحدهم، فلم يكن يتميز عليهم بشيء .. قال الحسن ــ رضي الله عنه ــ يصفه:(والله ما كان رسول الله ﷺ تغلق دونه الأبواب، ولا يقوم دونه الحجاب، ولا يغدى عليه بالجفان، ولا يراح بها عليه، ولكنه كان بارزا، من أراد أن يلقى نبي الله ﷺ لقيه، كان يجلس على الأرض، ويطعم ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويردف خلفه، ويلعق يده)[1]

ووصفه حمزة بن عبيد الله بن عتبة قال: (كانت في رسول الله خصال ليست في الجبارين، كان لا يدعوه أحمر، ولا أسود، إلا أجابه، وكان ربما وجد تمرة ملقاة فيأخذها، فيرمي بها إلى فيه، وإنه ليخشى أن تكون من الصدقة، وكان يركب الحمار عريا، ليس عليه شئ)[2]

وذات مرة لقيه رجل تصور أنه مثل كل القادة والزعماء .. وقد حدثنا حديثه ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ فذكر أن رسول الله ﷺ كلم رجلا فأرعد، فقال: (هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديدة)[3]

وفي حديث آخر عن عبد الله بن بسر، قال: أهديت إلى رسول الله ﷺ شاة فجثا على ركبتيه، فأكل، فقال أعرابي: يا رسول الله ما هذه الجلسة ؟ فقال:(إن الله عزوجل جعلني عبدا كريما، و لم يجعلني جبارا عنيدا)[4]

وقد أشفق الصحابة على رسول الله ﷺ مما يصيبه من تلك المخالطة، فطلبوا منه أن يتخذوا له محلا خاصا، فأبى، ففي الحديث: قال العباس ــ رضي الله عنه ــ: يا رسول الله إني أراهم قد آذوك، وآذاك غبارهم، فلو اتخذت عريشا تكلمهم فيه، فقال رسول الله ﷺ :(لا أزال بين أظهرهم يطئون عقبى وينازعوني ثوبي، ويؤذيني غبارهم، حتى يكون الله هو الذي يرحمني منهم)[5]

وكان ﷺ يسلم على كل من لقيه صغيرا كان أو كبيرا، يعرفه أو لا يعرفه، فعن أنس ــ رضي الله عنه ــ أنه مر على صبيان، فسلم عليهم وقال: كان النبي ﷺ لى الله عليه وسلم يفعله[6].

وعن هند بن أبي هالة ــ رضي الله تعالى عنه وعن أمه ــ قال: كان رسول الله ﷺ يبدأ من لقيه بالسلام[7].

قلت: فمخالطة المعلم لتلاميذه هي ما تريده بالتأليف.

قال: أجل .. فالمعلم الذي يخالط تلاميذه، ويتخذهم أصحابا يفيدهم أكثر بكثير من ذلك الذي يستعلي

---

(1) رواه أحمد في الزهد، وابن عساكر ــ وقال: هذا حديث مرسل ــ وقد جاء معناه في الأحاديث المسندة.
(2) رواه ابن سعد.
(3) رواه ابن ماجه.
(4) رواه ابن ماجه.
(5) رواه ابن إسحاق الزجاجي في تاريخه.
(6) رواه البخاري ومسلم.
(7) رواه الترمذي وصححه والبيهقي.

عليهم.

قال بعض الطلبة: ولكن بعض المعلمين يرى أن في ذلك سقوطا لحرمة الأستاذ .. فلذلك يفرض من السنن ما يملأ مجلس العلم هيبة من أستاذه.

قال: لا يمكن أن ينجح المعلم إلا إذا فرض هيبته على تلاميذه .. ولكن هذه الهيبة لا تعني الكبر .. ولا تعني كل ما يفرضه الكبر من سنن ..

لقد قال أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ : (ما كان شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ، لما يعلمون من كراهيته لذلك)[1]، بل إن رسول الله ﷺ قال:(من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار)[2]

قلت: فهل سن رسول الله ﷺ سننا غير هذا لتحقيق الألفة؟

قال: كثيرة هي تلك السنن التي تؤلف القلوب:

منها بذل السلام .. كما قال رسول الله ﷺ :(إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم عليه ، فإن حالت بينهما شجرة ، أو جدار ، أو حجر ثم لقيه ، فليسلم عليه)[3]، وقال ﷺ :(لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم)[4] .. انظروا كيف اعتبر رسول الله ﷺ بذل السلام سببا للمحبة وواسطة لها.

بل إن النبي ﷺ حث على تكرير السلام كلما احتيج إلى ذلك، فقال :(إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم ، فإن بدا له أن يجلس فليجلس ، ثم إذا قام فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة)[5]

ومنها بذل المكافآت المختلفة للمتعلم، ليبعثه ذلك على المزيد من النشاط ..

قاطعته قائلا: ألا يقدح ذلك في الإخلاص؟

قال: الإخلاص أرفع وأقدس من أن يقدح فيه مثل هذا .. ألم تسمع قوله ﷺ في مثل هذا:(تلك عاجل بشرى المؤمن)[6]

قلت: إن من قومنا من يقدمون مكافآت مادية للمتفوقين؟

قال: لقد فعل ذلك رسول الله ﷺ .. فعن عبد الله بن الحارث ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ يصف عبد الله وعبيد الله وكثيراً من بني العباس ثم يقول : (من سبق إلي فله كذا وكذا)، قال : فيستبقون إليه، فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلزمهم[7].

---

(1) رواه الترمذي في كتاب الأدب وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.
(2) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.
(3) رواه أبو داود.
(4) رواه مسلم وأبو داود في الأدب وابن ماجه.
(5) رواه الترمذي وأبو داود، وقال عنه الترمذي: حديث حسن.
(6) رواه أحمد ومسلم وابن ماجة.
(7) رواه أحمد.

ولكن رسول الله ﷺ ـــ فوق هذا ـــ كان يهديهم من المكافآت ما لا يمكن أن يقدر بثمن.

قلنا: وما هو؟

قال: الدعوة الصالحة .. ألم يقل رسول الله ﷺ :(أما إن العبد إذا قال لأخيه المسلم: جزاك الله خيرا فقد بالغ في الدعاء)[1]

قال بعض الطلبة: أروي في ذلك عن عن ابن عباس ـــ رضي الله عنه ـــ ذكر أن النبي ﷺ دخل الخلاء، قال: فوضعت له وضوءاً . قال : من وضع هذا ؟ فأخبر ، فقال : (اللهم فقهه في الدين)[2]

قال آخر: وأروي في ذلك عن أنس بن مالك ـــ رضي الله عنه ـــ قال: جاء أسيد بن حضير الأشهلي النقيب ، إلى رسول الله ﷺ ، وقد كان قسم طعاما ، فذكر له أهل بيت من بني ظفر من الأنصار ، فيهم حاجة ، فقال لي رسول الله ﷺ : أسيد ، تركتنا حتى إذا ذهب ما في أيدينا ، فإذا سمعت بشيء قد جاءنا ، فاذكر لي أهل ذلك البيت ، قال : فجاءه بعد ذلك طعام من خيبر ، شعير وتمر ، قال : فقسم رسول الله ﷺ في الناس ، وقسم في الأنصار فأجزل ، وقسم في أهل ذلك البيت فأجزل ، فقال له أسيد بن حضير مستشكرا : جزاك الله أي نبي الله أطيب الجزاء ، أو قال خيرا ، فقال رسول الله ﷺ : وأنتم معشر الأنصار ، فجزاكم الله أطيب الجزاء ، أو قال خيرا ، فإنكم ـــ ما علمت ـــ أعفة صبر ، وسترون بعدي أثرة في الأمر ، والقسم ، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض[3].

قال الشنقيطي: ويدخل في هذا الباب الثناء الحسن على الطالب المجد، ففي الحديث عن أبي بن كعب ـــ رضي الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : (يا أبا المنذر! أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟)، قال: قلت : الله ورسوله أعلم . قال: (يا أبا المنذر! أتدري آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال قلت :﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾(البقرة: من الآية٢٥٥)، قال : فضرب في صدري وقال : (والله! ليهنك العلم أبا المنذر)[4]

قال بعض الطلبة: لقد قال النووي تعليقا على هذا :(فيه منقبة عظيمة لأبي ، ودليل على كثرة علمه ، وفيه تبجيل العالم فضلاء أصحابه وتكنيتهم ، وجواز مدح الإنسان في وجهه إذا كان فيه مصلحة ولم يخف عليه إعجاب ونحوه لكمال نفسه ورسوخه في التقوى)[5]

قال آخر: وقد ورد في الحديث الآخر ما يؤكد هذا .. فعنأبي موسى الأشعري ـــ رضي الله عنه ـــ قال : قدمت على رسول الله ﷺ وهو بالبطحاء، فقال: أحججت؟ قلت: نعم، قال: بما أهللت؟ قلت : لبيك بإهلال كإهلال النبي ﷺ ، قال : أحسنت .. الحديث[6].

الإنصاف:

([1]) رواه ابن عساكر.
([2]) رواه البخاري ومسلم.
([3]) رواه النسائي في الكبرى.
([4]) رواه مالك ومسلم وأبو داود.
([5]) شرح النووي على مسلم.
([6]) رواه البخاري ومسلم.

قلنا: عرفنا السادسة .. فما السابعة؟

قال: هو ما أشار إليه قوله ﷺ :(أنتم أعلم بأمور دنياكم)[1]

قلت: إن لهذا الحديث أبوابا كثيرة من أبواب العلم[2] .. فمن أيها ندخل إليه؟

قال: فحدثنا بالحديث حتى نعرف مدخله.

قلت: لقد حدث أبو رافع بن خديج ــ رضي الله عنه ــ قال : قدم النبي ﷺ المدينة، وهم يؤبرون النخل، يقولون يلقحون النخل، فقال:(ما تصنعون؟) قالوا: كنا نصنعه، قال:(لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً لكم)، فتركوه، فنفضت[3] أو فنقصت، قال: فذكروا ذلك له، فقال:(إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتك بشيء من رأي فإنما أنا بشر)، وفي بعض الروايات قال:(أنتم أعلم بأمور دنياكم)

قال: ألا ترى أن النبي ﷺ أخبر عن نفسه أنه لم يذكر ذلك لهم من باب العلم النهائي الذي أوحي إليه .. وإنما ذكره من باب الاجتهاد البشري .. والاجتهاد البشري عرضة للخطأ والصواب.

قلت: بلى .. والحديث واضح الدلالة على ذلك.

قال: فهذا هو الإنصاف الذي علمه رسول الله ﷺ لمعلمي أمته، وسنه لهم .. فالمعلم المنصف هو الذي يميز في تعليمه بين القطعي والظني، وبين رأيه وبين الحقيقة، فيدع لغيره أن يناقشه أو ينقده أو يصحح له.

قلت: إن مثل هذا يحتاج شجاعة عظمى.

قال: أجل .. فلا يستن بسنة رسول الله ﷺ إلا الشجعان الذين قهروا نفوسهم، فانصاعت للحق، ولم تنصع لسواه.

قال بعض الطلبة: ولهذا استن الورثة الكبار بهذه السنة العظيمة من سنن رسول الله ﷺ .. وأروي في ذلك عن مسروق قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ، ثم قال: أيها الناس ما أكثركم في صدق النساء، وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمائة درهم، فما دون ذلك، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها، فلأعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم، قال: ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش، فقالت: يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم، قال : نعم، فقالت: أما سمعت الله يقول :﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)(النساء: من الآية ٢٠) فقال عمر: اللهم غفراً ، كل الناس أفقه من عمر .. ثم رجع فركب المنبر، فقال : أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب[4].

قال آخر: وأروي في ذلك عن محمد بن كعب القرظي قال: سأل رجل علياً بن أبي طالب ــ رضي الله

---

(1) رواه مسلم.

(2) ذكرنا ما يرتبط بهذا الحديث من أبواب العلم في رسالة (مفاتيح المدائن) بالإضافة إلى رسالة (النبي الإنسان) من هذه السلسلة، وغيرها.

(3) فنفضت: أسقطت ثمرها.

(4) رواه أبو يعلى.

عنه ــ عن مسألة فقال فيها ، فقال الرجل : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا كذا ، فقال علي: (أصبت وأخطأت ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)(يوسف: من الآية٧٦)

قال الشنقيطي: ومما يدخل هذا الباب ألا يسارع المعلم بتخطئة الطالب كلياً إن كان في إجابته شيء من الصحة، بل عليه أن يشيد بالصحيح ويوضح الخطأ ويبينه، وينبغي على المعلم أن يختار ألفاظ التخطئة فلا تكون ألفاظاً قاسية أو عبارات ساخرة فتصيب الطالب بإحباط وتمنعه من الإقدام على الإجابة على أسئلة المعلم خوفاً من لسان المعلم السليط وعباراته القاسية، بل تكون العبارة مخطئة للجواب، ولكن في قالب تشجيعي.

قال بعض الطلبة: أروي في هذا عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال : إني أرى الليلة في المنام ظلة تنطف السمن والعسل، فأرى الناس يتكففون منها فالمستكثر والمستقل، وإذا سبب واصل من الأرض إلى السماء، فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع ثم وصل، فقال أبو بكر: يا رسول الله، بأبي أنت والله لتدعني فأعبرها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:اعبرها. قال: أما الظلة فالإسلام، وأما الذي ينطف من العسل والسمن فالقرآن حلاوته تنطف، فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه، تأخذ به فيعليك الله، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع به، ثم يوصل له فيعلو به، فأخبرْني يا رسول الله ــ بأبي أنت ــ أصبتُ أم أخطأت؟ فقال النبي ﷺ:(أصبت بعضاً، وأخطأت بعضاً[1])، فقال : أقسمت عليك يا رسول الله بأبي أنت لتحدثني، ما الذي أخطأت، فقال النبي ﷺ :(لا تقسم)[2]

انظروا كيف علق النبي ﷺ على تعبير أبي بكر للرؤيا، فأخبره بأن بعضها صحيح وبعضها خطأ، وهذا عين الإنصاف أن تذكر ما في الإجابة من صحة أو خطأ.

قال آخر: وأروي في هذا عن أبي بن كعب ــ رضي الله عنه ــ قال : أقرأني رسول الله ﷺ سورة فبينما أنا في المسجد إذ سمعت رجلاً يقرأها بخلاف قراءتي ، فقلت: من أقرأك هذه السورة ؟ فقال: رسول الله ﷺ ، فقلت : لا تفارقني حتى آتي رسول الله ﷺ، فأتيناه، فقلت: يا رسول الله، إن هذا قد خالف قراءتي في هذه السورة التي علمتني ، قال : اقرأ يا أبي ، فقرأت ، فقال : أحسنت ، فقال للآخر : اقرأ فقرأ بخلاف قراءتي ، فقال له : أحسنت ، ثم قال : يا أبي إنه أنزل على سبعة أحرف ، كلها شاف ، كاف ، قال : فما اختلج في

([1]) قال النووي:(اختلف العلماء في معناه ، فقال ابن قتيبة وآخرون : معناه أصبت في بيان تفسيرها ، وصادفت حقيقة تأويلها ، وأخطأت في مبادرتك بتفسيرها من غير أن آمرك به، وقال آخرون : هذا الذي قاله ابن قتيبة وموافقوه فاسد ؛ لأنه ﷺ قد أذن له في ذلك ، وقال : اعبرها وإنما أخطأ في تركه تفسير بعضها ، فإن الرائي قال: رأيت ظلة تنطف السمن والعسل ، ففسره الصديق ــ رضي الله عنه ــ بالقرآن حلاوته ولينه ، وهذا إنما هو تفسير العسل ، وترك تفسير السمن وتفسيره السنة ، فكان حقه أن يقول : القرآن والسنة ، وإلى هذا أشار الطحاوي، وقال آخرون : الخطأ وقع في خلع عثمان ، لأنه ذكر في المنام أنه أخذ بالسبب فانقطع به ، وذلك يدل على انخلاعه بنفسه ، وفسره الصديق بأنه يأخذ به رجل فينقطع به ، ثم يوصل له فيعلو به ، وعثمان قد خلع قهرا ، وقتل ، وولي غيره . فالصواب في تفسيره أن يحمل وصله على ولاية غيره من قومه ، وقال آخرون : الخطأ في سؤاله ليعبرها)(انظر: شرح النووي على مسلم)

([2]) رواه البخاري ومسلم.

صدري شيء من القرآن بعد[1].

قال الشنقيطي: ومما يدخل هذا الباب قول المعلم (لا أدري) لما لا يدري .. لقد ذكر الله تعالى ذلك عن أكرم خلقه، فقال :﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) (المائدة:١٠٩)

ولما سأل الله ملائكته بقوله :﴿ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)(البقرة: من الآية٣١) أجابوا :﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)(البقرة: من الآية٣٢)

قال بعض الطلبة: لقد ذكرتني بالشعبي، فقد سئل عن مسألة من العلم، فذكر أنه لا يحسن الإجابة عنها، فقال له أصحابه : قد استحيينا لك مما رأينا منك، فقال: (لكن الملائكة المقربين لم تستح حين قالت :﴿ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾

قال آخر: لقد ورث الشعبي وجميع الورثة هذا من سنة رسول الله ﷺ .. فقد كان من سنته قول (لا أدري) لما لا يدري، ومما أوري في ذلك قوله ﷺ :(لا تخيروني على موسى ، فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري : أكان فيمن صعق فأفاق قبلي ، أو كان ممن استثنى الله)[2]

قال آخر: وأروي في ذلك عن ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أي البقاع خير؟ قال: لا أدري . فقال: أي البقاع شر ؟ قال : لا أدري . قال سل ربك، فأتاه جبريل ﷺ فقال : يا جبريل أي البقاع خير؟ قال : لا أدري ، قال : أي البقاع شر؟ قال : لا أدري . فقال : سل ربك فانتفض جبريل انتفاضة كاد يصعق منها محمد ﷺ ، وقال : ما أسأله عن شيء ، فقال الله ــ عز وجل ــ لجبريل: سألك محمد أي البقاع خير؟ فقلت: لا أدري، وسألك أي البقاع شر ؟ فقلت : لا أدري .. فأخبره أن خير البقاع المساجد ، وشر البقاع الأسواق[3].

قال آخر: ومما يروى عن الورثة في هذا قول أبي بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ :(أي سماء تظلني؟ وأي أرض تقلني؟ إذا قلت في كتاب الله بغير علم)

قال آخر: وقال ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ :(إن من العلم أن تقول لما لا تعلم: الله أعلم، قال الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ :﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) (صّ:٨٦)

قال آخر: وهذا علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ فيما يرويه عنه الشعبي: إنه خرج عليهم وهو يقول: ما أبردها على الكبد؟! فقيل له : وما ذلك؟ قال : أن تقول للشيء لا تعلمه: الله أعلم.

قال آخر: وهذا ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ فيما يرويه عنه نافع : أنه سئل عما لا يعلم فقال :(لا علم لي به)

---

(1) رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والحاكم وصححه.

قال آخر: لقد ذكر الشاعر هذه السنة، فقال ناصحا:

فـــــإن جهلــــت مــــا ســــئلت عنـــــه	و لم يكـــــن عنــــــدك علــــــم منـــــه
فـــــلا تقـــــل فيـــــه بغـــــير فهـــــم	إن الخطـــــأ مـــــزر بأهـــــل العلـــــم
وقـــــل إذا أعيـــــاك ذاك الأمـــــر	مـــــا لي بمـــــا تســـــأل عنـــــه خـــــبر
فـــــذاك شـــــطر العلـــــم عنـــــد العلمـــــا	كـــــذاك مازالـــــت تقـــــول الحكمـــــا

الحكمة:

قلنا: عرفنا السابعة .. فما الثامنة؟

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى :﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (البقرة:٢٦٩)

قلنا: إن هذه الآية منبع من منابع العلم .. فمن أين ندخل إليها في هذا الباب؟

قال: إن الحكمة في أصلها الأول، وغايتها القصوى، هي الفهم عن الله، كما قال تعالى :﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ (الانبياء: من الآية٧٩)، قد جعل الله تعالى الفهم قرينا للعلم، وأخبر بأنه فهم سليمان عليه السلام، وأن حكمه كان نتيجة للفهم لا لمجرد العلم.

وقد ضرب مثالا لذلك، فقال :﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ (الانبياء:٧٨)،

قلت: لقد ذكر المفسرون في تفسيرها[1] أن غنم رجل دخلت حرث آخر، فعاثت فيه فسادا، فذهبا إلى داود عليه السلام، فحكم أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فلما خرج الخصمان على سليمان عليه السلام وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر فقال: بم قضى بينكما نبي الله داود؟ فقالا: قضى بالغنم لصاحب الحرث، فقال :(لعل الحكم غير هذا، انصرفا معي)، فأتى أباه فقال:(يا نبي الله أنك حكمت بكذا وكذا وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع)، قال: وما هو؟ قال :(ينبغي أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بألبانها وسمونها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الزرع إلى حال التي أصابته الغنم في السنة المقبلة، رد كل واحد منهما مال إلى صاحبه)، فقال داود عليه السلام:(قد أصبت .. القضاء كما قضيت)، وقضى بما قضى به سليمان عليه السلام .

قال: إن هذا يدل على أن في كل مسألة علمين: علم مرتبط بالحكم الحرفي للمسألة، وهو ما ينص عليه عادة ظاهر الشريعة أو ظاهر القانون، وهو ما حكم به هنا داود عليه السلام، حيث عوض صاحب الأرض قيمة

---

(1) قال معناه ابن مسعود ومجاهد وغيرهما.

ضرره، فكانت قيمتها هي غنم الآخر.

وعلم مرتبط بالحكم المقاصدي للمسألة، وهو الحكم الذي يراعي مصلحة الجانبين، فلا يتضرر أحدهما لينفع الآخر، وهو ما حاول سليمان ﷺ أن يصل إليه عبر ذلك الحكم.

قلنا: وعينا هذا، فما علاقته بآداب العلماء في تعليمهم؟

قال: إن العالم الوارث المستن بسنة رسول الله ﷺ هو الذي لا يكتفي بتلقين تلاميذه المعارف والعلوم .. بل يضيف إليها تعليمهم منهج الاستنباط، ليربي علماء مجتهدين يلجأ إليهم في الملمات، لا مجرد مقلدين يقفون حائرين عند كل نازلة، ومكتوفي الأيدي عند كل ملمة.

قال بعض الطلبة: صدقت .. وقد ظهرت آثار هذه التربية على صحابته ـــ رضي الله عنهم ـــ بعد وفاته في مواقفهم من حادثة الردة، وجمع القرآن، وشرب الخمر، واتخاذ السجون، والخراج، وغير ذلك من المسائل التي اجتهد فيها الصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ ، و لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام النوازل التي واجهتهم.

بل لقد واجه أصحاب النبي ﷺ دولة ممتدة الأطراف، متنامية النواحي، وتعاملوا مع أصناف أخرى من الشعوب، وأنماط جديدة من المعيشة والسلوك، واستطاعوا أن يستوعبوا ذلك كله، وكل ذلك لم يكن ليحصل لولا التربية العلمية التي ربَّاهم عليها رسول الله ﷺ .

قلنا: وعينا هذا .. فحدثنا عن السنن العملية المرتبطة بهذا.

قال: كل ما ستدرسونه في أصول الفقه، وأصول التفسير، وأصول الأخلاق، وأصول المنطق، فيض من فيوضات تعليمه ﷺ الحكمة لأمته.

قلنا: فاضرب لنا أمثلة تقرب لنا ذلك.

قال: من ذلك أن رسول الله ﷺ كان يعود أصحابه على معرفة العلة ومناط الحكم.. وهو أهم العلوم المرتبطة بالاستنباط .. فهو ﷺ لما سئل عن شراء التمر بالرطب، قال:(أينقص الرطب إذا يبس؟)، قالوا:نعم، فنهى ﷺ عن ذلك[1].

انظروا .. لقد كان رسول الله ﷺ يعلم أن الرطب ينقص إذا يبس، لكنه أراد تعليمهم مناط الحكم وعلته.

قال بعض الطلبة: ومثل ذلك أن النبي ﷺ حين نهاهم عن بيع الثمرة قبل بدو صلاحها، قال لهم : (أرأيت إذا منع الله الثمرة بم يأخذ أحدكم مال أخيه؟)[2]

قال آخر: ومثل ذلك حين قال ﷺ :(وفي بضع أحدكم صدقة)، قالوا له: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجراً)[3]

قال الشنقيطي: وكان ﷺ يعودهم على منهج السؤال وأدبه، لأن أدب السؤال هو الذي يحدد الجواب، ففي الحديث يقول رسول الله ﷺ :(إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم، فحرِّم من أجل

---

(1) رواه أبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه.
(2) رواه البخاري ومسلم.
(3) رواه مسلم.

مسألته)[1]، وقال ﷺ :(إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال)[2]

وكان ﷺ ــ في إجابته ــ لا يقتصر على موضع السؤال، بل كان يجيب بقاعدة عامة يمكن الاستفادة منها في الأحوال المختلفة، فقد سئل: إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فلم يقتصر ﷺ في إجابته على قوله نعم، وإلا كان الحكم قاصراً على الحالة موضع السؤال وحدها، إنما أعطاه حكم ماء البحر، وزاده فائدةً أخرى يحتاج إليها حين قال:(هو الطهور ماؤه الحل ميتته)[3]، أي أن ماء البحر له سائر أحكام الماء الطهور، وليس فقط يجوز الوضوء به في هذه الحالة.

وسئل ﷺ : ما يلبس المحرم من الثياب؟ فقال: (لا يلبس القميص ولا العمائم ولا السراويلات ولا البرنس، ولا ثوبا مسه زعفران ولا ورس ..)[4]، فلم يعدد له ﷺ ما يجوز للمحرم لبسه؛ إنما أعطاه قاعدة عامة فيما لا يحل للمحرم لبسه؛ ليعلم أن ما سواه غير محظور.

وكان ﷺ يربي أصحابه على منهج التلقي .. فعن العرباض بن سارية ــ رضي الله عنه ــ قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً بليغةً وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودعٍ فأوصنا. قال: أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبدٌ حبشي، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً. فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعةٍ ضلالةٌ)[5]

فهو ﷺ في هذا الحديث يرسم لهم المحجة التي تعينهم على سلوك السبيل الصحيح.

وهكذا حين يرى ﷺ خللاً في هذا المنهج، أو اعوجاجاً فيه، فإنه يأخذ بيد صاحبه، فحين رأى مع عمر صحيفة من التوراة غضب، ونهاه عن ذلك، وقال:(أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو أن موسى ﷺ كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني)[6]

قال بعض الطلبة: ومثل هذا ما كان ﷺ يعودهم به من المناقشة والمراجعة، وخير من يمثل هذا عائشة ــ رضي الله عنها ــ فقد كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال:(من حوسب عذب)، قالت عائشة: فقلت: أوليس يقول الله تعالى:﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ (الانشقاق:٨)؟ قالت : فقال: (إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك)[7]

قال آخر: ومثل هذا استخدامه ﷺ أسلوب الاستفهام أثناء التعليم .. فهذا الأسلوب يجذب انتباه الطالب،

---

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه البخاري ومسلم.
(3) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وأحمد وابن ماجه.
(4) رواه البخاري ومسلم.
(5) رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
(6) رواه أحمد والدارمي.
(7) رواه البخاري ومسلم.

ويحثه على استحضار الذهن .. ففي الحديث قال رسول الله ﷺ :(ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟) قلنا: بلى يا رسول الله . قال:(الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين..)[1] .. وقوله :(ألا أخبركم بشرار هذه الأمة؟ الثرثارون، المتشدقون، المتفيهقون، أفلا أنبئكم بخيارهم ؟ أحاسنهم أخلاقا)[2] .. وقوله :(ألا أخبركم بخير البرية؟ رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما كانت هيعة استوى، ألا أخبركم بالذي يليه؟ رجل في بلة من غم يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ألا أخبركم بشر البرية، الذي يسأل بالله تعالى، ولا يعطي به)[3] .. وقوله :(ألا أخبركم بخياركم؟) قالوا: بلى، قال: (فخياركم الذين، إذا رؤوا ذكر الله تعالى، ألا أخبركم بشراركم؟)، قالوا: بلى، قال :(فشراركم المفسدون بين الأحبة المشاءون بالنميمة الباغون البراء العنت)[4]

قال آخر: وفي خطبة النبي ﷺ بمنى في حجة الوداع قال: أي يوم هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، قال : أليس يوم النحر؟ قلنا : بلى، قال : فأي شهر هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : أليس بذي الحجة ؟ قلنا : بلى : قال : (فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ..)[5]

لقد قال القرطبي معلقا على هذا الحديث: (سؤاله ﷺ عن الثلاثة وسكوته بعد كل سؤال منها كان لاستحضار فهومهم ، وليقبلوا عليه بكليتهم ، وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه ، ولذلك قال بعد هذا : فإن دماءكم .. ، مبالغة في تحريم هذه الأشياء)

قال آخر: ومثل هذا ما ورد في الحديث عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ :(هل تضارون[6] في القمر ليلة البدر؟) قالوا : لا يا رسول الله ، قال : فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال فإنكم ترونه كذلك يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيقول من كان يعبد شيئاً فليتبعه .. الحديث[7].

قال الشنقيطي: ألا ترون في جميع هذه الأمثلة أن الرسول ﷺ لم يعين شخصاً بعينه للإجابة على الأسئلة المطروحة ، بل كانت عباراته بصيغة الجمع غالباً.

قلنا: فما في هذا من العلم؟

قال: هذا يدل على أن على المعلم أن يطرح السؤال أولاً لكي يشترك الطلاب جميعهم في إيجاد جواب للسؤال المطروح ، ثم إنه من المستحسن للمعلم أن يترك وقتاً مناسباً قبل الشروع في سماع إجابة الطالب ، وذلك لأن قدرات الطلاب العقلية تختلف وتتباين من فرد لآخر ، فبعضهم سريع استحضاره وبعضهم دون

([1]) رواه البخاري ومسلم.
([2]) رواه البيهقي.
([3]) رواه أحمد.
([4]) رواه أحمد وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة.
([5]) رواه البخاري ومسلم.
([6]) لا تضارون : أي لا يحتاج أن ينظم بعضكم بعضاً ، ولا تتزاحمون ولا يلحقكم ظلم في عدم رؤيتكم ربكم.
([7]) رواه البخاري ومسلم.

ذلك.

التزكية:

قلنا: عرفنا الثامنة .. فما التاسعة؟

قال: هو ما أشار إليه قوله تعالى :﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران:١٦٤)

قلنا: إن هذه الآية تتحدث عن وظائف الرسل ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ

قال: وهي تتحدث عن وظائف ورثتهم من بعدهم.

قلنا: فما هي الثامنة منها؟

قال: هي التزكية .. فالعالم هو الذي لا يكتفي بتثقيف عقلك .. بل يضيف إلى ذلك، أو يقدم لذلك تثقيف نفسك وروحك وعقلك.

قلت: تقصد الجمع بين التعليم والتربية؟

قال: أجل .. فالعلم جواهر كريمة، ولا ينبغي للجواهر الكريمة أن توضع على القمامات.

قلنا: فاذكر لنا أمثلة من السنة تدل على ذلك.

قال: كل السنة تدل على ذلك .. وإن شئتم مثالا مقربا .. فإليكم ما حدث به ابن عباس ـــ رضي الله عنه ـــ تلميذ رسول الله ﷺ .. فقد حدث أن رسول الله ﷺ قال له واعظا:(يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تجاهك، إذا سألت فسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعَنْ باللَّه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت عَلَى أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك، وإن اجتمعوا عَلَى أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[1]، وفي رواية :(احفظ اللَّه تجده أمامك، تعرف إِلَى اللَّه في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا)

---

(1) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

٢ ـــ المعارف

ذاك هو الرجل الأول .. وتلك بعض أحاديثي معه .. أما الرجل الثاني، فقد كان اسمه هو الآخر (محمد الأمين)[1] .. وكان الناس يفرقون بين الأول والثاني بتلقيب الثاني بـــ (المرابط)، لانشغاله التام بجميع أنواع المعارف والعلوم، فلا تكاد تذكر أمامه علما، إلا وجدت عنده منه حظا وفهما وخبرة.

ولم يحصل لي التشرف بصحبته إلا بعد أن مكثت مدة في محضرة الآداب، أتلقى من آدابها بعض ما ذكرته لك .. مما ملأني يقينا بأن ما تركه محمد ﷺ من هدي في هذا الباب لا يمكن أن يلحقه فيه أحد من أهل الدنيا أو من أهل الدين .. وعلمت علم اليقين أن البشرية لو تمسكت بهديه في هذا الباب وحده لتحول العلم شمسا من شموس الهداية، ونورا من أنوار السلام.

في بداية صحبتي له دخلت محضرته .. وكانت محضرة مختلفة تماما عن محضرة الآداب التي كنت فيها .. فلم تكن محضرة عامرة بالطلبة، وإنما كانت محضرة عامرة بالكتب والمخطوطات .. بل فوق ذلك رأيت فيها مرقبا فلكيا متطورا .. ومجموعة كبيرة من المجاهر المتطورة .. بل فوق ذلك رأيت في بعض أقسامها مخابر لا تختلف عن المخابر الحديثة.

بعد أن امتلأت دهشة بكل هذا .. اقتربت من المرابط .. ولم أكن حينها أعرفه .. وقلت: ما هذا؟ .. أهذه محضرة للعلم؟

قال: أجل .. ولكن دخولها مشروط بالمرور على محضرة أخي وسميي محمد الأمين.

قلت: لقد تخرجت على يده .. فمن أنت؟

قال: أنا الوارث الثاني الذي تتعلم على يديه أن محمدا ﷺ لم يكن يعلم الآداب فقط، بل كان يعطينا أصول العلوم، وأسسها، ومناهجها، وأصنافها ..

وعلى يديه ستعلم أن كل ما تراه في العالم من أنواع المعارف والعلوم معارف شرعية لا يتمثل بسنة النبي ﷺ في كمالها إلا من بحث فيها، ولم تحل بينه وبينها الحوائل.

قلت: إن هناك من يختصر العلوم فيما ورد في النصوص المقدسة أو ما ورد في تفسيرها.

قال: صدق من قال هذا ..

قلت: فكيف يستقيم ما ذكرت مع ما ذكر؟

قال: لا يستقيم ما ذكر إلا بما ذكرت.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى :﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا

---

[1] نشير به إلى العلامة الجليل محمد الأمين بن أحمد زيدان الجكني الإبراهيمي المعروف بالمرابط؛ لشدة مرابطته لتعلُّم العلم وتعليمه، من علماء الشناقطة الأفذاذ، له رسائل فقهية عديدة، ومن تآليفه: النصيحة في الفقه، مراقي السعود إلى مراقي السعود، المنهج إلى المنهج في قواعد مذهب الإمام مالك، وغيرها ت ١٣٢٥ هـــ أو ١٣٢٦ هـــ. انظر ترجمته في مقدمة كتابه: مراقي السعود بتحقيق د. محمد المختار بن محمد الأمين الشنقيطي.

الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾ (عبس)

قلت: بلى .. فما قال فيها ابن عباس ومجاهد؟

قال: إن هذه الآية لن نسأل فيها ابن عباس ولا مجاهدا .. بل نسأل فيها علماء التغذية، وعلماء الأرض .. وغيرهم من العلماء الذي نظروا ودققوا، فرأوا ما لم نر، وسمعوا ما لم نسمع.

قلت: أتقصد أن علوم التغذية وعلوم الأرض علوم شرعية بهذا الاستدلال؟

قال: أجل .. ألم يأمرنا الله بالنظر .. أليس قوله :﴿ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ)(الأنعام: من الآية٩٩)، وقوله :﴿ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)(يونس: من الآية١٠١) تشبه قوله تعالى :﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) (البقرة:٤٣)؟

قلت: بلى .. فكلاهما فعل أمر.

قال: فكيف نفرق بين أحدهما فنعتبره واجبا، ونغرق كتب الفقه بمباحثه وعلومه، ثم نقصر في الواجب الثاني، ولا نهتم به، بل ولا نعتبره، بل يسقط بعضنا في أوحال البدعة، فيتهم تلك العلوم التي دعا القرآن الكريم، ودعا نبينا ﷺ إلى تعلمها، فيعتبرها علوما بعيدة عن الدين أو حاجبة عنه؟

قلت: ولكن التخصص مع ذلك يدعو إلى أن تكون هناك علوم دين وعلوم دنيا؟

قال: ليس هناك مقابلة بين الدين والدنيا عندنا.. فالدين عندنا هو سياسة الدنيا .. ولا دنيا عندنا إن لم تسس بسياسة الدين.

قلت: فما تسمي هذه العلوم الكثيرة التي يعتبرها البعض مزاحمة لعلوم الدين؟

قال: هي ثلاثة لا تخرج عنها: حقائق، وسياسات، وصنائع.

الحقائق:

قلت: فما الحقائق؟

قال: الحقائق هي العلوم التي لا تكر عليها جيوش الشبهة والشك، ولا تهزمها جيوش الأيام والليالي.

قلت: تقصد قطعيتها وأبديتها؟

قال: أجل .. فلا علم لما لم يثبت في وجه الأيام، أو لم يثبت في وجه الشبهات.

قلت: فما العلوم التي تدخل في هذا الباب؟

قال: كل العلوم التي لا يستفاد منها إلا معرفة حقائقها.

قلت: مثل ماذا؟

قال: الفلك مثلا .. فكل ما ورد في علم الفلك هو من علوم الحقائق .. وهو تطبيق لقوله تعالى :﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) (يونس:١٠١)

قلت: فما علاقة هذا النوع من العلوم بالدين؟

قال: لا يمكن أن يتحقق المؤمن بمعارف الدين إلا بعد أن يتحقق في هذه العلوم ويرسخ قدمه فيها.

قلت: قرب لي ذلك بمثال .. فإن عقلي تستعصى عليه الحقائق المجردة.

قال: أرأيت لو أن ملكا من الملوك أراد أن يبين لشخص ما أنه ملك، فماذا يفعل؟

قلت: لا شك أنه سيأمر بمن يطوف به في أنحاء البلاد ليرى مدى اتساع مملكة الملك، ومدى خضوعها لملكها.

قال: فتره عقلك عن شبه التشبيه .. واربط هذا المثل بحقائق الأزل والأبد .. فإنه لن تعرف أن الله ملك إلا بالطواف في مملكته .. فكلما رسخت معرفتك بعظم مملكة الله كلما رسخ في نفسك عظم كون الله ملكا.

قلت: صدقت في هذا .. فإني أرى لبعضهم معرفة هزيلة بالكون .. وأرى معها هزالا في معرفة هؤلاء بالله ..

قال: ولهذا قال الله تعالى :﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر:٢٨)

انظر .. كيف ذكر الله تعالى خشية العلماء بعد ذكره لأصناف المكونات .. فلا يعظم الله حق تعظيمه من لا يعرف المكونات ويبحث فيها ويمتلئ عجبا بما فيها.

قلت: صحيح ذلك .. وليس ذلك خاصا بهذا .. فلا يمكن أن نعرف شاعرا ما لم ندرس أشعاره، ولا رساما دون أن ندقق في لوحاته، ولا ممثلا دون أن نرى ما أبدعه في تمثيلياته .. وهكذا فكل شيء يعرف من خلال آثاره.

قال: ولهذا طولبنا بالتعرف على الآثار لنصل إلى المؤثر .. ألم تسمع قوله تعالى :﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم:٥٠)؟

قلت: بلى ..

قال: فالله تعالى اعتبر نظرنا في الكون نظرا في أفعال الله الدالة على صفاته .. فنقرأ من خلال الكون صفات المكون، ونتعرف على المكون من خلال مكوناته.

قال: وهكذا .. فالله تعالى يأمرنا بقراء الرحمة الإلهية من خلال حياة الأرض بعد موتها، قال تعالى:﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)(الروم: من الآية٥٠)

ويأمرنا بالاستبشار تفاؤلا بفضل الله، وفرحا بالله، وتنسما لرحمة الله عند هبوب الرياح التي يرسلها الله، قال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (لأعراف:٥٧)

ويعلمنا أن نقرأ لطف الله وخبرته المحيطة بكل شي من خلال حروف الماء الساقطة على الأرض المخضرة، قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) (الحج:٦٣)

ويعلمنا أن نقرأ علم الله وقدرته من خلال السطور المبثوثة في تقلب الزمان بأعمارنا، قال:﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) (النحل:٧٠)

ويرينا قوة الله القاهرة، وقدرته الشاملة باستعراض تفاصيل دقيق المكونات وجليلها:

فالسموات التي ننبهر لضخامتها لا تعدو أن تكون شيئا حقيرا جدا أمام عظمة الله، قال تعالى:﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر:٦٧)

والقرآن الكريم يرشدنا من خلال هذه الآية إلى أن سبب الجهل بقدر الله هو عدم قراءة الكون باسم الله، فهؤلاء نظروا إلى عظم السموات والأرض غافلين عن خالقهما.

وليس من الغريب لهذا أن تحوي سيدة آي القرآن الكريم[١] الحديث عن خلق الله لتستدل بها على الله، قال تعالى:﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة:٢٥٥)

فالآية الكريمة تدلنا على طريق العبور من السموات والأرض إلى الحي القيوم، لأنه لا يكون هذا الإبداع العظيم في هذا الخلق العظيم إلا بحياة المبدع وقيوميته، فالتوازن والتكامل والبقاء في المخلوقات دليل قيام خالقها بها.

ومن هذه الأبواب التي يفتحها لنا القرآن الكريم للتعرف على الله من خلال كتاب الكون ما ورد فيه من استدلالات على البعث، فهي ـــ عند التأمل ـــ أدلة على الله أكثر من دلالتها على البعث.

وهي تدل على الله قبل البعث، لأن الأساس الذي أوقع الدهريين والمنكرين للبعث هو اعتقادهم بالاستحالة العقلية لعودة العظم الرميم للحياة، كما قال تعالى ضاربا المثل ببعضهم :﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يّـــس:٧٨)

والقرآن الكريم ـــ لينفي هذه الشبهة، ويرفع هذا الالتباس ـــ لا يتكلف كلاما عقليا جافا كالكلام الذي يتعمده الفلاسفة، بل يكتفي بأمرنا برفع أبصارنا وحواسنا للنظر إلى الأرض الخاشعة كيف تتحول بالماء الرباني إلى جنة من جنان الحياة، قال تعالى:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت:٣٩)، وقال تعالى:﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (الزخرف:١١)، وقال تعالى:﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ (فاطر:٩)

أو يرشدهم إلى استعادة تذكر ما سبق من النشأة الأولى، قال تعالى:﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يّـــس:٧٩)

ويخاطب الذين قالوا ـــ مغترين بما لديهم من المعارف ـــ :﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾(الاسراء: من الآية٤٩)، بأمرهم بأن يتحولوا إلى أي شيء شاءوا مما يعتقدون قوته :﴿ قُلْ كُونُوا

---

(١) عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ:(يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟)، قال قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟) قال: قلت :﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (البقرة: من الآية٢٥٥)، فضرب في صدري وقال: (ليهنك العلم يا أبا المنذر) رواه مسلم.

حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾(الاسراء: ٥٠-٥١)، فإذا بقيت حيرتهم حينها ويقولون :﴿ مَن يُعِيدُنَا ﴾، فإن الجواب القرآني يكتفي بتذكيرهم بالنظر إلى مبدأ خلقهم، قال تعالى:﴿ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

قلت: فأنتم إذن ــ في هذه المحضرة ــ تدرسون العلوم الحديثة؟

قال: غرور البشر هو الذي سماها كذلك .. أما نحن فلا نسميها علوما حديثة، بل نسميها علوم الحقائق .. فكل علم منها يدلنا على حقائق الأزل والأبد.

قلت: عهدنا بأن من يدرس هذه العلوم يمتلئ قسوة .. ألا تخافون من القسوة؟

ابتسم، وقال: من درس هذه المعارف على طريقة أهل الله، فإنه لن يزداد إلا خشوعا وإيمانا وسعادة ..

قلت: كيف ذلك؟

قال: إن النظرة العرفانية لسطور المكونات تكسبها من الجمال ما لا يكسبها أي وصف بشري، فلا مقارنة بين من يرى ذات الزهرة التي سرعان ما تذبل، فيحزن لذبولها بقدر ما سره تفتحها، وبين من يرى في ابتسام الزهرة لطف الله ورحمته وجماله.

لقد كان من أساتذة هذه المحضرة رجل من أولياء الله، وكان يقال له (بديع الزمان) .. وكان يقول لتلاميذه ــ وقد كنت من تلاميذه ــ وهو يذكر الفرق بين آثار النظرة العرفانية وآثار الناظرة الغافلة للكون :(ثم إن الإيمان أراني بفضل أسرار القرآن الكريم أراني أحوال الدنيا وأوضاعها المنهارة في ظلمات العدم بنظر الغفلة، لا تتدحرج هكذا في غياهب العدم - كما ظنّ في بادئ الأمر - بل إنها نوع من رسائل ربانية ومكاتيب صمدانية، وصحائف نقوش للأسماء السبحانية قد أتمّت مهامها، وأفادت معانيها، وأخلفت عنها نتائجها في الوجود، فأعلمني الإيمان بذلك ماهية الدنيا علم اليقين)[1]

وكا يشبه لنا عبور المؤمن للكون الحسي الذي يستوي في النظر إليه العارف والغافل، بالنظر إلى المرآة، فهي من حيث أنها زجاجة، نرى مادتها الزجاجية، وتكون الصورة المتمثلة فيها شيئا ثانويا، بينما إن كان القصد من النظر الى المرآة رؤية الصورة المتمثلة فيها، فالصورة تتوضح أمامنا بينما يبقى زجاج المرآة أمراً ثانوياً.

وقد وضع اصطلاحين لذلك، ليوضح من خلالها النظرة القرآنية العرفانية للكون، استفادهما من اصطلاحات النحويين هما (المعنى الاسمي للكون، والمعنى الحرفي له، فالاسم ما دل على معنى في نفسه، أما الحرف فهو الذي: دلّ على معنى في غيره.

والنظرة القرآنية الإيمانية إلى الموجودات تجعلها جميعا حروفاً، تعبّر عن معنى في غيرها، وهذا المعنى هو تجليات الاسماء الحسنى والصفات الجليلة للخالق العظيم المتجلية على الموجودات.

وكما أن الكون من حيث صورته المادية يحتوي على عناصر محددة تتكون منها جميع أشكال الموجودات، ويسمون الجدول الذي يحوي هذه العناصر بالجدول الدوري، فبمثل ذلك يتحدث العارفون عما يمكن تسميته بالجدول الأسمائي للكون.

---

(1) اللمعة السادسة والعشرون (رسالة الشيوخ)

وهذا الجدول يستخلص صفات الله من خلال أشكال المكونات وأنواع واختلاف تدبيرها، وقد شرح النورسي بعض ما يرتبط بهذا الجدول بقوله :(إن في كل شئ وجوهاً كثيرة جداً متوجهة – كالنوافذ – الى الله سبحانه وتعالى، بمضمون الآية الكريمة ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾(الاسراء: من الآية٤٤) إذ أن حقائق الموجودات وحقيقة الكائنات تستند إلى الاسماء الإلهية الحسنى، فحقيقة كل شئ تستند الى اسم من الاسماء أو إلى كثير من الاسماء. وأن الاتقان الموجود في الأشياء يستند إلى اسم من الأسماء)[1]

ويضرب بعض الأمثلة على ذلك بالعلوم المادية التي تنقلب بهذه النظرة إلى علوم روحية، فعلم الحكمة الحقيقي يستند إلى اسم الله (الحكيم)، وعلم الطب يستند إلى اسم الله (الشافي)، وعلم الهندسة يستند إلى اسم الله (المقدّر)، وهكذا كل العلوم تستند الى الأسماء الحسنى تبدأ منها، وتنتهي إليها.

السياسات:

قلت: حدثني عن علوم الحقائق .. فحدثني عن علوم السياسات.

قال: علوم السياسات هي التي تفقهك في كيفية سياسة الدين، وكيفية سياسة الدنيا .. أو هي التي تعلمك كيف تسوس جسدك ونفسك وعقلك وقلبك وروحك وسرك وكل لطائفك.. ثم كيف تسوس بعد ذلك بيتك ومجتمعك ووطنك وأمتك والعالم أجمع ..

قلت: إن أكثر العلوم يدخل في هذا الباب.

قال: نعم .. فنحن هنا ندرس علم النفس وعلم الاجتماع وعلوم السياسة والعلوم الطبية .. وكل العلوم التي تهتم بالسياسات المختلفة.

قلت: ما ارتبط منها بالدين، وما ارتبط بالدنيا.

قال: ألم أذكر لك أنه ليس هناك دين ولا دنيا إلا في أذهان الغافلين .. فجل رب الدنيا أن يسلم دنياه للشياطين .. وجل أهل الله أن يروا في الدارين غير الله.

قلت: ألا تخافون بالانحجاب بالدراسات الاجتماعية والنفسية عن الله؟

قال: لا حجاب إلا حجاب الوهم .. وقد تخلصنا منه بحمد الله بتحقيق الإيمان .. ولذلك لا تزيدنا هذه العلوم إلا تحقيقا وعروجا.

لقد قال لنا شيخنا بديع الزمان إبان دراستنا عليه :(العلوم التي تبحث في حقيقة الموجودات – كالفيزياء والكيمياء والنبات والحيوان .. ـــ هذه العلوم التي هي (حكمة الاشياء) يمكن ان تكون حكمة حقيقية بمشاهدة التجليات الكبرى لاسم الله (الحكيم) جل جلاله في الاشياء، وهي تجليات تدبير، وتربية، ورعاية. وبرؤية هذه التجليات في منافع الاشياء ومصالحها تصبح تلك الحكمة حكمة حقاً، أي باستنادها الى ذلك الاسم (الحكيم) والى ذلك الظهير تصبح حكمة فعلاً، وإلاّ فإما أنها تنقلب الى خرافات وتصبح عبثاً لا طائل من ورائها أو تفتح سبيلاً الى الضلالة، كما هو الحال في الفلسفة الطبيعية المادية..)

ويذكر علة مهمة لذلك غابت عن العلوم الحديثة، فأغرقتها في الجزئية، وأبعدتها عن جمال الوحدة

---

[1] الكلمة الثانية والثلاثون.

والتناسق والكمال، فقال :(إن نظر النبوة والتوحيد والايمان يرى الحقائق في نور الالوهية والآخرة ووحدة الكون لأنه متوجه اليها، أما العلم التجريبي والفلسفة الحديثة فانه يرى الامور من زاوية الاسباب المادية الكثيرة والطبيعة لأنه متوجه اليها، فالمسافة اذن بين زاويتي النظر بعيدة جداً. فرب غاية عظيمة جليلة لدى أهل الفلسفة تافهة وصغيرة لا تكاد ترى بين مقاصد علماء اصول الدين وعلم الكلام. ولهذا فقد تقدم اهل العلم التجريبي كثيراً في معرفة خواص الموجودات وتفاصيلها واوصافها الدقيقة في حين تخلفوا كثيراً حتى عن ابسط المؤمنين وأقلهم علماً في مجال العلم الحقيقي وهو العلوم الإلهية السامية والمعارف الاخروية)

الصناعات:

قلت: فما علوم الصناعات؟

قال: هي كل العلوم التي نستطيع بها تسخير ما سخره الله لنا من أشياء .. فقد جعل الله تعالى للتسخير مفاتيح لا يمكن أن يسخر شيء من دونها.

قلت: فما هذه المفاتيح؟

قال: لقد ذكرها الله تعالى، وذكر ضرورتها للإنسان، فقال :﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة:٣١)

قلت: أعلوم الأسماء هي علوم الصنائع؟

قال: من علوم الأسماء ما هو علوم صنائع .. فلا يمكن للإنسان أن يترل إلى الأرض من دون أن تكون لديه مفاتيح التعامل مع برها وبحرها، وريحها ورياحها.

قلت: أفي القرآن الكريم إشارة إلى هذا النوع من العلوم؟

قال: في القرآن الكريم جميع حقائق الأشياء .. فكيف يغيب عنه هذا؟

قلت: فأين هو؟

قال: في كل القرآن .. كل الآية لو نظرت إليها بهذا المنظار، فتستفيد منها من الحقائق ما لم تكن تحلم به.

قلت: فاذكر لي ما ورد به التصريح .. فلا طاقة لي بالتلميح والإشارة.

قال: لقد قال تعالى عن ذي القرنين :﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ (الكهف:٨٤)

قلت: إن من قومي من يحتقرون هذه العلوم، ويعتبرون الخوض فيها انحرافا عن الكتاب والسنة.

ابتسم، وقال: سلاما .. سلاما ..

قلت: ما تعني؟

قال: لقد قال الله تعالى واصفا عباده المؤمنين المحققين :﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً) (الفرقان:٦٣)

قلت: أترميني بالجهل؟

قال: أرمي من قلت بقوله بالجهل .. والعالم أن رفع من أن يجيب جاهلا.

قلت: العالم لا يتكبر .. فكيف لا يجيب الجاهل؟

قال: الجهل نوعان: جهل سببه عدم العلم .. وهذا هو ميدان العالم .. فالعالم محارب للجهل .. وجهل سببه الكبر .. ولا دواء لهذا إلا أن يتخلص من كبره.

قلت: فما جهل هؤلاء؟

قال: هو جهل كبر .. لا جهل علم .. لقد كان أهل الجاهلية يحتقرون هذا النوع من العلوم، فلذلك لم يكن يمارسها عندهم إلا العبيد، فلما جاء القرآن الكريم أخبر أن هذه الصناعات كان يمارسها الأنبياء ــ عليهم السلام ــ ليعلي من شأنها، ويرفع ذلك الاحتقار الذي ورثه هؤلاء عن أولئك.

قلت: صدقت .. فقد ذكر القرآن الكريم صناعة الحديد، ونوه بها، وذكر اشتغال الأنبياء والصالحين بها، فقال تعالى :﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ (الكهف:٩٦)، وقالت عالى :﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (ســبأ:١٠)، بل قرن بإنزال الحديد إنزال الكتاب، فقال تعالى :﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد:٢٥)

قال: ومثل ذلك ذكر الصناعات النسيجية وأنواعها وأغراضها، فقال تعالى :﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ (النحل:٨٠)

وذكر ما يرتبط بالعمران من أعمال، فقال تعالى :﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (لأعراف: من الآية٧٤)

وذكر الصناعات المرتبطة بالنقل، فقال تعالى :﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٨)، وقال تعالى :﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (هود:٣٧)، وقال تعالى :﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (المؤمنون:٢٢)، وقال تعالى :﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الروم:٤٦)، وقال تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (لقمان:٣١)

وذكر الصناعات البحرية، فقال تعالى :﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:١٤)، وقال تعالى :﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ (الاسراء:٦٦)

بل إن القرآن الكريم دعانا إلى بذل كل الجهود لتحصيل جميع أنواع القوى، ويدخل فيها هذا النوع من أنواع القوى، قوة الصناعة والسياسة، فقال تعالى :﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (لأنفال: من الآية٦٠)

***

التفت صاحبي إلي، وقال: هذه بعض حكايتي مع ورثة النبي المعلم.

قلت: إن هؤلاء ورثة عظماء.

قال: ولم يكونوا عظماء لولا استنانهم بسنة نبيهم ﷺ .. لقد كان رسول الله ﷺ هو معلم ومؤدبهم وحادي أرواحهم، ومثقف عقولهم.

قلت: صدقت في ذلك .. فلا أراهم يفعلون شيئا إلا اهتداء بهديه، وسيرا على قدمه.

قال: ولذلك بورك لهم في علمهم .. فصار علمهم كأقواتهم .. يتناولون منه كما يتناولون منها.

***

ما استتم صاحبي حديثه هذا حتى وجدنا أنفسنا قد قطعنا المرحلة الرابعة من الطريق من غير أن نشعر بأي عناء أو تعب .. ولم يخطر على بالي طيلة هذه المرحلة ما كنا نقطعه من غابات موحشة، ومن سباع عادية تتربص بنا من كل اتجاه.

لقد تترلت علي بمجرد قطعي لتلك المرحلة أشعة جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

خامسا ـــ القدوة

قلت: فحدثني عن رحلتك الخامسة.

قال: بعد أن خرجت من (شنقيط) قصدت بلدة من بلاد الجزائر العريقة يقال لها (غرداية) .. وفيها التقيت حامل (مشعل القدوة) من مشاعل الهداية النبوية .. وفيها تعرفت على (النبي القدوة) .. سأقص عليك القصة من البداية:

كنت أسير في تلك المدينة .. أقلب الطرف في متاجرها، معجبا بتناسقها ونظامها وسلامها.. وأمام أقدم مسجد من مساجدها العتيقة التقيت رجلا كان الناس يطلقون عليه لقب الشيخ أطفيش[1] .. لم يكن يتكلم كثيرا .. ولكني مع ذلك رأيت له من التأثير في ذلك المجتمع المحافظ ما لم أر لأفصح الخطباء.

قلت له: من أنت .. لكأني بك أحد الذين قصدهم (معلم الهداية)؟

قال: أنا الذي أنطق من غير لسان .. ولكني إذا نطقت خرس كل لسان.

قلت: فأنت الذي يحمل المشعل الخامس من مشاعل الهداية النبوية؟

قال: إن كان القدوة هو الذي يحمل هذا المشعل .. فأنا ذلك الرجل.

قلت: فـــ ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾(الكهف: من الآية٦٦)

قال :﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾(الكهف: من الآية٦٧)

قلت :﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾(الكهف: من الآية٦٩)

قال: فسر معي، ولا تحدثني إلا إذا أذنت لك.

سرت معه طيلة ذلك اليوم، وطيلة أيام كثيرة .. وقد رأيت من أمره من العجب ما ملأني مهابة منه ..

لقد اجتمعت في شخصه جميع الكمالات .. فقد كان عارفا عابدا ورعا زاهدا عالما يملك شخصية الإمام والقائد والمعلم من غير أن ينبس في كل ذلك ببنت شفة.

وقد أثار في نفسي من التساؤلات ما وددت أن يأذن لي معه بالكلام، ولكنه لم يفعل، ولولا أني ذكرت قصة موسى ، وما حصل بسبب كلامه من فراقه للخضر لكنت ملأته بالأسئلة، وبالجدل.

بعد فترة طويلة من صحبتي له، وبعد ما عرف مني حرصي على التعرف على سر ذلك التأثير العظيم الذي أحدثه في مجتمعه، وفي غير مجتمعه أذن لي في الكلام، فلم أجد إلا أن أسأله عن سر ذلك التأثير الذي جمع بين القوة والصمت، فقلت: يا إمام .. لقد عهدنا الأئمة أصحاب ألسنة، فكيف قعد بك لسانك دونهم؟

قال: لم يقعد بي لساني .. فأنا ـــ بحمد الله ـــ سليم معافى .. ولكني رأيت الناس وخبرتهم، وعلمت أنهم

---

[1] أشير به إلى العلامة الكبير محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح أطفيش الإباضي (١٢٣٦ - ١٣٣٢هـ، ١٨٢٠-١٩١٣م)، الملقب بقطب الأئمة .. ولد في جنوب الجزائر، وطلب العلم منذ صغره ونبغ فيه فاشتغل بالتدريس والتأليف في بدايات شبابه حتى قيل إن مؤلفاته بلغت ثلاثمائة مؤلف، على الرغم من مشاركته في قضايا عصره، من مؤلفاته الكثيرة، ثلاثة كتب في التَّفسير أشهرها (هميان الزاد إلى دار المعاد) في ثلاثة عشر مجلدًا، والهسيان هو الوعاء الذي يضع فيه المسافر زاده. وهو كتاب كبير الحجم..

يوظفون أبصارهم أكثر مما يوظفون آذانهم .. فلذلك رحت أملأ أبصارهم بما يقربهم من ربهم.

قلت: ولكن سنة نبينا ﷺ تحثنا على الكلام.

قال: وهي تحثنا على الفعال قبل أن تحثنا على الكلام .. بل قد تكتفي بالفعال عن الأقوال .. ألم تسمع قوله ﷺ :(صلوا كما رأيتموني أصلى)[1]

قلت: بلى .. وسمعت معها قوله ﷺ :(لتأخذوا عني مناسككم، فاني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه)[2]

قال: فالنبي ﷺ دعا أصحابه إلى التأسي بأفعاله .. فدعا إلى أن يصلوا كصلاته، ويصوموا كصومه، ويحجوا كحجه.

قلت: ولكن الناس اختلفوا.

قال: اختلفوا في الأواني.. و لم يختلفوا في المعاني.

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد كان النبي ﷺ يوسع على أمته في أفعال الجوارح، فيؤدي العمل الواحد في صور مختلفة.

قلت: هذه الأواني.. فما المعاني؟

قال: الحقائق التي من أجلها تتحرك الجوارح .. ألا ترى أن الجوارح لا تتحرك في كل ذلك إلا لمرضاة الله خشوعا لله، وخضوعا له؟

قلت: بلى .. و لم أر من يخالف في ذلك.

قال: فهذا هو القدوة الذي يملأ الحياة بالإيمان وبحقائق الإيمان .. إنه لا يشغل الناس بالحركات، بل يشغلهم بما تعنيه الحركات.

قلت: أنا رجل رحل من بلاد بعيدة طلبا لمناهج الهدي .. ولا أريد منك إلا تفصيلا يؤكد لي هذا حتى أعلم أنه منهج نبوي صحيح .. فما أخطر البدعة في مثل هذه السبيل.

قال: لقد كان رسول الله ﷺ هو القدوة الأول في كل أموره ..

لقد كان العابد الأول الذي جعل من الصلاة قرة عينه، فكان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، ويبكي حتى تبلل دموعه لحيته، وتعجب زوجه عائشة من شدة تعبده وبكائه، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيقول لها :(أفلا أكون عبدا شكورا)

وكان يديم الصيام حتى يظن من حوله أنه سيصوم الدهر كله، وأحيانا يواصل الليل بالنهار في الصيام، فيمضي يومين أو أكثر لا يتناول طعاما، بعد الغروب، وهو ما نهى عنه أصحابه ولهذا قالوا له: أتنهانا عن الوصال وتواصل؟ فقال :(وأيكم مثلي؟ إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني)[3]

([1]) رواه البخاري ومسلم.

([2]) رواه مسلم.

([3]) رواه البخاري ومسلم.

وكان دائم الذكر لله تعالى في كل أحواله ، وعلى كل أحيانه، بقلبه ولسانه.

ومع ذلك كله كان دائم الخشية له سبحانه، كثير الاستغفار، كثير التوبة، وهذا من كمال عبوديته، وعظم مقام الألوهية عنده، وفي هذا كان يقول :(إنه ليغان على قلبي، وإني لاستغفر الله في اليوم مائة مرة)[1]، وكان يقول :(يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أتوب إلى الله عز وجل في اليوم مائة مرة)[2]

وكان مع هذا أزهد الناس في الدنيا، وأرضاهم باليسير منها، مع ما فتح الله له من الفتوح، وأفاء عليه من الغنائم، ولكنه لقي ربه و لم يشبع من خبز الشعير ثلاثة أيام متوالية، وكان الشهر يمر تلو الشهر ولا يوقد في بيته نار، إنما عيشه على الأسودين: التمر والماء.. وكان ينام على الحصير حتى يؤثر في جنبيه.. ورآه عمر بن الخطاب يوما كذلك، فبكى توجعا له وإشفاقا عليه، واقترح عليه بعضهم أن يهيئوا له فراشا ألين من هذا، فقال لهم :(ما لي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها)[3]

وكان ﷺ مع ذلك كله يعيش في حياته قمة التوازن[4]:

فإذا احتج به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف، احتج به العلماء على مثل ما احتج به أولئك.

وإذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم، احتج به الداخلون في الدنيا والولاية، وسياسة الرعية، لإقامة دين الله، وتنفيذ أمره.

وإذا احتج به الفقير الصابر، احتج به الغني الشاكر.

وإذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها، احتج به العارفون على فضل المعرفة.

وإذا احتج به أرباب التواضع والحلم، احتج به أرباب العز والقهر للمبطلين والغلظة عليه والبطش بهم.

وإذا احتج به أرباب الوقار والهيبة والرزانة، احتج به أرباب الخلق الحسن والمزاح المباح الذي لا يخرج عن الحق، وحسن العشرة للأهل والأصحاب.

وإذا احتج به أصحاب الصدع بالحق والقول به في المشهد والمغيب، احتج به أصحاب المداراة والحياء والكرم أن يبادروا الرجل بما يكرهه في وجهه.

وإذا احتج به المتورعون على الورع المحمود، احتج به الميسرون المسهلون الذين لا يخرجون عن سعة شريعته ويسرها وسهولتها.

وإذا احتج به من صرف عنايته إلى إصلاح دينه وقلبه، احتج به من راعى إصلاح بدنه ومعيشته ودنياه، فإنه ﷺ بعث لصلاح الدنيا والدين.

وإذا احتج به من لم يعلق قلبه بالأسباب ولا ركن إليها، احتج به من قام بالأسباب ووضعها مواضعها وأعطاها حقها.

---

(1) رواه أحمد ومسلم والنسائي وابو داود.
(2) رواه ابن ماجة وابن السني.
(3) رواه أحمد والحاكم.
(4)عدة الصابرين :٢٢٩.

وإذا احتج به من جاع وصبر على الجوع، احتج به من شبع وشكر ربه على الشبع.

وإذا احتج به من أخذ بالعفو والصفح والاحتمال، احتج به من انتقم في مواضع الانتقام.

وإذا احتج به من أعطى لله ووالى الله، احتج به من منع لله وعادى لله.

وإذا احتج به من لم يدخر شيئا لغد، احتج به من يدخر لأهله قوت سنة.

وإذا احتج به من يأكل الخشن من القوت والأدم كخبز الشعير والخل، احتج به من يأكل اللذيذ الطيب كالشوي والحلوى والفاكهة والبطيخ ونحوه.

وإذا احتج به من سرد الصوم، احتج به من سرد الفطر، فكان يصوم حتى يقال لا يفطر، ويفطر حتى يقال لا يصوم.

وإذا احتج به من رغب عن الطيبات والمشتهيات، احتج به من أحب أطيب ما في الدنيا، وهو النساء والطيب.

وإذا احتج به من ألان جانبه وخفض جناحه لنسائه، احتج به من أدبهن وآلمهن وطلق وهجر وخيرهن.

وإذا احتج به من ترك مباشرة أسباب المعيشة بنفسه، احتج به من باشرها بنفسه فآجر واستأجر، وباع واشترى، واستسلف وأدان ورهن.

وإذا احتج به من يجتنب النساء بالكلية في الحيض والصيام، احتج به من يباشر امرأته وهي حائض بغير الوطء، ومن يقبل امرأته وهو صائم.

وإذا احتج به من رحم أهل المعاصي بالقدر، احتج به من أقام عليهم حدود الله فقطع السارق ورجم الزاني وجلد الشارب.

وإذا احتج به من أرباب الحكم بالظاهر، احتج به من أرباب السياسة العادلة المبنية على القرائن الظاهرة، فإنه حبس في تهمة وعاقب في تهمة.

ولذلك كله استطاع ﷺ أن يؤثر في نفوس أصحابه ويحتويها ليعجنها بما يرضي الله ، ويبلغها كمالها المستطاع.

قلت: وعيت كل هذا .. فما سره؟ .. وما سر تلك النصوص الكثيرة التي تحدث عن كل حركة من حركاته ﷺ؟

قال: سرها هو أن النبي ﷺ كان يعيش معهم كواحد منهم .. فلم يكن في حياته يتميز بشيء عنهم .. لقد كان من سنته ﷺ مخالطة أصحابه ومشاركته في حياتهم الحلو منها والمر ، وكان يربيهم خلال تلك المشاركة بفعله قبل أن يربيهم بقوله.

سأذكر لك نموذجا عن موقفه كقائد وكقدوة يوم اجتمعت الأحزاب حول المدينة المنورة تريد استئصال شأفة الإسلام، ففي ذلك الحين الذي ينعزل فيه القادة للتخطيط والتدبير كان ﷺ كأبسط الجنود يعمل عملهم ويجوع جوعهم ويصيبه ما يصيبهم.

عن البراء ﷺ قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى

التراب عن جلدة بطنه ، وكان كثير الشعر[1]، وفي هذا دليل على الجهد العظيم الذي كان يبذله.

وكان ﷺ يشاركهم في أراجيزهم التي ينشدونها ليخففوا بعض التعب الذي يصيبهم ، فعن أنس ـــ رضي الله عنه ـــ أن الأنصار و المهاجرين كانوا يرتجزون وينقلون التراب على متونهم يقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً على الإسلام ما بقينا أبداً

فيجيبهم الرسول ﷺ :

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فبارك فى الأنصار و المهاجرة[2]

سأذكر لك هنا موقفا اعتاد العلماء نقله من باب إثبات المعجزات الحسية المتعلقة بتكثير الطعام، ولكني سأذكره هنا لنرى المعجزة التربوية في شخص رسول الله ﷺ ، فالرسول ﷺ هومعجزة الحديث لا كثرة الطعام:

فعن جابر ﷺ قال : إنا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كدية شديدة ، فجاءوا النبى ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت فى الخندق ، فقال : أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً ، فأخذ النبى ﷺ المعول فضرب فعاد كثيباً أهيل (أو أهيم) فقلت :(يا رسول الله إئذن لى إلى البيت)، فقلت لامرأتى :(رأيت بالنبى ﷺ شيئاً ما كان لى فى ذلك صبر ، فعندك شيء ؟) ، قالت :(عندى شعير وعناق) ، فذبحت العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة ، ثم جئت النبى ﷺ و العجين قد انكسر و البرمة بين الأثافى قد كادت أن تنضج ، فقلت :(طعيّم لى فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان) ، قال :(كم هو ؟) فذكرت له ، قال :(كثير طيب ، فقل لها لا تترع البرمة و لا الخبز من التنور حتى آتى) ، ثم نادى المهاجرين و الأنصار فقال لهم :(يا أهل الخندق ، إن جابر قد صنع سوراً فحيّ هلا بكم) ، فلما دخل جابر على امرأته قال :(ويحك جاء النبى ﷺ بالمهاجرين و الأنصار ومن معهم) قالت :(هل سألك كم طعامك ؟) قال (نعم) ، قالت :(الله ورسوله أعلم)

ثم جاء النبى ﷺ فقال : ادخلوا ولا تضاغطوا ، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمّر البرمة و التنور إذا أخذ منه شيء ، ويقرب الى أصحابه ، ثم يترع ، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقى بقية، قال :(كلى هذا واهدى ، فإن الناس قد أصابتهم مجاعة)[3] ، وفى رواية :(فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوا وانصرفوا ، وإن برمتنا لتغط كما هى ، وإن عجيننا ليخبز كما هو)

فالنبي ﷺ يعصب الحجر على بطنه من الجوع ، وعندما يدعى إلى الطعام يأبى أن يأكل والناس جائعون ، وعندما يحضر مجلس الطعام لا يتصدر المجلس، وإنما يقوم يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمّر البرمة و التنور ، ويقرب إلى أصحابه ، ثم يترع ، إلى أن اطمأن إلى شبعهم.

هذا هو القدوة الذي يبذل من التضحية ما يكسب به ثقة أتباعه ويحتويهم احتواء تاما ويصعد بهم إلى أرفع درجات التربية.

---

(1) رواه البخاري.
(2) رواه البخاري.
(3) رواه البخارى.

ومثل هذا ما يروي أبو هريرة ﷺ قال: والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع. ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه فمر بي النبي ﷺ فتبسم حين رآني وعرف ما في وجهي وما في نفسي، ثم قال :(أبا هر ، قلت: لبيك يا رَسُول اللَّهِ. قال :(الحق) ومضى فاتبعته، فدخل فاستأذن فأذن لي. فدخلت فوجد لبناً في قدح فقال :(من أين هذا اللبن؟) قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة. قال :(أبا هر) قلت :(لبيك يا رَسُول اللَّهِ) قال :(الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي) قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم و لم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها. فساءني ذلك فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة! كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربةً أتقوى بها، فإذا جاءوا أمرني فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، و لم يكن من طاعة اللَّه وطاعة رسوله ﷺ بد، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت. قال :(أبا هر) قلت: لبيك يا رَسُول اللَّهِ. قال :(خذ فأعطهم) قال: فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح حتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلي فتبسم فقال :(أبا هر) قلت: لبيك يا رَسُول اللَّهِ. قال :(بقيت أنا وأنت) قلت: صدقت يا رَسُول اللَّهِ. قال :(اقعد فاشرب) فقعدت فشربت. فقال :(اشرب) فشربت. فما زال يقول :(اشرب) حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلكاً. قال :(فأرني) ، فأعطيته القدح فحمد اللَّه تعالى وسمى وشرب الفضلة[1].

ولهذه المشاركة كانت أوصاف رسول الله ﷺ التي حفظها لنا الصحابة ﷺ ورددوها بشوق عظيم نتيجة لهذه المعايشة:

لقد قال أنس ــ رضي الله عنه ــ يصف رسول الله ﷺ وصفا يعقب عليه بحادث ودليل، فعنه قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ليلة ، فخرجوا نحو الصوت فاستقبلهم النبي ﷺ وقد استبرأ الخبر وهو على فرس لأبي طلحة عري وفي عنقه السيف وهو يقول :(لم تراعوا لم تراعوا) ، ثم قال :(وجدناه بحراً) ، أو قال:(إنه لبحر)

أما مشاركته ﷺ لهم في الجهاد : فقد خرج ﷺ في ١٩ غزوة ، بل قال عن نفسه :(ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية)[2]

قلت: وعيت هذا .. فما تأثير ذلك كله في أصحابه .. إن المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله هو المنهج المؤثر .. فهل كان هذا المنهج مؤثرا؟

قال: لقد كان تأثيره أعظم من كل تأثير .. لقد كانت مشاركة ﷺ للصحابة ــ رضي الله عنهم ــ أكبر حافز لهم على تلك التضحيات التي قدموها ، وقد كانوا يقولون عندما يرون جهد الرسول ﷺ :

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه النسائي والطبراني في الكبير.

لئن قعدنا والنبي يعمل   لذاك منا العمل المضلل

وهذه المشاركات كانت فرصة عظيمة له ﷺ لتربية أصحابه وتوجيههم بالمقال والفعال ، ففي الهجرة عندما شكا إليه أبو بكر ـــ رضي الله عنه ـــ حاله وهما في الغار، قال :(ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[1]، وقد سجل الله هذا الموقف العظيم ، فقال تعالى :﴿ إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:٤٠)

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد : أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال :(في الجنة) فألقى تمرات في يده ثم قاتل حتى قتل.

وعن سهيل بن سعد ﷺ قال: قال النبي ﷺ يوم خيبر :(لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح على يديه يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله) ، فبات الناس ليلتهم أيهم يعطى ، فغدوا كلهم يرجوه ، فقال :(أين علي؟) ، فقيل : يشتكي عينيه ، فبصق ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه فقال :(أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، فقال :(انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم ؛ فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من أن يكون لك حمر النعم)[2]

إن هذه التوجيهات الميدانية في قلب المعارك والأحداث هي التي جعلت من الصحابة ﷺ جيلا فريدا في التاريخ.

***

ما استتم صاحبي حديثه هذا حتى وجدنا أنفسنا قد قطعنا المرحلة الخامسة من الطريق من غير أن نشعر بأي عناء أو تعب .. و لم يخطر على بالي طيلة هذه المرحلة ما كنا نقطعه من غابات موحشة، ومن سباع عادية تتربص بنا من كل اتجاه.

لقد تنزلت علي بمجرد قطعي لتلك المرحلة أشعة جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

([1]) رواه البخاري ومسلم.

([2]) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى.

سادسا ــ المربي

قلت: فحدثني عن رحلتك السادسة.

قال: بعد خروجي من غرداية، سرت إلى بلدة أخرى من بلاد الجزائر العريقة يقال لها (تلمسان)[1]، وما إن دخلتها وسرت على ثراها، حتى امتلأت نفسي بأشواق غريبة تريد أن ترفعني عن أجواء الأرض وتضاريسها لتضعني في أجواء أنقى، وتضاريس أطهر ..

لست أدري سر ذلك التسامي الذي امتلأت به نفسي في تلك اللحظة، مع أن المدينة التي كنت أتجول في شوارعها كانت ممتلئة بالعمران والحضارة، سواء منها ما ورثته من القرون السالفة، أو ما بنته من إيحاء هذا القرن .. فلم يكن في ظاهرها ما يدعو إلى الزهد والتسامي .. بل كان ظاهرها يدعو إلى التثاقل إلى الأرض والانشغال بمتاعها .. وهذا ما ملأني بالغرابة ..

لكن الغرابة سرعان ما زالت ..

لقد كنت في ذلك الشارع المسمى (العباد) .. وهو شارع من شوارع تلمسان الغارقة في القدم .. وهو يحوي ضريح الولي الصالح والمربي الكبير فخر تلمسان وشرفها (أبي مدين شعيب)[2]، أو ما يسميه الناس ــ كل الناس ــ في تلك المدينة (سيدي بومدين)

شد سمعي، وأنا أقطع ذلك الشارع، أصوات عذبة، وكأنها قادمة من القرون السالفة، بل من عهد أبي مدين نفسه .. كان الصوت يردد قصيدة أبي مدين التي يقول فيها:

الله قــــل وذر الوجـــــود ومــــا حـــــوى ... إن كنــــت مرتـــــاداً بلــــوغ كمــــال

فالكــــــــــل دون الله إن حققتـــــــــــه ... عـــــدمٌ علــــى التفصـــيل والإجمــــال

([1]) تلمْسان من أشهر المدن الجزائرية العريقة التي شُيِّدت في بدايات الفتح الإسلامي لتكون مركزًا لإشعاع الإسلام، ومنارة للفكر والعلم.

يلتقي في تلمسان الشرق والغرب، والقديم والحديث في تناسق بديع؛ فالأحياء الحديثة بمنشآتها ومبانيها وطرزها العصرية، تشير بوضوح للتأثير الأوروبي، بينما الأحياء التقليدية القديمة لا زالت تنضح بروح الشرق وسحر ألوانها وأسواقها المسقوفة والمكشوفة، تثير الاهتمام بطرزها المعمارية التاريخية.

ومن أروع العمائر التي تشير إلى عظمة منشئيها، تلك المباني ذات النمط المعماري الأندلسي المغربي، كالمسجد الكبير الذي بناه المرابطون في القرن الثاني عشر الميلادي، وهو آية في الجمال، ومجمع سيدي بومدين الذي يضم فيما يضم من آثار القرن الرابع عشر الميلادي مدرسة وحمامًا وقصرًا.

وتعتبر مدينة تلمسان عاصمة الفن في الجزائر، فمدارسها الموسيقية وشعراؤها وفنانوها وأدباؤها أهَّلوها لأن تكون مركز التاريخ والثقافة والفن في الجزائر (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

وهي ــ بالإضافة إلى ذلك كله ــ تشتهر بأوليائها الكثيرين، والذين صنفت في تراجمهم المصنفات، ولذلك اخترناها لهذا الفصل.

([2]) أشير به إلى الولي الكبير أبي مدين شعيب بن حسين الأنصاري، أصله من (حصن قطنيانة) قرية تابعة لإشبيلية في الأندلس، هاجر إلى بجاية صغيراً، وعاش فيها، وتوفي في (العباد) في ضواحي تلمسان عام: (٥٩٤هــ) وقيل قبل ذلك.

مـــن لا وجـــود لذاتـــه مـــن ذاتـــه   فوجـــوده لـــولاه عـــين محـــال

لست أدري هل كانت المعاني السامية التي تمتلئ بها هذه الأبيات .. أم كان ذلك الصوت الجميل الذي يعانق السماء .. أم كانت تلك الروحانية العميقة التي أصابتني في تلك المدينة .. لست أدري أي هؤلاء جذبني من حيث لا أشعر لأنضم إلى تلك الحلقة النورانية، فأشدو بما تشدوا، وأترنم بما تترنم؟

بعد أن انتهى الإنشاد، وعادت إلي نفسي، وعدت إلى الأرض، نظرت فيمن حولي، فوجدت سبعة كالكواكب يتوسطهم شمس رنت إليه أحداقهم، وهوت إلى كعبته قلوبهم.

نظر إلي أحدهم، وقال: أبشر .. فأنت الآن بين يدي سيدي أبي مدين ..

قلت: أتقصد ضريح أبي مدين؟

قال: لا .. أقصد وارث أبي مدين .. فهذه الشمس التي تراها أمامك هي شمسه .. فإن شئت أن تنعم بدفئها، ونورها، فعليك بصحبتها، فلا يمكن للكواكب أن تستنير بنور الشمس إلا إذا طافت بها، و لم تر غيرها.

قلت: لكن لي شمسي التي بها أطوف .. إن شمسي هو محمد رسول الله .. وأنا أستغني بشمسه عن كل شمس، وبأشعة نوره عن كل أشعة.

قال: كلنا نستمد من تلك الشمس .. ولكنا نحتاج إلى الورثة الذين نتعلم على أيديهم كيف نتأدب مع تلك الشمس التي لا يستفيد منها إلا من تأدب معها .. لقد كان سيدي أبو علي يقول:(من أساء الأدب على البساط رد إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب)

قلت: أنا أبحث عن ورثة الهداية الذين ينشغلون بإصلاح الخلق .. ولو انشغلت بإصلاح نفسي لحاسبني ربي على تضييع أمة نبيه.

قال: وهل يمكن لأحد أن يصلح قبل أن يصلح؟ .. إن كلمة واحدة من قلب ممتلئ بالأنوار لها من التأثير ما لا يعدله آلاف الخطب، وآلاف آلاف المواعظ .. لقد قال سيدي أبو العباس المرسي :(كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذي لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار، حتى إن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة، فتقبل من أحدهما، وترد على الآخر)

وعبر عن ذلك سيدي ابن عطاء الله في بعض حكمه، فقال:(كل كلام يبرز، وعليه كسوة القلب الذي منه برز)

قال آخر: لقد علق ابن عجيبة على هذه الحكمة بقوله :(علامة الكلام الذي يسبقه التنوير هو تأثيره في القلوب، وتهييجه الأرواح، وتشويقه الأسرار، فإذا سمعه الغافل تنبه، وإذا سمعه العاصي انزجر، وإذا سمعه الطائع زاد نشاطه، وعظم شوقه، وإذا سمعه السائر طوى عنه تعب سيره، وإذا سمعه الواصل تمكن من حاله)، ثم قال :(فالكلام صفة المتكلم، فإذا كان المتكلم ذا تنوير وقع في قلوب السامعين، وإذا كان ذا تكدير حد كلامه آذان المستمعين .. فكل كلام يبرز، وعليه كسوة القلب الذي منه برز)

قال آخر: لقد اتفق العارفون على أن الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب، وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان .. واتفقوا على أن إنهاض الحال أكثر من إنهاض المقال .. وإذا اجتمع الحال والمقال فهو البحر الطام والنجم الثاقب التام.

قال آخر: سمعت بعض أهل الله يقول في هذا :(من كان قلبه روحانياً كان كلامه معنوياً، ينزل من القلوب في أوسع ساحاتها، ومن كان قلبه نفسياً كان كلامه حسياً، ومن طمس إذن قلبه حجب بالدنيا، فلا يسمع ولا يسمع)

قلت: لم أفهم الإذن .. الدعوة إلى الله واجب مطلقا .. فكيف تحتاج إلى إذن؟

قال أحدهم: ألم تسمع قوله تعالى في وصف رسول الله ﷺ :﴿ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً) (الأحزاب:٤٦)؟

قلت: بلى ..

قال: فهذه مرتبة من مراتب الدعوة إلى الله .. وهي أشرف المراتب وأعلاها .. ومن تحققت له، فقد ظفر بالإكسير الأحمر الذي يحول به معادن من يصلحهم إلى جواهر كريمة لا تستطيع جميع أدناس الدنيا أن تنجسها.

قلت: لقد سمعت في فترة من فترات عمري بعض من يدعي هذا .. لكني صرفت عنه، وأنا أمتلئ ضحكا .. لقد رأيته ينصب الفاعل، ويرفع المفعول .. فقلت في نفسي: إن من لم يؤتمن على الفاعل والمفعول كيف يؤتمن على دين الله وعلى ما يدعيه.

قال أحدهم: العبرة عند أهل الله بالمعاني لا بالأواني ..

قال آخر: لقد ذكرتني ببعض النحويين دخل مجلس الحسن بن سمعون ليسمع كلامه، فوجده يلحن، فانصرف ذاما له، فبلغ ذلك الحسن، فكتب يقول له :(إنك من كثرة الإعجاب رضيت بالوقوف دون الباب، فاعتمدت على ضبط أقوالك مع لحن أفعالك، وإنك قد همت بين خفض ورفع ونصب وجزم، فانقطعت عن المقصود، هلا رفعت إلى الله جميع الحاجات، وخفضت كل المنكرات، وجزمت عن الشهوات، ونصبت بين عينيك الممات .. والله يا أخي ما يقال للعبد لم لم تكن معرباً؟ وإنما يقال له: لم كنت مذنباً .. ليس المراد فصاحة المقال، وإنما المراد فصاحة الفعال، ولو كان الفضل في فصاحة اللسان لكان سيدنا هارون أولى بالرسالة من سيدنا موسى حيث يقول :﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) (القصص:٣٤)

قال آخر: لقد حضرت بعض مجالس أهل الله من بعض هذه الجبال التي لا تحسن العربية، وقد جاءه رجل له تقدم في العربية .. وكان يتفاصح به .. فقال له ذلك الولي الصالح :(أنت اترك شيئاً من عربيتك .. وأنا أترك شيئاً من جبليتي ــ يعني من اللغة الجبلية ــ وهيا نلتفت للطريق)

قلت: صحيح كل ما ذكرتموه .. ولكني مع ذلك أرى من يستغرق في عالم نفسه، فهو لا يخرج من خلوة حتى يدخل خلوة .. وليس له مع كل ذلك أي همة لإصلاح الأمة، ولا لتوجيهها.

نظر إلي أبو مدين بابتسامة، وكأنه أراد أن يقطع ذلك الحديث الذي كاد يتحول إلى جدل، وقال: كيف

تركت إخواني من الشناقطة؟

تعجبت من سؤاله هذا .. لكني حاولت أن أستر تعجبي، وقلت: هم بأحسن حال.. تركتهم يبثون العلوم التي جاء بها رسول الله ﷺ ليشقوا بها حجب الظلمات، ويدكوا بها صروح الطغاة.

قال: فهل تعلمت من علومهم؟

قلت: أجل .. والحمد لله .. لقد رزقني الله من علومهم ما أرى أني بحاجة إليه.

قال: فأنت الآن تحتاج إلى تعلم أسرار التطهير والعروج.

قلت: ما التطهير .. وما العروج !؟

قال: تطهير أرض النفوس من الأدناس .. والعروج بالأرواح إلى قدس الأقداس.

قلت: فأنت سادس أصحابي إذن؟

قال: إن كان السادس هو المرشد المربي، فأنا ذلك ..

قلت: فهل تأذن لي في صحبتك لأتعلم أسرار التربية والإرشاد؟

قال: ما كان للمرشد أن يمنع من قصده.

قلت: لكني سؤول لجوج في المسألة .. وأخاف أن يحصل لي ما قاله أهل هذا الشأن من أن من قال لشيخه :(لم؟) لا يفلح[1].

قال: هم لم يقصدوك بهذا .. إنما قصدوا المجادل الذي يقف به جدله عن الحق .. لقد قصدوا ما ورد في الحديث من أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: كل بيمينك. قال: لا أستطيع ! قال: لا استطعت ــ ما منعه إلا الكبر ــ قال: فما رفعها إلى فيه[2].

ويقصدون ما ورد في الحديث عن جابر بن عبدالله ــ رضي الله عنه ــ قال: أتى رجل بالجعرانة النبي ﷺ منصرفه من حنين وفى ثوب بلال فضة، ورسول الله ﷺ يقبض منها ويعطى الناس، فقال: يا محمد اعدل، قال :(ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل، لقد خبت وخسرت إذا لم أكن أعدل)، فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله، أقتل هذا المنافق؟ فقال ﷺ :(معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية)[3]

قلت: عرفتك، ويشرفني أن أصحبك، وأن أتتلمذ على يديك .. فمن هؤلاء الذين أحاطوا بك كما تحيط الهالة بالشمس؟

قال: كل هؤلاء رجال من أهل الله .. عرفوا من حقائق السلوك وحقائق الوصول ما أهلهم لبذله لأهله

---

(1) ومن ذلك ما ذكر أبو حامد الغزالي عن شيخه أبي علي الفارمذي ــ رحمة الله عليه ــ وهو يصف له وجوب حسن أدب المريد لشيخه وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه قال: حكيت لشيخي أبي القاسم الكرماني مناماً لي وقلت: رأيتك قلت لي كذا، فقلت: لم ذاك؟ قال: فهجرني شهراً ولم يكلمني وقال: لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه البخاري ومسلم وغيرهما بألفاظ مختلفة .

الذين يطلبونه.

أشار إلى أحدهم، وقال: أما هذا، فاسمه الجنيد، وهو كجده أبي القاسم الجنيد بن محمد القواريري ذلك المربي بفنون العلم، المؤيد بعيون الحلم، المنور بخالص الإيقان وثابت الإيمان، العالم بمودع الكتاب، والعامل بحلم الخطاب، الموافق فيه للبيان والصواب .. كان كلامه بالنصوص مربوطاً، وبيانه بالأدلة مبسوطاً، فاق أشكاله بالبيان الشافي، واعتناقه للمنهج الكافي، ولزومه للعمل الوافي[1].

ثم أشار إلى الثاني، وقال: أما هذا، فشاه الكرماني، وهو كجده أبي الفوارس الكرماني شاه بن شجاع، ذلك الذي تعرى من الأغراض، تحرزاً من الأعراض، كان من أبناء الملوك، وتشمر للسلوك، تخفف للاستباق، متحققاً بالاشتياق، كان ظريفاً في الفتوة، عريفاً في المروءة .. وكان حاد الفراسة، وقلما أخطأت فراسته، وكان يقول: من شخص بصره عن المحارم وأمسك عن الشهوات وعمر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنة، وعود نفسه أكل الحلال لم تخطئ فراسته .. وكان فتى لا كالفتيان، وكان يقول :(الفتوة من طباع الأحرار، واللؤم من شيم الأنذال، وما تعبد متعبد بأكثر من التحبب إلى أولياء الله بما يحبون، لأن محبة أولياء الله دليل على محبة الله)

ثم أشار إلى الثالث، وقال: أما هذا، فأبو هاشم الزاهد، وهو كجده أبي هاشم كان إلى الحق وافداً، وعن الخلق حائداً، وفيما سوى الحق زاهداً، وكان يقول :(إن الله تعالى وسم الدنيا بالوحشة ليكون أنس المريدين فيها مستوحشون، وإلى الآخرة مشتاقون)

ثم أشار إلى الرابع، وقال: أما هذا، فأحمد بن محمد بن عطاء، وقد كان كجده أبي العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء، ذلك العامل الظريف والكامل النظيف، كان مودع القرآن شعاره، وظاهر البيان دثاره، له اللسان المبسوط والبيان بالحق مربوط .. أوقف على مراتب المأسورين ومقامات أهل البلاء من المأخوذين فتمنى ما خصوا به من الصفاء والاعتلاء فعومل بما تمنى من المحن والابتلاء، قال عنه أبو الحسين: صحبت أبا العباس بن عطاء عدة سنين متأدباً بآدابه، وكان له كل يوم ختمة، وفي كل شهر رمضان في كل يوم وليلة ثلاث ختمات، وبقي في ختمه يستنبط مودع القرآن بضع عشرة سنة يستروح إلى معاني مودعها فمات قبل أن يختمها.

وكان يقول :(من ألزم نفسه آداب السنة غمر الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من متابعة الحبيب في أوامره وأفعاله وأخلاقه والتأدب بآدابه قولاً وفعلاً ونية وعقدا)

ثم أشار إلى الخامس، وقال: أما هذا فرويم بن أحمد، وهو كجده أبي الحسن رويم بن أحمد .. ذاك الفطن المكين، له البيان والتبيين، والرأي المتين، كان بالقرآن عالما، وبالمعاني عارفا، وإلى الحقائق عاكفا، قلد بفصل الخطاب، ولم تؤثر فيه العلل والأسباب.

وقد سأله بعض الناس أن يوصيه بوصية فقال: (ليس إلا بذل الروح، وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية، فإن أمرها هذا مبني على الأصول)

ثم أشار إلى السادس، وقال: أما هذا، فإبراهيم الخواص، وهو كجده أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد الخواص

---

(1) هذه التعريفات التي نوردها في بداية ذكر أسماء هؤلاء الأولياء مقتبسة من كلام أبي نعيم في حلية الأولياء.

.. ذاك المتبتل المتوكل، تبتل عن الخلق وتوكل على الحق، له في التوكل الحال المشهور والذكر المنشور.

وقد وضع قانونا لأهل الله من المتوكلين من اثني عشر مادة قال فيه :(من نعوتهم اثنتا عشرة خصلة: أولها أنهم كانوا بوعد الله مطمئنين. والثانية من الخلق آيسين. والثالثة عداوتهم للشياطين. والرابعة كانوا من حيث الحق في الأشياء خارجين. والخامسة كانوا على الخلق مشفقين. والسادسة كانوا لأذى الناس محتملين. والسابعة كانوا لمواضع العداوة لا يدعون النصيحة لجميع المسلمين. والثامنة كانوا في مواطن الحق متواضعين. والتاسعة كانوا بمعرفة الله مشتغلين. والعاشرة كانوا الدهر على الطهارة. والحادية عشرة كان الفقر رأس مالهم. والثانية عشرة كانوا في الرضا فيما قل أو كثر وأحبوا أو كرهوا عن الله واحدا. فهذه جملة من صفاتهم، يقصر وصف الواصفين عن أسبابهم)

وكان يقول: (أربع خصال عزيزة: عالم مستعمل لعلمه. وعارف ينطق عن حقيقة فعله، ورجل قائم لله بلا سبب، ومريد ذاهب عن الطمع)

ثم أشار إلى السابع، وقال: أما هذا فأبو يزيد البسطامي .. وهو كجده أبي يزيد .. ذلك التائه الوحيد، الهائم الفريد، الذي تاه فغاب، وهام فآب، غاب عن المحدودات إلى موجد المحسوسات والمعدومات، فارق الخلق، ووافق الحق. فأيد بأخلاء الخير، وأمد باستيلاء البر، إشارته هائنة، وعبارته كامنة. لعارفيها ضامنة، ولمنكريها فاتنة.

وكان يقول :(ليس العجب من حبي لك وأنا عبد فقير، إنما العجب، من حبك لي وأنت ملك قدير)

وكان يقول :(غلطت في ابتدائي في أربعة أشياء: توهمت أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه، فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري ومعرفته سبقت معرفتي ومحبته أقدم من محبتي وطلبه لي أولاً حتى طلبته)

وكان يقول :(إن لله خواص من عباده لو حجبهم في الجنة لاستغاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار)

قلت: هذه أسماء أعرفها .. ولكني كنت أظن أن البلى قد عضها بنابه، وأن السنين قد طوتها بجيوشها.

قال: لا تسئ ظنك بأمة نبيك .. فالخير فيه وفي أمته إلى يوم القيامة، ويستحيل أن يأتي يوم من الأيام ليس فيه من آثار نبيك ﷺ ما يجعله بين الناس حجة، وللناس إماما، ألم تسمع قوله تعالى :﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (لأنفال:٣٣)؟

قلت: بلى .. وقد ذهب الأمان الأول، وبقي الثاني.

قال: بل كلاهما باق ..

قلت: وهل محمد ﷺ حي؟

قال: هو حي الأحياء وسيدهم .. ألم تسمع قوله تعالى :﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة:١٥٤)، وقوله تعالى :﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران:١٦٩)؟

قلت: بلى .. لكن هذه في الشهداء.

قال: ومحمد ﷺ هو سيد الشهداء .. أليس الشهيد هو الذي بذل دمه وماله في سبيل الله؟

قلت: بلى ..

قال: ومحمد ﷺ بذل كل شيء لله .. ألم تسمع قوله تعالى :﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢)؟

قلت: بلى .. ولكن ما ذكرته مقصور على حياة الآخرة؟

قال: ليس عند أهل الله دنيا ولا آخرة .. ولا وقت ولا مقت .. الكل عند أهل الله سواء .. حجبتهم حقائق الأزل والأبد عن الزمان والمكان .. فانطوى المكان والزمان.

قلت: أشعر ببعض لطائفي تتحرك لما ذكرته من المعاني.

قال: أبشر .. فأنت أهل للسلوك إذن .. فلا يقبل السالك عندنا حتى يكون مريدا راغبا .. ألا ترى أنا نسمي أصحابنا مريدين؟

قلت: بلى .. وأنا مستغرب من هذه التسمية متعجب منها .. بل رأيت البعض ينكرها.

قال: هل ينكرون قوله تعالى :﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام:٥٢) .. وقوله تعالى :﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (الكهف:٢٨)؟

قلت: كيف يتجرأ أحد على معارضة القرآن الكريم؟

قال: فما نذكره عن المريد لا نريد به إلا هذا .. فالمريد عندنا ليس إلا الراغب في الله المشتاق إلى الله، من أنساه الله كل ما سواه.

قال الكرماني: لقد حدثني النباحي قال: طمعت يوماً في شيء من أمور الدنيا فحملتني عيناي ونمت فسمعت هاتفاً في منامي وهو يقول: (أويجمل يا فتى بالحر المريد إذا وجد عند مولاه كل ما يريد أن يركن بقلبه إلى العبيد؟)

قال الجنيد: قال لي السري السقطي: (للمريد عشر مقامات، التحبب إلى الله بالنافلة، والتزين عنده بنصيحة الأمة، والأنس بكلام الله، والصبر على أحكامه، والأثرة لأمره، والحياء من نظره، وبذل المجهود في محبوبه، والرضاء بالقلة، والقناعة بالخمول)

قلت: إن كلامكم يملأ قلبي بأشواق غريبة.

قال: فهلم لتصحبنا.

قلت: فما الفروع التي أصحبكم فيها .. فلا يحل لي أن أقدم على شيء، وأنا لا أعرف بدايته ولا نهايته.

قال: لقد ذكرهما لك .. أما بدايته: فتطهير أرض النفوس من الأدناس .. وأما نهايته التي لا تنتهي: فالعروج بالروح إلى قدس الأقداس.

قلت: فهما خطوتان فقط؟

قال: هما خطوتان .. وفي كل خطوة منهما مقامات لابد لك من المرور عليها[1].

قلت: أمقامات الهمذاني أم الحريري؟

قال: مقامات أهل الله ..

قلت: لقد ذكر لي بعضهم أن هذا المصطلح بدعة ..

قال: فاقرأ عليهم قوله تعالى :﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ (الاسراء:٧٩)، واقرأ عليهم قوله تعالى :﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾ (مريم:٧٣)

وإن كانوا يقولون من قول خير البرية، فاقرأ عليهم قوله ﷺ :(من قال حين يسمع النداء ، اللّهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة)[2]

قلت: ليس الشأن في اللفظ .. وإنما الشأن في المراد منه .. فهل تريدون منه ما ورد في النصوص المقدسة.

قال: ألم تسمع بأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .. فلا خير فيما لم يأت به الكتاب والسنة.

قلت: فما تريدون بالمقامات؟

قال: تلك المراحل التي يقطعها المريد السالك في رحلته إلى الله ..

قال الكرماني: لقد ذكر أبو حفص النيسابورى (ت:٢٧٠هـ) هذا، فقال:(التصوف كله آداب لكل وقت أدب ، ولكل مقام أدب ، فمن لزم آداب الأوقات ، بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب ، فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يرجو القبول)[3]

قال الجنيد: وقد سئل أبو بكر الواسطى (ت:بعد٣٢٠هـ) عن قول النبى ﷺ :(الأرواح جنود مجندة)[4]، فقال:(مجندة على قدر المقامات، مثل التوبة والورع والزهد، والفقر والصبر والرضا والتوكل وغير ذلك)[5]

قال الزاهد: وقال عبد الله بن محمد بن منازل (ت:٣٢٩هـ) :(ذكر الله تعالى أنواع العبادات، فقال :﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (آل عمران:١٧)، فختم المقامات كلها بمقام الاستغفار ليرى العبد تقصيره فى جميع أفعاله وأحواله ، فيستغفر منها)

قال ابن عطاء: وقال أبو القاسم القشيرى (ت:٤٦٥هـ) : (المقام ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة)

---

(1) خصصنا الحديث عن مقامات أهل الله التي ورد الحديث عنها في النصوص، وأشار إليها صديقو هذه الأمة في رسالة (معارج الصديقين) من (رسائل السلام)، ولذلك فإن ما سنذكره هنا مجرد إشارات إلى بعض المقامات، وبعض الضوابط المرتبطة بها دون تفاصيلها.

(2) رواه البخاري.

(3) طبقات الصوفية، ص١١٩.

(4) رواه البخاري ومسلم.

(5) طبقات الصوفية، ص٣٦٨ .

قلت: وعيت كل ما ذكرتم .. ولكني امرؤ ملأ الله قلبي بالمخافة من البدع .. وقد سمعت من الناس من يذكر أن هذا السبيل سبيل بدعة .. وليس لسبيل البدعة من نهاية إلى الضلال .. وليس للضلال من نهاية إلا النار ..

قال: أليس الإسلام طاعة وعبادة، والإيمان نور وعقيدة، والإحسان مراقبة ومشاهدة؟

قلت: بلى .. وقد وضح رسول الله ﷺ ذلك في حديث الدين، وقد قال عن الإحسان :(أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1]

قال: فلذلك نحن نعتقد أن رسول الله ﷺ هو مؤسس هذه الطريقة .. فليس ما نحن فيه إلا البحث عن مقام الإحسان .. ذلك المقام الذي نعبد الله فيه، وكأننا نراه.

قال ابن عطاء: لقد قال سيدي محمد صديق الغماري المحدث المعروف، وهو صديقنا في هذه الطريقة: (فإنه كما في الحديث عبارة عن الأركان الثلاثة، فمن أخل بهذا المقام (الإحسان) الذي هو الطريقة، فدينه ناقص بلا شك لتركه ركناً من أركانه، فغاية ما تدعو إليه الطريقة وتشير إليه هو مقام الإحسان؛ بعد تصحيح الإسلام والإيمان)[2]

قال الكرماني: وقال قبله صديقنا في الطريقة ابن خلدون في مقدمته :(وهذا العلم ــ يعني التصوف ــ من العلوم الشرعية الحادثة في المِلَّة؛ وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق، والخلوة للعبادة، وكان ذلك عامًّا في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية)[3]

قال ابن عطاء: وقد قال سيدي الغماري تعليقا على كلام ابن خلدون: (ويَعْضُدُ ما ذكره ابن خلدون في تاريخ ظهور اسم التصوف ما ذكره الكِنْدي ــ وكان من أهل القرن الرابع ــ في كتاب (ولاة مصر) في حوادث سنة المائتين: إنه ظهر بالاسكندرية طائفة يسمَّوْن بالصوفية يأمرون بالمعروف. وكذلك ما ذكره المسعودي في (مروج الذهب) حاكياً عن يحيى بن أكثم فقال: إن المأمون يوماً لجالس، إذ دخل عليه علي بن صالح الحاجب، فقال: يا أمير المؤمنين! رجل واقفٌ بالباب، عليه ثياب بيض غلاظ، يطلب الدخول للمناظرة، فعلمت أنه بعض الصوفية. فهاتان الحكايتان تشهدان لكلام ابن خلدون في تاريخ نشأة التصوف)[4]

---

(1) رواه مسلم .
(2) الانتصار لطريق الصوفية، للمحدث محمد صديق الغماري، ص ٦ .
(3) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٢٩.
(4) الانتصار لطريق الصوفية، ص١٧ ــ ١٨.

١ ـــ التطهير

بعد أن امتلأت قناعة بصحة المنهج التربوي الذي يسير عليه أبو مدين وجماعته من أهل الله طلبت منه أن أنضم إلى مريديهم، فأسير كما يسيرون، وأمر بالمقامات التي يمرون بها، لأنال ثمار هذا الشعاع من أشعة الهداية النبوية، لكني اشترطت عليهم أن لا أسير خطوة معهم إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة.

وقد وافقوني على ذلك، بل حثوني عليه .. وأخبروني أن كل أهل الله نص على هذا، ودعا إلى هذا، فلا خير في هدي يعارض ما جاء به رسول الله ﷺ .

الخشية:

كان أول مترل بدأت به سيري إلى الله مترل (الخشية)، وقد سرت إليه بصحبة رويم .. وكان مترلا بعيدا عن العمران، وممتلئا بالمهابة .. قال لي رويم، وهو يشير إليه: هذا مترل خصصه أهل الله لملأ القلوب بالخشية .. وسترى فيه قوما من الناس لا هم لهم إلا ملأ قلوبهم بكل ما يملؤها بالخشية، وستجلس معهم، وستتأدب معهم بآداب هذا المقام.

قلت: لقد عرفت شرطي .. فأنا لا أقدم على أمر حتى أعلم حكم الله فيه.

قال: كل النصوص المقدسة .. وكل أهل الله .. مجمعون على أن الخشبة مقام من مقامات السالكين إلى الله، وأنه لا يمكن أن يتحرك السالك حركة في طريق أهل الله إلا إذا صحبته الخشية من الله.

لقد قال تعالى يذكر ذلك، ويدعو إليه:﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ (طــه:٣)، وقال:﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (النور:٥٢)، وقال :﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ (الأحزاب:٣٩)، وقال :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الملك:١٢)، وقال :﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر:٢٣)، وقال:﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ (الأعلى:١٠)

وقال تعالى في وصف دعاء عباده المؤمنين :﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (البقرة:٢٠١)، وهذا الدعاء يبين حقيقة تصور المؤمن للحياة مقارنة مع دعاء الغافلين الجاهلين الذين أخبر الله تعالى عنه بأنهم يقتصرون في دعائهم على حاضرهم المشهود :﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ)(البقرة: من الآية٢٠٠)

وقال في وصف عباده الذين أعد لهم :﴿ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ)(آل عمران: من الآية١٥) :﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران:١٦)،

وقال في وصف أولي الألباب:﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران:١٩١)

وقال في وصف عباد الرحمن :﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً إِنَّهَا

سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً) (الفرقان:٦٥ ـــ ٦٦)

وقال في وصف عباده المقربين :﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً) (الاسراء:٥٧)

وأخبر أن من صفات عباده الصالحين الشفقة من عذاب الله ، قال تعالى :﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) (المعارج:٢٧) ، وأخبر عن أهل الجنة أنهم يقولون :﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ) (الطور:٢٧)

وأخبر تعالى أن توريث الأرض لا يكون إلا للخائفين من الله ، قال تعالى :﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)(ابراهيم: من الآية١٤) بعد قوله تعالى :﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ)(ابراهيم: من الآية١٤)

وهكذا ، فإن جميع نصوص القرآن الكريم تدل على أن الأمن من عذاب الله ، والنجاة منه مرتبطة بمدى الخوف من الله ، ومن العذاب الذي أعده لمن عصاه ، ولهذا قال سيدي ابراهيم التيمي:(ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار ، لأن أهل الجنة قالوا :﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) (فاطر:٣٤)، وينبغي لمن لم يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة لأنهم قالوا :﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ) (الطور:٢٦)

قلت: هذا الشاهد الأول .. فأين الشاهد الثاني؟

قال: قال: لقد ورد في النصوص الكثيرة اعتبار الخشية من الله خلقا من أخلاق المؤمنين، ومقاما من مقامات السالكي، ففي الحديث قال ﷺ :(لا يلج النار رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم)[1]

وقال ﷺ :(سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمامٌ عادلٌ، وشابٌ نشأ في عبادة الله تعالى، ورجلٌ قلبه معلقٌ في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجلٌ دعته امرأةٌ ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)[2]

وقال ﷺ :(ليس شيءٌ أحب إلى الله تعالى من قطرتين وأثرين: قطرة دموعٍ من خشية الله، وقطرة دمٍ تهراق في سبيل الله. وأما الأثران: فأثرٌ في سبيل الله تعالى، وأثرٌ في فريضةٍ من فرائض الله تعالى)[3]

قلت: هذا ما ورد به النص من أقوال النبي ﷺ .. فهل ورد في الفعل ما يؤكده، فإني رأيت نفرا يحتقرون مثل هذا المقام، ويعتبرنه دليلا على قصور السالكين .. وهم يذكرون أن العارفين الكبار بمنأى عنه؟

قال: لقد كان رسول الله ﷺ أعرف العارفين بالله، وكان مع ذلك أعظم الناس خشية لله، وقد حدث جابر ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ صنع شيئا، فرخص فيه، فتتره عنه قوم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ،

([1]) رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.
([2]) رواه البخاري ومسلم.
([3]) رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ.

فخطب، فحمد الله، ثم قال: (ما بال أقوام يتنزهون عن الشئ أصنعه؟ فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية)[1]

وحدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ أن رجلا قال لرسول الله ﷺ وهو واقف على الباب وأنا أسمع: يا رسول الله إني أصبحت جنبا، وأنا أريد الصوم، فقال رسول الله ﷺ: (وأنا أصبح جنبا، وأنا أريد الصوم، فأغتسل وأصوم)، فقال له الرجل: يا رسول الله إنك لست مثلنا، قد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فغضب رسول الله ﷺ، وقال: (والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي)[2]

وحدث عمر بن أبي سلمة ــ رضي الله عنه ــ أنه سأل رسول الله ﷺ: أيقبل الصائم؟ فقال رسول الله ﷺ:(سل هذه لأم سلمة)، فأخبرته أن رسول الله ﷺ يصنع ذلك، فقال له رسول الله ﷺ : (أما أنا، والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له)[3]

وحدثت أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ أن رسول الله ﷺ أرسل وصيفة له فأبطأت عليه، فقال: (لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك)[4]

وحدث أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال: (قاربوا، وسددوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعلمه)، قالوا: ولا أنت ؟ قال: (ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)[5]

وحدث صفوان بن عوف ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ يتأوه، ويقول: (أوه من عذاب الله أوه من قبل أن لا تنفع أوه)[6]

وحدث ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: ما هبت ريح قط إلا جثا النبي ﷺ على ركبته، وقال: (اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا)[7]

وحدث أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: كان رسول الله ﷺ إذا هبت الريح، أو سمع صوت الرعد تغير لونه، حتى عرف ذلك في وجهه[8].

وحدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعا قط ضاحكا، حتى ترى لهواته إنما كان يتبسم، وكان رسول الله ﷺ إذا رأى غيما تلون وجهه، وتغير، ودخل، وخرج، وأقبل، وأدبر فإذا أمطرت سري عنه، قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيت فيما عرف في وجهك الكراهة، فقال: (يا عائشة، وما يؤمني أن يكون عذاب؟ قد عذب الله عز وجل

---

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه مالك.
(3) رواه مسلم.
(4) رواه ابن سعد.
(5) رواه البخاري ومسلم.
(6) رواه أبو الحسن بن الضحاك.
(7) رواه الشافعي.
(8) رواه ابن مردويه.

قوما بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا :﴿ هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا)(الاحقاف: من الآية٢٤)[1]

وحدث جمع من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ أنهم سألوا رسول الله ﷺ: يا رسول الله شبت، قال: (شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت)[2]

وحدث أبو عمران الجوني قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: (شيبتني هود وأخواتها، وذكر القيامة وقصص الأنبياء والأمم)[3]

وحدث الحسن ــ رضي الله عنه ــ قال: لما نزلت هذه الآية :﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ (هود: من الآية١١٢) قال رسول الله ﷺ : (شمروا وأثمروا فما رئي ضاحكا)[4]

وحدث أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال: (والذي نفسي بيده، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا)[5]

وحدث جمع من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ أن رسول الله ﷺ قال: (كيف أنعم، وصاحب الصور قد التقم القرن، وحنى جبهته، وأصغى بسمعه، ينتظر متى يؤمر فينفخ ؟) قالوا: وماذا نقول يا رسول الله ؟ قال: (قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل)[6]

وحدث أبو ذر ــ رضي الله عنه ــ قال: قرأ رسول الله ﷺ :﴿ هَلْ أَتَى)(الانسان: من الآية١) حتى ختمها، ثم قال: (إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله، لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى)[7]

وعن أبي حرب بن المسور ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قرأ :﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣)﴾ (المزمل)، فلما بلغ إليها صعق[8].

وحدث أنس وأبو سعيد ــ رضي الله عنهما ــ قالا: إنا يوما عند رسول الله ﷺ فرأيناه كئيبا، فقال

---

(1) رواه البخاري ومسلم، وفي لفظ: وما يدريك كما قال قوم :﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الاحقاف:٢٤)

(2) رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم عن ابن عباس وسعيد بن منصور، وابن عساكر عن أنس، والترمذي في الشمائل وأبو يعلى برجال ثقات عن أبي جحيفة، وابن عساكر عن عمران بن حصين، وابن سعد عن محمد بن علي بن الحسين، والطبراني وابن مردويه ــ بسند صحيح ــ قال ابن عباس: إن أبا بكر قال: وقال أنس: قال أصحاب رسول الله ﷺ .. وقد أخطأ من ذكر هذا الحديث في الموضوعات.

(3) رواه أحمد في الزهد.

(4) رواه ابن أبي حاتم.

(5) رواه البخاري ومسلم.

(6) رواه أحمد والطبراني عن ابن عباس، وسعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي – وحسنه – عن أبي سعيد، وأبو نعيم عن جابر.

(7) رواه الحاكم.

(8) رواه أبو عبيدة في فضائله، وأحمد في الزهد، وابن أبي الدنيا في نعت الخائفين، وابن جرير، وابن أبي داود في الشريعة، وابن عدي، وابن نصر، والبيهقي في الشعب.

بعضنا: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، فقال رسول الله ﷺ: (سمعت هدة، و لم أسمع مثلها فأتاني جبريل فسألته عنها، فقال: هذه صخرة هدت من شفير جهنم، من سبعين خريفا، فهذا حين بلغت قعرها، أحب أن يسمعك صوتها)، فما رؤي رسول الله ﷺ ضاحكا مل ء فيه حتى قبضه الله تعالى[1].

وحدث النواس بن سمعان ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك)[2]

قلت: هذا فعل رسول الله ﷺ .. فما فعل الورثة من بعده؟

قال: لا يكتمل إرث الوارث حتى تصح نسبته لمورثه .. ورسول الله ﷺ لم يورث دينارا ولا درهما وإنما ورث علوما وأعمالا وأحوالا .. فمن أخذ حظه منها، فهو الوارث.

قلت: فأخبرني من أخبارهم ما يطمئن به قلبي، وتسكن له نفسي، وتقر له عيني، وتنبعث به همتي.

قال: أما أصحاب رسول الله ﷺ الذين تتلمذوا على يديه، فقد كانوا أعظم الناس مخافة لله، وقد وصفهم علي ــ رضي الله عنه ــ فقال :(لقد رأيت أثراً من أصحاب رسول الله ﷺ، فما أري أحداً يشبههم، والله إن كانوا ليصبحون شعثاً غبراً صفراً، بين أعينهم مثل ركب المعزي، قد باتوا يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم، إذا ذكر الله مادوا كما تميد الشجرة فى يوم ريح، فانهملت أعينهم حتى تبل والله ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين)

ووصفهم العرباض بن سارية ــ رضي الله عنه ــ فقال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون[3].

وروي عن عبد الرحمن بن عوفٍ ــ رضي الله عنه ــ أنه أتي بطعامٍ وكان صائماً، فقال: قتل مصعب بن عمير، رضي الله عنه، وهو خيرٌ مني، فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردةٌ إن غطي بها رأسه بدت رجلاه، وإن غطيٍ بها رجلاه بدا رأسه، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط ــ أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا ــ قد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام[4].

وروي أن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ عندما طعن جعل يتألم، فقال له ابن عبـــاس ــ رضي الله عنه ــ وكأنه يُجَزِّعُه :(يا أمير المؤمنين ولئن كان ذاك لقد صحبت رسول الله ﷺ وأحسنت صحبته، ثم فارقت وهو عنك راض، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته، ثم فارقت وهو عنك راض، ثم صحبت صَحَبَتُهم فأحسنت صُحْبَتَهم، ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهـــم عنك راضون)، فقال عمر :(أما ما ذكرت من صحبة رسول الله ﷺ ورضاه، إن ذلك مَنٌّ منَّ الله تعالى علي، وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه فإنما ذلك مَنٌّ من الله جل ذكره عَلَيَّ، وأما ما ترى من جزعي فهو من أجلك ومن أجل أصحابك، والله لو أن لي

---

(1) رواه ابن أبي شيبة برجال ثقات، والطبراني عن أبي سعيد، وابن أبي الدنيا.
(2) رواه الحارث بن أبي أسامة.
(3) رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
(4) رواه البخاري.

طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله ﷻ قبل أن أراه)[1]، وفي رواية قال :(وددت أن ذلك كفافاً لا عليّ ولا لي)

وقد حدث عن نفسه قبل ذلك، فقال :(لو أن بغلة عثرت بالعراق لسئل عنها عمر بين يدي الله عز وجل)

وروي أنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشياً عليه، فكان يعاد أياماً، وأخذ يوماً تبنة من الأرض فقال: يا ليتني كنت هذه التبنة، يا ليتني لم أك شيئاً مذكوراً، يا ليتني كنت نسياً منسياً، يا ليتني لم تلدني أمي .. وكان في وجهه خطان أسودان من الدموع .. وكان يقول :(من خاف الله لم يشف غيظه، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون)

ولما قرأ :﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (التكوير:١) وانتهى إلى قوله تعالى :﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ (التكوير:١٠)خرّ مغشياً عليه.

ومرَّ يوماً بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة الطور، وقف يستمع، فلما بلغ قوله تعالى:﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨)﴾ (الطور) نزل عن حماره، واستند إلى حائط ومكث زماناً، ورجع إلى منزله فمرض شهراً يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه.

وروي أن عائشة ــ رضي الله عنها ــ سئلت عن عن قوله تعالى :﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر:٣٢)، فقالت مجيبة من سألها :(أي بني هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن بقى على عهد رسول الله ﷺ ، وشهد له الرسول بالجنة، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق بهم، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم)[2]

وروي أن أبا بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ قال لطائر: ليتني مثلك يا طائر، و لم أخلق بشراً.

وقال أبو ذرّ ــ رضي الله عنه ــ : وددت لو أني شجرة تعضد.

وقال عمران بن حصين ــ رضي الله عنه ــ : وددت أن أكون رماداً تنسفني الرياح في يوم عاصف.

وقال أبو عبيدة بن الجراح ــ رضي الله عنه ــ: وددت أني كبش فيذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويحسون مرقي.

قلت: هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ .. فما فعل من بعدهم؟

قال: منهم من سار على هديهم، وسلك سبيلهم، وهؤلاء لا تخلو منهم الأرض .. وقد وصفهم علي ــ رضي الله عنه ــ فقال :(لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهر مكشوف وإما خائف مقهور لكيلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته، وكم وأين أولئك؟ هم الأقلون عدداً الأعظمون قدراً، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعوها من وراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم

([1]) رواه البخاري .
([2]) رواه الطيالسي.

العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين فاستلانوا ما استوعر منه المترفون وأنسوا بما استوحش منه الغافلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك أولياء الله عز وجل من خلقه وأمناؤه وعماله في أرضه والدعاة إلى دينه)، ثم بكى وقال: (واشوقاه إلى رؤيتهم)

ووصفهم الحسن البصري ــ رضي الله عنه ــ فقال :(إن المؤمنين قوم ذلت والله منهم الاسماع والأبصار والأبدان حتى حسبهم الجاهل مرضى ، وهم والله أصحاب القلوب ، ألا تراه يقول تعالى :﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ (فاطر: من الآية٣٤)، والله لقد كابدوا في الدنيا حزنا شديدا ، وجرى عليهم ما جرى على ما جرى على من كان قبلهم ، والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ، ولكن أبكاهم وأحزنهم الخوف من النار)

قلت: فحدثني من أخبارهم .. فلا تصفو القلوب إلا بأخبار الصالحين.

قال: لقد كان علي بن الحسين ــ رضي الله عنه ــ إذا توضأ اصفر لونه، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بــين يدي من أريد أن أقوم؟

وقال موسى بن مسعود: كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه.

وقرأ مضر القارىء يوماً :﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثــية:٢٩)، فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشي عليه، فلما أفاق قال: وعزتك لا عصيتك جهدي أبداً، فأعني بتوفيقك على طاعتك.

وكان المسور بن مخرمة لا يقوى أن يسمع شيئاً من القرآن لشدّة خوفه، ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة فما يعقل أياماً، حتى أتى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه:﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦)﴾ (مريم)، فقال :(أنا من المجرمين ولست من المتقين)، أعد علي القول أيها القارىء، فأعادها عليه فشهق شهقة، فلحق بالآخرة.

وقرىء عند يحيــى البكاء :﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (الأنعام:٣٠)، فصاح صيحة مكث منها مريضاً أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة.

وقال بعض الصالحين: بــينما أنا أسير في بعض جبال بــيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك، فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوي عال فاتبعت الصوت، فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية :﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ)(آل عمران: من الآية٣٠)، قال: فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خرّ مغشياً عليه، فقلت: وا أسفاه هذا لشقائي. ثم انتظرت إفاقته، فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول: أعوذ بك من مقام الكذابــين، أعوذ بك من أعمال البطالين، أعوذ بك من إعراض الغافلين، ثم قال: لك خشعت قلوب الخائفين، وإليك فزعت آمال المقصرين، ولعظمتك ذلت قلوب العارفين، ثم نفض يده فقال: ما لي وللدنيا وما للدنيا ولي؟ عليك يا دنيا بأبناء جنسك وألاف نعيمك إلى

محبـــيك فاذهبـــي وإياهم فاخدعي، ثم قال: أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة، في التراب يبلون، وعلى الزمان يفنون، فناديته: يا عبد الله أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك، فقال: وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه؟ أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه؟ وبقيت آثامه؟ ثم قال: أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها، ثم لها عني ساعة وقرأ :﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾(الزمر: من الآية٤٧)، ثم صاح صيحة أخرى أشدّ من الأولى وخرّ مغشياً عليه فقلت: قد خرجت روحه فدنوت منه، فإذا هو يضطرب، ثم أفاق وهو يقول: من أنا، ما خاطري؟ هب لي إساءتي من فضلك وجللني بسترك واعف عن ذنوبـــي بكرم وجهك إذا وقفت بـــين يديك، فقلت له: بالذي ترجوه لنفسك وتثق به إلا كلمتني فقال: عليك بكلام من ينفعك كلامه، ودع كلام من أوبقته ذنوبه.

وروي أن الفضيل رئي يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة، حتى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: واسوأتاه منك وإن غفرت، ثم انقلب مع الناس.

ومرّ الحسن بشاب وهو مستغرق في ضحكه وهو جالس مع قوم في مجلس؛ فقال له الحسن: يا فتى، هل مررت بالصراط؟ قال: لا. قال: فهل تدري إلى الجنة تصير أم إلى النار؟ قال: لا. قال: فما هذا الضحك؟ قال فما رؤي ذلك الفتى بعدها ضاحكاً.

ودخل يزيد الرقاشيٍّ على عمر بن عبد العزيز فقال: عظني يا يزيد: فقال: يا أمير المؤمنين، اعلم أنك لست أوّل خليفة يموت، فبكى ثم قال: زدني، قال: يا أمير المؤمنين ليس بـــينك وبـــين آدم أب إلا ميت، فبكى ثم قال: زدني يا يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين ليس بـــينك وبـــين الجنة والنار مترل، فخرّ مغشياً عليه.

وعن ابن السماك قال: وعظت يوماً في مجلس، فقام شاب من القوم، فقال: يا أبا العباس، لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي أن لا نسمع غيرها. قلت: وما هي رحمك الله؟ قال قولك: لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو في النار. ثم غاب عني ففقدته في المجلس الآخر فلم أره، فسألت عنه فأخبرت أنه مريض يعاد، فأتيته أعوده فقلت: يا أخي ما الذي أرى بك؟ فقال: يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو في النار. قال: ثم مات رحمه الله فرأيته في المنام فقلت: يا أخي ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ورحمني وأدخلني الجنة. قلت: بماذا؟ قال: بالكلمة.

قلت: لقد دب الانحراف إلى هذه الأمة، فنسيت خشية ربها، وراحت تنشغل بمخافة الشياطين.

قال: ونحن في هذا المترل الذي تراه أمامك نحيي هذه السنة العظيمة من سنن رسول الله ﷺ.

قلت: عرفت سنية الخشية، و لم أعرفها تأثيرها السلوكي؟

قال: ألم تقرأ ما قصة القرآن الكريم علينا من قصة ابني آدم؟

قلت: بلى .. لقد قال الله تعالى :﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)﴾ (المائدة)

قال: ألا ترى أن الخشية من الله هي الحصن الذي تحصن به الأخ الصالح، فلم تمتد يده لقتل أخيه؟

قلت: بلى .. ذلك صحيح، وقد ذكره القرآن الكريم.

قال: ما ذكره إلا لنعتبر به .. إن جميع جيوش الدنيا، وجميع شرطتها، وجميع مخابراتها لن يستطيعوا أن ينشروا الأمن الذي تنشره مخافة الله وخشيته ..

ليس ذلك في هذا وحده .. بل في كل شيء ..

لقد رويت النصوص الكثيرة الدالة على تأثير الخشية في تزكية النفس وطهيرها:

ومن ذلك ما روي أنه انطلق رجل ذات يوم ، فترع ثيابه وتمرغ في الرمضاء ، وهو يقول لنفسه :(ذوقي نار جهنم ، ذوقي ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً ﴾ (التوبة: من الآية٨١)، جيفة بالليل، بطالة بالنهار ، فبينا هو كذلك إذا أبصر النبي ﷺ في ظل شجرة ، فأتاه ، فقال :(غلبتني نفسي)، فقال له النبي ﷺ :(ألم يكن لك بد من الذي صنعت ، لقد فتحت لك أبواب السماء، ولقد باهى الله بك الملائكة)[1]

ولهذا دأب الصالحون على تحذير أنفسهم من غضب الله وعقابه إن ألمت بالمعاصي أو همت بها ، يقول العزالي في مخاطبة نفسه مستنا بسنة أهل الله في ذلك :(ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تتعرّضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه؟

هيهات هيهات جرّبي نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قربي أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك؟

أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فما لك لا تعوّلين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك، فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فمالك تترعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كتر أو يسخر عبداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب؟

أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها، وأن رب الآخرة والدنيا واحد، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى)

وكانوا يطردون الغفلة عن الله، ويميتون شهوة معارضة الله بتذكير النفس بقصورها وضعفها وعدم إطاقتها عذاب الله، يروى أن رجلا جاء إلى إبراهيم بن أدهم ــ رضي الله عنه ــ فقال: يا أبا إسحاق! إني مسرف على نفسي، فاعرض علي ما يكون لها زاجراً ومستنقذاً لقلبي قال: إن قبلت خمس خصال وقدرت عليها لم تضرك معصية ولم توبقك لذة قال: هات يا أبا إسحاق! قال: أما الأولى فإذا أردت أن تعصي الله عز وجل فلا تأكل رزقه قال: فمن أين آكل وكل ما في الأرض من رزقه؟ قال له: يا هذا! أفيحسن أن تأكل رزقه وتعصيه؟ قال: لا هات الثانية! قال: وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً من بلاده قال الرجل: هذه أعظم من الأولى!

([1]) رواه ابن أبي الدنيا وهو مرسل وخرج الطبراني نحوه من حديث بريدة موصولا وفي اسناده من لا يعرف حاله.

يا هذا! إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين أسكن؟ قال: يا هذا! أفيحسن أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه؟ قال: لا هات الثالثة! قال: إذا أردت أن تعصيه وأنت تحت رزقه وفي بلاده فانظر موضعاً لا يراك فيه مبارزاً له فاعصه فيه قال: يا إبراهيم! كيف هذا وهو مطلع على ما في السرائر؟ قال: يا هذا! أفيحسن أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه وهو يراك ويرى ما تجاهره به؟! قال: لا هات الرابعة! قال: إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فقل له: أخرني حتى أتوب توبة نصوحاً وأعمل لله عملاً صالحاً قال: لا يقبل مني! قال: يا هذا! فأنت إذا لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب وتعلم أنه إذا جاء لم يكن له تأخير فكيف ترجو وجه الخلاص؟! قال: هات الخامسة! قال: إذا جاءتك الزبانية يوم القيامة ليأخذونك إلى النار فلا تذهب معهم قال: لا يدعونني ولا يقبلون مني قال: فكيف ترجو النجاة إذاً؟! قال له: يا إبراهيم! حسبي حسبي! أنا أستغفر الله وأتوب إليه ولزمه في العبادة حتى فرق الموت بينهما.

وكانوا يجاهدون أنفسهم في ذات الله مستهينين بالمتاعب التي يلاقونها مقارنين إياها بالمتاعب التي تنتظر المقصرين:

كان كرز بن وبرة يختم القرآن في كل يوم ثلاث مرات، ويجاهد نفسه في العبادات غاية المجاهدة فقيل له: قد أجهدت نفسك فقال: كم عمر الدنيا؟ فقيل: سبعة آلاف سنة[1]، فقال: كم مقدار يوم القيامة؟ فقيل: خمسون ألف سنة، فقال: كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم؟ يعني: أنك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربحك كثيراً وكنت بالرغبة فيه جديراً، فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها؟

وكانوا يميتون الشهوات التي تصرفهم عن الله بالنظر لما أعد الله ، كما أخبر ﷺ أن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله :(ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين)[2]، ويروى من ذلك عن رجاء بن عمر النخعي قال: كان بالكوفة فتى جميل الوجه شديد التعبد والاجتهاد، وكان أحد الزهاد فترل في جوار قوم من النخع، فنظر إلى جارية منهم جميلة، فهويها وهام بها عقله، ونزل بها مثل الذي نزل به، فأرسل يخطبها من أبيها، فأخبره أبوها أنها مسماة لابن عم لها واشتد عليهما ما يقاسيان من ألم الهوى، فأرسلت إليه الجارية: قد بلغني شدة محبتك لي وقد اشتد بلائي بك لذلك مع وجدي بك، فإن شئت زرتك وإن شئت سهلت لك أن تأتيني إلى مترلي، فقال للرسول: لا واحدة من هاتين الخصلتين :﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)(الأنعام: من الآية١٥) أخاف ناراً لا يخبو سعيرها، ولا يخمد لهبها، فلما انصرف الرسول إليها فأبلغها ما قال، فقالت: وأراه مع هذا زاهداً يخاف الله تعالى؟! والله ما أحد أحق بهذا من أحد، وإن العباد فيه لمشتركون، ثم انخلعت من الدنيا، وألقت علائقها خلف ظهرها، وجعلت تعبد، وهي مع ذلك تذوب وتنحل حبا للفتى وأسفاً عليه حتى ماتت شوقاً إليه، فكان الفتى يأتي قبرها، فرآها في منامه، وكأنها في أحسن منظر فقال: كيف أنت وما لقيت بعدي؟ فقالت:

([1]) بناء على قول لا يصح.
([2]) رواه البخاري ومسلم.

نعـــــم المحبــــة يـــــا حبــــيبي حبكـــــا حـــــب يقــــود إلى خـــــير وإحســـــان

فقال على ذلك: إلى ما صرت؟ فقالت:

إلى نعــــــيم وعـــــــيش لا زوال لـــــــه في جنــــة الخلـــد ملــــك لــــيس بالفـــاني

فقال لها: اذكريني هناك، فإني لست أنساك، فقالت: ولا أنا والله أنساك، ولقد سألتك ربي مولاي ومولاك فأعانني على ذلك بالاجتهاد، ثم ولت مدبرة فقلت لها: متى أراك؟ قالت: ستأتينا عن قريب، فلم يعش الفتى بعد الرؤيا إلا سبع ليال حتى مات رحمهما الله.

بعد أن ذكر لي رويم هذه الأحاديث امتلأت شوقا لأن يكون لي هذا المقام العظيم من مقامات أهل الله .. فدخلت المترل .. وكان مترلا ممتلئا بالبركات .. وقد رأيت في الخشية ــ مع ما فيها من أحزان وآلام ــ من السرور واللذة ما لا يعدله أي سرور ولا لذة.

وقد أيقنت حينها بالفرق الكبر بين الخوف الممتلئ بالآلام، والخشية التي هي خوف مقرون بمحبة وشعور بالرحمة، كما قال ابن القيم:(الخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون، فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك له حالتان: إحداهما حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف، والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه، وهي الخشية)[1]، وقال مفرقا بين صاحبي الحالين:(صاحب الخوف يلتجىء إلى الهرب والإمساك، وصاحب الخشية يلتجىء إلى الاعتصام بالعلم، ومثلهما مثل من لا علم له بالطب، ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجىء إلى الحمية والهرب، والطبيب يلتجىء إلى معرفته بالأدوية والأدواء)

فالخشية في حقيقتها خوف مقترن برحمة اقتضاه معرفة العزيز الرحيم، ولذلك قال تعالى:﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ (النساء:٩)، فكأن الآية تقول لهم :(كما تخشون على ورثتكم وذريتكم بعدكم، فكذلك فاخشوا على ورثة غيركم ولا تحملوه على تبذير ماله) [2]، فالخوف على الأولاد خوف رحمة لا خوف هروب.

بل نرى القرآن الكريم يجمع الخشية مع اسم الرحمن، كما قال تعالى :﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ (قّ:٣٣)، فسماه بالرحمن في حال خشيته ليدل أن الخشية اقتران معرفة العزة بالرحمة.

الرجاء:

بعد أن غادرت مترل الخشية، واستفدت من علومه وأهله ما ملأني بخشية الله، انتقلت مع ولي آخر من أولياء الله من أصحاب أبي مدين، وهو ابن عطاء، إلى مترل الرجاء، وفي الطريق إليه طلبت منه أن يحدثني عن الشهود العدول الذين يشهدون لهذا المترل، على الشرط الذي شرطته عليهم، فقال: الرجاء ــ كما عرفه

([1]) مدارج السالكين: ١/٥١٢.

([2]) قاله ابن عباس وقتادة والسدي وابن جبير والضحاك ومجاهد.

أصحابنا ــ هو السكون لفضله تعالى بشواهد العمل في الجميع، وإلا كان اغتراراً[1].

قلت: ما يعني هذا؟

قال: الرجاء الرباني هو الذي يدفعك إلى طلب ما ترجوه .. والرجاء الشيطاني هو الذي يقعد بك عنه .. وقد سماه الله تعالى أماني، فقال :﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾ (النساء:١٢٣)

وقد اعتبر رسول الله ﷺ صاحب هذا النوع من الرجاء عاجزا، فقال :(الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني)[2]

وقد أشار القرآن الكريم إلى تأثير الرجاء في السلوك، فقال :﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب:٢١)، وقال :﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة:٢١٨)، وقال :﴿ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء:١٠٤)، وقال :﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ (الاسراء:٥٧)، وقال :﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ (الكهف:١١٠)، وقال :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ (فاطر:٢٩)، وقال :﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:٩)

وقال ــ في مقابل ذلك ــ عن الذين عطلوا هذا المقام :﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (يونس:٧)، وقال :﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (يونس:١١)، وقال :﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (يونس:١٥)، وقال :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً﴾ (الفرقان:٢١)، وقال :﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ (الفرقان:٤٠)، وعلل سبب كفر الكفار وضلالهم، فقال :﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَاباً﴾ (النبأ:٢٧)

قلت: علمت تأثير الرجاء في السلوك .. فكل مَنْ رجا شيئا طلبه، وشمر عن ساعد الجد والاجتهاد بصدق وإخلاص حتى يناله .. ولكن ما تعلمته في مترل الخشية ملأني بالخشية حتى صرت لا أرى في الكون ولا في النصوص إلا ما يملأ قلبي خشية لله.

---

(1) قواعد التصوف، ص٧٤.

(2) رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ.

قال: ستتعلم هنا كيف تعالج الخشية بالرجاء .. والرجاء بالخشية .. فتكون راجيا في خشيتك، وخاشيا في رجائك .. فالكامل هو الذي جمع بينهما.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أنت تعلم أن الرجاء والخوف وغيرهما هي من مقامات التطهير .. وهي مقامات يتعامل معها أطباء القلوب كما يتعامل الأطباء مع الأدوية، فالدواء الذي قد يسبب آلاما في أعضاء أخرى لا يكتفي به، بل يصف معه الطبيب الناصح الدواء الذي يزيل آثاره السلبية.

ولهذا يقترن في القرآن الكريم ذكر أسباب الخوف مع أسباب الرجاء حتى لا يطغى أحدهما على الآخر ، لأن الكمال في اعتدالهما ، والقصور في طغيانهما:

والاقتران بين أسباب الخوف والرجاء في القرآن الكريم قد يكون بذكر صفات الله المقتضية للعذاب، مقرونة بذكر صفاته المقتضية للرحمة، كما قال تعالى :﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجر:٥٠)، وقد روي في في سبب نزولها عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: طلع علينا رسول اللّه ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال :(لا أراكم تضحكون)، ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحجر رجع علينا القهقرى، فقال :(إني لما خرجت جاء جبريل ؏ ، فقال: يا محمد إن اللّه يقول :« لم تقنط عبادي؟ ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ (الحجر:٥٠)

ومثله قوله تعالى :﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (غافر:٣)

وقد يكون بذكر الأسباب الموجبة للرحمة والأسباب الموجبة للعذاب، كما قال تعالى :﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (ابراهيم:٧)، وقال :﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤)﴾ (النساء)

وقد يكون بذكر مظاهر الرحمة مقرونة بمظاهر العذاب ، وهو كثير في القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى :﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧)﴾ (يونس)

وقد يكون بذكر أهل النار مقرونين بأهل الجنة ، كما قال تعالى :﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٨١)، ثم قال :﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٨٢)

قلت: ولكني رأيت بعض من في مترل الخشية يبالغ في هذا المترل مبالغة ملأتني بالمهابة.

قال: صحيح ما فعل .. فالكمال قد يقتضي المبالغة في أحدهما في بعض المراحل لإيصاله إلى درجة الاعتدال، ومثل ذلك مثل من به عوز لمادة معينة يحتاجها جسمه، فإنه قد يبالغ فيها لإيصال جسمه إلى حال

الاعتدال.

وقد شبه الغزالي الطغيان الذي قد يحتاج إليه أحدهما بسبب الحاجة بالخبز والماء ، فالخبز أفضل للجائع، والماء أفضل للعطشان، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب؛ فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل، وإن استويا فهما متساويان.

قلت: فالكمال في اعتدال الخشية والرجاء إذن؟

قال: أجل .. لأن مقتضاهما واحد .. ولذلك قيل: (لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا)، وقال علي ــ رضي الله عنه ــ يحث بعض ولده على هذا :(يا بني، خف الله خوفاً ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك، وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك)

وعلى سنته قال يحي بن معاذ :(من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار، ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الادّكار)، وقال مكحول الدمشقي :(من عبد الله بالخوف فهو حروري، ومن عبده بالرجاء فهو مرجىء، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد)

ومن هذه الدرجة كان عمر ــ رضي الله عنه ــ ينظر عندما قال :(لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل، ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل)

قلت: فما سر هذا الاعتدال؟

قال: إن أهل الله لا ينظرون في الخوف والرجاء لأعمالهم، وإنما ينظرون إلى أوصاف الله المقتضية للخوف والرجاء، ولذلك قال ابن عطاء الله معبرا عن حال العارفين في ذلك:(من علامة الاعتمادِ على العَمَلِ ، نُقْصانُ الرَّجاء عند وجودِ الزَّلَلِ)

أي أن من علامات تعويل العامل على عمله أن ينقص رجاؤه في رحمة الله عند وجود زلته، لأن العارفين لا يشاهدون لأنفسهم عملاً، فلذلك لا ينقص أملهم في رحمة الله إذا قصروا في الطاعة أو اكتسبوا زللا، قال ابن عطاء الله في بعض قصائده :

ولا يَمْنَعْــــــهُ ذنـــــبٌ مـــــن رَجَــــاءٍ فـــــــإنَّ الله غَفـــــــارُ الــــــــذُّنوب

وهكذا حال الخوف ، فإنه عند الكاملين لا يرتبط بالعمل ، ولذلك جاء في تفسير قوله تعالى :﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ (المؤمنون:٦٠) قالت عائشة ــ رضي الله عنها ــ : يا رسول الله أهو الرجل يزنى ويسرق ويشرب الخمر ويخاف؟ فقال :(لا يا بنت الصديق بل هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه)[1]

([1]) رواه الفريابي وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن ماجة وابن أبي الدنيا في نعت الخائفين وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان.

قلت: لكني سمعت الشيخ الدردير يقول ناظما:

وغَلِّبِ الخوفَ على الرجاءِ وسِرْ لمولاك بلا تناءِ

فهو هنا يدعو إلى تغليب الخوف على الرجاء.

قال: هو يخاطب السالكين .. وقد اتفق المربون على طريق الله على تقديم الخوف للسالكين الذين غلبت عليهم رعونة أنفسهم على الرجاء، قال الغزالي :(ما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ (الأصلح) لا لفظ (الأفضل) فنقول: أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء، وذلك لأجل غلبة المعاصي)، وقال في المفاضلة بين الخوف والرجاء:(ويجوز أن يقال مطلقاً: الخوف أفضل على التأويل الذي يقال فيه الخبز أفضل من السكنجبين، إذ يعالج بالخبز مرض الجوع، وبالسكنجبين مرض الصفراء، ومرض الجوع أغلب وأكثر، فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل، فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل)[1]

وقال :(فالخلق الموجودة في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف، بشرط أنّ لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سبباً للتكاسل عن العمل وداعياً إلى الانهماك في المعاصي فإن ذلك قنوط وليس بخوف، إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدّر جميع الشهوات، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف المحمود، دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس الموجب للقنوط)

وقال صاحب التخويف من النار :(وهذا باب من أبواب الترهيب، وحاجة المسلم إليه أشد من الحاجة إلى الأول، لأن الإيمان بين الخوف والرجاء، والمرء بين الشدة والرخا والخوف يفعل فى الخائف مالا يفعل الرجا فى الراجى، والخشية تميز تمييزا كافيا وافيا بين الهالك والناجى، وأن دين الاسلام ورد بالمهلكات كما جاء بالمنجيات، وأن النبي ﷺ رغب وحذر، وبشر وأنذر، فهو المخبر الصادق بكلا الأمرين إخبارا لا يخفى على ذى عينين، ولكن الشيطان الرجيم غرهم بالغفران والاحسان وكادهم النفس الأمارة بالسوء ووعدهم بالرضوان والجنان، ودخل عليهم إبليس من باب الرجا حتى أضلهم عن طريق الهدى، فقالوا :﴿ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ (لأعراف: من الآية١٦٩)[2] كما قال من قبلهم من الأمم، ولم يعلموا أن بطش ربهم لشديد الألم، وأن الدار الآخرة منقسمة إلى قسمين: رياض الجنة وحفر النار، والعبد بين مخافتين، إما أن يصير إلى النعيم بفضله سبحانه، وإما أن يصار به عدلا منه إلى دار البوار، وكل من قنع بالرجا ولم يلم بالخوف لم يعلم بعاقبة أمره ولم يعرف نفعه من ضره، وإنما المؤمن الناجى من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر وعمل صالحا وأقلع نفسه فى هذه الدار عما يوبقه ويهلكه عذبا كان أو مالحا)

وهذا الذي اتفق عليه المربون هو الذي وردت به النصوص واصفة سلوك الرسل مع أقوامهم المكذبين،

([1]) الإحياء: ٤/١٦٦.

([2]) يشير إلى قوله تعالى :﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (لأعراف:١٦٩)

فلذلك نرى أن أكثر ما ورد في القرآن الكريم من وظائف الرسل ـــ عليهم السلام ـــ إما أن يحصرها في الإنذار أو يقدم الإنذار على التبشير:

أما حصر وظائف الرسل ـــ عليهم السلام ـــ في الإنذار ، فهو كثير في القرآن الكريم ، كما قال تعالى في حق الرسول ﷺ :﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (لأعراف:١٨٤)، وقال :﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (هود:١٢)، وقال :﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ (الفرقان:١)، وقال :﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ (الفرقان:٧)، وقال :﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سبأ:٤٦)، وقال :﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر:٢٣)، وقال :﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ (الملك:١٧)

وأمره ﷺ بأن يخبر أمته بأن وظيفته الأولى هي الإنذار ، فقال :﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (الذريات:٥٠)، وقال :﴿ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (الذريات:٥١)، وقال :﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (الحج:٤٩)، وقال :﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (العنكبوت:٥٠)، وقال :﴿ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (صّ:٧٠) ، وقال :﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ (الحجر:٨٩)، وقال :﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (العنكبوت:٥٠)

وأخبر تعالى أن الإنذار هو الوظيفة الأساسية للرسل ـــ عليهم السلام ـــ ، فقال:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (هود:٢٥)، وقال :﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً ﴾ (الفرقان:٥١)، وقال :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (سبأ:٣٤)، وقال :﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ (سبأ:٤٤)، وقال :﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (القصص:٤٦)، وقال :﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (السجدة:٣)، وقال ﷻ :﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) (فاطر:٣٧)، وقال :﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف:٢٣)، وقال :﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى ﴾ (النجم:٥٦)، وقال :﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾ (الملك:٨ ـــ ٩)

واقترنت البشارة بالإنذار في مواضع أخرى مع تقديم الإنذار ، ومنها قوله تعالى :﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ (هود:٢)، وقال :﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ

الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف:١٨٨)

واقترنت البشارة بالإنذار في مواضع أخرى من القرآن الكريم ، كقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ (الأحزاب:٤٥)، وقال :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ:٢٨)، وقال :﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ (الاسراء:١٠٥)، وقال :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (الفرقان:٥٦)، وقال :﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر:٢٤)، وقال :﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ (الفتح:٨)

والتأمل في هذه الأنواع المختلفة من أساليب القرآن الكريم في الإخبار عن وظائف الرسل ــ عليهم السلام ــ يقود إلى هذه الحقيقة التربوية التي اتفق عليها المربون، وهي أن النفوس العاتية الطاغية التي أدمنت على المعصية واستحلتها وأصبحت جزءا من كيانها لا يردعها عن هذه المعصية إلا مرارة تنفرها عن تلك اللذة ، ولا ينفرها عنها مثل الإنذار والتهديد والوعيد، فإن ردعت وألقت السمع وتأدبت ألقيت إليها البشائر التي يبثها الرجاء في النفس.

ولهذا نهى ﷺ أن يعمم الإخبار بالمبشرات التي تقعد بالناس عن السلوك ، فعن معاذ بن جبل ــ رضي الله عنه ــ قال: كنت ردف النبي ﷺ على حمار، فقال: يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده، وما حق العباد على الله ؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس ؟ قال :(لا تبشرهم فيتكلوا)[1]

قلت: وعيت كل ما ذكرته من هذا .. فهل ورد في النصوص المقدسة ما يمكن أن يستجلب به حال الرجاء؟

قال: أجل .. وسترى تفاصيل ذلك في هذا المترل ..

قلت: فحدثني عن بعض ذلك ..

قال: من ذلك قوله تعالى، وهو يحثنا على الرجاء، وينهانا عن القنوط من رحمته :﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر:٥٣)

وقال تعالى مبشراً بسعة رحمته :﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾(لأعراف: من الآية١٥٦)

أما السنة المطهرة، فقد ورد فيها الكثير من النصوص التي تبين سعة رحمة الله، وهي بالتالي من أفضل أدوية الرجاء:

ففي الحديث الشريف، قال رسول الله ﷺ :(والذي نفسي بيده لو لم تُذْنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم)[2]

([1]) رواه البخاري ومسلم.

([2]) رواه مسلم.

وقال ﷺ:(يُدني المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفَه[1] فيقرره بذنوبه فيقول: أتعرف ذنْبَ كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: رَبِّ أعرِفُ، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته)[2]

وقال ﷺ :(من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، والجنة والنار حقٌ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)[3]

وقال ﷺ :(يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة، فله عشر أمثالها أو أزيد، ومن جاء بالسيئة، فجزاء سيئة مثلها أو أغفر. ومن تقرب مني شبراً، تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً، تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي، أتيته هرولةً[4]، ومن لقيني بقراب الأرض[5] خطيئةً لا يشرك بي شيئاً، لقيته بمثلها مغفرةً)[6]

وحدث جابر ـــ رضي الله عنه ـــ قال: جاء أعرابيٌ إلى النبي ﷺ ، فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ فقال: (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك به شيئاً، دخل النار)[7]

وحدث أبو هريرة أو أبو سعيدٍ الخدري ـــ رضي الله عنهما ـــ قال: لما كان غزوة تبوك، أصاب الناس مجاعةٌ، فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا، فأكلنا وادهنا؟ فقال رسول الله ﷺ: افعلوا، فجاء عمر ـــ رضي الله عنه ـــ فقال: يا رسول الله إن فعلت، قل الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك البركة. فقال رسول الله ﷺ : نعم، فدعا بنطعٍ فبسطه، ثم دعا بفضل ازوادهم، فجعل الرجل يجيء بكف ذرةٍ، ويجيء الآخر بكف تمرٍ، ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيءٌ يسيرٌ، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال: خذوا في أوعيتكم، فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاءً إلا ملؤوه، وأكلوا حتى شبعوا وفضل فضلةٌ، فقال رسول الله ﷺ:(أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاكٍ، فيحجب عن الجنة)[8]

وحدث عتبان بن مالكٍ ـــ رضي الله عنه ـــ قال: كنت أصلي لقومي بني سالمٍ، وكان يحول بيني وبينهم وادٍ إذا جاءت الأمطار، فيش علي اجتيازه قبل مسجدهم، فجئت رسول الله ﷺ، فقلت له: إني أنكرت بصري، وإن الوادي الذي بيني وبين قومي يسيل إذا جاءت الأمطار، فيشق علي اجتيازه، فوددت أنك تأتي، فتصلي في بيتي مكاناً أتخذه مصلىً، فقال رسول الله ﷺ: سأفعل، فغدا علي رسول الله، وأبو بكرٍ، بعد ما اشتد النهار، واستأذن رسول الله ﷺ ، فأذنت له، فلم يجلس حتى قال: أين تحب أن أصلي من بيتك؟ فأشرت له إلى

---

(1) كنفه: ستره ورحمته.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه البخاري ومسلم، وفي روايةٍ لمسلم: من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، حرم الله عليه النار.

(4) فسره النووي بقوله :(من تقرب إلي بطاعتي تقربت إليه برحمتي، وإن زاد زدت، فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي أتيته هرولةً أي: صببت عليه الرحمة، وسبقته بها، ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود)

(5) قراب الأرض : ما يقارب ملأها.

(6) رواه مسلم.

(7) رواه مسلم.

(8) رواه مسلم.

المكان الذي أحب أن يصلي فيه، فقام رسول الله ﷺ، فكبر وصففنا وراءه، فصلى ركعتين، ثم سلم وسلمنا حين سلم، فحبسته على خزيرةٍ تصنع له، فسمع أهل الدار أن رسول الله ﷺ في بيتي، فثاب رجالٌ منهم حتى كثر الرجال في البيت، فقال رجلٌ: ما فعل مالكٌ لا أراه! فقال رجلٌ: ذلك منافقٌ لا يحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: لا تقل ذلك، ألا تراه قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله تعالى؟! فقال: الله ورسوله أعلم، أما نحن فوالله ما نرى وده، ولا حديثه إلا إلى المنافقين! فقال رسول الله ﷺ : (فإن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)[1]

وحدث عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قال: قدم رسول الله ﷺ بسبيٍ، فإذا امرأةٌ من السبي تسعى، إذ وجدت صبياً في السبي أخذته، فألزقته ببطنها، فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ : أترون هذه المرأة طارحةً ولدها في النار ؟ قلنا: لا والله. فقال: (لله أرحم بعباده من هذه بولدها)[2]

وحدث أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ : (لما خلق الله الخلق، كتب في كتابٍ، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي)[3]

وعنه عن رسول الله ﷺ قال :(جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعةً وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه)[4]

وعنه عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه، تبارك وتعالى، قال: (أذنب عبدٌ ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال: تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء[5])[6]

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ :(والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله تعالى، فيغفر لهم)[7]

وعن أبي أيوب خالد بن زيد ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لولا أنكم تذنبون، لخلق الله خلقاً يذنبون، فيستغفرون، فيغفر لهم)[8]

وعن عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم عليه السلام :﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه البخاري ومسلم، وفي روايةٍ: غلبت غضبي، وفي روايةٍ: سبقت غضبي.

(4) رواه البخاري ومسلم، وفي روايةٍ: إن لله تعالى مائة رحمةٍ أنزل منها رحمةً واحدةً بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تعالى تسعاً وتسعين رحمةً يرحم بها عباده يوم القيامة.

(5) أي: ما دام يفعل هكذا، يذنب ويتوب أغفر له، فإن التوبة تهدم ما قبلها.

(6) رواه البخاري ومسلم.

(7) رواه مسلم.

(8) رواه مسلم.

أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ (إبراهيم: ٣٦)، وقول عيسى عليه السلام :﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُم فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (المائدة: ١١٨)، فرفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمدٍ وربك أعلم، فسله ما يبكيه؟ فأتاه جبريل، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله تعالى: (يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك)[1]

وعن أنس ـــ رضي الله عنه ـــ عن رسول الله ﷺ قال: (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة، فيحمده عليها، أو يشرب الشربة، فيحمده عليها)[2]

وعن أبي موسى ـــ رضي الله عنه ـــ عن النبي ﷺ قال: (إن الله تعالى، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها)[3]

بعد هذه الأحاديث وغيرها مع ابن عطاء دخلت إلى منزل الرجاء، وقد كان منزلا ممتلئا بأنوار عجيبة، تملأ النفس سرورا ولذة ومتعة، وتملأ الصدر انشراحا وسكينة وطمأنينة .. ولكنها مع ذلك لا تزيد الجوارح إلا نشاطا، ولا الهمة إلا ارتفاعا.

التوبة:

ما إن خرجت من منزل الرجاء حتى شعرت بحاجتي إلى إجراء تصفية شاملة لنفسي التي كانت ممتلئة بالكدورات .. وشعرت في نفس الوقت بحاجتي إلى تطهير سجل سيئاتي من تلك الذنوب التي قد ينزل بي ما رتب عليها من عقوبات ..

فلذلك ما إن خرجت حتى بادرت إلى شيخي أبي مدين طالبا منه أن يبين لي سبيل هذه التصفية وعلومها، فأرشدني إلى الكرماني، وقال: عليك بصحبته .. فمنزله هو منزل التوبة .. ولم يصحبه أحد إلا فقه من فقه التوبة ما يعود به كيوم ولدته أمه.

ذهبت إلى الكرماني، وأخبرته بقول أبي مدين، فطلب مني أن أصحبه إلى منزل التوبة، وقد كان منزلا في ضواحي تلمسان، وكان أبيض اللون، وقد رأيت عمالا كثيرين يحيطون به، فمنهم من ينقي أرضه، ومنهم من يعيد صباغته، ومنهم من يرسل بالمياه على أوراق أشجاره ليطهرها من الغبار الذي امتلأت به.

سألت الكرماني عن التوبة، وسرها، وكونها منزلا من منازل السائرين، فقال: التوبة ترك الذنوب على أجمل الوجوه ..

قلت: أجمل الوجوه !؟

قال: أجل .. فالاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، أو يقول: فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك .. وهذا الأخير هو التوبة[4].

وقد جمع هذه الأركان أحسن جمع الإمام أبو حامد الغزالي، فذكر أن حقيقة التوبة تنتظم في ثلاثة أمور:

---

(1) رواه مسلم.
(2) رواه مسلم.
(3) رواه مسلم.
(4) المفردات ص٧٦ .

علم، وحال، وفعل .. وهي مرتبة بهذا الترتيب: فالعلم الأول، والحال الثاني، والفعل الثالث .. والأول موجب للثاني، والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاه اطراد سنة الله في الملك والملكوت.

ثم تحدث عن سر ارتباط بعضها ببعض، وترتب بعضها على بعض، فذكر أن العلم الذي هو (معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب) إذا تمكن من الذي يريد التوبة أحدث تألما للقلب بسبب فوات المحبوب، (فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى وانبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال والماضي وبالاستقبال، أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابساً، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر، وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر)

قلت: فقد آل أمر التوبة ــ على حسب ما ذكر الغزالي ــ إلى العلم؟

قال: أجل .. ولكنه علم مخصوص .. وهو العلم الذي يريك خطر الذنوب، وكونها حجابا بينك وبين كل مرهوب، أو كونها سبيلا لكل شقاوة وضلالة ومرارة .. وحين تعلم هذا وتتيقن به سيصيبك الألم لا محالة .. وحينذاك ستقدم على التوبة، وستفكر فيها.

قلت: لقد حصل لي هذا .. فأنا ما امتلأت خشية من الله، ورغبة فيما في يد الله حتى شعرت بأن ذنوبي هي الحجاب الحائل بيني وبين فضل الله .. وما شعرت بهذا حتى طلبت مترل التوبة.

قال: لقد وفقت عندما طلبت التوبة على يد شيخك.

قلت: لم؟ .. ألا يكتفى من المرء بأن يتوب لله من غير واسطة؟

قال: التوبة الكاملة لابد فيها من الواسطة .. ألم تسمع قوله تعالى :﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾ (النساء: من الآية٦٤)؟

قلت: هذه عن رسول الله ﷺ .

قال: وهي تصدق على ورثته.

قلت: ألا بد من هذا؟

قال: إن للتوبة أركانا وشروطا وحقيقة .. وفي كل ذلك مسالك ومهالك .. والشيطان يحضر فيها كما لا يحضر في شيء آخر .. ولابد للتائب أن يبحث عن تلك الحقائق التي يتقي بها مداخل الشيطان، فتصدق توبته، وتنصح، فقد قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (التحريم:٨)، فوصف التوبة بالنصح .. ولن تنصح التوبة إلا بالعلم والورع، ولا علم بدون معلم.

قلت: أهناك توبة غير نصوح؟

قال: أجل .. التوبة توبتان:

توبة عامة .. وهي التي أشار إليها قوله تعالى :﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(النور: من الآية٣١)النسائي أي ارجعوا إلى الله من هوى نفوسكم، ومن وقوفكم مع سهواتكم وحظوظكم، عسى أن تظفروا ببغيتكم فى المعاد، وكى تبقوا ببقاء اللّه فى نعيم لا زوال له ولا نفاد.

وتوبة خاصة، وهي التي أشار إليها قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم:٨)، وهي من النصح على وزن فعول، للمبالغة فى النصح، أي أنها خالصة لله تعالى مجردة، لا تتعلق بشئ، ولا يتعلق بها شئ، وهو الاستقامة على الطاعة ، من غير روغان إلى معصية ، كما تروغ الثعالب ، وألا يحدث نفسه بذنب متى قدر عليه ، وأن يترك الذنب لأجل اللّه تعالى خالصا لوجهه ، كما ارتكبه لأجل هواه مجمعا عليه بقلبه وشهوته ، فهذه هى التوبة النصوح ، وهذا العبد هو التواب المتطهر الحبيب.

قلت: لقد رأيت البعض ينكر مثل هذه التقسيمات، فتحقق الناس عنده بالمقامات سواء، ولا معنى للتفريق بينهم في ذلك بين خصوص وعموم؟

قال: لا .. لقد أخطأ من قال ذلك .. لقد فرق القرآن الكريم بين درجات الناس، فذكر المقربين من السابقين .. وذكر المقتصدين .. وذكر الظالمين لأنفسهم .. وذكر غير ذلك من المراتب ..

وقد ذكر الغزالي في هذا تقسيما حسنا تتجلى به مراتب التائبين، ويميز به بين الناصح وغيره، فذكر أن التائبين على أربع درجات[1].

أما **الدرجة العليا**، فهي أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط من أمره، ولا يحدث نفسه بالعود إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة، فهذا هو الاستقامة على التوبة، وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة ــ كما ذكر الغزالي ــ هو (التوبة النصوح)، واسم النفس التي سكنت لهذه التوبة (النفس المطمئنة)، وهي التي ترجع إلى ربها راضية مرضية، وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله ﷺ :(سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً)[2]، فإن في هذا الحديث إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم.

وأهل هذه الطبقة ــ كذلك ــ على رتب من حيث التروع إلى الشهوات، فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صرعها، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس، ولكنه مشغول بمجاهدتها وردها .. ثم تتفاوت درجات النزاع أيضاً بالكثرة والقلة وباختلاف المدة وباختلاف الأنواع .. وكذلك يختلفون من حيث طول العمر، فمن مختطف يموت قريباً من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة، ومن ممهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته، وحال هذا أعلى وأفضل إذ كل

---

(1) انظر: إحياء علوم الدين: ٤/٤٢.
(2) رواه الترمذي وحسنه.

سيئة فإنما تمحوها حسنة.

قلت: هذه الدرجة العليا .. فما **الدرجة الثانية؟**

قال: هي درجة التائب الذي سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات، وترك كبائر الفواحش كلها، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوبه تعتريه، لا عن عمد وتجريد قصد، ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرضه لها.

وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة، إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة، لا عن تصميم عزم وتخمين رأي وقصد، وهذه ــ أيضاً ــ رتبة عالية، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهي أغلب أحوال للتائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات، فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد.

وقد ذكر القرآن الكريم هؤلاء وأثنى عليهم، فقال :﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (لنجم:٣٢)، فكل إلمام يقع بصغيرة، لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه.

وقال تعالى عن أهل هذه الدرجة :﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:١٣٥)، فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه.

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أهل هذه الدرجة بقوله :(خياركم كل مفتن تواب)[1]، وقال ﷺ :(المؤمن كالسنبلة تفيء أحيانا، وتميل أحيانا)[2]، وقال ﷺ :(لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة)[3]، أي الحين بعد الحين.

فهذه النصوص وغيرها تدل على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين.

ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين يكون حاله كحال الطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار، وكالفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة، وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه، بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات، كما قال ﷺ :(كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون)[4]

([1]) رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف.

([2]) رواه أبو يعلى وابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس، والطبرانى من حديث عمار بن ياسر، والبيهقى فى الشعب من حديث الحسن مرسلا، وكلها ضعفية، وفى الأمثال للرامهرمزى إسناد جيد لحديث أنس.

([3]) رواه الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة.

([4]) رواه الترمذى والحاكم وقال: صحيح إسناده.

ولهذا قال تعالى :﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (القصص:٥٤)، فما وصفهم بعدم السيئة أصلاً.

قلت: عرفت الدرجة الثانية .. فما **الدرجة الثالثة؟**

قال: هي درجة التائب الذي يتوب ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه الشهوات في بعض الذنوب، فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها، هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة عند الفراغ يتندم ويقول: ليتني لم أفعله، وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها، لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوماً بعد يوم.

فهذه النفس هي التي تسمى النفس المسولة، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم :﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (التوبة:١٠٢)

فأمر هذا التائب من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو، فعسى الله أن يتوب عليه، وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره، فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة، فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين، وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما يجعله من الأشقياء.

قلت: فما **الدرجة الرابعة؟**

قال: هي درجة التائب الذي يتوب ويجري مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته، فهذا من جملة المصرين، وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء، الفرارة من الخير، ويخاف على هذا سوء الخاتمة وأمره في مشيئة الله، فإن ختم بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها، وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين.

قلت: عرفت هذا ووعيتك، ولا أحسبني أخالفك فيه .. فكل الشهود العدول يدلون عليه .. ولكني أريد أن أعرف الكيفية التي أتحقق بها على الدرجة العليا من درجات التوبة؟

قال: هذا المترل هو مترلها .. وستتعلم في هذا المترل كيف تتوب إلى الله، وكيف ترد المظالم، وكيف تعيد المياه إلى مجاريها .. وكيف تغتسل الغسل الذي يجعلك نقيا طاهرا كيوم ولدتك أمك[1].

قلت: فحدثني عن رسول الله ﷺ .. فأنا لا أحب أن أتحرك حركة إلا على قدمه.

قال: لقد ورد في النصوص الكثيرة ما يدل على رجوع رسول الله ﷺ إلى ربه مع أنه الطاهر المطهر المعصوم من كل الذنوب[2] .. ففي الحديث عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(1) خصصنا رسالة من (رسائل السلام) الروائية للتفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا، سميناها (عيون الطهارة)

(2) رددنا على الشبهات المرتبطة بهذه النصوص في رسالة (النبي المعصوم) من هذه السلسلة.

(إني لأستغفر الله، وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة)[1]

وعن أبي ذر ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال: (إني لأستغفر الله، وأتوب إليه في اليوم مائة مرة)[2]

وعنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اللهم إني أستغفرك ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت، وأنت، المؤخر، وأنت على كل شئ قدير)[3]

وعن الأغر ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يا أيها الناس، توبوا إلى الله تعالى، فإني أتوب إليه كل يوم مائة مرة)[4]

وعن حذيفة ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ (أين أنت من الاستغفار يا حذيفة ؟ إني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة، وأتوب إليه)[5]

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأتوب إليه) قبل أن يقوم من المجلس، مائة مرة[6].

وعنه قال: إنا كنا نعد على رسول الله ﷺ في المجلس، (رب اغفر لي، وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم، مائة مرة)[7]

وعن الأغر بن مزينة ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)[8]، وفي رواية: سمعته يقول: (توبوا إلى ربكم، فوالله إني لأتوب إلى ربي عز وجل مائة مرة في اليوم).

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: لزم رسول الله ﷺ هؤلاء الكلمات قبل موته بسنة: (سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك)، قالت فقلت: يا رسول الله لقد لزمت هذه الكلمات، قال: (إن ربي عهد إلي عهدا أو أمرني بأمر، فأنا أتبعه)، ثم قرأ :﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (النصر:١) حتى ختم السورة[9].

قلت: فهل ورد في النصوص المقدسة ما يطمئن التائب إلى قبول توبته؟

قال: أجل .. لقد ورد في ذلك الكثير .. وستراها في هذا المترل .. فلا يمكن ليائس أن يتوب .. إنا هنا نبدأ بمداواة اليأس بعلاج الأمل في عفو الله .. فإذا ما تاب العبد تاب الله عليه لا محالة.

---

(1) رواه البخاري والترمذي.
(2) رواه الطبراني برجال الصحيح.
(3) رواه أحمد برجال الصحيح ، وفيه راو لم يسم، وهو في الصحيح بلفظ: اللهم اغفر لي ما قدمت إلى آخره.
(4) رواه أحمد والبخاري في الأدب، ومسلم في الصحيح.
(5) رواه ابن أبي شيبة، والإمام أحمد، والحاكم.
(6) رواه النسائي بسند جيد.
(7) رواه ابن أبي شيبة والبخاري في الأدب، وأبو داود والترمذي، وابن ماجه، والنسائي، وفي لفظ: التواب الغفور.
(8) رواه ابن أبي شيبة ومسلم والأربعة.
(9) رواه محمد بن يحيى بن عمر برجال ثقات.

اسمع ما يقول ﷺ في هذا .. لقد قال :(إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها)[1]

وفي حديث آخر قال ﷺ :(إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[2]

وعن زر بن حبيشٍ قال: أتيت صفوان بن عسالٍ ــ رضي الله عنه ــ أسأله عن المسح على الخفين فقال: ما جاء بك يا زر؟ فقلت: ابتغاء العلم، فقال: إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يطلب، فقلت: إنه قد حك في صدري المسح على الخفين بعد الغائط والبول، وكنت امرأً من أصحاب النبي ﷺ ، فجئت أسألك: هل سمعته يذكر في ذلك شيئاً؟ قال: نعم، كان يأمرنا إذا كنا سفراً ــ أو مسافرين ــ أن لا نترع خفافنا ثلاثة أيامٍ ولياليهن إلا من جنابةٍ، لكن من غائطٍ وبولٍ ونومٍ. فقلت: هل سمعته يذكر في الهوى شيئاً؟ قال: نعم كنا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ، فبينا نحن عنده إذ ناداه أعرابيٌ بصوتٍ له جهوري: يا محمد، فأجابه رسول الله ﷺ نحواً من صوته: هاؤم، فقلت له: ويحك اغضض من صوتك فإنك عند النبي ﷺ، وقد نهيت عن هذا ! فقال: والله لا أغضض. قال الأعرابي: المرء يحب القوم ولما يلحق بهم؟ قال النبي ﷺ :(المرء مع من أحب يوم القيامة)، فما زال يحدثنا حتى ذكر باباً من المغرب مسيرة عرضه أو يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين عاما خلقه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض مفتوحاً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه[3].

بعد هذه الأحاديث وغيرها مع ابن عطاء عن التوبة، وما ورد فيها من النصوص المقدسة، ومن فهوم أهل الله، دخلت مترل التوبة، وقد كان باطنه كظاهره، تجلت فيه جميع قيم الجمال والنظافة، فهو وأهله لا يحرصون على شيئ حرصهم على الصفاء، ولا يعتبرون شيئا من الأشياء يستحق أن يتخذ عدوا غير الكدورة .. الكدورة بجميع أنواعها.

التقوى:

لم أخرج من مترل التوبة برغبتي، فقد أخبرني أهله أن التوبة ليس لها حد ولا نهاية، وقد قال تعالى :﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (التوبة:١١٨)

لكن شيخي أبا مدين طلب مني أن ألتحق بالزاهد ليدلني على مترل آخر من منازل التطهير، هو مترل التقوى.

سرت مع الخواص إلى مترل التقوى، وقد كانت الطريق المؤدية إليه محاطة بأشواك كثيرة .. فلم نكن نسير فيها إلا بجهد وعناء .. وكنت كل لحظة أصيح في صاحبي (الزاهد): احترز .. فإن رماحا من الأشواك تريد أن تشوكك.

بعد أن وصلنا إلى قرب الدار سألت الزاهد عن سر تلك الأشواك، ولم لم يقم أصحابه من أهل الله

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ.
(٣) رواه الترمذي وغيره وقال: حديث حسن صحيح.

بقلعها، فقال: أهل الله هم الذين غرسوها؟

قلت: وهل يغرس أهل الله الشوك؟ .. عهدي بهم يغرسون الورود والرياحين.

قال: عندما رأوا غفلة الخلق عن أشواك الباطن راحوا يذكروهم بأشواك الظاهر، ليعبروا من الظاهر إلى الباطن.

قلت: أراك ترمي إلى شيء، فصرح .. فلا طاقة لي بالتلميح.

قال: لقد سئل بعضهم: ما التقوى؟ قال: هل وجدت طريقاً ذا شوكٍ؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيتُ الشوك عدلت أو جاوزته أو قصّرت عنه، قال: ذاك التقوى.

قلت: لقد وردت النصوص القرآنية الكثيرة تذكر التقوى .. وقد وجدت أنها تذكرها لغرضين:

أما أولهما، فالحث عليها، والدعوة إلى التمسك بها باعتبارها من أخلاق المؤمنين، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (البقرة:٤٨)، وقوله :﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٠٣)، وقوله :﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (البقرة:١٢٣)، وقوله :﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾(البقرة: من الآية١٨٩)﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة:٢٧٨)، وقوله :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:١٠٢)، وقوله :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء:١)، وقوله :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٨)، وقوله :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:٣٥)، وقوله :﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة:٩٣)، وقوله :﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (لأعراف:٢٠١)، وقوله :﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (التغابن:١٦)

وأما الثاني، فذكر الجزاء العظيم المرتبط بأهلها، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (البقرة:٢١٢)، وقوله :﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران:١٥)، وقوله :﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:١٧٢)، وقوله :﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ (آل عمران:١٩٨)، وقوله :﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

(المائدة:٦٥)، وقوله :﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (لأعراف:٩٦)، وقوله :﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ) (الرعد:٣٥)، وقوله :﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) (النحل:٣٠)، وقوله:﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) (النحل:١٢٨)، وقوله :﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً) (مريم:٧٢)، وقوله :﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ) (الزمر:٢٠)، وقوله :﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (الزمر:٦١)، وقوله :﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) (الزمر:٧٣)، وقوله :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (الحديد:٢٨)

بعد أن أكملت قراءة هذه الآيات قال لي: ألا ترى اهتمام القرآن الكريم بالتقوى؟

قلت: أجل .. فهو يحث عليها كل حين .. ويذكر أصناف الأجزية التي وعد بها أهلها .. و لم أقرأ لك مما ورد في القرآن الكريم إلا ما يدل على المجامع، أما التفاصيل، فأكثر من أن تنحصر.

قال: فأنت لا تحتاج إلى الشهود إذن؟

قال: أما شاهد القرآن الكريم، فقد عرفناه، فحدثني عن شاهد السنة.

قال: مثلما ورد في القرآن الكريم الحث على التقوى، فقد وردت السنة كذلك .. فليست السنة إلا بيانا للقرآن الكريم، وتأكيدا لحقائقه، وتطبيقا لتوجيهاته.

قلت: فحدثني عما ورد عن رسول الله ﷺ من الحث على التقوى، والترغيب فيها.

قال: من ذلك قوله ﷺ: (لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس بهذ حذراً لما به بأسُ)[1]

وقال ﷺ : (من سرَّه أن يكون أكرم الناس فليتقِ الله)[2]

وقال ﷺ : (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوى ههنا، التقوى ههنا ــ ويشير إلى صدره ــ بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرامٌ: دمه وعرضه وماله)[3]

وسئل رسول الله ﷺ عن أفضل الناس فقال: (التقي النقي لا إثم فيه ولا بغي ولا غلّ ولا حسد)[4]

وعن جابر ــ رضي الله عنه ــ قال: نزلت هذه الآية :﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ

---

(1) رواه أحمد والترمذي وحسّنه ابن ماجه والحاكم.
(2) رواه الحاكم والبيهقي والطبراني وأبو نعيم.
(3) رواه البخاري ومسلم.
(4) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح، والبيهقي.

حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ..(٣)﴾ (الطلاق) في رجلٍ من أشجع كان فقيراً خفيف ذات اليد، كثير العيال، فأتى رسول الله ﷺ ، فسأله فقال: (اتق الله واصبر)، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ابنٌ لهُ بغنمٍ كان العدوُّ أصابوه، فأتى رسول الله ﷺ، فسأله عنها وأخبره خبرها، فقال: (كلها)، فنزلت[1].

وعن أبي ذر ــ رضي الله عنه ــ قال: جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية :﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢)﴾(الطلاق)، فجعل يرددها حتى تعب فقال: يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم)[2]

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: قيل: يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: (أتقاهم)، فقالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فيوسف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله) قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (فعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)[3]

وعن أبي سعيدٍ الخدري ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال: (إن الدنيا حلوةٌ خضرةٌ، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء)[4]

وعن ابن مسعودٍ ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ كان يقول: (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى)[5]

وعن عدي بن حاتمٍ ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من حلف على يمينٍ، ثم رأى أتقى لله منها، فليأت التقوى)[6]

وعن أبي أمامة صدي بن عجلان ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع فقال: (اتقوا الله، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا أمراءكم، تدخلوا جنة ربكم)[7]

قلت: عرفت كل هذا ووعيته .. لكني أتساءل عن سر كل هذا الفضل الذي أولته هذه التعاليم المقدسة للتقوى.

قال: لأن التقوى هي الزمام الذي تزم به النفس، والحصن الذي تحتمي به من المعاصي .. ومن حصل التقوى فقد حصل على الملكة التي تملؤه بكل خير، وتفرغه من كل شر.

قلت: فهي مَلَكة إذن؟

قال: أجل .. و لم يكن لها هذا الفضل لو لم تكن كذلك .. فالملكات هي التي تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر .. ومن كانت له ملكة التقوى، فإنها لن تدله إلا على الخير، ولن تنهاه إلا عن الشر .. ومن ربى نفسه

---

(١) رواه الحاكم.
(٢) رواه الحاكم والبيهقي وابن مردويه.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه مسلم.
(٦) رواه مسلم.
(٧) رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح.

ومن وكلت إليه مسؤوليتهم على التقوى، فإنه لن يخاف سوءا لا على نفسه، ولا عليهم، كما قال تعالى يشير إلى ذلك:﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (المائدة:٩٣)

قلت: لقد ذكرتني بأبيات لابن حزم قالها مبينا رجوع جميع الأخلاق إلى التقوى، واقتباسها منها، قال:

إنما العقل أساس ... فوقه الأخلاق سور

فحلي العقل بالعلم ... وإلا فهو بور

جاهل الأشياء أعمى ... لا يرى كيف يدور

وتمام العلم بالعدل ... وإلا فهو زور

وزمام العدل بالجود ... وإلا فيجور

وملاك الجود بالنجدة ... والجبن غرور

عف إن كنت غيورا ... ما زنى قط غيور

وكمال الكل بالتقوى ... وقول الحق نور

ذي أصول الفضل عنها ... حدثت بعد البذور

قال: بورك فيه .. فقد عبر ابن حزم خير تعبير عن تسلسل الأخلاق، وارتباط بعضها ببعضها..

قلت: فهل تعتمدون في التربية على هذا؟

قال: أجل .. لا يمكن للمربي أن يربي دون أن يعلم ما تمتلئ به النفوس من أخلاق، وما طبعت عليه من خلال .. ليتوصل من خلال ذلك إلى رسم منهج إصلاحي لها.

قلت: فأنتم في هذا المترل تفعلون هذا؟

قال: أجل .. نحن نبدأ فندرس نفوس من يقدمون علينا، وما يرغبون فيه، وما يرهبون منه، وما يقدرون عليه، وما يعجزون عنه .. لندلهم من خلال كل ذلك على التقوى المرتبطة بهم.

قلت: ألكل صنف من الناس تقواه؟

قال: أجل .. فمن الناس من يكون في جبلته متقيا شر طلب الرئاسة، فلذلك لا يحتاج إلى تربيته عليها .. ومن الناس من يكوف عفيفا طاهرا، فلا نحتاج أن نتكلم معه عن العفاف وغض البصر .. وهكذا ..

قلت: إن هذا يحتاج من الداخل إلى هذا المترل أن يفضح نفسه؟

قال: لقد نص أهل الله على هذا .. فكما يحتاج المريض إلى أن يفضح مرضه عند طبيب جسده، فكذلك مريض الروح يحتاج إلى أن يفضح نفسه عند طبيب الروح.

قلت: لكن شريعتنا نهتنا عن الفضيحة؟

قال: نهتنا عن الفضيحة التي يقصد منها التشهير، لا الفضيحة التي يقصد منها التطهير .. ألم تسمع قوله تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (النساء:٦٤)؟

قلت: أفي السنة ما يدل على هذا؟

قال: أجل .. ألم تسمع تلك الأسئلة الكثيرة التي تأتيه ﷺ، والتي تدل على حال قائليها؟

قلت: بلى .. ومن ذلك ما حدثت به أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ قالت: جاءت أم سليم فسألت النبي ﷺ عن المرأة ترى في منامها ما يرى الرجل؟ فقال ﷺ :(الغسل)، فقلت لها:(تربت يمينك، فضحت النساء، وهل تحتلم المرأة؟ فقال ﷺ :(تربت يمينك، فبم يشبهها ولدها)[1]

فانظر كيف نزعت هذه المرأة جلباب الحياء، فسألت من أمر دينها ما يمكنها من أداء حق التقوى.

ومن ذلك ما حدثت به أسماء بنت أبي بكر ــ رضي الله عنها ــ قالت: جاءت المرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إحدانا يصيب ثوبها من دم الحيضة ماذا تصنع به؟ قال :(تحته ثم تقرضه بالماء، ثم تنضحه، ثم تصلي فيه)[2]

ومن ذلك ما حدثت به عائشة ــ رضي الله عنها ــ أن أم حبيبة ــ رضي الله عنها ــ استحيضت سبع سنين، فسألت رسول الله ﷺ فقال: (إنما هو عرق، وليست بالحيضة)، فأمرها أن تغتسل وتصلي، وكانت تغتسل وتصلي، وكانت تغتسل لكل صلاة وتجلس في المركن فيعلو الدم[3].

وعنها ــ رضي الله عنها ــ قالت: جاءت فاطمة بنت أبي حبيش إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله، إني امرأة أستحاض، فلا أطهر، أفأدع الصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: (لا، إنما هو عرق وليس بحيض، فإذا أقبلت حيضتك فدعي الصلاة، وإن أدبرت فاغسلي عنك الدم ثم صلي)[4]

وعن أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ أنها سألت رسول الله ﷺ كم تجلس المرأة إذا ولدت ؟ قال :(تجلس

---

(1) رواه مسلم.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) رواه الشافعي والبخاري.

(4) رواه البخاري، وفي لفظ عند ابن أبي شيبة :(وليست بالحيض، اجتنبي الصلاة أيام حيضتك ثم اغتسلي وتوضأي لكل صلاة، ثم صلي ولو بسط الدم على الحصير)

أربعين يوما، إلا أن ترى الطهر قبل ذلك)[1]

ومن ذلك ما حدث به علي ــ رضي الله عنه ــ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني اغتسلت من الجنابة، وصليت الصبح، فرأيت قدر موضع الظفر لم تمسه الماء، فقال رسول الله ﷺ :(لو كنت مسحت عليه بيدك أجزأك)[2]

ومن ذلك ما حدث به أبو أمامة ــ رضي الله عنه ــ قال: بينما رسول الله ﷺ في المسجد، ونحن قعود معه، إذ جاء رجل، فقال: يا رسول الله، إني أصبت حدا[3] فأقمه علي، فسكت رسول الله ﷺ ، فإعاد فسكت عنه، وأقيمت الصلاة، فلما انصرف النبي ﷺ تبعه الرجل واتبعته أنظر، ماذا يرد عليه؟ فقال له:(أرأيت حين خرجت من بيتك، أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء؟) قال: بلى، يا رسول الله، قال :(ثم شهدت الصلاة معنا)، قال: نعم، يا رسول الله، قال: (فإن الله تعالى قد غفر لك حدك ــ أو قال ذنبك ــ)[4]

ومن ذلك ما حدث به أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله، هلكت قال: ما أهلكك؟ قال: وقعت على امرأتي، وأنا صائم، فقال رسول الله ﷺ :(هل تجد رقبة تعتقها؟)، قال: لا، قال :(فهل تجد إطعام ستين مسكينا؟)، قال: لا، قال: فمكث النبي ﷺ فبينما نحن كذلك أتى النبي ﷺ بعرق فيها تمر ــ والعرق: المكتل ــ قال: أين السائل؟ قال: أنا، قال: خذ هذا فتصدق به، فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله، ووالله ما بين لابتيها ــ يريد الحرتين ــ أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: أطعمه أهلك[5].

وعنه ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جارا يؤذيني، فقال له: (أخرج متاعك فضعه على الطريق)، فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فجعل كل من مر به قال: مالك؟ قال: جاري يؤذيني، فيقول: اللهم العنه، اللهم أخزه! قال: فقال الرجل: ارجع إلى مترلك، وقال :(لا أوذيك أبدًا)[6]

قال: ونحن نعتمد هذا وغيره مما ورد في السنة المطهرة .. فلدينا في هذا المترل فقهاء وعلماء، كما لدينا علماء نفس وخبراء اجتماع، فالتقوى لا تتحقق بكمالها إلا في ضوء هذه الخبرات جميعا.

قلت: فهلم بنا إليه، فما أشوقني لأن أتعلم علوم التقوى، وأتدرب عليها.

دخلت مع الزاهد إلى مترل التقوى .. فرأيته من خير المنازل، وأكثرها بركات، لقد رأيت بعيني فيه قوله تعالى :﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (لأعراف:٩٦)

---

(1) رواه الدارقطني.

(2) رواه البيهقي وابن ماجه.

(3) قال العلماء في قوله :(أصبت حدا)، أي معصية توجب التعزير، وليس المراد الحد الشرعي الحقيقي كحد الزنا والخمر وغيرها، فإن هذه الحدود لا تسقط بالصلاة، ولا يجوز للامام تركها.

(4) رواه مسلم.

(5) رواه البخاري ومسلم.

(6) رواه البزّار وأبو داود في كتاب الأدب.

وشهدت فيه تحقيق قوله تعالى :﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ (الطلاق: من الآية٢)، فلم تكن تخطر على بالي في ذلك المترل شبهة تريد أن تردعني عن التقوى وتزجرني عنها حتى يأتي فضل الله المخزن في التقوى، فيخرجنا منها سالما غانما.

٢ ــ العروج

بعد أن مكثت ما شاء الله لي أن أمكث في ذلك المترل المبارك بصحبة (الزاهد) ومن فيه من الخبراء والعلماء شعرت بحلاوة في قلبي لا أستطيع لها تعبيرا ولا وصفا، فاستأذنت الزاهد أن أذهب إلى شيخي (أبي مدين) لعلي أعرف سرها، فأذن لي.

التوكل:

عندما دخلت عليه كان في مجلسه (الخواص)، وكانا يتذاكران في التوكل، وما إن دخلت عليهما حتى أسرع الخواص إلي يلتزمني، ويقول: أهلا بك في منازل المتوكلين.

قلت: تلك منازل عالية، فكيف عرفت أني من أهلها؟

قال: التوكل هو صنعتي[1]، ولا يعجز الصانع أن يتعرف على أهل صنعته.

قلت: أللمتوكلين سيما خاصة؟

قال: لكل مقام سيماه الخاصة التي يعرفه من خلالها أهل الله.

قلت: أليس ذلك نوعا من الاستشراف للغيب؟

قال: أليس في قدرة الطبيب الخبير أن يتعرف على الداء بمجرد النظر إلى المريض؟

قلت: بلى .. هناك أطباء كثيرون يقدرون على ذلك.

قال: جل ربك أن يجعل في أطباء الجسد من يقدر على هذا، ثم لا يجعل في أطباء الروح من يقدر عليه.

قلت: وما هذا المترل؟ .. وكيف أتأدب بآدابه؟

قال: اصحبني لتتأدب بآدابه.

قلت: فذرني ــ أولا ــ أسأل شيخي عن حلاوة عرضت لقلبي لم أعرف لها تفسيرا.

قال: تلك حلاوة التوكل .. فللتوكل من الحلاوة ما لا يعدله شيء.

قلت: كيف عرفت ذلك؟

قال: ألم تشعر بطمأنينة عظيمة .. وكأنك ملك على عرشك .. كلما احتجت شيئا رزقا أو غيره جاءك من غير عناء ولا تعب؟

قلت: بلى .. ذلك صحيح .. لم أشعر بالراحة في يوم من أيام حياتي كما شعرت في صحبة هذه الحلاوة .. لقد صرت أتخيل أن لدي كل شيء .. وأنه لم يفتني شيء .. فلذلك زالت كل أحزاني، وارتفعت كل شكواي.

قال: فهذا هو التوكل .. فاصحبني لتتعلم علومه .. ففي كل مترل من منازل السلوك ممالك ومهالك .. ولن ينجو منها إلا من اتقى بالعلم الذي علمه الله لأهل الله ببركة متابعتهم لرسول الله ﷺ .

سرت مع الخواص إلى مترل التوكل، وقد كان مترلا في غاية الإبداع والجمال والقوة، يخيل إلى الناظر إليه

---

(1) نرى من خلال دراسة طبقات الأولياء تخصص الكثير منهم في الحديث عن بعض مقامات السلوك دون بعضها، وقد اشتهر الخواص من بينهم خصوصا بالتخصص في التوكل، ولذلك رمزنا به إليه في هذا المحل.

أنه قائم في الهواء من غير أعمدة، ولكنه يقوم على أعمدة كثيرة لا يراها الكثير .. ومع ذلك فهي أقوى من كل شيء ..

لقد ذكرني رؤيتي لها قوله تعالى :﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (الرعد: من الآية٢)

ورأيت طيورا كثيرة تأوى إلى ذلك المترل، والسرور يملأ محياها، فهي تغرد بكل ألحان الرضا، فذكرتني رؤيتي لها بقوله ﷺ : (لو أنكم تتوكلون على الله حق وتوكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطانا)[1]

أردت أن أسرع بالدخول إليه لما امتلأت به عيني من رونق جماله، لكني تذكرت ما اشترطت به على نفسي وعلى أهل الله ممن وفقني الله لصحبتهم، فقلت: كيف أدخل بدون الشهود العدول الذين يشهدون لحركتي.

قال: أما الشاهد الأول .. كلام ربك .. فهو ممتلئ بالأمر والثناء على المتوكلين:

أما الأمر بالتوكل والحث عليه، فقد قال تعالى :﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (آل عمران:١٢٢)، وقال :﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)(آل عمران: من الآية١٥٩)، وقال :﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (آل عمران:١٦٠)، وقال :﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً) (النساء:٨١)، وقال:﴿ قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (المائدة:٢٣)، وقال :﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (لأنفال:٦١)، وقال :﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (التوبة:٥١)، وقال :﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (التوبة:١٢٩)، وقال :﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) (يونس:٨٤)، وقال :﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (يونس:٨٥)، وقال :﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (هود:١٢٣)، وقال :﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً) (الفرقان:٥٨)، وقال :﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) (النمل:٧٩)، وقال :﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً) (الأحزاب:٣)، وقال :﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً) (الأحزاب:٤٨)

وأما الثناء على المتوكلين، وتبيان ما لهم عند الله، فقد قال تعالى :﴿ وَلَمَّا رَأى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا: هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ الله وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إلاَّ إيماناً وَتَسْلِيماً﴾ (الأحزاب:٢٢)، وقال:﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

---

(1) رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ.

(١٧٣)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)﴾ (آل عمران)، وقال :﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً)(الطلاق: من الآية٣)، وقال :﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (النحل:٩٩)

قلت: هذا الشاهد الأول .. فهات الشاهد الثاني.

قال: لقد ورد في السنة ــ التي هي بيان للقرآن الكريم ــ الكثير من النصوص التي تحث على التوكل، وتبين فضل أهله، وما عد لهم من جزاء عند الله:

ومن ذلك ما حدث به ابن عباسٍ ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله صل :(عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط[١]، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحدٌ إذ رفع لي سوادٌ عظيمٌ فظننت أهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب)، ثم نهض فدخل مترله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام، فلم يشركوا بالله شيئاً ــ وذكروا أشياء ــ فخرج عليهم رسول الله ﷺ، فقال: ما الذي تخوضون فيه؟ فأخبروه فقال: (هم الذين لا يرقون، ولا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى رهم يتوكلون)، فقام عكاشة بن محصنٍ فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: (أنت منهم)، ثم قام رجلٌ آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: (سبقك بها عكاشة)[٢]

انظر هذا الفضل العظيم الذي أعده الله للمتوكلين .. إنهم من دون الناس .. يدخلون الجنة من غير حساب .. وذلك لأنهم لم يثقوا إلا في الله، فحطت ثقتهم في الله عنهم أوزارهم، فراحوا إلى الجنة من غير حساب ولا عذاب.

وفي حديث آخر عن ابن عباسٍ ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ كان يقول: (اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت. اللهم أعوذ بعزتك؛ لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا تموت، والجن والإنس يموتون)[٣] متفقٌ عليه.

وعنه قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا :﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(آل عمران: من الآية١٧٣)[٤]

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال: (يدخل الجنة أقوامٌ أفئدتهم مثل أفئدة الطير)[٥]، وهو كناية عن توكلهم.

وعن جابرٍ ــ رضي الله عنه ــ أنه غزا مع النبي ﷺ قبل نجدٍ، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معهم،

---

(١) الرهيط: تصغير رهطٍ، وهم دون عشرة أنفسٍ.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه البخاري ومسلم، وهذا لفظ مسلمٍ واختصره البخاري .
(٤) رواه البخاري.
(٥) رواه مسلم.

فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فترل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرةٍ، فعلق بها سيفه، ونمنا نومةً، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابيٌ فقال: (إن هذا اخترط علي سيفي وأنا نائمٌ، فاستيقظت وهو في يده صلتاً، قال: من يمنعك مني ؟ قلت: الله ــ ثلاثاً ــ)، و لم يعاقبه وجلس[1].

وعن البراء بن عازبٍ ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ : (يا فلان إذا أويت إلى فراشك فقل: اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك: وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت؛ فإنك إن مت من ليلتك مت على الفطرة، وإن أصبحت أصبت خيراً)[2]

وعن أبي بكرٍ الصديق ــ رضي الله عنه ــ قال: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: (ما ظنك يا أبا بكرٍ باثنين الله ثالثهما)[3]

وعن أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ أن النبي ﷺ كان إذا خرج من بيته قال: (بسم الله، توكلت على الله، اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي)[4]

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ :(من قال ــ يعني إذا خرج من بيته ــ : بسم الله توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هديت وكفيت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان)[5]

وعنه ــ رضي الله عنه ــ قال: كان أخوان على عهد النبي ﷺ ، وكان أحدهما يأتي النبي ﷺ، والآخر يحترف، فشكا المحترف أخاه للنبي ﷺ، فقال: (لعلك ترزق به)[6]

قلت: قبلت كل هؤلاء الشهود .. وما كان لي أن أعرض عنهم .. ولكني بين قوم اختلفوا في التعامل مع هذه النصوص المقدسة، فمنهم من راح يفسر التوكل بالاستغراق في التوحيد ونبذ الأسباب، واعتبار الأخذ بها قدحا في التوكل.

ومنهم من راح يستغرق في الأسباب، ويؤول هذه النصوص، ويحملها على محامل تنفي التوحيد، وتجعل من التوكل مجرد اسم لا حقيقة وجودية له.

قال: إن من قرأ هذه النصوص بإيمان وصدق ويقين فهم التوكل على الله حق فهمه، فلم يجنح به إلى أي

([1]) رواه البخاري ومسلم.
([2]) رواه البخاري ومسلم.
([3]) رواه البخاري ومسلم.
([4]) رواه أبو داود، والترمذي وغيرهما بأسانيد صحيحةٍ. قال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وهذا لفظ أبي داود.
([5]) رواه أبو داود والترمذي، والنسائي وغيرهم، وقال الترمذي: حديثٌ حسنٌ، زاد أبو داود: فيقول ــ يعني الشيطان ــ لشيطانٍ آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي؟
([6]) رواه الترمذي بإسنادٍ صحيح على شرط مسلمٍ.

جهة من الجهات .. لا جهة الإفراط، ولا جهة التفريط .. وهذا ما أحوج أهل الله لبناء هذا المترل، ووضع الأسوار التي تحيط به، والتي تمنع دخول المتطفلين إليه.

قلت: فما ذكروا من هذه الأسوار؟

قال: قال: أنت تعلم أن الغزالي أبا حامد .. ذلك الجبل الهمام من جبال أهل الله .. جمع كل ما ذكره الأولياء والعارفون .. وما ورد في النصوص المقدسة .. من مقامات العارفين المحققين .. وقد جمع شتاتها ووضع لها من الأصول والفروع ما حولها علما من العلوم، له من الدقة والتحقيق ما لسائر العلوم.

قلت: فما قال في هذا؟

قال: لقد ذكر أن التوكل ــ كسائر المقامات ــ ينتظم من علم، وحال، وعمل.

قلت: فما **العلم** المرتبط بالتوكل؟

قال: التوحيد .. كل مقامات التقديس تبدأ بالتوحيد، وتنتهي به.

قلت: فما التوحيد الذي لا يصير المتوكل متوكلا إلا بتعلمه؟

قال: هو ما وردت به الأذكار من قوله ﷺ :(من قال: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير(في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك)[1]

قلت: لقد وردت النصوص الكثيرة تحث على هذا الذكر، وتبين فضله.

قال: إن هذا الذكر العظيم يحتوي على مجامع العلوم التي يقوم عليها بنيان التوكل: فالتوكل ينبني على التوحيد الذي يترجمه قولك: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له)، والإيمان بالقدرة التي يترجم عنها قولك (له الملك)، والإيمان بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولك (وله الحمد)

ولذلك من قال (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) تم له الإيمان الذي هو أصل التوكل.

قلت: ما أكثر من يقول هذا، ولكني لا أرى عليه حال المتوكلين.

قال: ليس القول قول اللسان وحده .. القول ما قال الفؤاد .. ولذلك، فقد ذكر أهل الله أن للتوحيد ــ الذي هو منبع التوكل وأصله ــ أربع مراتب، وهو بذلك ينقسم كالجوز إلى لب، وإلى لب اللب، وإلى قشر، وإلى قشر القشر.

فالرتبة الأولى من التوحيد: هي أن يقول الإنسان بلسانه (لا إله إلا الله)، وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين.

والثانية: أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه، كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام.

والثالثة: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين، وذلك بأن يرى أشياء

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

كثيرة، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار.

والرابعة: أن لا يرى في الوجود إلا واحداً، وهي مشاهدة الصديقين، حيث لا يرى إلا واحداً .. ويطلق عليه أهل الله لقب (الفناء)

قلت: الفناء !؟ .. دخلنا في الهرطقات .. هذا ما كنت أحذر منه؟

قال: لا تستعجل .. فليس الفناء ما يفهمه المتطرفون الموغلون في الحس .. فناء أهل الله فناء أرقى وأطهر وأنبل ..

لقد ذكره سيد ببيانه البليغ، فقال في بيانه لما تمتلئ به النفس من معاني قوله تعالى :﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد:٣) :(وما يكاد يفيق من تصور هذه الحقيقة الضخمة التي تملأ الكيان البشري وتفيض، حتى تطالعه حقيقة أخرى، لعلها أضخم وأقوى: حقيقة أن لا كينونة لشيء في هذا الوجود على الحقيقة، فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحده سبحانه؛ ومن ثم فهي محيطة بكل شيء، عليمة بكل شيء ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد:٣)

ويقول عن المعاني التي يستشعرها، وهو يعيش في ظلال هذه الأسماء :(الأول فليس قبله شيء . والآخر فليس بعده شيء . والظاهر فليس فوقه شيء . والباطن فليس دونه شيء .. الأول والآخر مستغرقا كل حقيقة الزمان، والظاهر والباطن مستغرقا كل حقيقة المكان . وهما مطلقتان، ويتلفت القلب البشري فلا يجد كينونة لشيء إلا لله . وهذه كل مقومات الكينونة ثابتة له دون سواه . حتى وجود هذا القلب ذاته لا يتحقق إلا مستمدا من وجود الله . فهذا الوجود الإلهي هو الوجود الحقيقي الذي يستمد منه كل شيء وجوده . وهذه الحقيقة هي الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقته . وليس وراءها حقيقة ذاتية ولا وجود ذاتي لشيء في هذا الوجود)[1]

وقال في المعاني التي يعيشها العارف، وهو يستظل بظلال قوله تعالى :﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الاخلاص:١):(إنها أحدية الوجود .. فليس هناك حقيقة إلا حقيقته .. وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده . وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية)[2]

قلت: لقد رأيت بعضهم يتهم سيدا بوحدة الوجود بسبب قوله هذا.

قال: فليتهم ابن القيم وابن تيمية أيضا حتى لا يكون من الذين يكيلون بالمكاييل المختلفة؟

قلت: هو يزعم أنه يستمد منهما، فكيف يتهمهما؟

قال: فأخبره بأن ابن القيم قال في (مدارج السالكين) عند حديثه عن مترلة الفناء :(الفناء ضد البقاء، والباقي إما باق بنفسه من غير حاجة إلى من يبقيه، بل بقاؤه من لوازم نفسه وهو الله تعالى وحده، وما سواه فبقاؤه ببقاء الرب، وليس له من نفسه بقاء، كما أنه ليس له من نفسه وجود، فإيجاده وإبقاؤه من ربه وخالقه،

---

(1) في ظلال القرآن.

(2) في ظلال القرآن.

وإلا فهو ليس له من نفسه إلا العدم، قبل إيجاده والفناء بعد إيجاده)[1]

ويرفع توهم أن المراد بأن نفسه وذاته اقتضت عدمه وفناءه بقوله :(إنما الفناء أنك إذا نظرت إلى ذاته بقطع النظر عن إيجاد موجده له كان معدوما، وإذا نظرت إليه بعد وجوده مع قطع النظر عن إبقاء موجده له استحال بقاؤه، فإنه إنما يبقى بابقائه كما أنه إنما يوجد بإيجاده فهذا معنى قولنا إنه بنفسه معدوم وفان فافهمه)[2]

أما ابن تيمية، فتحدث في رسائلة كثيرا عن هذه الحال، وإن كان يعيب عليه نقصه عن الكمال، وهو يتفق في ذلك مع كل من تحدث عن هذا الحال...

يقول في مجموع الفتاوى:(الفناء الذي يوجد فى كلام الصوفية يفسر بثلاثة أمور: أحدها فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب والتوكل عليه وعبادته وما يتبع ذلك، فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والإخلاص، وهو فى الحقيقة عبادة القلب وتوكله واستعانته وتألهه وإنابته وتوجهه إلى الله وحده لاشريك له، وما يتبع ذلك من المعارف والأحوال، وليس لأحد خروج عن هذا، وهذا هو القلب السليم الذي قال الله فيه :﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء:٨٩)، وهو سلامة القلب عن الإعتقادات الفاسدة ومايتبع ذلك.

وهذا الفناء لاينافيه البقاء، بل يجتمع هو والبقاء، فيكون العبد فانيا عن إرادة ما سواه وإن كان شاعرا بالله وبالسوى وترجمته قول (لا إله إلا الله)، وكان النبى ﷺ يقول :(لا اله الا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن) وهذا فى الجملة هو أول الدين وآخره.

الأمر الثانى فناء القلب عن شهود ما سوى الرب، فذاك فناء عن الإرادة، وهذا فناء عن الشهاده، ذاك فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه، وهذا فناء عن العلم بالغير والنظر إليه، فهذا الفناء فيه نقص، فإن شهود الحقائق على ما هي عليه، وهو شهود الرب مدبرا لعباده آمرا بشرائعه أكمل من شهود وجوده أو صفة من صفاته أو اسم من أسمائه، والفناء بذلك عن شهود ما سوى ذلك)[3]

وقال في موضع آخر :(... وهذا فناء عن ذكر السوى وشهوده وخطوره بالقلب، وهذا حال ناقص يعرض لبعض السالكين، ليس هو الغاية، ولا شرطا في الغاية، بل الغاية الفناء عن عبادة السوى ... وهو حال ابراهيم ومحمد الخليلين ــ صلى الله عليهما وسلم ــ فإنه قد ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ من غير وجه أنه قال :(إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا)[4].. وحقيقة هذا الفناء هو تحقيق الحنيفية، وهو إخلاص الدين لله وهو أن يفني بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبمحبته عن محبة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه، وبالحب فيه والبغض فيه عن الحب فيما سواه والبغض فيه، فلا يكون لمخلوق من المخلوقين لا لنفسه ولا لغير نفسه على قلبه شركة مع الله تعالى)[1]

فهذه النصوص وغيرها تدل على أن حال الفناء الذي تحدث عنه أهل الله حال معتبر عند هذين العالمين

---

(1) مدارج السالكين: ٣٦٩/٣.
(2)مدارج السالكين: ٣٦٩/٣.
(3) مجموع الفتاوى: ٣٣٧/١٠.
(4) رواه الحاكم.
(1) الرد على المنطقيين: ٥١٧.

الجليلين، وأن ما يدعيه من يدعي صحبتهما من الدعاوى لا دليل عليه، وهو محض أحقاد تمتلئ بها النفوس، لا علم معتبر يمكن أن يناقش.

قلت: ولكنه ذكر نقص هذه الحال.

قال: المتوقف عند هذه الحال والمستلذ لها لا شك في نقصه .. فهو قد انقطع به الطريق ... أو لم يفهم الغاية منه ... فالخالع للكون الفاني لن يفهم مراد الله من رسائل الكون حتى يعيد لبسه من جديد، باسم الله، لا باسمه الذي لا وجود له.

ولكن استنقاص العارفين المتحدثين عن هذه الحال غير صحيح ... ومقارنتهم في ذلك بالسلف الصالح من الصحابة وغيرهم، واعتبار كلامهم بدعة بسبب ذلك أبعد عن الصواب.

ذلك أن الكلام في هذه المسألة يشبه الكلام في التفسير والفقه ... وغيرها من علوم الشريعة.

فكلام المفسر في تفسير غريب القرآن ربما يكون بدعة لم يخض فيها السلف، لا لكونها بدعة، ولكن لكون ذلك الغريب كان مشهورا غير غريب عندهم.

والكلام في دقائق الفقه، وتقسيمه إلى سنن وفرائض وموانع وأسباب وغير ذلك بدعة بالنسبة لفقهاء الصحابة ... فلم تدعهم الحاجة في وقتهم إلى مثل هذه المصطلحات.

وهكذا الأمر في هذا الباب ...

فأهل الله الذين اختصوا بالبحث في هذا الجانب، ودرسوا الأحوال التي يمر بها السالك في رحلته إلى الله لاحظوا هذه المرحلة الخطيرة والمهمة، فلذلك تحدثوا عنها بصنوف من الأحاديث ...

منها ما يرغب فيها، ويعتبرها قمة من قمم السلوك ... وهو صحيح ... لأن من وصل إليها بدأ البداية الصحيحة ... والبداية الصحيحة لابد أن توصل إلى النهاية الصحيحة.

وليس ذلك نقصا ... وليس القيام بأداء ظواهر العبودية أكمل من هذا ...

ذلك أن تلك الظواهر قد يقوم بها من لا حال له، بل من لا إيمان له.

أما كلام العارفين فهو في أحوال الباطن، وهي أحوال دقيقة تستدعي تفاصيل دقيقة، كتلك التفاصيل التي يتحدث فيها الفقهاء عن دقائق الفقه، ما يقع منها وما لا يقع.. و لم يقل أحد من الناس أن كلام الفقهاء في هذا قصور عن درجة الصحابة.

ولكن العارفين مع هذا ينبهون إلى السالكين إلى عدم الوقوف مع أي حال، وهم يرددون لهم في كل حين قوله تعالى :﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ (النَّجم:٤٢)

قلت: هذا العلم .. فحدثني عن الحال؟

قال: الحال هو الركن الركين للتوكل .. كما أن الحال هو الركن الركين لجميع المقامات، ذلك أنه الواسطة بين العلم والعمل، وهو صفة في النفس راسخة تدعو إلى إلى ما يقتضيه العلم.

وبما أنه حال قلبي، فقد اختلفت عبارات أهل الله في التعبير عنه .. أما سرى السقطى، فقال:(التوكل: الانخلاع من الحول والقوة)

وأما ابن مسروق، فقال :(التوكل: الاستسلام لجريان القضاء فى الأحكام)
وقال سهل : (التوكل: الاسترسال بين يدى الله تعالى)
وقال أبوعبد الله القرشى :(التوكل: ترك الإيواء إلا إلى الله)
وقال أبو أيوب :(التوكل: طرح البدن فى العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية)
وقال الجنيد :(حقيقة التوكل أن يكون لله تعالى كما لم يكن، فيكون الله له كما لم يزل)
وقال الشبلى :(التوكل كدية حسنة)
و لم يستطع آخرون أن يعبروا عن حالهم، فقالوا:(التوكل سر بين العبد وبين الله)
قلت: وما قال لسان التحقيق في هذا؟
قال: تقصد أبا حامد؟
قلت: أجل .. ألم تذكر أنه حقق كلام أهل الله، وصنفه ورتبه على أساليب المتكلمين؟
قال: أجل .. وقد بدأ في وصفه من اشتقاقه .. فالتوكل مشتق من الوكالة، يقال: وكَّل أمره إلى فلان أي فوضه واعتمد عليه فيه، ويسمى الموكول إليه وكيلاً، ويسمى المفوض إليه متكلاً عليه ومتوكلاً عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به، و لم يتهمه فيه بتقصير و لم يعتقد فيه عجزاً وقصوراً، فالتوكل ــ بهذا ــ عبارة عن اعتماد القلب وعلى الوكيل وحده.

وقد ضرب لهذا مثلا بالوكيل في الخصومة، فقال: من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبيس، فوكل للخصومة من يكشف ذل التلبيس لم يكن متوكلاً عليه ولا واثقاً به ولا مطمئن النفس بتوكيله إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور: منتهى الهداية، ومنتهى القوة، ومنتهى الفصاحة، ومنتهى الشفقة.

أما الهداية، فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء أصلاً.

وأما القدرة والقوة، فليستجرئ على التصريح بالحق، فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يجبن، فإنه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به.

وأما الفصاحة، فهي ــ أيضاً ــ من القدرة في اللسان على الإفصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه وأشار إليه: فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس.

وأما منتهى الشفقة، فيكون باعثاً له على بذل كل ما يقدر عليه في حقه من المجهود، فإن قدرته لا تغني دون العناية به إذا كان لا يهمه أمره ولا يبالي به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك.

فإن كان شاكاً في الأربعة، أو في واحدة منها، أو جوز أن يكون خصمه في هذه الأربعة أكمل منه، لم تطمئن نفسه إلى وكيله، بل بقي مترعج القلب، مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه، ويكون تفاوت درجة أحواله في شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه.

وبما أن الاعتقادات والظنون في القوة والضعف تتفاوت تفاوتا لا ينحصر، فلا جرم تتفاوت أحوال

المتوكلين في قوة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه، كما لو كان الوكيل والد الموكل، وهو الذي يسعى لجمع الحلال والحرام لأجله، فإنه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية، فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعية، وكذلك سائر الخصال يتصور أن يحصل القطع به، وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لساناً وأقدرهم بياناً على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق.

قلت: هذا مثال جيد .. وهو أيسر فهما على قومي، فهم كثيرا ما يحتاجون إلى توكيل المحامين .. وهم لا يطلبون منهم إلا من تحققت له الكمالات التي تهيئه لهذه الوظيفة .. وهم في أحيان كثيرة يقتنعون بدون ما ذكره الغزالي بكثير.

قال: إذا عرفت هذا، فقس عليه التوكل على الله تعالى، فإن ثبت في نفسك اعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله ــ كما علمت في الركن الأول من أركان التوكل ــ واعتقدت ــ مع ذلك ــ تمام العلم والقدرة على كفاية العباد، ثم تمام العناية والعطف والرحمة بجملة العباد والآحاد، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة، ولا وراء منتهى علمه علم، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة، اتكل لا محالة قلبك عليه وحده، و لم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

قلت: ما بال الناس .. كلهم يعتقدون ما ذكرت .. ولكنهم لا يجدون ما تذكر من أحوال؟

قال: لقد أعاد الغزالي ذلك إلى أحد أمرين: إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة، وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه، فإن القلب قد يترعج تبعاً للوهم وطاعة له عن غير نقصان في اليقين، فإن من يتناول عسلاً، فشبه بين يديه بنجاسة ربما نفر طبعه وتعذر عليه تناوله مع كونه عسلا.

ولهذا، فإن التوكل لا يتم إلا بقوة القلب، وقوة اليقين جميعاً، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته، فالسكون في القلب شيء، واليقين شيء آخر، فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم ﷺ: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ (البقرة: من الآية ٢٦٠)، فالتمس أن يكون مشاهداً إحياء الميت بعينه ليثبت في خياله، فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة؛ وذلك لا يكون في البداية أصلاً، وكم من مطمئن لا يقين له.

قلت: علمت هذا، وأيقنت به .. فما درجات الناس فيه؟

قال: كثيرة .. لا يمكن حصرها .. ولكن مجامعها التي ذكرها الغزالي ثلاث:

أما الدرجة الأولى، فما وصفته لك من توكيل المخاصمين للمحامين، وثقتهم فيهم، فيكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل.

وأما الدرجة الثانية، وهي أقوى: فهي أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها، ولا يفزع إلى أحد سواها، ولا يعتمد إلا عليها، فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها و لم يخلها، وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه: (يا أماه)، وأول خاطر يخطر في قلبه، فإنها مفزعة، لأنه قد وثق

بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له .. فمن كان باله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه كلف به كما يكلف الصبي بأمه فيكون متوكلاً حقاً: فإن الطفل متوكل على أمه، والفرق بين هذا وبين الأول: أن هذا متوكل وقد فني في توكله عن توكله، إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته، بل إلى المتوكل عليه فقط، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه، وأما الأول فيتوكل بالتكلف والكسب، وليس فانياً عن توكله، لأن له التفاتاً إلى توكله وشعوراً به، وذلك شغله صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده.

وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل: ما أدناه؟ قال: ترك الأماني، قيل: وأوسطه؟ قال ترك الاختيار، وهو إشارة إلى الدرجة الثانية، وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال: لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه.

أما الدرجة الثالثة وهي أعلى الدرجات، فهي أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل، لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتاً تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت، وهو الذي قوي يقينه بأن الله تعالى هو مجري الحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات ..

قلت: فما الفرق بين هذا والذي قبله؟

قال: فرق عظيم .. فالصبي يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها، أما هذا، فهو مثل صبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه، فالأم تطلبه، وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه، فالأم تحمله، وإن لم يسألها اللبن فالأم تفاتحه وتسقيه.

قلت: إن ما وصل إليه الغزالي من تحقيقه في التوكل جعل نهايته هي نهاية المفرطين الذين انشغلوا بالله عن الأسباب .. فراحوا يتركون الأسباب انشغالا بالله.

قال: أهل الله أعمق علما، وأحكم حكمة من أن يقعوا في مثل هذه المهالك ..

إن ما ذكره الغزالي وجميع أهل الله من هذه الحال العظيمة لا يعني ما ذكرت .. إنها أحوال إيمانية يمتلئ بها القلب .. أما الجوارح، فإنها لا تترك ما أنيط بها من وظائف .. بل هي تؤديها عبودية خالصة لله .. وهي تعلم أن الله هو الفاعل والمؤثر ..

لقد قال الغزالي عند ذكره **لأعمال المتوكلين** :(اعلم أن العلم يورث الحال، والحال يثمر الأعمال، وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وكاللحم على الوضم، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين؟)[1]

وقبله قال الحكيم الترمذى (ت:٣٢٠هـــ) فيمن ترك الطلب والسعى، وتواكل بحجة أن الرزق يطلب العبد كما يطلبه أجله:(إن كانوا قعدوا ينبغى لهم أن يقوموا وأن يطلبوا، تحرزا من الطمع وفساد القلب، فلا يضيع حق الزوجة والولد، برغم أن أرزاقهم على اللّه، فهذا تارك للسبيل والسنة، لقوله تعالى :﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ

(١) الإحياء: ٤/٢٦٥.

لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة: من الآية٢٣٣)[1]

وقبلهما قال سهل بن عبد اللّه (ت:٢٩٣هـ):(من طعن فى الحركة ، فقد طعن فى السنة، ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان، والتوكل حال النبى ﷺ، والكسب سنته، فمن بقى على حاله فلا يتركن سنته)[2]

قلت: إن ما ذكرته عن الغزالي وهؤلاء الأولياء الكبار عظيم، وهو يفند كل شبهة في هذا الباب .. ولكني مع ذلك سمعت أن بعض من ينسب لأهل الله يقعون في أعمال من ترك الأسباب، وهم يفسرون بها التوكل، ويسيئون إليه أعظم إساءة.

قال: ولذلك بنى أهل الله هذا المترل، ليدخلوا المريدين فيه إلى ممالك التوكل، ويحموهم من مهالكه .. وهذا الذي ذكرته من مهالكه.

لم أجد إلا أن أسرع إلى هذا المترل المبارك، فأدخله، ويدخل معي إليه شيخي فيه ومرشدي (الخواص) ، وقد رأيته مترلا ممتلئا بالبركات، وفيه من أنوار الإيمان واليقين، ومن حقائق السلام والسكينة ما لا يمكن للسان أن يعبر عنه.

الشكر:

مكثت مدة في مترل التوكل أتتلمذ على أهله، وأتدرب على أيديهم، وأحصل من العلوم ما أحتاج إليه لتحقيقه، حتى سكنت إليه سكونا كليا، وقلت في نفسي :(هذه هي داري التي كنت أبحث عنها، وفيها يطيب مقامي)

ما قلت ذلك في نفسي حتى جاءني أمر من شيخي (أبي مدين) يطلب مني أن أذهب إلى صاحبي السادس (الجنيد)، لأترقى على يديه إلى مقام (الشكر)، وأنزل مترله.

لم أجد إلا أن ألبي أمر شيخي .. فسرت إلى الجنيد الذي كان ينتظرني، وكأني معه على ميعاد، فما إن اقتربت منه حتى قال لي: هيا بنا إلى مترل الشكر .. فلا سار من لم يترل ذلك المترل ..

قلت: إن السائرين إذن قليل.. فقد قال الله تعالى :﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سـبأ: من الآية١٣)؟

قال: الواصلون قليل .. أما السائرون .. فمنهم من يسير إلى منازل الملك، ومنهم من يسقط في مهاوي الهلك.

قلت: فما العاصم الذي يعصمنا من الهلك؟

قال: من تمسك بالملك، وبمن يرسله الملك، فلم يخطو خطوة إلا بحسب إشارته، وبعد إذنه وصل لا محالة إلى منازل الملك، ومن امتلأت نفسه بالأهواء، فراح يعرض عن رسول الملك، فإنه لا محالة سيقع في مهاوي الهلك.

قلت: ذكرتني بالشهود العدول .. فحدثني عن الشهود العدول الذي يشهدون لهذا المترل.

قال: أما القرآن الكريم .. فقد تحدث عن الشكر آمرا وحاثا، كما تحدث عنه مثنيا ومرغبا:

([1]) آداب المريدين وبيان الكسب، للحكيم الترمذى، ص١٦٨.

([2]) طبقات الصوفية، ص٤٦٥.

أما حديثه عن الشكر آمرا وحاثا، فمنه قوله تعالى :﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة:١٥٢)، وقوله :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة:١٧٢)، وقوله :﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (النحل:١١٤)

وأخبر تعالى أن الغرض من تصريف الآيات وبث النعم هو لفت القلوب إلى شكر مولاها، فقال :﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (لأعراف:٥٨)، وقال :﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (لأنفال:٢٦)، وقال:﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة:٥٢)، وقال:﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة:٥٦)، وقال:﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (آل عمران:١٢٣)، وقال:﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾ (النساء:١٤٧)، وقال :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ (البقرة:٢٤٣)، وقال :﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (لأعراف:١٠)، وقال :﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ (يونس:٦٠)، وقال:﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:١٤)، وقال :﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:٧٨)، وقال :﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (المؤمنون:٧٨)، وقال:﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ (النمل:٧٣)، وقال :﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص:٧٣)، وقال :﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الروم:٤٦)، وقال :﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة:٩)، وقال :﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (فاطر:١٢)، وقال :﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ (غافر:٦١)، وقال :﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الجاثـــية:١٢)

ومثل نعم الله الكونية نعمه التشريعية، فالغرض منها ـــ أيضا ـــ كالغرض من نعم الله الكونية، وهو تحريك القلب لشكر الله، قال تعالى عن الصيام :﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ

الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (البقرة:١٨٥)، وقال عن الطهارة:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (المائدة:٦)، وقال عن أحكام اليمين:﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (المائدة:٨٩)، وقال عن المناسك :﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (الحج:٣٦)

وأخبر أن هذا هو مقام أهل الله من أنبياء الله ورسله وأوليائه، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام :﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) (ابراهيم:٣٧)، وقال عن يوسف عليه السلام :﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ) (يوسف:٣٨)، وقال عن سليمان عليه السلام :﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) (النمل:١٩)، وقال عنه :﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (النمل:٤٠)، وقال عن لقمان عليه السلام :﴿)وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) (لقمان:١٢)

وأخبر عن الفضل العظيم الذي خصصه لأهل هذا المترل العظيم، فقال :﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (ابراهيم:٧)

قلت: هذا الشاهد الأول .. وهو الشاهد الأعظم .. فحدثني عن الشاهد الثاني، ذلك ﴿ الذي مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (النجم)؟

قال: لقد وردت الروايات الكثيرة تحدث عن دعوة النبي ﷺ ــ بفعله وقوله ــ لهذا المقام العظيم من مقامات الدين .. ففي الحديث قال ﷺ :(من أكل من طعام، فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن لبس ثوبا جديدا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)[1]

وروي أن عمر ــ رضي الله عنه ــ لبس ثوبا جديدا، فقال :(الحمد لله الذي كساني ما أواري به

([1]) رواه أبو داود والحاكم، وليس في رواية الحاكم (وما تأخر)

عورتي، وأتجمل به في حياتي)، ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:(من ليس ثوبا جديدا، فقال: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي، وأتجمل به في حياتي، ثم عمد إلى الثوب الذي خلق فتصدق به، كان في كنف الله، وفي حفظ الله، وفي ستر الله حيا وميتا)[1]

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ :(ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من الله إلا كتب الله له شكرها قبل أن يحمده عليها، وما أذنب عبد ذنبا فندم عليه إلا كتب الله له مغفرته قبل أن يستغفره، وما اشترى عبد ثوبا بدينار أو نصف دينار فلبسه فحمد الله عليه إلا لم يبلغ ركبتيه حتى يغفر الله له)[2]

وقال رسول الله ﷺ :(كل أمرٍ ذي بالٍ لا يبدأ فيه بـــ: الحمد لله، فهو أقطع)[3]

وقال رسول الله ﷺ : (إذا مات ولدُ العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: فماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد)[4]

وقال رسول الله ﷺ :(إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة، فيحمده عليها)[5]

وقال رسول الله ﷺ :(خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكرا صابرا، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكرا ولا صابرا ، من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به ، ونظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه كتبه الله شاكرا صابرا ، ومن نظر في دينه إلى من هو دونه ، ونظر في دنياه إلى من هو فوقه فاسف على ما فاته منه لم يكتبه الله لا شاكرا ولا صابرا)[6]

وقال ﷺ :(الطاعم الشاكر بمترلة الصائم الصابر)[7]

وقال ﷺ :(قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما ذكرتني شكرتني وإذا ما نسيتني كفرتني)[8]

وقال ﷺ :(قال موسى يا رب كيف شكرك ابن آدم ؟ فقال : علم أن ذلك مني ، فكان ذلك شكره)[1]

وقال ﷺ :(قلب شاكر ولسان ذاكر وزوجة صالحة تعينك على أمور دنياك ودينك خير ما اكتتر الناس)[2]

وقال ﷺ :(لأنا أشد عليكم خوفا من النعم مني من الذنوب ، ألا إن النعم التي لا تشكر هي الحتف

---

(1) رواه الترمذي وغيره، وفي رواية للبيهقي :(ثم عمد إلى ثوبه الخلق فكساه مسكينا لم يزل في جوار الله وفي ذمة الله وفي كنف الله حيا وميتا ما بقي من الثوب سلك)

(2) رواه ابن أبي الدنيا والحاكم والبيهقي.

(3) رواه أبو داود وغيره.

(4) رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ.

(5) رواه مسلم.

(6) رواه الترمذي.

(7) رواه أحمد والترمذي وأبو داود والحاكم.

(8) رواه الطبراني في الأوسط.

(1) رواه الحكيم عن الحسن مرسلا.

(2) رواه البهقي.

القاضي)[1]

وقال ﷺ :(هذا والذي نفسي بيده ، من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة : ظل بارد ، ورطب طيب ، وماء بارد)[2]

وقال ﷺ :(إن عبدا من عباد الله قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك ، فأعضلت بالملكين ، فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء ، فقالا : يا ربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها؟ فقال الله عزوجل ــ وهو أعلم بما قاله عبده ـــ: ماذا قال عبدي ؟ قالا : يا رب إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني عبدي فأجزيه بها)[3]

قلت: عرفت فضل الشكر .. فقد ملأتنا هذه النصوص المقدسة ترغيبا فيه .. فما هو الشكر؟ .. هل هو تلك الكلمات التي تقولها ألسنتنا، وقلوبنا غافلة عن معناها؟ .. أو هو معاني معينة في القلب .. وما هي تلك المعاني؟ .. ولم حكم الله بقلة الشاكرين؟ .. ولم كانت لهم الزيادة دون غيرهم؟ .. ولم كان هذا مقاما من مقامات التقديس؟ .. ولم..

قاطعني، وقال: رويدك .. ليس في هذا المحل تتعلم هذه العلوم .. علوم الشكر لا تنال إلا في منازل الشكر.

قلت: لكني تعودت أن لا أدخل محلا حتى أكون عارفا بأصوله .. فما أصوله؟

قال: لقد ذكر أهل الله ــ الذين مزجوا بين الفهوم الراقية للنصوص المقدسة، مع التجربة الروحية العالية ــ هذه الأصول، ورتبوها كما ترتب العلوم، فصار للشكر علما قائما بذاته له أصوله وفروعه وكل ما يرتبط به من أحكام.

قلت: لكني لا أرى هذا العلم يدرس؟

قال: تلك الغفلة .. الغفلة التي جعلتنا نهتم بنواقض الطهارة أكثر من اهتمامنا بنواقض الشكر.

قلت: فما الحل؟

قال: الرجوع إلى الورثة الذين عرفوا هذا الدين .. وفهموه .. وعاشوه .. ثم ذهبوا بعد ذلك كله يملأون المصنفات نصحا لعباد الله.

قلت: لقد حدثني من قبلك عن لسانهم الغزالي في تحقيقاته، فهل تراك تحدثني كما حدثوني؟

قال: لا يمكن أن يتحدث أحد في هذا الباب دون أن يذكر الغزالي .. فقد جمع كلام من سبقه في هذه المقامات، ونقحه وحققه .. فصار كلامه شاملا لكل كلام، مهيمنا على كل كلام.

قلت: لقد ذكر لي من قبلك أن كل مقام ينتظم من علم وحال وعمل.

---

(1) رواه ابن عساكر عن المنذر بن محمد ابن المنذر بلاغا.
(2) رواه الترمذي.
(3) رواه ابن ماجة.

قال: وهكذا الشكر .. فكل شيء ينتظم من علم وحال وعمل ..

قلت: فما علم الشكر؟

قال: لقد ذكر الغزالي أنه ينتظم من ثلاثة أمور: عين النعمة، ووجه كونها نعمة في حقه، وبذات المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه.

قلت: هذا ما تقتضيه القسمة العقلية، ذلك أنه في كل نعمة من النعم لابد من هذه الثلاثة: نعمة، ومنعم، ومنعم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة.

قال: هذا في الشكر عموما .. أما في حق الله تعالى، فلا يتم الشكر إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله تعالى، وأنه هو المنعم الوحيد، وأن الوسائط مسخرون من جهته.

وتتأسس هذه المعرفة على التقديس، وذلك بأن يعرف أن الله هو القدوس، وأنه لا مقدس إلا واحد، وما عداه غير مقدس .. ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط، فالكل نعمة منه، فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة، إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد: كمال القدرة والانفراد بالفعل.

وقد عبر رسول الله ﷺ عن هذا، فقال:(من قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر كتب له بكل حرف عشر حسنات)[1]، وقال :(أفضل الذكر لا اله الا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله)[2]، وقال :(والحمد لله تملأ الميزان)[3]

فسبحان الله كلمة تدل على التقديس، ولا إله إلا الله كلمة تدل على التوحيد، والحمد لله كلمة تدل على النعمة من الواحد الحق .. والحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين.

وتمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء، فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلاً في تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به في النعمة، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه، بل منه بوجه ومن غيره بوجه، فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحداً في حق الملك. نعم لا يغض من توحيده في حق الملك وكمال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقلمه وبالكاغد الذي كتبه عليه، فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما، لأنه لا يثبت لهما دخلاً من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك.

وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضاً مضطران من جهة الملك في الإيصال، وأنه لو رد الأمر إليه و لم يكن من جهة الملك إرهاق وأمر جازم يخاف عاقبته لما سلم إليه شيئاً، فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل كنظره إلى القلم والكاغد، فلا يورث ذلك شركاً في توحيده من إضافة النعمة إلى الملك.

وهكذا، فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر إذ سلط الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعي! وألقى في نفسه أن خيره في الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك، وأن غرضه المقصود عنده في الحال

---

(1) رواه ابن أبي الدنيا بإسناد لا بأس به.

(2) رواه الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان.

(3) رواه مسلم.

والمآل لا يحصل إلا به.

وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلاً إلى تركه، فهو إذن إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك، ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك، ولو لم يعلم أن منفعته في منفعتك لما نفعك، فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه فليس منعماً عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها، وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والإرادات ما صار به مضطراً إلى الإيصال إليك.

فإن عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله، وكنت موحداً وقدرت على شكره، بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكراً، ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته :(إلهي خلقت آدم بيدك وفعلت فكيف شكرك؟) فقال الله عز وجل: (علم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكراً)

قلت: وعيت هذا، فلا يشكر إلا من أفرد الله بالشكر، واعتقد أن الخير كله بيده .. فما يثمر هذا من الأحوال؟

قال: لقد اختلفت تعابير أهل الله عن تلك الحال اللذيذة التي يجدونها عند حصول هذه المعرفة في قلوبهم .. أما أبو على الروذبارى، فراح ينشد:

لو كل جارحة مني لها لغة ... تثني عليك بما أوليت من حسن
لكان ما زاد شكرى إذ شكرت به ... إليك أزيد فى الإحسان والمنن

ومثله أبو الحسن النورى الذي قال:

سأشكر لا أنى لا أجازيك منعما ... بشكرى ولكن كى يقال له الشكر
وأذكر أيامى لديك وحسنها ... وآخر ما يبقى على الشاكر الذكر

وقال يحيى بن معاذ :(لست بشاكر مادمت تشكر، وغاية الشكر التحير، وذلك أن الشكر نعمة من الله يجب الشكر عليها وهذا لا يتناهى)

وقال حمدون القصار :(شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيليا)

وقال أبو عثمان :(الشكر معرفة العجز عن الشكر)

وقال الجنيد :(الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة)

قلت: فما قال لسان التحقيق؟

قال: لقد ضرب مثالا مقربا لحال الشاكر، ومنه يمكن تقسيم أحوال الشاكرين ودرجاتهم، فذكر أن الملك الذي يريد الخروج إلى سفر، فيهدي فرسا لبعض الناس .. فإن هؤلاء الناس سينقسمون في فرحهم بالفرس إلى ثلاثة أقسام:

أما القسم الأول، فيفرحون بالفرس من حيث أنه فرس، وأنه مال ينتفع به، ومركوب موافق لأغراضهم، وإنه جواد نفيس .. وهذا فرح من لاحظ له في الملك، بل غرضه الفرس فقط، ولو وجده في صحراء فأخذه، لكان فرحه مثل ذلك الفرح.

أما القسم الثاني، فيفرحون به لا من حيث إنه فرس، بل من حيث يستدلون به على عناية الملك بهم، وشفقته عليهم واهتمامه بجانبهم، ولو وجد هؤلاء هذا الفرس في صحراء أو أعطاهم إياه غير الملك لكانوا لا يفرحون به أصلاً لاستغنائهم عن الفرس أصلاً أو استحقارهم له بالإضافة إلى خلوه من نيل المحل في قلب الملك.

أما القسم الثالث، فيفرحون به لأجل الخروج به في خدمة الملك، فيتحملون مشقة السفر لينالوا بخدمته القرب منه، وهم لا يريدون من ذلك إلا مشاهدة الملك والقرب منه، حتى لو خيروا بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختاروا القرب.

قلت: عرفت أحوال الشاكرين للملك الذي أهدى فرسا، فما حال الشاكرين لله الذي أعطى من النعم ما لا يحصى؟

قال: هم كذلك ثلاثة .. وبينهما درجات لا يعلمها إلا الله:

أما الأولون، فحالهم كحال الذي يفرح بالفرس لا بالمعطى، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه، وهو بعيد عن معنى الشكر.

وأما الثانية، فهي داخلة في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم، ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحثه على الإنعام في المستقبل، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفاً من عقابه ورجاءً لثوابه.

أما الشكر التام فهو في الفرح الثالث، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والترول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام، فهذا هو الرتبة العليا، وأمارته أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله، لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة كما يريد صاحب الفرس الفرس أنه جواد ومهملج، بل من حيث إنه يحمله في صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه، ولذلك قال الشبلي رحمه الله: (الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة)، وقال الخواص :(شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب، وشكر الخاصة على واردات القلوب)

قلت: وعيت هذا، فما **الأعمال** التي تثمرها هذه الأحوال؟

قال: لقد عبر الشاعر عن ذلك وأحسن، فقال:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

وقد قيل للجنيد ــ وهو ابن سبع سنين ــ : يا غلام ما الشكر؟ فقال : (أن لا يعصى الله بنعمه)

قلت: ما يعني هذا؟

قال: من فرح بشيء فرحا استولى على كيانه، فإنه لا محالة سيتحرك بموجب ما يهديه إليه فرحه .. فمن فرح بمركوب ركبه، ومن فرح بمأكول أكله .. ومن فرح بشيء ارتبط به.

وهكذا فرح من رأى نعم الله عليه، فإنه لا محالة يستعملها .. ولكن الفرق بين استعماله لها واستعمال غيره هو أنه يستعملها في طاعة مولاه الذي أهداها له .. فلا يحق لمن أهديت له هدية أن يستعملها في مضادة من أهداها له.

قلت: فاضرب لي أمثلة على ذلك.

قال: شكر القلب ــ مثلا ــ وهو تصور النعمة، والاعتراف بها للمنعم، والعزم على طاعته، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ :(عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له)[1]

وشكر اللسان ــ مثلا ــ هو الثناء على المنعم بفضله، وفي ذلك حدث زيد بن خالدٍ ــ رضي الله عنه ــ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر سماءٍ كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قالَ: (أصبح من عبادي مؤمنٌ بي، وكافرٌ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب)[2]

وهكذا شكر سائر الجوارح، فشكرها هو مكافأة النعمة بفعل الجوارح من خلال خضوعها واستجابتها لأمر الله تعالى ونهيه ، كما قال تعالى :﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)(سبأ: من الآية١٣)

وفي الحديث عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: (أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً؟)[3]

وفي حديث آخر عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء ، فقال لهم : ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ قالوا: هذا يوم عظيم ، أنجى الله فيه موسى وقومه ، وأغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شكرا ، فنحن نصومه ، فقال ﷺ :(نحن أولى بموسى منكم)، وصامه ﷺ، وأمر بصيامه ، فلما هاجر إلى المدينة صامه وأمر بصيامه ، فلما فرض شهر رمضان ، قال : (من شاء صامه، ومن شاء تركه)[1]

قلت: سلمت بهذا، ووعيته .. ولكن شبهة ترد على خاطري .. وربما ترد على خواطر الكثير، وهي أن في الشكر حظا للمشكور، فإنا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم في القلوب، ويظهر كرمهم عند الناس،

---

(1) رواه مسلم.
(2) رواه البخاري ومسلم.
(3) رواه البخاري ومسلم.
(1) رواه البخاري ومسلم.

فيزيد به صيتهم وجاههم، أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم، أو بالمثول بين أيديهم في صورة الخدم، وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم.. وبما أن الله غني عن عباده غنى مطلقا، فكيف يطلب منا أن نشكره، وكيف يعتبر الشكر مقاما من مقامات الوصول إليه؟

قال: تعالى الله عن الحظوظ .. فالله هو الغني الحميد، وكل ما نفعله ليس إلا لمصالحنا .. فالله الكريم الجواد الحكيم اللطيف بعباده، اقتضى جوده وحكمته أن يرتبا لطفه بعباده على أسباب من العبادة والسلوك .. وليس لله من ذلك شيء.

لقد قال رسول الله ﷺ في الحديث القدسي يشير إلى ذلك :(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضالٌ إلا من هديته؛ فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائعٌ إلا من أطعمته؛ فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني فأعطيت كل إنسانٍ مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)[1]

قلت: شبهة أخرى تعرض لي، كما تعرض لغيري .. ولست أدري الجواب فيها .. أنا أعلم أن كل ما نتعاطاه باختيارنا نعمة من نعم الله، إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعيتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته.. فكيف نشكر نعمة بنعمة، وهل يمكن أن يشكر أحد نعمة بنعمة أخرى؟

قال: لقد خطر هذا الخاطر لداود وموسى ــ عليهما السلام ــ فقال كلا منهما لله: يا رب كيف أشكرك، وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك؟ فأوحى الله تعالى إلى كل منهما: (إذا عرفت هذا فقد شكرتني)

كنا نسير، ونحن نتحدث هذه الأحاديث .. وكانت الطريق المؤدية إلى مترل الشكر في منتهى الجمال، فالأزهار تحيط بها من كل جانب .. والروائح العطرة تملؤنا بنشوة إيمانية عظيمة .. وفوق ذلك كانت الطيور تحلق فوق رؤوسنا، لتمتعنا بأجمل ما وهبها الله من ألحان.

ما إن وصلت مع الجنيد إلى مترل الشكر حتى وجدتني مستغرقا استغراقا كليا في مشاهدته والتنعم بجماله .. لقد كان مترلا لا يمكن لأحد في الدنيا أن يصفه .. ولذلك غفلت عن صاحبي، ورحت أسرع في الدخول إليه .. وقد وجدت في داخله ما لا تسع بحار الدنيا التعبير عنه.

---

(1) رواه مسلم.

الصدق:

بعد أن مكثت ما شاء الله لي أن أمكث في مترل الشكر جاءني أمر من شيخي أبي مدين بأن أسير صحبة أبي يزيد البسطامي إلى مترل الصدق .. فلم أجد إلا أن أطيعه .. فسرت إلى أبي يزيد .. وقد كان أول ما قال لي أبو يزيد: أجئت تطلب مقام الأنبياء؟

قلت: لا طاقة لي بهذه التعابير .. فكف عني يا أبا يزيد .. وحدثني بما يعرفه الناس، فإني لا أريد للساني أن يقع في أي شطحة من الشطحات.

قال: لقد وصف الله أنبياءه بالصديقية .. ولذلك فالمتحقق بالصدق عندنا متحقق بمقام من أعظم مقامات الأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ لقد قال الله تعالى في إبراهيم عليه السلام :﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً) (مريم:٤١)، وقال في إدريس عليه السلام :﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً) (مريم:٥٦)، وقال في إسماعيل عليه السلام :﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً) (مريم:٥٤)، وقال في يوسف عليه السلام :﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ)(يوسف: من الآية٤٦)

قلت: فما دام الأمر خاصا بالأنبياء .. فليس لي حق في أن أطلب ما لا يكون.

قال: إن الأنبياء هم محل القدوة .. والله لم يرسلهم إلا لنسير على خطاهم ونهتدي بهديهم، ألم تسمع قوله ﷺ :(من قرأ القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين جبينه غير أنه لا يوحى إليه)[1]؟

قلت: بلى .. وصدق رسول الله ﷺ .

قال: وهكذا الصدق .. فمن كان له حظ من الصدق كان له حظ من النبوة ..

قلت: لم أسمع النص يذكر هذا ..

قال: لا بأس .. فلنترك هذا .. فقد ورد في النصوص المقدسة اعتبار الصادقين من أرفع الناس درجة .. قال الله تعالى :﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) (الحجرات:١٥)، وقال تعالى :﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) (الحشر:٨)، وقال تعالى :﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً) (الأحزاب:٢٣)

وأخبر تعالى بأن الغرض من أنواع البلاء هو تمحيص الصادقين وتمييزهم عن غيرهم، قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) (العنكبوت:٣)

وأخبر عن الجزاء العظيم المعد للصادقين، فقال :﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (المائدة:١١٩)

ولهذا كله أمر الله تعالى بالصدق، وبالكينونة مع الصادقين، فقال :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) (التوبة:١١٩)

---

(1) رواه الطبراني، وفيه إسماعيل بن رافع وهو متروك.

قلت: هذا الشاهد الأول .. فهات الشاهد الثاني.

قال: لقد وردت الروايات الكثيرة عن النبي ﷺ تبين فضل الصدق وعظم درجة الصادقين، فعن ابن مسعودٍ ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال: (إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)[1]

وعن الحسن بن علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ قال: حفظت من رسول الله ﷺ:(دع ما يريبك إلى ما لا يبريبك؛ فإن الصدق طمأنينةٌ، والكذب ريبةٌ)[2]

وعن سهل بن حنيفٍ ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ قال: (من سأل الله، تعالى، الشهادة بصدقٍ بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه)[3]

وعن حكيم بن حزامٍ ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ :(البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما)[4]

وعن عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما عمل الجنة؟ قال: الصدق، إذا صدق العبد بر، وإذا بر آمن، وإذا آمن دخل الجنة، قال: يا رسول الله، وما عمل النار؟ قال: (الكذب، إذا كذب العبد فجر، وإذا فجر كفر، وإذا كفر دخل النار)[5]

وحذر ﷺ في مقابل ذلك من الكذب، واعتبره من خصال المنافقين، فقال :(أربعٌ من كن فيهن كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلةٌ منهن، كانت فيه خصلةٌ من نفاقٍ حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)[6]

وقال ﷺ :(من تحلم بحلمٍ لم يره، كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل، ومن استمع إلى حديث قومٍ وهم له كارهون، صب في أذنيه الآنك يوم القيامة، ومن صور صورةً، عذب، وكلف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخٍ)[1]

قلت: وعيت هذا .. فحدثني عن الصدق .. أليس هو مطابقة كلامنا للواقع؟

قال: الكلام جزء من تصرفاتنا، ومطابقته للواقع لا تعدو مطابقة جزء من تصرفاتنا للواقع.. والصدق أخطر من ذلك بكثير.

قلت: فما مجالاته إذن؟

([1]) رواه البخاري ومسلم.
([2]) رواه الترمذي وقال: حديثٌ صحيحٌ.
([3]) رواه مسلم.
([4]) رواه البخاري ومسلم.
([5]) رواه أحمد من رواية ابن لهيعة.
([6]) رواه البخاري ومسلم.
([1]) رواه البخاري.

قال: لقد تحدث أهل الله عن الكثير من مجالاته .. وقد جمعها لسان تحقيقهم أبو حامد في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها.

فمن اتصف بالصدق في جميع هذه المعاني فهو صديق لأنه تحقق بالصدق في جميع معانيه .. ثم هم أيضاً على درجات، فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه.

قلت: فحدثني عن **صدق اللسان.**

قال: صدق اللسان هو أن يطابق القول الواقع .. سواء كان ذلك في الإخبار، أو فيما يتضمن الإخبار وينبه عليه.

وبما أن الخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، فإن الوفاء بالوعد والخلف فيه يدخل في هذا النوع من الصدق.

قلت: إن صدق اللسان معروف مشهور .. وأكثر الناس يحصر الصدق فيه .. فحدثني عن **صدق النية والإرادة.**

قال: النية الصادقة هي التي تتوجه إلى الله بصدق وإخلاص، فلا يكون لها من باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن مازجها شوب من حظوظ النفس بطل صدقها.

ولذلك ورد في حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار قوله ﷺ :(إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال : فما عملت فيها ؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال : كذبك ولكنك قاتلت ليقال فلان جريء ، فقد قيل ثم أمر ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فرفعها قال : قال: فما عملت فيها؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ومن قرآت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر بن فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر فسحب على وجهه حتى ألقي في النار)[1]

ولذلك قال تعالى عن المنافقين :﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون:١)، فمع أنهم قالوا (إنك لرسول الله)، وهذا صدق، ولكن كذبهم، لا من حيث نطق اللسان، بل من حيث ضمير القلب.

قلت: فحدثني عن **صدق العزم.**

قال: ألا ترى أن الإنسان قد يقدم العزم على العمل، فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالاً تصدقت بجميعه،

([1]) رواه مسلم عن أبي هريرة ، ورواه الترمذي بمعناه وقال في آخره :(ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي ، فقال : يا أبا هريرة : أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة)

أو بشطره .. أو إن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها و لم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق؟

قلت: بلى .. كلنا يقول ذلك.

قال: فهذه العزيمة قد يصادفها حقيقة من نفسه وهي ــ حينذاك ــ عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة.

قلت: وعيت هذا .. فحدثني عن **صدق الوفاء بالعزم.**

قال: قد تسخو النفس بالعزم في الحال .. إذ لا مشقة في الوعد والعزم .. ولكنه إذا حقت الحقائق، وحصل التمكن، وهاجت الشهوات، انحلت العزيمة، وغلبت الشهوات، و لم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه.

لقد قال الله تعالى يشير إلى هذا النوع من الصدق :﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب:٢٣)

لقد روي في هذا عن أنس قال: عمي أنس بن النضر سُميت به، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر، فشق عليه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبْتُ عنه، لئن أراني الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله ﷺ لَيَرَيَنَ الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، فاستقبل سعدَ بن معاذ فقال له أنس: يا أبا عمرو، أينْ، واهًا لريح الجنة أجده دون أحد، قال: فقاتلهم حتى قُتل قال: فَوُجد في جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته ــ عمتي الرُّبَيّع ابنة النضر ــ: فما عرفتُ أخي إلا ببنانه، قال: فنزلت هذه الآية :﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب:٢٣)، قال: فكانوا يُرَون أنها نزلت فيه، وفي أصحابه[1].

قلت: وعيت هذا .. فحدثني عن **صدق الأعمال.**

قال: هو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به ..

قلت: أتقصد أن لا يعمل حتى يأنس من نفسه الصدق في عمله؟

قال: لا .. لا أقصد أن يترك الأعمال الظاهرة .. ولكن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر.

قلت: فاضرب لي مثالا على ذلك.

قال: من قام في الصلاة ــ مثلا ــ على هيئة الخشوع في صلاته، وهو ليس يقصد به مشاهدة غيره، ولكن قلبه غافل عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله تعالى، وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته .. فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعراباً هو فيه كاذب.

ومثل ذلك من يمشي على هيئة السكون والوقار، وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار، فهذا غير صادق في عمله، وإن لم يكن ملتفتاً إلى الخلق ولا مرائياً إياهم.

وهكذا ..

قلت: إن ما ذكرته شديد .. فما المنجاة منه؟

([1]) رواه مسلم وغيره.

قال: بتعلم علوم الصدق .. وهي العلوم التي تجعل سريرته تستوي مع علانيته، فيكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره.

قلت: لقد ذكرتني بقول الشاعر:

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى فقد عز في الدارين واستوجب الثنا

فإن خالف الإعلان سراً فما له على سعيه فضل سوى الكد والعنا

فما خالص الدينار في السوق نافق ومغشوشه المردود لا يتقضى المنا

قال: لقد قال رسول الله ﷺ في دعائه يشير إلى هذا :(اللهم اجعل سريرتي خيراً من علانيتي واجعل علانيتي صالحة)[1]

قلت: وعيت هذا .. فحدثني عن **الصدق في مقامات الدين**.

قال: ذاك أعلى أنواع الصدق وأعزها .. فلجميع مقامات الدين من الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وغيرها .. مباد ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، والصادق المحقق من نال حقيقتها.

ولهذا قال تعالى في وصفه لأعمال:﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) (الحجرات:١٥)

قلت: فاضرب لي مثلا يقرب لي ذلك.

قال: سأضرب لك مثلا بالخوف من الله أو الخشية منه .. لا شك أنك تعرف أنه مقام من مقامات الدين؟

قلت: أجل .. وهو من مقامات التطهير .. وقد مررت على مترله.

قال: ألا ترى أنه ما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم، ولكن الحقيقة تجعل الخائفين الصادقين قلة قليلة جدا؟

قلت: كيف ذلك؟

قال: أما ترى حال أكثر هؤلاء إذا خافوا سلطاناً أو قاطع طريق، كيف تصفر ألوالهم، وترتعد فرائصهم، وتتنغص معيشتهم، ويتعذر عليهم الأكل والنوم .. وقد يترعجون عن الوطن فيستبدلون بالأنس وحشة، وبالراحة تعبا وبالمشقة تعرضا للأخطار؟

قلت: أجل .. وحق لهم ذلك .. فمثل هذا الخوف طبيعة لا يمكن الانفكاك عنها.

قال: ولكنهم مع لا يظهر عليهم عند ذكر النار وشدة عذابها ما يظهر عليهم عند ذكر اللصوص .. مع أن

([1]) رواه الترمذي.

النار أخطر وأعظم جلبا للخوف.

قلت: ذلك صحيح .. وقد ورد في الحديث قوله ﷺ :(ما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها)[1]

قال: ولذلك، فإن التحقيق في هذه الأمور عزيز جداً .. ولهذا، فإن الصادق هو الذي لا يثق في نفسه .. بل يسلمها لمن يثق فيه من أهل الله ليربيها ويهذبها ويجعلها صالحة لربها.

قلت: فهل أجد في هذا المترل من أهل الله من يدلني على هذا حتى أصحح من نفسي ما تدعيه؟

قال: هذا المترل هو مترل التصحيح .. وهو المترل الذي تكشف فيه الروح عن حقيقتها لتهذب وتصفى وتصبح صالحة لربها.

قلت: فهلم بي إليه ..

دخلت مترل الصدق .. وقد كان مترلا في منتهى الجمال والقوة واللذة .. ولولا ما جاءني من أمر شيخي أبي مدين لما خرجت منه.

المحبة:

بعد مكوثي مدة طويلة في مترل الصدق أتعلم علومه، وأتأدب بآدابه، جاءني أمر من شيخي أبي مدين لأرحل معه إلى مترل المحبة .. ذلك المترل الذي يتربع على أعلى قمة من قمم الجبال المحيطة بتلمسان.

ما إن دخلت على شيخي أبي مدين حتى أشار إلى قمة الجبل الذي بني فيه مترل المحبة، وقال: هلم بنا إلى ذلك المترل ..

قلت: لا طاقة لي بتسلق الجبال ..

قال: من لم يطق صعود الجبال لن ينال من هذا الطريق إلا الفتات .. فإن رضيت بالفتات، فاذهب إلى شأنك .. وإن أردت الكمال .. فهيا معي إليه.

قلت: لم لم يبن ذلك المترل في هذه السفوح .. أو ــ على الأقل ــ في تلك التلال؟

قال: حتى لا يدعي المحبة إلا من هو أهل لها .. فالمحبة هي غاية الغايات، ومقصد المقاصد.. لقد قال الغزالي يذكر رفعة مقامها :(إنّ المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدّمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها)[1]

وقال بعده ابن القيم مؤكدا :(هي المترلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي

([1]) رواه الترمذي.
([1]) الإحياء: ٢٩٤/٤.

روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدا واصليها، وتبوؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائما إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب)[1]

ثم أنشد يدعو إلى اللحاق بركبهم:

فحيهلا إن كنت ذا همة فقد ... حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا

وقل لمنادي حبهم ورضاهم ... إذا ما دعا لبيك ألفا كواملا

ولا تنظر الأطلال من دونهم فإن ... نظرت إلى الأطلال عدن حوائلا

ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد ... ودعه فإن الشوق يكفيك حاملا

وخذ منهم زادا اليهم وسر على ... طريق الهدى والفقر تصبح واصلا

وأحي بذكراهم سراك إذا ونت ... ركابك فالذكرى تعيدك عاملا

وإما تخافن الكلال فقل لها ... أمامك ورد الوصل فابغ المناهلا

وخذ قبسا من نورهم ثم سر به ... فنورهم يهديك ليس المشاعلا

قلت: أعلم أن المحبة هي غاية الغايات ومقصد المقاصد .. ولكن لم لم يسهل لها الطريق كما سهل للشكر طريقه؟

قال: المحبة في حقيقتها تعني المحو والفناء والذوبان .. فلذلك لا يحب إلا من استرخص روحه في سبيل محبوبه .. فأول خطوة في المحبة هي قتل النفس في ذات الله:

بدم المحب يباع وصلهم ... فمن الذي يتباع بالثمن

قلت: أليس هناك خلاف في هذا .. فإني أحب أن أفر من الشدة إلى اليسر .. وقد علمت أن رسول الله

[1] مدارج السالكين: ٣/٧.

ﷺ (ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما حتى يكون إثما، فإذا كان إثما كان أبعد الناس من الاثم)[1] ؟

قال: ليس هناك خلاف في هذا .. لقد قال ابن القيم :(تالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون، لقد أقيمت للعرض في سوق من يزيد، فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون وقام المحبون ينظرون أيهم يصلح أن يكون ثمنا فدارت السلعة بينهم، ووقعت في يد ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِين)(المائدة: من الآية٥٤)[2]

ولهذا شرط الله تعالى لحقيقة الصدق في الحب القتال في سبيل الله، فقال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) (الصف:٤) ، وقد روي في سبب نزولها أن المؤمنين قالوا :(لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به، فدلهم الله على أحب الأعمال إليه)

ولهذا كان من علامة حب الله حب الموت في ذات الله ، كما قال تعالى مخاطبا اليهود الذين زعموا أنهم أحباب الله وأولياءه :﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الجمعة:٦)

وقد قال البويطي لبعض الزهاد :(أتحب الموت؟) فكأنه توقف، فقال: لو كنت صادقاً لأحببته، وتلا قوله تعالى :﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الجمعة:٦)، فقال الرجل: فقد قال النبي ﷺ:(لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ)[3]، فقال: (إنما قاله لضر نزل به، لأنّ الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه)[4]

قلت: فإن هذا يجعل من أهل هذا المترل أفرادا؟

قال: لقد قال الله تعالى يبين قلة هذا النوع من السالكين :﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ

---

(1) رواه أحمد وعبد الرزاق.

(2) مدارج السالكين:٣/٨.

(3) رواه مسلم وغيره.

(4) ومع ذلك، فهناك أسباب يمكن كراهية الموت بسببها مع تحقق المحبة، وقد أشار إلى مجامع ذلك الغزالي في قوله :(فإن قلت: من لا يحب الموت فهل يتصوّر أن يكون محباً لله؟ فأقول: كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد، وهذا ينافي كمال حب الله تعالى لأنّ الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب، ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة، فإنّ الناس متفاوتون في الحب. ويدل على التفاوت ما روي أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوّج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش في ذلك وقالوا: أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى؟ فقال: والله لقد أنكحته إياها وإني لأعلم أنه خير منها، فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله، فقالوا: وكيف وهي أختك وهو مولاك؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول :(مَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ يُحِبُّ اللَّهَ بِكُلِّ قَلْبِهِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى سَالِم)(قال العراقي في تخريجه: لم أره من حديث حذيفة، وروى أبو نعيم في الحلية المرفوع منه من حديث عمر أن سالما يحب الله حقا من قلبه، وفي رواية له أن سالما شديد الحب لله عز و جل لو لم يخف الله عز و جل ما عصاه، وفيه عبد الله بن لهيعة)

فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضاً غيره، فلا جرم يكون نعيمه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه، وعذابه بفراق ا الدنيا عند الموت على قدر حبه لها.

وأما السبب الثاني للكراهة: فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة، وليس يكره الموت، وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله، فذلك لا يدل على ضعف الحب وهو كالمحب الذي وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيىء له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق، فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلاً، وعلامته لدؤوب في العمل واستغراق الهم في الاستعداد) انظر: الإحياء: ٤/٣٣١)

(١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآَخِرِينَ (١٤)﴾(الواقعة)

قال ذلك، ثم أنشد يقول بروحانية عذبة:

فمـــا كــــل عــــين بالحبيـــب قريـــرة ولا كــــل مــــن نــــودي يجيــــب المناديـــا

ومــــن لا يجـــب داعـــي هـــداك فخلـــه يجـــب كـــل مـــن أضـــحى إلى الغـــي داعيـــا

وقـــل للعيـــون الرمـــد إيـــاك أن تـــري ســـنا الشـــمس فاستغشـــي ظـــلام اللياليـــا

وســـــامح نفوســـــا لم يهبـــــها لحبــــهم ودعهـــا ومـــا اختـــارت ولا تـــك جافيـــا

وقـــل للـــذي قـــد غـــاب يكفـــي عقوبـــة مغيبـــك عـــن ذا الشـــأن لـــو كنـــت واعيـــا

قلت: فصف لي أهل هذه المترل .. لعل ما تصفه منهم يشوقني إليهم، وإلى المترل الذي سكنوا فيه.

قال: لقد جاء في أثر إلهي أوحى الله به إلى بعض أهله في وصفهم :(إن لي عباداً أحبهم ويحبونني، ويشتاقون إليَّ وأشتاق إليهم ويذكرونني وأذكرهم، وينظرون إليَّ وأنظر إليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتك)، فقال: يا رب وما علامتهم؟ قال: (يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها، فإذا جنهم الليل، واختلط الظلام، وخلا كل حبـيب بحبـيبه نصبوا إلى أقدامهم وافترشوا إلى وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوا إليَّ بإنعامي، فبـين صارخ وباكي وبـين متأوّه وشاكي بعيي ما يتحلمون من أجلي وبسمعي ما يشتكون من حبـي. أوّل ما أعطيهم أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم. والثانية: لو كانت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم. والثالثة: أقبل بوجهي عليهم أفترى من أقبلت بوجهي عليه أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟)

وحدث أبو بكر الكتاني، قال: جرت مسألة في المحبة بمكة أيام الموسم، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سنا، فقالوا: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال: (عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويته، وصفا شربه من كأس وده، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكت فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله)، فبكى الشيوخ، وقالوا :(ما على هذا مزيد ـــ جبرك الله ـــ يا تاج العارفين)

قلت: عهدي بالمحبين مجانين يرميهم الناس بالحجارة ، ويتأسفون على عقولهم .. فكيف بعقول هؤلاء .. فإني لا أحب أن يغيب عني عقلي، ولا أحب أن يرميني الناس بالحجارة؟

قال[1]: من قرت عينه بالله قرت به كل عين، وأنس به كل مستوحش، وطاب به كل خبيث، وفرح به كل حزين، وأمن به كل خائف، وشهد به كل غائب، وذكرت رؤيته بالله، فإذا رؤى ذكر الله، فاطمأن قلبه إلى الله، وسكنت نفسه إلى الله، وخلصت محبته لله، وقصر خوفه على الله، وجعل رجاءه كله لله، فإن سمع سمع بالله وإن أبْصر أبصر بالله، وإن بطش بطش بالله، وإن مشى مشى بالله، فبه يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه يمشى، فإذا أحب فللّه وإذا أبغض أبغض لله، وإذَا أعطَى فللّه، وإذَا منع فللّه، قد اتخذ الله وحده معبوده ومرجوه ومخوفه وغاية قصده ومنتهى طلبه، واتخذ رسوله وحده دليله وإمامه وقائده وسائقه، فوحد الله بعبادته ومحبته وخوفه ورجائِهِ وإفراد رسوله بمتابعته والاقتداءِ به والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه.

ما قال ذلك حتى شعرت بروحي ترق، وبجسدي يشف معها، وما هي إلا لحظات قصار حتى وجدت نفسي بقرب ذلك المترل الذي لم أجد في حياتي مترلا أجمل ولا أكمل ولا أقدس منه[2].

***

ما استتم صاحبي حديثه هذا حتى وجدنا أنفسنا قد قطعنا المرحلة السادسة من الطريق من غير أن نشعر بأي عناء أو تعب .. ولم يخطر على بالي طيلة هذه المرحلة ما كنا نقطعه من غابات موحشة، ومن سباع عادية تتربص بنا من كل اتجاه.

لقد تترلت علي بمجرد قطعي لتلك المرحلة أشعة جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

سألت صاحبي عن أبي مدين وكيف تركه، فقال: لقد تركته يمد يديه إلى الناس يبايعهم على السير في طريق الله، وقد كثر أتباعه كثرة لم أكن أتصور أن تبلغ ما بلغت.

قلت: فما رأيت من سر ذلك؟

قال: لقد وضع الله تعالى في الإنسان ما يملؤه بالأشواق إليه .. ولذلك قد يشرق الإنسان أو يغرب، وقد يتيه ما يتيه، ولكنه لا يجد في الأخير ملجأ إلا عند الله.

قلت: عند الله .. لا عند أبي مدين.

قال: ألا تعلم أن الله إذا أراد أن يهبك الشفاء دلك على الطبيب النطاسي الذي يخلصك من دائك؟

قلت: ذلك صحيح ..

قال: فكذلك إذا أراد الله لقلبك الشفاء دلك على أهله العارفين به الذين إذا رؤوا ذكر الله ..

قلت: ففي الإسلام رجال دين إذن هم واسطة بين العباد وربهم؟

قال: هم وسائط هداية ودلالة، لا وسائط وزارة وتدبير .. وهم لا يختلفون عن الفقهاء، بل يكملونهم .. فالفقيه يعتني بإصلاح الظواهر ليجعلها موافقة للشريعة، وهؤلاء يعتنون بإصلاح البواطن ليجعلوها محلات صالحة لتترل المواهب الإلهية.

---

(1) انظر: طريق الهجرتين: ١/١٩.

(2) اختصرنا الكلام على هذا المترل العظيم من منازل السلوك ــ هنا ــ لأنا خصصناه ببعض الرسائل الخاصة، منها (بحار الحب)، و(جزيرة العشاق).. بالإضافة إلى ما سنذكره عنه في سائر رسائل هذه السلسلة.

سابعا ـــ الخطيب

قلت: فحدثني عن رحلتك السابعة.

قال: بعد خروجي من تلمسان سرت قاصدا مدينة (فاس) .. تلك المدينة العريقة التي تشرفت بأن بناها حفيد من أحفاد رسول الله ﷺ [1].. قدم إليها بما معه من الحرص على دين الله ليبني فيها أسس حضارة نشرت أشعتها على جميع المغرب العربي .. بل امتد شعاعها إلى جميع العالم الإسلامي فترة طويلة من الزمان.

كان الظرف الذي نزلت فيه هذه المدينة قاسيا .. فقد كانت الأحقاد الصليبية التي مثلها المستعمر تملأ المدينة بأجواء من الرعب والفتنة ..

في ذلك الجو الذي أحسست بضيقه على نفسي .. كما أحسست بضيقه على نفوس الناس .. التقيت حامل مشعل (الخطابة) من مشاعل الهداية النبوية .. وهو العلامة الأديب الخطيب المناضل (محمد علال الفاسي)[2]

لقد استعمل الصليبيون الحاقدون كل ما لديهم من أساليب لقمع سكان مدينة فاس الطيبين .. فلم يعد أحدهم يجرؤ على أن ينبس ببنت شفة منافحا عن حق، أو صادا عن باطل ..

([1]) تأسست مدينة فاس عام ١٩٣هـ، على يد مولاي إدريس بن إدريس من نسل الحسن بن علي ـــ رضي الله عنهم أجمعين ـــ الذي اتخذها عاصمة له .. وقد ظلت في أكثر عهودها عاصمة للمغرب حتى احتل الفرنسيون المغرب في عام ١٩١٢.

([2]) نشير به إلى محمد علال الفاسي (١٣٢٦ - ١٣٩٤ هـ)، وهو أحد رواد الفكر الإسلامي، وبطل النضال الزعيم السياسي والمقاوم الصامد والأستاذ الخطيب الأديب محمد علال ابن العلامة الخطيب المدرس الكاتب المفتي عبد الواحد عبد السلام بن علال الفهري نسبا، القصري ثم الفاسي مولدا ودارا ومنشأ.

ينحدر من عائلة عربية عريقة نزحت من موطنها بالأندلس إلى المغرب الأقصى فرارا بدينها وعقيدتها من محاكم التفتيش الإسبانية واستوطنت فاس تحت اسم بني الجد واشتهرت بآل الفاسي الفهري وساهمت في جميع المجالات العرفانية حيث أنجبت علماء جهابذة وفقهاء نحارير وقضاة بارزين ومؤلفين بارعين.

في عام ١٣٨٠هـ عين وزيرا للدولة مكلفا بالشؤون الإسلامية ثم انسحب من الحكومة صحبة رفاقه في حزب الاستقلال وذلك في عام ١٣٨٢هـ وعين أستاذا بكلية الشريعة التابعة لجامعة القرويين بظهر المهراز وكليتي الحقوق والآداب لجامعة محمد الخامس بالرباط، وبدار الحديث الحسنية بنفس المدينة ، وكان عضوا مقررا عاما في لجنة مدونة الفقه الإسلامي التي شكلت في فجر الاستقلال .

خلف كثيرا من المؤلفات في شتى الموضوعات منها: الحماية في مراكش ممن الوجهتين التاريخية والقانونية، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، السياسة البربرية في المغرب، النقد الذاتي، المغرب العربي من الحرب العالمية الأولى إلى اليوم، حديث المغرب في المشرق، عقيدة وجهاد، منهج الاستقلالية، مقاصد الشريعة الإشلامية ومكارمها، دفاع عن الشريعة، الجواب الصحيح والنصح الخالص في نازلة فاس وما يتعلق بمبدإ الشهور الإسلامية العربية، معركة اليوم والغد، محاضرتان عن مهمة علماء الإسلام، المثل الأعلى في الصدق والثبات وحسن الإنابة، نضالية الإمام مالك ورجال مذهبه، واقع العالم الإسلامي، الإنسية المغربية، الإسلام وتحديات العصر، دفاعا عن الأصالة، في المذاهب الاقتصادية، تاريخ التشريع الإسلامي، شرح مدونة الأحوال الشخصية، بحث مفصل عن النظريات الفلسفية المختلفة ومقابلتها بالحرية الإسلامية، مستندات لتاريخ المقاومة المغربية

زيادة على مجموعة أخرى من الخطب والمحاضرات والمذكرات السياسية والقصائد الشعرية والبحوث والمقالات المنشورة في أمهات الصحف اليومية والأسبوعية والمجلات الدورية. كما أصدرمجلة (البينة)، وجريدة (صحراء المغرب)، و(الحسنى)، بالإضافة إلى مجموعة من الكتب باللغة الفرنسية.

وكان خطيبا شاعرا صاحب قضية قضى حياته كلها من أجلها .. ولذلك اخترناه لهذا الفصل.

لقد كان الصوت الوحيد الذي يسمعه أهل فاس صباحهم ومساءهم هو أصوات الحقد المحمية بالقنابل والمدافع وجميع ما أنتجته هذه الحضارة من وسائل الدمار.

لكن محلا واحدا غفل عنه أولئك الصليبيون، أو اطمأنوا إلى سكونه، فلم يخطر على بالهم إلزامه بما ألزموا به غيره من الصمت .. كان ذلك المحل هو المنارة التي استطاعت أن تطفئ جميع الظلمات التي نشرها المستعمر الصليبي الحاقد.

لقد كان ذلك المحل هو المسجد .. وكانت المنصة التي قاومت جميع الأحقاد، وكانت السبب الأكبر في تطهير فاس من رجسها، هي المنبر الذي اعتلاه رسول الله ﷺ ليؤسس من خلاله مدينة الإسلام وحضارة الإسلام وقيم الإسلام .. وكان الرجل الذي ورث رسول الله ﷺ أحسن وراثة في اعتلائه ذلك المنبر هو (محمد علال الفاسي)

دعني أقص عليك قصة التقائي به من البداية ..

كنت أسير في بعض الأحياء في تلك المدينة .. ممتلئا إعجابا بما ضمته من حضارة عريقة ..

وقفت قرب جامع القرويين أتأمل شموخ بنيانه، وصمود أركانه رغم كل تلك السنين الطوال التي مرت به[1] .. ولست أدري كيف رحت، والغضب قد استفزني، أخاطب نفسي، وكأنني أنفس عنها ما امتلأت به من ضيق .. لقد رحت أقول ــ وأنا أجتهد أن أكتم أنفاسي قدر ما استطعت ــ : ارحلوا أيها الحاقدون من هذه البلاد .. فهذه البلاد ليست بلادكم .. وهذه الأرض ليست أرضكم .. وهؤلاء الناس الطيبون ليسوا شعبكم ..

ارحلوا .. وإن شئتم أن ترجعوا بعدها، فارجعوا إخوانا لا أعداء، وتلاميذ لا أساتذة، فهؤلاء الذين تغزونهم وتستعمرونهم وتستسخرونهم هم مشاعل النور التي يهتدى بها، وهم مسالك السلام التي تحفظ البشر والأرض من الصراع ..

بينما أنا كذلك أخاطب نفسي بهذا ومثله .. وفي قلبي من الغليان ما لا يعلمه إلا الله .. شعرت بشخص يقترب مني، ثم يخاطبني بصوت جهوري جميل قائلا: ارفع بها صوتك .. لتعلو برفعه الرايات، وتنتشر المكرمات.

قلت: أنت صاحب المشعل الثامن من مشاعل الهداية إذن؟

قال: إن كان الخطيب هو صاحب ذلك المشعل، فأنت أمامه؟

قلت: لكني لا أرى للخطابة أي تأثير ..

قال: عندما يكون الخطيب ميتا، فلن يكون لخطبته أي تأثير، فلا يمكن للميت الذي لا يملك الحياة أن

---

(1) يعتبر جامع القرويين بفاس من بين المعاهد العلمية التي ظلت تقوم بدورها التعليمي منذ إنشائها إلى زماننا هذا، بل يُعد أقدم جامعة علمية في العالم، وذلك بدليل أن جامعة بولونيا الإيطالية أسست عام ١١١٩م، ٥١٣هـ، وجامعة أكسفورد الإنجليزية عام ١٢٢٩م، ٦٢٧هـ، وجامعة السوربون الفرنسية أُسست في القرن الثالث عشر الميلادي، وتم بناء مبناها في القرن السابع عشر الميلادي.

بينما أسس جامع القرويين في الأول من رمضان عام ٢٤٥هـ، ٣٠ نوفمبر عام ٨٥٩م.

ينشر الحياة في غيره.

قلت: أيمكن أن يعلو ميت تلك الخشبة المقدسة التي تشرفت بصعود رسول الله ﷺ على درجاتها؟

قال: ما أكثرهم .. ما أكثر أولئك الميتين الذي ينشرون الموت.

قلت: فكيف يحيون؟

قال: أترى هذا الجامع؟

قلت: أجل .. وكيف لا أراه .. إنه جامع القرويين .. قد كنت أسمع أحاديث عذبة عنه، وأنا الآن بين يديه.

قال: في هذا المسجد نجمع الخطباء لنعيد لهم الحياة .. ولنعيد لخطبهم الحياة.

قلت: بم؟ .. ألديكم الإكسير الذي ينشر الحياة في الموتى؟

قال: أجل .. لقد ترك لنا رسول الله ﷺ هديا كثيرا، وقد اهتدينا به للوصول إلى هذا الإكسير .. فإن شئت أن تنال شيئا منه لتبشر به، فهلم معي.

قلت: وأولئك الغلاظ .. أتراهم مطمئنين إلى ما أنتم فيه؟ .. ألا تخشى أن يداهموننا ليخرجوننا إلى المعتقلات والسجون، أو يصبوا فينا ما علمتهم الشياطين من فنون سفك الدماء؟

قال: لقد ترك لنا رسول الله ﷺ من فنون الحكمة ما نتقي به شرهم ..

قلت: أتحتالون عليهم؟

قال: كما احتال الغلام على الساحر .. وكما احتال نعيم بن مسعود على جيوش المشركين .. نحن هنا لا نتقن شيئا كما نتقن فنون الحيل .. فلا يمكن لمن تعوزه مثل هذه الفنون أن يفعل شيئا.

قلت: لكني لا أزال أسمع بذم الحيل .. وقد ذكر الله تعالى عن أهل السبت ما ذكر.

قال: تلك حيل أهل السبت، وهي حيل من إملاء الشياطين لخدمة أهواء النفوس .. أما حيلنا فليس لها من هدف إلا رفع رايات الحق، ونشر مكرمات الفضائل.

قلت: فما العلوم التي تعلمونها في هذا الجامع؟

قال: كثيرة ..

قلت: لقد شرفني الله، فتعلمت في كثير من مدارس الإسلام ..

قاطعني، وقال: لذلك ستقتصر هنا على تعلم الخطابة .. فلا يمكن لمن يريد أن يكون داعية إلى الله أن يغفل عن تعلم هذا العلم.

***

دخلنا جامع القرويين، فرأيت فروعا كثيرة، فسألت الفاسي عنها، فقال: في كل ركن من هذه الأركان نعلم فنا من فنون الهداية وعلما من علومها.

قلت: فأين ركن الخطابة .. ذلك الذي تريد مني أن أتعلمه؟

قال: لن تدخله إلا بعد أن تمر على بعض الناس، فإن رأوك أهلا له أذنوا لك بالدخول، وإلا ردوك بالتي

هي أحسن.

ذهب بي الفاسي إلى محل اختبار الخطباء، وطلب منهم النظر في قدراتي، ومدى استعدادها لهذا الفن من فنون الهداية.

بعد اختبارات كثيرة منها ما يرتبط بالعلم، ومنها ما يرتبط بالقدرات الصوتية، ومنها ما يرتبط بالنضج التربوي، ومنها ما يرتبط بالنواحي الأمنية .. أذن لي بالدخول إلى قاعة الخطابة، وقد تعجبت إذ وضعوا على عيني عصابة حتى لا أرى شيئا.

وبعد أن سرت في سراديب كثيرة، فتحوا العصابة عن عيني، فوجدت نفسي في مغارة تملأ النفس رعبا، التفت، فرأيت ناسا كثيرين، كل منهم يعتلي صخرة، ويخطب بقوة، وكأنه أمام الجماهير العريضة من الناس.

سألت الفاسي عن سر هذا، فقال: نحن هنا نعلم الخطباء جميع فنون الخطابة.

قلت: فلم اخترتم هذه المغارة؟ .. و لم عسرتم السبيل إليها كل ذلك التعسير؟

قال: لسببين: أما أولهما، فهو ما رأيته من أولئك المصارعين الذين ملأوا الأرض لهيبا والنفوس ظلمات .. وأما الثاني، فما عبر عنه الحكيم بقوله:(ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لن يتم نتاجه)

قلت: فهمت الأول، و لم أفهم الثاني؟

قال: ألم تتعلم في مدرسة أبي مدين ما يحمله الجاه من بذور الانحراف؟

قلت: بلى .. لقد عرفت أنه سم زعاف، لا يحل بنفس إلا أوردها المهالك.

قال: فالمنبر الذي يرتقي عليه الخطيب هو المزرعة التي يستنت فيها الجاه .. ألا تراه كيف يصعد أعلى درجاته ليقول للناس:

أنـــــا ابـــــن جـــــلا وطـــــلاع الثنايـــــا   مـــــتى أضـــــع العمامـــــة تعرفـــــوني

قلت: عهدي بالإسلام يحرم كل ما يغذي الشر في النفوس، فكيف ترك المنبر مع خطره هذا؟

قال: كما ترك المال ترك المنبر .. فالنفس تحب المال كما تحب الجاه .. وقد جاء الشرع بتهذيب حب المال حتى لا تتحقق به إلا المصالح، وجاء بتهذيب الجاه فجعل جاه المسلم في جاه دينه.

قلت: ما تعني بذلك؟

قال: إن المسلم الذي امتلأ قلبه حبا لله لا يصعد هذه المنابر ليقول للناس :(اعرفوني)، ولكن يصعده ليقول للناس :(إني أمثل أعظم دين في الدنيا، وأمثل أقدس القيم، فاعرفوها)

قلت: فأنتم تعلمون هؤلاء هذا؟

قال: أجل .. ولا نجيزهم إلا بعد أن نعلم لهم من الصدق ما يحول بينهم وبين طلب الجاه الشيطاني الذي يختصر جميع القيم في ذواتهم.

١ ــ الدعوة

اقتربنا من أحد الخطباء، وقد كان صاعدا على صخرة كبيرة، فسمعناه يردد بصوت عال أول خطبة للنبي ﷺ خطبها في مكة المكرمة، والتي رواها ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: لما نزلت :﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤) صعد النبي ﷺ الصفا، فجعل ينادي: (يا بني فهر، يا بني عدي) لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: (أرأيتكم، لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟)، قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت :﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣)﴾ (المسد)[1]

وقال رسول الله – ﷺ – في هذه الخطبة أيضا: (يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار؛ فإني لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها)[2]

تعجبت من ترديد الخطيب لمثل هذه الخطبة، وقلت للفاسي: ما هذا؟ .. أهذا الرجل ممثل أم خطيب؟

قال: بل هو خطيب.

قلت: وهذه الخطبة .. هل تريدون منه إلقاءها إلى الناس؟

قال: وما يمنعها من ذلك؟

قلت: إنها خطبة تاريخية لا واقعية.

قال: كل ما قاله نبيك ﷺ حياة وواقع .. وقد رأينا أنه لا يصلح الواقع إلا كلام نبينا ﷺ

قلت: ولكن الناس لن يعوه.

قال: بل الناس لا يعون شيئا كما يعون كلام نبيهم، ولا يفهمون أحدا كما يفهمون نبيهم.

قلت: فحدثني عما في هذه الخطبة مما لم أنتبه إليه.

قال: أولا .. انظر[3] .. لقد كانت هذه الخطبة أشهر خطب النبي ﷺ، وبها انتقلت الدعوة من السر إلى العلن، ومع ذلك لم تؤد إلا بكلمات قلائل، ووقت يسير.

قلت: فما مبادئ الخطابة التي تحملها[4]؟ .. أليس لكل شيء مبادئه وقوانينه؟

لست أدري كيف خرج لي بعض الرجال، وكأنهم كانوا يتصنتون لما أقول، قال أحدهم: لقد شملت هذه

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) انظر : مقالة بعنوان (خطيب العالم) سلمان العودة .

(٤) من مراجع هذا الفصل المهمة، كتاب (الجوانب الإعلامية في خطب الرسول ﷺ) ، سعيد بن علي ثابت، الطبعة الأولى، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، ١٤١٧هـ

الخطبة مع اختصارها كل مبادئ الخطبة الناجحة، ففيها يتجلى مبدأ التبشير والإنذار، فالخطيب المسلم هو الذي يبشر الناس، ويفتح أمامهم آفاق الأمل، ولا يثبط هممهم ، وهو أيضا ينذرهم من سوء المصير لمن لم يعتبر بالآيات والسنن ، وأتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني .

قال آخر: انظر كيف اختار رسول الله ﷺ أعلى وسيلة تختصر مساحات المكان، وتخاطب أكبر عدد من الناس في أسرع وقت ممكن ، فصعد جبل الصفا ، ولعل في هذا دلالة أهمية العناية بالوسيلة، والتألق في فنون الاتصال الإعلامي لإقناع الناس بالحق ، وحتى لا يكون سبب الإعراض عن الدعوة الإسلامية عجز القائم بالاتصال عن القيام بواجبه.

قال آخر: وانظر المدخل الاتصالي المناسب .. لقد كانت كلمة :(يا صباحاه) التي استهل بها الرسول ﷺ خطبة الصفا غاية البدايات الجيدة، والاستهلاك الحسن ، والمدخل المثير للانتباه والاهتمام ، والمحرك للوعي، والملفت للنظر في مجتمع ديدنه الحروب التي كانت تنشب بين قبائله لأتفه الأسباب ؛ لذا كان حسن الابتداء هذا مفتاحا لعقول القوم ، فجاءوا زرافات ووحدانا ، حتى إن الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا ، حتى امتلأت ساحة الصفا .

قال آخر: ثم انظر كيف أشرك رسول الله ﷺ الجمهور في العملية الاتصالية والحوار المفتوح .. وهذا الأسلوب الحواري في الإعلام له أثره الفعال في تحقيق الإقناع والاقتناع، وهذا ما تؤكده الدراسات الاتصالية ، حيث تعد من مؤهلات الإقناع بالرسالة الإعلامية إشراك الجمهور المتلقي في العمل الإعلامي .. كما أن الدراسات الإعلامية تؤكد أيضا على احترام إرادة الإنسان وحريته الاتصالية ، والحوار ، والمناقشة، فالإعلام إنما يكون للناس وليس للقائم بالاتصال ، فإذا كان الناس لا يستمعون للقائم بالاتصال ، وإذا كان لا يقرأ رسائله إلا هو فالسكوت له أفضل من كلامه.

قال آخر: ثم انظر قدرته ﷺ على بث الثقة في الجمهور .. فهي من أهم عوامل الإقناع في الاتصال، وهذا يعني ثقة القائم بالاتصال بما عنده ، وبقيمه ، وأهدافه ، وغاياته السامية ، وثقة الناس في صدقه ، وأمانته ، وعدله ، وهذه الدلالة تؤكد على أهم مؤهلات القائم بالاتصال، والقائم بالاتصال في هذه الخطبة هو الرسول ﷺ الذي انتزع الله له إجماعا عاما من قريش بأنه الحكم العدل والصادق الأمين.

قال آخر: ثم انظر إحكام الاتصال .. وهذا يعني تنظيم طرح حقائق ومضامين الاتصال ، إذ أن لكل حقيقة في الإسلام حدا لا ينبغي أن تتجاوزه ، والمساواة بينها في الطرح الإعلامي من أهم أسباب الاضطراب في عملية الاتصال ، فالرسول ﷺ في هذه الخطبة لم يتجاوز حقيقة الألوهية والعبودية ، وحقيقة البعث والنشور والجزاء والحساب يوم القيامة ، وما ينتظره المحسنون من الأجر والمثوبة ، والمعاندون الكافرون من العذاب .

قال آخر: ثم انظر ربط الطرح الإعلامي بمسلمات الأمة .. وذلك لأن الإطار المرجعي يقوم بتمرير المعلومات والمعارف المقبولة بناء على أساس المخزون المعرفي الذي تكون نتيجة العوامل الثقافية المؤثرة على شخصية الإنسان ، بالإضافة إلى قيم المرء الدينية وتقاليده الاجتماعية ، ولذلك فإن على القائم بالاتصال مراعاة الرواسب الفكرية والاجتماعية التي تكون الإطار المرجعي ، حتى يقرر الإطار المرجعي قبول هذه المعلومات ،

ومن ثم تمثلها واختزالها ، لتكون نظاما معرفيا ، يحكم مواقفه وسلوكه.

قال آخر: ثم انظر كيف كان رسول الله ﷺ يلح عليهم ويكرر .. فالتكرار أسلوب من أساليب الإعلام، وهو التكرر الذي يساعد العمل الإعلامي على الانتشار بين الجماهير ، ويعد من أجدى الأساليب الإعلامية ، وأكثرها فاعلية في تغيير اتجاهات الرأي العام إذا أتقنه القائم بالاتصال ، وأخذ في اعتباره الأوقات التي يتم فيها التكرار ، والوسائل الإعلامية الملائمة ، والظروف المرتبطة بها ، والسوابق الإعلامية ، والتأثير الممكن حدوثه .

وتزداد أهمية هذا الأسلوب في الإعلام الإسلامي أن القرآن الكريم احتفى به احتفاء عظيما، لما له من الأثر النفسي في تثبيت المعنى وتقريره ، حتى يصبح عقيدة راسخة .. لقد قال الزمخشري في قوله تعالى:﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر:٢٣):((مثاني) بيان لكونه متشابها ؛ لأن القصص المكرورة لا تكون إلا متشابهة والمثاني جمع مثنى، مردد ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبائه في أحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه ثم قال: فإن قلت : ما فائدة التثنية التكرير؟ قلت : النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة فما لم يكرر عليها عودا على بدء لم يرسخ فيها و لم يعمل عمله ومن ثم كانت عادة الرسول ﷺ أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح)[1]

ومما يؤكد هذا الأسلوب الفعال أن خطبة الصفا جاءت بأكثر من رواية ، وهذا يعني أنها كررت في أوقات متعاقبة لاعتبارات ترتبط بالظرف الاتصالي جملة ، فالتكرار المتنوع على هذه الصورة هو جوهر الفاعلية المطلوبة لكل رسالة إعلامية.

انصرف الرجال، فسألت الفاسي عنهم، فقال: هؤلاء أساتذة هذه المغارة .. إنهم يدرسون الخطب، ومدى تأثيرها، وهم يستعملون لذلك كل ما فتح الله به على البشرية من علوم.

---

(١)الكشاف: ٣/ ٢٩٥.

٢ ـــ التربية

تركنا الخطيب الأول، وانتقلنا إلى خطيب آخر، رأيته يرتقي منبرا كالمنابر التي أراها في المساجد، ولكنه كان منبرا بسيطا لا تكلف فيه ولا زخرفة، وقد عجبت منه إذ رأيته يردد أول خطبة جمعة للرسول ﷺ في المدينة المنورة، والتي حدث بها سعيد بن عبد الرحمن الجمحي، أنه بلغه عن خطبة رسول الله ﷺ في أول جمعة صلاها بالمدينة في بني سالم بن عمرو بن عوف، قال: (الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأومن به، ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة، على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا، وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله عزوجل، فاحذروا ما حذركم الله عز وجل من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل من ذلك ذكرى وإنه تقوى لمن عمل به على وجل مخافة، وعون صدق على ما تبتغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله تعالى من أمر السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله تعالى يكن له ذكرا، فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما، وإن تقوى الله توقي مقته وتوقي عقوبته، وتوقي سخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجه، وترضي الرب، وترفع الدرجة، خذوا بحظكم، ولا تفرطوا في جنب الله، قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتبابكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة ولا قوة الا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله تعالى يكفه ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس، ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة إلا بإلله العلي العظيم)[1]

ويردد بعدها ما ورد في الخطبة من رواية عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ـــ رضي الله عنه ـــ قال : كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال:(أما بعد أيها الناس : فقدموا لأنفسكم تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه ، ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك ، وآتيتك مالا وأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك ؟ فينظر يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم ينظر قدامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته)[2]

بعد أن انتهى من خطبته، قال بعض الأساتذة الذين كانوا يلتفون حوله: انظروا براعة الاستهلال والبداية المثيرة للانتباه في هذه الخطبة ...انظروا كيف ابتدأت الخطبة بذكر المسلمات الفكرية والعقدية لجماعة المسلمين

---

(١) رواه ابن جرير.

(٢) رواه البيهقي .

لتبني الرأي العام على أساس عقيدة الإيمان بالله الواحد الأحد .. والبداية المثيرة للانتباه ينبغي في إطار الأصل الاتصالي أن تكون قريبة من الصورة الذهنية للجمهور المتلقي ، وبسيطة وبعيدة عن التعقيد ، وقريبة جدا من الموضوع الذي يرغب القائم بالاتصال طرحه على الناس.

قال آخر: في هذه الخطبة نرى نقلة كبيرة في مستويات التأثير الاتصالي، فمن الخطاب الإعلامي للجماعات الأولية البسيطة المتمثلة في الأفراد والجماعات العشائرية إلى مستوى الأمة ذات الرابطة القائمة على أساس العقيدة والمبادئ الإسلامية الخالدة، بدل النعرات العرقية الجاهلية، هذا بالإضافة إلى اعتبار أن الجمهور الذي كان يتلقى هذا الخطاب الإعلامي النبوي لم يكن هو المقصود بالمضامين الدعوية فقط ، وإنما كان الرسول ﷺ يعد هذه الجماعة لتولي أعباء قيادة الأمة الإسلامية .. والذي يؤكد هذه الدلالة أسلوب مخاطبة الروح الجماعية في روايات الخطبة، والإطار المرجعي الذي صيغت رموز الخطبة من خلاله ، وهو خلاصة خبرات جماعة المسلمين الأولين في المدينة وتجاربها وما تعلمته من الوحي ومن هدي النبي ﷺ ، فخاطبها الرسول ﷺ من خلال هذه التجارب.

قال آخر: وفي هذه الخطبة نرى رسول الله ﷺ كيف يستثير الدوافع الإيمانية والإنسانية في المخاطبين، فقد جاءت الوصية بالتقوى ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية في جميع روايات الخطبة .. وجاءت استثارة الدوافع الإنسانية في الدعوة للتكافل في المجتمع الإسلامي والبذل للمحتاجين.

قال آخر: وانظروا كيف راعى رسول الله ﷺ أحوال المخاطبين .. يؤكد ذلك أسلوب الدعوة إلى التعاون بعد التأكيد على قضايا الإخلاص لله تعالى وتقواه في السر والعلانية ، وقد جاء هذا الأسلوب في صياغة بارعة تربط التآلف والتكافل الاجتماعي بالإيمان بالله الواحد الأحد والإيمان باليوم الآخر والجزاء والحساب في الدار الآخرة .

وهذا الخطاب لا شك أنه مبني على معرفة تامة بأحوال جماعة المسلمين في مجتمع المدينة الجديدة ، وما فيه من المهاجرين الذين يحتاجون إلى المواساة بالمال ولو بالقليل ، فإن لم تكن هناك مساعدة مادية فلا أقل من الكلمة الطيبة التي تثمر المحبة والألفة ، وتبرز هذه الدلالة أيضا في التذكر بنعم الله تعالى على عباده المؤمنين وفي مقدمتها نعمة الإسلام.

قال آخر: وانظروا اختلاف أنماط الاستشهاد باختلاف الإطار المرجعي للجمهور المتلقي.. قارنوا هذا بمصادر الاستشهاد وأنماطه في خطبة الصفا .. إننا نجد أن مصادر الاستشهاد في هذه الخطبة تختلف ، فبينما كانت الاستشهادات في خطبة الصفا تقوم على شواهد الواقع والعقل والمنطق، فإن الشواهد في هذه الخطبة تقوم على أساس نصوص الوحي حيث كان الرسول ﷺ يستشهد بالآيات؛ وذلك لأن الخطاب الإعلامي كان موجها لجماعة المسلمين الذين يؤمنون بالله وبرسوله ﷺ وبما أنزل عليه من القرآن ، فكان الخطاب في كلتا الخطبتين يوجه للجمهور المستهدف من خلال المسلمات الأساسية له المرتبطة بقيمه وإطاره العام.

٣ ـــ التوعية

تركناهم يستنبطون من الخطبة ما يستنبطونه من المعاني، ورحنا إلى مجموعة من الخطباء، كان يبدو عليهم الانفعال الشديد:

أما أولهم، فقد سمعناه يردد خطبة رسول الله ﷺ **يوم بدر**، والتي قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه:(أما بعد : فإني أحثكم على ما حثكم الله عز وجل عليه ، وأنهاكم عما نهاكم الله عز وجل عنه ، فإن الله عز وجل عظيم شأنه ، يأمر بالحق ويحب الصدق ، ويعطي على الخير أهله ، على منازلهم عنده ، به يذكرون ، وبه يتفاضلون ، وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق ، لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه . وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله عز وجل به الهم وينجي به من الغم ، وتدركون به النجاة في الآخرة، فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم ، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شيء من أمركم يمقتكم عليه ، فإن الله عز وجل يقول:﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (غافر: من الآية١٠)، انظروا إلى الذي أمركم به من كتابه، وأراكم من آياته ، وأعزكم بعد الذلة ، فاستمسكوا به يرضى به ربكم عنكم ، وأبلوا ربكم في هذه المواطن أمرا ، تستوجبوا الذي وعدكم به من رحمته ومغفرته ، فإن وعده حق ، وقوله صدق ، وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم ، إليه ألجأنا ظهورنا ، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا ، وإليه المصير ، يغفر الله لي وللمسلمين)[1]

وسمعنا آخر يردد خطبته ﷺ **يوم الفتح**، والتي قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه:(إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنها لن تحل لأحد كان قبلي ، وإنها حلت لي ساعة من نهار ، وإنها لن تحل لأحد بعدي ، فلا ينفر صيدها ، ولا يختلى شوكها ، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد ، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين ، إما أن يفدى ، وإما أن يقتل)[2]

وردد خطبته ﷺ في ذلك اليوم حين وقف على باب الكعبة يقول:(لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو موضوع تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت ، وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد ، بالسوط والعصا ، ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها، يا معشر قريش : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظامها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم تلا ﷺ هذه الآية :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)(الحجرات:١٣)، يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فقال ﷺ :(اذهبوا فأنتم الطلقاء)[3]

---

(١) رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) رواه البخاري ومسلم، وتتمة الحديث: فقال العباس : إلا الإذخر يا رسول الله ، فإنا نجعله في قبورنا وبيوتنا ، فقال رسول الله ﷺ : إلا الإذخر ، فقام أبو شاه – رجل من أهل اليمن – فقال : اكتبوا لي يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : اكتبوا لأبي شاه ، قال الوليد فقلت للأوزاعي : ما قوله اكتبوا لي يا رسول الله ؟ قال : هذه الخطبة التي سمعها من رسول الله ﷺ.

(٣) رواه ابن إسحق.

وسمعنا آخر يردد خطبته ﷺ في **غزوة تبوك**، والتي رواها عقبة بن عامر الجهني ـــ رضي الله عنه ـــ قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فاسترقد رسول الله ﷺ ليلة لما كان منها على ليلة ، فلم يستيقظ فيها حتى كانت الشمس قيد رمح ، قال : ألم أقل لك يا بلال اكلأ لنا الفجر، فقال : يا رسول الله ذهب بي النوم الذي ذهب بك ، فانتقل رسول الله ﷺ من ذلك المترل غير بعيد ، ثم صلى ، ثم ذهب بقية يومه وليلته فأصبح بتبوك ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:(أيها الناس ، أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم ، وخير السنن سنة محمد ﷺ ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عوازمها ، وشر الأمور محدثاها ، وأحسن الهدي هدي الأنبياء ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع ، وخير الهدي ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب ، واليد العيا خير من اليد السفلى ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا دبرا ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرا ، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل ، وخير ما وقر في القلوب اليقين ، والارتياب من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية، والغلول من جثى جهنم ، والكتر كي من النار ، والشعر من إبليس ، والخمر جماع الإثم ، والنساء حبالة الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ، وشر المكاسب كسب الربا ، وشر المأكل مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقي من شقي في بطن أمه ، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع ، والأمر إلى الآخرة ، وملاك العمل خواتيمه ، وشر الروايا روايا الكذب ، وكل ما هو آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه من معصية الله عز وجل ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يتأل على الله يكذبه ، ومن يغفر يغفر له ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ، ومن يبتغ السمعة يسمع الله به ، ومن يصبر يضعف الله له ، ومن يعص الله يعذبه الله ، اللهم اغفر لي ولأمتي – قالها ثلاثا – ثم قال : أستغفر الله لي ولكم)[1]

ثم مررنا على خطباء كثيرين كل منهم يردد الخطب المختلفة التي قالها رسول الله ﷺ في مواطن الشدة التي مر بها، سألت الفاسي عن سر هذه الخطب الكثيرة، وكيفية تعاملهم معها، فقال: هذه الخطب هي زادنا، وهي طريقنا إلى الناس، وهي في نفس الوقت حصننا ضد هؤلاء المصارعين الذين جاءوا بأحقادهم ليملأوا حياتنا ضيقا وضنكا.

قلت: فكيف كانت زادا لكم؟

قال: إن هذه الخطب تذكرنا بالآلام العظيمة التي مر بها رسول الله ﷺ وأصحابه، وتذكرنا بالهمم التي كانوا يحملونها في ظل تلك الآلام .. ولهذا نحن نتزود من تلك الهمم ما نرفع به هممنا.

قلت: فكيف كانت طريقكم إلى الناس؟

قال: الناس يختلفون في كل شيء إلا في نبيهم ﷺ .. فلذلك لا يعون شيئا كما يعون حديثه .. ونحن

([1]) رواه البيهقي في الدلائل وابن عساكر في تاريخه.

نستثمر ذلك في توعيتهم وتربيتهم وملأ قلوبهم بأنوار الهداية.

قلت: وعيت كل هذا، ولا أحسب أني أخالفك فيه .. ولكنك ذكرت أن هذا هو حصنكم من المصارعين، فكيف يكون ذلك؟

قال: المصارعون يعتبرون حديثنا عن نبينا من الدين المحض الذي لا يرون حرجا من الحديث فيه .. فلذلك نحن نستغل غفلتهم في هذا .. فنملأ حياتنا بالمناسبات المختلفة التي نملأ بها قلوب الناس وعيا وتربية وهداية.

المصارعون يرونها مناسبات دينية محضة، ولا يعلمون أن الهمم العالية تولد في تلك المناسبات .. ولا يغلب المصارع شيء كما تغلبه الهمم العالية.

***

مكثت فترة طويلة مع الفاسي أتعلم منه أسرار الخطب النبوية، وفقهها، وما تحمله من المعاني الرفيعة .. وقد اهتديت من خلال صحبتي له إلى أن رسول الله ﷺ هو سيد الخطباء ومعلمهم .. وأن الخطابة المؤثرة والفاعلة لا تكتمل إلا لمن اهتدى بهديه فيها، فلم ينشغل بزخرفة ألفاظه، ولا أهواء نفسه عن المعاني الرفيعة التي كان رسول الله ﷺ يرتقي المنابر لأجلها.

***

ما استتم صاحبي حديثه هذا حتى وجدنا أنفسنا قد قطعنا المرحلة السابعة من الطريق من غير أن نشعر بأي عناء أو تعب .. و لم يخطر على بالي طيلة هذه المرحلة ما كنا نقطعه من غابات موحشة، ومن سباع عادية تتربص بنا من كل اتجاه.

لقد تنزلت علي بمجرد قطعي لتلك المرحلة أشعة جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

ثامنا ــ المفتي

قلت: فحدثني عن رحلتك الثامنة.

قال: بعد خروجي من المغرب الأقصى سرت قاصدا تونس، وبالضبط إلى أعرق مدينة فيها مدينة القيروان[1] ..

بمجرد دخولي المدينة خطرت على بالي مسائل كثيرة من العلم، ومعضلات كثيرة من الفقه، حاولت بما تعلمته من العلوم في المدارس المختلفة أن أجد لها حلا، فلم أستطع، وكأنها كانت مشفرة بشيفرة دقيقة لا يمكن لأي قرصان في الدنيا أن يجد لها حلا.

حاولت أن أصرف خواطرها عن ذهني، فلم تنصرف .. بل راحت تلح علي إلحاحا، وكأنها تطلب حلا عاجلا، أو كأنها شعرت بأن في تلك المدينة من يفتح أبوابها، ويحل معضلاتها، فلذلك راحت تطالبني بأن أبحث عنه.

بينما أنا كذلك إذا بي أرى رجلا .. كان أبسط الناس في مظهره .. يقترب مني، ويقول: لقد قال رسول الله ﷺ :(شفاء العي السؤال)[2] .. فابحث عن شفائك في السؤال، فلا يتعلم إلا لسان سؤول .. وإياك من الكبر، فقد قال تعالى:(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) (لأعراف:١٤٦)

قلت: من أنت؟ .. وكيف بدا لك أن توجه لي هذه الموعظة؟

قال: أنا أخ من إخوانك .. وقد قال رسول الله ﷺ :(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[3]

قلت: بورك فيك، ويشرفني أن يؤاخيني رجل مثلك .. ولكني أسألك عن سر توجيه هذه الموعظة بالذات

---

(1) تعد القَيْروان أولى المدن الإسلامية التي شُيِّدت بالمغرب العربي منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا (٥٠هـ، ٦٧٠م)، حيث اختارها عقبة ابن نافع مكاناً استراتيجيًا بعيدًا عن الشواطئ التي يهددها البيزنطيون، وبعيدًا عن الجبال التي يتربص بها البربر وبها يتحصنون، وقد أرادها عقبة أن تكون قاعدة أعماله الحربية ومخزنًا لمؤنه، وأرادها معسكرًا لجند الإسلام، ومن هنا كانت تسمية القيروان (فهي معربة عن كاروان الفارسية وتعني المعسكر)

أصبحت القيروان عاصمة الأغالبة، فازدهر العلم والحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فيها، واستحدثوا معاهد علم أشهرها بيت الحكمة، وكذلك المرصد الفلكي الذي بناه المأمون، وشيدوا أعظم معالمها التي تعد مفخرة القيروان.

اتسمت القيروان، على الرغم من المحن التي تعرضت لها، بحرصها على الحرية ودفاعها عن الإسلام. وحينما أبرمت فرنسا معاهدة باردو عام ١٨٨١م التي وضعت تونس تحت الحماية الفرنسية، كانت القيروان معقلاً من معاقل الحركة الوطنية ومنطلقاً لمقاومة النفوذ الفرنسي حتى سيرت لها فرنسا ثلاثة جيوش احتلتها في أكتوبر عام ١٨٨١م.

ولا تزال القيروان تضم كثيرًا من آثار الحضارة الإسلامية منها رقادة (مدينة الأغالبة الثانية)، التي أصبحت قرية أثرية، وقد استُغل أحد قصورها ليكون معهدًا للدراسات والبحوث الإسلامية، فضلاً عن قيامه بأعمال توثيق المخطوطات التي نُقلت إليه من جامع عقبة بن نافع، وهي مخطوطات نادرة، أهمها جزء من تفسير يحيى بن سلام البصري (٢٠٠هـ، ٨١٥م)، وهو أقدم تفسير معروف للقرآن الكريم.(انظر: الموسوعة العربية العالمية)

(2) رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن ابن عباس.

(3) رواه البخاري ومسلم.

لي .. لم لم تعظني بالتصدق مثلا .. أو بالصلاة .. أو بغيرها.. فأمور الدين كثيرة لا يمكن حصرها .. فلم خصصت من بينها ما خصصت؟

قال: لسببين ..

نظرت إليه، والابتسامة تملأ فمي، وأنا أقول: فما أولهما؟

قال: أولهما أني دللتك على ثمرة المواعظ وغاياتها .. فالمواعظ المثمرة هي التي تدلك على العمل الصالح، وتثير همتك إليه .. ولا يمكن أن يكون العمل صالحا إلا إذا كان وفق ما يقتضيه العلم .. ولا يمكن أن تتعلم ما لم تسأل.

قلت: عرفت الأول .. وبورك فيك .. فما الثاني؟

قال: لقد شرفني الله، فصحبت بعض ورثة رسول الله ﷺ في هذا الباب .. باب الفتيا .. وقد صار لي فيه نوع من الفراسة .. وقد رأيت في وجهك ما أنبأني بحاجتك إلى حل بعض المعضلات، وإزالة بعض المشكلات .. فتقدمت إليك بما تقدمت.

قلت: أصابت فراستك، و لم تخطئ .. فمن هذا الوارث الذي تنصحني بأن أقصده لحل ما خطر على بالي ..

قال: لا يفتى وسحنون[1] في القيروان ..

قلت: من هذا السحنون[2] الذي تدعي له ما تدعي؟

قال: إنه حامل مشعل الهداية الذي يجيب عن كل سؤال، ويحل كل إشكال، ويرفع كل معضلة، ويزيل كل مشكلة.

صحت: ذاك من أبحث عنه .. لقد أخبرني معلم الهداية أني لا أنال الفم الثامن من أفواه الهداية إلا عند من ذكرت.

قال: فهيا بنا إليه إذن .. فقد قال رسول الله ﷺ :(الدال على الخير كفاعله)[3]

قلت: سأسير معك .. ولكني لن أسأله عن أي مسألة مما خطر على بالي حتى أستوثق من كونه وارثا للنبي ﷺ في هذا الباب.

---

(1) نشير به إلى القاضي الفقيه المالكي الكبير عبد السلام بن سعيد بن حبيب، أبو سعيد التنوخي، الملقب بسحنون (١٦٠ــ ٢٤٠هــ، ٧٧٧ ــ ٨٥٤م)، ولد بالقيروان وأصله من الشام، قرأ على عبدالرحمن بن القاسم تلميذ الإمام مالك وغيره، انتهت إليه رياسة العلم في المغرب، كان زاهدًا لا يهاب سلطانًا في الحق، وكان رفيع القدر عفيفًا أبي النفس، ولي قضاء القيروان إلى أن مات، وكان يقول: قبح الله الفقر أدركنا مالكًا وقرأنا على ابن القاسم. يريد أن الفقر منعه الرحلة إلى المدينة ليأخذ عن الإمام مالك، حصل له من التلاميذ ما لم يحصل لأحد من أصحاب الإمام مالك، وهو الذي نشر علم مالك بالمغرب. ومن أشهر آثاره كتاب المُدَوَّنة الذي صنفه في مذهب الإمام مالك ..

وسيرته تمثل سيرة الفقيه العالم، وقد خصها البعض بالتأليف (ومنهم أبو العرب محمد بن أحمد بن حكيم في كتاب (مناقب سحنون وسيرته وأدبه) .. ولهذا اخترناه في هذا الفصل ممثلا للفقيه المفتي.

(2) نقل في المدارك عن بعض شيوخ إفريقية، أنه قال: سمي سحنون باسم طائر حديد لحدّته في المسائل.

(3) رواه أحمد وأبو يعلى، والضياء عن بريدة، وإبن أبي الدنيا عن أنس.

قال: صدقت في هذا .. فما أكثر الأدعياء .. وقد قال رسول الله ﷺ :(إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالمًا، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فافتوا بغير علمٍ، فضلوا وأضلوا)[1]

قلت: إن وارث هذا الفن من فنون الهداية لا ينبغي إلا أن يكون عالما .. فلا يمكن أن يفتي الجاهل .. فهل ترى سحنونا كذلك؟

قال: أجل .. ولولا ذلك ما تصدى للإفتاء .. لقد أخذ العلم عن أهل المشرق وأهل المغرب .. بل لم يدع محلا من المحال فيه علم من العلوم إلا قصده .. لقد بدأ بالقيروان، فأخذ عن مشائخها الكبار: أبي خارجة، وبهلول، وعلي بن زياد، وابن أبي حسان، وابن غانم، وابن أشرس، وابن أبي كريمة وأخيه حبيب. ومعاوية الصمادحي وأبي زياد الرعيني .. وغيرهم.

ورحل إلى مصر والحجاز فأخذ من ابن القاسم، وابن وهب، وأشهب، وطليب بن كامل، وعبيد الله بن عبد الحكم، وشعيب بن الليث، ويوسف بن محمد، وسفيان بن عيينة، ووكيع وعبد الرحمان بن مهدي، وحفص بن غياث، وأبي داود الطيالسي، ويزيد بن هارون، والوليد بن مسلم، وابن نافع الصائغ، ومعن بن عيسى، وأبي ضمرة وابن الماجشون، ومطرف وغيرهم.

لقد حدثني مرة عن أيام طلبه العلم، فقال: انقفلت عليّ مسألة حتى أردت الرجوع فيها إلى المدينة، حتى اتضحت لي .. وقال لي: لما حججت كنت أزامل ابن وهب، وكان أشهب يزامله يتيمه، وابن القاسم يزامله ابنه موسى، وكنت إذا نزلت سألت ابن القاسم، وكنا نمشي باالنهار، ونلقي المسائل، فإذا كان الليل قام كل أحد إلى حزبه من الصلاة، فقال ابن وهب: ألا ترون هذا المغربي يلقي بالنهار، ولا يدرس بالليل؟، فيقول ابن القاسم :(هو نور يجعله الله في القلوب)

قلت: لا ينبغي أن يتصدى رجل للإفتاء حتى يشهد له أهل هذا الشأن .. فإن الإفتاء توقيع عن رب العالمين .. وليس كل من نبغ في العلم صح توقيعه.

قال: وسحنون شهد له الكل .. لقد قال فيه محمد بن أحمد بن تميم: كان سحنون ثقة حافظاً للعلم فقيه البدن، اجتمعت فيه خلال قلّما اجتمعت في غيره. الفقه البارع والورع الصادق، والصرامة في الحق،والزهادة في الدنيا، والتخشن في الملبس، والمطعم، والسماحة. كان لا يقبل من السلاطين شيئاً. وربما وصل أصحابه بالثلاثين ديناراً أو نحوها، ومناقبة كثيرة.

وقال فيه عبد الرحيم الزاهد: لما خرج أسد إلى العراق، شاورته فيمن اقصد بعده، أسمع منه. فقال: عليك بهذا الشيخ ــ يعني سحنون ــ فما أعرف أحداً يشبهه.

وقال ابن حارث: سحنون أمام الناس في علم مالك. وكان فاضلاً عادلاً، مباركاً. أظهر السنة، وأخمد البدعة، وثقف رسوم القضاء بعقله وعلمه.

وقال يحيى بن عمر: (لما قدمت إلى سحنون فسألت عنه، فقيل لي: خرج إلى البادية، فجئته، فرأيت رجلاً

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

أشعر عليه جبة صوف ومنديل، وهو متول حرثه وشأنه، فاستصغرته، وندمت على تركي من تركت بالمشرق، ومجيئي إليه. وقلت: ما أراه يحفظ شيئاً من العلم، فرحب بي، فلما جالسته في العلم رأيت بحراً لا تكدره الدلاء، والله العظيم، ما رأيت مثله قط. كأنما جمع العلم عينيه في صدره)

وقال فيه ..

قاطعته قائلا: لا يكفي أن يكون المرء عالما حتى يستحق هذا المنصب الجليل، فقد يكون عالما، ولكن الدنيا تجذبه بحبالها، فلا يفتي بما يمليه علمه، بل يفتي بما يمليه هواه.

قال: كلهم قد تجذبه الدنيا غير سحنون .. لقد بلغ من العمر ثمانين سنة .. وهو لا يزال عصيا على كل من يريد أن ينحرف به عن العلم الذي تعلمه، والأدب الذي تأدبه.

لقد قال لي مرات كثيرة :(ما أحب أن يكون عيش الرجل إلا على قدر ذات يده، ولا يتكلف أكثر مما في يده، وإن طلب زوجه، فليطلبها على قدر ذات يده، في مؤونتها، وقناعتها، حتى يبقى في يده ما استغنى به، فإن كان له مال حلال، اعتمد عليه، وتفرغ للعبادة، وإن لم يكن عنده فعليه بكسب يده. فذلك أولى به من مسألة الناس .. وأكل أموال الناس بالمسكنة والصّدقة، خير من أكله بالعلم والقرآن)

لقد قال فيه صاحب لي اسمه عيسى ــ وهو من العلماء ــ: كان سحنون صمته لله، وكلامه لله، إذا أعجبه الكلام صمت، وإذا أعجبه الصمت تكلم.

قلت: لا يمكن أن يظهر الورع إلا فيمن احتوته المناصب .. وتملكته كراسيها وثقلت به إلى الأرض.

قال: كلهم قد تثقل به الكراسي إلا سحنون .. لقد ولي القضاء بعد أن ألح عليه حاكم هذه البلدة .. فلم يترك مظلمة إلا وردها .. لقد رأيته في اليوم الذي ولي فيه القضاء راكباً على دابة، ما عليه كسوة ولا قلنسوة، والكآبة في وجهه، ما يتجرأ أحد يهنّيه، فسار حتى دخل على ابنته خديجة، وكانت من خيار الناس، فقال لها: اليوم ذبح أبوك بغير سكين.

أذكر أنه في تلك الأيام كتب إليه عبد الرحيم الزاهد .. لاشك أنك لا تعرفه، فمن لا يعرف سحنون لا يمكن أن يعرف غيره .. لقد كتب إليه هذا الرجل الزاهد الصالح يقول له: أما بعد فإني عهدتك، وشأن نفسك عليك مهم، تعلم الخير وتؤدب عليه، وأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة، تؤدبهم على دنياهم، يذلّ الشريف بين يديك والوضيع. قد اشترك فيك العدو والصديق ولكلّ حظه من العدل، فأي حالتيك أفضل: الحالة الأولى أم الثانية؟ والسلام.

فكتب إليه سحنون: (أما بعد فإنه جاءني كتابك فهمت ما ذكرت فيه، وأني أجيب أنه لا حول ولا قوة في شيء إلا بالله تعالى، عليه توكلت وإليه أنيب. فأما ما كتبت أنك عهدتني وشأن نفسي عليّ مهم، أعلم الخير وأؤدب عليه، وأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة، أؤدبهم على دنياهم، ولعمري أنه من لم تصلح له دنياه، فسدت له أخراه. وفي صلاح الدنيا إذا صح المطعم والمشرب، صلاح الآخرة. فكلا الأمرين متصل بالآخرة. أؤدبهم في معاملتهم، ودفع ظالمهم عن مظلومهم، وأخذهم الأمور من وجوهها، أدب لأخرتهم. لأن بصلاح دنياهم لهم آجرتهم. وبفساد الدنيا تفسد الآخرة. وقد حدثني ابن وهب، ورفع سحنون سنده إلى النبي ﷺ قال:

(نعم المطية الدنيا، فارتحلوا، فإنها تبلغكم الآخرة)، ولن تبلغ الدنيا الآخرة من عمل في الدنيا بغير الواجب من حق الله. وأما قولك وليت أمر هذه الأمة، فإني لم أزل متبلي ينفذ قولي، منذ أربعين سنة، في أشعار المسلمين وأبشارهم. حدثني ابن وهب: أن عبيد الله بن أبي جعفر قال: (لن تزالوا بخير ما تعلمتم. فإذا احتيج إليكم فانظروا كيف تكونوا). قال ابن أبي جعفر فرأيت في المنام :(إنما المفتي قاض يجوز قوله، في أبشار المسلمين وأموالهم)، فعليك بالدعاء. فألزم ذلك نفسك والسلام.

قلت: وصحبته للسلاطين .. فإن العالم لا يفسد إلا بصحبتهم.

قال: لقد سمعته مرات كثيرة يقول: ما أقبح بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيه. فيسأل عنه، فيقال:هو عند الأمير، هو عند الوزير، هو عند القاضي، فإن هذا وشبهه شرٌّ من علماء بني إسرائيل، وبلغني إنهم يحدثونهم من الرخص ما يحبون، مما ليس عليه العمل، ويتركون ما عليه العمل، وفيه النجاة، لهم، كراهة أن يشتغلوهم. ولعمري لو فعلوا ذلك لنجوا، ووجب أجرهم على الله، فوالله لقد ابتليت بهذا القضاء، وبهم، ووالله ما أكلت لهم القمة، ولا شربت لهم شربة، ولا لبست لهم ثوباً، ولا ركبت لهم دابة، وما أخذت لهم صلة، وإني لأدخل عليه، فأكلمهم بالتشديد، وما عليه العمل وفيه النجاة. ثم أخرج عنهم، فأحاسب نفسي، فأجد عليّ الدرك مع ما ألقاهم به في الشدة والغلظة، وكثرة مخالفتي هواهم، ووعظي لهم. فوددت أن أنجو مما دخلت فيه كفافاً.

قلت: قد يكون الورع متشددا يضيق علي ما وسع الله .. وأنا لا أحب أن أترك ما رخصه لنا الشرع.

قال: وسحنون لا يقول إلا بهذا .. لقد ذكر لي عن بعض شيوخه، واسمه سفيان الثوري قوله :(إنما الفقه الرخصة من ثقة، أما التشديد فيحسنه كل أحد)

وذكر لي بسنده عن الحافظ أبي الفضل بن طاهر بسنده عن عمر بن إسحاق من التابعين قال: (كان من أدركتي من أصحاب محمد ﷺ أكثر من مائتين، لم أر قوما أهدى سيرة، ولا أقل تشديدا منهم)

وقد سمعته مرة يثني على الإمام المزني صاحب الشافعي، فيقول :(كان أشد الناس تضييقا على نفسه في الورع، وأوسعه في ذلك على الناس)[1]

ووصف مرة التابعي الجليل محمد بن سيرين، فقال: (كان محمد أرجى الناس لهذه الأمة، وأشدهم أزرا على نفسه)

قلت: قد يكون في المفتي كل ما ذكرت .. ولكنه لا يكون صاحب بصيرة يعرف بها الواقع، فلذلك يخطئ في تطبيقه الأحكام.

قال: كلهم قد يقع في هذا إلا سحنون .. فهو ملم بالواقع محيط به .. بل لم أره يجيب عن مسألة إلا بعد أن يحيط بكل ما يرتبط بها علما.

لقد جاءه مرة رجل من صطفورة، فسأله عن مسألة، وتردد عليه، فقال له: أصلحك الله مسألتي في ثلاثة أيام. فقال له: وما أصنع لك؟ ما حيلتي في مسألتك؟ نازلة معضلة، وفيها أقاويل، وأنا أتخير في ذلك، فقال

([1]) هذا النص والذي يليه ليسا من أقوال سحنون.

الرجل الصطفوري: وأنت أصحك الله لكل معضلة. فقال: هيهات، ليس يا ابن أخي. فقولك أبذل لك لحمي ودمي إلى النار، ما أكثر ما لا أعرف، إن صبرت رجوت أن تنقلب بمسألتك، وإن أردت غيري فامضِ، تجاب عن ساعة. فقال: إنما جئت إليك ولا أبتغي غيرك. قال: فاصبر عافاك الله. ثم أجابه بعد ذلك.

وقد سمعته مرات كثيرة يقول: (أجرأ للناس على الفتيا، أقلّهم علماً. يكون عند الرجل باب واحد من العلم، فيظن أن الحق كله فيه)

وسمعته يقول:(إني لأسأل عن المسألة، فأعرف في أي كتاب وورقة وصفحة وسطر، فما يمنعني عن الجواب فيها إلا كراهة الجرأة بعدي على الفتيا)

وسمعته يقول :(أنا أحفظ مسائل ما فيه ثمانية أقاويل من ثمان أئمة، فكيف يسعني أن أعجل بالجواب، حتى أتخيّر)

وقد قلت له مرة: تأتيك المسائل مشهورة مفهومة، فتأبى الجواب فيها. فقال:(سرعة الجواب بالصواب أشد فتنة من فتنة المال)

***

ما وصلنا من حديثنا إلى هذا الموضع حتى بلغنا أعرق مسجد بالقيروان، وهو المسجد الذي كان منارة للعلم والهدى قرونا طوالا[1] ..

دخلت ــ مع صاحبي ــ من بابه الواسع، فرأيت رجلا ربع القامة، بين البياض والسمرة، حسن اللحية، كثير الشعر، أعين، بعيد ما بين المنكبين، حسن اللباس[2].

رأيته يجلس على منصة عالية .. وعلى منصة على يمينه جلس رجال عليهم سمت العلماء، وعلى منصة على يساره جلس ناس من العامة ..

أشار صاحبي إليه، وقال: هذا هو سحنون .. فهيا بنا .. ولا تنسى أن تتأدب بين يديه .. فقد روينا عن علي ــ رضي الله عنه ــ قوله: (إن من حق العالم أن لا تكثر عليه السؤال ولا تعنته في الجواب ، وأن لا تلح عليه إذا أعرض ، ولا تأخذ بثوبه إذا كسل ، ولا تشير إليه بيدك ، وأن لا تغمزه بعينيك ، وأن لا تسأل في مجلسه وأن لا تطلب زلته وإن زل تأنيت أوبته وقبلت فيئته ، وأن لا تقول قال فلان خلاف قولك وأن لا

([1]) جامع القيروان (٥٠هـــ، ٦٧٠م). شُـــيد جامع القيروان بمدينة القيروان (تونس) رابع مدينة أنشئت في الإسلام بعد مدينة الفسطاط. وقد شُيِّد هذا الجامع على يد القائد عقبة بن نافع في عام ٥٠هـــ،٦٧٠م. وقد جدد المسجد مرة في أيام القائد حسان بن النعمان حوالي عام ٨٠هـ، ٦٩٩م، وزاد فيه بعد ذلك بشر بن صفوان، عامل الخليفة هشام بن عبد الملك زيادة كبيرة سنة ١٠٥هـــ، ٧٢٣م، كان من أهم ملامحها الصومعة الحالية التي تعد أقدم صومعة قائمة في العمارة الإسلامية. وفي عهد دولة الأغالبة، شهدت عمارة الجامع تطورًا كبيرًا، حيث أصبح تخطيطه مكونًا من صحن وأربع ظلات أكبرها عمقًا ظلة القبلة، كما شيدت بالجامع مجموعة قباب منها قبة المحراب التي تعد أقدم قبة محراب قائمة في المساجد الإسلامية، وكذلك قبة البهو. وعلى الرغم من الإصلاحات الكثيرة التي شهدها جامع القيروان عبر عصوره المختلفة إلا أنه ما زال يحتفظ بأعظم وأقدم العناصر، منها محرابه القديم الذي شيده عقبة بن نافع وكذلك مقصورته ومنبره اللذان يُعدَّان من أهم وأندر التحف الخشبية في الآثار الإسلامية.

([2]) هذه صفة سحنون كما في كتاب (المدارك) نقلا عن أبي العرب.

تفشي له سرا ، وأن لا تغتاب عنده أحدا وأن تحفظه شاهدا وغائبا وأن تعم القوم بالسلام وأن تخصه بالتحية ، وأن تجلس بين يديه وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته وأن لا تمل من طول صحبته إنما هو كالنخلة تنتظر متى سيقط عليك منها منفعة ، وإن العالم بمترلة الصائم المجاهد في سبيل الله ، فإذا مات العالم انثلمت في الاسلام ثلمة لا تسد إلى يوم القيامة وطالب العلم يشيعه سبعون ألفا من مقربي السماء)[1]

قلت: أراه قد فرق بين الناس .. فإلى أيهما نذهب؟

قال: أما الصنف الأول، فهو لمن يريد أن يسأل عن المسائل، ثم ينصرف بعدها .. وأما الصنف الثاني، فهو لأهل العلم .. لمن يريد منهم أن يتعلم أصول الفتاوى وآدابها ليستن بسنة رسول الله ﷺ في ذلك .. وهذا يحتاج إلى صحبته مدة من الزمن لتترسخ فيه تلك الأصول وتتثبت ..

قلت: فهيا بنا إلى حيث يجلس الصنف الثاني .. فأنا لم أخرج من بلادي إلا لأجل الأصول..

قال: ومسائلك التي تريد أن تسأل عنها؟

قلت: إذا تعلمت الأصول .. فسيسهل علي أن أجيب عنها.

جلسنا حيث يجلس أهل العلم .. وقد حاولت أن ألتزم بجميع ما تعلمته من آداب في محاضر شنقيط .. وقد جعل ذلك سحنونا يلتفت إلي، وهو يبتسم، ثم يعود إلى ما كان فيه، ويقول: لقد ذكر الإمام أحمد خمسة أصول للفتوى .. استنبطها من كلام رسول الله ﷺ وكلام العلماء .. فقال :(لا ينبغي للرجل أن ينصب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال: أولها: أن تكون له نية، فإن لم تكن له نية، لم يكن عليه نور، ولا على كلامه نور، والثانية: أن يكون له حلم ووقار وسكينة، والثالثة: أن يكون قويا على ما هو فيه وعلى معرفته، والرابعة: الكفاية (أي من العيش) وإلا مضغه الناس، والخامسة: معرفة الناس)

وقد رأيت أن هذه الأصول تؤول إلى أربعة .. لاشك أنكم تعرفونها: إنها العلم والورع والرفق والبصيرة.

---

(1) رواه المرهبي وابن عبد البر في العلم.

١ ــ العلم

قال رجل من أهل العلم: فحدثنا عن العلم .. و لم كان ركنا من أركان الفتوى؟

قال: لقد ذكر رسول الله ﷺ هذا الشرط، فقال :(إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالمًا، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فافتوا بغير علمٍ، فضلوا وأضلوا)[1]

لقد أخبر رسول الله ﷺ في هذا الحديث عن الشرط الأساسي للمفتي، فلا يمكن للمفتي أن يفتي إلا فيما له فيه علم ومعرفة وخبرة .. لقد قال الله تعالى يشير إلى الخبرة، وهي التعمق في العلم، ومعرفة تفاصيله ودقائقه :﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ (الفرقان: من الآية٥٩)

قالوا: فحدثنا عن العلوم التي يجب على العالم تعلمها قبل الجلوس للفتيا.

قال: إن كان المستفتي يفتي في كل شيء .. فعليه أن يتعلم كل شيء: فروعه وأصوله ..لقد اتفق على هذا جميع أهل الله من ورثة رسول الله ﷺ .. فقد قال الإمام الشافعي:(لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله، إلا رجلا عارفا بكتاب الله، بناسخه ومنسوخه، وبمحكمه ومتشابهه، وتأويله وتتريله، ومكيه ومدنيه، وما أريد به، وفيم أنزل، ثم يكون بعد ذلك بصيرا بحديث رسول الله ﷺ ، بالناسخ والمنسوخ، ويعرف من الحديث ما عرف من القرآن، ويكون بصيرا باللغة بصيرا بالشعر، وبما يحتاج إليه العلم والقرآن، ويستعمل ــ مع هذا ــ الإنصات وقلة الكلام، ويكون بعد هذا مشرفا على اختلاف أهل الأفكار، وتكون له قريحة (أي ملكة وموهبة) بعد هذا فإن كان هكذا فله أن يتكلم ويفتي في الحلال والحرام، وإذا لم يكن هكذا فله أن يتكلم في العلم ولا يفتي)[2]

وسئل الإمام أحمد: ما تقول في الرجل يسأل عن الشيء فيجيب بما في الحديث، وليس بعالم بالفتيا؟ قال: (ينبغي للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا، أن يكون عارفا بالسنن، عالما بوجوه الكتاب، عالما بالأسانيد الصحيحة، وإنما جاء خلاف من خالف لقلة معرفتهم بما جاء عن النبي ﷺ ، وقلة معرفتهم بصحيحها من سقيمها)

وقال :(ينبغي لمن أفتى أن يكون عالما بقول من تقدم، وإلا فلا يفتي)

وقال :(أحب أن يتعلم الرجل كل ما تكلم فيه الناس)

وسأله بعضهم: إذا حفظ الرجل مائة ألف حديث يكون فقيها؟ قال: لا قال: فمائتي ألف؟ قال: لا، قال: فثلاثمائة ألف؟ قال: لا، قال: فأربعمائة ألف؟ قال بيده هكذا وحركها.

قالوا: أفبالحفظ وحده يمكن أن يفتي؟

قال: لا .. لقد عرفتم أن الحفظ رواية .. ولا تكفي الرواية ما لم تكن معها دراية، وقد قيل للإمام عبدالله بن المبارك: متى يفتي الرجل؟ قال: إذا كان عالما بالأثر، بصيرا بالرأي .. وبهذا لا يكفي الأثر دون الرأي، ولا الرأي دون الأثر.

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) الخطيب البغدادي في كتابه (الفقيه والمتفقه)

قالوا: أيلزم أن يحفظ هذا عن ظهر قلب؟

قال: لا .. ليس بالضرورة ذلك .. وإن كان الأكمل هو ذلك.

قالوا: لقد ذكرت علوم الدين .. فهل يلزم المفتي أن يعلم علوم الدنيا؟

قال: يعلم منها ما يمكنه من فهم ما يريد أن يجيب عنه .. فلا يحل الحكم إلا بعد العلم .. وقد قال الخطيب البغدادي في كتابه (الفقيه والمتفقه):(اعلم أن العلوم كلها أبازير للفقه، وليس دون الفقه علم إلا وصاحبه يحتاج إلى ما يحتاج إليه الفقيه، لأن الفقيه يحتاج أن يتعلق بطرف من معرفة كل شيء من أمور الدنيا والآخرة، وإلى معرفة الجد والهزل، والخلاف والضد، والنفع والضر، وأمور الناس الجارية بينهم، والعادات المعروفة منهم، فمن شرط المفتي النظر في جميع ما ذكرناه، ولن يدرك ذلك إلا بملاقاة الرجال، والاجتماع مع أهل النحل والمقالات المختلفة، ومساءلتهم وكثرة المذاكرة لهم، وجمع الكتب ومدارستها، ودوام مطالعتها)

قالوا: إن هذا يستدعي اقتناء كتب كثيرة.

قال: لا ينفع الاقتناء ما لم تكن معه همة تناطح الجوزاء .. فلا يستفيد من الكتب مقتنيها، وإنما يستفيد منها قارئها .. وقد قيل لبعضهم: إن فلانا جمع كتبا كثيرة، فقال: هل فهمه على قدر كتبه؟ قيل: لا. قال: (فما صنع شيئا! ما تصنع البهيمة بالعلم؟!) .. وقال رجل لرجل كتب، ولا يعلم شيئا مما كتب: مالك من كتبك إلا فضل تعبك وطول أرقك، وتسويد ورقك!

قالوا: فما تقول فيمن يتعلم مذهبا من المذاهب، فهو يكتفي بالفتوى على أساسه؟

قال: له ذلك إن تخلى عن التعصب، وقال لمن استفتاه: هذا ما عندي، واذهب لغيري، فقد تجد عنده ما هو أفضل أو أرجح مما وجدت عندي.

قالوا: فإن لم يقل ذلك، وحرج على مستفتيه أن يتبعه؟

قال: يكون قد حجر ما وسعه الله، وضيق على الناس، وقد يكون في تضييقه ما ينفرهم.

قال ذلك .. ثم التفت إلى العامة المجتمعين، وقال: سلوني ما بدا لكم[1] .. ولن أجيبكم إلا بما كان يجيب به رسول الله ﷺ .. فلم يترك لنا شاردة ولا واردة إلا علمنا علمها.

التفسير:

قام بعض الحاضرين، وقال: لقد جئتك من شيراز[2] .. ومن مدرسة من مدارسها القرآنية العريقة .. وقد سمعوا بما عندك من علم رسول الله ﷺ .. وقد بعثوني بهذه الأسئلة المرتبطة بتفسير بعض الكلمات من كتاب

---

(1) سنحاول أن نذكر هنا أكبر قدر من النصوص في فتاوى النبي ﷺ على حسب المواضيع المختلفة مختصرة .. وذلك من باب ما اشترطناه في هذه السلسلة من محاولة التعريف بالنبي ﷺ وشمائله وهديه .. ومن باب التمهيد لأصول الفتاوى وآدابها.

(2) شيراز مدينة إيرانية تقع جنوب غربي جبال زاغروس، وتبعد عنها العاصمة طهران باتجاه الشمال بما يقارب ١٥٠٠كم. وهي من المدن الإسلامية القديمة التي استجدت عمارتها واختطاطها في الإسلام، وينتسب لها الكثير من ذوي العلم والأدب، منهم حافظ الشيرازي الشاعر الصوفي والفقيه، والشاعر مصلح سعدي الشيرازي من علماء القرن السابع الهجري، والاصطخري الشيرازي صاحب كتاب مسالك الممالك وصور الأقاليم، ومسعود الشيرازي قطب الدين محمود الذي توفي أوائل القرن الثامن الهجري، وقد شرح كتاب القانون لابن سينا وهو صاحب كتاب درة التاج في الحكمة .. وغيرهم كثير.

الله.

قال ذلك، ثم أخرج ورقة، وقال: هم يسألونك عن الكلالة الواردة في قوله تعالى:﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ)(النساء: من الآية١٧٦)

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: (ما خلا الولد والوالد)[١]

قال السائل: ويسألونك عن الراسخين في العلم، والوراد ذكرهم في قوله تعالى :﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ)(آل عمران: من الآية٧)

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(من برئت يمينه وصدق لسانه، واستقام قلبه وعف بطنه وفرجه، فذلك من الراسخين في العلم)[٢]

قال السائل: ويسألونك عن عن القناطير المقنطرة الواردة في قوله تعالى :﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)(آل عمران: من الآية١٤)

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(القنطار ألف أوقية)[٣]، وفي رواية قال :(القنطار اثنا عشر ألف أوقية)[٤]

قال السائل: ويسألونك عن شبهة عرضت لهم من قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (المائدة:١٠٥)، فقد أساء البعص فهمها، وراح يدعو إلى القعود عن الدعوة بسببها.

قال: لقد حدث أبو أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني، فقال: كيف نصنع بهذه الآية؟ قال: أي آية؟ قلت: قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (المائدة:١٠٥)، قال: أما والله، لقد سألت عنها خبيرا قال: سألت عنها رسول الله ﷺ قال :(بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهو متبعا، ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام)[٥]

وحدث أبو عامر الاشعري: قال: إنه كان فيهم شئ فاحتبس عن النبي ﷺ فقال النبي ﷺ:(ما حبسك) قال: قرأت هذه الآية:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (المائدة:١٠٥)، فقال له النبي ﷺ :(لا يضركم من ضل من الكفار إذا اهتديتم)[٦]

قال السائل: ويسألونك عن أصحاب الأعراف الذين ورد ذكرهم في سورة الأعراف.

قال: لقد حدث جابر بن عبد الله ــــ رضي الله عنه ـــ قال: سئل رسول الله ﷺ عمن استوت حسناته

---

(١) رواه أبو الشيخ في كتاب الفرائض.
(٢) رواه الطبراني وغيره.
(٣) رواه الحاكم وصححه.
(٤) رواه أحمد وابن ماجه .
(٥) رواه الترمذي وصححه.
(٦) رواه أحمد والطبراني وغيرهما.

وسيئاته، فقال :(أولئك أصحاب الأعراف)[1]، وحدث عبد الرحمن المدني قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الاعراف؟ قال: (هم ناس قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم، فمنعتهم الجنة، بمعصية آبائهم، ومنعتهم النار قتلهم في سبيل الله)[2]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ)(التوبة: من الآية١٠٨) .. أي مسجد هو؟

قال: لقد حدث في ذلك أبو سعيد ــ رضي الله عنه ــ قال: اختلف رجلان في المسجد الذي ﴿ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾، فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال الآخر: مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك، فقال :(هو مسجدي)[3]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (يونس:٦٢)

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(الذين تحابوا في الله)[4]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (يونس: من الآية٦٤)

قال: لقد حدث أبو الدرداء ــ رضي الله عنه ــ أنه سئل عن الآية التي سألت عنها، فقال: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ غيرك :(هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو ترى له، فهي بشارة في الحياة الدنيا، وبشارة في الاخرة)[5]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾(يونس: من الآية٢٦)

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(الذين أحسنوا التوحيد، والحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله)[6]

قال السائل: وهم يسألونك عن الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام .

قال: لقد حدث جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنه ــ في ذلك قال: جاء يهودي إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن النجوم التي رآها يوسف ساجدة له، وما أسماؤها؟ فلم يجبه بشئ، حتى أتاه جبريل فأخبره، فأرسل إلى البستاني اليهودي، فقال:(هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟)، قال: نعم، قال :(حرتان والطارق والذيال وذو الكفتان والفريخ ودنان وهودان وقابس والضروح والمصبح والفيلق)[7]، والضياء والنور، يعني: أباه وأمه رآها في أفق السماء ساجدة له، فلما قص رؤياه على أبيه، قال: أرى أمرا مشتتا يجمعه الله تعالى فقال

([1]) رواه ابن مردويه.

([2]) رواه الطبراني والبيهقي وسعيد بن منصور وغيرهم.

([3]) رواه مسلم وغيره.

([4]) رواه ابن مردويه.

([5]) رواه أحمد وسعيد بن منصور والترمذي وغيرهم، وله طرق كثيرة.

([6]) رواه ابن جبير وابن أبي حاتم وابن مردويه والدراقطني والبيهقي في (الرؤية)

([7]) إن صح ما ورد في هذه الحديث، فإنه يمكن تحليل هذه الأسماء لغويا ومحاولة التوصل من خلالها إلى بعض أسرار الإعجاز العلمي.

اليهودي: إي والله، إنها لأسماؤها[1].

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ (هود:١٠٥)

قال: لقد سأل عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ عنها رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، فعلى ما نعمل على شئ قد فرغ منه، أو على شئ لم يفرغ منه، قال :(بل على شئ قد فرغ منه، وجرت به الاقلام يا عمر، ولكن كل ميسر لما خلق له)[2]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد:٣٩)

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(ذلك كل ليلة قد يرفع ويجبر ويرزق، غير الحياة والموت والشقاوة والسعادة، فإن ذلك لا يبدل)[3] ، وروي عن علي ـــ رضي الله عنه ـــ أنه سأل رسول الله ﷺ عنها، فقال :(لأقرن عينك بتفسيرها، ولأقرن عين أمتي من بعدي بتفسيرها، الصدق على وجهها، وبر الوالدين واصطناع المعروف يحول الشقاء سعادة، ويزيد في العمر)[4]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾(ابراهيم: من الآية٤٨)، أين يكون الناس يومئذ؟

قال: لقد حدث ثوبان ـــ رضي الله عنه ـــ قال: جاء حبر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال: أين الناس يوم تبدل الارض غير الأرض؟ فقال رسول الله ﷺ :(فهم في الظلمة دون الجسر)[5]، وعن عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية، قلت: أين الناس يومئذ؟ قال :(هم على الصراط)[6]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (النحل:٨٨) .. فما هذه الزيادة؟

قال: لقد حدث البراء ـــ رضي الله عنه ـــ أن النبي ﷺ سئل عن قول الله تعالى :﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ (النحل:٨٨)، فقال: (عقارب أمثال النخل الطوال ينهشونهم في جهنم)[7]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾ (الاسراء: من الآية١٢)

قال: لقد سأل عبد الله بن سلام النبي ﷺ عن السواد الذي في القمر، فقال: (كانا شمسين فقال الله تعالى

---

(1) رواه سعيد بن منصور وأبو يعلى والحاكم وصححه والبيهقي في (الدلائل)
(2) رواه الترمذي وقال: حسن غريب وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه.
(3) رواه ابن مردويه.
(4) رواه ابن مردويه.
(5) رواه مسلم.
(6) رواه مسلم والترمذي وابن حبان وابن ماجه وغيرهم.
(7) رواه ابن مردويه.

:﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ)(الاسراء: من الآية١٢)، فالسواد الذي رأيت هو المحو[١]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ (المؤمنون: من الآية٦٠)

قال: لقد حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: يا رسول الله :﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ (المؤمنون: من الآية٦٠)، والذي يسرق ويزني ويشرب وهو يخاف الله قال: (لا يأتيه الصديق الذي يصلي، ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله)[٢]

قال السائل: ويسألونك عن الاستئناس الوارد في قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النور:٢٧)

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(يتكلم الرجل بتسبيحه وتكبيره وتحميده ويتنحنح، فيؤذن أهل البيت)[٣]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً) (الفرقان:١٣)

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(والذي نفسي بيده إنهم يستكرهون في النار كما استكره الوتد في الحائط)[٤]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ ﴾ (القصص: من الآية٢٩) .. فأي الأجلين قضى موسى؟

قال: لقد حدث أبو ذر ــ رضي الله عنه ــ في ذلك، فذكر أن النبي ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أوفاها وأبرهما، قال: وإن سئلت أي المرأتين تزوج، فقل :(الصغرى منهما)[٥]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ)(العنكبوت: من الآية٢٩)

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(كانوا يحذفون أهل الطريق، ويسخرون منهم فهو المنكر الذي كانوا يأتون)[٦]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا)(يّــس: من الآية٣٨)

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(مستقرها تحت العرش)[٧]

قال السائل: ويسألونك عما ورد في القرآن الكريم من صفة الحور العين.

([١]) رواه البيهقي في الدلائل، وقد تحدثنا عن الإعجاز العلمي المرتبط بها في رسالة (معجزات علمية)

([٢]) رواه أحمد.

([٣]) رواه ابن أبي حاتم.

([٤]) رواه ابن أبي حاتم.

([٥]) رواه البزار بسند ضعيف وله شواهد موصولة ومرسلة.

([٦]) رواه أحمد والبزار والترمذي وحسنه وغيرهما.

([٧]) رواه البخاري ومسلم.

قال: لقد حدثت أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ في ذلك قالت: قلت: يا رسول الله، أخبرني عن قوله تعالى :﴿ وَحُورٌ عِينٌ﴾ (الواقعة:٢٢)، قال :(العين الضخام العيون شفر الحوراء كمثل جناح النسر)، قلت: يا رسول الله، أخبرني عن قول الله تعالى :﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ (الصافات:٤٩) قال :(رقتهن كرقة الجلدة التي داخل البيضة التي تلي القشرة)[١]

وعن أم سلمة، قالت: قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى:﴿ وَحُورٌ عِينٌ﴾ (الواقعة:٢٢)، قلت: أخبرني عن قوله تعالى :﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ (الرحمن:٧٠) قال: خيرات الأخلاق، حسان الوجوه، قلت: أخبرني عن قوله تعالى :﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ (الصافات:٤٩) قال:(رقتهن كرقة الجلد المتداني في داخل البيضة مما يلى القشرة)، قلت: أخبرني عن قوله تعالى :﴿ عُرُباً أَتْرَاباً﴾ (الواقعة:٣٧) قال :(كأهن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز رمصا شمطا خلقهن الله بعد الكبر، فجعلهن عذارى عربا متعشقات متحببات على ميلاد واحد)[٢]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾(الرحمن:٦٠)

قال: لقد حدث أنس ــ رضي الله عنه ــ في ذلك قال: قرأ رسول الله ﷺ :﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾(الرحمن:٦٠)، وقال: (هل تدرون ما قال ربكم؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: يقول :(ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة)[٣]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ (الواقعة:٢٨)

قال: لقد حدث في ذلك سليم بن عامر قال: أقبل أعرابي، فقال: يا رسول الله، ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها قال: (وماهي؟) قال: السدر، فإن له شوكا مؤذيا، فقال رسول الله ﷺ :(أليس يقول الله تعالى :﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ (الواقعة:٢٨) يخضده الله من شوكه، فيجعل له مكان كل شوكة ثمرة، إنها تنبت ثمرا يفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام، ما فيها لون يشبه الآخر)[٤]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (الصافات:١٤٧)

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(يزيدون عشرين ألفا)[٥]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ (الحجرات: من الآية١٢) .. ما الغيبة؟

قال: لقد حدث أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ في ذلك قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة ؟ قال :(ذكرك أخاك بما يكره)، قال: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال:(إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم

---

(١) رواه ابن جرير.
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب البعث والطبراني .
(٣) رواه البغوي.
(٤) رواه أبو بكر بن النجار.
(٥) رواه الترمذي.

يكن فيه ما تقول فقد بهته)[1]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) (المعارج: من الآية٤)

قال: لقد حدث أبو سعيد ــ رضي الله عنه ــ في ذلك قال: قيل لرسول الله ﷺ ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) (المعارج: من الآية٤)ما أطول هذا اليوم ؟ فقال :(والذي نفسي بيده، إنه يخفف على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا)[2]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾(الانشقاق:٨)

قال: لقد حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ في هذا قالت: قال رسول الله ﷺ :(من نوقش الحساب عذب)، قلت: أليس يقول :﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾(الانشقاق:٨)، فقال :(ليس ذلك بالحساب، ولكن ذاك العرض)[3]

وعنها قالت: قلت لرسول الله ﷺ : ما الحساب اليسير؟ قال:(أن ينظر في كتابه، فيتجاوز له عنه إن من نوقش الحساب يومئذ هلك)[4]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) (الزلزلة:٤)

قال: لقد حدث أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ في ذلك قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية:﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) (الزلزلة:٤)، قال :(أتدرون ما أخبارها؟)، قالوا: الله ورسوله أعلم ؟ قال:(أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، وأن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا)[5]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾(الماعون:٥)

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها)[6]

قال السائل: ويسألونك عن المعروف الذي ورد في النصوص الحث عليه.

قال: لقد حدث في ذلك بعض الصحابة ــ رضي الله عنه ــ قال: لقيت رسول الله ﷺ في بعض طرق المدينة الشريفة، فسألته عن المعروف، وعليه إزار من قطن منتثر الحاشية، فقلت: عليك السلام يا رسول الله، فقال: (إن (عليك السلام) تحية الموتى، إن (عليك السلام) تحية الموتى، إن (عليك السلام) تحية الموتى، سلام عليكم، سلام عليكم مرتين أو ثلاثا، هكذا قال: سألت عن الازار، فقلت: أين أتزر، فأقنع ظهره بعظم ساقه، وقال: ههنا اتزر، فإن أبيت فههنا أسفل من ذلك، فإن أبيت فإن الله عز وجل لا يحب كل مختال فخور، قال: وسألته عن المعروف، فقال :(لا تحقرن من المعروف شيئا لو أن تعطي صلة الحبل، ولو أن تعطي شسع النعل ولو انتزع، ولو أن انتزع من دلوك في إناء المستسقي ولو أن تنحي الشئ من طريق الناس يؤذهم ولو أن تلقى

---

(1) رواه أبو داود والترمذي.
(2) رواه أحمد.
(3) رواه البخاري ومسلم.
(4) رواه أحمد.
(5) رواه أحمد.
(6) رواه ابن جرير وأبو يعلى.

أخاك ووجهك إلى منطلق، ولو أن تلقى أخاك فتسلم عليه، ولو أن تؤنس الوحشان في الأرض، وإن سبك رجل بشئ يعلمه فيك وأنت تعلم فيه نحوه، فلا تسبه فيكون أجره لك ووزره عليه، وما سر أذنك أن تسمعه فاعمل به، وما تساء أذنك أن تسمعه فاجتنبه)[1]

أخلاق:

جلس الرجل، فقام بعض الحاضرين، فقال: لقد رأينا الناس يختلفون في تعريف المسلم، ورأينا بعضهم يقصر الإسلام على ذلك الذي لا يعرف من دينه إلا التجهم.

ابتسم سحنون، وقال: لقد سئل رسول الله ﷺ: ما المسلم؟ فقال :(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)[2]

وسئل في محل آخر: ما المسلم؟ وأي شئ أحب في الاسلام عند الله؟ فقال: (الصلوات لوقتها، ومن ترك الصلاة فلا ولي له، والصلاة عماد الدين)[3]

وسئل: أي المسلمون خير ؟ فقال :(من سلم المسلمون من لسانه ويده)[4]

وسئل في محل آخر: أي المسلمين خير؟ فقال :(من سلم المسلمون من لسانه ويده)، وسئل أي الاسلام خير؟ فقال :(تطعم الطعام وتقرئ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)[5]

وسئل: أي الناس أكرم ؟ قال :(أكرمهم عند الله أتقاهم)، قالوا: ليس عن هذه نسألك، قال :(فعن معادن العرب تسألون؟)، قالوا: نعم، قال:(خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا)[6]

قال آخر: فما الإيمان؟

قال: لقد سئل رسول الله عنه، فقال: (إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن)، قال السائل: فالاثم؟ قال: (إذا حك في نفسك شئ فدعه)[7]

قال آخر: فحدثنا عن ضوابط البر والإثم؟

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن البر والاثم، فقال :(استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والاثم ما حاك في القلب وإن أفتاك الناس وأفتوك)[8]

وسئل عنهما في محل آخر، فقال: :(البر حسن الخلق، والاثم ما حاك في القلب والصدر، وكرهت أن يطلع عليه الناس)[9]

---

(1) رواه أحمد.
(2) رواه البخاري .
(3) رواه البيهقي في الشعب.
(4) رواه البخاري ومسلم.
(5) رواه البخاري ومسلم.
(6) رواه البخاري ومسلم.
(7) رواه أحمد وابن حبان والطبراني والحاكم والبيهقي.
(8) رواه أحمد والدارمي .
(9) رواه مسلم.

قال آخر: فحدثنا عن الوسوسة .. إنا لنجد في أنفسنا شيئا، لأن يكون لأحدنا مهمة أو يخر من السماء إلى الأرض أحب من أن يتكلم به.

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: (ذاك محض الايمان)[1]، وسأله بعضهم، فقال: يا رسول الله، إني أحدث نفسي بالشئ، لأن أخر من السماء أحب إلي من أتكلم به، فقال رسول الله ﷺ :(الله أكبر، الحمد لله، الذي رد كيده إلى الوسوسة)[2]

قال آخر: أنؤخذ بما عملنا في الجاهلية؟

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: (أما من حسن في الاسلام، فلا يؤخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول، والآخر)[3]

قال آخر: أنعمل على أمر قد فرغ منه، أو على أمر لم يفرغ منه؟

قال: لقد سأل عمر ــ رضي الله عنه ــ رسول الله ﷺ عن هذا، فقال: (بل على أمر قد فرغ منه، فاعمل يا ابن الخطاب، فكل ميسر، فإن كان من أهل السعادة، فإنه يعمل بالسعادة، وإن كان من أهل الشقاء، فإنه يعمل بالشقاء)[4].

وقال له آخر: يا رسول الله ففيم نعمل في شئ قد خلا ومضى، أو شئ مستأنف الآن؟ قال: (في شئ قد خلا ومضى)، فقال الرجل ــ أو بعض القوم ــ: ففيم العمل؟ قال: (إن أهل الجنة ييسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ييسرون لعمل أهل النار)[5]

قال آخر: أخبرني عن عمل يدخلني الجنة.

قال: لقد سئل النبي ﷺ عن ذلك، فقال :(تعبد الله، ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصل الرحم)[6]

قال آخر: فأخبرني بما هو أفضل الايمان؟

قال: لقد سأله عقبة ذلك رسول الله ﷺ، فقال: (يا عقبة، صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك)[7]

قال آخر: فحدثني عن فرائض الإسلام، والتي بها يكون المرء مسلما، فإني أرى بعض الناس يضع من الأركان ما يجعله وسيلة لتكفير المسلمين.

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن الاسلام، فقال رسول الله ﷺ :(خمس صلوات في اليوم والليلة) فقال:

---

(1) رواه مسلم.
(2) رواه أحمد وأبو داود.
(3) رواه البخاري ومسلم.
(4) رواه أحمد.
(5) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وسعيد بن منصور.
(6) رواه أحمد والترمذي.
(7) رواه أحمد.

هل علي غيرهن ؟ فقال: (لا، إلا أن تطوع)، قال رسول الله ﷺ: وصيام رمضان، قال: هل على غيره؟ قال: لا، إلا أن تطوع، قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل علي غيرها ؟ قال: لا، إلا أن تطوع، قال: فأدبر الرجل، وهو يقول والله، لا أزيد على هذا، ولا أنقص منه، فقال رسول الله ﷺ :(أفلح إن صدق)[1]

وسئل: يا رسول الله، شهدت أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله وأديت الخمس، وأديت الزكاة، وصمت رمضان وقمته، فممن أنا؟ قال: (من الصديقين والشهداء)[2]

قال آخر: فأي الاعمال أفضل؟

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(طول القيام)، قال السائل: فأي الصدقة أفضل؟ قال :(جهد المقل)[3] .. وسئل : أي الاعمال أحب إلى الله؟ قال :(الصلاة لوقتها)، قال السائل: ثم أي؟ قال :(بر الوالدين) قلت: ثم أي ؟ قال: (الجهاد في سبيل الله)[4]

قال آخر: لقد حثثتنا على الصدقة، فمن أين يتصدق من ليس له مال؟

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: (إن من ثواب الصدقة التكبير والتسبيح، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، واستغفر الله)[5]

قال آخر: ما تقول في الرجل يعمل العمل، فيستره، فإذا أطلع عليه أعجبه؟

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(أجران: أجر السر، وأجر العلانية)

قال آخر: كيف لي أن أعلم إذا أحسنت، وإذا أسأت؟

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال:(إذا قال جيرانك قد أحسنت، فقد أحسنت، وإذا قال جيرانك قد أسأت، فقد أسأت)[6]، وسأله بعضهم: يا رسول الله، كيف لي أن أعلم إذا أحسنت، وإذا أسأت؟ فقال:(إذا سمعتهم يقولون: قد أحسنت، فقد أحسنت، وإذا سمعتهم يقولون: قد أسأت، فقد أسأت)[7]

عبادات:

قام آخر ـــ وكان يحمل ورقة، وهو ينظر إليها ـــ وقال: أنا من بلاد بعيدة، لقد جئتك من طشقند، وقد أرسلني قومي إليك بمسائل في **الطهارة** .. فأرجو أن تجيبني عنها.. لقد سجلتها جميعا في هذه الورقة.

قال: سل ما بدا لك.

قال السائل: نحن قوم نركب البحر، ومعنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، فهل يجوز لنا التطهر بماء البحر؟

([1]) رواه البخاري.
([2]) رواه ابن منده وابن عساكر.
([3]) رواه أحمد.
([4]) رواه أحمد.
([5]) رواه أحمد.
([6]) رواه ابن ماجه.
([7]) رواه أحمد.

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال:(هو الطهور ماؤه، الحل ميتته)[1]

قال السائل: وهم يسألونك عن الماء يكون في الفلاة من الأرض، وما ينوبه من الدواب والسباع.

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال فقال :(إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث)[2]

قال السائل: ويسألونك عن مسح الخفين.

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(للمسافر ثلاثة أيام، والمقيم يوم وليلة)[3]، وقال له سائل: يا رسول الله، المسح على الخفين، فقال:(نعم يوما ويومين)، قال: وثلاثة قال:(نعم)[4]

قال السائل: وهم يسألونك عن التيمم.

قال: وجاءه أعرابي فقال: يا رسول الله، إني أكون في الرمل أربعة أشهر أو خمسة أشهر، فيكون النفساء والحائض والجنب فما ترى؟ فقال ﷺ :(عليك بالتراب)[5]، وقال له رجل: يا رسول الله، أصابتني جنابة ولا ماء، قال :(عليك بالصعيد، فإنه يكفيك)[6]، وقال عمار بن ياسر ــ رضي الله عنه ــ: أجنبت وأنا في الأبواب فأتيت رسول الله ﷺ فقال :(إنما يكفيك في ذلك التيمم)[7]

قال السائل: وهم يسألونك عن الجبائر.

قال: لقد سأل علي رسول الله ﷺ عن ذلك .. ففي الحديث قال علي ــ رضي الله عنه ــ : انكسرت إحدى زندي، فسألت رسول الله ﷺ فأمرني أن أمسح على الجبائر[8].

قال السائل: وهم يسألونك عن آنية الأعداء.

قال: لقد سأل أبو ثعلبة الخشني ــ رضي الله عنه ــ رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله، إنا نغزو إلى أرض العدو فنحتاج إلى آنيتهم، فقال ﷺ :(استغنوا عنها ما استطعتم، فإن لم تجدوا غيرها فاغسلوها وكلوا فيها واشربوا)[9]، وسأله عن قدور المجوس، فقال :(اتقوها غسلا واطبخوا فيها)[10]

قال السائل: وسألتك بعض النساء عن بعض الآثار التي تعلق بثوبها إن هي سارت.

قال: لقد سألت امرأة من بني عبد الاشهل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقالت: يا رسول الله، إن بيني وبين المسجد طريقا قذرا، قال :(أفبعدها طريق أنظف؟) قالت: نعم، قال :(هذه بهذه)[1]

([1]) رواه الشافعي.
([2]) رواه أحمد وأبو داود.
([3]) رواه الترمذي وصححه.
([4]) رواه ابن أبي شيبة وأبو داود.
([5]) رواه أحمد.
([6]) رواه البخاري ومسلم.
([7]) رواه الدارقطني وعبد الرزاق ابن أبي شيبة.
([8]) رواه ابن ماجه والدارقطني.
([9]) رواه أبو داود وابن أبي شيبة.
([10]) رواه أحمد والترمذي.
([1]) رواه أحمد والترمذي وعبد الرزاق وابن أبي شيبة.

قال السائل: وهي تسألك عن المرأة ترى في منامها؟

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(إذا رأت الماء فلتغتسل)[1] ، وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: سألت امرأة رسول الله ﷺ عن المرأة ترى في منامها ما يرى الرجل؟ قال:(إذا رأت ذلك فأنزلت، فعليها الغسل)، فقالت أم سلمة: يا رسول الله، أيكون هذا؟ قال:(نعم)، قال :(ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا أو سبق يكون منه الشبه)[2]

قال السائل: ويسألونك عن الفأرة تقع في السمن والزيت.

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(استصبحوا به ولا تأكلوا)[3]، وعن ميمونة ــ رضي الله عنها ــ أنها استفتت رسول الله ﷺ في فأرة سقطت في سمن جامد؟ فقال :(ألقوها وما حولها، وكلوا سمنكم)[4]، وعن ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن فأرة وقعت في ودك لنا؟ فقال النبي ﷺ :(إن كان جامدا فألقوها وما حولها، وكلوا ودككم)، قالوا: يا رسول الله، إن كان مائعا، قال :(فلا تقربوه)[5]

قال السائل: ويسألونك عن قضاء الحاجة.

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فأمر السائل (أن يتنكب القبلة[6]، ولا يستقبلها ولا يستدبرها ولا يستقبل الريح، وأن يستنجي بثلاثة أحجار ليس فيها رجيع أو ثلاثة أعواد أو ثلاثة حثيات من تراب)[7]

قال السائل: ويسألونك عن كيفية الوضوء للصلاة.

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: (أسبغ الوضوء، وخلل بين الأصابع، وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائما)[8]

وعن عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف الطهور ؟ فدعا بماء في إناء، فغسل كفيه ثلاثا، ثم غسل وجهه ثلاثا، ثم غسل ذراعيه ثلاثا، ثم مسح برأسه، وأدخل إصبعيه السباتين في أذنيه، ومسح بإبهاميه على ظاهر أذنيه وبالسباتين باطن أذنيه، ثم غسل رجليه ثلاثا ثلاثا، ثم قال :(هكذا الوضوء، فمن زاد على هذا، أو نقص، فقد أساء وظلم)[1]

قال السائل: ويسألك بعض النسوة عن كيفية طهارة الحائض.

---

(1) رواه ابن ماجه عن زينب بنت أم سلمة والطبراني في الاوسط عن سهلة بنت سهيل، وعن أبي هريرة والنسائي عن خولة بنت حكيم.
(2) رواه مسلم.
(3) رواه الدارقطني.
(4) رواه البخاري.
(5) رواه الدارقطني وابن جرير.
(6) يتنكب القبلة: أي لا يستقبلها ولا يستدبرها.
(7) رواه الدارقطني.
(8) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.
(1) رواه أبو داود.

قال: لقد حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ في ذلك قالت: دخلت أسماء بنت شكل على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، كيف تغتسل إحدانا إذا تطهرت من الحيض، قال: تأخذ سدرها وماءها فتتوضأ وتغسل بدنها ورأسها، حتى يبلغ الماء أصول شعرها، ثم تفيض الماء على جسدها، ثم تأخذ فرصتها فتتطهر بها، فقلت: يا رسول الله، كيف أتطهر بها قال: سبحان الله تطهري بها ؟ فاجتذبتها إلي فقلت: تتبعي بها أثر الدم[1] .

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أن أسماء سألت النبي ﷺ عن غسل الحيض قال: (تأخذ إحداكن ماءها وسدرها فتتطهر فتحسن الطهور، ثم تصب الماء على رأسها، فتدلكه دلكا شديدا، حتى يبلغ الماء أصول شعرها، ثم تفيض على جسدها ثم تأخذ فرصة ممسكة فتتطهر بها)[2]

قال السائل: ويسألنك عن الاستحاضة.

قال: لقد حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ في ذلك أن أم حبيبة ــ رضي الله عنها ــ استحيضت سبع سنين، فسألت رسول الله ﷺ فقال: إنما هو عرق، وليست بالحيضة، فأمرها أن تغتسل وتصلي، وكانت تغتسل وتصلي، وكانت تغتسل لكل صلاة وتجلس في المركن فيعلو الدم[3].

وعنها قالت: جاءت فاطمة بنت أبي حبيش إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله، إني امرأة أستحاض، فلا أطهر، أفأدع الصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ :(لا، إنما هو عرق وليس بحيض، فإذا أقبلت حيضتك فدعي الصلاة، وإن أدبرت فاغسلي عنك الدم ثم صلي)[4]

قال السائل: ويسألنك :(كم تجلس المرأة إذا ولدت؟)

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(تجلس أربعين يوما، إلا أن ترى الطهر قبل ذلك)[5]

قام رجل تظهر عليه ملامح الأندونيسيين، وقال: أنا رجل من جاكرتا، أرسلني أهل بلدي إليك بمسائل من العلم ترتبط **بأحكام الصلاة**، وقد خصوك بذلك لما يعرفون من حرصك على ما وردت به الأسانيد عن النبي ﷺ ..

قال: سل ما بدا لك.

أخرج السائل ورقة من جيبه، وقال: هم يسألونك عما ورد في فضل الصلاة .. فقد ظهر فيهم من يهون من شأنها، ويقدم كثيرا من الأعمال عليها.

قال: لقد حدث في ذلك ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فسأله عن أفضل الاعمال، فقال رسول الله ﷺ :(الصلاة) قال: ثم مه؟ قال: (الصلاة)، قال: ثم مه؟ قال: (الصلاة)، قال: فلما غلب عليه، قال رسول الله ﷺ :(الجهاد في سبيل الله)، قال الرجل: فإن لي والدين، فقال رسول الله ﷺ :(

([1]) رواه مسلم وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة واللفظ لهما.
([2]) رواه عبد الرزاق وأحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه.
([3]) رواه الشافعي والبخاري.
([4]) رواه البخاري ، وفي لفظ عند ابن أبي شيبة :(وليست بالحيض، اجتنبي الصلاة أيام حيضتك ثم اغتسلي وتوضأي لكل صلاة، ثم صلي ولو بسط الدم على الحصير)
([5]) رواه الدارقطني.

آمرك بالوالدين خيرا)[1]

وعن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أي شئ أحب في الاسلام عند الله؟ قال :(الصلاة لوقتها، ومن ترك الصلاة فلا دين له، والصلاة عماد الدين)[2]

وعن عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: سألت رسول الله ﷺ أي الاعمال أفضل؟ قال: الصلاة لميقاتها، قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أي ؟ قال: الجهاد في سبيل الله، فسكت عنه رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني[3].

وعن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: سألت رسول الله ﷺ أي الاعمال أفضل؟ قال:(الصلاة لميقاتها الأول)[4]

قال السائل: وهم يسألونك عن الصلاة الوسطى.

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(هي العصر)[5]

قال السائل: لقد جاء فيهم من يشكك في كراهية الصلاة في أوقات معينة، فهل جاء عن النبي ﷺ في ذلك شيء؟

قال: لقد سأل صفوان بن المعطل في ذلك رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني سائلك عن ساعات الليل والنهار، وهل فيها شئ يكره فيه الصلاة؟ فقال النبي ﷺ :(نعم)[6]

قال السائل: ويسألونك عن الصلاة في مبارك الإبل ومرابض الغنم.

قال: لقد حدث البراء ــ رضي الله عنه ــ في ذلك قال: سئل رسول الله ﷺ عن الصلاة في مبارك الإبل، فقال: لا تصلوا فيها، وسئل عن الصلاة في مرابض الغنم، فقال: صلوا فيها، فإنها بركة[7]، وعنه قال: سئل رسول الله ﷺ أنصلي في معاطن الابل ؟ قال: لا، قال: أفنصلي في مرابض الغنم ؟ قال: نعم[8].

قال السائل: ويسألونك عن صلاة الرجل قاعدا.

قال: لقد حدث في ذلك عمران بن الحصين ــ رضي الله عنه ــ قال: كانت بي بواسير، فسألت رسول الله ﷺ عن صلاة الرجل قاعدا، فقال :(إن صلى قائما فهو أفضل، ومن صلى قاعدا فله نصف أجر القائم، ومن صلى نائما فله نصف أجر القاعد)[1]

قال السائل: أنت تعلم أنا في بلاد عجم، وقد استعصى على بعضنا حفظ ما تلزمهم الصلاة به من القرآن

---

(1) رواه أحمد.
(2) رواه البيهقي في شعب الايمان.
(3) رواه البخاري.
(4) رواه الدارقطني، ورواه أيضا عن ابن عباس.
(5) رواه أحمد.
(6) رواه البيهقي.
(7) رواه أحمد وأبو داود وابن شيبة.
(8) رواه الترمذي.
(1) رواه أحمد والبخاري.

الكريم.

قال: لقد حدث عبد الله بن أبي أوفى ـــ رضي الله عنه ـــ في ذلك قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني لا أستطيع أن أتعلم القرآن، فماذا يجزؤني؟ قال: تقول: سبحان الله، والحمد لله والله أكبر، ولا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، العلي العظيم، فقال الرجل هكذا، أو جمع أصابعه الخمس، قال: هذا لله، فما لي؟ قال: (تقول: اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني وعافني)، وقبض الرجل كفه جميعا فقال النبي ﷺ : (أما هذا فقد ملا يديه من الخير)[1]

قال السائل: ويسألونك عن الجهر والسر خلف الإمام.

قال: لقد حدث علي ـــ رضي الله عنه ـــ في ذلك قال: قال رجل للنبي ﷺ : أأقرأ خلف الامام أو أنصت؟ قال: (بل أنصت، فإنه يكفيك)[2]

قال السائل: ويسألونك :(أفي كل صلاة قراءة؟)

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(نعم، ذلك واجب)[3]

قال السائل: ويسألونك عن كيفية الصلاة على رسول الله ﷺ .

قال: لقد حدث في ذلك كعب بن عجرة ـــ رضي الله عنه ـــ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، قد علمتنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: (اللهم، صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد)[4]

وعن ابن مسعود ـــ رضي الله عنه ـــ قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشر بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال ﷺ : قولوا:(اللهم، صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد)[5]

قال السائل: ويسألونك عن الصلاة في الثوب الواحد.

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(أو كلكم يجد ثوبين)[1]، وعن عبادة بن الصامت ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ سئل عن الصلاة في الثوب الواحد، فقال: (إن كان واحدا فليضمه، وإن كان عاجزا فليأتزر به)[2]

([1]) رواه أبو داود وعبد الرزاق واللفظ له.

([2]) رواه الدارقطني، وضعف إسناده.

([3]) رواه ابن عدي والبيهقي في كتاب (الغزاة)

([4]) رواه البخاري ومسلم.

([5]) رواه مسلم.

([1]) رواه البخاري ومسلم.

([2]) رواه الطبراني في الكبير.

قال السائل: والمرأة .. هل يجوز لها أن تصلي في درع وخمار، ليس عليها إزار؟

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(إذا كان الدرع سابغا يغطي ظهور قدمها)[1]

قال السائل: فهل تجوز الصلاة في السفينة؟

قال: لقد حدث في ذلك ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: بعث رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب إلى أرض الحبشة، قال يا رسول الله، أصلي في السفينة؟ قال: (صل فيها قائما إلا أن تخاف الغرق)[2]

قال السائل: ويسألونك عن رد السلام في الصلاة.

قال: لقد حدث في ذلك ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: كنا نسلم على رسول الله ﷺ وهو في الصلاة فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه، فلم يرد علينا، وقال: (إن في الصلاة شغلا)[3]

قال السائل: ويسألونك عن الالتفات في الصلاة.

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد)[4]

قال السائل: ويسألونك عن إعادة الصلاة ابتغاء أجر الجماعة.

قال: لقد حدث في ذلك أبو أيوب ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا سأله فقال: يصلي أحدنا في مترله الصلاة، ثم يأتي المسجد وتقام الصلاة فأصلي معهم، فأجد في نفسي من ذلك شيئا، فقال أبو أيوب: سألنا عن ذلك النبي ﷺ فقال :(فذلك له سهم جمع)[5]

قال السائل: ويسألونك عن السهو في الصلاة.

قال: لقد حدث في ذلك عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني صليت، فلم أدر أشفعت أم أوترت، فقال رسول الله ﷺ :(إياكم وأن يتلعب بكم الشيطان في صلاتكم، من صلى منكم فلم يدر أشفع أم أوتر فليسجد سجدتين فإنهما إتمام صلاته)[6]

قال السائل: ويسألونك عن ساعة الجمعة التي ورد في النصوص الإخبار بفضلها.

قال: لقد حدث في ذلك عمرو بن عوف ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال: (إن في الجنة ساعة لا يسأل الله عز وجل العبد فيها شيئا إلا أتاه الله)، قالوا: يا رسول الله، أي الساعة؟ قال :(هي من حين تقام الصلاة إلى الانصراف)[1]

وعن سعد بن عبادة ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا من الانصار جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول

([1]) رواه الدارقطني وأبو داود والحاكم.

([2]) رواه الدارقطني وضعفه.

([3]) رواه البخاري ومسلم، وفي لفظ لعبد الرزاق: فلما جئت من أرض الحبشة سلمت عليه فلم يرد علينا أحد في ما تقدم وما تأخر، ثم انتظرته، فلما قضى صلاته ذكرت ذلك له، فقال: (إن الله تعالى يحدث من أمره ما يشاء، وإنه قد قضى ــ أو قال: أحدث ــ أن لا تكلموا في الصلاة)

([4]) رواه البخاري ومسلم.

([5]) رواه أبو داود.

([6]) رواه البيهقي في الغزاة .

([1]) رواه الترمذي وحسنه.

الله، أخبرنا عن يوم الجمعة ما فيها من الخير؟ فقال رسول الله ﷺ :(فيه خمس خلال، فيه خلق آدم، وفيه هبط عليه السلام إلى الأرض، وفيه توفى الله تعالى آدم، وفيه ساعة لا يسأل العبد فيها شيئا إلا أعطاه إياه ما لم يسأل إثما أو قطيعة رحم، وفيه تقوم الساعة فما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا جبال ولا حجر إلا وهو يشفق من يوم الجمعة)[1]

قال السائل: ويسألونك عن كيفية صلاة الليل.

قال: لقد حدث ابن عمر ـــ رضي الله عنه ـــ في ذلك قال: يا رسول الله، كيف صلاة الليل؟ فقال رسول الله ﷺ :(صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشيت الصبح، فأوتر بواحدة)[2]

وعن عمران بن حصين ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر، فقال :(هي الصلاة، بعضها شفع وبعضها وتر)[3]

وعن ابن عمر ـــ رضي الله عنه ـــ أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن الوتر، فقال: (افصل بين الثنتين والواحدة بالسلام)[4]

وعن عبد الله بن وحشي ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ سئل أي الاعمال أفضل؟ فقال :(طول القنوت[5])[6]

وعن أبي مسلم قال: قلت لأبي ذر: أي صلاة الليل أفضل؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ فقال :(نصف الليل، وقليل فاعله)[7]

وعن عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ قالت: قلت: يا رسول الله، من أسلم معك؟ قال: حر وعبد، قال: هل من ساعة أقرب إلى الله تعالى من الأخرى؟ قال: (نعم، جوف الليل الأوسط)[8]

وعن ربيعة بن كعب الاسلمي ـــ رضي الله عنه ـــ قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وبحاجته، فقال: سلني، فقلت إني أسألك مرافقتك في الجنة، قال: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذلك، قال :(فأعني عن نفسك بكثرة السجود)[1]

وعن معدان بن أبي طلحة قال: لقيني ثوبان مولى رسول الله ﷺ فقلت: أخبرني بعمل أعمله يدخلني الجنة ـــ أو قلت: بأحب الاعمال إلى الله تعالى ـــ فسكت، ثم سألته الثالثة، فقال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقال: (عليك بكثرة السجود لله عز وجل، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله تعالى بها درجة وحط عنك

---

(1) رواه الشافعي وأحمد.
(2) رواه البخاري ومسلم.
(3) رواه الترمذي واستغربه.
(4) رواه الدارقطني.
(5) فسر القنوت هنا: بالقيام في الصلاة.
(6) رواه أبو داود.
(7) رواه أحمد والنسائي.
(8) رواه النسائي وابن ماجه.
(1) رواه مسلم.

خطيئة) قال معدان: ثم لقيت أبا الدرداء ـــ رضي الله عنه ـــ فسألته، فقال مثل ما قال لي ثوبان[1].

قال السائل: ويسألونك عن صلاة النافلة في البيت.

قال: لقد حدث في ذلك عمر ـــ رضي الله عنه ـــ قال: سألت رسول الله ﷺ عن صلاة الرجل في بيته، فقال :(أما صلاة الرجل في بيته فنور، فنوروا قبوركم)[2]

قال السائل: ويسألونك: متى يصلي الصبي.

قال: لقد حدث في ذلك معاذ بن عبد الله بن حبيب الجهني ـــ رضي الله عنه ـــ أنه قال لامرأته: متى يصلي الصبي؟ فقالت: كان رجل منا يذكر عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن ذلك، فقال: (إذا عرف يمينه من شماله، فمروه بالصلاة)[3]

قال السائل: ويسألونك عن النوم عن صلاة الفجر.

قال: لقد حدث في ذلك أبو قتادة ـــ رضي الله عنه ـــ في ذلك أن رسول الله ﷺ كان في سفر، فمال رسول الله ﷺ فملت معه، فقال: انظر فقلت: هذا راكب، هذان راكبان، هؤلاء ثلاثة، حتى صرنا سبعة، فقال:(احفظوا علينا صلاتنا)، يعني صلاة الفجر، فضرب على آذانهم فما أيقظهم إلا حر الشمس فقاموا فساروا هنيهة، ثم نزلوا فتوضأوا وأذن بلال فصلوا ركعتي الفجر، ثم صلوا الفجر وركبوا، فقال بعضهم لبعض: قد فرطنا في صلاتنا، فقال النبي ﷺ :(إنه لا تفريط في النوم، إنما التفريط في اليقظة، فإذا سها أحدكم عن صلاة، فليصلها حين يذكرها ومن الغير للوقت)[4]

قال السائل: ويسألونك عن وقت صلاة الفجر.

قال: لقد ورد في الحديث عن أنس ـــ رضي الله عنه ـــ أن النبي ﷺ سئل عن صلاة الفجر، فأمر بلالا، فأذن حين طلع الفجر، ثم من الغد حين أسفر، ثم قال: أين السائل قال: (الوقت ما بين هذين الوقتين)[5]

قال السائل: ويسألونك عن القيام للجنازة.

قال: لقد حدث في ذلك ابن عمر ـــ رضي الله عنه ـــ قال: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، تمر بنا جنازة الكافر، فنقوم؟ قال: (نعم، فإنكم لستم تقومون لها، إنما تقومون إعظاما للذي خلق النفوس)[1]

وعن جابر ـــ رضي الله عنه ـــ ي قال: مرت جنازة، فقام لها رسول الله، فقمنا معه، فقلنا: يا رسول الله، إنها يهودية، فقال :(إن للموت فزعا، فإذا رأيتم الجنازة فقوموا)[2]

قال: ويسألونك عن ترك بعض الصالحين الصلاة على بعض الناس بسبب بعض أعمالهم.

---

(1) رواه مسلم.
(2) رواه ابن ماجه.
(3) رواه أبو داود.
(4) رواه أبو داود والترمذي والنسائي.
(5) رواه ابن أبي شيبة.
(1) رواه أحمد.
(2) رواه البخاري ومسلم.

قال: لقد حدث في ذلك أنس ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا قال: يا رسول الله، إن أمي أصابها حمل فلم تفطر حتى ماتت قال :(اذهب فصل عليها فإن أمك قتلت نفسها)[1]

جلس الأندونيسي، فقام رجل آخر، فقال: أنا من ماليزيا، ومن بلدة بها يقال لها (كوالا لامبور) .. لاشك أنكم تعرفونها .. دعنا منها .. لقد أرسلني بعض قومي إليك.. وهم من رجال الأعمال .. بهذه الأسئلة المتعلقة **بأحكام الزكاة** .. فأرجو أن تجيبنا عنها.

قال: سل ما بدا لك.

قال السائل: لقد نبتت فينا نابتة تزعم أن الضريبة تغني عن الزكاة .. فهل يصح ذلك؟

قال: لقد حدث أنس ــ رضي الله عنه ــ في ذلك أن رجلا قال: يا رسول الله، ناشدتك بالله، أنه أمرك أن تأخذ الصدقة من الاغنياء، وتعطيها للفقراء ؟ قال: (اللهم، نعم)[2]

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ :(ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمى عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره)[3]

وعن عطاء قال: بلغني أن أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ كانت تلبس أوضاحا من ذهب، فسألت عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقالت: أكنز هو ؟ فقال: (إذا أديت زكاته فليس بكنز)[4]

قال السائل: وهم يسألونك عن زكاة الثورة الزراعية.

قال: لقد حدث أبو سيارة ــ رضي الله عنه ــ قال: قلت: يا رسول الله، إن لي نحلا قال: (أد العشر)، قلت: يا رسول الله، احمها لي، فحماها لي[5].

قال السائل: ويسألونك عن حكم تعجيل الزكاة.

قال: لقد حدث علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ أن العباس ــ رضي الله عنه ــ سأل رسول الله ﷺ في تعجيل زكاته قبل أن يحول الحول، فرخص له في ذلك[6].

قال السائل: ويسألونك عن زكاة القطن.

قال: لقد حدث أبيض بن حمال ــ رضي الله عنه ــ في ذلك أنه كلم رسول الله ﷺ في الصدقة حين وفد عليه، فقال: يا أخا سبأ، لابد من صدقة، فقال إنما زرعنا القطن يا رسول الله، وقد تبددت سبأ و لم يبق إلا قليل بمأرب، فصالح نبي الله ﷺ على سبعين حلة بز من قيمة وفاء فلم يزالوا يؤدونها حتى قبض رسول الله ﷺ وإن العمال انتفضوا عليهم بعد قبض رسول الله ﷺ فيما صالح أبيض بن حمال رسول الله ﷺ في الحلل السبعين فرد

---

(1) رواه تمام وابن عساكر.
(2) رواه الشافعي، وهو طرف من حديث ضمام بن ثعلبة.
(3) رواه مسلم.
(4) رواه الدارقطني.
(5) رواه ابن ماجه.
(6) رواه أحمد وأبو داود.

ذلك أبو بكر على ما وضعه رسول الله ﷺ حتى مات أبو بكر - ــ رضي الله عنه ــ فلما مات أبو بكر انتقض ذلك وصارت على الصدقة[1].

قال السائل: ويسألونك عن زكاة الفطر.

قال: لقد حدث في ذلك علي ــ رضي الله عنه ــ في ذلك أن بعض البادية جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: هل علينا زكاة الفطر؟ فقال رسول الله ﷺ :(هي على كل مسلم صغير أو كبير حر أو عبد: صاعا من تمر أو شعير أو أقط)[2]

قال السائل: ويسألونك عما يأخذه العامل من الزكاة لنفسه.

قال: لقد حدث في ذلك عبادة بن الصامت ــ رضي الله عنه ــ قال: استعملني رسول الله ﷺ على الصدقة، فقال: اتق الله تعالى، يا أبا الوليد، لا تأت يوم القيامة ببعير تحمله له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر لها نواح، فقال: يا رسول الله، وإن ذلك لكذا؟ فقال رسول الله ﷺ:(إي والذي نفسي بيده، إلا من رحم الله)، قال: والذي بعثك بالحق، لا أعمل على شئ أبدا[3].

قال السائل: فهل يجوز كتم المال على العاملين إذا تبين اعتداؤهم.

قال: لقد حدث بشر بن الخصاصية ــ رضي الله عنه ــ في ذلك قال: قلت: يا رسول الله، إن أهل الصدقة يعتدون علينا، أفنكتم من أموالنا بقدر ما يعتدون علينا؟ فقال: لا[4].

قال السائل: ولكن العاملين قد يجورون في إنفاقها؟

قال: لقد حدث أنس ــ رضي الله عنه ــ في ذلك قال: أتى رجل من بني تميم رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني ذو مال كثير وذو أهل ومال وحاضرة فأخبرني كيف أصنع وكيف أنفق فقال رسول الله ﷺ :(تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك وتصل أقرباءك، وتعرف حق المسكين، والجار والسائل)، فقال: يا رسول الله، أقلل لي، فقال :﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴾ (الاسراء:٢٦)، فقال: يا رسول الله، إذا أديت الزكاة إلى رسولك، فقد برئت منها إلى الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ :(نعم، إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها، ولك أجرها وإثمها على من بدلها)[5]

قال السائل: ويسألونك عمن وقف عقارا في سبيل الله.

قال: لقد حدث عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ في ذلك قال: قلت لرسول الله ﷺ: إني أصبت أرضا بخيبر لم أصب مالا قط أنفس عندي منه، فما تأمرني به؟ قال: (إن شئت حبست أصلها، وتصدقت بها)، فتصدق بها عمر، أنه لا يباع أصلها، ولا يوهب ولا يورث، وتصدق بها في الفقراء، وفي القربى، وفي الرقاب،

---

(١) رواه أبو داود.
(٢) رواه الدارقطني.
(٣) رواه الشافعي والبيهقي عن طاوس مرسلا والطبراني وابن عساكر عن عبادة.
(٤) رواه أبو داود.
(٥) رواه أحمد.

وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، ويطعم غير متمول[1].

قال السائل: ويسألونك عن أفضل الصدقة.

قال: لقد حدث في ذلك أبو هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ ي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل ؟ قال: (أن تتصدق، وأنت صحيح حريص، تأمل الغنى، وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان)[2]

وعنه قال: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: (جهد المقل وابدأ بمن تعول)[3]

وروي أن سعد بن عبادة ـــ رضي الله عنه ـــ أتى رسول الله ﷺ فقال: أي الصدقة أحب إليك ؟ قال: (الماء)[4]

قال السائل: بعض النسوة يسألنك عن الصدقة على أزواجهن.

قال: لقد حدثت في ذلك زينب امرأة ابن مسعود ـــ رضي الله عنها ـــ قالت: قال رسول الله ﷺ :(تصدقن يا معشر النساء، ولو من حليكن)، قالت: فرجعت إلى عبد الله ابن مسعود ـــ رضي الله عنه ـــ فقلت: أنك رجل خفيف ذات اليد، وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة، فأته فاسأله، فإن كان ذلك يجزئ عني وإلا صرفتها إلى عويمر، فقال عبد الله بن مسعود ـــ رضي الله عنه ـــ: بل ائتيه أنت، فانطلقت، فإذا امرأة من الانصار بباب رسول الله ﷺ حاجتها مثل حاجتي، وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة، فخرج علينا بلال، فقلنا له: ائت رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك: أتجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما؟ ولا تخبره من نحن، فدخل بلال ـــ رضي الله عنه ـــ على رسول الله ﷺ فسأله، فقال رسول الله ﷺ أي الزيانب قال: امرأة عبد الله بن مسعود، فقال رسول الله ﷺ :(لها أجران أجر القرابة، وأجر الصدقة)[5]

وعن أم سلمة ـــ رضي الله عنها ـــ قالت: قلت: يا رسول الله، هل لي أجر في عيال سلمة أن أنفق عليهم؟ فقال: (أنفقي عليهم، فلك أجر ما أنفقت عليهم)[6]

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق ـــ رضي الله عنه ـــ قالت: قلت: يا رسول الله، مالي مال إلا ما أدخل على الزبير، أفأتصدق؟ قال: (تصدقي ولا توعي فيوعى عليك)[1]

وعن عمير مولى أبي اللحم ـــ رضي الله عنه ـــ قال: كنت مملوكا، فسألت رسول الله ﷺ: أأتصدق من

([1]) رواه أحمد.

([2]) رواه البخاري.

([3]) رواه أبو داود والعسكري في الامثال.

([4]) رواه أبو داود.

([5]) رواه البخاري ومسلم.

([6]) رواه البخاري.

([1]) رواه البخاري ومسلم، وفي لفظ (أنفقي أو أنفحي أو أنضحي، ولا تحصي فيحصى عليك ولا توعي فيوعى الله تعالى عليك)

مال موالي بشيء؟ قال: (نعم، والأجر بينكما نصفان)[1]

وعن أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ قالت: قلت: يا رسول الله، هل لي أجر في بني أبي سلمة أن أنفق عليهم، ولست بتاركتهم هكذا؟ وإنما هم بني، فقال: (نعم، لك أجر ما أنفقت عليهم)[2]

وعن بريدة ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا سأل رسول الله ﷺ فقال: إني تصدقت على أمي بعبد، وإنها ماتت، فقال رسول الله ﷺ : (وجبت صدقتك، وهو لك بميراثك)[3]

قال السائل: ويسألونك عن الصدقة عمن مات من الأقارب.

قال: لقد حدث في ذلك ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أن سعد بن عبادة توفيت أمه، وهو غائب عنها فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أمي توفيت، وأنا غائب عنها فهل ينفعها شيء، إن تصدقت عنها؟ قال: نعم، قال: فإني أشهدك أن حائطي المخراف صدقة عليها[4].

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أن رجلا قال لرسول الله ﷺ : إن أمي افتلتت نفسها، وأراها لو تكلمت تصدقت، أفأتصدق عنها؟ قال: (نعم، تصدق عنها)[5]

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا قال للنبي ﷺ: إن أبي مات، و لم يوص أفينفعه، أن أتصدق عنه، قال: نعم[6].

قال السائل: ويسألك بعضهم عن بعض أعمال الخير التي عملوها في جاهليتهم .. هل يلحقهم أجرها؟

قال: لقد حدث حكيم بن حزام ــ رضي الله عنه ــ في ذلك قال: قلت: يا رسول الله، أمور كنت أتحنث بها في الجاهلية من صلة وعتاقة وصدقة، هل كان لي فيها من أجر؟ قال حكيم: قال رسول الله ﷺ : (أسلمت على ما سلف من خير)[7]

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: قلت لرسول الله ﷺ: إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المساكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: (لا، يا عائشة، إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين)[8]

قال السائل: ويسألونك عن الشحاذين الذين احترفوا الشحاذة مع استغنائهم.

قال: لقد حدث في ذلك ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ:(من سأل الناس، وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خموش، أو خدوش، أو كدوح)، قيل: يا رسول الله وما يغنيه؟ قال:

---

(1) رواه مسلم.
(2) رواه البخاري.
(3) رواه الشافعي.
(4) رواه البخاري.
(5) رواه البخاري ومسلم.
(6) رواه مسلم .
(7) رواه البخاري ومسلم.
(8) رواه البخاري ومسلم.

(خمسون درهما)[1]

جلس الماليزي، فقام رجل آخر، وقال: أنا من سريلانكا .. تلك الجزيرة الجميلة النائمة على ضفاف المحيط الهندي .. لقد كانت تعرف قديما بسيلان .. أنا من مدينة منها تسمى كولومبو .. وقد أرسلني أهلها إليك في بعض مسائل ترتبط **بأحكام الصيام**.

قال ذلك، ثم أخرج ورقة، وراح يقرأ بعربية ممتزجة ببعض العجمة: هم يسألونك عن أفضل الصيام.

قال: لقد حدث أنس ــ رضي الله عنه ــ في ذلك قال: سئل رسول الله ﷺ أي الصوم أفضل؟ قال: شعبان لتعظيم رمضان، قال: فأي الصدقة أفضل ؟ قال صدقة رمضان[2].

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة، قال: الصلاة في جوف الليل، قال: فأي الصيام أفضل بعد رمضان ؟ قال: شهر الله الذي تدعونه المحرم[3].

قال السائل: ويسألونك عن النية في صوم النافة .. هل تجزئ أن ينوي أحدنا في النهار؟

قال: لقد حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ في ذلك قالت: دخل علي رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال: هل عندكم شئ؟ قلنا: لا، قال :(فإني صائم)[4]

قال السائل: ويسألونك عن قطع صوم النافلة بعد البدء به لجوع عارض أو لعلة.

قال: لقد حدثت في ذلك أم هانئ ــ رضي الله عنها ــ قالت: دخل علي رسول الله ﷺ، فدعا بشراب فشرب ثم ناولها فشربت، فقالت: يا رسول الله، أما إني كنت صائمة، فقال رسول الله ﷺ :(الصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام، وإن شاء أفطر)[5]

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: أهديت لحفصة شاة، ونحن صائمتان ففطرتني، فكانت ابنة أبيها، فلما دخل علينا رسول الله ﷺ ذكرنا ذلك له، فقال :(أبدلا يوما مكانه)[6]

قال السائل: ويسألونك عن الذي ينوي الصوم، لكنه يدعى لوليمة، وهو يرى أنه إن لم يأكل معهم يتحرج صاحب الوليمة.

قال: لقد حدث في ذلك إبراهيم بن عبيد، قال: صنع أبو سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ طعاما، فدعا النبي ﷺ وأصحابه فقال رجل من القوم: إني صائم، فقال له رسول الله ﷺ :(صنع لك أخوك، وتكلف لك أخوك، أفطر وصم يوما مكانه)[1]

---

(1) رواه أحمد وأبو داود.
(2) رواه الترمذي واستغربه وابن شاهين في الترغيب.
(3) رواه أحمد وابن ماجة.
(4) رواه النسائي.
(5) رواه أحمد.
(6) رواه أحمد.
(1) رواه الدارقطني.

قال السائل: ويسألونك عن قيئ الصائم.

قال: لقد حدث في ذلك فضالة بن عبيد ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ كان صائما فقاء، فأفطر، فسئل عن ذلك فقال: إني قئت[1].

قال السائل: ويسألونك عن اكتحال الصائم.

قال: لقد حدث أنس ــ رضي الله عنه ــ في ذلك قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: قد اشتكيت عيني أفأكتحل وأنا صائم ؟ قال: (نعم)[2]

قال السائل: ويسألونك عن مداعبة الصائم لزوجته.

قال: لقد حدث أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ في ذلك أن شيخا وشابا سألا رسول الله ﷺ عن القبلة للصائم فنهى الشاب ورخص للشيخ[3].

وعنه أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن المباشرة للصائم فرخص له، وأتاه آخر فنهاه، فإذا الذي رخص له شيخ، والذي نهاه شاب[4].

قال السائل: ويسألونك عمن أكل أو شرب ناسيا.

قال: لقد حدث في ذلك أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني كنت صائما فأكلت وشربت ناسيا فقال: (أطعمك الله وسقاك)[5]

وعن أم إسحاق الغنوية ــ رضي الله عنها ــ قالت: إنها كانت عند النبي ﷺ فأتى بقصعة فأكلت معه، ومعه ذو اليدين، فناولها رسول الله ﷺ عرقا فقال: يا أم إسحق، أصيبي من هذا، فذكرت أنها كانت صائمة، فرددت يدي لا أقدمها ولا أؤخرها، فقال النبي ﷺ: مالك؟ قالت: كنت صائمة فنسيت، فقال ذو اليدين: الآن بعد ما شبعت؟ فقال رسول الله ﷺ :(أتمي صومك، فإنما هو رزق ساقه الله إليك)[6]

قال السائل: ويسألونك عن قوله تعالى :﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)(البقرة: من الآية١٨٧)

قال: لقد حدث في ذلك عدي بن حاتم ــ رضي الله عنه ــ أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى :﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)(البقرة: من الآية١٨٧) أي الخيطان قال: (إنك لعريض القفا، إن أبصرت الخيطين)، ثم قال: (لا بل إنهما سواد الليل، وبياض النهار)[1]

قال السائل: ويسألونك عن الوصال في الصوم.

---

(1) رواه البيهقي والدارقطني.
(2) رواه الترمذي.
(3) رواه ابن النجار.
(4) رواه أبو داود.
(5) رواه ابن النجار.
(6) رواه أحمد.
(1) رواه البخاري والنسائي.

قال: لقد حدث في ذلك ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ نهى عن الوصال، قالوا: إنك تواصل، قال: (إني لست مثلكم، إني أطعم وأسقى)[1]

قال السائل: ويسألونك عن الصوم في السفر.

قال: لقد حدث في ذلك حمزة بن عمرو الأسلمي ــ رضي الله عنه ــ قال: سألت رسول الله ﷺ عن الصوم في السفر فقال: (إن شئت صم، وإن شئت فافطر)[2]

وعنه قال: قلت: يا رسول الله، إني صاحب ظهر أعالجه، أسافر عليه، وأكر به وإنه ربما صادفني هذا الشهر ــ يعني رمضان ــ وأنا أجد القوة، وأنا شاب، وأجد بأن أصوم يا رسول الله، أهون علي من أن أؤخره، فيكون دينا، أفأصوم يا رسول الله، أعظم لأجري أو أفطر؟ قال:(أي ذلك شئت يا حمزة)[3]

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال النبي ﷺ : أصوم في السفر ؟ وكان كثير الصيام، فقال: (إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر)[4]

وعن أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ عن رجل من بني عبد الله بن كعب قال: أغارت علينا خيل رسول الله ﷺ فأتيت رسول الله ﷺ فوجدته يتغدى فقال :(ادن فكل)، فقلت: إني صائم، فقال :(ادن أحدثك عن الصوم، أو الصيام، إن الله تعالى وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة، وعن الحامل أو المرضع الصوم)[5]

قال السائل: ويسألونك عن كيفية القضاء .. هل يصح التقطيع في القضاء؟

قال: لقد حدث محمد بن المنكدر في ذلك قال: بلغني أن رسول الله ﷺ سئل عن تقطيع قضاء شهر رمضان، فقال: أرأيت لو كان على أحدكم دين فقضاه الدرهم والدرهمين حتى يقضيه هل كان قضاء للدين؟ قالوا: نعم، قال: (فذلك نحوه)[6]

وعن عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنه ــ قال: سئل رسول الله ﷺ عن قضاء رمضان فقال: (يقضيه متتابعا، فإن فرقه أجزأه)[7]

قال السائل: ويسألونك عن قضاء الصوم عن الميت.

قال: لقد حدث في ذلك ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن أمي ماتت، وعليها صوم شهر، فقال: أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته عنها؟ قالت:

---

(1) رواه البخاري.
(2) رواه أبو داود الطيالسي وأحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن خزيمة وابن حبان والدارقطني.
(3) رواه أبو داود والحاكم.
(4) رواه مالك والبخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه.
(5) رواه أحمد والترمذي والنسائي.
(6) رواه الدارقطني وابن أبي شيبة والبيهقي، ورواه الدارقطني عن جابر قال الدارقطني: إسناده حسن إلا أنه مرسل، وهو أصح من المرسل ورواه البيهقي عن صالح بن كيسان.
(7) رواه الدارقطني وضعفه.

(نعم)[1]

وعن ابن عباس ـــ رضي الله عنه ـــ أن رجلا قال: يا رسول الله، إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، فقال: أرأيت لو كان على أمك دين، أفأنت قاضيه عنها؟ قال: نعم، قال: (فدين الله أحق أن يقضى)[2]

قال السائل: ويسألونك عن كفارة انتهاك حرمة شهر رمضان.

قال: حدث في ذلك أبو هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ قال: بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله، هلكت قال: ما أهلكك؟ قال: وقعت على امرأتي، وأنا صائم، فقال رسول الله ﷺ :(هل تجد رقبة تعتقها؟) قال: لا، قال :(فهل تجد إطعام ستين مسكينا؟)، قال: لا، قال: فمكث النبي ﷺ فبينما نحن كذلك أتى النبي ﷺ بعرق فيها تمر ـــ والعرق: المكتل ـــ قال: أين السائل؟ قال: أنا، قال: خذ هذا فتصدق به، فقال الرجل أعلى أفقر مني يا رسول الله، ووالله ما بين لابتيها ـــ يريد الحرتين ـــ أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: (أطعمه أهلك)[3]

قال السائل: ويسألونك عن صيام التطوع.

قال: لقد حدث في ذلك النعمان بن سعد قال: قال رجل لعلي ـــ رضي الله عنه ـــ : يا أمير المؤمنين، أي شهر تأمرني أن أصوم بعد شهر رمضان؟ قال له: ما سمعت أحدا يسأل عن هذا إلا رجلا سمعته يسأل رسول الله ﷺ وأنا قاعد، فقال: يا رسول الله أي شهر تأمرني أن أصوم بعد شهر رمضان؟ قال :(إن كنت صائما بعد شهر رمضان فصم المحرم، فإنه شهر الله فيه يوم تاب على قوم ويتوب فيه على قوم آخرين)[4]

وعن أسامة بن زيد ـــ رضي الله عنه ـــ قال: قلت: يا رسول الله، ما رأيتك تصوم شهرا من الشهور، ما تصوم من شعبان؟ قال: (ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع فيه الاعمال إلى رب العالمين، فأحب أن يرفع عملي أنا صائم)[5]

وعن أبي قتادة ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم الاثنين؟ فقال :(فيه ولدت، وفيه أنزل علي)[6]

وعن أسامة بن زيد ـــ رضي الله عنه ـــ قال: قلت: يا رسول الله، إنك تصوم حتى لا تكاد تفطر، وتفطر حتى لا تكاد أن تصوم إلا يومين إن دخلا في صيامك وإلا صمتهما، قال: أي يومين ؟ قلت: يوم الاثنين ويوم الخميس قال: (ذاك يومان تعرضان فيهما الأعمال على رب العالمين، فأحب أن يعرض عملي، وأنا صائم)[1]

وعن ابن عباس ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ كان يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا

([1]) رواه البخاري ومسلم.
([2]) رواه أبو داود الطيالسي ومسلم والترمذي وابن ماجه.
([3]) رواه البخاري ومسلم.
([4]) رواه أحمد والترمذي.
([5]) رواه أحمد والنسائي وابن زنجويه وأبو يعلى وابن أبي عاصم والباوردي والضياء.
([6]) رواه مسلم.
([1]) رواه أحمد والنسائي وابن زنجويه وسعيد بن منصور.

يصوم[1].

قال السائل: ويسألونك عن صيام الدهر.

قال: لقد حدث أبو قتادة ـــ رضي الله عنه ـــ أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال: كيف تصوم؟ فغضب رسول الله ﷺ فلما رأى عمر ـــ رضي الله عنه ـــ غضبه قال: رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا وبيعتنا بيعة قال: فسئل عن صيام الدهر ؟ فقال :(لا صام ولا أفطر ـــ أو ما صام وما أفطر ـــ)، قال: فسئل عن صوم يومين وإفطار يوم؟ قال :(ومن يطيق ذلك؟) قال: وسئل عن صوم يوم وإفطار يوم؟ قال :(ذاك صوم أخي داود عليه السلام)، قال: وسئل عن صوم يوم الاثنين، قال :(ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعث ـــ (أو أنزل علي فيه) ـــ قال: فقال:(صوم ثلاثة من كل شهر ورمضان إلى رمضان صوم الدهر)، قال: وسئل عن صوم يوم عرفة، فقال :(يكفر السنة الماضية والباقية)، قال: وسئل عن صوم يوم عاشوراء؟ فقال: (يكفر السنة الماضية)[2]

قال السائل: ويسألونك عن صيام يوم الجمعة.

قال: لقد حدث بشر بن الخصاصية ـــ رضي الله عنه ـــ في ذلك أنه سأل رسول الله ﷺ أصوم يوم الجمعة ؟ قال: (لا تصم يوم الجمعة إلا في أيام هو أحدها)[3]

قال السائل: ويسألونك عن الاعتكاف.

قال: لقد حدث في ذلك عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ قال: يا رسول الله إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام، فقال ﷺ :(أوف بنذرك)[4]

قال السائل: ويسألونك عن ليلة القدر .. متى يطلبونها؟

قال: لقد حدث في ذلك عبد الله بن أنيس ـــ رضي الله عنه ـــ قال: قلت: يا رسول الله، إن لي دين أكون فيها، وأنا أصلي فيها بحمد الله، فمرني بليلة من هذا الشهر أنزلها إلى هذا المسجد قال: انزل ليلة ثلاث وعشرين قال: فكان إذا صلى العصر دخل المسجد، فلم يخرج إلا في حاجة حتى يصلي الصبح[5].

وعن أبي ذر ـــ رضي الله عنه ـــ قال: سئل رسول الله ﷺ عن ليلة القدر وأنا أسمع فقال: (هي في كل رمضان)[6]

وعن عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ أنها قالت: قلت: يا رسول الله أرأيت إن علمت أي ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: (قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني)[1]

---

(1) رواه مسلم والبيهقي.
(2) رواه مسلم.
(3) رواه أحمد.
(4) رواه أحمد.
(5) رواه أحمد وأبو داود.
(6) رواه أحمد.
(1) رواه أحمد والترمذي.

جلس السريلانكي، فقام رجل آخر، وقال: أنا من جزيرة من جزر المالديف .. تلك الجزر المرجانية الجميلة النائمة في وسط المحيط الهندي .. وقد أرسلني أهلها إليك في مسائل ترتبط **بأحكام الحج والعمرة** .. فإن أذنت لي تحدثت، وإلا جلست.

أشار إليه سحنون بالكلام، فأخرج ورقة، وراح يقرأ بعربية فصيحة : أول ما يسألونك عنه: هو محل الحج من الدين .. هل هو ركن من أركانه؟ .. أم أنه هو مجرد سياحة لمن شاء أن يؤديها؟ .. فقد نبتت فينا نابتة تقول هذا.

قال: لقد حدث علي ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ :(من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله و لم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول :﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: من الآية٩٧)[1]

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: سئل رسول الله ﷺ: أي الاعمال أفضل؟ قال: (إيمان بالله ورسوله)، قيل: ثم ماذا ؟ قال: (الجهاد في سبيل الله)، قيل: ثم ماذا؟ قال:(حج مبرور)[2]

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال: (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)[3]

قال السائل: ويسألونك عن عدد مرات الحج التي تجب على المسلم في حياته.

قال: لقد حدث أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ في ذلك قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: (يأيها الناس، قد فرض الله عز وجل عليكم الحج، فحجوا، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله ﷺ :(لو قلت: نعم، لوجبت، ولما استطعتم)[4]

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أن الاقرع بن حابس سأل النبي ﷺ: الحج في كل سنة، أو مرة واحدة؟ فقال: (بل مرة واحدة، فمن زاد فقد تطوع)[5]

قال السائل: ويسألونك عن بر الحج .. كيف يكون الحج مبرورا؟

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(إطعام الطعام وإفشاء السلام)[6]

قال السائل: ويسألك بعض أصحاب وسائل النقل عن استثمار وجودهم في الحجاز أثناء العمل، فيحجوا كما يحج سائر الناس.

قال: لقد حدث أبو أمامة التيمي ــ رضي الله عنه ــ قال: كنت رجلا أكري في هذا الوجه، وكان ناس يقولون لي: إنه ليس لك حج، فلقيت ابن عمر، فقلت: يا أبا عبد الرحمن، إني رجل أكري في هذا الوجه، وإن ناسا يقولون لي: إنه ليس لك حج، فقال ابن عمر: أليس تحرم، وتلبي، وتطوف بالبيت، وتفيض من عرفات،

---

(1) رواه أحمد والدارقطني.
(2) رواه أحمد والبخاري والترمذي.
(3) رواه البخاري ومسلم.
(4) رواه مسلم وغيره.
(5) رواه أبو داود وابن ماجه.
(6) رواه أحمد.

وترمي الجمار؟ قال: قلت: بلى، قال: فإن لك حجا، جاء رجل إلى النبي ﷺ، فسأله عن مثل ما سألتني عنه، فسكت عنه رسول الله ﷺ، فلم يجبه حتى نزلت هذه الآية :﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (البقرة: من الآية١٩٨)، فأرسل إليه رسول الله ﷺ وقرأ عليه هذه الآية، وقال: (لك حج)[1]

قال السائل: ويسألونك عن الاستطاعة .. وعن ذلك العناء الذي يلاقيه الحاج، أله عليه أجر؟

قال: لقد حدث ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ قال: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: ما الحج؟ قال: (الشعث التفل[2])، فقام آخر فقال: يا رسول الله، أي الحج أفضل ؟ فقال:(العج والثج)[3]، فقام آخر، فقال: يا رسول الله، ما السبيل ؟ فقال: (زاد وراحلة)[4]

وعن علي وابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ سئل: ما السبيل إلى الحج؟ فقال: (الزاد والراحلة)[5]

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما يوجب الحج ؟ قال: (الزاد والراحلة)[6]

قال السائل: فما هي المواقيت المكانية للحج لأصحاب المناطق المختلفة؟

قال: لقد حدث في ذلك ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا قام في المسجد، فقال: يا رسول الله، من أين تأمرنا أن نهل؟ فقال رسول الله ﷺ :(يهل أهل المدينة من ذي الخليفة، ويهل أهل الشام من الجحفة، ويهل أهل نجد من قرن)، وقال ابن عمر: تزعمون أن رسول الله ﷺ قال: (ويهل أهل اليمن من يلملم)، وكان ابن عمر يقول: (لم أفقه هذه من رسول الله ﷺ)[7]

قال السائل: ويسألونك عن النيابة في الحج عمن لا يطيق القيام بالحج بنفسه.

قال: لقد حدث في ذلك عبد الله بن الزبير ــ رضي الله عنه ــ أنه قال: جاء رجل من خثعم إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الركوب، وأدركته فريضة الله في الحج، فهل يجزئ أن أحج عنه قال: (أنت أكبر ولده؟) قال: نعم، قال: (أرأيت لو كان عليه دين أكنت تقضيه؟) قال: نعم، قال: (فحج عنه)[1]

([1]) رواه أبو داود.

([2]) الشعث التفل : الشعث بمعنى متفرق الشعر ، ومنه حديث الدعاء (أسألك رحمة تلم بها شعثي)، أي تجمع بها ما تفرق من أمري، النهاية لابن الاثير(٢ / ٤٧٨)، أما التفل: فهو الذي قد ترك استعمال الطيب، من التفل وهي الريح الكريهة، النهاية (١ / ١٩١)

([3]) العج والثج : العج: رفع الصوت بالتلبية ، وقد عج يعج عجا، فهو عاج وعجاج، (النهاية (٣ / ١٨٤)، والثج : سيلان دماء الهدى والاضاحي ، يقال : ثجه يثجه ثجا. النهاية (١ / ٢٠٧)

([4]) رواه الشافعي والبيهقي.

([5]) رواه الدارقطني، وفي لفظ (أن تجد ظهر بعير)

([6]) رواه الترمذي وحسنه، وروى الدارقطني مثله عن ابن عمر.

([7]) رواه البخاري.

([1]) رواه البخاري.

وعن الفضل بن العباس ــ رضي الله عنه ــ أنه كان رديف رسول الله ﷺ غداة النحر، فأتته امرأة من خثعم، فقالت: يا رسول الله، إن فريضة الله عز وجل في الحج على عباده أدركت أبي شيخا كبيرا لا يستطيع أن يركب إلا معترضا، أفأحج عنه؟ قال: (نعم، حجي عنه، فإنه لو كان عليه دين قضيته)[1]

وعن حصين بن عوف قال: قلت: يا رسول الله، أأحج عن أبي؟ قال: (أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيه؟) قال: نعم، قال :(فدين الله أحق أن يقضى)[2]

وعن أبي رزين ــ رضي الله عنه ــ قال: قلت: يا رسول الله، إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة، ولا الظعن، فقال: (حج عن أبيك واعتمر)[3]

وعن بريدة قال: أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن أمي ماتت و لم تحج فقال: (حجي عن أمك)[4]

قال السائل: ويسألونك عن حج الصبي.

قال: لقد حدث ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ في ذلك قال: أتى رجل النبي ﷺ قال: إن امرأة رفعت لرسول الله ﷺ صبيا، فقالت: ألهذا حج ؟ قال: (نعم، ولك أجر)[5]

قال السائل: ويسألونك عن اللباس الذي يلبسه المحرم.

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(لا يلبس القميص ولا العمامة ولا السراويل ولا البرانس، ولا ثوبا مسه الورد والزعفران، ولا الخفان إلا أحد لا يجد النعلين، فليلبس الخفين وليقطعهما حتى يكون تحت الكعبين)[6]

وعن يعلى بن أمية ــ رضي الله عنه ــ قال: كنا عند رسول الله ﷺ بالجعرانة إذا جاءه رجل أعرابي عليه جبة وهو متضمخ بالخلوق، فقال: يا رسول الله، إني حرمت بالعمرة وهذه علي، فقال: (أما الطيب الذي بك، فاغسله ثلاث مرات، وأما الجبة فانزعها، ثم اصنع في عمرتك كما تصنع في حجتك)[7]

قال السائل: ويسألونك عما تفعله الحائض في الحج.

قال: لقد حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ في ذلك قالت: قدمت بمكة وأنا حائض فقال النبي ﷺ :(افعلي بفعل الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري)[8]

قال السائل: ويسألونك عن ترتيب الحلق والذبح والرمي.

قال السائل: لقد حدث ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ في ذلك أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع بمنى للناس، يسألونه، فجاء رجل، فقال: يا رسول الله، لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح، فقال: إذبح ولا حرج

([1]) رواه أحمد والنسائي.
([2]) رواه الطبراني في الكبير.
([3]) رواه أبو داود الطيالسي وأحمد والترمذي وقال: حسن صحيح، والنسائي وابن حبان وابن ماجة والبيهقي.
([4]) رواه مسلم والترمذي وقال: حسن صحيح.
([5]) رواه مسلم.
([6]) رواه البخاري ومسلم، وأحمد وأبو داود والطيالسي وأبو داود والنسائي وابن ماجة.
([7]) رواه البخاري والشافعي.
([8]) رواه البخاري ومسلم.

فجاءه آخر، وقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي فقال: ارم ولا حرج، فما سئل النبي ﷺ عن شئ قدم ولا أخر إلا قال: (افعل ولا حرج)[1]

وعن جابر قال: يا رسول الله، ذبحت قبل أن أرمي قال: (ارم ولا حرج)، وقال رجل: يا رسول الله، طفت بالبيت قبل أن أذبح، قال: (اذبح ولا حرج)[2]

وعن ابن عباس ـــ رضي الله عنه ـــ أن النبي ﷺ سئل عمن قدم من نسكه شيئا قبل شئ، فجعل يقول: (لا حرج ولا حرج)[3]

وعن أسامة بن شريك ـــ رضي الله عنه ـــ قال: خرجت مع النبي ﷺ حاجا، فكان الناس يأتونه، فمن قال: يا رسول الله، سعيت قبل أن أطوف، أو قدمت شيئا أو أخرت شيئا، فكان يقول:(لا حرج، لا حرج إلا على رجل اقترض عرض رجل مسلم وهو ظالم، فذلك الذي حرج وهلك)[4]

قال السائل: ويسألونك عمن حلق شعره بسبب أذى أصابه.

قال: لقد حدث كعب بن عجرة ـــ رضي الله عنه ـــ في ذلك، فذكر أن النبي ﷺ مر به وهو بالحديبية قبل أن يدخل مكة، وهو محرم وهو يوقد تحت قدر والقمل يتهافت على وجهه فقال: أيؤذيك هوامك؟ قال: نعم، قال: (فاحلق رأسك، وأطعم فرقا بين ستة مساكين ـــ والفرق ثلاثة آصع ـــ أو صم ثلاثة أيام، أو انسك نسيكة)[5]

قال السائل: ويسألونك عن يوم الحج الأكبر.

قال: لقد حدث علي ـــ رضي الله عنه ـــ في ذلك قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحج الاكبر، فقال: (هو يوم النحر)[6]

وعن ابن عمر ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فيها، فقال: أي يوم هذا ؟ فقالوا: يوم النحر، فقال: (هذا يوم الحج الأكبر)[7]

قال السائل: ويسألونك عن **الأضاحي** التي تقدم في ذلك اليوم.

قال: لقد حدث زيد بن أرقم ـــ رضي الله عنه ـــ في ذلك قال: قلت: يا رسول الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: (سنة أبيكم إبراهيم ﷺ) قالوا: فما لنا فيها؟ قال: (بكل شعرة حسنة)، قالوا: يا رسول الله، فالصوف؟ قال: (بكل شعرة من الصوف حسنة)[1]

قال السائل: ويسألونك عمن لم يجد ما يضحي به.

---

(1) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والبيهقي.
(2) رواه ابن جرير.
(3) رواه ابن جرير وأبو نعيم في تاريخه وابن النجار.
(4) رواه الدارقطني وأبو داود.
(5) رواه البخاري ومسلم.
(6) رواه الترمذي.
(7) رواه أبو داود.
(1) رواه أحمد والبيهقي وابن ماجة.

قال: لقد حدث عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنه ــ في ذلك أن رسول الله ﷺ قال: أمرت بيوم الأضحى عيدا جعله الله تعالى لهذه الأمة، قال الرجل: أرأيت إن لم أجد إلا منيحة أنثى، أفأضحي بها؟ قال :(لا، ولكن تأخذ من شعرك وأظفارك، وتقص شاربك، وتحلق عانتك، فتلك تمام أضحيتك عند الله ــ عز وجل ــ)[1]

قال السائل: ويسألونك عن الاشتراك في الأضحية.

قال: لقد حدث أبو الأسد السلمي عن أبيه عن جده ــ رضي الله عنه ــ قال: كنت سابع سبعة مع رسول الله ﷺ، فأمرنا فجمع لكل منا درهما فاشترينا أضحية بسبعة الدراهم، فقلنا: يا رسول الله، لقد أغلينا بها، فقال النبي ﷺ:(إن أفضل الضحايا أغلاها وأسمنها)، فأمر رسول الله ﷺ فأخذ رجلا برجل، ورجلا برجل، ورجلا بيد، ورجلا بيد، ورجلا بقرن، ورجلا بقرن، وذبح السابع، وكبرنا عليها جميعا[2].

قال السائل: ويسألونك عن البديل عن البدنة لمن لم يجدها.

قال: لقد حدث ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ أتاه رجل، فقال: يا رسول الله، إن علي بدنة، وأنا موسر بها، ولا أجدها، فأشتريها، فأمر النبي ﷺ أن يبتاع سبع شياه فيذبحهن[3].

وعن زيد بن خالد الجهني ــ رضي الله عنه ــ قال: قسم رسول الله ﷺ في أصحابه غنما للضحايا، فأعطاني جذعا عتودا من المعز، فجئت به، فقلت: يا رسول الله، إنه جذع، فقال: (ضح به)، فضحيت به[4].

قال السائل: ويسألونك عمن ضحى قبل الصلاة.

قال: لقد حدث في ذلك البراء عن خاله أبي بردة ــ رضي الله عنه ــ أنه قال: يا رسول الله، إن عجلنا شاة لحم لنا، قال رسول الله ﷺ: (أقبل الصلاة؟) قال: نعم، قال :(تلك شاة لحم)، قال: يا رسول الله، عندي عناق جذعة، هي أحب إلينا من مسنة، قال: (تجزئ عنك، ولا تجزئ عن أحد بعدك)[5]

قال السائل: ويسألونك عن العيوب التي تعرض للأضاحي.

قال: لقد حدث أبو سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ قال: اشتريت كبشا أضحي به فعدا الذئب فأخذ أليته، فسألت رسول الله ﷺ فقال: (ضح به)[6]

جلس المالديفي، فقام رجل آخر، وقال: أنا من جزر القمر .. تلك الجزر الجميلة التي تقع شرقي إفريقيا، وتتكون من أربع جزر .. أنا من جزيرتها الكبرى .. من جزيرة القمر الكبرى .. نحن نتحدث العربية مثلكم، فهي لغتنا الرسمية، ونحن نحبها حبا جما ..

---

(1) رواه أحمد والحاكم وأبو داود والنسائي.

(2) رواه أحمد.

(3) رواه أحمد والبيهقي.

(4) رواه أحمد وأبو داود.

(5) رواه أحمد، وفي رواية عن أبي بردة، قال: إنه ذبح قبل رسول الله ﷺ فأمره النبي ﷺ أن يعيد، قال: عندي عناق جذعة، هي أحب إلي من مسنتين، قال: اذبحها.

(6) رواه أحمد وابن ماجة.

التفت إلى الجمع، وقال: اعذروني .. فما دعاني إلى ما ذكرت إلا أني وجدت من أهل هذه البلد من لا يعرف تلك الجزر الجميلة التي شرفها الله بسكنى المسلمين.

ثم التفت إلى سحنون، وقد أخرج ورقة من جيبه، وقال: لقد أرسلني أهل تلك الجزر يستفتونك في مسائل ترتبط **بالتعبدات اللسانية المحضة** من قراءة القرآن الكريم، والأذكار والأدعية وغيرها .. فإن أذنت لي تحدثت، وإلا جلست.

أشار إليه سحنون بالكلام، فالتفت إلى ورقته، وراح يقرأ بعربية فصيحة: يسألونك عن خير سورة في القرآن الكريم .. هم يسألون ذلك ليكثروا من قراءتها، ويعبدوا الله بحفظها وتحفيظها، فهم لا يطيقون حفظ القرآن الكريم جميعا .. وما لا يدرك كله لا يترك كله.

قال: لقد حدث عبد الله بن جابر ــ رضي الله عنه ــ قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أهراق الماء فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فلم يرد علي، فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فلم يرد علي، فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فلم يرد علي فانطلق رسول الله ﷺ يمشي وأنا خلفه حتى دخل على رحله، ودخلت أنا المسجد، وجلست كئيبا حزينا، فخرج علي رسول الله ﷺ قد تطهر فقال :(عليك السلام ورحمة الله وبركاته، وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، وعليك السلام ورحمة الله وبركاته)، ثم قال: ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بخير سورة في القرآن؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال :(اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختمها)[1]

قال السائل: ويسألونك عن فضل حفظ سورة البقرة.

قال: لقد حدث أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: بعث رسول الله ﷺ بعثا، وهو ذوو عدد، فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سنا، فقال: ما معك يا فلان؟ قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة قال: أمعك سورة البقرة؟ قال: نعم، قال: اذهب فأنت أميرهم، فقال رجل من أشرافهم: والله يا رسول الله، ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها، فقال رسول الله ﷺ :(تعلموا القرآن، فاقرأوه وأقرئوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه، فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مشكا يفوح بريحه كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب وكئ على مسك)[2]

قال السائل: ويسألونك عن أعظم آية في القرآن الكريم.

قال: لقد حدث واثلة بن الاسقع ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ جاءهم في صفة المهاجرين فسأله إنسان: أي آية في القرآن أعظم؟ فقال النبي ﷺ :﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (البقرة:٢٥٥)[1]

([1]) رواه أحمد.
([2]) رواه الترمذي.
([1]) رواه أبو داود.

وعن أبي بن كعب ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ: يا أبا المنذر، أتدري أي آية في كتاب الله تعالى معك أعظم؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: قلت: يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قال: قلت: :﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ قال: فضرب صدري وقال :(والله ليهنك العلم أبا المنذر)[1]

قال السائل: ويسألونك عن فضل سورة الملك.

قال: لقد حدث أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال: (إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي سورة :﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ (الملك: من الآية١)[2]

قال السائل: ويسألونك عن أدنى الأوراد القرآنية للمستعجل.

قال: لقد حدث عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنه ــ قال: أتى رجل النبي ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله، فقال:(اقرأ ثلاثا من ذوات (الر)[3]، فقال: كبرت سني واشتد قلبي وغلظ لساني قال :(فاقرأ ثلاثا من ذوات حاميم[4])، فقال مثل مقالته، فقال :(اقرأ ثلاثا من المسبحات[5])، فقال مثل مقالته، فقال الرجل: يا رسول الله، أقرئني سورة جامعة، فأقرأه النبي ﷺ:﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ (الزلزلة:١) حتى فرغ منها فقال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها أبدا، ثم أدبر الرجل، فقال النبي ﷺ :(أفلح الرويجل) مرتين[6].

قال السائل: ويسألونك عن فضل سورة الإخلاص.

قال: لقد حدث أبو سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا استمع رجلا يقرأ :﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الاخلاص:١)، ويرددها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك وكان الرجل يتقالها، فقال رسول الله ﷺ :(والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن)[7]

قال السائل: ويسألونك عن فضل المعوذات.

قال: لقد حدث عقبة بن عامر ــ رضي الله عنه ــ قال: اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب، فوضعت يدي على قدمه، وقلت: اقرأ سورة هود أو سورة يوسف؟ فقال: لن تقرأ شيئا أبلغ عند الله تعالى من﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾(الفلق:١) و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (الناس:١)[1]

---

(1) رواه مسلم.
(2) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن وأبو داود.
(3) وهي سور: يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر، فكلها تبدا بـــ (الر)، قال تعالى :﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (يونس:١)، وقال :﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١)، وقال :﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (يوسف:١)، وقال :﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (ابراهيم:١)، وقال :﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (الحجر:١)
(4) وهي السور التي تبدأ بـــ (حم)، وهي: غافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف.
(5) وهي السور التي تبدأ بالتسبيح، وهي (الحديد) و(الحشر) و(الصف) و(الجمعة) و(التغابن)، وفي الحديث عن عِرْبَاض بن سارية ــ رضي الله عنه ــ أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد، وقال: (إن فيهن آية أفضل من ألف آية) رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب.
(6) رواه أبو داود.
(7) رواه البخاري.
(1) رواه النسائي.

وعنه أن رسول الله ﷺ قال :(ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط؟ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾(الفلق:١) و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (الناس:١)[١]

قال السائل: ويسألونك عما يفعله بعض الناس من البدء بسورة الفاتحة وببعض البقرة بعد ختمه للقرآن الكريم.

قال: لقد حدث ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا قال: يا رسول الله، أي الاعمال أفضل؟ قال: عليك بالحال المرتحل قال: وما الحال المرتحل؟ قال :(صاحب القرآن، يضرب من أوله حتى يبلغ آخره ويضرب في آخره حتى يبلغ أوله كلما حل ارتحل)[٢]

قال السائل: ويسألونك عن فضل أهل القرآن.

قال: لقد حدث أنس ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال: إن لله ــ عز وجل ــ أهلين من الناس فقيل: من أهل الله منهم؟ قال:(أهل القرآن هم أهل الله تعالى وخاصته)[٣]

قال السائل: ويسألونك عن المدة التي يختمون فيها القرآن الكريم.

قال: لقد حدث عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنه ــ قال: قلت: يا رسول الله، في كم أقرأ القرآن؟ قال:(اختمه في شهر)، قلت: إني أطيق أفضل من ذلك قال:(اختمه في عشرين)، قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال:(اختمه في خمسة عشر)، قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال :(اختمه في عشر)، قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال:(اختمه في خمس)، قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال:(فما رخص لي)[٤]

ويسألونك عن اختلاف القراءات القرآنية.

قال: لقد حدث عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ :(أرسله، اقرأ يا هشام)، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ:(كذلك أنزلت)، ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت للقراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ :(كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه)[١]

قلب السائل ورقته، وقال: لدي بالإضافة إلى هذه الأسئلة المرتبط بفضائل القرآن وأحكامه، أسئلة أخرى مرتبطة بالذكر وأحكامه .. فأرجو أن تجيبني عنها.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه الرامهرمزي.
(٣) رواه أحمد والبيهقي.
(٤) رواه أحمد والترمذي.
(١) رواه البخاري ومسلم.

أشار إليه سحنون بالإيجاب، فراح يقول: يسألونك عن (لا إله إلا الله) هل ذكرها من الحسنات؟

قال: لقد حدث أبو ذر ــ رضي الله عنه ــ قال: قلت: يا رسول الله أوصني قال :(إذا عملت سيئة، فأتبعها حسنة تمحها)، قال: قلت: يا رسول الله، أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال:(هي أفضل الحسنات)[1]

قال السائل: ويسألونك عن فضل الذكر.

قال: لقد حدث أبو الدرداء ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ :(ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب، والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟)، قالوا: بلى، قال: ذكر الله تعالى، فقال معاذ بن جبل ــ رضي الله عنه ــ :(ما شئ أنجى من عذاب الله من ذكر الله)[2]

وعن معاذ بن أنس الجهني ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا سأل رسول الله ﷺ: أي المجاهدين أعظم أجرا؟ قال :(أكثرهم لله ــ تبارك وتعالى ــ ذكرا)، قال: فأي الصائمين أعظم أجرا؟ قال:(أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكرا)، فقال أبو بكر لعمر: يا أبا حفص، ذهب الذاكرون بكل خير، فقال رسول الله ﷺ :(أجل) [3]

قال السائل: ويسألونك ما تمام النعمة الذي ورد الدعاء به.

قال: لقد حدث معاذ بن جبل ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يدعو، يقول: اللهم، إني أسألك تمام النعمة، فقال: أي شئ تمام النعمة؟ قال: دعوة دعوت بها أرجو بها الخير، قال: (فإن تمام النعمة دخول الجنة والفوز من النار)[4]

قال السائل: فما التعجيل في الدعاء، و لم نهي عنه؟

قال: لقد حدث أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال:(لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم[5] أو يستعجل)، قيل: يا رسول الله، وما الاستعجال ؟ قال: يقول: قد دعوت فلم يستجب لي، فيستحسر[6] عن ذلك، ويدع الدعاء)[7]

أموال:

جلس القمري، فقام رجل آخر، وقال: أنا من جزيرة ميناناو[1] .. لاشك أنكم لا تعرفونها.. إنها ثاني

---

(1) رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن شمر بن عطية حدث به عن أشياخه عن أبي ذر و لم يسم أحداً منهم.

(2) رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم.

(3) رواه أحمد.

(4) رواه الترمذي وحسنه.

(5) قطيعة الرحم: الهجران للأهل والاقارب.

(6) الحسر: أي يستنكف عن الدعاء والسؤال، وأصله من حسر الطرف إذا كل وضعف يعني أن الداعي إذا دعا وتأخرت إجابته تضجر، ومل وترك الدعاء واستنكف عنه.

(7) رواه مسلم.

(1) ميناناو (مساحتها ٩٤,٦٣٠ كم^2)، ثانية كبريات جزر الفلبين، وتمثل أقصى الجزر الرئيسية جنوبًا. يعيش عليها نحو خمس سكان الفلبين، ويسكنها معظم مسلمي الفلبين. ليس لها شكل منتظم، فهي جبلية إلى حد كبير. وتقع فيها قمة جبل آبو البركاني أعلى قمة جبلية في الفلبين.

جزر الفلبين الكبرى .. وهي جزيرة يسكنها أكثر مسلمي الفلبين .. لقد أرسلني أهل تلك الجزيرة يستفتونك في مسائل ترتبط **بالكسب والمعاش** .. فإن أذنت لي تحدثت، وإلا جلست.

أشار إليه سحنون بالإيجاب، فأخرج ورقة، وراح يقرأ منها: يسألونك عن أفضل الكسب.

قال: لقد حدث رافع بن خديج ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ سئل أي الكسب أفضل ؟ قال :(عمل الرجل بيده، وكل عمل مبرور)[1]

قال السائل: ويسألونك عن حق الوالد في استعمال مال ولده.

قال: لقد حدث جابر ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا قال: يا رسول الله، إن لي ولدا ومالا وإن أبي يريد أن يجتاح مالي قال :(أنت ومالك لأبيك)[2]

وعن عمر ــ رضي الله عنه ــ قال: أتى أعرابي رسول الله ﷺ فقال: إن أبي يجتاح مالي، فقال :(أنت ومالك لابيك، إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أموال أولادكم من كسبكم، فكلوه هنيئا)[3]

وعن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: إن أبي يريد أن يأخذ مالي، فقال:(أنت ومالك لأبيك)[4]

وعن سعد بن أبي وقاص ــ رضي الله عنه ــ أن امرأة جليلة كانت من نساء مضر، فقالت: يا رسول الله، أنأكل على آبائنا وأبنائنا وأزواجنا فما يحل لنا من أموالهم ؟ قال:(الرطب تأكلنه وتهدينه)[5]

قال السائل: ويسألونك عن أموال السلاطين.

قال: لقد حدث البراء ــ رضي الله عنه ــ قال: سئل رسول الله ﷺ عن حكم أموال السلطان، قال: (ما آتاك الله تعالى منها من غير مسألة ولا إشراف نفس، فكله وتموله)[6]

قال السائل: ويسألونك عمن يخدع في البيع .. هل يجوز له أن يشترط عدم الخديعة.

قال: لقد حدث عن ابن عمر – رضي الله تعالى عنهما – قال: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، إني أخدع في البيع فقال له :(إذا بايعت فقل: لا خلابة، ولي الخيار ثلاثة أيام)[7]

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا كان على عهد رسول الله ﷺ كان يبتاع، وكان في عقله ضعف فأتى أهله النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، احجر عليه، فدعاه نبي الله ﷺ فنهاه، فقال: يا رسول الله، إني لا أصبر عن البيع، فقال: إذا بايعت، فقل: (هاء وهاء ولا خلابة)[1]

قال السائل: ويسألونك عن تحويل الخمر خلا لأجل بيعها.

([1]) رواه أحمد.
([2]) رواه ابن ماجة.
([3]) رواه أحمد وابن ماجة.
([4]) رواه البزار والدارقطني في الأفراد.
([5]) رواه أبو داود.
([6]) رواه أحمد.
([7]) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والطيالسي وعبد بن حميد ومالك وأحمد والنسائي .
([1]) رواه أحمد والترمذي.

قال: لقد حدث أنس ـــ رضي الله عنه ـــ أن أبا طلحة سأل رسول الله ﷺ عن أيتام ورثوا خمرا، فقال: أهرقها، قال: أفلا أجعلها خلا ؟ قال: (لا)[1]

وعن أبي سعيد ـــ رضي الله عنه ـــ قال: كان عندنا خمر ليتيم، فلما نزلت المائدة، سألت رسول الله ﷺ وقلت: إنه ليتيم، قال :(أهريقوه)[2]

وعن أبي طلحة ـــ رضي الله عنه ـــ أنه قال: يا نبي الله، إني اشتريت خمرا لأيتام في حجري فقال :(أهرق الخمر واكسر الدنان)[3]

قال السائل: ويسألونك عن بيع ما لا يملكون.

قال: لقد حدث حكيم بن حزام ـــ رضي الله عنه ـــ قال: قلت: يا رسول الله، إن الرجل ليأتيني فيريد مني البيع، وليس عندي ما يطلب، فأبتاع له من السوق ؟ قال :(لا تبع ما ليس عندك)[4]

وعنه قال: ابتعت طعاما من طعام الصدقة، وربحت فيه قبل ما قبضته، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إني أبتاع هذه البيوع، فما يحل لي منها، وما يحرم علي منها، قال:(يا بن أخي لا تبيعن شيئا حتى تقبضه)[5]

قال السائل: ويسألونك عن وقت بيع الثمار.

قال: لقد حدث جابر ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ نهى عن أن تباع الثمرة حتى تشقح، قيل: وما تشقح، قال: (تحمار وتصفار ويؤكل منها)[6]

قال السائل: ويسألونك عن بيع الماء.

قال: لقد حدثت امرأة يقال لها بهيسة عن أبيها قال: استأذن أبي النبي ﷺ فدخل بينه وبين قميصه فجعل يقبل ويلتزم، ثم قال: يا رسول اللله، حدثني بالشئ الذي لا يحل منعه قال: الماء، قال يا رسول الله ما الشئ الذي لا يحل منعه قال:(الملح)، قال: يا نبي الله، ما الشئ الذي لا يحل منعه ؟ قال :(أن تفعل الخير خير لك)[7]

قال السائل: ويسألونك عن تلك المساومات وما يحصل فيها من إخفاء البائع للثمن الذي يريد أن يبيع به، ومثله المشتري.

قال: لقد حدثت قيلة أم بني أنمار ـــ رضي الله عنها ـــ قالت: أتيت رسول الله ﷺ في بعض عمره، فقالت: يا رسول الله، إني امرأة أبيع وأشتري فربما أردت أن أشتري السلعة فأعطى بها أقل مما أريد أن آخذها به ثم زدت ثم زدت حتى آخذها بالذي أريد أن آخذها به، ربما أردت أن أبيع السلعة فاستمت بها أكثر مما أريد

---

(1) رواه أبو داود والترمذي وصححه.
(2) رواه أحمد والترمذي، وحسنه.
(3) رواه أبو داود والترمذي.
(4) رواه أحمد والترمذي والثلاثة وحسنه.
(5) رواه أحمد والدارقطني.
(6) رواه أحمد والدارقطني .
(7) رواه أبو داود.

أن أبيعها به ثم نقصت ثم نقصت حتى أبيعها بالذي أريد أن أبيعها به، فقال لي رسول الله ﷺ :(لا تفعلي هكذا يا قيلة، ولكن إذا أردت أن تشتري شيئا فأعطي به الذي تريدين أن تبيعيه، أعطيت أو منعت)[1]

قال السائل: ويسألونك عن بيع التمر بعضه ببعض متفاوت الوزن.

قال: لقد حدث أبو سعيد ــ رضي الله عنه ــ قال: جاء بلال إلى رسول الله ﷺ بتمر برني فقال من أين هذا يا بلال ؟ فقال: كان عندنا تمر ردئ، فبعث صاعين بصاع فقال النبي ﷺ عند ذلك :(أوه عين الربا، عين الربا، لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيع آخر ثم اشتريه)[2]

وعن أبي سعيد وأبي هريرة ــ رضي الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ استعمل رجلا على خيبر، فجاءهم بتمر جنيب فقال: أكل تمر خيبر هكذا؟ قال: لا، والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة، فقال :(لا تفعل بع الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبا)

قال السائل: ويسألونك عن الصرف.

قال: لقد حدث البراء بن عازب وزيد بن أرقم ــ رضي الله عنهما ــ قالا: كنا تاجرين على عهد رسول الله ﷺ فسألناه عن الصرف، فقال :(إن كان يدا بيد فلا بأس، وإن كان نسيئا فلا يصلح)[3]

قال السائل: ويسألونك عما يسمى ربا الفضل.

قال: لقد حدث ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال :(لا تبيعوا الدينار بالدينارين، ولا الدرهم بالدرهمين، ولا الصاع بالصاعين، فإني أخوف عليكم الرما، والرما هو الربا)، فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله، أرأيت الرجل يبيع الفرس بالافراس والنجيبة بالابل؟ قال :(لا بأس إذا كان يدا بيد)[4]

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ قال: كنت أبيع الابل بالبقيع فأبيع بالدنانير وآخذ الدراهم فقال: لا تبيعوا الدينار بالدينارين، والدرهم بالدرهمين[5].

وعن زيد بن عياش ــ رضي الله عنه ــ أنه سأل سعد بن أبي وقاص عن البيضاء بالسلت فقال: أيتها أفضل؟ قال: البيضاء، قال: فنهاه عن ذلك، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يسأل عن شراء التمر بالرطب، فقال ﷺ :(أينقص الرطب إذا يبس؟) قال: نعم، فنهاه عن ذلك[6].

قال السائل: ويسألونك عن بيع السلم.

قال: لقد حدث ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا أسلف في نخل قبل أن يطلع؟ قال: لا، قلت: لم ؟ فقال: لأن رجلا أسلم في حديقة نخل على عهد رسول الله ﷺ قبل أن يطلع النخل، فلم تطلع النخل شيئا ذلك العام، فقال المشتري: هو لي حتى يطلع، وقال البائع: إنما بعتك النخل هذه السنة، فاختصما إلى رسول الله ﷺ

---

(1) رواه البيهقي.
(2) رواه البيهقي.
(3) رواه مسلم وعبد الرزاق.
(4) رواه أحمد.
(5) رواه أحمد.
(6) رواه أحمد.

فقال للبائع :(أخذ من نخلك شيئا؟)، قال: لا، قال:(لم تستحل ماله؟ اردد عليه ما أخذت منه، ولا تسلموا في نخل حتى يبدو صلاحه)[1]

قال السائل: ويسألونك عن التلاعب بالديون وعدم أدائها.

قال: لقد حدث عبد الله بن جحش ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت إن جهدت بنفسي ومالي، فماذا لي؟ قال: الجنة، فلما ولى قال: (إلا الدين سارني به جبريل عليه السلام آنفا)[2]

وعن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: أرأيت أن جاهدت بنفسي ومالي فقتلت صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر أدخل الجنة، قال: نعم فأعاد ذلك مرتين أو ثلاثا قال: (نعم، إن لم يكن عليك دين ليس عندك وفاؤه)[3]

وعن أبي سعيد ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول :(أعوذ بالله من الكفر والدين)، فقال رجل: يا رسول الله، أيعدل الدين بالكفر، فقال رسول الله ﷺ :(نعم)[4]

وعن سلمة بن الأكوع ــ رضي الله عنه ــ قال: كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ إذ أتي بجنازة فقالوا: يا نبي الله، صل عليها، قال: هل ترك شيئا؟ قالوا: لا، قال: هل ترك عليه دينا؟ قالوا: ألا نصلي عليه؟ ثم أتي بجنازة بعد ذلك، فقال: هل ترك عليه من دين؟ قالوا: لا، قال: هل ترك من شئ؟ قالوا: ثلاثة دنانير، قال: ثلاث كيات، قال: فأتى بالثالثة، فقال: هل ترك عليه من دين، قالوا: نعم قال: هل ترك من شئ؟ قالوا: لا، قال: صلوا على صاحبكم، فقال رجل من الانصار يقال له أبو قتادة: يا رسول الله، علي دينه فصل عليه[5].

و عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ كان يؤتي بالرجل المتوفى عليه الدين فيسأل هل ترك لدينه فضلا؟ فإن حدث أنه ترك وفاء صلى عليه، وإلا قال: صلوا على صاحبكم، فلما فتح الله عليه الفتوح قال: (أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم من توفي وعليه دين، فعلي قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته)[6]

قال السائل: ويسألونك: هل يؤجرون في القرض، كما يؤجرون في الصدقات.

قال: لقد حدث أنس ــ رضي الله عنه ــ ي قال: قال رسول الله ﷺ :(رأيت ليلة أسرى بي على باب الجنة مكتوبا: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر)[1]

قال السائل: ويسألونك عمن رد دينه بأوفى مما أعطى من غير أن يشترط صاحب الدين ذلك عليه.

قال: لقد حدث أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: كان لرجل على النبي ﷺ سن من الإبل، فجاءه يتقاضاه، فقال ﷺ :(أعطوه)، فطلبوا سنه فلم يجدوا إلا سنا فوقها، فقال :(أعطوه)، فقال: أوفيتني أوفى الله

---

(1) رواه البيهقي.
(2) رواه البيهقي.
(3) رواه أحمد.
(4) رواه أحمد.
(5) رواه أحمد.
(6) رواه البخاري ومسلم.
(1) رواه البيهقي.

بك، فقال النبي ﷺ :(إن خياركم أحسنكم قضاء)[1]

وعن العرياض بن سارية ــ رضي الله عنه ــ قال: بعت من النبي ﷺ بكرا، فأتيته أتقاضاه، فقلت: يا رسول الله، أقضني ثمن بكري، فأعطاه رسول الله ﷺ يومئذ جملا قد أسن، فقال: يا رسول الله، هذا خير من بكري قال: فقال رسول الله ﷺ :(إن خير القوم أحسنهم قضاء)[2]

قال السائل: ويسألونك عن اللقطة[3] .. تلك التي يجدها المرء، ولا يعرف صاحبها.

قال: لقد حدث زيد بن خالد الجهني ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ سئل عن اللقطة فقال:(اعرف وكاءها ــ أو قال: وعاءها وعفاصها ــ ثم عرفها سنة، فإن جاء صاحبها فأدها إليه)، قال: فضالة الإبل؟ فغضب حتى احمرت وجنتاه، فقال :(مالك ولها، معها سقاؤها وحذاؤها، ترد الماء، وترعى الشجر، فذرها حتى يلقاها ربها)، قال: فضالة الغنم، قال: (هي لك أو لأخيك أو للذئب)[4]

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: سئل رسول الله ﷺ عن اللقطة قال:(لا تحل اللقطة، من التقط شيئا، فليعرفه، فإن جاء صاحبها فليردها إليه، فإن لم يأت فليتصدق بها، فإن جاء فليخيره بين الأجر وبين الذي له)[5]

جلس الفلبيني، فقام رجل آخر، وقال: أنا من باكو .. لا شك أنكم تعرفونها .. إنها عاصمة أذربيجان[6] .. لقد أرسلني أهلها يستفتونك في مسائل ترتبط **بالتطوعات والهبات**.. فإن أذنت لي تحدثت، وإلا جلست.

أشار إليه بالإيجاب، فأخرج ورقة، وراح يقول: يسألونك عن التفريق بين الأولاد في العطية.

قال: لقد حدث النعمان بن بشير ــ رضي الله عنه ــ قال: إن أباه أتى به إلى رسول الله ﷺ فقال: إني نحلت ابني هذا غلاما، فقال:(أكل ولدك نحلت مثله؟) قال: لا، قال:(فارجعه) وفي رواية، قال: (لا تشهدني على جور)[7]

قال السائل: ويسألونك عن الهدية التي تعطى للجيران .. أيهم أولى بها؟

قال: لقد حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: قلت: يا رسول الله، إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ قال:(إلى أقربهما منك بابا)[1]

قال السائل: ويسألونك أي الصدقة خير وأفضل وأعظم أجرا؟

([1]) رواه البخاري.

([2]) رواه أحمد والنسائي.

([3]) اللقطة: **لغة**: من لقط أي أخذ الشّيء من الأرض ، وكل نثارةٍ من سنبلٍ أو تمرٍ لقط.
وشرعاً: هي المال الضّائع من ربّه يلتقطه غيره ، أو الشّيء الّذي يجده المرء ملْقىً فيأخذه أمانةً.

([4]) رواه البخاري ومسلم ومالك وأحمد وابن ماجة وأبو داود.

([5]) رواه الدارقطني.

([6]) أذربيجان دولة إسلامية تقع في منطقة جبال القوقاز، على الشاطئ الغربي لبحر قزوين. وقد حصلت على استقلالها عام ١٤١٢هـ، ١٩٩١م. بعد أن استمرت ما يقرب من سبعين عامًا جزءًا من الاتحاد السوفييتي السابق.

([7]) رواه البخاري، وفي رواية: (لا أشهد على جور)

([1]) رواه عبد بن حميد وأحمد والبخاري وأبو داود.

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا أو لفلان كذا وقد كان لفلان)[1]

وعن عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ :(أتدري أي الصدقة أفضل؟)، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال :(المنيحة أن يمنح أحدكم أخاه الدرهم أو ظهر الدابة أو لبن الشاة أو لبن البقرة)[2]

قال السائل: ويسألونك عمن يريد أن يتصدق بماله كله في سبيل الله.

قال: لقد حدث سعد بن أبي وقاص ــ رضي الله عنه ــ قال: جاءني رسول الله ﷺ يعودني في عام حجة الوداع من وجع اشتد بي، فقلت: يا رسول الله، قد بلغ بي من الوجع ما ترى، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأتصدق بمالي كله؟ قال: لا، قلت فثلثي مالي؟ قال: لا، قلت فالشطر يا رسول الله؟ قال: لا، قلت: فالثلث؟ قال:(الثلث، والثلث كثير، إن صدقتك من مالك صدقة، وإن نفقتك على عيالك صدقة وإنما تأكل امرأتك من مالك صدقة وإنك أن تدع أهلك بخير خير لك من أن تدعهم يتكففون الناس)[3]

قال السائل: ويسألونك عن الصدقة عن الميت الكافر.

قال: لقد حدث عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنه ــ أن جده العاص بن وائل أوصى أن يعتق عنه مائة رقبة، فأعتق عنه ابنه هشام خمسين رقبة، فأراد ابنه عمرو أن يعتق عنه الخمسين الباقية، فقال: حتى أسأل رسول الله ﷺ فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أبي أوصى بعتق مائة رقبة، وإن هشاما أعتق عنه خمسين، وبقيت عليه خمسون رقبة، أفأعتق عنه؟ فقال رسول الله ﷺ:(إنه لو كان مسلما فأعتقتم عنه، أو تصدقتم عنه، أو حججتم عنه بلغه ذلك)[4]

قال السائل: ويسألونك عن الأكل من مال اليتيم للمضطر.

قال: لقد حدث عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال: إني فقير، وليس لي شئ ولي يتيم، قال: فقال :(كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبادر ولا متأثل)[5]

جلس الأذري، فقام رجل آخر، وقال: أنا من طَشْقَنْد.. لا شك أنكم تعرفونها .. إنها عاصمة أوزبكستان[1] .. لقد أرسلني أهلها يستفتونك في مسائل ترتبط **بالفرائض والمواريث**.. فإن أذنت لي تحدثت، وإلا جلست.

أشار إليه بالإيجاب، فأخرج ورقة، وراح يقول: يسألونك عن نصيب الأب في ميراث ابنه إن كان للابن فرع وارث.

([1]) رواه مسلم وأبو داود والبيهقي.
([2]) رواه أحمد.
([3]) رواه البخاري ومسلم.
([4]) رواه أبو داود.
([5]) رواه أبو داود والنسائي.
([1]) أوزبكستان بلد إسلامي في وسط آسيا استقل عام ١٩٩١م، بعد ٧٠ عامًا كان خلالها أحد جمهوريات الاتحاد السوفييتي (سابقا)

قال: لقد حدث عمران بن الحصين ـــ رضي الله عنه ـــ أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال: إن ابني مات فما لي من ميراثه؟ فلما أدبر قال:(لك السدس)، فلما أدبر، قال: (لك سدس آخر)، فلما ولى دعاه، قال: (إن السدس الاخر طعمة)[1]

قال السائل: ويسألونك عن معنى الكلالة.

قال: لقد حدث البراء بن عازب ـــ رضي الله عنه ـــ قال: سألت رسول الله ﷺ عن الكلالة فقال :(ما خلا الولد والوالد)[2]

قال السائل: ويسألونك عن ميراث العمة والخالة.

قال: لقد حدث أبو هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ قال: سئل رسول الله ﷺ عن ميراث العمة والخالة، فقال:(لا أدري حتى يأتيني جبريل)، ثم قال: (أين السائل عن ميراث العمة والخالة؟)، فأتى الرجل، فقال: (سارني جبريل أنه لا شئ لهما)[3]

قال السائل: ويسألونك عن الميراث بالولاء.

قال: لقد حدث تميم الداري ـــ رضي الله عنه ـــ قال: قلت: يا رسول الله: ما السنة في الرجل يسلم على يدي الرجل من المسلمين؟ قال :(هو أولى الناس بمحياه ومماته)[4]

قال السائل: ويسألونك: هل يمكن أن يرث المرء ما كان قد وهبه للميت؟

قال: لقد حدث بريدة ـــ رضي الله عنه ـــ أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت: كنت تصدقت على أمي بوليدة، وإنها ماتت وتركت تلك الوليدة قال:(قد وجب أجرك ورجعت إليك في الميراث)[5]

وعن ابن عمرو ـــ رضي الله عنه ـــ أن رجلا قال: يا رسول الله، إني أعطيت أمي حديقة في حياتها، وإنها توفيت ولم تدع وارثا غيري، فقال رسول الله ﷺ ـــ أحسبه قال ـــ :(إن الله تبارك وتعالى رد عليك حديقتك، وقبل صدقتك)[6]

الأسرة:

جلس الطشقندي، فقام رجل آخر، وقال: أنا من دوشانبي.. لا شك أنكم تعرفونها .. إنها عاصمة طاجكستان[1] .. لقد أرسلني أهلها يستفتونك في مسائل ترتبط **بفقه الأسرة**.. فإن أذنت لي تحدثت، وإلا جلست.

أشار إليه بالإيجاب، فأخرج ورقة، وراح يقول: يسألونك أي النساء خير؟

---

(1) رواه أحمد والدارقطني.
(2) رواه أبو الشيخ في كتاب الفرائض.
(3) رواه الدارقطني ولم يسنده غير مسعدة عن محمد بن عمرو وهو ضعيف والصواب مرسل.
(4) رواه أبو داود والترمذي.
(5) رواه أبو داود والترمذي.
(6) رواه أحمد.
(1) طاجكستان دولة إسلامية ذات طبيعة جبلية في وسط آسيا. أصبحت مستقلة عام ١٩٩١م بعد مرور ما يزيد على ٦٠ عامًا كانت خلالها من جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق.

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال:(التي تسره إذا نظر وتطيعه، إذا أمر، ولا تخالفه فيما يكره في نفسها أو ماله)[1]

وعن ثوبان ــ رضي الله عنه ــ قال: لما نزل في الذهب والفضة ما نزل قالوا: لو علمنا أي المال خير فنتخذه، قال :(أفضله لسان ذاكر، وقلب شاكر، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه)[2]

قال السائل: ويسألونك عن حق الزوجة على زوجها.

قال: لقد حدث معاوية بن حيدة ــ رضي الله عنه ــ قال: قلت: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: (أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتست، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت)[3]

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، قال: قلت: يا رسول الله، ما تقول في نسائنا؟ قال: (أطعموهن مما تأكلون واكسوهن مما تكسون، ولا تضربوهن ولا تقبحوهن)[4]

قال السائل: ويسألونك عن علاقة الزوج بزوجته .. أله فيها أجر؟

قال: لقد حدث أبو ذر ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال:(وفي بضع أحدكم صدقة)، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر، قال:(أرأيت لو وضعها في حرام ؟ أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر)[5]

قال السائل: ويسألونك عمن ترك الزواج مع القدرة عليه.

قال: لقد حدث أبو ذر ــ رضي الله عنه ــ قال: دخل على رسول الله ﷺ رجل يقال له: عكاف بن بشر التميمي، فقال له النبي ﷺ :(يا عكاف، هل لك من زوجة؟) قال : لا، قال: (ولا جارية؟) قال : ولا جارية، قال :(وأنت موسر بخير؟) قال : وأنا موسر بخير، قال:(أنت إذا من إخوان الشياطين، ولو كنت في النصارى كنت من رهبانهم، إن سنتنا النكاح، شراركم عزابكم، وأراذل موتاكم عزابكم، أبالشيطان تمرسون، ما للشيطان من سلاح أبلغ في الصالحين من النساء، إلا المتزوجون، أولئك المطهرون المبرءون من الخنا، ويحك يا عكاف، إنهن صواحب أيوب وداود ويوسف وكرسف)، فقال له بشر بن عطية : ومن كرسف يا رسول الله؟ قال :(رجل كان يعبد الله بساحل من سواحل البحر ثلاثمئة عام، يصوم النهار، ويقوم الليل، ثم إنه كفر بالله العظيم في سبب امرأة عشقها وترك ما كان عليه من عبادة الله، عز وجل، ثم استدركه الله ببعض ما كان منه، فتاب عليه، ويحك يا عكاف تزوج، وإلا فأنت من المذبذبين)، قال: زوجني يا رسول الله، قال : (قد زوجتك كريمة بنت كلثوم الحميري)[1]

---

(1) رواه أحمد والنسائي.
(2) رواه الترمذي .
(3) رواه أبو داود بسند حسن.
(4) رواه أبو داود.
(5) رواه مسلم.
(1) رواه عبد الرزاق وأحمد.

قال السائل: ويسألونك عن نظر الفجأة.

قال: لقد حدث عمرو بن جرير قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة؟ فأمرني أن أصرف بصري[١].

قال السائل: ويسألونك عن النظر لمن يريد أن يتزوجها.

قال: لقد حدث أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: كنت عند رسول الله ﷺ فأتاه رجل فأخبره أنه تزوج امرأة من الانصار، فقال رسول الله ﷺ :(أنظرت إليها؟)، قال: لا، قال :(فاذهب فانظر إليها، فإن في أعين الانصار شيئا)[٢]، يعني حولا.

قال السائل: ويسألونك عن استئذان النساء في تزويجهن.

قال: لقد حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الجارية ينكحها أهلها، أتستأمر أم لا؟ فقال رسول الله ﷺ :(نعم تستأمر)، قلت: فإنها تستحي، قال :(ذلك إذنها، إذا هي سكتت)[٣]

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال :(لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا البكر حتى تستأذن)، قالوا: يا رسول الله، كيف إذنها قال :(تسكت)[٤]

قال السائل: ويسألونك عمن تزوج في مرض يخشى من موته فيه.

قال: لقد حدث عبد الله بن معقل ــ رضي الله عنه ــ قال: تزوج رجل من الأنصار امرأة في مرضه، فقالوا: لا يجوز، هذا من الثلث، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال:(النكاح جائز، ولا يكون من الثلث)[٥]

قال السائل: ويسألونك عن تأخير إعطاء المهر.

قال: لقد حدث ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل تزوج امرأة، وفرض لها هل يدخل بها و لم يعطها شيئا؟ فقال :(لا يدخل بها حتى يعطيها شيئا ولو نعليه)[٦]

قال السائل: ويسألونك عن احتجاب المرأة عن أخيها من الرضاع.

قال: لقد حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ أن أفلح أخا أبي القعيس جاء يستأذن عليها وهو عمها من الرضاعة بعد أن نزل الحجاب، فأبيت أن آذن له، فلما جاء رسول الله ﷺ أخبرته بالذي صنعت، (فأمرني أن آذن له)[١]

قال السائل: ويسألونك عن الرضعات القليلة هل تؤثر في المحرمية أم لا؟

قال: لقد حدثت أم الفضل ــ رضي الله عنها ــ قالت: دخل أعرابي على رسول الله ﷺ وهو في بيتي، فقال: يا نبي الله! إني كانت لي امرأة فتزوجت عليها أخرى، فزعمت امرأتي الأولى، أنها أرضعت امرأتي

---

(١) رواه أبو داود الطيالسي وأحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح والنسائي.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه البخاري ومسلم.
(٥) رواه الدارقطني.
(٦) رواه البخاري.
(١) رواه البخاري.

الحدثى، رضعة أو رضعتين فقال نبي الله ﷺ :(لا تحرم الإملاجة ولا الإملاجتان)[1]

قال السائل: ويسألونك عن شرب الكبير لبن المرأة لتصبح محرما عليه إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

قال: لقد حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: جاءت سهلة بنت سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن سالما كان يدعى لأبي حذيفة، وإن الله تعالى قد أنزل في كتابه العزيز :﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾ (الأحزاب: من الآية٥)، وكان يدخل علي، وأنا فضل، ونحن في مسوب ضيق، فقال النبي ﷺ :(أرضعيه تحرمي عليه[2])[3]

قال السائل: ويسألونك عن الشهود المعتبرين في الرضاع.

قال: لقد حدث ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا سأل رسول الله ﷺ: ما الذي يجوز من الشهود في الرضاع؟ فقال :(رجل وامرأة)[4]

قال السائل: ويسألونك عمن أسلم وهو متزوج أختين.

قال: لقد حدث فيروز الديلمي ــ رضي الله عنه ــ قال: قلت: يا رسول الله، إني أسلمت، وتحتي أختان، قال :(طلق أيتهما شئت)[5]

قال السائل: ويسألونك: هل يكفي العقد على الزوجة لتحل لزوجها الذي طلقها ثلاثا؟

قال: لقد حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: طلق رجل زوجته ثلاثا فتزوجت زوجا غيره، فطلقها قبل أن يدخل بها، فأراد زوجها الأول أن يتزوجها، فسئل رسول الله ﷺ فقال :(لا حتى يذوق الآخر من عسيلتها ما ذاق الأول)[6]

قال السائل: ويسألونك عن نكاح المحلل.

قال: لقد حدث علقمة بن عامر ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ :(ألا أخبركم بالتيس المستعار؟) قالوا: بلى يا رسول الله، قال :(هو المحلل)، ثم لعن المحلل والمحلل له[1].

قال السائل: ويسألونك عمن أسلم وهو متزوج أكثر من أربع نسوة.

قال: لقد حدث الحارث ــ رضي الله عنه ــ قال: أسلمت وعندي ثمان نسوة، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال :(اختر منهن أربعا، وفارق سائرهن)[2]

([1]) رواه مسلم.

([2]) ليس المراد بالرضاعة هنا ما فهمه الحاقدون الذين ملأوا كتبهم ومواقعهم بالتشنيع على هذا، بل المراد منه إعطاء لبن المرأة للرجل الذي تريد أن تحرم عليه، وهي مسألة خلافية طويلة، وقد تحدثنا عن تفاصيلها في (موانع الزواج) من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية)

([3]) رواه عبد الرزاق.

([4]) رواه أحمد.

([5]) رواه الشافعي وأبو داود وابن ماجة.

([6]) رواه البخاري ومسلم.

([1]) رواه ابن ماجة والدارقطني.

([2]) رواه الشافعي وأبو داود والدارقطني والطحاوي والبغوي وابن قانع.

وعن نوفل بن معاوية الرملي ــ رضي الله عنه ــ قال: أسلمت وعندي خمس نسوة، فسألت النبي ﷺ فقال:(فارق واحدة، وأمسك أربعا)[1]

قال السائل: ويسألونك عن رجل أسلم، وأسلمت امرأته بعده، وكانت مشركة.

قال: لقد حدث ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا جاء مسلما على عهد رسول الله ﷺ، ثم جاءت امرأته مسلمة بعده، فقال: يا رسول الله، إنها كانت أسلمت معي، فردها عليه رسول الله ﷺ [2].

قال السائل: ويسألونك عن العزل.

قال: لقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال :(اصنعوا ما بدا لكم، فما قضى الله تعالى فهو كائن، وليس كل الماء يكون الولد)[3]

وعن جابر ــ رضي الله عنه ــ قال: جاء ناس من المسلمين، فقالوا: يارسول الله، أفيكون لنا الاماء فنعزل عنهن؟ وزعمت يهود أنها الموءودة الصغرى، فقال رسول الله ﷺ :(كذبت يهود، ولو أراد الله تعالى أن يخلقه لم يرده)[4]

وعن أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ سئل عن العزل، فقال :(لا عليكم أن لا تفعلوا، فإن الله تعالى كتب من هو خالق إلى يوم القيامة)[5]

قال السائل: ويسألونك عن أخذ المرأة من مال زوجها إن كان يمنعها نفقتها.

قال: لقد حدثت عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: إن هند بنت عتبة أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه، وهو لا يعلم ؟ فقال :(خذي ما يكفيك، وولدك بالمعروف)[6]

قال السائل: ويسألونك عن النفقة على الأهل.

قال: لقد حدث أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: جاء رجل، فقال: يا رسول الله، عندي دينار، قال:(أنفقه على نفسك)، قال: عندي آخر، قال:(أنفقه على ولدك)، قال: عندي آخر ؟ قال :(أنفقه على أهلك)[1]

وعن رائطة امرأة عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنها ــ وكانت امرأة صناعا، وكانت تبيع وتصدق، فقالت لعبد الله يوما: لقد شغلتني أنت وولدك، فما أستطيع أن أتصدق معكم، فقال: ما أحب إن لم يكن في ذلك أجر أن تفعلي، فسألا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال لها رسول الله ﷺ :(لك أجر ما أنفقت عليهم)[2]

قال السائل: ويسألونك عن الطلاق في الحيض.

([1]) رواه الشافعي.
([2]) رواه أحمد والترمذي، وصححه.
([3]) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والبيهقي.
([4]) رواه عبد الرزاق والترمذي.
([5]) رواه أحمد ومسلم.
([6]) رواه البخاري ومسلم والشافعي والدارقطني.
([1]) رواه البيهقي.
([2]) رواه أحمد.

قال: لقد حدث ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ أنه طلق امرأته، وهي حائض، فذكر ذلك عمر ــ رضي الله عنه ــ لرسول الله ﷺ فتغيظ فيه، ثم قال :(ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر وإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء)، ثم قرأ رسول الله ﷺ :﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾(الطلاق: من الآية١)، أي قبل عدهن[1].

قال السائل: ويسألونك عمن يملك حق التطليق.

قال: لقد حدث ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ يشكو، أن مولاه زوجه، وهو يريد أن يفرق بينه وبين امرأته، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه ثم قال:(ما بال قوم يزوجون عبيدهم إماءهم، ثم يريدون أن يفرقوا بينهم؟ ألا إنما يملك الطلاق من أخذ بالساق)[2]

قال السائل: كيف يكون الطلاق ثلاثا، وقد قال تعالى :﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ ﴾ (البقرة: من الآية٢٢٩)، فذكر مرتين، و لم يذكر الثالثة.

قال: لقد روي في لك أن رجلا قال: يا رسول الله، أرأيت قول الله تعالى:﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ﴾ (البقرة: من الآية٢٢٩) فأين الثالثة؟ قال:﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ (البقرة: من الآية٢٢٩)[3]

قال السائل: ويسألونك عمن أتى زوجته التي ظاهر منها قبل أن يكفر.

قال: لقد حدث ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا أتى رسول الله ﷺ وقد ظاهر من امرأته، فوقع عليها فقال: يا رسول الله، إني قد ظاهرت من زوجتي، فوقعت عليها قبل أن أكفر، فقال :(وما حملك على ذلك، يرحمك الله؟) قال: رأيت خلخلها في ضوء القمر، قال :(فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله به)[4]

قال السائل: ويسألونك عمن شك في ولده بسبب عدم مشابهته له.

قال: لقد روي أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ولد لي غلام أسود، وإني أنكرته؟ فقال له رسول الله ﷺ :(هل لك من إبل؟) قال: نعم، قال :(فما ألوانها؟)، قال: حمر، قال :(هل فيها من أورق؟) قال: إن فيها لورقا، قال :(فأنى ترى ذلك جاءها؟) قال: عرق نزعها، قال :(ولعل هذا عرق نزعه!) و لم يرخص له في الانتفاء منه[1].

قال السائل: ويسألونك عن الشبه المدعم بالشبهة.

قال: لقد روي في ذلك أن بنت زمعة قالت: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن أبي زمعة مات، وترك أم ولد له وإنا كنا نظنها برجل، وإنها ولدت فخرج ولدها يشبه الرجل الذي ظنناها به، قال: فقال لها :(أما أنت فاحتجبي منه، فليس بأخيك وله الميراث)[2]

---

(1) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي.
(2) رواه الدارقطني.
(3) رواه أحمد وغيره عن أبي ذر والدارقطني عن أنس.
(4) رواه الترمذي والبيهقي والدارقطني.
(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه أحمد.

قال السائل: ويسألونك عن حق المرأة في الحضانة.

قال: لقد حدث ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن ابني هذا كان بطني له وعاء، وثديي له سقاء، وحجري له حواء، وإن أباه طلقني وأراد أن ينتزعه مني، فقال لها رسول الله ﷺ :(أنت أحق به ما لم تنكحي)[1]

قال السائل: ويسألونك عن عدة التي تختلع من زوجها.

قال: لقد حدث ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس اختلعت من زوجها فجعل النبي ﷺ عدها حيضة[2].

قال السائل: ويسألونك عن عدة المتوفى عنها زوجها التي تضع حملها قبل انتهاء العدة.

قال: لقد حدث المسور بن مخرمة ــ رضي الله عنه ــ أن سبيعة الأسلمية نفست بعد وفاة زوجها بليال فجاءت النبي ﷺ، فاستأذنته أن تنكح فأذن لها فنكحت[3].

وعن المسور بن مخرمة ــ رضي الله عنه ــ أنه سأل رسول الله ﷺ عن ذوات الاحمال قال:(أجلهن أن يضعن حملهن)[4]

الروادع:

جلس الطاجكستاني، فقام رجل آخر، وقال: أنا من عشق أباد .. لا شك أنكم تعرفونها .. إنها عاصمة تُرْكُمَانسْتَان[5] .. لقد أرسلني أهلها يستفتونك في مسائل ترتبط **بالروادع** التي وضعها الشرع لتهذيب نوازع النفس الأمارة .. فإن أذنت لي تحدثت، وإلا جلست.

أشار إليه بالإيجاب، فأخرج ورقة، وراح يقول: يسألونك عمن لم يقتل، ولكنه أمر بالقتل.

قال: لقد حدث مربد بن عبد الله عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الآمر والقاتل، فقال :(قسمت النار سبعين جزءا، فللآمر تسع وستون وللقاتل جزء وحسبه)[1]

قال السائل: ويسألونك عمن احتمى من القتل في الحرب بادعاء الإسلام.

قال: لقد حدث المقداد بن عمرو الكندي ــ رضي الله عنه ــ أنه قال لرسول الله ﷺ: أرأيت إن لقيت رجلا من الكفار فاقتتلنا فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله أأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ قال:(لا تقتله)، فقال: يا رسول الله، إنه قطع إحدى يدي، ثم قال ذلك بعد ما قطعها، فقال رسول الله ﷺ :(لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمترلتك قبل أن تقتله، وإنك بمترلته قبل أن يقول كلمته التي

---

(1) رواه أحمد وأبو داود.

(2) رواه أبو داود والترمذي.

(3) رواه الشافعي وأحمد والبخاري.

(4) رواه الشافعي وأحمد والبخاري.

(5) تُرْكُمَانسْتَان قُطرٌ إسلامي في وسط آسيا تغلب عليه الصحراء، بقي نحوًا من ٧٠ عامًا كإحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي سابقاً. كان اسمه جمهورية تركمانيا السوفييتية الاشتراكية، وفي عام ١٩٩١م أصبحت تركمانستان دولة مستقلة.

(1) رواه أحمد.

قال)[1]

قال السائل: ويسألونك عن حد الأمة التي تقع في الفاحشة.

قال: لقد حدث أبو هريرة وزيد بن خالد الجهني ـــ رضي الله عنهما ـــ قالا: سئل رسول الله ﷺ عن الأمة إذا زنت و لم تحصن؟ قال :(إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم بيعوها ولو بضفير)[2]

قال السائل: ويسألونك عن الإقرار بالزنا إن كان من طرف واحد.

قال: لقد حدث سهل بن سعد ـــ رضي الله عنه ـــ أن رجلا من أسلم جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إنه زنى بامرأة سماها فأرسل النبي ﷺ إلى المرأة فدعاها فسألها عما قال، فأنكرت فحده وتركها[3].

قال السائل: ويسألونك عن الاعتراف .. هل هو من البينات التي تقام على أساسها الحدود؟

قال: لقدحدث أبو أمية المخزومي ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ أتي بلص فاعترف، و لم يوجد معه متاع، فقال له رسول الله ﷺ :(ما أخالك سرقت؟) قال: بلى، مرتين أو ثلاثا، قال: فقال رسول الله ﷺ اقطعوه، ثم جاءوا به قال فقطعوه، ثم جاءوا به، فقال له رسول الله ﷺ :(قل: أستغفر الله، وأتوب إليه) قال: أستغفر الله، وأتوب إليه، فقال رسول الله ﷺ :(اللهم، تب عليه)[4]

قال السائل: هل يمكن تعويض الحدود بغرامات مالية؟

قال: لقد حدث في ذلك مسعود بن الأسود ـــ رضي الله عنه ـــ أنه قال لرسول الله ﷺ في المخزومية التي سرقت قطيفة: يفديها يعني بأربعين أوقية، فقال رسول الله ﷺ :(لأن تطهر خير لها)، فأمر بها، فقطعت يدها[5].

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه البخاري ومسلم وأحمد والبيهقي.
(3) رواه أحمد.
(4) رواه أحمد.
(5) رواه أحمد والبيهقي.

سكت العامة، فالتفت سحنون إلى أهل العلم، وقال: هذه سنة رسول الله ﷺ في العلم، فاقتدوا بها .. فلن ينال الوراثة من لم ينلها.

قالوا: فحدثنا عن الركن الثاني.

قال: لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الركن في قوله تعالى :﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (الاسراء:٣٦)

وطبقه رسول الله ﷺ فيما حدث به جبير بن مطعم ــ رضي الله عنه ــ أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال: أي البقاع شر؟ فقال: (لا أدري)، فلما أتاه جبريل عليه السلام قال: (يا جبريل، أي البلدان شر؟ قال: لا أدري حتى أسأل ربي عز وجل، فانطلق جبريل عليه السلام ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم جاء فقال: يا محمد، إنك سألتني أي البلدان شر؟ فقلت: لا أدري، وإني سألت ربي عز وجل: أي البلدان شر؟ فقال: أسواقها)[1]

قالوا: وعينا هذا، فما السبيل إليه؟

قال: أربعة.

قالوا: فما هي؟

قال: أن لا تتكلموا فيما لا تعلمون، وأن لا تتكلموا بكل ما تعلمون، وأن لا تكتموا ما تعلمون، وأن لا تحرفوا ما تعلمون.

قالوا: فحدثنا عن الأول.

قال: هو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ في قوله :(من أفتى بغير علم كان إثم ذلك على الذي أفتاه)[2] .. فالمفتي الورع هو الذي لا **يتكلم إلا فيما يعلم**.. وقد كان هذا سنة رسول الله ﷺ وسنة ورثته من بعده، ففي الحديث قال رسول الله ﷺ : (ثلاث وثلاث وثلاث ! فثلاث لا يمين فيهن ، وثلاث الملعون فيهن، وثلاث أشك فيهن ، فأما الثلاث التي لا يمين فيهن : فلا يمين للولد مع والده ، ولا للمرأة مع زوجها ، ولا للمملوك مع سيده ، أما الملعون فيهن فملعون من لعن والديه ، وملعون من ذبح لغير الله ، وملعون من غير تخوم الارض ، وأما التي أشك فيهن : فعزيز لا أدري أكان نبيا أم لا ! ولا أدري ألعن تبع أم لا ! ولا أدري الحدود كفارة لأهلها أم لا)[3]

وفي حديث آخر قال ﷺ :(لا تخيروني على موسى ، فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري : أكان فيمن صعق فأفاق قبلي ، أو كان ممن استثنى الله)[4]

قالوا: عرفنا أن هذا سنة رسول الله ﷺ .. فحدثنا عن التزام ورثته بهذا.

---

(1) رواه أحمد.
(2) رواه ابن ماجة.
(3) رواه الاسماعيلي في معجمه ، وابن عساكر عن ابن عباس.
(4) رواه البخاري ومسلم.

قال: لقد حدث عتبة بن مسلم قال: صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهرا، فكان كثيرا ما يسأل فيقول: لا أدري!

وقال ابن أبي ليلى: أدركت مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يسأل أحدهم عن المسألة، فيردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، حتى ترجع إلى الأول، وما منهم من أحد يحدث بحديث، أو يسأل عن شيء، إلا ود أخاه كفاه!

وقال عطاء بن السائب: أدركت أقواما إن كان أحدهم ليسأل عن شيء فيتكلم وإنه ليرعد.

وقال عمر بن الخطاب: أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار.

وقال ابن مسعود: والله إن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون.

وقال ابن عباس أو غيره: إذا أخطأ العالم (لا أدري) أصيبت مقالته.

قالوا: هؤلاء صحابة رسول الله ﷺ .. فما قال من بعدهم؟

قال: لقد كان سيد التابعين وأفقههم سعيد بن المسيب لا يكاد يفتي، ولا يقول شيئا، إلا قال: (اللهم سلمني، وسلم مني)

وسئل القاسم بن محمد ــ أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ــ عن شيء فقال: إني لا أحسنه، فقال له السائل: إني جئتك لا أعرف غيرك، فقال له القاسم: لا تنظر إلى طول لحيتي، وكثرة الناس حولي! والله لا أحسنه، فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه: يا ابن أخي الزمها، فوالله ما رأيناك في مجلس أنبل منك اليوم. فقال القاسم: والله لأن يقطع لساني أحب إلي من أن أتكلم بما لا علم لي به.

وسئل الشعبي عن مسألة، فقال: لا أدري، قيل له: ألا تستحي من قول (لا أدري) وأنت فقيه العراق؟ فقال: لكن الملائكة لم تستح حين قالوا :﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة: من الآية٣٢)

قالوا: فحدثنا عن أئمة المذاهب .. أولئك الذين انتشرت أقوالهم في الأمصار قرونا طوالا.

قال: لقد حدث أبو يوسف قال: سمعت أبا حنيفة يقول: لولا الفرق من الله أن يضيع العلم ما أفتيت أحدا، يكون له المهنأ، وعلى الوزر.

وقال: من تكلم في شيء من العلم وتقلده وهو يظن أن الله لا يسأله عنه: كيف أفتيت في دين الله؟ فقد سهلت عليه نفسه ودينه.

وكان شيخنا مالك أشدهم في هذا، وقد حدثني شيوخي عنه أنه كان يقول: من سئل عن مسألة، فينبغي له قبل أن يجيب فيها أن يعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة، ثم يجيب فيها.

وقال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول: إني لأفكر في مسألة منذ بضع عشرة سنة، فما اتفق لي فيها رأي إلى الآن.

وسمعه ابن مهدي يقول: ربما وردت علي المسألة، فأسهر فيها عامة ليلي.

وقال مصعب: وجهني أبي بمسألة ــ ومعي صاحبها ــ إلى مالك يقصها عليه، فقال: ما أحسن فيها

جوابا، سلوا أهل العلم.

وقال ابن أبي حسان: سئل مالك عن اثنتين وعشرين مسألة، فما أجاب إلا في اثنتين بعد أن أكثر من (لا حول ولا قوة إلا بالله)

وكان الرجل يسأله عن المسألة، فيقول: العلم أوسع من هذا وقال بعضهم: إذا قلت أنت يا أبا عبدالله: لا أدري فمن يدري؟ قال: ويحك! ما عرفتني! وما أنا؟ وأي شيء مترلتي حتى أدري ما لا تدرون؟! ثم أخذ يحتج بحديث ابن عمر يقول: لا أدري، فمن أنا؟! وإنما أهلك الناس العجب وطلب الرئاسة، وهذا يضمحل عن قليل.

وقال في جواب آخر معتذرا: قد ابتلى عمر بن الخطاب بهذه الأشياء، فلم يجب فيها، وقال ابن الزبير: لا أدري، وابن عمر: لا أدري!

وقال مصعب: سئل مالك عن مسألة، فقال لا أدري. فقال له السائل: إنها مسألة خفيفة سهلة، وإنما أردت أن أعلم بها الأمير، وكان السائل ذا قدر، فغضب مالك، وقال: مسألة خفيفة سهلة! ليس في العلم شيء خفيف. أما سمعت قول الله تعالى :﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (المزمل:٥)، فالعلم كله ثقيل، وبخاصة ما يسأل.

وقال بعضهم: ما سمعت قط أكثر قولا من مالك (لا حول ولا قوة إلا بالله) ولو شئنا أن ننصرف بألواحنا مملوءة بقوله لا أدري ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ (الجاثـية: من الآية٣٢) لفعلنا.

ومثلهما أحمد بن حنبل .. حدث أبو داود قال: سمعت أحمد، وسئل عن مسألة فقال: دعنا من هذه المسائل المحدثة! وما أحصى ما سمعت أحمد، سئل عن كثير مما فيه الاختلاف من العلم، فيقول: لا أدري!

وجاء رجل يسأله عن شيء فقال: لا أجيبك في شيء. ثم قال: قال عبدالله بن مسعود: إن كان من يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون.

قالوا: فما تقول في الموقف ممن يفتي بغير علم؟

قال: هو مجرم كالمجرمين .. وليس للمجرم من جزاء إلا العقوبة .. وأول العقوبة الحجر عليه، وقد كان أبو حنيفة ــ رغم ذهابه إلى عدم الحجر على السفيه احتراما لآدميته ــ يقول بوجوب الحجر على المفتي الجاهل المتلاعب بأحكام الشرع.

وقد رأى رجل ربيعة بن أبي عبد الرحمن ــ شيخ الإمام مالك ــ يبكي، فقال: ما يبكيك؟ فقال: استفتي من لا علم له، وظهر في الإسلام أمر عظيم! قال: ولبعض من يفتي ههنا أحق بالسجن من السراق!

قالوا: وعينا هذا، فحدثنا عن الثاني.

قال: هو ما أشار إليه رسول الله ﷺ في قوله :(كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع)[1]، وقوله :(بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع)[2]

---

(1) رواه أبو داود.
(2) رواه مسلم.

قالوا: فما في هذا من الورع الذي يجب على المفتي أن يمارسه؟

قال: المفتي الوارث هو الذي **لا يتكلم في كل ما يعلم**، فقد يكون ما يتكلم فيه غير صحيح، فيتحمل وزر نقل الكذب وإشاعته، وقد يكون ما يتكلم فيه غير نافع، فيتحمل وزر الضرر الذي أصاب به من أفتاه.

قالوا: وعينا هذا .. فلا يكون العالم عالما حتى يتثبت مما يعلمه.

قال: ذلك لا يكفي .. فقد يعلم الشيء ويتثبت منه، ولكنه لا ينغي له أن يلقيه إلا لأهله، أو في الوقت المناسب له .. فالدواء قد يكون نافعا، لكنه إن أعطي لمن لا يحتاجه أضر به.

لقد كان لي صديق من طنطا يقال له الشيخ يوسف[1] .. وقد تتلمذ على أبي يوسف، كما تتلمذت أنا على مالك .. وكان له أتباع كثيرون يستفتونه، وقد قال لي مرة :(أنا أضرب صفحا عن الأسئلة التي يريد بها أصحابها المراء والجدل، أو التعالم والتفاصح، أو امتحان المفتي وتعجيزه، أو الخوض فيما لا يحسنونه، أو إثارة الأحقاد والفتن بين الناس، أو نحو ذلك .. أنا أضرب عنها صفحا، ولا ألقي لها بالا، لأنها تضر ولا تنفع، وتهدم ولا تبني، وتفرق ولا تجمع.

لقد كان بعض الناس يبعثون إلي بأسئلة تتضمن ألغازا شرعية يريدون حلها من مثل: (نوى ولا صلى، وصلى ولا نوى)، و(قوم كذبوا ودخلوا الجنة، وقوم صدقوا ودخلوا النار)، وأشباه ذلك، فكان ردي عليها السكون والإعراض، لأن الاشتغال بمثل هذه المسائل من عمل الفارغين.

ومثل ذلك الأسئلة التي تتعلق بالأمور الغيبية، مما لم يجئ بتحديده نص معصوم، ومثل ذلك غوامض المسائل الدينية والعقائدية التي لا تحتملها الطاقة العقلية المعتادة لجمهور الناس، ويخشى من الخوض فيها ــ سؤالا وجوابا ــ التشويش على الكثيرين، فهذا أيضا مما لا أعتني بالإجابة عنه إلا إزالة لشبهة، أو ردا لفرية، أو تنبيها على قاعدة، أو تصحيحا لفهم، أو نحو ذلك.

وكثيرا ما كنت أطلب من صاحب السؤال إذا أحسست جديته، وخشيت على جمهور المستمعين أو المشاهدين التشويش، أن يلقاني على انفراد، لأستطيع أن آخذ معه وأعطي، بلا حرج ولا خشية.

ومن الأسئلة التي لم أكن أعبأ بها: ما يتعلق بالمفاضلة بين آل البيت والصحابة ــ رضي الله عنهم ــ وما شجر بينهم من خلاف، ونحو ذلك مما لا طائل تحته، وقد أفضى الجميع إلى ربهم، وقضى الله ما كان.

ومن الأسئلة التي يحرص بعض الناس على إثارتها، وتلقيت في شأنها أكثر من رسالة:

أيهما أفضل عند الله: أبو بكر أم علي؟ وأيهما كان أحق بالخلافة بعد رسول الله ﷺ؟

وأيهما أفضل: فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ أم عائشة أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ؟

ومثل ذلك: المفاضلة بين الأنبياء، مثل إسماعيل وإسحاق، أو موسى وعيسى.

فهذه الأسئلة لا يترتب عليها العلم بها، قوة في دين، ولا نهضة في دنيا، ومن جهل الجواب عنها فلا إثم عليه، ومن كون في كل منها رأيا فهيهات أن يتنازل عنه.

ولقد قلت في بعض إجاباتي عن مثلها: إنها أشبه بموضوعات الإنشاء التي كان معلمونا ــ ونحن تلاميذ

---

(1) أشير به إلى الشيخ يوسف القرضاوي.

صغار ــ يكلفوننا الكتابة فيها تدريبا للقلم، وشحذا للملكات، مثل: المفاضلة بين الليل والنهار، وبين الصيف والشتاء، وبين الأرض والسماء، وبين القطار والسفينة، وغير ذلك مما لا معنى للمفاضلة بين بعضها وبعض عند أهل البصر والبصيرة.

إن من فعل هذا ينطبق عليه تماما ما عا به الله على بني إسرائيل من كثرة أسئلتهم، واختلافهم على أنبيائهم، وسؤالهم فيما لا ضرورة إليه، ولا فائدة منه إلا إعنات أنفسهم، وفي هذا ذكر الله تعالى لنا قصة ذبح البقرة وكثرة أسئلتهم فيها دون حاجة، ولو أخذوا أي بقرة فذبحوها لكانوا ممتثلين للأمر، ولكن شددوا، فشدد الله عليهم)[1]

وقال لي: (وقد ظل المسلمون في عصور ازدهارهم يسألون عما يفيدهم في دينهم ومعاشهم ومعادهم، وإذا جمح بأحدهم جواد خياله رده علماؤهم إلى جادة الصواب، وأفهموه أن الإسلام يريد المسلم إيجابيا منتجا، يعرض عن اللغو، ويشغل نفسه ووقته بالنافع من القول والعمل والفكر.

ولما تخلف المسلمون ــ حضاريا وفكريا ــ أكثروا من الأسئلة التي لا يصلح بها دين، ولا ترتقي بها دنيا، ولا يزكو عليها فرد، ولا تنهض بها جماعة، وشغل عوام المسلمين بمسائل وتفصيلات لم تخطر ببال أحد من سلف الأمة.

وكان للمتأخرين من علمائهم المقلدين دور كبير في إذكاء هذه الروح، ودعم هذا الاتجاه، لأنهم ضيعوا اللباب، وشغلوا بالقشور، وشغلوا الناس معهم بها، حتى أن تدريس الوضوء والطهارة ليستغرق دروس شهر كامل كشهر رمضان.

ولقد بقي من رواسب عصور الانحطاط بقية من الناس، رأيت من أسئلتهم العجب العاجب، وقرأت في رسائلهم إلي ما يثير الدهشة، ويستفرغ الضحك، وشر البلايا ما يضحك كما قيل.

ومن ذلك سؤالهم :(ما لون كلب أهل الكهف؟ وهل كان ذكرا أم أنثى، وأين كانوا ومتى كانوا؟) مع أن الله تعالى لم ينص على شيء من ذلك، ولو علم فيه خيرا لنا لذكره. بل رأينا القرآن يذكر لنا اختلاف أهل الكتاب في عددهم، ما بين ثلاثة وخمسة وسبعة ثم يعقب على ذلك، فيخاطب الرسول بقوله :﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ (الكهف:٢٢)، فلم يصرح الله تعالى بعددهم وهو أعلم به، ونهى الرسول ﷺ أن يتعمق في الجدال معهم، تعليما للأمة ألا يشغلوا أنفسهم بمثل هذا الخلاف والجدال.

ومن هذا اللون من الأسئلة ما يثيره بعض المتفقهين حول الأمور الغيبية: بأي لغة يتكلم الناس في القبر؟ بالسريانية؟ أم بالعربية؟ أم بغير هذه وتلك؟

وقد كان الفقيه التابعي الجليل الإمام عامر الشعبي يستخدم النكتة اللاذعة في الرد على هذا اللون من الأسئلة الغريبة.

سأله أحدهم يوما عن زوجة إبليس!! فقال: ذاك عرس لم أشهده!

([1]) انظر: الفتوى بين الانضباط والتسيب، للشيخ يوسف القرضاوي.

وسأل آخر: كيف يخلل لحيته في الوضوء وهي كثيفة؟ فقال له: انقعها من الليل!

وقد اتبعت هذه الطريقة نفسها في بعض الأحيان مع بعض الناس، قال لي بعضهم يوما وأنا ألقي درسا في المسجد وهو يتفاصح ويتعالم: يا سيدنا الشيخ، ما اسم أخت سيدنا موسى التي ذكرها الله في القرآن؟

فقلت له: مالك ولها؟ أتريد أن تخطبها؟ هب أن اسمها مريم أو زليخا أو مارية هل يفيدك هذا شيئا؟ إن الله لم يذكر لنا اسمها حين قص علينا أمرها ورسوله ﷺ لم يبين لنا: ما اسمها، فلماذا نجهد أنفسنا ونعنيها فيما أراحنا الله منه، لا نفع لنا فيه؟

وسامح الله بعض المفسرين الذين يبدئون ويعيدون في تعيين هذه المبهمات، وذكر الأقوال المروية فيها على اختلافها، وكلها إسرائيليات لا قيمة لها في ميزان العلم الحق، ولا ثمرة لها في دين الله، ولا دنيا الناس)

وكان لي زميل درس معي عند مالك يقال له شهاب الدين القرافي، وكان يقول :(ينبغي للمفتي إذا جاءته فتيا في شأن رسول الله ﷺ ، أو فيما يتعلق بالربوبية، يسأل فيها عن أمور لا تصلح لذلك السائل لكونه من العوام الجلف، أو يسأل عن المعضلات، ودقائق الديانات، ومتشابه الآيات والأمور التي لا يخوض فيها إلا كبار العلماء، ويعلم أن الباعث له على ذلك إنما هو الفراغ والفضول والتصدي لما لا يصلح له، فلا يجيبه أصلا، ويظهر له الإنكار على مثل هذا، ويقول له: اشتغل بما يعنيك من السؤال عن صلاتك وأمور معاملاتك، ولا تخض فيما عساه يهلكك، لعدم استعدادك له.

وإن كان الباعث له شبهة عرضت له: فينبغي أن يقبل عليه، ويتلطف به في إزالتها عنه بما يصل إليه عقله، فهداية الخلق فرض على من سئل)

قالوا: وعينا هذا، فحدثنا عن الثالث.

قال: أن **لا يكتم ما يعلم** .. لقد أشار إلى ذلك قوله تعالى :﴿ وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٤٢)، وقوله تعالى :﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٤٦)، وقوله تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (البقرة:١٥٩)، وقوله تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة:١٧٤)

وأشار إليه رسول الله ﷺ في قوله :(من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)[1]، وقوله ﷺ :(إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كتم حديثا فقد كتم ما أنزل الله)[2] ، وقوله ﷺ :(مثل الذي يتعلم العلم ثم لا يحدث به كمثل الذي يكتر الكتر ثم لا ينفق منه)[3]، وقوله ﷺ :(ناصحوا في العلم، فإن خيانة أحدكم في

(1) رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي والحاكم بنحوه ، وقال صحيح على شرط الشيخين.

(2) رواه ابن ماجه وفيه انقطاع.

(3) رواه الطبراني بإسناد فيه ابن أبي لهيعة.

علمه أشد من خيانته في ماله ، وإن الله عز وجل مسائلكم)[1]

عن عبد الرحمن بن أبزى ـــ رضي الله عنه ـــ قال: خطب رسول الله ﷺ ذات يوم خطبة، فأثنى على طوائف من المسلمين خيرا، ثم قال :(ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ، والله ليعلمن قوم جيرانهم ، ويفقهونهم ، ويعظونهم ، ويأمرونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة ثم نزل)، فقال قوم :(من ترون عنى بهؤلاء؟) قالوا : الأشعريين هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب ، فبلغ ذلك الأشعريين فأتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله ذكرت بخير وذكرتنا بشر فما بالنا؟ فقال:(ليعلمن قوم جيرانهم وليفقهنهم وليعظنهم ، وليأمرنهم ولينهوهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ، ويتفقهون ، ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا)، فقالوا: يا رسول الله أنعظ غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم ، وأعادوا قولهم : أنعظ غيرنا؟ فقال ذلك أيضا فقالوا: أمهلنا سنة فأمهلهم سنة ليفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم ، ثم قرأ رسول الله ﷺ :﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) (المائدة:٧٨)[2]

قالوا: وعينا هذا، فحدثنا عن الرابع.

قال: أن **لا تحرفوا ما تعلمون** .. لقد أشار إلى ذلك قوله تعالى :﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٧٥)، وقوله تعالى :﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً) (النساء:٤٦)

وأشار إليه رسول الله ﷺ، فقال:(أحب العمل إلى الله عز و جل سبحة الحديث، وأبغض الأعمال إلى الله عز و جل التحريف، فقلنا: يا رسول الله، وما سبحة الحديث؟ قال: (يكون القوم يتحدثون، والرجل يسبح)، قلنا: يا رسول الله، وما التحريف؟ قال: (القوم يكونون بخير فيسألهم الجار والصاحب فيقولون: نحن بشر)[3]

قالوا: فكيف نحرف في الفتوى؟

قال: تتلاعبون بها كما تتلاعب الصبيان بالكرة.

قالوا: كيف ذلك؟

قال: عندما تصرفون وجوه الناس إليكم بصرف وجه الشريعة عنكم.

قالوا: كيف ذلك؟

قال: عندما تقدمون رضا الناس على رضا الله، وتخافون سخط الناس، ولا تخافون سخط الله.

---

(1) رواه الطبراني بسند رواته ثقات إلا واحدا اختلف فيه.

(2) رواه الطبراني في الكبير.

(3) رواه الطبراني.

قالوا: أذلك ممكن؟

قال: لقد حدث ابن عائشة قال: دعا الحجاج بفقهاء البصرة والكوفة فدخلنا عليه، ودخل الحسن البصري آخر من دخل، فقال الحجاج: مرحبا بأبي سعيد إلي إلي، ثم دعا بكرسي، فوضع إلى جنب سريره فقعد عليه؛ فجعل الحجاج يذاكرنا ويسألنا إذ ذكر علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ فنال منه، ونلنا منه مقاربة له وفرقا من شره؛ والحسن ساكت عاض على إبهامه؛ فقال: يا أبا سعيد مالي أراك ساكتا؟ قال: ما عسيت أن أقول؟ قال: أخبرني برأيك في أبي تراب، قال: (سمعت الله جل ذكره يقول :﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾(البقرة: من الآية١٤٣)، فعلي ممن هدى الله من أهل الإيمان، فأقول: ابن عم النبي ﷺ وختنه على ابنته وأحب الناس إليه وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ولا يحول بينه وبينها)، فبسروجه الحجاج وتغير وقام عن السرير مغضبا فدخل بيتا خلفه وخرجنا. قال عامر الشعبي: فأخذت بيد الحسن، فقلت: يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره، فقال: إليك عني يا عامر، يقول الناس عامر الشعبي عالم أهل الكوفة. أتيت شيطانا من شياطين الإنس تكلمه بهواه وتقاربه في رأيه ويحك يا عامر الشعبي عالم أهل الكوفة. أتيت شيطانا من شياطين الإنس تكلمه بهواه وتقاربه في رأيه ويحك يا عامر هلا اتقيت إن سئلت فصدقت، أو سكت فسلمت؟ قال عامر: يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها، قال الحسن: فذاك أعظم من الحجة عليك وأشد في التبعة.

قال سحنون: لقد ذكرتني بحكاية حدثني بها زميلي يوسف القرضاوي، قال: (دعي أحد العلماء اللامعين إلى ندوة تليفزيونية في أحد الأقطار، تدور المناقشة فيها حول موضوع (تحديد النسل في نظر الشريعة الإسلامية)، وكانت دهشة الرجل المكلف بإدارة الندوة بالغة حين قال له هذا العالم: هل تهدف الندوة إلى تأييد التحديد، أو معارضته حتى أهيئ نفسي؟!)

وقال يحكي عن نفسه، وهو يحدثني عن الشباب الذين لم يجدوا في كثير من العلماء موضع قدوة :(لقد قلت لأحد هؤلاء: يجب أن تأخذوا العلم من أهله، وتسألوا أهل الذكر من العلماء فيما لا تعلمون.

فقال: وأين نجد هؤلاء العلماء الذين نطمئن إلى دينهم وعلمهم؟ إننا لا نجد إلا هؤلاء الذين يدورون في فلك الحكام، إن أرادوا الحل حللوا، وإن أرادوا الحرمة حرموا؛ إذا كان الحاكم اشتراكياً باركوا الاشتراكية، ووصلوا نسبها بالإسلام، وإذا كان رأسمالياً أيدوا الرأسمالية باسم الإسلام!

العلماء الذين إذا أراد حاكمهم الحرب، فالسلم حرام ومنكر، وإذا تغيرت سياسته فأراد السلم، صدرت الفتاوى بالتبرير والتأييد :﴿ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاما﴾ (التوبة: من الآية٣٧)، العلماء الذين سوّوا بين الكنيسة والمسجد، وبين الهند الوثنية وباكستان الإسلامية!)

٣ ـــ الرفق

قالوا: فحدثنا عن الركن الثالث.

قال: لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الركن في قوله تعالى :﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾(البقرة: من الآية١٨٥)، وقوله تعالى :﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(المائدة: من الآية٦)، وقوله تعالى :﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾ (النساء:٢٨)، وقوله تعالى :﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (الحج:٧٨)

وأشار إليه رسول الله ﷺ في قوله لما بَعث معاذ بن جبل، وأبا موسى الأشعري إلى اليمن:(يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا)[١]، وقوله :(إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا)[٢]، وقوله :(إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[٣]، وقوله :(هلك المتنطعون) قالها ثلاثا[٤]، وقوله :(لا تشددوا على أنفسكم يشدد الله عليكم فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديار ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ (الحديد: من الآية٢٧)[٥] ، وقوله :(إنكم لن تدركوا هذا الأمر بالمغالبة)[٦]، وقوله :(إنما بعثتم ميسرين ، و لم تبعثوا معسرين)[٧]، وقوله :(إياكم والغلوا في الدين ، فانما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين)[٨]، وقوله :(إياكم والتعمق في الدين ، فان الله تعالى قد جعله سهلا ، فخذوا منه ما تطيقون ، فان الله يحب ما دام من عمل صالح ، وإن كان يسيرا)[٩]، وقوله ﷺ :(مثل الذي يجلس ليسمع الحكمة، ثم لا يحدث عن صاحب إلا بشر ما يسمع كمثل رجل أتى راعيا فقال: يا راع اختر لي شاة من غنمك قال : اذهب فخذ بأذن خيرها، فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم)[١٠]

وطبقه رسول الله ﷺ في حياته، فـــ (ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما،

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) رواه أحمد ومسلم.
(٥) رواه أبو داود.
(٦) رواه ابن سعد وأحمد وابن حبان.
(٧) رواه الترمذي.
(٨) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة والحاكم.
(٩) رواه أبو القاسم بن بشران في أماليه.
(١٠) رواه ابن ماجه.

وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله، وما ضرب شيئا بيده ولا امرأة ولا خادما إلا أن يكون يجاهد في سبيل الله)[1]

وحدث زيد بن أسلم ــ مرسلا ــ أن رسول الله ﷺ مر بقوم يتدافعون حجرا بينهم، وكأنه كره ذلك منهم، فلما جاوزهم رجع إليهم مستفسرا فقال: (ما هذا الحجر؟) فقالوا: يا رسول الله هذا حجر الأسد، فقال بعض أصحابه: لو نهرتهم يا رسول الله قال: (إنما بعثت ميسرا، و لم أبعث منفرا)[2]

قالوا: ما تقصد بإيرادك لكل هذه النصوص؟

قال: لأدعو إلى إحياء سنة قد أميتت، وهدي قد ضيع.

قالوا: وما هو؟

قال: الرفق .. فمن أعظم سنن رسول الله ﷺ الرفق.

قالوا: فكيف يكون الرفق في الفتوى؟

قال: لقد حدث عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنه ــ قال: وقف النبي ﷺ بمنى في حجة الوداع يسألونه، فجاء رجل فقال : يا رسول الله لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح؟ قال :(اذبح ولا حرج)، وجاءه آخر، فقال : ذبحت قبل أن أرمي قال:(ارم ولا حرج) ، فما سئل يومئذ عن شئ قدم ولا أخر إلا قال :(اصنع ولا حرج)[3]

قالوا: فما في هذا الحديث من العلم المرتبط بهذا؟

قال: ألا ترون كيف كان يفتي رسول الله ﷺ ؟ .. إنه يبحث عن الحرج ليقول له (لا، فما في الشريعة السمحة من حرج)

قلت: يحق لرسول الله ﷺ أن يقول ذلك، فهو رسول الله ﷺ .. وهو صاحب هذه الشريعة السمحة، ومفتيها الأول .. ولكن الفقهاء ليسوا إلا خدما للنصوص المقدسة، فما هدتهم إليه ساروا على ضوئه، كان في ذلك حرج، أو لم يكن.

نظر إلي مبتسما، وقال: مرحبا بك بيننا .. كيف تركت أخي محمدا؟

قلت: أي محمد تقصد؟

قال: الفاسي .. ذلك الذي ورث سنة الخطابة من رسول الله ﷺ.

قلت: تركته بأحسن الأحوال.

قال: الحمد لله ..

ثم قال بعدها، وكأنه لم يقطع حديثه بأي قاطع: ليس في الشريعة حرج .. حتى ما كان منها شديدا، فهو البساطة واليسر والرحمة ..

قلت: فكل فتاوى الفقهاء إذن بساطة وسماحة ويسر؟

---

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه أبو الحسن بن الضحاك.
(3) رواه البخاري ومسلم.

قال: لا .. هناك من الفقهاء من هو مغرم بالتشديد على الناس، وقد يشدد على نفسه معهم، ولكنه مخطئ في ذلك سنة رسول الله ﷺ .. فرسول الله ﷺ لم يكن يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما.

قلت: ولكن قوة الشريعة قد تضيع مع التيسير؟

قال: قوة الشريعة في حب أهلها لها، والتزامهم بها، وتحقيق مصالحهم بذلك الالتزام .. بهذا تكون الشريعة القوية .. لا بالتشريعات التي قد تثقل كواهلهم، ولكنها في نفس الوقت تملأ بواطنهم بالخراب.

قلت: فهلا ضربت لي مثالا يقرب لي هذا؟

قال: لقد ذكر لي صديقي الشيخ يوسف .. ذلك الذي حدثتكم عنه .. قال ــ وقد ارتسم الألم على جبينه ــ: (لقد هالني ما سمعت في نشرات الأخبار، وما قرأته في الصحف: أن سلطات الحج في المملكة العربية السعودية أعلنت عن مائتين وسبعين حاجا في مرمى الجمرات، قتلوا وطئا بالأقدام في غمرة الزحام الهائل على الرمي بعد الزوال!)، قلت له، وأنا أريد أن أخفف عنه: فليبشروا .. إنهم شهداء عند الله .. قال: أنقتلهم، ثم نقول لهم أنتم شهداء؟ .. قلت: وما علاقتنا بهم .. لقد قتلوا بسبب تنفيذهم لحكم شرعي .. قال: لقد كان يمكن أن نختار من الأقوال ما نجنبهم به هذه المجازر .. قلت: أهناك أقوال أخرى في المسألة؟ .. قال: أولا.. لقد يسر الشرع أمر الرمي حتى أجاز أن يجمع الحاج الرمي في اليوم الأخير، وأجاز الإنابة فيه للعذر، وهو أمر يتم بعد التحلل النهائي من الإحرام.

وفوق ذلك، فقد أجاز الرمي قبل الزوال ثلاثة من الأئمة الكبار: فقيه المناسك عطاء، وفقيه اليمن طاووس، وكلاهما من أصحاب ابن عباس، وأبو جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين من فقهاء آل البيت ــ رضي الله عنهم ــ

ولو لم يقل فقيه بجواز ذلك لكان فقه الضرورات يوجب علينا التسهيل على عباد الله، وإجازة الرمي خلال الأربع والعشرين ساعة حتى لا نعرض المسلمين للهلاك.

وجزى الله الشيخ عبدالله بن زيد المحمود خيرا، فقد أفتى منذ أكثر من ثلث قرن بجواز الرمي قبل الزوال في رسالته (يسر الإسلام)

قلت: إن ما ذكره لك الشيخ يوسف جيد .. فلا ينبغي التشدد في العبادات.

قال: ولا في غيرها .. ألا ترى أولئك الفقهاء الذين يحملون المعاول ليهدموا بها البيوت؟

قلت: لم أر فقيها يحمل معولا.

قال: هو لا يحمل معولا .. بل يحمل مجرفة تقضي على البيوت.

قلت: كيف ذلك؟

قال: بتسرعهم وتشددهم في أحكام الطلاق، فيهدم أحدهم بيوت المسلمين بكلمة واحدة لا يحسب لها أي حساب.

٤ ــ البصيرة

قالوا: فحدثنا عن الركن الرابع.

قال: لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الركن في قوله تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (ابراهيم:٤)

قالوا: فما في هذه الآية من العلم المرتبط بهذا؟

قال: إن هذه الآية تأمرنا بأن نعرف ألسنة قومنا حتى نخاطبهم بها .. فلا نخاطبهم بألسنة لا يفهمونها، أو لا يقبلونها، أو لا يقبلون عليها.

قالوا: إن قومنا يتحدثون بالعربية .. ونحن نتحدث معهم بها.

قال: ليس ذلك فقط ما تشير إليه الآية.

قالوا: فما الذي تشير إليه غير هذا؟

قال: لقد جعل الله ــ بحكمته في عباده ولطفه بهم ــ لكل عصر وبيئة لسانا أو لغة تميزها، وتعبر عن وجهتها، واللغة ليست مجرد ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، بل هي أعمق من ذلك، فهي تتصل بخصائص التفكير، وطرائق الفهم والإفهام.

قالوا: فكيف نتعلم ألسنة قومنا؟

قال: بسبعة سبل[1] .. كل سبيل منها يقربكم مرحلة إلى من تفتونه.

قالوا: فما أولها؟

قال: أن تعتمدوا على مخاطبة العقول بالمنطق، لا على إثارة العواطف بالمبالغات، فمعجزة الإسلام الكبرى معجزة عقلية هي القرآن، الذي تحدى الله به، ولم يتحد الخوارق، مع وقوعها للنبي ﷺ ، ولم تعرف البشرية دينا يحترم العقل والعلم كما يحترمه الإسلام.

قالوا: فما الثاني؟

قال: أن تدعوا التكلف والتقعر في استخدام العبارات والأساليب، وأن تعتمدوا اللغة السهلة القريبة المأنوسة، بل يمكنكم استخدام بعض الألفاظ أو الأمثال العامية لتوضيح ما تريدون، لأن جمهور المستفتين ليسوا في مستوى واحد من الثقافة والفكر، فمنهم الأستاذ الكبير، ومنهم الطالب الصغير، ومنهم التاجر، ومنهم العامل، وكلهم يجب أن يفهم ويعي، وإفهام المستويات المتفاوتة أمر صعب.

قالوا: فما الثالث؟

قال: أن تذكروا الحكم مقرونا بحكمته وعلته، مربوطا بالفلسفة العامة للإسلام .. فهذه هي طريقة الكتاب والسنة في الفتاوى:

فالقرآن حين يفتي في الخمر ــ وقد سألوا عنها ــ يقول :﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ

---

(1) استفدنا هذه الضوابط من كتاب (الفتوى بين التسيب والانضباط) للشيخ يوسف القرضاوي.

كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)(البقرة: من الآية٢١٩))

وهكذا عندما يفتي في أحكام الحيض، قال تعالى :﴿ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (البقرة:٢٢٢)

وهكذا عندما يفتي في حكم القتال في الشهر الحرام، قال تعالى:﴿ يَسْأَلونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة:٢١٧)

وهكذا في جميع الأحكام الشريعة .. ففي تقسيم الفيء بين الفئات المستحقة له، ومنهم اليتامى والمساكين وابن السبيل، يذكر الله تعالى الحكمة في ذلك فيقول:﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الحشر:٧)، فقد ذكر أن العلة هي أي ﴿لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾، أي حتى لا يكون المال متداولا بين طبقة الأغنياء وحدهم، ويحرم منه سائر الطبقات، فهذا مصدر الشرور، وهو أبرز خصائص الرأسمالية الطاغية.

حتى العبادات الشعائرية يأمر بها القرآن مقرونة بعلل وأحكام تقبلها الفطر السليمة، والعقول الرشيدة، ففي الصلاة يقول :﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)(العنكبوت: من الآية٤٥)

وفي الصيام يقول :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة:١٨٣)

وفي الزكاة يقول :﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (التوبة:١٠٣)

وفي الحج يقول :﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) (الحج:٢٨)

وهكذا ما ورد في السنة .. فقد كان النبي ﷺ يذكر علل الأحكام، ولا يكتفي بذكر الحكم مجردا عن علته، من هذا قوله ﷺ لعمر ـــ رضي الله عنه ـــ حين جاءه مترعجا، إذ قبل امرأته وهو صائم، فقال له: (أرأيت لو تمضمضت ثم مججته، أكان يضر شيئا؟)، قال: لا[1] .. فنبه ﷺ بهذا على أن مقدمة المحظور لا يلزم أن تكون دائما محظورة، فإن غاية القبلة أن تكون مقدمة الجماع، فلا يلزم من تحريمه تحريم مقدمته، كما أن وضع

---

(1) رواه أحمد والدارمي وأبو داود والنسائي، ونصه: هو أن عمر ـــ رضي الله عنه ـــ قال : هششت إلى المرأة يوما فقبلتها، وأنا صائم، فأتيت النبي ﷺ فقلت : صنعت اليوم أمرا عظيما قبلت وأنا صائم فقال رسول الله ﷺ :(أرأيت لو تمضمضت بماء وأنت صائم؟) قلت : لا بأس بذلك، فقال رسول الله ﷺ :(ففيم؟)

الماء في الفم مقدمة شربه، وليست المقدمة محرمة.

ومن هذا قوله ﷺ :(لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، ولا على ابنة أخيها، ولا على ابنة أختها، فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم)[1]، فذكر لهم الحكم، ونبههم على حكمة التحريم، وهو ما يترتب عليه من قطع ما أمر الله به أن يوصل نتيجة الاحتكاك الضروري بين الضرائر.

ومثل ذلك قوله ﷺ لبشير بن سعد، وقد خص بعض أولاده بعطية دون الآخرين: (أيسرك أن يكونوا لك في البر سواء؟) قال: نعم، قال: (فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم)[2]

بالإضافة إلى هذا كله، فإن الشاكين والمشككين في عصرنا كثيرون، ولم يعد أغلب الناس يقبلون الحكم دون أن يعرفوا مأخذه ومغزاه، ويعوا حكمته وهدفه، وخاصة فيما لم يكن من التعبيدات المحضة .. ولهذا كان لابد من معرفة طبيعة عصرنا، وطبيعة الناس فيه، ونزيل الحرج من صدورهم ببيان حكم الله فيما شرع، وبذلك يتقبلون الحكم راضين منشرحين، فمن كان مرتابا ذهب ريبه، ومن كان مؤمنا ازداد إيمانا.

ومع هذا لابد أن نؤكد للناس، أن من حق الله تعالى، أن يكلف عباده ما شاء، بحكم ربوبيته لهم، وعبوديتهم له، فهو وحده له الأمر، كما له الخلق، ولهذا لابد أن يطيعوه فيما أمر، ويصدقوه فيما أخبر، وإن لم يدركوا علة أمره، أو كنه خبره، كما قال تعالى :﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ (الأحزاب:٣٦)

وأخبر عن صفة المؤمنين في استقبالهم لأحكام الله، فقال :﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥)

قالوا: فما الرابع؟

قال: الواقع ..

قالوا: ما تقصد بذلك؟

قال: إن من أعظم الأشياء خطرا على المفتي أن يعيش بين الكتب، وينفصل عن الواقع، إن المفتي البصير يجب أن يكون واعيا للواقع، غير غافل عنه، حتى يربط فتواه بحياة الناس، فهو لا يكتب نظريات، ولا يلقي فتواه في فراغ، ومراعاة الواقع تجعل المفتي يراعي أمورا معينة، ويضع قيودا خاصة، وينبه على اعتبارات مهمة.

لقد قال لي صديقي الشيخ يوسف يحدثني عن فتوى لشيخه حسن البنا حول (تحديد النسل) ذكر فيها النصوص الشرعية التي رغبت في كثرة النسل، والنصوص التي رخصت في العزل، ثم قال:(إذا تقرر هذا، ولاحظنا معه أن الإسلام لم يغفل ناحية القوة في الأبناء، والصحة في الإنتاج، بل أوصى بذلك، ونبه إليه، فعن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:(لا تقتلوا أولادكم سرا، فإن الغيل يدرك الفارس قيد عثرة

([1]) رواه رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي وغيرهم بألفاظ مختلفة.

([2]) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

عن فرسه)[1]، والغيل أن يقرب الرجل امرأته وهي ترضع، فتضعف لذلك قوى الرضيع، فإذا بلغ مبلغ الرجال ظهر فيه أثر هذا الضعف .. وبهذا نعلم أن الإسلام مع وصيته بالإكثار من النسل وإرشاده إلى أسباب القوة فيه، قد يجعل رخصة تستخدم إذا توافرت الأسباب والدواعي التي تدعو إليها.

وعلينا إذا أردنا أن نستخدم هذه الرخصة أن نسأل أنفسنا الأسئلة الآتية: أليست هناك أسباب تدعو إلى الإكثار من النسل لا إلى تحديده؟ .. هل ثبت بأدلة قوية، وقرائن صادقة أن هناك من الأسباب ما يدعو إلى التحديد، وهل تأكدنا أن كثرة النسل هي السبب في الضائقة الاجتماعية؟.. هل يمكن استخدام علاج اجتماعي آخر؟.. للتحديد أضرار خطيرة؟ هل وثقنا من أنه سوف لا تنجم عن هذا؟ .. هل اتخذت الاحتياطات الكافية لمنع هذه الأضرار؟.. ما الوسائل التي ستتخذ، وهل يبيحها الإسلام؟.. هل وثقنا من أن هذه الرخصة ستستخدم بالقدر الضروري فقط، وأنه سيستخدمها الذين يراد منهم استخدامها، وأن العود إلى القاعدة الكلية ـــ وهي ترك التحديد ـــ سيكون ممكنا إذا ما دعت الحاجة إليه؟.. وأخيرا، هل الأفضل من ذلك أن يعالج بصورة عامة أو بصورة فردية خاصة؟.. أليس من الجائز أن تسفر هذه التجربة عن عجز عن معالجة الأضرار المزعومة، كوفيات الأطفال مثلا فتظل هذه الدواعي كما هي، ويضاف إليها الأضرار التي ستنجم عن التحديد؟.. وملاحظة أخرى قد تكون بعيدة عن تفكيرنا المحدود بالواقع والبيئة الخاصة وإن كانت صحيحة في ذاتها: هي أن الإسلام لا يتقيد بهذا التقسيم السياسي في الوطن الإسلامي العام، فهو: عقيدة ووطن وجنسية، وأرض المسلمين في نظره وطن واحد، فالزيادة في جزء منه قد تسد نقصا في جزء آخر.

وعلى ضوء البيانات التي سمعتها في هذه الدار الكريمة من حضرات الباحثين الفضلاء أستطيع أن أستخلص النتيجة التالية:

إن نجاح التشريع غير مضمون في القرى بتاتا فإن أولاد الفرح هم رأس ماله وثروته، والفلاحون في أشد الحاجة إلى الإكثار من الذرية.

وإن المشاهد أن الطبقة التي تستخدم التحديد هي الطبقة المتعلمة التي ينتظر منها الإكثار، وذلك ضار بالأمة، فإن القادرين على التربية هم الذين يفرون من كثرة الأبناء، ولهذا نحن في الواقع نخشى إن استمر هذا الحال أن نجد أنفسنا في المستقبل أمام مشكلة هي كيف نكثر من النسل لخدمة الوطن المحتاج إلى كثرة الأبناء.

ومعنى هذا أن استخدام رخصة التحديد التي أباحها الإسلام لظروفها لا تجوز بصورة عامة ولا يصح أن تحمل عليها الأمة بل تستخدم بصورة خاصة فردية بحتة مع الذين تتوفر عندهم دواعيها فقط.

إن هناك من ظروف الأمة الخاصة في نهضتها الجديدة ما يدعو إلى تكثير النسل، فأمامنا الجيش، وأمامنا السودان، وأمامنا الأرض البور في مصر وهي تبلغ ثلاثة ملايين من الأفدنة أي نصف المزروع الحالي.

والآن أسباب الأضرار المشكو منها اقتصاديا، صحيا، واجتماعيا لا ترجع إلى كثرة النسل بل إلى ارتفاع مستوى المعيشة من جهة وجهل الأمهات من جهة أخرى، والمزاحمة من جهة ثالثة، وأسباب أخرى نعجز عن حصرها، وسردها .. وذلك ما استبان لي وفوق كل ذي علم عليم)

([1]) رواه أبو داود.

قال ذلك، وكأنه يقرأ من كتاب، ثم التفت إلينا، وقال: هكذا ينبغي أن تكون الفتوى .. إنها فتوى يزدوج فيها فقه الدين وفقه الحياة .. وبدون معرفة الناس ومعايشتهم في واقع حياتهم ومشكلات عيشهم، يقع المفتي في متاهات، أو يهوم في خيالات، ويظل في واد والناس في واد، فهو لا يعرف إلا ما يجب أن يكون، دون ما هو كائن، مع أن الواجب شيء، والواقع شيء آخر.

***

مكثت فترة طويلة مع الشيخ سحنون أتعلم منه أسرار الفتاوى، وفقهها، وما تحمله من معاني الهداية الرفيعة .. وقد اهتديت من خلال صحبتي له إلى أن رسول الله ﷺ هو سيد المفتين ومعلمهم .. وأن الفتوى المؤثرة والفاعلة لا تكتمل إلا لمن اهتدى بهديه فيها.

***

ما استتم صاحبي حديثه هذا حتى وجدنا أنفسنا قد قطعنا المرحلة الثامنة من الطريق من غير أن نشعر بأي عناء أو تعب .. ولم يخطر على بالي طيلة هذه المرحلة ما كنا نقطعه من غابات موحشة، ومن سباع عادية تتربص بنا من كل اتجاه.

لقد تنزلت علي بمجرد قطعي لتلك المرحلة أشعة جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

تاسعا ــ المحتسب

قلت: فحدثني عن رحلتك التاسعة.

قال: بعد أن خرجت من تونس، جاءني خطاب من بعض أهلي لأسير إلى دمشق في حاجة عرضت لهم فيها، فأسرعت أحث خطاي إليها تاركا بعض قلبي في ذلك البلد الصالح الذي امتلأت فيه بحب سحنون، وحب من يحيط به من العلماء والصالحين.

في دمشق، التقيت الوارث التاسع الذي تعلمت على يديه فن الاحتساب، وهو الفن التاسع من فنون الهداية .. وقد قدر الله أن يكون هذا الوارث سببا في قضاء الحاجة التي تركت تونس من أجلها.

في ديوان المظالم .. في دمشق .. وهو ديوان كانت دمشق لا تزال تحتفظ به، ولا تزال تحتفظ باسمه، وقفت أمام المسؤول عنه أعرض حاجتي، وكان المسؤول قاسيا شديدا، وكأنه مطمئن إلى أنه الخصم والحكم، وأنه ليس هناك من ديوان يعقب على ديوانه، ويستأنف أحكامه على الأحكام التي يصدرها ديوانه.

بعد أن خرجت يائسا من عنده، وأنا أقول في نفسي: هذا ديوان الظلمة، لا ديوان المظالم.. وهؤلاء خصوم، لا محامون .. وعند هؤلاء تموت الحقوق، لا ترد الحقوق.

ما قلت هذا حتى وقف بجانبي بهامة أرفع من الجبال، وقال: ارفع صوتك بها .. فلا يمكن للصوت المنخفض أن يفعل شيئا.

قلت: أتريد أن تزج بي في السجن؟

قال: إن كان السجن هو ثمن صوت الحقيقة العالي، فادفع هذا الثمن، فلا يمكن للمستضعف أن يخرج من ضعفه إلا برفع صوته.

قلت: أنت تحضني على الثورة؟

قال: أنا أحضك على ثورة أهل السلام، لا على ثورة أهل الصراع.

قلت: وما الفرق بينهما؟

قال: ثورة أهل الصراع تقتل الحياة، وتسفك الدماء، وتنبت الموت .. أما ثورة أهل السلام، فثورة تنبت الحياة، وتثمر الأمل، وتقتل الألم.

قلت: أنا مسلم .. ولست شيوعيا .. والإسلام لا يعرف أي ثورة.

قال: بل يعرف ثورة أهل السلام .. فلا يمكن لدين يهتم بالإنسان وحقوق الإنسان أن لا يعرف الثورة.

قلت: لم أر في كتابنا المقدس أو في كتب تراثنا اسم الثورة.

قال: فهل رأيت (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) و(الاحتساب)؟

قلت: أجل .. فأولهما وردت به النصوص المقدسة، وثانيهما وردت به كتب الفقه والتراث.. بل امتلأت به كتب الفقه والتراث.

قال: أليست الحسبة هي الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، والنهي عن المنكر الذي ظهر فعله ، والإصلاح بين الناس؟

قلت: أنت تردد ما ذكره الماوردي من تعريف الحسبة.

قال: كلهم ذكر ذلك .. وكلهم حض على الثورة على فعل المنكر، والثورة على ترك المعروف.

قلت: أنا موافق على كلامك .. ولكني أكره كلمة (الثورة)، فهي تذكرني بالدماء المسفوكة والجثث المرمية على الطرقات.

قال: لا ينبغي لأهل الحق أن يحول بينهم وبين الحقائق أي حجاب .. فهل تترك الحرية لأن الديمقراطيين يدعونها .. وهل تترك التنوير لأن الظلاميين يدعونه.

قلت: لا ..

قال: فلا ينبغي أن تكره الثورة إذن ..

قلت بيني وبين نفسي: لقد ذكر لي معلم الهداية هذه الكلمة .. ولكني نسيت ما قال بالضبط.

قال: لا شك أنه ذكر لك الفم الذي يثور على المحو، ليطفئ السراب، ويمحو الضباب.

قلت: أجل .. لقد ذكر هذا .. لكأن فمك هو الفم التاسع.

قال: إن كان الاحتساب هو الفم التاسع، ففمي هو ذلك الفم.

قلت: فمن أنت؟

قال: أنا العز الذي أعز الله به الدين، فصار عز الدين[1].

قلت: أأنا الآن بين يدي سلطان العلماء؟

قال: إن كان سلطان العلماء هو الذي لا يسكت على منكر، فيسرني أن أكون ذلك الرجل.

قلت: فهل تأذن لي في صحبتك؟

قال: من الصعب أن يصحب مثلي .. فإن كنت تطيقني .. فأهلا وسهلا بصحبتك.

قلت: فبم نبدأ علمنا؟

قال: بالنهي عن المنكر الذي حصل لك .. فلا يمكن أن نسكت عن منكر.

قلت: لكنك تعلم ضعفي.

---

(1) نشير به إلى الإمام عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي (المعروف بالعز بن عبد السلام) (٥٧٧ - ٦٦٠هـ، ١١٨١ - ١٢٦٢م)، الملقب بسلطان العلماء، وهو فقيه أصولي شافعي، كان يلقب بسلطان العلماء وبائع الملوك.

ولد بدمشق ونشأ وتفقه بها على كبار علمائها. كان علمًا من الأعلام، شجاعًا في الحق، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، جمع إلى الفقه والأصول العلم بالحديث والأدب والخطابة والوعظ.

كان خطيباً للجامع الأموي، تخشى السلاطين والأمراء صولته وسلطانه، ولما أعطى السلطان الصالح إسماعيل الإفرنج بلدة صيدا أنكر عليه ذلك فوق المنبر، وترك الدعاء له في الخطبة، وخشي السلطان قوة تأثير عزالدين بن عبد السلام على الناس، فاعتقله ثم طلب منه مغادرة الشام، فغادرها إلى مصر، فقوبل بالترحاب هناك من ملكها الصالح ومن علمائها وأهلها، وولاه السلطان الخطبة في جامع عمرو بن العاص وولاه رئاسة القضاء.

له مؤلفات كثيرة منها: الفوائد؛ الغاية؛ القواعد الكبرى والقواعد الصغرى؛ الفرق بين الإيمان والإسلام؛ مقاصد الرعاية؛ مختصر صحيح مسلم؛ الإمامة في أدلة الأحكام؛ بيان أحوال الناس يوم القيامة؛ بداية السول في تفضيل الرسول؛ الفتاوى المصرية. توفي بالقاهرة.(انظر: الموسوعة العربية العالمية)

قال: ضع بين عينيك (الله) .. وسر، فستتزعزع الجبال لمرآك.

سرت معه، وأنا أشعر بعزة عظيمة لم أشعر بمثلها في حياتي .. وقد تعجبت لما حصل لي ..

فالمسؤول الذي كان قد ردني أبشع رد قام إلي يحييني ويحيي معي العز، ثم لم يلبث حتى انصرف برهة، وعاد إلي بما يرفع مظلمتي ..

طلب مني العز أن أشكره، ثم خرجنا من مكتبه، ونحن نشيع بالتحيات الطيبات المباركات.

لم يخطر على بالي شيء كما خطر على بالي أن أسأل العز عن سر هذا، فقال: لن تفقه هذا حتى تتعلم أسرار الحسبة[1] ..

قلت: وما أسرارها؟

قال: سران ..

قلت: فقط .. ما أيسرهما إذن.

قال: بل ما أصعبهما.

([1]) اختصرنا الكلام عن الحسبة هنا باعتبارها من الولايات الإسلامية التي تقوم عليها العدالة في النظام الإسلامي، ولهذا فصلنا الحديث عنها في رسالة (عدالة للعالمين)، ولا بأس أن نشير هنا إلى مختصر لما يتحدث الفقهاء عنه في هذا الباب.

فقد ذكر الفقهاء للحسبة أربعة أركان:

١) **المحتسب**: وهو من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يشترط فيه إذن من ولي الأمر، فكل مسلم مأمور بتغيير المنكر: من رأى منكم منكرا فليغيره. ونقل القرطبي الإجماع على أن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه، ثم إن من الحسبة، الحسبة على السلاطين، فكيف يطلب منهم الإذن للاحتساب عليهم؟!

ولكون المحتسب يرجى له الحصول على أجر الاحتساب شروط نذكر منها ما لا بد منه: وهو الإسلام وإخلاص النية والمتابعة..أي متابعة النبي ﷺ في الاحتساب. ومنها: العلم بما يأمر به وينهى عنه، وبأحوال المأمور والمنهي والملابسات وظروف المنكر. ومنها: القدرة على التغيير من اليد إلى اللسان إلى القلب الذي لا يعفى منه أحد.

وهناك آداب للمحتسب من أهمها: الرفق في الاحتساب ووضعه في موضعه، ومن الآداب: البدء بالنفس، والبدء بالأهم، ومراعاة سنة التدرج، والموازنة بين المصالح والمفاسد، والصبر واحتمال الأذى، والسعي لإيجاد البدائل الإسلامية للمنكرات المراد إزالتها.

٢) **المحتسب عليه**: وهو من يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن شروطه، أن يكون بصفة يصير الفعل الممنوع منه في حقه منكرا؛ وإن لم يكن معصية يحاسب عليها ديانة، فكل من الصبي والمجنون والناسي والجاهل يمنع من المنكر، وإن لم يكن مؤاخذا به شرعا عند الله. والمحتسب عليهم يختلفون باختلاف حالهم في القرابة والبعد والقوة والشوكة ودخولهم في الإسلام وغير ذلك. ولكل واحد منهم أحكام ومباحث لا يتسع المجال لتفصيلها.

٣) **المحتسب فيه**: وهو المنكر الموجود الظاهر للمحتسب بغير تجسس، ويكون مما يعلم أنه منكر بغير اجتهاد، ومن شروطه: أن يكون موجودا في الحال هو أو مقدماته، أما ما فات فليس فيه إلا النصح، وأن يكون ظاهرا يراه المحتسب أو يسمعه أو ينقل له نقلا موثوقا، كل ذلك بدون تجسس، ومن شروطه: أن لا يكون مما اختلف فيه من مسائل الاجتهاد اختلافا معتبرا، فلا إنكار في مسائل الاجتهاد.

٤) **الاحتساب**: وهو القيام بالحسبة: وهو مراتب، ولكل مرتبة شروط:

الأولى: التغيير باليد وهي أقوى مراتب الحسبة، ومن أهم شروطها: القدرة وعدم ترتب مفسدة أكبر من الاحتساب.

المرتبة الثانية: التغيير باللسان، وإنما ينتقل إليها إذا عجز عن اليد.

المرتبة الثالثة: الإنكار بالقلب، وهذا لا رخصة لأحد في تركه، بل يجب أن يكون بغض المنكر وكراهيته في قلب كل مسلم، فآخر حدود الإيمان هو الإنكار بالقلب، وحقيقة الإنكار بالقلب، عدم الرضا بالمنكر ومفارقته والنفور منه.

قلت: فما هما؟

قال: الإخلاص، والنصح.

الإخلاص:

قلت: فما الإخلاص؟

قال: أن لا تريد بالحسبة إلا وجه ربك، ألا ترى أن ، أن الحسبة مشتقة من الاحتساب وهو طلب الأجر كما قال ﷺ :(من أدى خمس صلوات إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه)[1]، وقال ﷺ :(من لقي الله لا يشرك به شيئا وأدى زكاة ماله طيبة بها نفسه محتسبا وسمع وأطاع فله الجنة)[2]، وقال ﷺ لعبد الله بن عمرو:(يا عبد الله بن عمرو إن قاتلت صابرا محتسبا بعثك الله صابرا محتسبا، وإن قاتلت مرائيا مكاثرا بعثك الله مرائيا مكاثرا، يا عبد الله ابن عمرو على أي حال قاتلت أو قتلت بعثك الله على تلك الحال)[3]، وقال ﷺ:(إن قتلت في سبيل الله صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر كفر الله عنك خطاياك إلا الدين، كذلك قال لي جبريل آنفا)[4]، وقال ﷺ:(من أذن سبع سنين محتسبا كتب الله له براءة من النار)[5]، وقال ﷺ:(الطاعون كان عذابا يبعثه الله تعالى على من يشاء وأن الله تعالى جعله رحمة للمؤمنين فليس من أحد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد)[6]

قلت: وقال ﷺ:(من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه)[7]، وقال ﷺ:(من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه)[8]، وقال ﷺ:(من تبع جنازة مسلم إيمانا واحتسابا وكان معها حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها فإنه يرجع من الأجر بقيراطين، كل قيراط مثل أحد؛ ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن فإنه يرجع بقيراط من الأجر)[9]

قال: وأحاديث أخرى كثيرة ..

قلت: أعلم ذلك .. فما تريد من هذا؟

قال: أساس الأعمال هو الإخلاص لوجه الله .. فلا يمكن لأحد أن يقبلك وأنت تعبد نفسك .. ألا ترى ذلك الرجل كيف أقبل عليك كل ذلك الإقبال لما عدت إليه.

قلت: أجل .. وقد تعجبت من ذلك أيما تعجب.

---

(1) رواه الحاكم في تاريخه وأبو الشيخ.
(2) أحمد عن أبي هريرة.
(3) البخاري ومسلم عن ابن عمرو.
(4) مسلم عن أبي قتادة.
(5) الترمذي، وقال: غريب.
(6) البخاري.
(7) البخاري.
(8) مسلم.
(9) البخاري.

قال: إن الله تعالى يلقي على من يحتسب في سبيله من المهابة ما تندك له الجبال.

قلت: لقد ذكرتني بسميك العز بن عبد السلام .. فقد روي أنه علم مرة بوجود حانة تبيع الخمور في القاهرة، فخرج إلى السلطان نجم الدين أيوب في يوم عيد إلى القلعة، فشاهد العساكر مصطفين بين يديه، ومجلس المملكة، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قومه في زينته ــ على عادة سلاطين الديار المصرية ــ وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السطان وناداه: يا أيوب، ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوىء لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟ فقال السلطان: هل جرى هذا؟ فقال الشيخ: نعم، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور ، وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة! يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون، قال: يا سيدي، هذا أنا ما عملته، هذا من زمن أبي. فقال الشيخ: أنت من الذين يقولون :﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)(الزخرف: من الآية٢٢)؟ فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة.

وعندما سأله أحد تلاميذه لما جاء من عند السلطان ــ وقد شاع هذا الخبر ــ: يا سيدي كيف الحال؟ فقال: يا بني، رأيته في تلك العظمة فأردتُ أن أهينه لئلا تكبر نفسُه فتؤذيه. فقلتُ: يا سيدي، أما خفتَه؟ قال: والله يا بني استحضرتُ هيبة الله تعالى، فصار السلطان قُدّامي كالقط[١].

النصح:

قلت: علمت الأول، ولا أحسب أني أجادلك فيه .. فالكل متفق عليه .. فما الثاني؟

قال: النصح .. ألا ترى أن النبي ﷺ سمي النصيحة ديناً، وجعلها من حقوق المسلمين فيما بينهم، وبايع بعض صحابته على النصح لكل مسلم، وعدد جوانب النصح ومجالاته.

قلت: أجل .. فلم كان النصح ركنا من أركان الاحتساب؟

قال: الاحتساب إخلاص لله .. والنصح إخلاص للمحتسب عليه .. فلا يمكن لأحد أن يقبل احتسابك، وهو يشعر أنك تغشه.

قلت: صدقت .. وقد عبر عن ذلك الخطابي، فقال: (النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير للمنصوح له)[٢]، وقال الراغب: (النصح تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه)[٣]،

قال: ومثل ذلك قال محمد بن نصر المروذي: (قال بعض أهل العلم: هي عناية القلب للمنصوح له كائناً من كان)[٤]

قلت: فكيف أكون ناصحا لمن أحتسب عليه؟

قال: سبعة إن فعلتها، فقد اكتمل نصحك، وإن ضيعتها، فقد ضيعت نصحك.

قلت: فما أولها؟

---

(١)طبقات الشافعية الكبرى : ٢١٢/٨.

(٢)معالم السنن: (١٢٥/٤)

(٣)المفردات: (ص ٤٩٤)

(٤)جامع العلوم والحكم: (ص ١١١)

قال: أن لا تنصحه بما طلبه هواك .. بل انصحه بما أمره ربه .. فلا ينبغي للعباد أن يعبدوا غير ربهم، ألم تسمع قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات:١)؟

قلت: بلى .. وهل يمكن أن ينصح أحد أخاه في مثل هذا؟

قال: كثيرون يفعلون ذلك .. فمنهم من يرى رأيا، ولا يرى غيره، ثم يروح يقدم رأيه على كل رأي، ومذهبه على كل مذهب.

قلت: أولئك المتعصبون.

قال: أجل .. إنهم يجعلون من آرائهم دينا يدينون به من دون الله، فيدعون لدينهم، ويغفلون عن دين الله.

قلت: علمت أولها، فما ثانيها؟

قال: أن لا تنكر عليه إلا فيما اتفق الكل على طلب تركه، ولا تأمره إلا بما اتفق الكل على طلب فعله.

قلت: أعلم هذا .. فقد نص الفقهاء على أنه لا إنكار على المختلف فيه ..وقد قال في هذا سفيان الثوري: (إذا رأيت الرجل يعمل العلم الذي اختلف فيه، وأنت ترى غيره فلا تنهه)، وقال: (ما اختلف فيه الفقهاء، فلا أنهي أحداً من إخواني أن يأخذ به)، ، وقال أحمد بن حنبل: (لا ينبغي للفقيه أن يحمل الناس على مذهب، ولا يشدد عليهم)[1]

قال: وعلى هذا نص الكل .. ولا ينبغي للفقيه إلا أن ينص على هذا.

قلت: علمت هذا ..فما ثالثها؟

قال: أن تحرص على ألا تنصحه إلا سرا .. حتى لا تكون نصيحتك فضيحة .. وحتى لا تستثير من جنود نفسه من يحول بينه وبين قبول نصيحتك.

قلت: أعلم هذا، وقد قال في هذا ابن رجب: (وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد، وعظوه سراً، حتى قال بعضهم: (من وعظ أخاه فيما بينه وبينه، فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبخه)[2]، وقال الفضيل بن عياض: (المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير)، وقال أبو حاتم بن حبان البستي: (النصيحة تجب على الناس كافة على ما ذكرنا قبل، ولكن ابداءها لا يجب إلا سراً، لأن من وعظ أخاه علانية فقد شانه، ومن وعظه سراً فقد زانه، فإبلاغ المجهود للمسلم فيما يزين أخاه أحرى من القصد فيما يشينه)[3]، وقال أبو محمد ابن حزم الظاهري: (وإذا نصحت فانصح سراً لا جهراً، وبتعريض لا تصريح، إلا أن لا يفهم المنصوح تعريضك، فلابد من التصريح)[4]

قال: وعلى هذا نص الكل .. ولا ينبغي للفقيه إلا أن ينص على هذا.

قلت: علمت هذا ..فما رابعها؟

---

(١) انظر: الآداب الشرعية: (١/١٨٦).

(٢) جامع العلوم: (ص:٧٧).

(٣) روضة العقلاء: (ص١٩٦).

(٤) الأخلاق والسير: (ص٤٤).

قال: أن تتلطف مع من تنصحه، فقبول النصح كفتح الباب، والباب لا يفتح إلا بمفتاح مناسب، والمنصوح امرؤ له قلب قد أغلق عند مسألة قصر فيها إن كانت أمراً مطلوباً للشارع، أو وقع فيها، إن كانت أمراً منوعاً من الشارع، وحتى يترك المنصوح الأمر أو يفعله لابد له من انفتاح قلبه له، ولابد لهذا القلب من مفتاح، ولن تجد له مفتاحاً أحسن ولا أقرب من لطف في النصح، وأدب في الوعظ، ورفق في الحديث.

قلت: أعلم هذا، وقد قال في ذلك عبد العزيز بن أبي داود: (كان من كان قبلكم إذا رأى الرجل من أخيه شيئاً يأمره في رفق، فيؤجر في أمره ونهيه، وإن أحد هؤلاء يخرق بصاحبه، فيستغضب أخاه، ويهتك ستره)[1]

قال: وقبله قال رسول الله ﷺ :((ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه)[2]

قلت: علمت هذا، فما **خامسها**؟

قال: أن لا تلزم من نصحته بما نصحته، فقد قال الله تعالى لأشرف خلقه :﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ)(الشورى: من الآية٤٨)، وقال :﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) (النور:٥٤)، وقال حاكيا عن رسله :﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) (يّـــس:١٧)

قلت: لقد قال في ذلك ابن حزم: (ولا تنصح على شرط القبول منك، فإن تعديت هذه الوجوه، فأنت ظالم لا ناصح، وطالب طاعة وملك، لا مؤدي حق أمانة وأخوة، وليس هذا حكم العقل، ولا حكم الصداقة، لكن حكم الأمير مع رعيته)[3]، وقال: (فإن خشنت كلامك في النصيحة فذلك إغراء وتنفير، وقد قال الله تعالى:﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً) (طه: من الآية٤٤). وقال رسول الله (: (ولا تنفروا)[4]، وإن نصحت بشرط القبول منك، فأنت ظالم، أو لعلك مخطئ في وجه نصحك، فتكون مطالباً بقبول خطئك، وبترك الصواب)[5]

قال: وعلى هذا نص الكل .. ولا ينبغي للفقيه إلا أن ينص على هذا.

قلت: علمت هذا ..فما **سادسها**؟

قال: أن تختار المحل المناسب للنصيحة، فلا تنصحه إلا في الوقت والمحل الذي تراه مناسبا لها، وقد قال في ذلك ابن مسعود ـــ رضي الله عنه ـــ:(إن للقلوب شهوة وإقبالاً، وفترة وإدباراً، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها)

قلت: علمت هذا .. فما **سابعها**؟

قال: أن لا تذكر لمن تنصحه ذنبه.

قلت: فكيف أنكر عليه إذن؟

([1]) جامع العلوم: (ص٧٧)..
([2]) رواه البخاري ومسلم.
([3])الأخلاق والسير: (ص٤٤).
([4]) رواه البخاري ومسلم.
([5])الأخلاق والسير: (ص٤٨).

قال: إذا رأيت عاصيا، فحدثه عن شؤم معصيته، ولا تحدثه عن اقترافه لها .. فإنك إن فعلت ذلك عيرته، وإذا عيرته منعته من قبول نصيحتك.

قلت: صدقت، وقد وردت النصوص المقدسة بذم التعيير، وقد جاء في الحديث قوله ﷺ :(لا تُظْهِر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك)[1]، وقال ﷺ :(من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله)[2]

وقد قال الحسن ـــ رضي الله عنه ـــ: (كان يقال : من عيَّر أخاه بذنب تاب منه لم يمت حتى يبتليه الله به)، ويُروى من حديث ابن مسعود بإسناد فيه ضعف :(البلاء موكل بالمنطق فلو أن رجلاً عيَّر رجلاً برضاع كلبة لرضعها)، ولما ركب ابن سيرين الدَّيْن وحبس به قال : (إني أعرف الذنب الذي أصابني هذا عيَّرت رجلاً منذ أربعين سنة فقلت له : يا مفلس)

قال: وعلى هذا نص الكل .. ولا ينبغي للفقيه إلا أن ينص على هذا.

قلت: فقهت الجملة، فأين التفاصيل؟

قال: اصحبني إلى مدرسة الحسبة لتتعلم الحسبة، وأسرار التأثير فيها.

قلت: ألا تزال توجد مثل هذه المدارس في هذا الزمن؟

قال: وما يمنع من وجودها؟

قلت: لقد استبدلت الآن بغيرها.

قال: لقد آثر أهل البلدة المباركة، وآثر حكامها أن لا يستبدلوا هذا لما رأوا من بركاته.

قلت: فدلني على هذه المدرسة .. فما أشد شوقي لأن أرى في ديار الإسلام مثل هذه المدرسة.

***

مكثت فترة طويلة مع العز بن عبد السلام أتعلم منه أسرار الحسبة، وفقهها، وما تحمله من معاني الهداية الرفيعة .. وقد اهتديت من خلال صحبتي له إلى أن رسول الله ﷺ هو سيد المحتسبين ومعلمهم .. وأن الاحتساب المؤثر والفاعل لم يكتمل إلا لمن اهتدى بهديه فيه.

***

ما استتم صاحبي حديثه هذا حتى وجدنا أنفسنا قد قطعنا المرحلة التاسعة من الطريق من غير أن نشعر بأي عناء أو تعب .. ولم يخطر على بالي طيلة هذه المرحلة ما كنا نقطعه من غابات موحشة، ومن سباع عادية تتربص بنا من كل اتجاه.

لقد تنزلت علي بمجرد قطعي لتلك المرحلة أشعة جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

([1]) رواه الترمذي، وقال : حسن غريب.

([2]) رواه الترمذي.

عاشرا ــ الشاهد

قلت: فحدثني عن رحلتك العاشرة.

قال: خرجت من دمشق متوجها إلى المدينة المنورة .. تلك المدينة العظيمة التي شرفت بأن تكون المنارة التي امتد نورها إلى المشرق والمغرب، فمنها انطلق الفاتحون والدعاة إلى الله يحررون عباد الله، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

لا أكتمك أني بمجرد أن تنسمت أريج المدينة العطر حتى راح قلبي الذي امتلأ بحب حبيبه يشدو بما قال الشاعر الصالح:

أتيتُـــــــــك راجـــــــــــلاً وَوَدِدْتُ أني   مَلَكْـــــــتُ سَـــــوَاد عـــــيني أمْتَطيـــــهِ

ومـــــا لي لا أسِــــيرُ علــــى المـــآقي   إلى قـــــــبرٍ رســـــــولُ الله فيـــــــهِ

وبما قال الآخر:

قـــف عنـــد قـــبر التـــهامي والـــثم الجـــدثا   وانشـــق عـــبير الهـــدى ممـــن بـــه مكثـــا

واجـــثُ احترامـــاً بـــداع الوجـــد مـــدّكراً   فجـــر النبـــوة وامـــدح خـــير مـــن بُعثـــا

محمـــــدٌ ســـــيد الأكـــــوان قاطبـــــة   إذ مجـــده كـــابراً عـــن كـــابر ورثـــا

مـــا أنجـــب الـــدهر ذا خلـــق وذا خلـــقٍ   في الفضـــل يشـــبهه مـــذ جاءنـــا حـــدثا

وبما قال حسان قبلهما:

فبوركـــتَ يـــا قـــبرَ الرســـولِ وبوركـــت   بـــلادٌ ثـــوى فيهـــا الرشـــيد المســـدّد

وبـــوركَ لحـــدٌ منـــكَ ضُـــمّنَ طيبـــاً   عليـــه بنـــاءٌ مـــن صـــفيحٍ مَنَضّـــدُ

تهيـــلُ عليـــه التـــربَ أيـــدٍ وأعـــينٌ   عليـــه وقـــد غـــارت بـــذلك أســـعُدُ

لقـــد غيبـــوا حلمـــاً وعلمـــاً ورحمـــة   عشـــية علّـــوه الثـــرى لا يوَسّـــدُ

وراحـــــوا بحـــــزن لـــــيس فـــــيهم نبـــــيهم وقـــــد وهنـــــت منـــــهم ظهـــــورٌ وأعضـــــدُ

يُبكّـــــون مـــــن تبكـــــي الســـــماوات يومَـــــه ومـــــن قـــــدْ بكتـــــه الأرض فالنـــــاس أكمـــــدُ

وهـــــل عـــــدَلت يومـــــاً رزيّـــــة هالـــــكٍ رزيّـــــة يـــــومٍ مـــــات فيـــــه محمـــــدُ

وبما قالت الزهراء البتول سيدة نساء العالمين قبلهم جميعا:

مـــــاذا علـــــى مـــــن شَـــــمَّ تُرْبَـــــة أحمـــــدٍ أن لا يَشُـــــمَّ مـــــدى الزمـــــان غَوَالِيَـــــا

صُـــــبَّتْ عَلـــــيَّ مصـــــائبٌ لـــــو أنهـــــا صُـــــبَّت علـــــى الأيـــــام عُـــــدْنَ لَيَالِيَـــــا

أمام قبر رسول الله ﷺ .. وفي ذلك المحل الذي تذوب فيه القلوب، وتنهمر العيون، وتتصل الأرض بالسماء، وينمحي الزمان والمكان .. أحسست بروحي ترفرف في الملأ الأعلى في عوالم الجمال التي لا كدورة فيها ولا شوائب .. وهناك .. وفي ظلال تلك السعادة التي ليس فوقها سعادة .. تذكرت أولئك الملايير من البشر الذين رضوا بأن يعيشوا في الظلمات تاركين هذه الأشعة العظيمة الجميلة الدافئة المنيرة التي أرسلها الله لتكون رحمة للعالمين.

تذكرتهم، فامتلأت هما وحزنا .. لا عليهم وحدهم .. بل علي وعلى جميع المسلمين الذين راحوا يكتمون ما أمر الله بنشره، ويشوهون ما أمر الله بتزيينه، فملأوا أعين العالم بالغشاوة التي تحول بينهم وبين منبع الحقائق، ومصدر النور، ومشعل الهداية، ومربع الرحمة.

في ذلك المحل تذكرت الآيات التي تخبرنا بأن هذا الدين ليس خاصا بنا، وتبشرنا بأن رسول الله ﷺ هو رحمة للعالمين، ولا يحق لنا أن نحتكره لأنفسنا، فـ (المحتكر ملعون)[1]، و(لا يحتكر إلا خاطئ)[2] ..

تذكرت قوله تعالى :﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:٣٣)، وقوله تعالى :﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ (الفتح:٢٨)

وتذكرت تبشير الله لنبيه ﷺ بدخول الناس في دين الله أفواجا :﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾ (النصر:٢)

وتذكرت تلك الأحاديث التي بشر فيها رسول الله ﷺ البشرية بأنه سيأتي اليوم الذي ترمي فيه أغلال الشياطين لتتحرر من عبوديتها، ومن عبودية الأهواء والشهوات التي تنصرف بها عن حقيقتها.

([1]) جزء من حديث رواه الحاكم وابن ماجة.

([2]) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي.

تذكرت قوله ﷺ :(ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله هذا الدين، بعِزِّ عزيز، أو بذُلِّ ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر)[1]

وصحت في نفسي من حيث لا أشعر: متى يأتي ذلك اليوم؟ .. متى ترتفع الظلمات عن هذه البشرية التائهة؟ .. متى تتترل أنوار الهداية؟ .. متى يدخل الناس في دين الله أفواجا؟

بينما أنا كذلك أخاطب نفسي .. شعرت بيد تربت على كتفي وتقول لي: تعال.. فقد آن لك أن تلقى من يسلك القفار، ويقطع البحار، لينشر الأنوار.

قلت: تقصد الفم العاشر .. ذلك الذي أبحث عنه.

قال: إن كان الفم العاشر هو فم (الشاهد) .. فهو ما سأدلك عليه؟

قلت: عرفت الحكيم والواعظ والمحاور والمعلم والقدوة والمربي والخطيب والمفتي والمحتسب .. فما الشاهد؟

قال: ألم تقرأ قوله تعالى عن وظائف رسول الله ﷺ :﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) (الأحزاب:٤٥)، وقوله تعالى :﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً) (المزمل:١٥)؟

قلت: بلى .. وقرأت مثلها قوله تعالى عن وظائف الأمة :﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)(البقرة: من الآية١٤٣)، وقوله تعالى :﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج:٧٨)

قرأت هذا .. فما يعني؟

قال: هذا يعني أن الشهادة وظيفة من أعظم وظائف رسول الله ﷺ، ووظيفة من أعظم وظائف الأمة[2].

قلت: أعرف الشهادة التي هي الموت في سبيل الله .. وأعرف الشهادة التي ترتبط بالقضاء .. وأعرف الشهادة التي تعني الحضور .. فما الشهادة التي ذكرت في هذا المحل؟

قال: هي جميع ذلك .. وهي غير ذلك ..

قلت: لم أفهم.

قال: لقد كان الصالحون يذكرون أربع مراحل لسير السالكين: أولها السير من النفس إلى الله، وهي رحلة البحث عن الله .. وثانيها: سير الإنسان من الله في الله، بحثا عن معرفة الله .. وثالثها: سير الإنسان مع الله إلى خلق الله .. ورابعها: سير الإنسان مع الله بين خلق الله، لإنقاذ خلق الله.

قلت: فأي سير منها يحقق الشهادة التي هي وظيفة الأمة؟

قال: هي المرحلة الأخيرة من سير السالكين .. وهي رحلتهم لإنقاذ خلق الله من عبودية الشيطان.

([1]) رواه أحمد، قال الهيثمي في المجمع (١٤/٦): رجال أحمد رجال الصحيح.
([2]) تحدثنا عن الشهادة وعلاقتها بالسياسة في رسالة (مفاتيح المدائن) من (رسائل السلام)

قلت: ولكن هذه وظيفة الحاكم لا وظيفة الداعية .. فالحاكم هو الذي يسير الجيوش التي تفتح أقطار الأرض، وتجعلها بأيدي المسلمين.

قال: لا .. ليست هذه هي الشهادة .. الشهادة أخطر من هذا .. والحاكم الصالح لا يبحث عن الاستيلاء على الأراضي، وإنما يبحث عن الاستيلاء على العقول والقلوب.

قلت: ولكن الخلفاء الراشدين سيروا الجيوش التي فتحوا بها الأرض، ونشروا بها الإسلام.

قال: لم يكن سيرهم للاستيلاء على الأرض، وإنما كان سيرهم لتخليص المستضعفين الذين حيل بينهم وبين تبصر الحق أو سلوك سبيله .. وكيف ينشرون الإسلام بالسيف، وقد قال تعالى:﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (البقرة: من الآية٢٥٦).

قلت: أجل .. فقد نصت النصوص القطعية على حرية الاعتقاد والتعبد، فلكل ذي دين دينه ومذهبه، لا يُجبر على تركه إلى غيره، ولا يُضغط عليه ليتحول منه إلى الإسلام.

قال: أجل .. فالهداية مصلحة شخصية، والضلال مضرة شخصية، ودور المؤمن هو الدعوة للمصلحة والتنفير من المضرة، لا الإلزام بذلك، قال تعالى :﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾(يونس:١٠٨)وقال تعالى :﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾(الزمر:٤١)

والقرآن الكريم يخبرنا أن دور المؤمن هو الدعوة لا السيطرة على من يدعوه أو إكراهه، قال تعالى :﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ (عبس:٢١)

وهو يخبرنا أن الإيمان والكفر حرية شخصية تتبع مشيئة صاحبها لا الإلزام الخارجي، قال تعالى :﴿ وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾(الكهف:٢٩)

قلت: أعرف هذا .. ولكني لا أزال أتساءل عن سر الشهادة التي هي وظيفة هذه الأمة نحو سائر الأمم.

قال: الشهادة تتحقق بأن تكون الأمة نموذجا صالحا تهتدي بهديها الأمم، بل تحن لسلوك سبيلها.

قلت: فكيف تتحقق هذه الشهادة في منتهى كمالها؟

قال: تعال معي لأدلك على من يعلمك علوم ذلك.

قلت: أتريد أن تبعدني من هذا المحل الطيب الذي لا حياة للقلب إلا به؟

قال: اجعل هذا المحل في قلبك، وسر حيث شئت، أنسيت ما قال لك معلم الهداية؟

قلت: لقد قال لي :(سر في الأرض .. فلن ينال الهداية ولا علوم الهداية إلا من سار في الأرض، وخبر البشر، وتعلم لغة الطير، وسلك مسالك النحل، وسكن قرى النمل)

قال: فسر .. فبالله إن تسر تر العجائب.

***

سرت مع الرجل في بعض الأحياء العتيقة من المدينة المنورة إلى أن دخلنا دارا لم تكن تبعد كثيرا عن مسجد رسول الله ﷺ .. ولكنها في ظاهرها كانت دارا غريبة .. فلم تكن تشبه أي دار من تلك الدور المحيطة بها .. لقد كانت وكأنها من عالم آخر.

قلت: أهي دار عتيقة من تلك الدور التي لا نزال نرى مثلها في الآثار؟

قال: لا .. بل هي دار عصرية حديثة .. بل هي أكثر تطورا من جميع ما رأيته من دور .. ومع ذلك، فهي تحتفظ بجميع حلل الأصالة ..

قلت: دعني من الدار .. وحدثني عما رأيت داخلها.

قال: لقد رأيت سبعة رجال عليهم سيما الورثة .. جلس كل واحد منهم في ناحية من النواحي، وأمامه الكثير من الأجهزة المتطوره .. وهو يتعامل معها بانفعال عجيب حتى أنهم لم يلتفتوا إلي، بل لم يرني أحد منهم.

لقد خطر على بالي، وأنا أراهم أولئك العلماء والباحثين الذين يجلسون أمام مكاتبهم وأجهزتهم، وهم يرقبون باهتمام وحرص أي صاروخ يطلق، أو أي مركبة تريد أن تنفذ من أقطار الأرض.

قلت لصاحبي: أهذه وكالة فضاء؟

قال: لا .. هذه وكالة هداية .. وهي مختصة بالشهادة.

قلت: ومن هؤلاء؟

قال: هؤلاء مهندسو شهادة .. كل عقل منهم لا يفكر إلا فيها .. وكل فم فيهم لا ينطق إلا بها.

قلت: فهم انتحاريون إذن؟

قال: لا .. بل حياتيون .. إن أفكارهم لا تحل بموضع إلا ملأته بأنوار الهداية والإيمان والحياة .. إنهم لا ينشرون الدمار بل ينشرون الحياة.

قلت: لكأني أعرف وجوههم .. وكأني لا أعرفها.

قال: نعم هم الظاهرون الباطنون ..

قلت: فعرفني بهم.

أشار إلى أحدهم، وقال: هذا **القمي**[1] .. وهو رجل لا همة له إلا توحيد المسلمين، وتحقيق التآلف بينهم، فقد رأى أن فرقتهم هي السبب في انشغال بعضهم ببعض، وترك ما طلب منهم من دعوة الأمم إلى الله .. وقد رأى أنه لا يمكن أن يدخل الناس في دين الله أفواجا، وهم يرون المسلمين يتصارعون تصارع الديكة، فراح يبحث عن علل الفرقة، وعن أدوية الوحدة والتقارب والتعايش.

أشار إلى آخر، وقال: ذاك **الكواكبي**[2] .. وهو رجل ذاق مرارة الاستبداد، فراح ينفر منه، ويدعو إلى

([1]) نشير به إلى الإمام العظيم تقي الدين القمي، وهو مؤسس دار التقريب بالقاهرة، وأبرز من سعى في التقريب بين المذاهب الإسلامية، وقد تحدثنا عنه بالتفصيل في رسالة (حصون الوحدة) من سلسلة (حصون المستضعفين)

([2]) نشير به إلى عبد الرحمن الكواكبي (١٢٧١-١٣٢٠هـ، ١٨٥٥- ١٩٠٢م)، وهو رحالة من الكتاب الأدباء، ومن رجال الإصلاح، وُلد وتعلم في حلب، وأنشأ فيها جريدة الشهباء فأغلقتها الحكومة، وجريدة الاعتدال، فعُطّلت.

العدالة التي جاء بها الإسلام .. فلا يمكن أن يدخل الناس في دين الله أفواجا، وهم يرون حكام المسلمين أباطرة وقياصرة وأكاسرة ونماردة.

أشار إلى آخر، وقال: ذاك **محمد إقبال**[1] ..

شغل الكواكبي العديد من الوظائف، فكان رئيسًا لقلم المحضرين في ولاية حلب، وعضوًا فخريًّا في لجنة امتحان المحامين، ورئيسًا للجنة الأشغال العامة، كما عمل بالقضاء وقام بأعمال عمرانية وتجارية أكسبته خبرة بالناس وتجربة كبيرة بالحياة، وكان في كل أعماله يصطدم بنظام الدولة واستبداد الحكام وفساد الإدارة، وكان سلاحه النزاهة والاستقامة والعدل.

وكان للكواكبي مكانة مرموقة في بلده يقصده أصحاب الحاجات لقضائها، ويلجأ إليه أرباب المشاكل لحلها، بل كان رجال الحكم يستشيرونه أحيانًا فيبدي رأيه في جرأة وشجاعة، لا يقرُّ ظالمًا على ظلمه، ولا يسالم جائرًا، لذلك حاربه ولاة حلب ورجال الدولة في الأستانة، فَزوِّرت عليه التهم فقُدِّم للمحاكمة وهو بريء مما نُسب إليه، الأمر الذي جعله يهاجر سرًّا إلى مصر سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٩م لينشر فيها فصولاً من كتابه (طبائع الاستبداد) في جريدة (المؤيد)

قام الكواكبي بزيارة العديد من الدول الإسلامية فطاف بسواحل إفريقيا الشمالية، وسواحل آسيا الغربية ودخل الجزيرة العربية، واتصل برؤساء قبائلها،كما نزل الهند، واستقر به المقام في مصر، وكان ينوي أن يتم رحلته إلى بلاد المغرب، ولكن المنية عاجلته سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م.

له من الكتب أم القرى؛ طبائع الاستبداد، وكان لهما عند صدورهما ردود فعل قوية، وكان كبيرًا في عقله وهمته وعلمه ومن كبار رجال النهضة الحديثة.

تناول في كتابه أم القرى أسباب انحطاط المجتمع الإسلامي بتوسع وتفصيل، وأرجعها إلى ١٨ سببًا دينيًا، و١٢ سببًا سياسيًا، و١٥ سببًا أخلاقيًا وتربويًا، وقد بحث الكواكبي في هذه الأسباب على شكل حوار بين عدد من الشخصيات التي تخيَّلها، وتناولها بالتفصيل وبإيراد الحُجج والبراهين، فكانت تحليلاً علميًا لواقع المجتمع العربي الإسلامي في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

([1]) أشير به إلى محمد إقبال (١٢٨٨-١٣٥٥هـ، ١٨٧٣-١٩٣٨م)، وهو عالم وفيلسوف وشاعر، كان يحث على الوحدة السياسية والروحية بين جميع الشعوب الإسلامية، وقد حاول أن يعيد صياغة الأفكار الأساسية للعقيدة الإسلامية باللغة الأكاديمية للعالم الحديث.

وُلد في مدينة سيالكوت في البنجاب. ودرس في الكلية الحكومية في لاهور، وتعلم الآداب العربية والفارسية.

بين عامي ١٩٠١ و١٩٠٥م تعلم إقبال الإنجليزية والفلسفة الإسلامية في الكلية الحكومية بلاهور، وفي عام ١٩٠٥م ألف كتابه الأول عن الاقتصاد، وخلال السنوات الثلاث التالية درس في المملكة المتحدة في جامعتي كمبردج ولندن، وكذلك في ميونيخ بألمانيا. وقد تخرَّج محاميًا وحاز درجة دكتوراه الفلسفة.

وبعد عودته إلى لاهور، اتخذ المحاماة مهنة له، إلا أن الشعر ظل هاجسه الحقيقي. وكتب قصائد تنشد على الملأ مقتفيًا طريقة الشعراء التقليديين.

حصل إقبال على شهرته الحقيقية بعد عام ١٩١٥م من خلال نشره قصيدة طويلة بالفارسية تحت عنوان (أسرار النفس)، وأعقبتها قصيدة مكمِّلة بعنوان (أسرار انعدام النفس)، ولكنها لم تُنشر إلا سنة ١٩٥٣م بعد وفاته .. وكانت قصائده هذه تدعو المسلمين إلى التضحية بالنفس في سبيل الأُخُوَّة والعدْل والخير الشامل للآخرين.

كان إقبال يحلم بإنشاء دولة إسلامية لمسلمي الهند، وسخر منه الناس حينئذ، ولكن تحققت فكرته بقيام دولة باكستان الإسلامية، زار (إقبال) كثيرًا من الدول الإسلامية، فزار مصر، وأفغانستان كما زار قرطبة، وصلى في مسجد قرطبة الشهير، وظل طيلة حياته المجيدة يدافع عن الإسلام والمسلمين في المحافل الدولية والمؤتمرات الإسلامية والكتب والأشعار التي أبدعها، ويحاول قدر طاقته إيقاظ المسلمين من غفلتهم، ومساعدة الأمة الإسلامية على النهوض، وكان إقبال دائمًا يعطف على الفقراء والمساكين، يجلس معهم، ويهتم بأمرهم، ويخالطهم في الطعام والشراب.

كما كان يدعو المسلمين إلى المشاركة في حركة الحضارة والتقدم، وينبذ الفكر الذي يكتفي من الدين بالعلاقة بين العبد وربه في صورة العبادات.

قلت: أعرفه .. الشاعر المعروف .. ما الذي جاء به إلى هنا .. لقد كنت أحسبه ميتا.

قال: مثله لا يموت .. لقد جاء إلى هنا ليهندس للشهادة .. لقد رأى ما عليه المسلمون من ذلة ومهانة وعجز .. فراح يبحث عن أسباب ذلك، ويدعو إلى علاجه .. لقد علم أنه لا يمكن أن يدخل الناس في دين الله أفواجا، وهم يرون المسلمين بذلك الذل وتلك المهانة.

أشار إلى آخر، وقال: ذاك **أبو الأعلى المودودي**[1] .. وهو رجل ذاب في الشريعة، فصار مرآة لأحكامها،

لم يترك إقبال فرصة إلا نصح فيها إخوانه من المسلمين، فيخاطب المسلم ويقول له: (اقرأ مرة أخرى في سيرتك الأولى، اقرأ دروس الصدق والعدل والشجاعة، لأنك أنت المنشود؛ لتسود العالم مرة ثانية، أنت تملك العالم بالأخوة وتحكمه بالمحبة، ما الذي محا استبداد (قيصر) وشدة (كسرى)؟! أكانت هناك قوة في العالم تحارب الجبابرة سوى قوة (علي) كرم الله وجهه، وفقر (أبي ذر) وصدق (سليمان) رضي الله عنهم؟!)

أبدع إقبال العديد من الدواوين الشعرية الرائعة منها:

(صلصلة الجرس) ونشر عام ١٩٢٤م، ويحتوي على حوالي ستين قصيدة وقطعة نظمها في بداية شبابه حتى سفره إلى أوربا، بالإضافة إلى ثلاثين قصيدة نظمها في أوربا، وأهم قصائد هذا الديوان قصيدته الشهيرة: (طلوع الإسلام).

(رسالة المشرق) : وهي رد على ديوان الشاعر الألماني (جوته).

(زبور العجم): وهو ديوان من أروع ما كتب إقبال، وأهم قصائده: (حديقة السر الجديدة) وهي قصيدة في الحب الإلهي.

(ما ينبغي أن نعمل يا أمم الشرق) وهي منظومات تدعو المسلمين إلى الاتحاد لمقاومة الاستعمار الأجنبي.

(هدية الحجاز) وهو ديوان أغلبه يدور حول موضوعات هامة مثل: الحديث عن الله وعن الرسول ﷺ وعن الأمة وعن العلم الإنساني، وعن رفاق الطريق إلى الله، وأهم قصائد الديوان قصيدة تدور حول إبليس ومعاونيه.

من أهم مؤلفاته: (تطور الفكر الفلسفي في إيران) و(تجديد التفكير الديني في الإسلام)

([1]) نشير به إلى أبي الأعلى المودودي (١٣٢١ - ١٣٩٩هـ، ١٩٠٣ - ١٩٧٩م)، وهو مفكّر وداعية إسلامي معروف بالهند، وهو أمير الجماعة الإسلامية بها في منتصف القرن العشرين.

قضى طفولته الأولى في مسقط رأسه في مدينة (أورنك آباد الدكن)، بمقاطعة حيدر آباد، وكان أبوه معلمه الأول، وقد حرص على تعليمه اللغة العربية والفارسية بالإضافة إلى الفقه والحديث، وأقبل المودودي على التعليم بجد واهتمام حتى اجتاز امتحان مولوي، وهو ما يعادل الليسانس.

اشتغل بالصحافة في سن مبكرة .. وكان من نتيجة عمله بالصحافة أن سعى إلى تعلم اللغة الإنجليزية حتى أتقنها، وصار بإمكانه الاطلاع على كتب التاريخ والفلسفة والاجتماع ومقارنة الأديان باللغة الإنجليزية دون أية صعوبة في فهمها واستيعابها.

وما لبثت الحكومة أن أغلقت الجريدة التي كان يعمل بها، فعاد إلى دلهي واشترك مع مدير جمعية علماء الهند في إصدار جريدة مسلم، وصار مديرًا لتحريرها لمدة ثلاث سنوات حتى أغلقت، فانتقل إلى بهو بال، ثم عاد مرة أخرى إلى دلهي، حيث تولى الإشراف على إصدار جريدة تصدرها جمعية علماء الهند تحمل اسم الجمعية، وظل يتحمل وحده عبء إصدارها حتى سنة (١٣٤٧ هـ = ١٩٢٨م).

وفي ذلك العام أتم كتابه (الجهاد في الإسلام) الذي حقق شهرة عالمية، وقد كتبه ردًا على مزاعم غاندي التي يدعي فيها أن الإسلام انتشر بحد السيف.

وفي عام (١٣٥١ هـ = ١٩٣٢م) أصدر ترجمان القرآن من حيدر آباد الركن، وكان شعارها: (احملوا أيها المسلمون دعوة القرآن وانهضوا وحلقوا فوق العالم)

وكان تأثير المودودي عبر ترجمان القرآن من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار التيار الإسلامي في الهند، وزيادة قوته، وقد تبلور ذلك في حزب الرابطة الإسلامية، وتأكد ذلك في دعوته أثناء المؤتمر الذي عقد في لنكو سنة (١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م) إلى الاستقلال الذاتي للولايات ذات الأغلبية الإسلامية.

ونتيجة لشهرة المودودي واتساع دائرة تأثيره الفكري في العالم الإسلامي، دعاه المفكر والفيلسوف محمد إقبال في سنة (١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧م) إلى لاهور ليمارس نشاطه الإسلامي البارز بها، فلبى المودودي دعوة إقبال.

وعندما توفي إقبال في العام التالي (١٣٥٧ هـــ = ١٩٣٨م) تاركًا فراغًا كبيرًا في مجال الفكر والدعوة اتجهت الأنظار إلى المودودي ليملأ هذا الفراغ الذي ظهر بعد رحيل إقبال.

بدأ المودودي حركته الإسلامية التي تهدف إلى تعميق الإسلام لدى طبقة المفكرين المسلمين والدعوة إلى الإسلام، حتى أسس الجماعة الإسلامية في لاهور، وتم انتخابه أميرًا لها في (١٣٦٠ هـــ = ١٩٤١م).

وبعد ذلك بعامين في (١٣٦٢ هـــ = ١٩٤٣م) نقلت الجماعة الإسلامية مركزها الرئيسي من لاهور إلى دار السلام ـــ إحدى قرى بتها نكوت ـــ وكان المودودي طوال هذه الفترة لا يكف عن الكتابة والتأليف، فأصدر عدة كتب من أهمها: (المصطلحات الأربعة الأساسية في القرآن)، و(الإسلام والجاهلية)، و(دين الحق)، و(الأسس الأخلاقية الإسلامية)، وغيرها.

ومع إعلان قيام دولة باكستان في ١٣٦٦ هـــ انتقل المودودي مع زملائه إلى لاهور؛ حيث أسس مقر الجماعة الإسلامية بها، وبعد قيام باكستان بنحو خمسة أشهر، ألقى المودودي أول خطاب له في كلية الحقوق، وطالب بتشكيل النظام الباكستاني طبقًا للقانون الإسلامي.

وظل المودودي يلح على مطالبة الحكومة بهذا المطلب، فألقى خطابًا آخر في اجتماع عام بكراتشي في (ربيع الآخر ١٣٦٧ هـــ = مارس ١٩٤٨م) تحت عنوان (المطالبة الإسلامية بالنظام الإسلامي)

بدأت الجماعة الإسلامية الضغط على الحكومة ومجلس سن القوانين للموافقة على المطالب التي قدمها المودودي بجعل القانون الأساسي لباكستان هو الشريعة الإسلامية، وأن تقوم الحكومة الباكستانية بتحديد سلطتها طبقا لحدود الشريعة.

وحينما عجزت الحكومة عن الرد على تلك المطالب قامت في (١٣٦٧ هـــ ١٩٤٨م) باعتقال المودودي وعدد من قادة الجماعة الإسلامية، ولكن ذلك لم يصرف المودودي وبقية أعضاء الحركة من الاستمرار في المطالبة بتطبيق النظام الإسلامي، وأظهر الشعب تعاونه الكامل مع الجماعة في مطالبها حتى اضطرت الحكومة إلى الموافقة على قرار الأهداف الذي يحدد الوجهة الإسلامية الصحيحة لباكستان في ١٣٦٨ هـــ .

وبعد ذلك بنحو عام اضطرت الحكومة إلى إطلاق سراح المودودي وزملائه.

وبدأت الجماعة الإسلامية دراسة قرار الأهداف الموضوعة في حيز التنفيذ، وفي الوقت نفسه كانت الحكومة تسعى إلى وضع مقترحاتها الدستورية، وأعطت لنفسها سلطات واسعة للسيطرة على الرعية؛ فقام المودودي بإلقاء خطاب في اجتماع عام بلاهور قام فيه بتوجيه النقد إلى تلك المقترحات التي تمهد الطريق للديكتاتورية؛ فثار الرأي العام وهو ما اضطر الحكومة إلى التراجع، وتحدت علماء الجماعة الإسلامية، في أن يجتمعوا على ترتيب مسودة دستور إسلامي، وقبل العلماء التحدي؛ فاجتمع (٣١) عالمًا يمثلون الفرق المختلفة بمدينة كراتشي، واشترك المودودي معهم في صياغة النقاط الدستورية التي اتفقوا عليها، ولكن الحكومة قابلت المقترحات الدستورية التي تقدمت بها الجبهة الإسلامية بالصمت، وإزاء ذلك قامت الحركة الإسلامية بعقد عدة اجتماعات شعبية، فقامت الحكومة بإعلان الأحكام العسكرية في لاهور في ١٣٧٢ هـــ وفي ١٣٧٢ هـــ تم اعتقال المودودي للمرة الثانية.

وقد حكم عليه بالإعدام، وهو ما أدى إلى حدوث ثورة من الغضب الشديد في معظم أنحاء العالم الإسلامي، وتوالت البرقيات من كل مكان تشجب هذا الحكم، حتى اضطرت الحكومة إلى تخفيف حكم الإعدام والحكم عليه بالسجن مدى الحياة، ولكن ردود الفعل الرافضة لهذا الحكم أدت إلى إصدار حكم بالعفو عن المودودي في (١٣٧٤ هـــ = ١٩٥٥م)

ومع بداية عام (١٣٧٥ هـــ = ١٩٥٦) رضخت الحكومة لمطالب الشعب بإصدار دستور إسلامي للبلاد، ولكن ما لبثت أن أعلنت عن دستور جديد .. ثم أصدرت قرارًا بحظر نشاط الجماعة، وتم اعتقال المودودي و (٦٣) من زملائه، ولكن القضاء أصدر حكمًا ببطلان الحظر والاعتقال، وأطلق سراح المودودي وزملائه في (١٣٨٤ هـــ ١٩٦٤م)

في ١٣٩٢ هـــ بعد نحو ثلاثين عامًا من الكفاح الطويل طلب المودودي إعفاءه من منصبه كأمير للجماعة الإسلامية لأسباب صحية، وانصرف إلى البحث والكتابة؛ فأكمل تفهيم القرآن، وشرع في كتابة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي عام ١٣٩٩ هـــ فاز المودودي بجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام؛ فكان أول من حصل على تلك الجائزة تقديرًا لجهوده المخلصة في مجال خدمة الإسلام والمسلمين.

بلغ عدد مؤلفات المودودي (٧٠) مصنفًا ما بين كتاب ورسالة، وقد حظيت بشهرة عريضة في جميع أنحاء العالم ولقيت قبولا واسعًا في قلوب المسلمين في شتى البقاع؛ فترجم الكثير منها إلى العديد من اللغات، حتى بلغ عدد اللغات التي ترجمت مصنفات

ومشعلا من مشاعل الدعوة إليها .. لقد رأى أن سبب انصراف الناس عن الدخول في دين الله أفواجا ما عليه الحكومات من انحراف عن شريعة الله .. فلذلك نذر حياته على الدعوة لتصحيح هذا الانحراف، وتقويم هذا الاعوجاج.

أشار إلى آخر، وقال: ذاك **شكيب أرسلان**[1] .. لقد رأى ما عليه المسلمون من تخلف عن ركب الحضارة .. فراح يبحث عن أسباب ذلك، ويدعو إلى علاجه .. فقد علم أنه لا يمكن أن يدخل الناس في دين الله أفواجا، وهم يرون المسلمين بذلك التخلف.

أشار إلى آخر، وقال: ذاك **الشعراوي**[2] .. لقد رأى أن ما عليه المسلمون من بعد عن كتاب ربهم، وعن

المودودي إليها ست عشرة لغة، منها: الإنجليزية، والعربية، والألمانية، والفرنسية، والهندية، والبنغالية، والتركية، والسندية...، ونالت استحسان ورضى المسلمين على شتى مستوياتهم واتجاهاتهم.

(انظر في ترجمته: أبو الأعلى المودودي: حياته وفكره العقدي: حمد بن صادق الجمال .. أبو الأعلى المودودي والصحوة الإسلامية: د.محمد عمارة .. النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: د. محمد رجب البيومي (الجزء الثالث)

(1) نشير به إلى الأمير شكيب أرسلان (١٢٨٦ - ١٣٦٦هـ ، ١٨٦٩ - ١٩٤٦م)، وهو شاعر وكاتب ومفكرٌ وعالِمٌ موسوعي، وُلد في الشويفات بلبنان، وتعلم في مدرستي الحكمة والسلطانية ببيروت، وأتقن، إلى جانب لغته العربية ثلاث لغات أجنبية، وهي: التركية، والفرنسية، والألمانية. وأخذ العلم عن عدة شيوخ، منهم: عبدالله البستاني صاحب المعجم اللغوي البستان، ومحمد عبده، وجمال الدين الأفغاني. وقرأ لأعلام الكتاب في النثر العربي ممن صفَّوا بيانه حتى لُقِّب أمير البيان، وحامل لواء الصناعتين.

رأى شكيب أرسلان أن العدو الأول للإسلام والمسلمين هو الجهل، وأن ارتفاع نسبة الأمية هي السبب في تأخر المسلمين، وعليهم أن يحاربوه بكل ما يملكون، وكتب في ذلك كتابًا من أعظم الكتب تأثيرا، وهو (لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم) بأسلوب سهل ممتع؛ لكي يوقظ الأمة الإسلامية من سبات الجهل والتأخر.

بالإضافة إليه كتب كتبًا عديدة عن الإسلام والمسلمين تصل إلى خمسين كتابًا لا يزال بعضها غير مطبوع، من أهمها كتاب (حاضر العالم الإسلامي) و(تاريخ غزوات العرب) و(الحلل السندسية في الحلة الأندلسية) و(عروة الاتحاد بين أهل الجهاد)..

بالإضافة إلى مئات البحوث والمقالات المنشورة في الصحف والمجلات، وله مذكرات مخطوطة باللغة الفرنسية، تصل إلى ٢٠,٠٠٠ صفحة، وترك ما لا يقل عن ٣٠,٠٠٠ رسالة، ما زالت مخطوطة.

سافر شكيب إلى أماكن عديدة، فرحل إلى (الأستانة) حيث التقى بالمصلح الكبير (جمال الدين الأفغاني) وتأثر بأفكاره، ثم سافر إلى فرنسا سنة ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م، ثم إلى ليبيا حيث انضم إلى المجاهدين المسلمين الذين كانوا يحاربون الإيطاليين، وكتب من هناك إلى مختلف الجهات الإسلامية يحث المسلمين على نجدة إخوانهم أبناء ليبيا، وحث أبناءها على البذل والفداء، وتعاون مع الشيخ محمد رشيد رضا وكتب أربعين افتتاحية في جريدة (المؤيد) حول هذه القضية، وسافر إلى المدينة المنورة سنة ١٩١٤م لينشئ مدرسة فيها، كما أنه قاد فرقة من المتطوعين ليحارب إنجلترا وحلفاءها في الحرب العالمية الأولى، وأسس جمعية (هيئة الشعائر الإسلامية) في ألمانيا سنة ١٩٢٤م، وأصدر جريدة (الأمة العربية) باللغة الفرنسية في(جنيف) ليدافع على صفحاتها عن قضايا أمته.

وظل شكيب أرسلان يكتب عن أحوال المسلمين وقضاياهم ومشاكلهم حتى توفي عام ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م.

(2) نشير به إلى الشيخ محمد متولي الشعراوي (١٣٢٩ - ١٤١٩هـ، ١٩١١ - ١٩٩٨م)، العالم الفقيه المفسِّر الداعية، أحد دعائم الفكر الإسلامي الحديث بمصر، وركيزة من ركائز الدعوة الإسلامية في النصف الثاني من القرن العشرين.

ولد الشعراوي بقرية (دقادوس)، مركز ميت غمر ، بمحافظة الدقهلية ، بمصر، حفظ القرآن الكريم وهو في سن الحادية عشرة، والتحق بمعهد الزقازيق الديني الابتدائي، ثم الإعدادي ، فالثانوي، حصل على شهادة العالمية من كلية اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٤١م، عين مدرساً بالمعهد الديني بطنطا ، ثم انتقل إلى الزقازيق ثم إلى الاسكندرية ، واستمر تدريسه مدة ثلاث سنوات فقط ، سافر بعدها إلى السعودية ضمن البعثة الأزهرية ليعمل أستاذاً للشريعة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة إلى سنة ١٩٥٠م ، بعدها تولى منصب مدير مكتب شيخ الأزهر الشيخ حسن مأمون .

بحار العلوم التي يبشر بها هو السبب في ذلك الجهل والتخلف الذي قعد بهم عن وظيفة الشهادة التي كلفوا بها .. فراح يبحث عن السبل التي يبلغ بها كلام ربه، ورسالة ربه ليدخل الناس من خلال أنوارها في دين الله أفواجا.

أشار إلى آخر، وقال: ذاك **ديدات**[1] .. لقد رأى أن ما عليه المسلمون من جهل بما يعتقده البشر من عقائد

سافر الشيخ مرة أخرى إلى الجزائر رئيساً لبعثة الأزهر ، وبقي بها مدرساً لمدة سبع سنوات، قبل أن يعود إلى مصر ويتولى منصب مدير أوقاف محافظة الغربية ، ثم بعد ذلك وكيلاً للأزهر الشريف .

في سنة ١٩٧٦م اختير وزيراً للأوقاف في وزارة ممدوح سالم ، ولكن وقع خلاف بينه وبين السادات (رئيس الجمهورية)، فترك الوزارة ، وسافر إلى السعودية ولم يعد إلا بعد مقتل السادات سنة ١٩٨١م .

وقد كان ــ بالإضافة إلى كل هذا ــ عضوا في مجلس الشورى ومجمع اللغة العربية ورابطة العالم الإسلامي والهيئة التأسيسية لها، وكثير من الهيئات والمنظمات والجامعات العربية والإسلامية.

وقد كان للشيخ الشعراوي أسلوب فريد في التفسير يجمع بين أصالة التفاسير القديمة ومعاصرة الواقع العلمي المبتكر، له باع طويل في التوفيق بين الدين والعلم، وربط حقائق الإسلام بأحدث النظريات العلمية المعاصرة، واستطاع أن يؤصل منهجًا قويًا في هذا الباب تتجلى من خلاله روائع الأحكام القرآنية وتتضح به أوجه الإعجاز كاملة في النص، مما جعل تفسيره للقرآن الكريم مقنعًا منطقيًا واقعيًا طليقًا خاطب به العالم والمثقف والأميّ والمتخصص، هذا بالإضافة إلى ما يتمتع به الشيخ الشعراوي من ثقافة شمولية في معظم علوم العصر وفطنة كبيرة وذكاء متوقد، الأمر الذي جعله متمكنًا في عرض النص القرآني على جميع وجوهه مستخلصًا أهم ما فيه من كنوز ثمينة وحقائق غنية.

ليس للشيخ الشعراوي مؤلفات بعينها، غير أن أصحاب الأقلام ودور النشر الكبرى وهيئات علمية كثيرة أخذت أحاديثه المذاعة تليفزيونيًا وإذاعيًا، وتسجيلاته المختلفة وطبعتها في صورة مجلدات وكتب كبيرة بالإضافة إلى مئات المقالات في الصحافة العربية والإسلامية.

حصل الشيخ الشعراوي على جوائز عديدة وأوسمة ونياشين دولية، كما حصل على جائزة الدولة التقديرية بمصر عام ١٩٨٨م.

([1]) نشير به إلى أحمد حسين ديدات (١٣٣٧هــ- ١٩١٨م)، وهو داعية إسلامي كبير من جنوب إفريقيا (أصله من مدينة سيرات بالهند، وقد هاجر والده إلى دولة جنوب أفريقيا بعد وقت قصير من ولادته)، درس المراحل السابقة للجامعة، ثم التحق بكلية مولاي سلطان التقنية، واجتاز برنامجًا في الرسم الهندسيّ التقنيّ، وآخر في رياضيات تشغيل اللاسلكي وصيانته.

ظلَّ يعمل في مجال الدعوة الإسلامية حوالي خمسة وثلاثين عامًا. اشترك في العديد من المؤتمرات الإسلامية الإقليمية والدولية، وألقى محاضرات كثيرة في العديد من الدول الإسلامية وغير الإسلامية مثل: المملكة العربية السعودية والبحرين والإمارات العربية وبريطانيا والولايات المتحدة، وعقد مناظرات عديدة مع خصوم الإسلام والمناوئين له.

بالإضافة إلى ذلك، قام بإنشاء معهد السلام الإسلامي لتدريب الطلاب على القيام بالدعوة الإسلامية، وأصدر العديد من الكتيبات والمنشورات التي تردّ على خصوم الإسلام، وتدحض مزاعمهم، ومن أشهرها كتاب (الاختيار The Choice) وهو كتاب متعدد الأجزاء، و(هل الإنجيل كلمة الله؟)، و(القرآن معجزة المعجزات)، و(المسيح في الإسلام)، و(العرب وإسرائيل صراع أم وفاق)، و(مسألة صلب المسيح)، وكتب أخرى طبع الملايين منها لتوزع بالمجان بخلاف المناظرات التي طبع بعضها، وقام بإلقاء آلاف المحاضرات في جميع أنحاء العالم.. وكان يقول:(لئن سمحت لي الموارد فسأملأ العالم بالكتيبات الإسلامية، وخاصة كتب معاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية)

وقد مُنح الشيخ ديدات جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٩٨٦ نظرا لمجهوداته الضخمة وأعطي درجة أستاذ.

في عام ١٩٩٦ أصيب ديدات بالشلل التام ومن حينها ظل طريح الفراش، ولكنه لم يتوقف لحظة عن الدعوة فكان يعبر عما يريد عن طريق عينين لا تتوقفان عن الحركة والإشارة والتعبير، وعبرهما يتحاور الشيخ ويتواصل مع زائريه ومرافقيه بل ومحاوريه بواسطة لغة خاصة تشبه النظام الحاسوبي، فكان يحرك جفونه سريعا وفقا لجدول أبجدي يختار منه الحروف، ويكون بها الكلمات،



وأفكار هو السبب في قعودهم عن الدعوة إلى الله، ومواجهة الغافلين بالحجة والبرهان، ولجوئهم بدل ذلك إلى السيف والسنان .. فراح يعلمهم أسرار المسايفة بالحجة والبرهان، بدل المسايفة بالسيف والسنان.

ومن ثَم يكون الجمل ويترجم مراد الشيخ ولده يوسف الذي كان يرافقه في مرضه. والعجيب أنه كان يصل إلى الشيخ في مرضه هذا كل يوم قرابة الخمسمائة رسالة فلم يتوقف عن الدعوة حتى وافته المنية مجاهدا داعيا وصابرا محتسبا.

١ ـــ الوحدة

بينما نحن كذلك، إذا بالقمي يقوم من مجلسه، وهو في غاية السعادة والسرور، ويصيح في الجمع: لقد وجدت الحل .. لن يرفضه أحد .. سيقبله الكل .. وستنحل العقدة.

استبشرت الجماعة جميعا لاستبشاره، وراحت تكبر، ثم تحاوره فيما جاء به .. سأنقل لك بعض ما ينفعك من الحوار الذي دار بين القمي وبين مهندسي الشهادة.

قال المودودي: نحن نعلم صدقك في بحثك يا سيدنا الفاضل، يا حبيب آل بيت رسول الله ﷺ ، ونعلم أن الله لن يضيع جهد باحث .. فاذكر لنا ما وجدت، وبشرنا عسانا نستفيد مما وصلت إليه في إزالة العواقب التي تحول بيننا وبين ما نريده.

قال القمي: لقد وجدت أن الصخرة الكؤود التي تقف بيننا وبين الشهادة التي أمرنا بها هي تفرقنا واختلافنا وانشغال بعضنا ببعض .. لقد صرنا كأولئك الأطفال الأغبياء الذين انشغلوا عن واجباتهم بالصراع بينهم .. فراح عدوهم يستغل ذلك الصراع لينشر كل فتنة، ويقتل كل إصلاح.

قال الشعراوي: صدقت في هذا .. لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع من عواقب الفرقة، فقال :﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ (الحشر:١٤)

انظروا حكمة القرآن الكريم .. لقد اعتبر كل ما حصل لهؤلاء من رعب وضعف وذلة وعدم عقل هو ما كان بينهم من خلاف ..

ولهذا نرى النصوص القرآنية الكثيرة تأمرنا بالتآلف، وتحذرنا من عواقب الاختلاف قال تعالى :﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران:١٠٣)

وقال تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام:١٥٩)

وقال :﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم:٣٢)

وقال :﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الانبياء:٩٢)

وقال :﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (لأنفال:٤٦)

قال شكيب[1]: صدقت .. لقد جاء محمد ﷺ بهذا الدين رسولا إلى الناس جميعاً، وكان من أبرز مبادئه التسوية بين جميع الشعوب، وعدم الاعتراف بالفروق التي ألف الناس أن يعترفوا بها، ويتعاملوا على أساسها،

---

(1) انظر: مقالا بعنوان (المسلمون أمة واحدة)، محمد علي علوبه باشا (رئيس جماعة التقريب) بمجلة رسالة الإسلام، العدد الأول، بتصرف.

وكانت بعثته ﷺ في وقت بلغت فيه العصبيات أوجها، فكانت كل أمة تعتز بنفسها، وتعتد بما عندها، وتعتبر جنسها هو خير الأجناس، وكان العرب أنفسهم منقسمين قبائل وأفخاذاً وبطوناً، وكل قبيلة تعتقد أنها خير القبائل، وتحتفظ بأنسابها، ولا تختلط بغيرها، حتى كان منهم قبائل لا تُصهر إلى غيرها، ولا يصهر غيرها إليها، وسمّوا أنفسهم (بالجَمَرات) تشبيها بالنار التي تتقى، ولا يجرؤ أحد على مسها.

فلما جاء رسول الله ﷺ هدم ذلك كله، ونادى فيهم بقول ربه :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣)، ثم كان تصرفه ﷺ في سياسة المؤمنين مبنياً على هذا المبدأ السامي: مبدأ إهدار العصبيات، وهدم عوامل التفرق والتقاطع حتى ألف الله به بين جميع القلوب، وبنى من هذه اللبنات المفككة صرحاً قوياً متماسكا استندت اليه دعوة الحق، واحتمى به الإسلام وهو ناشئ غض، حتى جاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

لقد امتن الله بذلك على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، فقال :﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾(لأنفال)، وقال :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾ (آل عمران) ..

قاطعه الشعراوي، والسرور باد على وجهه، وهو يقول ــ وبيده مصحفه الصغير يقرأ منه ــ : انظروا .. إن هذه الآية التي تبين نعمة الله على المؤمنين بالتآليف والتآخي عقبت بهذه الآية التي تأمر بأداء ما تتطلبه الشهادة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. اسمعوا .. قال تعالى :﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤)

ثم عقبت هذه الآية بقوله تعالى :﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران:١٠٥)

وبذلك حصرت آية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يدل على وجوب الألفة وحرمة الفرقة .. وكأنها تقول لنا :(إن من لم يستطع أن يملأ عالمه بالسلام والألفة لا يستطيع أن يملأ عوالم غيره بها .. وإن من لم يستطع أن يرتب بيته، فهو أعجز من أن يرتب بيوت غيره)

قال ذلك، ثم التفت بأدب إلى شكيب، وقال: اعذرني .. فأنت تعلم طبعي .. واصل حديثك ..

ابتسم شكيب، وقال: بورك فيك وفي هذه اللطيفة التي ذكرتها ..

لقد ذكرت لكم أن النصوص المقدسة كلها تحض على الألفة وتعتبرها من نعم الله العظمى على عباده .. وهكذا ظل الأمر في حياة رسول الله ﷺ ..

فلما اختار الله رسوله ﷺ الى جواره سار أصحابه في طريقه، غير أن الزمان عاجلهم ببعض المشكلات فاختلفوا فيها، وكان خلافهم في دائرة الحق والمصلحة كما يعتقد كل منهم .. ثم انقضت الحقبة الأولى من

عمر الدولة الإسلامية، بعد أن تركت في جسم الأمة جراحا عميقة كان من سوء الحظ أنها لم تجد أساة معالجين، بل وجدت من لا يزال ينكؤها ويحييها ويحتفظ بها خضراء ــ كما يعبر أدباء الغرب ــ وفعلت السياسة فعلها، وعادت العصبيات إلى سابق عهدها، فتعددت الأحزاب والفرق والطوائف، وكثرت الخلافات المسائل الجدلية، وترامى المسلمون بالتهم، وساءت بينهم الظنون، ومشى كل فريق في طريق، فضلّت بهم السبل عن الطريق السوي، وذاق بعضهم بأس بعض، وتمكن منهم أعداؤهم، فدسوا لهم في السياسة، ودسوا لهم في التاريخ، ودسوا لهم في العلم والرواية، ودسوا لهم في النظريات الفلسفية، والقضايا الغيبية، وفتحوا لهم آفاق الشك والريب فيما لديهم، وشغلوهم بالجدل والخصام حتى أنهكوا قواهم، وأوهنوا عقولهم، وحطّموا أعصابهم، وأفقدوهم الثقة بأنفسهم، والتعويل على مواهبهم، ثم اقتطعوا أوطانهم قطعة بعد قطعة، واقتسموها فيما بينهم غنائم باردة، في صورة الاستعمار أحياناً، والحماية أحياناً، والوصاية أحياناً، ومناطق النفوذ أحياناً، فتح الأسواق أحياناً، وهكذا من كل ما برَّر به الغاصبون غصبهم، وجعلوه ستاراً على مطامعهم وشهواتهم.

تلك حال المسلمين اليوم، وإن داءهم لقديم منذ تدابروا وتقاطعوا وصاروا شيعاً، يصدق عليهم قوله تعالى :﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (المؤمنون:٥٣)

ولا صلاح لهم، ولا شفاء من دائهم، إلا بأن يعودوا كما بدأهم الله أمة واحدة لا فرق بين شعوبهم، ولا تناحر بين طوائفهم، ولا جهالة تصور الشيعي للسني، أو السني للشيعي، عدوا يظن به الظنون ويخافه على دينه وعقيدتة، ويتحفظ فيما يقرأ له من كتاب، أو ينقل عنه من رأي.

قال المودودي: صدقت .. فالتنازع والتقاطع مفسد للبيوت والأسر، مهلك للشعوب والأمم، مبدد للأموال والثروات، ذلك أنه إذا دب الخلاف، واشتدت الخصومة، فسدت النيات، وتغيرت القلوب، وتدابرت الأجساد، فوقعت الحالقة التي لا تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، كما قال ﷺ :(دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، أما إني لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين)[1]، وقال ﷺ :(والذي نفسي بيده! لا تدخلوا الجنة حتى تسلموا، ولا تسلموا حتى تحابوا، وافشو السلام تحابوا، وإياكم والبغضة ؛ فإنها هي الحالقة، لا أقول لكم: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين)[2]

فإذا وقع التدابر أظلمت الوجوه، وساء ظن المسلم بأخيه (والظن أكذب الحديث)، وتفوهت الأفواه بفاحش القول وألوان البهت، وربما امتدت الجوارح بالضرب والقتل وقد قال ﷺ :(المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه التقوى ههنا وأشار إلى القلب بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم)[3]، وقال :(المؤمن من آمنه الناس والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر السوء، والذى نفسي بيده لا يدخل الجنة عبد لا يامن جاره بوايقه)[4]

فإذا وقع ما نهى رسول الله ﷺ عنه فسد العباد وساءت البلاد، وفشلت الأمة، وذهب ريحها، كما قال

---

(1) رواه أبو داود .
(2) رواه البخاري في الأدب المفرد.
(3) رواه الترمذي .
(4) رواه أحمد والنسائي وابن حبان.

تعالى :﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال:٤٦)

ونتيجة لهذه المفاسد العظيمة والعواقب الوخيمة كان الصلح بين المتخصامين من أجل القربات وأعظم الطاعات، حث عليه الشارع ورغب فيه، وجعله خير ما يتناجى به المتناجون، قال تعالى :﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (النساء:١١٤)

قال الشعراوي: صدقت .. فما ورد في النصوص من الصلح لا ينطبق بكماله إلا في هذا النوع من الصلح بين المسلمين .. فما ورد في النصوص من التحذير من النميمة والغيبة والحقد والحسد لا يشمل ما يرتبط منها بالأفراد فقط، فهو يسير حقير بجنب ما يرتبط منها بالأمة جميعا.

لقد تأملت ما ورد في النصوص من التحذير من النميمة وبيان خطورتها، فعلمت أن ذلك ليس مرتبطا بالنميمة بين الأفراد فقط، بل أخطر النميمة هي التي تصدع وحدة الأمة، وتفرق صفها، وتنشر العداوة بينها.

لقد ورد في الحديث قوله ﷺ :(لا يدخل الجنة نمام)[1] .. وقال ﷺ :(النميمة والشتيمة والحمية في النار)[2]، وفي لفظ :(النميمة والحقد في النار لا يجتمعان في قلب مسلم)

انظروا .. كيف جمع ﷺ بين الحقد والنميمة .. وهؤلاء الذين ينشرون الفرقة بين المؤمنين لا يصدرون إلا عن حقد يسمونه دينا، وغضب للنفس يسترونه باسم الغضب لله؟

وجمع ﷺ بين النميمة والحسد، فقال :(ليس مني ذو حسد ولا نميمة ولا كهانة ولا أنا منه)، ثم تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى :﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴾ (الأحزاب:٥٨)[3]

ولهذا، فإن رسول الله ﷺ اعتبر هؤلاء المجرمين شر عباد الله، فقال :(خيار عباد الله الذين إذا رؤوا ذكر الله، وشرار عباد الله المشاءون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العنت)[4]، وفي رواية :(المفسدون بين الأحبة)[5]، وفي رواية :(الهمازون واللمازون والمشاءون بالنميمة الباغون للبرآء العيب يحشرهم الله في وجوه الكلاب)[6]

وفي حديث آخر قال ﷺ :(ألا أنبئكم بشراركم؟) قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله ، قال : (شراركم الذي يترل وحده ، ويجلد عبده ، ويمنع رفده ، أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟) قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله ، قال : من يبغض الناس ويبغضونه.

قال:(أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟) قالوا: بلى إن شئت يا رسول الله ، قال :(الذين لا يقيلون عثرة ، ولا

---

(1) رواه البخاري ومسلم، وفي رواية : (قتات)، وهو النمام .
(2) رواه الطبراني.
(3) رواه الطبراني.
(4) رواه أحمد .
(5) هذه الرواية رواها ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا.
(6) رواه أبو الشيخ.

يقبلون معذرة ، ولا يغفرون ذنبا)

قال :(أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟) قالوا: بلى يا رسول الله ، قال :(من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره)[1]

صاح شكيب: بورك فيك ــ يا شيخنا ــ والله لكأن رسول الله ﷺ يتحدث عن أولئك الذين ندبوا أنفسهم للتفريق بين المؤمنين .. فهم لا هم لهم إلا تتبع العورات .. إن وجدوا حسنة كتموها، وإن وجدوا سيئة سارعوا إلى نشرها من غير تثبت ولا تحقيق.

قال المودودي: لقد بلغ الحقد ببعضهم أن راح ينسب لإخواننا من الشيعة القول بأن القرآن الكريم محرف، غير مدرك خطورة ما يقوله مع أن كل علمائهم وأوليائهم وعوامهم لا يقرؤون من القرآن إلا ما نقرؤه جميعا[2]، ولا يعرفون من الدين إلا ما نعرفه.

---

(1) رواه الطبراني وغيره.

(2) رددنا على هذه الفرية بالنصوص الكثيرة من أئمة الشيعة في رسالة (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

ونحب أن ننبه هنا إلى أن من الشيعة من يرمي السنة بنفس الفرية، أي أن من السنة من يقول بتحريف القرآن، يقول الشيخ المدني ــ ردا على من يرمون الشيعة الإمامية بالقول بتحريف القرآن ــ :(أما أن الإمامية يعتقدون نقص القرآن فمعاذ الله، وإنّما هي روايات رويت في كتبهم كما روي مثلها في كتبنا، وأهل التحقيق من الفريقين قد زيفوها وبينوا بطلانها، وليس في الشيعة الإمامية أو الزيدية من يعتقد ذلك، كما أنّه ليس في السنة من يعتقده.

ويستطيع من شاء أن يرجع إلى مثل كتاب (الإتقان) للسيوطي السني ليرى فيه أمثال هذه الروايات التي نضرب عنها صفحا.

وقد ألف أحد المصريين في سنة ١٩٤٨ كتابا أسمه (الفرقان) حشاه بكثير من أمثال هذه الروايات السقيمة المدخولة المرفوضة، ناقلا لها عن الكتب المصادر عند أهل السنة، وقد طلب الأزهر من الحكومة مصادرة هذا الكتاب بعد أن بين بالدليل والبحث العلمي أوجه البطلان والفساد فيه، فاستجابت الحكومة لهذا الطلب وصادرت الكتاب، فرفع صاحبه دعوى يطلب فيها تعويضاً، فحكم القضاء الإداري في مجلس الدولة برفضها.

أفيقال: إن أهل السنة ينكرون قداسة القرآن، أو يعتقدون نقص القرآن للرواية رواها فلان، أو لكتاب ألفه فلان؟

فكذلك الشيعة الإمامية، إنّما هي روايات في بعض كتبهم، كالروايات التي في بعض كتبنا، وفي ذلك يقول الإمام العلامة السعيد أبو الفضل ابن الحسن الطبرسي، من كبار علماء الإمامية في القرن السادس الهجري، في كتابه (مجمع البيان لعلوم القرآن)، وهو بصدد الكلام عن الروايات الضعيفة التي تزعم أن نقصا ما دخل القرآن ــ يقول هذا الإمام ما نصه:(روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة، أن في القرآن تغييرا ونقصانا، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه، وهو الذي نصره المرتضى قدس الله روحه، واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء في جواب المسائل الطرابلسيات، وذكر في مواضع: إن العلم بصحة نقل القرآن، كالعلم بالبلدان، والحوادث الكبار والوقائع العظام، والكتب المشهورة، وأشعار العرب المسطورة فإن العناية اشتدت، والدواعي توفرت على نقله وحراسته وبلغت إلى حد لم تبلغه فيما ذكرناه ؛ لأن القرآن معجزة النبوة ومأخذ العلوم الشرعية، والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية، حتّى عرفوا كلّ شيء اختلفوا فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته، فكيف يجوز أن يكون مغيرا أو منقوصا، مع العناية الصادقة، والضبط الشديد؟)

وقال أيضاً ــ قدس الله روحه ــ: (إن العلم بتفسير القرآن وأبعاضه في صحة نقله، كالعلم بجملته، وجرى ذلك مجرى ما علم ضرورة من الكتب المصنفة، ككتاب سيبويه والمزني، فإن أهل العناية بهذا الشأن يعلمون من تفصيلهما ما يعلمونه من جملتهما حتّى لو أن مدخلا أدخل في كتاب سيبويه باباً من النحو ليس من الكتاب، لعرف وميز وعلم أنّه ملحق وليس من أصل الكتاب، وكذلك القول في كتاب المزني، ومعلوم أن العناية بنقل القرآن وضبطه أصدق من العناية بضبط كتاب سيبويه ودواوين الشعراء)

(وذكر أيضاً أن القرآن كان على عهد رسول الله ﷺ مجموعا مؤلفا على ما هو عليه الآن، واستدل على ذلك بأن القرآن كان يدرس ويحفظ جميعه في ذلك الزمان، حتّى عين جماعة من الصحابة في حفظهم له، وأنه كان يعرض على النبي ﷺ ويتلى عليه، وأن جماعة من الصحابة مثل عبدالله بن مسعود وأبي بن كعب، وغيرهما ختموا القرآن على النبي ﷺ عدة ختمات، وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنّه كان مجموعاً مرتبا غير مبتور ولا مبثوث، وذكر أن من خالف ذلك من الإمامية والحشوية لا يعتد مجموعاً،

قال الشعراوي: ولهذا، فإن النبي ﷺ اعتبر إصلاح ذات بين المسلمين من أعظم أعمال الخير .. هذا إذا كان بين أفراد، فكيف إن كان بين طوائف المسلمين ومذاهبهم وفرقهم ..

لقد ورد في الحديث قوله ﷺ :(ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى ، قال : (إصلاح ذات البين ، فإن إفساد ذات البين هي الحالقة)[1]، وفي رواية :(هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين)

قال القمي: بورك فيكم جميعا .. وقد وجدت من خلال بحثي في علاج هذا أن سببه هو ذلك الفهم المحدود للدين، الممتلئ بالتعصب الذي يرى الأشياء بمنظار واحد يلغي ما عداه مع أن ما عداه قد يكون عين ما ينكر عليه.

قال إقبال: صدقت .. لقد ذكرتني بقصة ذكرها العارف الكبير مولانا جلال الدين البلخي الرومي في كتابه (المثنوى) قال: كان أربعة من الفقراء جالسين في الطريق، وكل منهم من بلد، أحدهم رومي، والثاني فارسي، والثالث عربي، والرابع تركي، ومرّ عليهم محسن، فأعطاهم قطعة من النقد غير قابلة للتجزئة، ومن هنا بدا الخلاف بينهم، يريد كل منهم أن يجعل الآخرين على اتباع رأيه في التصرف في هذا النحو، أما الرومي فقال نشترى بها (رستافيل)، والفارسي قال: أنا لا أرى من (الانگور) بديلا، وقال العربي: لا والله لا نشتري به إلاّ (عنبا)، وقال التركي متشددا في لهجة صارمة: أن الشيء الوحيد الذي أرضى به هو: (اوزوم)، أما ما سواه فاني لا أوافق عليه أبدا، وجرَّ الكلام بين الأربعة إلى الخصام، وكاد يستفحل الأمر لولا أن مرَّ عليهم رجل يعرف لغاتهم جميعاً، وتدخل للحكم بينهم.

فبعد أن سمع كلامهم جميعا، وشاهد ما أبداه كل منهم من تشدد في موقفه أخذ منهم النقد، واشترى به شيئا، وما أن عرضه عليهم حتّى رأى كل منهم فيه طلبته، قال الرومي هذا هو (رستافيل) الذي طلبته، وقال الفارسي: هذا هو (الانگور) وقال العربي: الحمد لله الذي أتاني بما طلبت، وقال التركي: هذا هو (اوزوم) الذي طلبته، وقد ظهر أن كلا منهم كان يطلب العنب من غير أن يعرف كل واحد منهم أنه هو بعينه ما يطلبه أصحابه.

قال الكواكبي: ومما ورد في الحديث مما يشير إلى ذلك ما حدث به ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعت رجلاً قرأ آية، وسمعت النبي ﷺ يقرأ خلافها، فجئت به النبي ﷺ فأخبرته، فعرفت في وجهه الكراهية،

فإن الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخبارا ضعيفة ظنوا صحتها، لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته)

فهذا كلام صريح واضح في الدلالة على أن الإمامية كغيرهم في اعتقاد أن القرآن لم يضع منه حرف واحد، وأن من قال بذلك، فإنما يستند إلى روايات ظنها صحيحة وهي باطلة، يستوي في ذلك أهل السنة بغيرهم من الطوائف.

وإنما ذكرنا هذا هنا، وفي مواضع مختلفة من (رسائل السلام)، لأن أكبر فرية يرمي بها المتطرفون إخواننا من الشيعة الإمامية هو رميهم بالقول بتحريف القرآن.

وقد أفضنا في هذه المسألة بتفاصيلها ــ وما يناسبها من المسائل ــ في رسالة (حصن الوحدة) من مجموعة (حصون المستضعفين)

([1]) رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه.

وقال: (كلاكما محسن، ولا تختلفوا؛ فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا)[1]

وفي الحديث الآخر عن ابن عمر ـــ رضي الله عنه ـــ أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بني قريظة: (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة)، فأدركتهم العصر في الطريق، فقال قوم: لا نصلي إلا في بني قريظة وفاتتهم العصر، وقال قوم: لم يُرِدْ منا تأخير الصلاة، فصلوا في الطريق، فلم يعب ﷺ واحداً من الطائفتين[2].

قال المودودي[3]: إن إيصال مثل هذه المفاهيم لعامة المسلمين وخاصتهم يحتاج إلى تعريفهم بحكمة الله في خلقه .. فقد اقتضت حكمة اللّه في خلقه أن جعل الناس مختلفين في ألوانهم وألسنتهم ومداركهم وتصوراتهم، ولكن اللّه جل شأنه لم يرد أن يكون هذا الاختلاف بين الناس مدعاة الى التراع والشقاق، بل جعله دافعاً الى التآلف والوئام، وهذا ما يعبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات:١٣)

فهذه الآية الكريمة تلفت نظر الناس جميعاً الى حقيقة ثابتة لاجدال فيها، وهي وحدة الأصل الإنساني، ثم تبين أن اللّه أراد ان يجعل من ذرية آدم شعوباً وجماعات مختلفة :﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾ (هود)

ولكن هذا الاختلاف ـــ الذي هو حقيقة واقعة لا شك فيها ـــ ينبغي أن يكون محرّكاً للناس نحو التعارف والتآلف كما تشير الآية الكريمة ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ ، وهذا التعارف من شأنه أن يكون مبنيا على الاحترام المتبادل والفهم المتبادل ومؤدياً الى التعاون المشترك فيما فيه خير الجميع.

وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأدياهم وحضاراهم، فمن باب أولى ينبغي أن يكون ذلك شأن الأمة الإسلامية التي ينبغي عليها أن تضع ذلك في اعتبارها وفي مقدمة أولوياها. فقد أراد اللّه لها أن تكون أمة واحدة، كما قال تعالى :﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الانبياء:٩٢)

فالأمة الإسلامية تضم تحت جناحيها مختلف الشعوب التي تدين بالاسلام على الرغم من تنائي الديار واختلاف الألسنة والألوان، فهذه أمة لها أهداف واحدة، تعبد ربا واحدا، ولها قرآن واحد لم يختلف عليه أحد من أبنائها، ولها قبلة واحدة يتجه المسلمون جميعا اليها في صلواهم، وتهفو اليها أرواحهم في حجهم الى بيت اللّه الحرام، وفضلا عن ذلك فالجميع متفقون في أصول الايمان وأركان الاسلام، وفي كل ما علم من الدين بالضرورة.

ولكن طبيعة الامور تبين لنا أن لكل فرد ذاتيته وشخصيته المستقلة، والناس مختلفون في نواحي ظاهرية وأخرى باطنية.

---

(1) رواه أحمد والترمذي .

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) انظر: محمود حمدي زقزوق، أمة إسلامية واحدة، مجلة (رسالة التقريب)، العدد ٣٠.

ومن هنا تختلف وجهات النظر فيما بينهم، وهذا أمر لا بأس به طالما ظل هذا الاختلاف محصورا في إطار الأمور الفرعية القابلة للاجتهاد المشروع، ولا يجوز لمثل هذا الاختلاف أن تكون له آثار سلبية تتسرب إلى قلوب المسلمين فتفسد تآلفها وتزرع فيها التناحر والتخاصم، والا أصبح الاختلاف شراً.

قال الشعراوي ــ مقاطعا له ــ : وهذا ما حذر منه النبي ﷺ حين قال :(لا تختلفوا فتختلف قلوبكم)[1]

واصل المودودي يقول: ومن هنا ينبغي على المسلمين أن يجتمعوا على ما اتفقوا عليه، وأن يعذر بعضهم بعضا فيما اختلفوا فيه.

واذا كان اختلاف وجهات النظر في الامور الفرعية أمراً جائزاً في إطار مبدأ الاجتهاد الإسلامي المشروع، فليس هناك مبرر على الاطلاق لان تكون هذه الاختلافات الفرعية عقبة في طريق تحقيق وحدة الأمة الإسلامية، فقد أمرنا أن نعتصم بحبل اللّه المتين، كما قال تعالى :﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا)(آل عمران: من الآية١٠٣)، ونهينا عن أن نبدد جهودنا وطاقاتنا، لأن هذا لن يخدم الا أعداء الاسلام ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (لأنفال: من الآية٤٦)

وليس هناك مسلم مخلص لدينه يقبل أن يكون عنصرا يخدم أعداء الدين.

قال القمي: ومن هنا ينبغي على عقلاء الأمة وعلمائها أن يعملوا على توحيد الصفوف وبذل الجهود المتواصلة في سبيل إزالة العقبات التي تعترض طريق الأمة نحو التقدم والازدهار.

ومن هذه العقبات تلك الآثار السلبية للخلافات المذهبية بين السنة والشيعة، أو بين بعض الطوائف داخل إطار كل منهما.

وقد آن الأوان لأن تختفي مظاهر هذا الخلاف التاريخي، وتزول عوامل النزاع والشقاق بين طوائف الأمة.

ولست أقصد بذلك أن يتغلب مذهب على مذهب، أو أن ينتصر فريق على فريق.. فالقضية أكبر من ذلك بكثير .. إنّها بالدرجة الأولى قضية الإسلام كدين، وقضية الأمة الإسلامية التي (تداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)[2]كما أخبر بذلك رسول اللّه ﷺ، وكما هو واقع أمام أعيننا في عالم اليوم، فحقوق المسلمين في كل مكان مهدورة، وأعراضهم في مناطق عديدة منتهكة، ودماؤهم تراق ليل نهار ظلما وعدوانا، وهم عاجزون عن فعل شيء غير الشجب والاستنكار والإدانة.

ومن هنا فإن المسلمين اليوم في أشد الحاجة ــ أكثر من أي وقت مضى ــ إلى توحيد صفوفهم، وتنسيق جهودهم، ودفن خلافاتهم على جميع الأصعدة، لان قضيتهم في عصرنا الحاضر قضية مصيرية، هي أن يكونوا أو لا يكونوا.

قال الشعراوي[1]: لقد ذكرني كلامك هذا بأيام جميلة عشتها في الأزهر الشريف صحبة علماء أجلاء كان التفكير في وحدة الأمة عندهم أول الأوليات، وأصل الأصول.. فلذلك نبذوا كل تعصب، وتحرروا كل قيد،

---

(1) رواه أبو داود وأحمد والحاكم وأبو عوانة .

(2) رواه أبو داود.

(1) انظر: تجربة التقريب بين المذاهب، الأستاذ فهمي هويدي.

وجعلوا انتماءهم للإسلام هو الانتماء الأعلى الذي لا ينافحون إلا عنه، ولا ينتصرون إلا له.

في تلك الأيام .. في الأربعينيات من هذا القرن .. شهدت القاهرة حركة تقريبية رائدة، انطلقت من دار التقريب، وجماعة التقريب في القاهرة، وضعت هذه الحركة لها خطة عمل مدروسة في حقل الأصول والفروع لنشر ثقافة التقريب، وحققت عبر مجلتها (رسالة الإسلام) نجاحا في إزالة الحواجز النفسية، وتصحيح المفاهيم لدى السنة والشيعة..

سأقص عليكم القصة من البداية .. لعلنا نجد من يحييها من جديد .. ليحيي بإحيائها وحدة الأمة وعزها وكرامتها:

في تلك الأيام الجميلة قدم العلامة محمّد تقي القمي، الذي قدم من إيران إلى مصر لأول مرة في عام ١٩٣٧ م، والتقى فيها بكبار شيوخها، خصوصا الشيخين محمّد مصطفى المراغي ــ شيخ الأزهر ــ وعبد المجيد سليم الذي كان مفتيا، ودرس في الأزهر لمدة سنتين، وشجعه اللقاء مع شيوخ الأزهر على طرح فكرة التقريب، التي خرجت إلى حيز الوجود حين عاد الشيخ القمي إلى مصر لكي يستقر بها في سنة ١٩٤٦ م، ويؤسس مع نخبة ممتازة من الشخصيات المصرية (دار التقريب بين المذاهب)

لقد شكل أول مجلس إدارة لدار التقريب في عام ١٩٤٧م، وضم عشرين عضواً من تلك الكوكبة التي التقت على الفكرة وتحمست لها في مصر، وكان معهم عدد آخر من العلماء يمثلون الشيعة الإمامية والزيدية.

رأس الجمعية في أول تأسيسها أحد كبار المصلحين في مصر آنذاك، هو (محمّد على علوبة باشا) الذي كان وزيراً في عدة حكومات (للأوقاف والمعارف) وعينته مصر أول سفير لها في باكستان.

وكان من بين الأعضاء الشيخ عبد المجيد سليم رئيس هيئة الفتوى بالأزهر، ثم صار شيخا للأزهر فيما بعد، والشيخ أحمد حسين مفتي وزارة الأوقاف، والشيخ محمود شلتوت الذي كان عضواً بهيئة كبار العلماء، وصار بدوره شيخا للأزهر، والشيخ محمّد عبد اللطيف دراز وكيل الأزهر ، والشيخ عيسى ممنون عضو هيئة كبار العلماء ورئيس الجمعيات الشرعية، والشيخ حسن البنا رئيس الإخوان المسلمين، والشيخ عبد الوهاب خلاف والشيخ علي الخفيف، وهما من كبار أساتذة الفقه والتشريع بالجامعة، والشيخ محمّد المدني الأستاذ بالأزهر وأصبح وكيلا للأزهر فيما بعد.

وإلى جانب هؤلاء كان من بين الأعضاء الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، والشيخ محمّد تقي القمي ممثلا للشيعة الإمامية، وعلي بن إسماعيل المؤيد، والقاضي محمّد بن عبدالله العمري، عن الشيعة الزيدية.

والى جانب نخبة العلماء الممتازة التي أسست جمعية التقريب وتصدرت أول مجلس إدارة لها، فقد بين النظام الأساسي للجمعية أنها تتطلع إلى ما هو أبعد من جمع كلمة المسلمين باختلاف طوائفهم ومذاهبهم إذ لم يكتف المؤسسون بذلك الهدف الجليل، وإنّما طمحوا لأن يصبح الكيان الجديد بمثابة رابطة أو جامعة للشعوب الإسلاميّة تتجاوز حدود مصر، فقد نصت المادة الخاصة بأغراض الجماعة على أن من تلك الأغراض السعي إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين والتوفيق بينهما، وعقد مؤتمرات إسلامية عامة تجمع زعماء الشعوب الإسلاميّة في الأمور الدينية والاجتماعية، فضلاً عن ذلك فإن الجمعية أرادت أن تقوم بدور في

الدعوة إلى الإسلام عن طريق نشر المبادئ الإسلاميّة باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إليها.

هؤلاء هم الورثة الحريصون على الأمة وعلى وحدة الأمة .. وهذه هي همهم .. فما الذي فعلوه؟

لعل أهم شيء يلفت الانتباه في هذا هو تلك الفتوى الجريئة الدالة على الفهم العميق للإسلام، وعلى التخلي التام عن كل أغلال التعصب، فتوى الشيخ محمود شلتوت التي أصدرها بعدما صار شيخا للأزهر[1]، والتي أجاز فيها التعبد على مذهب الشيعة الإمامية وغيرها من المذاهب التي تتأسس على أصول الإسلام القطعية.

لقد قال يتحدث عن إيمانه العميق بضرورة التوحيد بين هاتين الطائفتين العظيمتين من طوائف المسلمين:(إن دعوة التقريب هي دعوة التوحيد والوحدة، هي دعوة الاسلام والسلام.. لقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم وأسهمت منذ أول يوم في جماعتها وفي وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة .. ثم تهيأ لي بعد ذلك، وقد عهد إليّ بمنصب مشيخة الازهر، أن أصدرت فتواي في جواز التعبد على المذاهب الاسلامية الثابتة الأصول، المعروفة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين، ومنها مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، وقرّت بهذه الفتوى عيون المؤمنين المخلصين الذين لاهدف لهم الا الحق والألفة ومصلحة الأمة، وظلت تتوارد عليّ الاسئلة والمشاورات والمجادلات في شأنها وأنا مؤمن بصحتها، ثابت على فكرتها، أؤيدها في الحين بعد الحين فيما أبعث به من رسائل للمستوضحين، أو أردّ به على شبه المعترضين، وفيما أنشئ من مقال ينشر أو حديث يذاع أو بيان أدعو به الى الوحدة والتماسك والالتفاف حول أصول الاسلام ونسيان الضغائن والاحقاد، حتى أصبحت ــ والحمد للّه ــ حقيقة مقررة تجري بين المسلمين مجرى القضايا المسلمة بعد أن كان المرجفون في مختلف عهود الضعف الفكري والخلاف الطائفي والنزاع السياسي، يثيرون في موضوعها الشكوك والأوهام بالباطل. وهاهو ذا الازهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة، فيقرر دراسة فقه المذاهب الاسلامية سنيها وشيعيها دراسة تعتمد على الدليل والبرهان وتخلو من التعصب لفلان وفلان)[2]

اسمحوا لي .. إن كنت قد قرأت لكم هذا النص بطوله .. فأنا لم أفرح بفتوى كما فرحت بهذه الفتوى .. لقد ذكرت بهذا الموقف العظيم لمحمود شلتوت قوله ﷺ للحسن بن علي ــ رضي الله عنهما ــ :(ن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)[3]

سكت الشعراوي قليلا، وكأنه يعود بذاكرته إلى أيام شبابه، ثم التفت إلى الجمع، وقال: في تلك الأيام الجميلة كانت جماعة التقريب تصدر مجلة جامعة باسم (رسالة الإسلام)، ظلت تصدر طيلة أربعة عشر عاماً ..

لقد كانت تلك المجلة هي زادنا الذي منه ننهل الإسلام النقي الطاهر البعيد عن كل تعصب..

لم تكتف الجمعية بذلك بل اعتمدت تفسيراً للقرآن الكريم اجتمع عليه علماء السنة والشيعة هو تفسير (مجمع البيان لعلوم القرآن) للطبرسي، الذي استغرق تهيئته للنشر مدة عشرين عاما، وأشرف على هذه العملية

---

(1) ذكرنا التفاصيل الكثيرة الدالة على مصداقية هذه الفتوى في رسالة (حصن الوحدة) من مجموعة (حصون المستضعفين) من (رسائل السلام)

(2) راجع (مشيخة الازهر منذ إنشائها حتى الآن) للاستاذ علي عبد العظيم:١٨٧/٢ وما بعدها. القاهرة ١٩٧٩.

(3) رواه البخاري .

ثلاثة من أكابر علماء الأزهر هم الشيوخ: عبد المجيد سليم، ومحمود شلتوت، ومحمد المدني.

وفوق ذلك شرعوا في تجميع الأحاديث النبوية المتفق عليها بين السنة والشيعة، وقطعوا شوطا طيبا في هذا الصدد، رغم أن هذا الجهد لم ير النور بعد.

قال القمي: بورك فيك يا شيخنا .. إنك تذكرني بشبابي .. بتلك الأيام الجميلة التي كنا نصيح فيها بكل قلوبنا (لا سنية لا شيعية .. إسلامية إسلامية) .. في تلك الأيام لم نكن نفخر إلا بالإسلام .. كنا نحزن لكل مصاب من المسلمين مهما اختلف مذهبه، أو لونه، أو وطنه .. ونفرح لكل نصر أصاب المسلمين لا يهمنا مذهبه، أو لونه، أو وطنه..

لقد كنا نردد بكل قلوبنا قوله تعالى :﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً)(المائدة: من الآية٣)، فلم نرض لأنفسنا غير الإسلام .. الإسلام العظيم الواسع الذي لا يضيق بأحد، ولا يعبس في وجه أحد.

لقد كانت نتائج عمل تلك الجماعة الصالحة من ورثة النبوة عظيما ومثمرا ــ رغم العمر القصير الذي أتيح لهم أن يتحركوا فيه بحرية ــ

لقد كان من نتائج ذلك أن حيت فكرة التقريب، وجمعت من حولها كبار علماء السنة والشيعة، وكان عملها هذا أهليا محضا، حركته الغيرة على الإسلام والمسلمين، و لم تكن لهذا العمل علاقة بأي نظام سياسي أو مؤسسة رسمية.

وكان من نتائجها أنها نجحت في ضم الفقه الشيعي إلى المذاهب الإسلاميّة الأخرى التي تخضع للدراسة في منهج الفقه المقارن بالأزهر الشريف.

وكان من نتائجها أنها قطعت شوطاً كبيراً بإصدار تفسير للقرآن متفق عليه، وسعت إلى تحقيق الفكرة نفسها عن طريق تجميع الأحاديث النبوية المتفق عليها أيضاً.

وهذا يعني أن جماعة التقريب أنجزت خطى بالغة الأهمية على صعيد تحويل التقريب من حلم وفكرة، إلى عمل مشترك جاد تبلور في مجموعة من الآثار العلمية التي بقيت لأجيال المسلمين إلى يوم الدين.

قال المودودي: لقد ذكرتموني بتلك الأيام الجميلة التي كنت ــ وأنا صحفي كما تعلمون ــ أتزود من مجلة (رسالة الإسلام) التي كانت تمثل صلب المشروع، وتعكس كيفية رؤية أصحابه له، ولذلك فإنها تعد بحق صوت التقريب.

إن قارئ أعداد المجلة يلاحظ أنها ظلت طيلة الأربعة عشر عاما تتحرك على محاور عدة، في مقدمتها خمسة، هي: استنكار فرقة المسلمين .. والدفاع عن الحق في الاختلاف.. ورفض توحيد المذاهب .. والأصول المتفق عليها بين أهل السنة والشيعة، ومن ثم السعي الدءوب للتنبيه إلى مساحة المشترك بين الطرفين .. ورد الشبهات التي تتردد في أوساط أهل السنة بشأن الشيعة ومذهبهم.

قال الكواكبي: فيما يتعلق باستنكار فرقة المسلمين وتمزقهم، فإنه لا يكاد نص في المجلة يخلو من تعبير عنه .. لقد كان البيان الذي أصدره مؤسسو دار التقريب عقب أول اجتماع لهم (في ٣٠ ربيع الثاني عام ١٣٦٦ هـــ) هو أوضح إعلان عن الفكرة، فبعد أن أشار البيان إلى ثراء الفقه الإسلامي، انتقد ممارسات المقلدين

والمتعصبين للمذاهب الّذين كلت هممهم عن حمل ما كان يحمله سلفهم في العلم والنظر، وهو ما صادف عهود الضعف السياسي وانقسام الأمة الإسلاميّة إلى دويلات صغيرة لا تربطها رابطة ولا تجمعها جامعة ومن شأن الضعف السياسي إذا أصيبت به أمة، أن يخيل إلى أبنائها أنهم أقل من سواهم قوة وعلما وتفكيراً، وأنه تركد معه ريح العلم ويفتر نشاط العلماء.

بهذا وبغيره ـــ أضاف البيان ـــ تأثر أكثر المشتغلين بالفقه، فحكموا على أنفسهم وعلى جميع أهل العلم في زمانهم بأنهم ليسوا أهلاً للنظر والاستنباط، ولا لفهم كتاب الله وسنة رسوله ومن ثم حكموا بإغلاق باب الاجتهاد، وترتب على ذلك أن وقف الفقه وجمد وأن تعصب كلّ منهم لرأي إمام، وزعم أنّه الحق وأن ما سواه باطل، وأسرفوا في ذلك إسرافا بعيدا حتّى كان منهم من لا يصلى وراء إمام يخالفه في مذهبه، ومن لا يزوج اينته لفلان، أو يتردد في أكل ذبيحة فلان، أو قبول قضاء فلان،لمجرد أنّه يخالفه في المذهب ثم حصروا الأئمة الّذين أوجبوا اتباعهم في عدد معين وهكذا ضاق أفق الاتباع والأشياع مما اتسع له أفق المتبوعين.

قال شكيب: لقد توقفت عند مقالة في الموضوع نشرها الأديب البارع والعالم الفذ الشيخ محمّد الغزالي تحت عنوان (على أوائل الطريق)، استهلها بكلام للمستشرق المجري جولد تسيهر ذكر فيه أن الملك (نادر شاه) (المتوفى سنة ١٧٤٧ م) سعى جادا كي يعقد مع الأتراك صلحا ينقي الجو بين الشيعة والسنة، ويضع حد للخلاف القائم بين الفريقين.

ووضع لذلك مشروعا جيداً كاد يخرج إلى حيز التنفيذ، لولا أن المنية عاجلته فمات دون أن تتحقق أمنيته وقد أشارت كتابات الفقيه السني عبد الله بن حسين السويدي، الذي كان معاصرا لتلك الفترة، إلى أن نادر شاه عقد مجمعا دينيا جمع فيه فقهاء الفريقين وقد اتفق هؤلاء الفقهاء على ضم التشيع إلى المذاهب السنية، وجعله مذهبا خامسا يقبل به المسلمون كافة، وقد صارت من السهل بعد قليل ـــ بموجب هذا الاتفاق ـــ أن يخصص مقام خامس للمذهب الجعفري في دائرة الحرم المكي بجوار مقامات المذاهب الأربعة السنية وصار لزاما منذ ذلك الوقت الإقرار بسنية هذا المذهب.

وقد امتدح المستشرق المجري هذه الخطوة لكنه قال: (إن حلم التوفيق بين الطرفين كان أمنية بعيدة ذلك أن الحقد المتوارث الذي يحمله كلا الفريقين للآخر والضغائن التي شرطت فقهاء المذهبين شطرت، جعلتهم بعد موت نادر شاه لايتصوبون سياسة التسامح والوفاق)

لقد علق الشيخ الغزالي على ما كتبه جولد تسهير قائلا: (لقد أحسست وخزاً في فؤادي وأنا أقرأ كلمة الإسلام الشيعي والإسلامي السني، التي ترددت على لسان المستشرق المجري مرارا، وأتساءل: ما الذي حدث حتّى نكب الإسلام بهذه الفرقة ؟)، وفي رده قال: (الحقيقة أن هناك أناسا لا يتقون الله في دينهم ولا في أمتهم، أطلقوا غيوما داكنة من الإشاعات والظنون، كانت العملة الدفينة في تمزيق الشمل، وملء الرءوس بطائفة من التصورات الباطلة والمشاعر المنحرفة.. وجماهير العامة ـــ للأسف الشديد ـــ ضحايا لتجاذب متبادل لا أساس له، ويوم ينكشف الغطاء عن الحقيقة، سيحزن كثيرون لما أرسلوا من أحكام وأطلقوا من عبارات)

قال القمي: في هذا المعنى كتب سميي الشيخ محمّد تقي القمي يقول: (كان الوضع قبل تكوين جماعة

التقريب يثير الشجن، فالشيعي والسني كلّ كان يعتزل الآخر، وكل كان يعيش على أوهام ولدها في نفسه الظنون، أو أدخلتها عليه سياسة الحكم والحكام، أو زيفتها له الدعاية المغرضة .. كان يسود الفريقين جو من الظلام، فلا يرى أحدهما في صورة الآخر إلاّ شبحاً تحوطه الظلمة، ولا يتكلم عنه إلاّ بما توحي به الظلمة، ولا يقرأ عنه إلاّ ما تسمح به حلكة الظلام)

وأضاف يقول: (إن الفرقة بين المسلمين ظلت غذاء مناسبا للحكم والحكام قرونا عدة، دأب فيها كلّ حاكم على استغلالها لتثبيت سلطانه، وتحطيم عدوه، ثم جاءت السياسات الأجنبية فوجدت في هذه الفرقة خير وسيلة لتدخلها، وبث نفوذها ودعم سلطانها وفرض سيادتها .. الحق كلّ الحق أنّه لا ضرر على المسلمين في أن يختلفوا، فإن الاختلاف سنة من سنن الإجماع، ولكن الضرر كلّ الضرر في أن يفضي بهم الخلاف إلى القطيعة والخروج على مقتضى الأخوة التي أثبتها الله في كتابه العزيز، لا على أنها شيء يؤمر به المؤمنون، ولكن على أنها حقيقة واقعة، رضى الناس بها أم أبوا)

هكذا كتب الشيخ محمّد تقي القمي في الأعداد الأولى لمجلة رسالة الإسلام.

وقد وضح مراده بهذا في مقالة أخرى بعنوان (خلاف نرضاه وخلاف نأباه)، وفيه قال: (هناك فرق بين خلاف وخلاف: هناك خلاف تمليه طبيعة التفكير وتقتضيه سنن الاجتماع، ونحن نقبله ونرضاه وهناك خلاف يصطنع اصطناعا، ونحن نرفضه ونأباه .. إننا نقبل الخلاف الفكري ما دام في دائرة معقولة، ونرحب بالخلاف المذهبي لأنه وليد آراء اجتهادية مرجعها الكتاب والسنة أو ما أعطاه الكتاب أو السنة قوة الحجية ونرحب بما عند الشيعة وأهل السنة، لأنهما تؤمنان بما يجب على المسلم أن يؤمن به، وإن اختلفتا في مسائل فقهية، وتميزتا في مسألة الولاة والخلافة ونرحب كذلك بالمعارف الكلامية، لأنها ميدان من ميادين التفكير للمسلم أن يجول فيه.

نحن نرحب بهذه الخلافات كلها، بل نعتز كمسلمين بالكثير منها: لأنها إن دلت على شيء فإنما تدل على الحرية الفكرية، ولأنها إن أحسن النظر إليها، تسعد الأمة وتكفل رقيها وتبقى على سلامتها.

إن هذه الخلافات في جوهرها تنبئ عن معنى الوفاق فهي ترتبط بأصل واحد هو الكتاب والسنة.

وليس معنى هذا أن في السنة خلافا، بمعنى أن البعض يقبل ما صدر عن رسول الله ﷺ والبعض لا يقبله، معاذ الله، فالمسلمون يتفقون في وجوب الأخذ بسنة رسول الله ﷺ، ولكنهم قد يختلفون في الفهم أو التفسير أو في أن هذا صدر عن الرسول الأعظم أو لم يصدر أما من لا يأخذ بما أمر به الرسول فليس بمسلم.

فالآراء الاجتهادية إذن، يجمعها الكتاب والسنة، وليس بعد هذا من وفاق.

أما الخلاف الذي لا نرحب به ولا نقبله، بل نرفضه ونقاومه، فهو الخلاف الذي يقوم على الكراهية والبغضاء، وتغذية الشبه والأوهام، ويوجد البلبلة في صفوف الأمة، ويؤدي إلى تفريق كلمة المسلمين.

ذلك خلاف لا يتفق والخلق الإسلامي، ولا يستند إلى المعارف الإسلاميّة، حمل لواءه مؤلفون كتبوا قبل التثبت تارة، وبداعي الغرض والهوى تارات، فسودوا صحيفة الشيعة في نظر أهل السنة، وسودوا صحيفة أهل السنة في نظر المتشيعين، بعضهم خلط بين أهل السنة والنواصب، وأكثرهم خلطوا بين الشيعة والغلاة، بينها

وبين الفرق البائدة، وألصقوا بها آراء لا تمت إليها بصلة، بل الشيعة منها براء)

قال الكواكبي: بخصوص النقطة الثالثة التي اهتمت جماعة التقريب بإبرازها، والتي ينبغي إحياؤها من جديد .. وهي أن الوحدة الإسلامية لا تعني محو المذاهب أو إلغاؤها، وإنما تعني نشر المودة والمحبة والتآخي والاحترام بين أهلها، مع بقاء كل طرف على ما يعتقده مما وصل إليه بالاجتهاد عبر من يثق فيه من العلماء.

لقد أثارت ـــ في البداية ـــ جهود التقريب جدلا كبيرا؛ حيث شاع بين قطاعات ليست قليلة من المسلمين أن مقصدها في نهاية المطاف هو توحيد المذاهب، باعتبار أن هذه هي الصيغة المثلى لفض الاشتباك وإنهاء الخلافات، لذلك دأبت مجلة رسالة الإسلام على نفي هذه الفكرة، والإلحاح على أن هدف التقريب مختلف إلى حد كبير.

في البيان الأول لدار التقريب أثيرت هذه القضية، حين تلقت الجمعية تساؤلات من بعض الحجازيين عن حقيقة مهمتها، وهل تتناول إدماج المذاهب الإسلاميّة بعضها في بعض، كما يردد أهل العلم في الحجاز، واختار البيان أن يرد من خلال اقتباس نصوص من رسالة بعثت بها الجمعية إلى الملك عبد العزيز آل سعود، حين أرادت أن تقدم نفسها وتشرح أهدافها.

ومما ورد في الرسالة :(إن جماعة التقريب لا تريد المساس بالفقه الإسلامي، ولا إدماج مذاهبه بعضها في بعض، بل هي على النقيض من ذلك، ترى في هذا الاختلاف الفقهي مفخرة للمسلمين، لأنه دليل على خصوبة في التفكير، وسعة في الأفق، واستيفاء وحسن تقدير للمصالح التي ما أنزل الله شريعته إلاّ لكفالتها وصونها، وكل ما تبذله الجماعة من جهود في سبيل الفقه الإسلامي إنّما هو في دائرة خدمته وتنميته وتسليط نوره الوهاج على شؤون الحياة الإسلاميّة كلها، وبحث المشكلات التي جدت وتجد و لم يتضح للناس حكم الله فيها.

ومما جاء فيها :(ولن تمد الجماعة يدها إلاّ لأرباب المذاهب الإسلاميّة التي تعتقد العقائد الصحيحة التي يجب الإيمان بها[1])

ومما جاء فيها :(وهي ترى أن بعض المنتسبين إلى المذاهب الإسلاميّة يجعلون لبعض المعارف والآراء التي لا صلة لها بالعقائد الصحيحة أهمية طاغية تدفعهم إلى التخاصم والتقاطع والتنابز بالألقاب ونسيان ما جمع الله عليه القلوب، وألف به بين المسلمين وترى أن أعداء الإسلام والطامعين في استعمار بلاده وإذلال أهله يتخذون من هذه الخلافات أبوابا يلجون منها إلى مقاصدهم الباغية، ويعملون كلّ ما في استطاعتهم على إذكاء نيرانها ليضربوا بعض المسلمين ببعض ثم يضربوهم جميعا)

([1]) وأركان العقائد التي تجمع المسلمين، هي التي ورد في النصوص المقدسة بيانها منحصرة في قوله تعالى :﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾(البقرة: من الآية١٧٧)، وقوله تعالى :﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾(البقرة: من الآية٢٨٥)

وفي قوله ﷺ في حديث جبريل :(أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)(رواه مسلم)

أما ما عداها مما دخل في العقائد، فهو في أحسن أحواله من فروع العقائد لا أصولها، ولا يرتبط بها ضلال ولا كفر، ولا سنة ولا بدعة ..

ومما جاء فيها :(وتؤمن إيمانا عميقا بأن من أهم الواجبات الدينية على كلّ ذي علم ورأي في شعوب المسلمين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم الإسلاميّة، العمل على تبصير المسلمين بدينهم، وقطع أسباب الخلاف والتفرقة بينهم ببيان ما هو عقيدة يجب الإيمان بها، وما هو معارف لا يضر الخلاف فيها، وأن من بين هذه المعارف ما يظن أنّه من العقائد وهو ليس منها)

ومما جاء فيها :(فالغرض من تأليف (جماعة التقريب) هو: أن تكون مركزاً إسلامياً لهذه الفكرة، تتركز فيه جهود جميع المقتنعين بها في أنحاء العامل، شرقية وغربية، وتتجاوب لديه أصواتهم وأبحاثهم وأراؤهم في رفق وحسن تقبل، فيتهيأ لها جو من البحث العلمي الخالص على ضوء القواعد الإسلاميّة الصحيحة، وحينئذ تنجلي أمام المسلمين أسباب الاختلاف فيما وراء العقائد الدينية والأحكام التشريعية فيعالجونها، ويصلون في المسائل والنظريات الخلافية نفسها إلى الرأي الصحيح الذي يهدي إليه المنطق والدليل، فإذا بقي بعد ذلك مالم تجتمع عليه القلوب أو تقطع به البراهين، كان أمره بعد ذلك هينا لا ينبغي أن يفضي إلى التقاطع والتناكر والتقاذف، وإنّما هو الخلاف في الفقه والفروع يعذر العلماء فيه بعضهم بعضا ويتبادلون الاحترام والمودة والتعاون كما هو شأن المؤمنين)

قال المودودي: ومما يؤكد ما ورد في هذه الرسالة ما جسدت به دار التقريب موقفها من المذاهب المختلفة حين طبعت ووزعت في موسم الحج جدولا مفصلا عن أحكام الحج على المذاهب المتعددة: الحنفي، والمالكي، الشافعي، والحنبلي، والإمامي، والزيدي، وقد راج هذه الجدول في البلاد المقدسة رواجا عظيما، ولفت أنظار كثير من المسلمين، إلى أن آراء فقهائهم في فروع عبادتهم ليست من التباعد والخلاف بحيث توجد الخصومة والفرقة والتباغض فيما بينهم.

قال الشعراوي: من المقالات التي استوقفتني في ذلك الحين مقالة للعلامة محمّد الحسين آل كاشف الغطاء تحمل عنوان (بيان إلى المسلمين)، ومما جاء فيها: (من المقطوع به أن ليس المراد من التقريب بين المذاهب الإسلاميّة إلاّ إزالة أصل الخلاف بينها، بل أقصى المراد وجل الغرض هو إزالة أن يكون هذا الخلاف سببا للعداء والبغضاء.. الغرض تبديل التباعد والتضارب بالإخاء والتقارب)

ومن المقالات التي استوقفتني في ذلك الحين مقالة كتبها يراع الشيخ حسنين مخلوف ــ مفتي مصر ــ يقول فيها :(إنني من المؤمنين بفكرة التقريب، العاملين على أن يدرك المسلمون جميعا مزاياها وما تؤدي إليه من جمع كلمتهم وتوحيد أهدافهم .. فالإسلام هو دين الوحدة كما هو دين التوحيد.

وقد حرصت شريعته على أن تقر في الناس أسس التضامن والتكافل الاجتماعي والتعاون على البر والتقوى، وعلى أن تنزع من بينهم أسباب العداءات والضغائن، وما ينزع به الشيطان بينهم ليفشلوا وتذهب ريحهم)

قال إقبال: ومما قرأته في بعض المقالات في ذلك الزمن الجميل ما قاله بعضهم، وهو يعبر عن جميعهم :(من العجب أن نعتبر المسلمين مختلفين، مع أن الخلاف بينهم محصور جدا .. ولا علاقة له بقضايا الدين الأساسية .. فالمسلمون جميعا ــ بمختلف فرقهم ــ يقيمون الصلاة في أوقات خمس مكتوبة، ليست ستة عند

فريق ولا أربعة عند فريق وهم متفقون عليها بأعيانها، ومتفقون على أعداد ركعاتها، وعلى قبلة المصلى فيها، وقد شرعت فيه الجماعات والجمعات والصلوات العامة في المناسبات، كصلوات العيد والاستسقاء والكسوف ونحو ذلك من كلّ ما يراد به إشعار المسلمين بالوحدة والألفة واتفاق المصالح والاستواء أمام ربوبية الله جل وعلا.

وما يسرى على الصلاة يسرى بذات القدر على الشهادتين، وعلى الزكاة والصيام والحج وهذه الأركان التي لا يختلف عليها المسلم تشكل أساسا متينا للتوحيد والوحدة بين أبناء الأمة)

قال الكواكبي: ومن المقالات التي لا أزال أذكرها ما كتبه الشيخ محمّد عبد اللطيف دراز تحت عنوان (الإسلام والأزهر والتقريب)، فقد كتب في هذا المقال داعياً إلى ضرورة (العمل على جمع كلمة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وتصفية الخلافات بينهم بعرضها على كتاب الله وسنة رسوله)، ثم أضاف أنّه : سوف يظهر أنهم في الحقيقة متحدون غير مختلفين فالأصول واحدة والوسائل واحدة وما الخلاف إلاّ في التطبيق، ولعمري إذا جاز اختلاف المسلمين في الفقه والفروع، فكان منهم الحنفي والمالكي والحنبلي والشافعي والزيدي والإمامي، وأزال الله في هذا العصر ما كان بينهم من عداوة وبغضاء، فلم لا يجوز بينهم اختلاف هادئ عف، فيما هو وراء الأصول المتفق عليها من ألوان المعارف الفكرية التي ليست من العقائد)

قال الشعراوي: لقد ذهبت فكرة البحث عن المشترك إلى ما هو أبعد من ذلك، ففي اقتراح نشرته المجلة للشيخ عبد العزيز عيسى، أحد علماء الأزهر، ودعا فيه إلى إنشاء معهد خاص في إطار الأزهر لدراسة المذاهب والأفكار الدينية في كافة الأقطار الإسلاميّة، بحيث (يمكننا في سهولة ويسر أن نعرف أوجه الوفاق والخلاف على صورة محدودة، وأن نصلح ما أفسده الدهر، ونحقق ما زوره التاريخ، وننشر في ربوع كلّ دولة ما عند الأخرى، فيتبادل المسلمون الثقافة الصحيحة ويعرف بعضهم بعضا على حق، وتزول من بينهم الجفوة والقطيعة، ويأخذوا سبيلهم إلى الوحدة والألفة التي لا يصلح أمرهم إلاّ عليها)

قال القمي: من الحسنات التي قامت بها تلك المجلة الرائدة ما كتبته في تصحيح صورة الشيعة الإمامية في الذهن الإسلامي العام، فقد نشرت المجلة مقالات عدة لفتت الأنظار إلى ضرورة التفرقة بين مدارس الاعتدال والغلو في الساحة الشيعية.

وأذكر من ذلك مقالة للعلامة الدكتور محمّد جواد مغنية تحت عنوان (الغلاة في نظر الشيعة الإمامية) .. فهو نموذج طيب لذلك .. ذكر فيها أن علماء الإمامية متفقون على عدم اعتبارهم من الشيعة، بل عدم اعتبارهم من المسلمين أصلا ..

وقد سلط الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء الضوء على بعض خلافات السنة والشيعة، فذكر أن أعظم تلك الخلافات وأهمها هو قضية (الإمامة)، حيث ذكر أن الطائفتين وقعتا منها على طرفي نقيض .. فالشيعة ترى أن الإمامة أصل من أصول الدين، وهي رديفة التوحيد والنبوة وأنها منوطة بالنص من الله ورسوله، وليس للأمة فيها من الرأي والاختيار شيء، كما لا اختيار لهم في النبوة بخلاف أهل السنة، فهم متفقون على عدم كونها من أصول الدين، ومختلفون بين قائل بوجوب نصب الإمام على الرعية بالإجماع ونحوه، وبين قائل

بأنها قضية سياسية ليست من الدين في شيء لا من أصوله ولا من فروعه.

وقد أضاف الشيخ كاشف الغطاء متسائلا: (مع هذا التباعد الشاسع بين الفريقين في هذه القضية، هل تجد الشيعة تقول أن من لا يقول بالإمامة غير مسلم (كلا ومعاذ الله) أو تجد السنة تقول أن القائل بالإمامة خارج عن الإسلام ــ لا وكلا ــ إذن فالقول بالإمامة وعدمه لا علاقة له بالجماعة الإسلاميّة وأحكامها من حرمة دم المسلم وعرضه وماله ووجوب أخوته، وحفظ حرمته وعدم جواز غيبته، إلى كثير من أمثال ذلك من حقوق المسلم على أخيه.

ثم ذهب إلى أبعد في المصارحة، فقال: إن أحد أسباب المشاحنة بين السنة والشيعة، ما يتردد من أن الشيعة ترى جواز المساس بكرامة الخلفاء أو الطعن، وفند تلك المقولة بحج عدة منها: (أولاً: ليس هذا من رأي جميع الشيعة وإنّما هو رأى فردي من بعضهم، وربما لا يوافق عليه الأكثر، كيف وفي أخبار أئمة الشيعة النهي عن ذلك، فلا يصح معاداة الشيعة أجمع لإساءة بعض المتطرفين منهم.

ثانياً: أن هذا على فرضه لا يكون موجبا للكفر والخروج عن الإسلام، بل أقصى ما هناك أن يكون معصية، وما أكثر العصاة في الطائفتين، ومعصية المسلم لا تستوجب قطع رابطة الأخوة الإسلاميّة معه قطعا.

ثالثاً: قد لا يدخل هذا في المعصية أيضاً، ولا يوجب فسقا إذا كان ناشئا عن اجتهاد واعتقاد، وإن كان خطأ، فإن من المتسالم عليه عند الجميع في باب الاجتهاد أن للمخطئ أجرا وللمصيب أجرين، وقد صحح علماء السنة الحروب التي وقعت بين الصحابة في الصدر الأول كحرب الجمل وصفين وغيرهما، بأن طلحة والزبير ومعاوية اجتهدوا وهم وإن أخطئوا في اجتهادهم، ولكن لا يقدح ذلك في عدالتهم وعظيم مكانتهم، وإذا كان الاجتهاد يبرر ولا يستنكر قتل آلاف النفوس من المسلمين وإراقة دمائهم، فبالأولى أن يبرر ولا يستنكر معه ــ أي مع الاجتهاد ــ تجاوز بعض المتطرفين على تلك المقامات المحترمة)

قال الشعراوي: لقد اعتبر الشيخ محمّد المدني تدريس فقه الشيعة في كلية الشريعة بجامعة الأزهر بمثابة (رجة البعث) ــ وكانت هذه الخطوة قد أثارت لغطا في أوساط العلماء ــ فقام الشيخ المدني بتفنيد ما تردد وقال: (إن بعض الناس تساءلوا: كيف تدخلون فقه الشيعة في الأزهر، مع أن هذا المذهب هو مذهب الّذين يعتقدون أن جبريل إنّما بعث بالرسالة إلى علي فأخطأه ونزل بها على محمّد وأن عليا قد حل فيه جزء من الإله)

وقال في الرد على السؤال ما يلي:(إن كلمة (الشيعة) تطلق على عشرات المذاهب التي تنسب إلى الإسلام حقا أو باطلا، وبعض هذه المذاهب ضال منحرف عن الأصول الإسلاميّة، وبعضها مستمسك بما يجب الإيمان به، مثله في ذلك كمثل مذاهب السنة، وإن خالفهم في بعض الفروع الفقهية أو النظريات والمسائل التي هي من قبيل المعارف الكلامية.

والفريق الأول من المتسمين باسم الشيعة وهم الضالون المنحرفون، لا يعدون من أهل الإسلام وإن ادعوه ؛ لأن العبرة في ثبوت الإسلام إنّما هي بالإيمان بأصول العقائد الإسلاميّة، وعدم إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة، وهؤلاء ليسوا كذلك وقد انقرضوا ولم يعدلهم أثر في العالم الإسلامي، ولو فرضنا أن لهم بقية في

كهف من الكهوف أو طرف من الأطراف فليسوا منا ولسنا منهم، وهم كفار خارجون على ملة الإسلام ملعونون من أهل السنة ومن الشيعة.

أما الشيعة الّذين تقرر إدخال فقههم فهم:

١ ـــ الشيعة بالإمامية الاثنا عشرية، وقد لقبوا بالإمامية؛ لأنهم يقولون بأن إمامة علي ثابتة بالنص، ولقبوا باثنا عشرية لأنهم يسوقون الإمامة إلى اثنى عشر إماما، أولهم علي بن أبي طالب، وآخرهم محمّد بن الحسن العسكري الملقب بالحجة، وهم يسكنون إيران والعراق وسوريا ولبنان والباكستان والهند، وغيرهم من البلاد العربية والإسلامية ويؤمنون بأصول الإسلام كلها ولا يستطيع أحد من أهل القبلة أن يحكم بكفرهم، وكل ما بينهم وبين السنة من اختلاف، إنّما هو فيما وراء الأصول التي يجب الإيمان بها لتحقق مفهوم الإسلام، وينسب فقههم إلى أئمتهم من أهل البيت النبوي واشتهر باسم الفقه الجعفري نسبة إلى أحد هؤلاء الأئمة، وهو جعفر الصادق بن محمّد الملقب بالباقر.

وهؤلاء الشيعة الإمامية يلعنون أهل المذاهب المنسوبة إلى الشيعة من الغلاة في شأن علي، ويتبرءون منهم، ويحكمون بكفرهم ونجاستهم.

ولهم كتبهم في العقائد والفقه والأصول وأسرار الشريعة والأخلاق والتصوف، وعلوم اللغة العربية وغيرها، وقد نبغ منهم كثير من الفقهاء، وأهل الحديث والرواية، والأدباء، والأصوليين، والمتكلمين، وغيرهم، ولهم أثر واضح في العلوم الإسلاميّة في مختلف العصور.

٢ ـــ الشيعة الزيدية، وهم يسكنون اليمن غالبا، ومذهبهم منسوب إلى الإمام زيد بن علي زين العابدين، وهو أقرب مذاهب الشيعة إلى مذاهب السنة، ولا ينازع أحد في شأنهم مع كونهم أيضاً ملقبين بلقب الشيعة)

ثم أضاف: (إذن، فلا يستقيم القول بأن الشيعة كلها تقول برسالة علي ألوهيته، أو تغالي في شأنه، فإن هذا القول على إطلاقه خطأ، ويجب التفريق بين الشيعة المهتدين، والشيعة الضالين أو المنحرفين، كما يجب الحذر عند سماع أي نقل عن الشيعة، والتحري عن القائل منهم بذلك حتّى لا يحمل قول ضال على فرقة مهتدية لم تقله)

قال القمي: بورك فيكم جميعا .. والله لقد أثلجتم صدري بهذه الكلمات العذبة التي انطلقت من أفواه أولئك الورثة العظام الذين أخلصوا دينهم لله، فلم يخلطوه بأي عصبية أو هوى.

قال الشعراوي: فما ترى من حل لتعود تلك الأيام الجميلة، ويعود معها الصفاء إلى القلوب .. ويعود معها المسلمون شهداء لا ينشغلون بالشحناء والبغضاء فيما بينهم، بل يلتفتوا إلى تلك البشرية الظمآنة، فيسقوها من هدي الله ما كلفوا بأن يسقوها إياه.

قال القمي: ليس من حل لذلك إلا إحياء سنة النبي ﷺ .. النبي الهادي الذي استطاع أن يؤلف بين القلوب، ليحول منها طاقة عجز العالم جميعا عن مواجهتها.

قال الشعراوي: أجل .. فلا يمكن أن تجتمع القلوب على غير سنة رسول الله ﷺ .. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ

إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) (النساء:٥٩)

قال المودودي: ولكن المتطرفين يزعمون أن السنة بأيديهم وأنهم يحتكرونها احتكارا؟

قال إقبال: سنة رسول الله ﷺ أعظم من أن يحتكرها أحد من الناس .. أبلغوا هؤلاء أن أعظم السنن هي سنة الإصلاح والتوحيد والتآلف .. لقد استطاع رسول الله ﷺ بحكمته أن يجمع بين المتناقضين ليحول منهم لحمة واحدة لها هم واحد، ولها قبلة واحدة.

قال القمي: لدي مشروع يخدم كل ما ذكرنا .. فأرجو أن تبحثوا فيه .. لقد أرسلته إلى جهاز كل واحد منكم، فتأملوه، ولنجتمع بعدها لنرى مدى صلاحيته للتنفيذ.

***

التفت كل واحد منهم إلى جهازه، وراح يبحث عن المشروع الذي ذكره القمي، والذي لم أتشرف بالتعرف عليه ذلك الحين .. ولكني عرفته في المستقبل.

قلت: فما هو .. أنبئني عنه؟

قال: لقد استكتمني من ذكره لي .. وقد نهينا أن نفشي ما أمرنا بكتمانه .. وإن كنت صادقا، فسيقيض الله لك في المستقبل من ينبئك عنه، لتصير جنديا من الجنود الذين نذروا أنفسهم أن يستنوا بسنة الحسن بن علي ــ رضي الله عنهما ــ الذي جعله الله سيدا يجمع الله به بين طوائف المسلمين.

٢ ـــ العدالة

لم يلبثوا إلا قليلا حتى صاح الكواكبي قائلا: بورك فيك يا قمي .. نعم المشروع الذي وضعته .. لقد وجدت في مشروعك الحلقة المفقودة التي كنت أبحث عنها .. والتي لا يكون المسلمون شهداء إلا بتحقيقها.

قال إقبال: نحن نعلم اهتمامك يا عبد الرحمن بالعدالة والاستبداد .. فهل لذلك علاقة بهذا؟

قال الكواكبي: أجل .. بل له علاقة عظمى .. أنتم تعلمون أن الناس لا يدخلون في دين الله أفواجا، وهم يرون ديكتاتوريات المسلمين ومستبديهم .. فالفطرة البشرية تبغض الاستبداد، وتبغض المستبدين، وتبغض دين المستبدين .. فلذلك هم يبغضون الإسلام، لا لكونه دين رب العالمين، ولكن لأن الذي يمثله هم المستبدون الجائرون الذين ورثوا الحكم من غير أن يكونوا أهلا له.

ولذلك .. فأعداء الإسلام الذين يقفون كحصن منيع يحمي المستبدين لا يقصدون من ذلك أن يؤذوا الرعية من المسلمين فقط .. وإنما قصدهم أن يكون ذلك الاستبداد جدارا يقي رعاياهم من الدخول في دين الله أفواجا.

قال القمي: لقد ذكرتني بموقف لعلي ــ رضي الله عنه ــ يدل على ما للعدل من تأثير في دخول الناس في دين الله أفواجا .. لقد حدث الإخباريون أن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ افتقد درعه ــ يوما من الأيام ــ فوجدها عند رجل نصراني ، فاختصمه إلى شريح القاضي ، فقال عليّ مدعيا : الدّرع درعي ، ولم أبع ولم أهب ، وسأل شريح النصراني في ذلك فقال : ما الدّرع إلاّ درعي ، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت القاضي إلى أمير المؤمنين عليّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن النصراني صاحب اليد على الدّرع ، وله ٍبذلك حقٌ ظاهر عليها ، فهل لديك بيّنة على خلاف ذلك تؤيد ما تقول؟ فقال أمير المؤمنين: أصاب شريح ، مالي بيّنة ، وقضى شريحٌ بالدرع للنصراني ، وأخذ النصراني الدّرع وانصرف بضع خطوات ، ثم عاد فقال: أما إني أشهد أن هذه أحكام الأنبياء ، أمير المؤمنين يدنيني إلى قاضيه ، فيقضي لي عليه ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، الدّرع درعك يا أمير المؤمنين ، اتبعت الجيش وأنت منطلق من صفين ، فخرجت من بعيرك الأورق، فقال علي ــ رضي الله عنه ــ : أما وقد أسلمت فهي لك.

انظروا كيف استطاع علي ــ رضي الله عنه ــ وارث رسول الله ﷺ أن يتصرف التصرف المثالي الذي جعل هذا الرجل لا يجد إلا أن يسلم .. لقد اضطره بموقفه هذا إلى الإسلام اضطرارا.

قال المودودي: وذكرني قوله هذا بحدث رواه ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ قال: افتتح رسول الله ﷺ خيبر، واشترط أن له الأرض وكل صفراء وبيضاء ــ يعني الذهب والفضة ــ فقال أهل خيبر: نحن أعلم بالأرض منكم، فأعطناها على أن لكم نصف الثمرة، ولنا نصف، فزعم أنه أعطاهم على ذلك، فلما كان حين يصرم النخل بعث إليهم عبد الله بن رواحة ، فحرز عليهم النخل ــ وهو الذي يسميه أهل المدينة الخرص ــ فقال: في ذِه كذا وكذا، قالوا أكثرت علينا يا ابن رواحة ، فقال: فأنا أَلي ــ أي أتولى ــ حزر النخل

وأعطيكم نصف الذي قلت، قالوا: هذا الحق وبه تقوم السماء والأرض قد رضينا أن نأخذه بالذي قلت[1].

وفي رواية عن سليمان بن يسار ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ كان يبعث عبد الله بن رواحة إلى خيبر، فيخرص بينه وبين يهود خيبر، قال: فجمعوا له حليا من حلي نسائهم، فقالوا له: هذا لك ــ يعني رشوة ــ وخفف عنا وتجاوز في القسم، فقال عبد الله بن رواحة: (يا معشر اليهود! والله إنكم لمن أبغض خلق الله إليّ، وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم، فأما ما عرضتم عليّ من الرشوة فإنها سحت، وإنا لا نأكلها)، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض[2].

انظروا .. كيف استطاع ابن رواحة بموقفه الأمين العادل من استلال هذه الشهادة العظيمة من أولئك اليهود القساة الذين قلما يشهدون بحق؟

قال الشعراوي: ولهذا أمرنا الله تعالى في القرآن الكريم بأن نقوم بالعدالة المطلقة العامة التي لا تستثني أحدا ولا جهة ولا موضوعا .. قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (النساء:١٣٥)

انظروا .. كيف تلح علينا هذه الآية الكريمة في الأمر بالعدل .. مهما كان الذين نعدل معهم .. فلا ينبغي أن يميل بنا الهوى إلى أي جهة من الجهات.

وفي الآية الأخرى يقول الله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٨)

إن هذه الآية الكريمة تنهانا أن نلاحظ أنفسنا وأهواءنا ونحن نتخذ أي موقف .. فالمؤمن هو الذي سلم أمره لله، وعقله لله، وقلبه لله، فهو يتعامل مع عباد الله كما أمر الله.. والله هو الحكم العدل الذي لا تضيع عنده الحقوق ..

قال شكيب: لقد ذكرتني بقوله تعالى :﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (الشورى:١٥)

إن هذه الآية الكريمة ــ كما يذكر المفسرون[3] ــ اشتملت على عشر كلمات مستقلات، كل كلمة منها منفصلة عن التي قبلها، لها حكم برأسه[4] .. وقد تأملت هذه الكلمات، فوجدت جميعا تتحدث عن العدل في صورته المطلقة الكاملة الجميلة، وهي الصورة التي تجعل الناس لا محالة يدخلون في دين الله أفواجا.

أما الكلمة الأولى، فقوله تعالى :﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ﴾ أي: فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به

---

(1) رواه أبو داود واللفظ له وابن ماجه.

(2) رواه مالك.

(3) انظر: ابن كثير: ١٩٥/٧ .

(4) قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي.

جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم[1]، فادعُ الناس إليه .. وفي هذا منتهى العدل، فالنبي ﷺ أمر بأن يحكم الناس بأصول الشرائع التي اتفقت عليها الملل، وهي لا تتفق إلا على ما يتفق مع العدل والفطرة.

أما الكلمة الثانية، فقوله تعالى :﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ أي: استقم أنت يا محمد ومن اتبعك على عبادة الله، كما أمركم الله عز وجل .. وفي هذا منتهى العدل .. فالعادل هو الذي يبدأ بنفسه .. وهو الذي يطبق ما يقتضيه العدل على نفسه قبل أن يطبقه على غيره.

أما الكلمة الثالثة، فقوله تعالى :﴿ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ لأن العادل هو الذي جعل السلطة للقانون لا للهوى .. كما قال تعالى لداود عليه السلام :﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) (ص:٢٦)، فقد أخبر الله في هذه الآية الكريمة أن الهوى لا نتيجة له إلا الإضلال عن سبيل الله.

أما الكلمة الرابعة، فقوله تعالى :﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنزلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ أي: صدقت بجميع الكتب المترلة على الأنبياء، لا نفرق بين أحد منهم .. وفي هذا منتهى العدل في التعامل مع مقدسات الملل والنحل.

أما الكلمة الخامسة، فقوله تعالى :﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أي: أني لن أحكمكم إلا بما يقتضيه العدل ..

أما الكلمة السادسة، فقوله تعالى :﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ .. وهي آية عظيمة في مدلولها المرتبط بالعدل .. فالآية تذكر المؤمنين أن رب العباد ــ كافرهم ومؤمنهم واحد ــ ولذلك لا ينبغي التعامل معهم إلا وفق ما أمر به الله .. والله لم يأمر إلا بالعدل.

أما الكلمة السابعة، فقوله تعالى :﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ أي لكل منا عمله الذي يحاسب عليه، ويسأل عنه .. وكل ذلك عند الله .. وفي هذا منتهى العدل .. فالعادل هو الذي يسلم الأمر لأهله، ولا يتدخل إلا فيما تطلبه العدالة من مواقف.

أو أن هذه الآية مثل قوله تعالى :﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) (يونس:٤١) .. أي أن حالي كحالكم، فأنتم لا ترضون عن عن عملي كما أني لا أرضى عن عملكم .. ولذلك لا ينبغي أن يجور أحد منا على الآخر.

أما الكلمة الثامنة، فقوله تعالى :﴿ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ أي لا خصومة بيننا وبينكم بسبب مواقف بعضنا من بعض .. فالبراءة من العمل لا تعني الإلزام الذي يتنافى مع العدل.

أما الكلمة التاسعة، فقوله تعالى :﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أي: يوم القيامة، وفي هذا توجيه للمؤمنين بتسليم الأمر لعدالة الله .. وكأنها تقول للمؤمنين المستعجلين: رويدكم .. ذروا هؤلاء الذين تبرأتم من أعمالهم لله ..

---

[1] فقد قال الله تعالى في الآيات السابقة لهذه الآية :﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤)﴾ (الشورى)

فالله هو الحكم العدل الذي يحكم بينكم.

أما الكلمة العاشرة، فقوله تعالى :﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي: المرجع والمآب يوم الحساب .. في هذا تذكير بالعدالة المطلقة التي تتجلى في ذلك اليوم العظيم الذي تنصب فيه الموازين فلا تضيع مثقال ذرة .. قال تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء:٤٠)، وقال تعالى :﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الانبياء:٤٧)

قال ديدات: لقد ذكرتني هذه الآية بقوله تعالى :﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴾ (النساء)

انظروا .. هذه الآيات جميعا .. لم تترل في شأن تبرئة مسلم .. ولا في الدفاع عن مسلم .. بل نزلت لتبرئة يهودي .. يهودي كان مع قومه في كل حين يكيد المكايد للمسلمين .. ومع ذلك نزلت تبرئته في القرآن الكريم ..

لقد اتفق المفسرون أن هذه الآية نزلت في طعمة بن أبيرق الذي سرق سلاحا، فشكاه صاحب السلاح إلى رسول الله ﷺ فألقى السارق السلاح المسروق في بيت رجل بريء، ليبرئ نفسه ويحمل البريء إثمه، وعندما وجد السلاح في بيت الرجل البريء ثبتت ــ في الظاهر ــ براءة السارق، فأنزل الله هذه الآيات تبين وجه الحق بغض النظر عمن كان معه الحق[1].

قارنوا هذا الموقف بما يقع في عصرنا من جور وظلم .. فما أكثر ما يرتكب ناس مثل هذه الخطيئة! ويبرئون أنفسهم مما ارتكبوه ويلطخون به البريئين.

انظروا في وسائل الإعلام لتروا العجب العجاب من الاتهامات الكاذبة من فرد لآخر، ومن جماعة أو حزب لجماعة أو حزب آخر، ومن دولة لدولة أخرى، وكثيرا ما يكون المتَّهِم غارقا في العيوب والنقائص التي اتهم بها غيره.

قال الكواكبي: للأسف نجد من المسلمين من يقع في مثل هذا .. وهو مما ينفر من الإسلام.. لقد رأيت

---

(١) وقيل: إن هناك من وضع عنده درعاً على سبيل الوديعة ولم يكن هناك شاهد ، فلما طلبها منه جحدها . وقيل: إن المودع لما طلب الوديعة زعم أن اليهودي سرق الدرع.

صاحب حلة كحلة العلماء يتكلم عن المسيحية كلام جاهل .. فهو لا يفرق بين أسفار الكتاب المقدس، ولا أنبيائه .. ومع ذلك يدعي أنه يريد أن يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه .. وكيف يحكم من لا يعرف القضية، ولا المختلفين فيها.

قال إقبال: إن ما ذكرته يستدعي الدعوة إلى ما يسمى بالعدل في المواقف .. فالموقف مسؤولية كبرى .. يدخلها العدل كما يدخلها الجور .. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك :﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الاسراء:٣٦)، وقال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات:٦)

قال المودودي: إن العدل في الموقف يستدعي أن يقف المسلمون مع جميع القضايا العادلة في العالم سواء كانت ترتبط بالمسلمين أو غير المسلمين .. إن ذلك يجعل أصحاب تلك القضايا ينظرون إلى الإسلام باحترام ورغبة، وهو ما يكون مقدمة لدخولهم في دين الله أفواجا.

لقد قال الله تعالى يذكر ذلك :﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾ (النساء:٧٥)

إن هذه الآية الكريمة تشير إلى أن الإسلام رسالة تحريرية تهدف إلى نصرة المستضعفين وإخراجهم من أسر المستكبرين.

قال إقبال: لقد طبق المسلمون في تاريخهم الحضاري المشرق هذه القيمة من القيم الرفيعة في أجلى صورها .. وكان ذلك هو سبب دخول الناس في دين الله أفواجا ..

هذا ليس كلامي .. ولا حكمي .. بل هو حكم كل من درس التاريخ الإسلام بإنصاف وموضوعية ..

لقد أرسل البطريرك النسطورى الثالث إلى البطريرك (سمعان) زميله فى المجمع بعد ظهور الإسلام رسالة يقول فيها :(إن العرب الذين منحهم الرب سلطة العالم وقيادة الأرض أصبحوا معنا، ومع ذلك نراهم لا يعرضون النصرانية بسوء، فهم يساعدوننا ويشجعوننا على الاحتفاظ بمعتقداتنا، وإنهم ليجلون الرهبان والقسيسين، ويعاونون بالمال الكنائس والأديرة)

ويقول المؤرخ العالمى (هـ. ج. ويلز) فى كتابه (معالم تاريخ الإنسانية):(لقد تم فى ١٢٥ عاماً أن نشر الإسلام لواءه من نهر السند إلى المحيط الأطلسى وإسبانيا، ومن حدود الصين إلى مصر العليا، ولقد ساد الإسلام لأنه كان خير نظام اجتماعى وسياسى استطاعت الأيام تقديمه، وهو قد انتشر لأنه كان يجد فى كل مكان شعوباً بليدة سياسياً: تسلب وتظلم وتخوف، ولا تعلم ولا تنظم، كذلك وجدت حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين أى شعب. فكان الإسلام أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية اتخذت سعة النشاط الفعلى فى العالم حتى ذلك اليوم، وكان يهب بنى الإنسان نظاماً أفضل من أى نظام آخر)

ويقول (أرنولد توينبي) ــ وهو المؤرخ البريطاني الشهير ــ:(لقد كرس محمد حياته لتحقيق رسالته في كفالة هذين المظهرين في البيئة الاجتماعية العربية، وهما: الوحدانية في الفكرة الدينية، والقانون والنظام في

الحكم، وتم ذلك فعلاً بفضل نظام الإسلام الشامل الذي ضم بين ظهرانيه الوحدانية والسلطة التنفيذية معاً، فغدت للإسلام بفضل ذلك قوة دافعة جبارة لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب، ونقلهم من أمة جهالة إلى أمة متحضرة، بل تدفق الإسلام من حدود شبه الجزيرة واستولى على العالم السوري بأسره من سواحل الأطلسي إلى شواطئ الأوراس)

ويقول الدكتور م . ج. دوراني :(وأخيراً أخذت أدرس حياة النبي محمد، فأيقنت أن من أعظم الآثام أن نتنكر لذلك الرجل الرباني الذي أقام مملكة الله بين أقوام كانوا من قبل متحاربين لا يحكمهم قانون، يعبدون الوثن، ويقترفون كل الأفعال المشينة، فغيَّر طرق تفكيرهم، لا بل بدل عاداتهم وأخلاقهم، وجمعهم تحت راية واحدة وقانون واحد ودين واحد وثقافة واحدة وحضارة واحدة وحكومة واحدة، وأصبحت تلك الأمة التي لم تنجب رجلاً عظيماً واحداً يستحق الذكر منذ قرون، أصبحت تحت تأثيره وهديه تنجب ألوفاً من النفوس الكريمة التي انطلقت إلى أقصى أرجاء المعمورة تدعو إلى مبادئ الإسلام وأخلاقه ونظام الحياة الإسلامية، وتعلم الناس أمور الدين الجديد)

ويقول (مونتجومري وات) عميد قسم الدراسات العربية في جامعة أدنبره سابقاً :(يعتبر القرآن قلاقل العصر نتيجة أسباب دينية بالرغم من الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، وأنه لا يمكن تقويمها إلا باستخدام الوسائل الدينية مثل كل شيء، وإنه لمن الجرأة الشك في حكمة القرآن نظراً لنجاح محمد في تبليغ الرسالة)

ويقول العالم (مايكل هارت) الأمريكي الشهير :(إن محمداً كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي ... إن هذا الاتحاد الفريد الذي لا نظير له للتأثير الديني والدنيوي معاً يخوله أن يُعْتَبَر أعظم شخصية ذات تأثير في تاريخ البشرية)

ويقول (إدوارد بروي)، وهو باحث فرنسي معاصر وأستاذ بهذه الجامعة :(عندما قبض النبي العربي عام ٦٣٢م كان قد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة لم تعرف مثلها من قبل)

ويقول (السير لنتجنستادير) :(إن تاريخ الحكم الإسلامي يدحض ظنون بعض الغربيين من أن الإسلام لا يصلح لإقامة دولة تساس فيها الأمور على قواعد المصلحة الاجتماعية وحسن العشرة بين المسلمين وغير المسلمين، وأن مفكري الإسلام في جميع العصور بحثوا قواعد الحكم والعرف من الوجهة الفلسفية، وأخرجوا لأممهم مذاهب في السياسة والولاية تسمو إلى الطبقة العليا)

ويقول (برناردشو) بأسلوبه الساخر :(إنَّ محمداً أصلح العالم وهو جالس يشرب قهوة في المدينة)

وفي الأخير تنبأ (صامويل هنتغتون) ـــ المفكر الأمريكي ـــ في إحدى محاضراته بما ينتظر الإسلام من انتصارات، فقال:(لا آدم سميث ولا توماس جيفرسون سيفيان بالاحتياجات النفسية والعاطفية والأخلاقية للإنسان، ولا المسيح سيفي بها على المدى الطويل، محمد سينتصر)

قال الكواكبي: بوركت يا إقبال في تبشيرنا .. ولكن ذلك لن يتحقق إلا إذا أحيينا قيم العدالة التي جاءنا بها رسول الله ﷺ، فلا يمكن أن ينتصر الإسلام، ونحن منحرفون عنها.

قال الشعراوي: من السهل علينا أن نعيد لهذه القيم الحياة .. فكل ما تركه لنا رسول الله ﷺ في هذا من بشارات مشاعل هداية يسير بها الدعاة الصادقون ليبشروا بهذه الفضيلة، وينشروها .. فما ضاعت قيمة وجدت مبشرا وناشرا.

قال شكيب: حدثنا يا شيخنا عن نبينا .. فلا تحلو المجالس إلا بحديثه.

قال الشعراوي: من البشارات العظيمة التي ربطها رسول الله ﷺ بالعدل قوله :(سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)[1]

انظروا البشارة العظيمة التي يحملها هذا الحديث .. إنه يبشر الإمام العادل بالظل الإلهي في اليوم الذي يحترق فيه الإمام الجائر بنار جوره.

وانظروا كيف قرن رسول الله ﷺ الإمام العادل بأولئك الطيبين الكرام المنشغلين بالله .. فلا يقرن بالكرام إلا كريم.

وفي حديث آخر يحمل بشارة أخرى قال ﷺ :(إن المقسطين عند الله على منابر من نور: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)[2]

انظروا البشارة العظيمة التي يحملها هذا الحديث .. إنها منابر النور .. تلك المنابر التي تهفو لها القلوب، وتحن لذكرها النفوس .. إنها منابر لا كالمنابر .. لقد اعتبر ﷺ في هذا الحديث العدل هو المرقاة التي يرقى بها العبد إلى تلك المنابر النورانية.

وانظروا كيف عمم رسول الله ﷺ العدل وأطلقه .. فالعدل لا يكمل إلا بذلك، ولا يصح إلا بذلك.

وفي حديث آخر قال ﷺ :(خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم!) قال: قلنا يا رسول الله، أفلا ننابذهم؟ قال: (لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، لا، ما أقاموا فيكم الصلاة)[3]

إن هذا الحديث يشير إلى ثورة أهل السلام .. فأهل السلام لا يستعملون ما يعرفه الناس من سلاح يسفك الدماء، وينشر الفتنة، وإنما يستعملون أسلحة أعظم وأخطر، ولكنها مع ذلك لا تسيل دما ولا تثير فتنة.

إنها أسلحة الحب والبغض، وأسلحة الدعاء واللعنات .. وهي أسلحة لا بد أن تؤتي أكلها في يوم من الأيام.

---

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه مسلم.
(3) رواه مسلم.

فالحاكم الجائر الذي لا يجد اليد التي تصفق لجوره أو تبتسم لجوره أو تحييه لجوره أو تدعو له مع جوره .. فإنه لا محالة، وفي ظل هذه المقاطعة النفسية، يجد نفسه مرغما على أن يسير وفق ما تقتضيه العدالة.

ولهذا نبه ﷺ إلى استعمال هذه الأسلحة بدل الأسلحة التي تسفك الدماء، وتثير الفتن، ومع ذلك لا تفعل شيئا.

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ :(أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال)[1]

انظروا كيف جعل رسول الله ﷺ الحاكم العادل أول من ذكرهم من أهل الجنة .. وانظروا كيف قرنه بالرجل الرحيم والرجل العفيف .. وكأنه ﷺ يقول لنا: إن العدالة تنبني على هذين الأساسين: الرحمة والعفاف .. فلا يقف في وجه العدالة، ولا ينحرف بها إلا القسوة والطمع.

وفي حديث آخر قال ﷺ :(ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء)، ويقول الرب:(وعزتي وجلالي لأنصرنك، ولو بعد حين)[2]

انظروا ما يحمله هذه الحديث من معان عظيمة .. لقد ضمن رسول الله ﷺ للإمام العادل استجابة الدعاء .. والدعاء لا يستجاب إلا من قريب.

وانظروا كيف قرنه ﷺ بالصائم .. فالعدل لا يتحقق إلا لمن انتصر على نفسه، وعرف كيف يهذبها.

وانظروا ذلك التحذير الخطير الذي يحمله ربطه ﷺ الإمام العادل بدعوة المظلوم .. وكأنه ينبئ عن علاج يعالج به مرض الجور، وهو التحذير من دعوة المظلوم.

قال الكواكبي: حدثتنا عن الإمام العادل، فحدثنا عن الإمام الجائر .. ذلك الذي يشوه الإسلام، ويقف حجابا بين البشر والدخول في دين الله أفواجا.

قال الشعراوي: لقد ورد في الحديث قوله ﷺ :(إن أشد الناس عذابا يوم القيامة من قتل نبيا أو قتله نبي وإمام جائر)[3]

انظروا كيف قرن رسول الله ﷺ الإمام الجائر بقاتل النبي وبمن قتله النبي .. فالأنبياء ــ عليهم السلام ــ كلهم في منتهى الرحمة، ولا يقتلهم ولا يقتلون إلا من بلغت به القسوة حدها.

وانظروا كيف أخبر ﷺ عن شدة العذاب التي يعانيها الإمام الجائر، وكأن كل العذاب الذي صليت به رعيته يصب عليه دفعة واحدة جزاء وفاقا.

وفي حديث آخر قال ﷺ :(أربعة يبغضهم الله : البياع الحلاف ، والفقير المختال ، والشيخ الزاني ، والإمام الجائر)[4]، وفي رواية :(وملك كذاب ، وعائل مستكبر)[1]

([1]) رواه مسلم.
([2]) رواه الترمذي.
([3]) رواه الطبراني بسند رواته ثقات إلا واحدا منهم فمختلف فيه، وفي الصحيح بعضه عن ابن مسعود، ورواه البزار بإسناد جيد إلا أنه قال :(وإمام ضلالة)
([4]) رواه النسائي وابن حبان في صحيحه.

انظروا العقوبة العظيمة التي نالت الإمام الجائر ومن معه .. وانظروا كيف قرن الإمام الجائر بأصحاب الهمم الدنية من المنحطين المترفعين المخذولين.

وفي حديث آخر، قال ﷺ :(إني أخاف على أمتي من أعمال ثلاثة) ، قالوا: وما هي يا رسول الله ؟ قال : (زلة عالم ، وحكم جائر ، وهوى متبع)[2]

انظروا كيف قرن رسول الله ﷺ بين هؤلاء الثلاثة .. فالحكم الجائر لا يتأسس إلا على الزلات التي يقع فيها العالم الذي لم يتثبت في علمه، والهوى الذي يجعل الحاكم لا يختار من كلام العلماء إلا الزلات.

وفي حديث آخر، قال ﷺ :(اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به)[3]

وفي حديث آخر، قال ﷺ :(ما من أمتي أحد ولي من أمر الناس شيئا لم يحفظهم بما يحفظ به نفسه إلا لم يجد رائحة الجنة)[4]

وفي حديث آخر، قال ﷺ :(ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش رعيته إلا حرم الله تعالى عليه الجنة)[5]، وفي رواية :(فلم يحطها بنصحه لم يرح رائحة الجنة)، وفي أخرى :(ما من أمير يلي أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة)

انظروا هذه الأحاديث، وما تحمله من ترهيب من الجور الذي يتأسس من غش الوالي لم كلف برعايتهم.

وفي حديث آخر رواه ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : كيف أنتم إذا وقع فيكم خمس وأعوذ بالله أن تكون فيكم أو تدركوهم : ما ظهرت الفاحشة في قوم قط يعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، وما بخس قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله تعالى إلا سلط الله عليهم عدوهم فاستنفذوا بعض ما في أيديهم، وما عطلوا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ إلا جعل الله بأسهم بينهم)[6]

قال المودودي ــ مقاطعا ــ انظروا .. إن كل لفظ من هذا الحديث يدل على أمر له علاقة بالعدل الذي أمر به الحكام ..

فسبب انتشار الفواحش، وما يعقبها من عقوبات هو توقف السلطان دون تطبيق نظام العفاف الذي جاء به الإسلام .. فلا يمكن أن يتحقق العفاف من دون ذلك النظام.

وسبب منع الزكاة له علاقة بالسلطان، فالسلطان هو الذي يستعمل كل الوسائل ليأخذ حق الفقراء من

---

(1) الرواية لمسلم.
(2) رواه ابن خزيمة في صحيحه.
(3) رواه مسلم.
(4) رواه الطبراني.
(5) رواه البخاري ومسلم.
(6) رواه البيهقي واللفظ له والحاكم بنحوه وقال: صحيح على شرط مسلم.

أيدي الأغنياء، رضوا أو لم يرضوا.

وسبب البخس في المكيال والميزان له علاقة بالسلطان، فالسلطان العادل هو الذي يهتم بشؤون الرعية، فيوظف من المحتسبين من يمنعون كل أسلوب من أساليب الغش.

وسبب هجر كتاب الله وتعطيل أحكام الله له علاقة بالسلطان، فالسلطان العادل هو الذي يبحث عن قوانين العدالة التي يحكم بها .. ولن يجد في جميع قوانين الدنيا ما هو أعدل من أحكام ربه، ذلك أن الله هو خالق الخلق، وهو الأعلم بمصالحهم.

قال الشعراواي: وفي حديث آخر عن بكير بن وهب قال: قال لي أنس أحدثك حديثا ما أحدثه كل أحد[1] .. إن رسول الله ﷺ قام على باب البيت ونحن فيه ، فقال : الأئمة من قريش[2] إن لي عليكم حقا وإن لهم عليكم حقا مثل ذلك ما إن استرحموا رحموا ، وإن عاهدوا وفوا ، وإن حكموا عدلوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)[3]، وفي رواية :(إن هذا الأمر في قريش ما إذا استرحموا رحموا ، وإذا حكموا عدلوا ، وإذا قسموا أقسطوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا)

انظروا .. العقوبات الخطيرة التي توعد بها رسول الله ﷺ الجائر في أحكامه القاسي على رعيته.

في حديث آخر، قال ﷺ :(لا يقدس الله أمة لا يقضى فيها بالحق ، ويأخذ الضعيف حقه من القوي غير متعتع)[4]

صاح شكيب: ما شاء الله .. لو أن هذا الحديث كان في أمم اليهود والنصارى لجعلوه شعارهم، ولراحوا يفخرون به علينا ..

قال إقبال: انظروا الإشارة العظيمة التي يحملها قوله ﷺ :(لا يقدس) إن التقديس هو التطهير والرفع والترقي .. وكل ذلك يجذب الناس لا محالة إلى دين الله أفواجا.

قال الشعراوي: وفي حديث آخر قال ﷺ :(عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة، قيام ليلها، وصيام نهارها)، وفي المقابل قال :(جور ساعة في حكم أشد وأعظم عند الله عز وجل من معاصي ستين سنة)[5]، وفي رواية :(يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة، وحد يقام في الأرض بحقه أزكى فيها من مطر أربعين صباحا)[6]

انظروا هذه الأجور العظيمة التي بشر بها رسول الله الحاكم العادل .. لقد اعتبره ــ بقيامه بما يتطلبه العدل من مواقف ــ عابدا خاشعا يؤدي ما أمر به من شعائر العبادة.

---

(1) قال له ذلك في زمن بني أمية من باب التقية.

(2) ليس المراد بذلك حصر الإمامة في قريش، وذلك لأدلة كثيرة لا يمكن ذكرها هنا.

(3) رواه أحمد بإسناد جيد واللفظ له وأبو يعلى والطبراني.

(4) رواه الطبراني بإسناد جيد.

(5) رواه الأصبهاني، وفي رواية :(عدل يوم واحد أفضل من عبادة ستين سنة)

(6) رواها الطبراني بإسناد حسن بلفظ.

وفي حديث آخر، قال ﷺ :(أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر)[1]

انظروا هذه البشاره التي يحملها هذا الحديث .. إن أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ هو الإمام العادل .. ذلك أن الأجناس يوم القيامة تضم إلى أجناسها، ورسول الله ﷺ هو سيد العادلين ولن يليق لصحبته إلا العادلون.

وفي حديث آخر، قال ﷺ :(أفضل الناس عند الله مترلة يوم القيامة إمام عادل رفيق، وشر عباد الله عند الله مترلة يوم القيامة إمام جائر خرق)[2]

انظروا كرامة الإمام العادل عند الله ..

قال إقبال ــ مقاطعا ــ: وانظر كيف قرن رسول الله ﷺ بين العدل والرفق، كما قرن بين الجور والخرق .. فالأخرق الأحمق لا يزيد طين رعيته إلا بلة، ولن يصدر منه إلا ما يؤذيه ويؤذي رعيته ..

لقد عنون ابن خلدون فصلا من فصول مقدمته بقوله: (الفصل الثالث والأربعون في أن الظلم مؤذن بخراب العمران) قال فيه :(اعلم أن العمران على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها. وإن كان الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته. والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين. فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران، وانتقضت الأحوال، فخف ساكن القطر، وخلت دياره، وخربت أمصارة، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان، لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة)

ثم ذكر حكاية عن بعض حكام الفرس إن سمحتم حكيتها لكم كما نقلها ابن خلدون عن المسعودي.

قال ديدات: الحكمة ضالة المؤمن .. أين وجدها، فهو أحق بها .. فحدثنا.

قال إقبال: لقد حكى المسعودي في أخبار الفرس عن الموبذان ــ صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام، وما عرض به للملك في إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة، بضرب المثال في ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها، فقال له: إن بوماً ذكراً يروم نكاح بوم أنثى، وإنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام فقبل شرطها، وقال لها: إن دامت أيام الملك أقطعتك ألف قرية، وهذا أسهل مراما.

فتنبه الملك من غفلته، وخلا بالموبذان سأله عن مراده، فقال له: أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا

([1]) رواه الطبراني وقال حسن غريب.
([2]) رواه الطبراني بسند فيه ابن لهيعة وحديثه حسن في المتابعات.

بالشريعة، والقيام لله بطاعته، والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشريعة إلا بالملك، ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة، نصبة الرب وجعل له قيماً، وهو الملك، وأنت أيها الملك عمدت إلي الضياع فانتزعتها من أربابها وعمارها، وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال، وأقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة، فتركوا العمارة، والنظر في العواقب وما يصلح الضياع، وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك، ووقع الحيف على من بقي من أرباب الخراج وعمار الضياع، فانجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم، وآووا إلى ما تعذر من الضياع فسكنوها، فقلت العمارة، وخربت الضياع وقلت الأموال وهلكت الجنود والرعية، وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع القواد التي لا تستقيم دعائم الملك إلا بها.

فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه، وانتزعت الضياع من أيدي الخاصة، وردت على أربابها، وحملوا على رسومهم السالفة، وأخذوا في العمارة وقوي من ضعف منهم، فعمرت الأرض وأخصبت البلاد وكثرت الأموال عند جباة الخراج، وقويت الجنود وقطعت مواد الأعداء وشحنت الثغور، وأقبل الملأ على مباشرة أموره بنفسه، فحسنت أيامه وانتظم ملكه.

انظروا .. إن هذه الحكاية تؤكد كل ما أخبر به ﷺ من العواقب الوخيمة الناتجة عن الجور.

قال الكواكبي: عد بنا ــ يا شعراوي ــ إلى أحاديث المصطفى ﷺ ننهل منها قيم العدالة الإنسانية، فلا تعرف العدالة إلا من فم سيد العادلين.

قال الشعرواي: ومن الأحاديث التي تمتلئ بالرهبة من الظلم والجور قوله ﷺ :(يؤتى بالقاضي يوم القيامة، فيوقف للحساب على شفير جهنم، فإن أمر به دفع فهوى فيها سبعين خريفا)[1]

وقال ﷺ :(لا يلي أحد من أمر الناس شيئا إلا وقفه الله تعالى على جسر جهنم، فيزلزل به الجسر زلزلة فناج أو غير ناج، فلا يبقى منه عظم إلا فارق صاحبه، فإن هو لم ينج ذهب به في جب مظلم كالقبر في جهنم يبلغ قعره سبعين خريفا)[2]

وقال ﷺ :(إن في جهنم واديا وفي الوادي بئر يقال له هبهب حقا على الله أن يسكنه كل جبار عنيد)[3]

وقال ﷺ :(من ولي أمة من أمتي قلت أو كثرت فلم يعدل فيهم كبه الله تعالى على وجهه في النار)[4]

وقال ﷺ :(ما من أحد يكون على شيء من أمور هذه الأمة فلا يعدل فيهم إلا كبه الله في النار)[5]

وقال ﷺ :(ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا لا يفكه إلا العدل)[6]

---

(1) رواه ابن ماجه والبزار واللفظ له.

(2) رواه ابن أبي الدنيا وغيره عن أبي هريرة.

(3) رواه الطبراني بسند حسن وأبو يعلى والحاكم وصححه.

(4) رواه الطبراني.

(5) رواه الحاكم وصححه.

(6) رواه وأحمد بسند جيد ورجاله رجال الصحيح، وفي رواية صحيحة له أيضا :(ما من أمير عشرة إلا يؤتى يوم القيامة مغلولا لا يفكه من ذلك الغل إلا العدل)، وفي أخرى صحيحة أيضا :(ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا حتى يفكه العدل أو يوثقه الجور)، وفي رواية للطبراني :(وإن كان مسيئا زيد غلا إلى غله)

وقال ﷺ :(ما من والي ثلاثة إلا لقي الله مغلولة يمينه فكه عدله أو غله جوره)[1]

وقال ﷺ :(عرض علي أول ثلاثة يدخلون النار : أمير مسلط ، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله فيه ، وفقير فخور)[2]

قال القمي: وعينا هذه الأحاديث، وما يحدثه نشرها والتبشير بها من آثار كبيرة في ترسيخ قيم العدل التي نادى بها الإسلام .. فحدثنا عن المظلومية .. حدثنا عن الذين يقفون مع المستكبرين في وجه المستضعفين .. حدثنا عن علماء السلاطين الذين يفتون لهم بعلم وبغير علم.. حدثنا عن الذين يصورون الإسلام دينا يقف مع المستبدين، أودينا يعطي جرعات من المخدرات للمستضعفين ليتمكن من رقابهم المستكبرون.

قال الشعراوي: لو حدثتك بكل ما ورد في ذلك سننشغل عما نحن فيه .. فأنتم تعلمون أن الوظيفة الكبرى للإسلام هي التحرير .. ومن التحرير الذي جاء به الإسلام تحرير المستضعفين من جور المستكبرين والمستبدين ..

سكت قليلا، ثم قال: اسمعوا هذه الأحاديث وألقوها في وجوه من يعبدون المستبدين من دون الله ويزينون لهم ما يفعلون، ويشوهون الإسلام بذلك التزيين .. قال ﷺ :(ما من مسلم يخذل امرأ مسلما في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته ، وما من امرئ مسلم ينصر امرأ مسلما في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته)[3]

وقال ﷺ :(أمر بعبد من عباد الله تعالى يضرب في قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل الله ويدعو حتى صارت جلدة واحدة فامتلأ قبره عليه نارا فلما ارتفع عنه وأفاق قال : علام جلدتموني ؟ قالوا: إنك صليت صلاة بغير طهور، ومررت على مظلوم فلم تنصره)[4]

وقال ﷺ :(قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله وآجله، ولأنتقمن ممن رأى مظلوما فقدر أن ينصره و لم يفعل)[5]

وقال ﷺ :(انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، فقال رجل يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوما أفرأيت إن كان ظالما كيف أنصره ؟ قال تحجزه أو تمنعه عن الظلم فإن ذلك نصره)[6]

قال الكواكبي: فحدثنا عن شمول معنى العدل في الإسلام.

قال الشعراوي: لقد اعتبر علماء الأخلاق المسلمين العدل من الأركان الأربعة الكبرى التي تتأسس عليها الأخلاق .. وقد أشار القرآن الكريم في الآية التي تحوي أصول الأخلاق إلى هذا، بل اعتبر العدل أول الأصول، فقال :﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ

---

(1) رواه ابن حبان في صحيحه.
(2) رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما.
(3) رواه أبو داود.
(4) رواه أبو الشيخ وابن حبان.
(5) رواه أبو الشيخ.
(6) رواه البخاري والترمذي.

تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٩٠)

ولهذا، فإن العدل في الإسلام ـــ على حسب ما تدل النصوص المقدسة ـــ يبدأ من العدل مع النفس، ويمتد إلى كل علاقات الإنسان ..

فقد أمر من له عدة زوجات أن يعدل بينهن في كل شيء غير مبال بما يهواه قلبه منهن، قال تعالى :﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا) (النساء:٣)، وفي الحديث قال ﷺ من كانت عنده امرأتان، فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة، وشقه ساقط)[1]

قال الكواكبي: إن هذا يدعو المسلمين إلى تبني جميع ما تطلبه النساء من حقوق .. فمن العار أن نجد من يتولى مثل هذا نساء ورجال لا علاقة لهم بالإسلام، ثم يجدون من فقهاء المسلمين المتزمتين من يمدهم بما يحاربون به الدين، ويمنعون أكثر النساء من الدخول في دين الله أفواجا.

قال القمي: فأرسلوا إلى سحنون .. وجميع المفتين من ورثة النبي ﷺ أن لا يفتوا إلا بما تقتضيه العدالة فـــ (الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن دخلت فيها بالتأويل)[2]

قال الشعراوي: ومن العدل الذي ورد الحض عليه في النصوص العدل بين الأولاد، وقد روي في هذا عن النعمان بن بشير ـــ رضي الله عنه ـــ أنه قال: نحلني أبي نَحْلا، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشْهد رسول الله ﷺ ، فجاءه ليشهده على صدقتي، فقال: (أكل ولدك نحلت مثله؟) قال: لا. قال: (اتقوا الله، واعدلوا في أولادكم)، وقال :(إني لا أشهد على جَوْر) قال: فرجع أبي، فرد تلك الصدقة[3].

قال الكواكبي: إن هذا يدعو المسلمين إلى تبني جميع ما يطلبه الأطفال وغيرهم من المستضعفين من حقوق .. فمن العار أن نجد من يتولى مثل هذا من لا علاقة لهم بالإسلام، ثم يجدون من فقهاء المسلمين المتزمتين من يمدهم بما يحاربون به الدين، ويمنعون هؤلاء الطبقات من الدخول في دين الله أفواجا.

قال القمي: فاكتبوا إلى سحنون وجميع مفتي الأمصار الإسلامية، بأن لا يفتوا إلا بما تقتضيه العدالة التي جاء بها القرآن الكريم وبشر بها رسول الله ﷺ ..

قال الشعراوي: وقد ورد في النصوص الأمر بالعدالة بين الأقارب .. ولهذا ـــ كان من حكمة الله ـــ أن تولى قسمة المواريث بنفسه حتى لا يقع فيها أي جور أو ظلم.

---

(1) رواه الترمذي وتكلم فيه والحاكم، وقال صحيح على شرطهما، ورواه أبو داود، ولفظه : (من كانت له امرأتان فمال إلى إحدهما جاء يوم القيامة وشقه مائل)، والنسائي ولفظه :(من كانت له امرأتان يميل لإحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة أحد شقيه مائل)، ورواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه بنحو رواية النسائي هذه إلا أهما قالا :(جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط)

(2) أعلام الموقعين (٣ / ٣)

(3) رواه البخاري ومسلم.

***

بقيت هذه الثلة الطيبة من الورثة تستعرض أحكام الشرع وعلاقتها بالعدل، ثم تقرر القرارات المختلفة بناء على ذلك .. وأنا أتعجب كل حين يذكر فيه سحنون أو غيره ممن كنت لاقيتهم.

و لم أعلم سر ذلك إلى أن أعلمني صاحبي إلى أن لجميع من مررت بهم من الهداة لهم علاقة بهذه الغرفة .. فهذه الغرفة هي غرفة العمليات التي تصدر منها جميع القرارات والأحكام الموروثة عن النبي الهادي.

٣ ـــ القوة

بعد أن انتهى مهندسو الشهادة من الحديث عن العدل، وكيفية تحقيقه في الواقع الإسلامي، ليدخل الناس في دين الله أفواجا، نهض محمد إقبال، وقال: سأبث لكم الآن مشروع الشهادة الذي وصلت إليه بعد جهد جهيد، وبحث مستفيض، ومعاناة طويلة.

لقد رأيت أن سر إعراض الناس عن الإسلام هو ما عليه المسلمون من ضعف .. فالبشر تبع للقوي .. لا يدينون بغير دينه، ولا يحتمون بغير حماه.

نعم .. العقلاء من الناس، وأصحاب الهمم العالية منهم لا تؤثر فيهم قوة ولا ضعف.. ولكن عموم الناس لا يؤثر فيهم إلا القوي العزيز.

ألا ترون كيف لم يتبع رسول الله ﷺ في بدء الرسالة إلا السابقون الأولون من أصحاب الهمم العالية .. ولكنه بعد ما فتح الله على المسلمين مفاتيح القوة والتمكين دخل الناس في دين الله أفواجا؟

لقد ذكر القرآن ذلك، فقال :﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾ (النصر)

ولذلك كانت القوة ركنا من أركان الشهادة .. فلا يمكن للأمة الضعيفة التي لا تستطيع أن تنقذ نفسها أن تقوم بإنقاذ غيرها.

قال القمي: ذلك مما لا شك فيه .. فلا يمكن للمستضعف أن ينصر مستضعفا، أو يقف في وجه مستكبر .. لابد من القوة .. القوة بجميع معانيها، وبجميع وجوهها.

قال الشعراوي: بورك فيك يا قمي .. إن القوة بجميع وجوهها لم تكتمل في دين كما اكتملت في الإسلام، ولم تكتمل في هدي نبي كما اكتملت في هدي نبينا ﷺ ..

إن الإسلام بجميع شرائعه منظومة متكاملة للقوة .. القوة بجميع مجالاتها، وبجميع وجوهها: قوة الفرد، وقوة المجتمع، وقوة الأمة.

قال المودودي: فلنتحدث عن هذه القوى الثلاث، وكيف نعيد إحياءها في الأمة، لنعيد لها وصف الشهادة الذي وصفها الله به.

الفرد:

قال إقبال: أنتم تعلمون أن الإسلام يؤسس دولته على الأفراد .. بل على نفوس الأفراد .. فكل فرد في الإسلام كيان قائم بذاته، له حرمته، وله سلطته، فلا يحتاج إلى أي جماعة أو حزب حتى يثبت وجوده .. بل هو بذاته حزب يمكنه أن يواجه من يشاء، وينصح من يشاء، ويعارض من يشاء.

لقد قال رسول الله ﷺ يذكر ذلك :(المسلمون تتكافا دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ويجير عليهم اقصاهم وهم يد على من سواهم يرد مشدهم على مضعفهم ومسرعهم على قاعدهم)[1]

([1]) رواه أبو داود وابن ماجة.

وقال في الحديث الآخر الذي يحمل الأمة جميعا بجميع أفرادها مسؤولية النصح والتقويم :(إن الدين النصيحة ، إن الدين النصيحة ، إن الدين النصيحة) قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال: (لله، ولكتابه ، ولرسوله ، ولائمة المسلمين وعامتهم)[1]

قال القمي: وهذا يحوج إلى المسلم القوي، فلا يمكن أن يؤدي النصيحة بتمامها وكمالها إلا من اكتملت له جميع أسباب القوة .. فهو قوي بنفسه، قوي ببدنه، قوي بهمته، قوي بعزيمته ..

قال الشعراوي: لقد جمع النبي ﷺ كل ذلك، فقال في دعائه لربه:(اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال)

انظروا .. ألا ترون في هذا الدعاء كيف أن النبي ﷺ قد استعاذ بالله من كل مظهر من مظاهر الضعف: ضعف الإرادة بالهم والحزن، وضعف الإنتاج بالعجز والكسل، وضعف الجيب والمال بالجبن والبخل، وضعف العزة والكرامة بالدين والقهر؟

قال شكيب: بل إن النبي ﷺ صرح بذلك بقوله :(المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خيرٌ. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان)[2]

انظروا .. إن هذا الحديث يدلنا على جميع أركان القوة التي يتأسس عليها بنيان المؤمن:

لقد بدأ رسول الله ﷺ ببيان خيرية المؤمن القوي، وهي خيرية مطلقة من كل قيد، تجعل كل مؤمن يبحث عن كل أسباب القوة لتتجلى فيه الخيرية بكمالها وشمولها.

ثم أمر ﷺ بالحرص على ما ينفع، وذلك لأن القوة قد تستغل فيما لا ينفع، فتكون على وبالا على ما ينفعها .. فلا يكفي أن تكون لدينا قوة، بل يجب أن نعرف أي نضعها، وكيف نستثمرها، وإلى من نوجهها.

لقد رأيت بعض الشباب في فترة من الزمن يتدربون على جميع أنواع القوى، فقرت عيني بذلك، وقلت في نفسي: هؤلاء هم ورثة محمد ﷺ ، وبهؤلاء سوف يقوم دينه، وسوف يدخل الناس في دين الله أفواجا .. لكني ما لبثت حتى رأيتهم يحملون بقواهم على إخوانهم من المسلمين، فعرفت أن القوة التي لا توجه التوجيه النافع لن تزيد صاحبها إلا ضعفا.

ثم أمر ﷺ بالاستعانة بالله .. ذلك أن الله هو القوي .. ومن استعان به أمده بالقوة التي تنهد لها الجبال.

وذلك يدل على وجوب الاهتمام بالقوة الروحية للجيل القوي الذي نريد تأسيسه، فقوة الإيمان هي القوة الوحيدة التي لا يمكن لأحد في الدنيا قهرها.

ثم نهانا النبي ﷺ أن نتألم لما مضى .. وهذا يدل على أن القوي هو الذي يفكر في كيفية صناعة مستقبله لا الذي يكون طريحا لماضيه .. لقد قال الله تعالى يذكر هذه المعيقات الخطيرة التي تقف في وجه القوة :﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد:٢٣)

([1]) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي.
([2]) رواه مسلم.

قال المودودي: لقد مثل النبي ﷺ بسلوكه وفي حياته جميع القوى التي تملأ الفرد المسلم بالإيجابية .. فلذلك لن يصعب علينا بث مثل هذه الأفكار للجيل القوي الذي نريد تأسيسه .. فمن السهل أن نذكر لهم أن القوة بجميع معانيها هي سنة النبي ﷺ .. لنجدهم جميعا بجميع ما أوتوا من الطاقات يسرعون إليها ويهرولون.

قال الشعراوي: نعم .. لقد جمع الله أنواع القوة في رسول الله ﷺ، فلذلك كان السابق في كل شيء:

ففي الصلاة وعبادة الله، كان ﷺ هو النموذج الأكمل للعابد الذي لا يفتر ولا يمل، فعن الحجاج بن عمرو المازني ــ رضي الله عنه ــ قال: (أيحسب أحدكم إذا قام من الليل يصلي حتى يصبح أنه قد تهجد، إنما التهجد المرء يصلي بعد رقدة، ثم الصلاة بعد رقدة، وتلك كانت صلاة رسول الله ﷺ)[1]

وعن عوف بن مالك ــ رضي الله عنه ــ قال: قمت مع رسول الله ﷺ فلما ركع قدر سورة البقرة يقول في ركوعه: (سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة)[2]

وعنه قال: قمت مع رسول الله – ﷺ – ذات ليلة فقام فصلى فقرأ سورة (البقرة) لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ، ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه: (سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة)، ثم سجد بقدر قيامه ثم قال في سجوده مثل ذلك ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة سورة)[3]

وعن رجل من بني غفار صحب رسول الله ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة، فلما وصلنا نزلنا منزلا، فقلت: لأرقبن صلاة رسول الله ﷺ حتى أرى فعله، واضطجع رسول الله ﷺ هويا من الليل، واضطجعت قريبا منه ثم سمعته بعدها تنفس تنفس النائم ثم استيقظ، ثم نظر إلى أفق السماء ثم قرأ هذه الآيات :﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (آل عمران:١٩٠) الآيات التي في آل عمران ختمها[4] ثم أهوى رسول الله ﷺ إلى فراشه، فاستل منه سواكا، فاستن به، ثم قام، فاستكب ماء من قربة في قدح له، ثم توضأ فأسبغ وضوءه، ثم قام فصلى أربع ركعات، لا أدري ركوعهن أطول أم قيامهن أم سجودهن، حتى قلت: قد صلى قدر ما نام، ثم انصرف فنام، ثم استيقظ فقرأ بالآيات التي كان قرأ بها، ثم استن فتوضأ وصلى أربع ركعات، ثم غلب علينا النعاس حتى السحر[5].

وعن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، أن رجلا قال: لأرمقن صلاة رسول الله ﷺ قال: فصلى العشاء، ثم اضطجع غير كثير قام ففرغ من حاجته، ثم أتى مؤخرة الرحل، فأخذ منها السواك فاستن وتوضأ، فوالذي نفسي بيده ما ركع حتى ما أدري ما مضى من الليل أكثر أم ما بقي وحتى أدركني النوم، أمثال الجبال[6].

وعن حذيفة ــ رضي الله عنه ــ قال: قام النبي ﷺ ليلة وهو يصلي في المسجد، فقمت أصلي وراءه يخيل

([1])رواه الطبراني بسند صحيح.
([2]) رواه النسائي.
([3])رواه أبو داود، والنسائي.
([4]) وفي رواية حتى انتهى إلى قوله تعالى :﴿ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)(آل عمران: من الآية١٩٤)
([5]) رواه النسائي وبقي بن مخلد.
([6])رواه الترمذي.

إلي أنه لا يعلم، فاستفتح بسورة البقرة، فقلت: إذا جاء مائة آية ركع، فجاءها فلم يركع، فقلت: إذا جاء مائتي آية ركع فجاءها فلم يركع، فقلت: إذا ختمها ركع فختمها فلم يركع فلما ختم، قال: (اللهم لك الحمد)، ثم استفتح آل عمران فقلت: إذا ختمها ركع فختمها ولم يركع وقال: (اللهم لك الحمد)، ثم استفتح النساء، فقلت: إذا ختمها ركع، فختمها فلم يركع وقال: (اللهم لك الحمد) ثلاثا ثم استفتح بسورة المائدة، فقلت: إذا ختمها ركع، فختمها فركع فسمعته يقول: (سبحان ربي العظيم)، ويرجع شفتيه فأعلم أنه يقول غير ذلك، فلا أفهم غيره، ثم استفتح بسورة الأنعام، فتركته وذهبت[1].

وعنه قال: أتيت رسول الله ﷺ ذات ليلة لأصلي بصلاته، فاستفتح الصلاة فقرأ قراءة ليست بالرفيعة ولا الخفيفة، قراءة حسنة يرتل فيها يسمعنا، قال: ثم ركع نحوا من سورة قال ثم رفع رأسه فقال: (سمع الله لمن حمده ذو الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة)، ثم قام نحوا من سورة، وسجد نحوا من ذلك حتى فرغ من الطول وعليه سواد من الليل[2].

وعنه قال: لقد لقيت رسول الله ﷺ بعد العتمة، فقلت: يا رسول الله ائذن لي أن أتعبد بعبادتك فذهب وذهبت معه إلى البئر، فأخذت ثوبه فسترت عليه، ووليته ظهري، ثم أخذ ثوبي فستر علي حتى اغتسلت، ثم أتى المسجد فاستقبل القبلة، وأقامني عن يمينه، ثم قرأ الفاتحة، ثم استفتح سورة البقرة، ولا يمر بآية رحمة إلا سأل الله، ولا آية تخويف إلا استعاذ، ولا مثل إلا فكر حتى ختمها ثم كبر، فرفع، فسمعته يقول في ركوعه: (سبحان ربي العظيم) ويرد فيه شفتيه حتى أظن أنه يقول: (وبحمده)، فمكث في ركوعه قريبا من قيامه، ثم رفع رأسه ثم كبر فسجد فسمعته يقول في سجوده: (سبحان ربي الأعلى) ويرد شفتيه، فأظن أنه يقول: (وبحمده)، فمكث في سجوده قريبا من قيامه، ثم نهض حين فرغ من سجدته فقرأ فاتحة الكتاب، ثم استفتح (آل عمران) لا يمر بآية رحمة إلا سأل ولا مثل إلا فكر، حتى ختمها، ثم فعل في الركوع والسجود كفعل الأول، ثم سمعت النداء بالفجر، قال حذيفة فما تعبدت عبادة كانت علي أشد منها[3].

إن هذه النصوص التي ذكرتها لكم بطولها[4] لم أذكر لها لأبين أن النبي ﷺ كان العابد الذي بز العباد بعبادته .. ولكني ذكرتها لنتبين أن النبي ﷺ كان صاحب قوة روحية عالية، لأنه لا يمكن أن تتأسس جميع القوى من دون تلك القوة الروحية العالية.

قال المودودي: وهكذا كان رسول الله ﷺ في جميع أنواع القوة الأخرى، ففي قوة السيطرة على دوافع الحرص التي تمتلئ بها نفس الإنسان كان النبي ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وكان يقول :(لو عندي مثل أحد ذهبا ما سرني أن يأتي علي ثلاث ليال، وعندي منه شئ إلا شيئا أرصده لدين)[5]

وقد كان أصحابه والمقربون إليه يعرفون هذه الصفة فيه، ويصفونه بها، فعن علي ــ رضي الله عنه ــ أنه

---

(١) رواه عبد الرزاق.
(٢) رواه ابن أبي شيبة.
(٣) رواه الحارث بن أسامة.
(٤) انظر المزيد منها في رسالة (النبي الإنسان) ، فصل (العابد) من هذه السلسلة.
(٥) رواه البيهقي، وابن عساكر.

كان إذا نعت رسول الله ﷺ قال: كان أجود الناس كفا[1] .. وعن أنس ـــ رضي الله عنه ـــ قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس[2] .

وكان من الصفات التي عرفه من خلالها الكل هو أنه كان أبعد الناس عن رد أي سائل يسأله، مؤتمرا في ذلك بما أمره الله تعالى به، قال تعالى:﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾ (الضحى:١٠)

وكان من الصفات التي عرف بها .. عرفه بها جميع الناس .. أنه لا يسأل شيئا إلا أعطاه.

قال أنس ـــ رضي الله عنه ـــ: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئا إلا أعطاه[3].

وقد ذكر نموذجا لذلك، فقال: فسأله رجل غنما بين جبلين فأعطاه إياها، فأتى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فوالله إن محمدا ليعطي عطاء من لا يخاف الفقر[4].

قال أنس: وإن كان الرجل ليجيئ إلى رسول الله ﷺ وما يريد بذلك إلا الدنيا، فما يمسي حتى يكون دينه أحب إليه من الدنيا وما بينها[5] .

وعن علي ـــ رضي الله عنه ـــ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سئل عن شئ، فأراد أن يفعله قال: (نعم) وإن أراد ألا يفعله سكت، وكان لا يقول لشئ لا[6] .

قال ديدات: لقد ذكرتموني بحديث لأنس ـــ رضي الله عنه ـــ قال فيه: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قبل الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول: (لم ترعوا لم ترعوا) وهو على فرس لأبي طلحة عرى، ما عليه سرج، في عنقه سيف، فقال: (لقد وجدته بحرا) أو (إنه لبحر)[7]

وكان رسول الله ﷺ يتقدم أصحابه في الجهاد في سبيل الله، ففي غزوة حنين ثبت رسول الله ﷺ حين انهزم الكثير ممن معه، فعن البراء بن عازب ـــ رضي الله عنه ـــ أن رجلا قال له: يا أبا عمارة، أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قوماً رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبا سفيان بن الحارث آخذ في لجام بغلته البيضاء، وهو يقول: (أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب)[8]

---

(١) رواه ابن أبي خيثمة.
(٢) رواه ابن أبي شيبة.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه مسلم.
(٦) رواه الخرائطي، والطبراني، و المراد من عدم قوله :(لا) ما يفهم منها عدم الإعطاء مع القدرة عليه، أما إذا كانت من باب الاعتذار، فلا حرج في ذلك، وقد قالها ﷺ، ففي القرآن الكريم حكاية عن النبي ﷺ :﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (التوبة:٩٢)، وهو نظير ما في حديث أبي موسى الأشعري ـــ رضي الله عنه ـــ لما سأله الأشعريون الحملان فقال ﷺ: (ما عندي ما أحملكم)
(٧) رواه البخاري ومسلم.
(٨) رواه البخاري ومسلم.

لقد قرأت لابن كثير .. المفسر والمؤرخ المعروف .. وهو يعلق على هذا الحديث :(هذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم في حَومة الوَغَى، وقد انكشف عنه جيشه، هو مع ذلك على بغلة وليست سريعة الجري، ولا تصلح لكرٍّ ولا لفرٍّ ولا لهرب، وهو مع هذا أيضًا يركضها إلى وجوههم وينوِّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكلا عليه، وعلمًا منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان)[1]

قال القمي: ما أحسن ما ذكرته من حديث أنس ــ رضي الله عنه ــ الذي قال فيه: (كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس) .. فلا يمكن أن يستعيد الإسلام مجده حتى يستن المسلمون بهذه السنة العظيمة: أن يكونوا أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس.

المجتمع:

قال إقبال: عرفنا قوة الفرد .. فما قوة المجتمع؟ .. وكيف نحققها؟

قال المودودي: إذا اعتبرنا الأفراد هم لبنات المجتمع .. فلا شك أن المجتمع هو ذلك البناء الذي يتكون من لبنات الأفراد .. ولا يكفي في البناء أن تكون لبناته قوية، بل يجب أن يكون التماسك بينها قويا، وإلا أدى ذلك إلى خرابها، وسقوطها بأوهى الأسباب.

قال الشعراوي: لقد ذكرتني بقوله تعالى :﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:٤١)

لقد جادلني مرة في هذه الآية بعضهم، فقال: (إن العلم الحديث قد أثبت أن بيت العنكبوت منسوج من أقوى الخيوط، التي تستطيع مقاومة الرياح العاتية، ويمسك في نسجه فرائس العنكبوت، من الحشرات، التي هي أكبر من العنكبوت دون أن يتخرَّق، وخيوطه دقيقة جدًا، يبلغ سمك الخيط الواحد منها في المتوسط واحدًا من المليون من البوصة المربعة، أو جزءًا من أربعة آلاف جزء من سمك الشعرة العادية في رأس الإنسان، ويتمدد إلى خمسة أضعاف طوله قبل أن ينقطع، وهو أقوى من الفولاذ المعدني العادي بعشرين مرة، ومن الألمنيوم بتسع وعشرين مرة،ولا يفوقه قوة سوى الكوارتز المصهور، وتبلغ قوة احتماله ثلاثمائة ألف رطل للبوصة المربعة، فإذا قُدِّر وجود حبل سميك بحجم إصبع الإبهام من خيوط العنكبوت، فيُمْكِنه حَمل طائرة ركاب كبيرة بكل سهولة، ولذلك أطلق عليه العلماء اسم:(الفولاذ الحيوي)، أو(الفولاذ البيولوجي)، أو(البيوصلب). وهذه الحقيقة يستطيع الإنسان أن يكتشفها بنفسه؛ حيث يمكنه بسهولة إزاحة بيت العنكبوت بسبب وزنه الخفيف، ولكن يصعب عليه قطعه، أو تغيير شكله الهندسي الدقيق)[2]

قال ذلك، ثم قال بسخرية :(فكيف ذكر القرآن أن بيت العنكبوت أوهى البيوت؟)

لم أجد ما أجيبه حينها، لكن الله قيض أن التفت إلى النافذة، فرأيت آلة رافعة تحمل حائطا كبيرا تريد أن تضعه في محله من البناء الجاهز، فقلت له: (ما رأيك في ذلك البناء .. أهو أقوى أم خيوط العنكبوت؟)، قال:

---

(1) تفسير ابن كثير: ١٢٨/٤ .

(2) رددنا على الشبهة المرتبطة بهذا في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

(بل هو أقوى)، فقلت: (أرأيت لو أن مثل هذه الجدر وضعت هكذا من دون أن تكون هناك روابط قوي تمسك بينها؟)، فقال: (إنها ستسقط لا محالة، وستدمر الأمرض بسقوطها)، فقلت: (فهذا هو جوابك .. فالآية لم تقل (إن أوهن الخيوط لخيط العنكبوت)، وإنما قالت :﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾، فالوهن الذي أخبر عنه القرآن الكريم ليس في خيط العنكبوت؛ وإنما هو في البيت، الذي نسج من ذلك الخيط.

فالعجيب أن من هذه الخيوط(القوية) تصنع بيوت العنكبوت(الضعيفة) الواهية والواهنة، وإلى هذا يشير قوله تعالى:﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

فهي تذكر أن من يتوكل على غير الله، طالبًا المناصرة والمؤازرة، فإنه بذلك يختار، ويتخذ منهجًا واهيًا، وليس قويًّا؛ كما قد يتصور، فالعنكبوت مثلاً تنسج بيتها بنفسها، وتعتمد بالطبع على خيوطها القوية، وتتصور أنها بذلك قد صنعت بيتًا قويًّا؛ ولكنه في الحقيقة واهن وضعيف في الهواء، فكذلك هو الحال مع من يولي أمره لغير الله، ويتصور أن هؤلاء الأولياء بمجموعهم قد ينفعونه. فهذا المنهج واهن.

والعبرة والعظة والإعجاز في هذا التشبيه القرآني نتلمسه في ضوء ما توصل إليه العلماء، فبيت العنكبوت بخيوطه القوية، يسهل إطاحته؛ ولكن إذا استعملت تلك الخيوط العنكبوتية في ظروف أخرى، وبمنهج آخر، فإنها تكون نسيجًا قويًّا جدًّا، وشديدًا في متانته، ويصلح لصد الرصاص)

قالت الجماعة: فهل سلم لك؟

قال الشعراوي: أجل .. لم يجد إلا أن يسلم لي .. بل زادني لذلك مثالا هو أليق الأمثلة بما نحن فيه .. لقد ذكر لي أن الجرافيت والألماس، كلاهما من الكربون، وعلى الرغم من ذلك فلهما خواص فيزيائية وشكلية متضادة تمامًا، فالأول، أسود ولين ومعتم وضعيف، ويسهل كسره. .. أما الثاني فهو شفاف ونقي، ومن أصلد وأقوى المعادن .. والأول يتحول للثاني تحت ظروف قاسية من الضغط والحرارة، وإذا تغيرت الظروف حوله.

قال المودودي: وهكذا المجتمع .. فلا يكفي أن نؤسس الفرد القوي .. بل يجب أن نبحث في السبل التي نربط بها قوى الأفراد لنشكل منها قوة المجتمع الذي لا يقهر.

قال القمي: في الإسلام منظومة كاملة لذلك .. فكل ما ورد في النصوص المقدسة من الحث على التماسك والتآلف من التوجيهات والتشريعات يخدم هذا.

لقد قال الله تعالى يذكر ذلك :﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الحجرات:١٠)

انظروا .. كيف أمر الله تعالى بالإصلاح بين الإخوة، وكأنه يقول لنا: لا يمكن أن يتماسك بناؤكم الاجتماعي، وأنتم مفرقون مشتتون لا تجتمع لبناتكم.

قال الشعراوي: لقد صرح رسول الله ﷺ بمثل هذا التشبيه، فقال :﴿ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك بين أصابعه)[1]

([1]) رواه البخاري ومسلم.

وفي حديث آخر شبه رسول الله ﷺ العلاقات بين المؤمنين بأعضاء الجسد الواحد، فقال :(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[1]

وفي حديث آخر ذكر رسول الله ﷺ مثلا تقريبيا لما قد يحدثه سكوت المجتمع عن أخطاء أفراده، فقال :(مثل القائم على حدود الله ـــ أي القائم على حفظ النظام العام للمجتمع وأفراده ـــ والواقع فيه كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا هذا خرقا و لم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا)[2]

قال ديدات: لقد وردت النصوص الكثيرة التي تؤسس للروابط الاجتماعية بين المسلمين، والتي أشار إليها قوله تعالى :﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لأنفال:٦٣)

ففي الحديث الشريف يقول رسول الله ﷺ :(المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلمٍ كربةً فرج الله عنه بها كربةً من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة)[3]

وفي حديث آخر، قال ﷺ :(المسلم أخو المسلم: لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله كل المسلم على المسلم حرامٌ: عرضه وماله ودمه، التقوى ههنا، بحسب امريءٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم)[4]

وفي حديث آخر، قال ﷺ :(لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعضٍ، وكونوا عباد الله إخواناً. المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله. التقوى ههنا – ويشير إلى صدره ثلاث مراتٍ – بحسب امريءٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرامٌ دمه وماله وعرضه)[5]

وفي حديث آخر، قال ﷺ :(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[6]

وفي حديث آخر، قال ﷺ :(حق المسلم على المسلم خمسٌ: رد السلام، وعياد المريض، واتباع الجنائز وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس)[7]

وفي حديث آخر عن البراء بن عازبٍ ـــ رضي الله عنه ـــ قال: أمرنا رسول الله ﷺ بسبعٍ، ونهانا عن سبعٍ: أمرنا بعيادة المريض، واتباع الجنازة، وتشميت العاطس، وإبرار المقسم، ونصر المظلوم، وإجابة الداعي،

---

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه أحمد والبخاري والترمذي .
(3) رواه البخاري ومسلم.
(4) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.
(5) رواه مسلم.
(6) رواه البخاري ومسلم.
(7) رواه البخاري ومسلم، وفي روية لمسلم: حق المسلم ستٌ: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فأتبعه.

وإفشاء السلام. ونهانا عن خواتيم أو تختمٍ بالذهب، وعن شربٍ بالفضة، وعن المياثر[1] الحمر، وعن القسي[2]، وعن لبس الحرير والإستبرق والديباج[3].

قال إقبال: لقد جمع رسول الله ﷺ كل ذلك وغيره في قوله الجامع :(المؤمن إلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)[4]

قال شكيب: وفي سلوك رسول الله ﷺ نجده حريصا على تعميق الأخوة بين المؤمنين، ولذلك كان أول ما فعله ﷺ في المدينة المنورة هو قضاؤه على ذلك النزاع الطويل الذي كان ينهش جسد الأوس والخزرج، ثم إخاؤه بين المهاجرين والأنصار .. وكان ﷺ لا يترك سببا من أسباب الشقاق إلا سارع لسده قبل أن يتفاقم، وكان ﷺ يستعمل لذلك كل الأساليب، بل كان يدعو إلى استعمال جميع الأساليب لرد المسلمين إلى تآلفهم ووحدتهم، ففي الحديث عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ــ رضي الله عنها ــ أن النبي ﷺ قال: (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فيقول خيرا أو ينمي خيرا)، قالت: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إنه كذب إلا في ثلاث: الإصلاح بين الناس، والحرب، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها)[5]

الأمة:

قال إقبال: عرفنا قوة الفرد وقوة المجتمع، فما قوة الأمة؟ .. وكيف نحققها؟

قال القمي: لا يمكن أن تتحقق الشهادة بكمالها إلا بهذا النوع من القوة .. ولا أرى أن هذا النوع من القوة يتحقق للأمة إلا إذا تحققت بالأوصاف التي وصفها بها ربها.

فقد وصفت الأمة في القرآن الكريم بأربعة أوصاف:

فقد وصفها الله تعالى بالوسطية في قوله :﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)(البقرة: من الآية١٤٣)

ووصفها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله في قوله :﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)(آل عمران: من الآية١١٠))إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الانبياء:٩٢)

ووصفها بالوحدة في قوله :﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) (المؤمنون:٥٢)

قال المودودي: إن هذه الأوصاف الأربعة تحوي منظومة كاملة من القيم تضع الأمة في أعلى معارج القوة.

فالأمة القوية هي التي تنطلق من الإيمان بالله بأرفع درجات الإيمان .. ثم تسير في حياتها على ما تقتضيه الفطرة النقية التي عبر عنها القرآن الكريم بالوسطية .. فإذا ما تم لها ذلك كان لها أن تنشغل بدعوة الناس إلى الله آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر .. ولن يتم لها كل ذلك إلا بالوحدة، فالوحدة هي التي تجعل جهودها

---

(1) المياثر: جمع ميثرةٍ، وهي شيءٌ يتخذ من حرير ويحشى قطناً أو غيره، ويجعل في السرج وكور البعير يجلس عليه الراكب.

(2) القسي: هي ثيابٌ تنسج من حرير وكتانٍ مختلَطين.

(3) رواه البخاري ومسلم، وفي روايةٍ: وإنشاد الضالة في السبع الأول.

(4) رواه أحمد والطبراني من حديث سهل بن سعد و الحاكم من حديث أبي هريرة وصححه.

(5) رواه مسلم.

منصرفة إلى الرسالة التي أنيطت بها، لا إلى النزاعات الداخلية التي تفتك بها.

قال الكواكبي: فكيف نحقق هذه القيم الرفيعة في أمتنا التي فتكت بها الغفلة عن الله، وقتلها الغلو في دين الله، فصار بأسها بينها شديدا، ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)(الحشر: من الآية١٤)؟

قال إقبال: ذلك يسير على من يسره الله .. فما دامت لدينا هذه المصادر المقدسة، فلن يصعب علينا بحمد الله شيء.

قال شكيب: فهل لديك خطة لذلك؟

قال إقبال: أجل .. وهي خطة طويلة الأمد .. اقتربوا مني لأبثها لكم.

اقتربوا منه، فأخذ يناجيهم بكلمات كثيرة، لم أسمع منها إلا أسماء من مررت بهم من الورثة الذين كان يردد اسمهم كل حين.

سألت صاحبي عن سبب ذكره لتلك الأسماء، فقال: لأن أصحاب تلك الأسماء هم المكلفون بتنفيذ ما يريده من خطط.

قلت: ألهذه الغرفة علاقة بهم إذن؟

قال: ألم أقل لك: إن هذه الغرفة هي المنارة التي تهتدي بها جميع منارات الهداية؟

٤ ــ الأمانة

بعد أن لبث مهندسو الشهادة مليا يدرسون خطة إقبال، قام المودودي، وقال: إن ما ذكرته ــ يا إقبال ــ ييسر ما سأذكره لكم من خطط ترتبط بإعادة الأمانة إلى الأمة .. فلا يمكن للناس أن يدخلوا في دين الله أفواجا إلا إذا رأونا أمة أمينة، تتوفر على كل ما تستدعيه الأمانة من قيم.

قال الشعراوي: صدقت .. فالقوة وحدها لا تكفي، لقد قال الله تعالى يجمع بينهما:﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص:٢٦)، وقال :﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ (النمل:٣٩)

قال الكواكبي: صدق الله العظيم .. فالقوي الذي لا أمانة له لن يستعمل القوة إلا فيما استعملها فيه المتمردون الذين أذاقوا البشر ويلات نفوسهم الحاقدة الخائنة.

قال القمي: ولهذا كان من أهم أوصاف رسول الله ﷺ التي جعلته محل ثقة في مجتمعه هي أمانته، فقد كان يدعى بين قومه قبل أن يوحى إليه (الصادق الأمين)

قال الشعراوي: لقد وصف القرآن الكريم جميع الرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ بالأمانة، وهو دال على ضرورها لمن يريد أن يدخل الناس في دين الله أفواجا:

لقد قال الله تعالى عن نوح عليه السلام :﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨)(الشعراء)

وقال عن هود عليه السلام :﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨)﴾ (الأعراف)، وقال:﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦)﴾ (الشعراء)

وقال عن صالح عليه السلام :﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤)﴾ (الشعراء)

وقال عن لوط عليه السلام :﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣)﴾ (الشعراء)

وقال عن شعيب عليه السلام :﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩)﴾ (الشعراء)

انظروا .. ألا ترون كيف اتحد جميع هؤلاء الأنبياء في وصف أنفسهم بالأمانة، ثم رتبوا عليها دعوة أقوامهم إلى تقوى الله وطاعته؟

قال إقبال: نعم .. وفي ذلك إشارة بليغة إلى أنه لا يمكن أن يتقبل الناس أي فكرة إلا إذا رأو علامات الأمانة متمثلة فيمن يدعو إليها.

قال القمي: لقد ذكرتموني بيوسف عليه السلام ، فيوسف عليه السلام كان قد أعد الله له وظيفة خطيرة ترتبط بها مصالح العباد، لينقذهم من المجاعة التي تتربص بهم.

وبما أنه كان في السجن، وخشي أن يكون الملك قد سرت إليه شبهة من خبر النسوة، فراح يطلب التحقيق فيها حتى لا تكون تلك الشبهة سببا بعد ذلك لرفع الحرمة عنه.

ولما علم الملك خبر النسوة، قال :﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)(يوسف: من الآية٥٤)

قال المودودي: إن هذه الآية تحمل توجيها عظيما لهذه الأمة .. فلن تستخلصها الأمم لنفسها، ولن تكون لها مكانة عندها إلا إذا تحققت بالأمانة في أرقى درجاتها.

قال الشعراوي: لقد أخبر ﷺ عن رفع الأمانة عن الأمة إبان انحطاطها، وهو يدل على أنه لا يمكن للأمة أن تستعيد مجدها إلا باستعادة الأمانة التي ارتفعت عنها[1]:

لقد ورد في الحديث عن حذيفة ــ رضي الله عنه ــ قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأينا أحدهما وأنا انتظر الاخر، حدثنا أن الامانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الامانة، قال: (ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل كجمر، دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا، وليس فيه شئ فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلا أمينا، حتى يقال للرجل: ما أجلده، ما أكرمه ما أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان[2])[3]

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ : (أول ما تفقدون من دينكم الامانة)[4]

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ : (أول ما يرفع من الناس الامانة، وآخر ما يبقى من دينهم الصلاة، ورب مصل لا خلاق له عند الله)[5]

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ : (أول ما يرفع من هذه الامة الحياء والأمانة)[6]

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ : (خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ، يخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن)[1]

([1]) نبهنا في مواضع كثيرة إلى أن أحاديث الفتن وأشراط الساعة ونحوها لا تحمل فقط صفة النبوءة الغيبية، وإنما تحمل أيضا ــ وأهم من ذلك ــ طابع التشريع، لمن حصلت لهم تلك الفتن. (انظر: رسالة (معجزات حسية)، فصل (نبوءات) من هذه السلسلة)

([2]) مما قيل في معنى الحديث أن الأمانة تزول عن القلوب شيئا فشيئا، فإذا زال أول جزء منها، زال نورها وخلفته ظلمة كالوكت وهو اعتراض لون مخالف للون الذي قبله، فإذا زال شئ آخر صار كالمجل وهو أثر محكم لا يكاد يزول الا بعد مدة، وهذه الظلمة فوق التي قبلها، ثم شبه زوال ذلك النور بعد وقوعه في القلب وخروجه بعد استقراره فيه واعتقاب الظلمة إياه بجحر يدحرجه على رجله حتى يؤثر فيها، ثم يزول الجمر ويبقى التنقط وأخذه الحصاة ودحرجته اياها أراد بها زيادة البيان وإيضاح المذكور.

([3]) رواه مسلم.

([4]) رواه الطبراني في الكبير.

([5]) رواه الحكيم الترمذي.

([6]) رواه الطبراني.

([1]) رواه البخاري ومسلم.

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ:(إذا اتخذ الفيئ دولا، والأمانة مغنما، والزكاة مغرما، وتعلم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته وعق أمه، وأدنى صديقه، وأقصى أباه، وظهرت الأصوات في المساجد، وساد القبيلة فاسقهم، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرم الرجل مخافة شره، وظهرت القينات والمعازف، وشربت الخمور، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء وزلزلة، وخسفا ومسخا وقذفا وآيات تتابع كنظام بال قطع سلكه، فتتابع)[1]

قال المودودي: مما يدل على أن هذه النبوءات قد تحققت في عصرنا تحققا تاما هو ما نراه من اختصار عامة الناس ــ بل خاصتهم ــ الأمانة في الودائع مع أنها الدين جميعا، فالله قد ائتمننا على هذا الدين .. على تشريعاته تشريعا .. وعلى توجيهاته توجيها ..

قال الشعراوي: صدقت .. فقد اعتبر الله تعالى الدين بجميع تكاليفه دينا، فقال :﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾(الأحزاب:٧٢)، فقد قال ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ في تفسيرها:(الأمانة: الفرائض، عرضها الله على السموات والأرض والجبال، إن أدوها أثابهم. وإن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيمًا لدين الله ألا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم، فقبلها بما فيها)

قال القمي: لقد ورد في النصوص المقدسة ما يشير إلى شمول الأمانة جميع التكاليف الشرعية، ابتداء من الحكم وانتهاء بأبسط التكاليف، ففي الحديث، قال ﷺ :(إذا ضيِّعت الأمانة فانتظر الساعة)، قيل: يا رسول الله وما إضاعتها؟ قال: (إذا وسد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة)[2]

وقال ﷺ لأبي ذر ــ رضي الله عنه ــ في شأن الإمارة :(إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدّى الذي عليه فيها)[3]

وقال ﷺ: (التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء)[4]

وقال ﷺ: (الخازن المسلم الأمين الذي يُنفذ ما أُمِر به كاملاً موفراً طيباً به نفسُه فيدفعه إلى الذي أُمر له به أحد المتصدقين)[5]

وقال ﷺ ــ يصف مرور الناس على الصراط ــ:(وترسل الأمانة والرحم ، فتقومان جَنَبتي الصراط يميناً وشمالاً)[6] ، وقال ﷺ :(ثلاث متعلقات بالعرش : الرحم تقول اللهم إني بك فلا أقطع ، والأمانة تقول: اللهم إني بك فلا أخان ، والنعمة تقول : اللهم إني بك فلا أكفر)[1]

---

(1) رواه الترمذي وقال: غريب.
(2) رواه البخاري.
(3) رواه مسلم.
(4) رواه الترمذي.
(5) رواه البخاري.
(6) رواه مسلم.
(1) رواه البزار.

ومما ورد في سبب نزول قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (لأنفال:٢٧) أنها نزلت في أبي لبابة حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة، لما حصرهم ﷺ، وكانوا يميلون إلى أبي لبابة لكون أهله وولده فيهم، فقالوا له : هل ترى أن ننزل على حكم محمد؟ فأشار بيده إلى حلقه ـــ أي إنه الذبح فلا تفعلوا ـــ فكانت تلك منه خيانة لله ولرسوله.

قال: فما زالت قدماي من مكانهما حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله، ثم ذهب إلى المسجد وربط نفسه ، وحلف أن لا يحلها أحد إلا رسول الله ﷺ ، ثم لا زال كذلك حتى أنزل الله توبته، فحله رسول الله ﷺ بيده الشريفة.

ولهذا كله ورد في الحديث عن علي ـــ رضي الله عنه ـــ قال : كنا جلوسا مع رسول الله ﷺ، فطلع علينا رجل من أهل العالية ، فقال: يا رسول الله أخبرني بأشد شيء في هذا الدين وألينه؟ فقال : ألينه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وأشده ـــ يا أخا العالية ـــ الأمانة ، إنه لا دين لمن لا أمانة له ، ولا صلاة ولا زكاة)[1]

وعن ابن مسعود ـــ رضي الله عنه ـــ قال: (القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة، قال : يؤتى بالعبد يوم القيامة وإن قتل في سبيل الله، فيقال له: أد أمانتك ، فيقول: أي رب، كيف وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، وتمثل له الأمانة كهيئتها يوم دفعت إليه، فيراها فيعرفها فيهوي في أثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبه، حتى إذا ظن أنه خارج زلت عن منكبه فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين ، ثم قال: (الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة ، وأشياء عددها وأشد ذلك الودائع)، قال زاذان: فأتيت زيد بن عامر فقلت: ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود؟ قال : كذا وكذا، قال : صدق، أما سمعت الله تعالى يقول :﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾(النساء: من الآية٥٨)

قال شكيب: ولهذا اعتبر ﷺ من علامات المنافق خيانة الأمانة، فقال:(آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم)[2]، وقال ﷺ :(أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر)[3]

بل كان ﷺ يخبر أنه لا إيمان لمن لا أمانة له، فعن أنس ـــ رضي الله عنه ـــ قال: ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له)[4]

وكان ﷺ يستعيذ من الخيانة، ويقول :(اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة)[1]

([1]) رواه البزار.
([2]) رواه البخاري ومسلم.
([3]) رواه البخاري ومسلم.
([4]) رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط.
([1]) رواه أبو داود.

قال إقبال: علمنا كل هذا .. فكيف تستعيد الأمة هذا الوصف الذي لن تتحقق بالشهادة من دونه؟

قال المودودي: لقد نذرت حياتي كلها للإجابة عن هذا السؤال .. وقد رأيت أن أول ما نفعله في هذا، وأحكم ما نفعله، هو أن نشعر الأمة بمسؤوليتها عن دينها، وعن أحكام ربها، نرغبها في ذلك ونرهبها، كما كان يفعل رسول الله ﷺ بأسلوب أهل السلام، لا بأساليب أهل الصراع، إلى أن يظهر في الأمة الحاكم الأمين، والوزير الأمين.. والتاجر الأمين .. فإذا ظهرت هذه النماذج الطيبة، ومثلت الأمانة بأرقى مستوياتها، كان في ذلك تمام الدعوة للأمانة .. فالعامة لا يقتنعون بشيء كما يقتنعون بشيء يرونه بأعينهم.

قال شكيب: نعم ما ذكرت .. فلن يملأ الأرض صلاحا إلا أريج الصالحين، ولن يملأ الأرض أمانة إلا الأمناء.

قال المودودي: إن ذلك يشبه ما يتعامل به علماء الحياة مع الأصناف التي يخشون انقراضها، فهم يستعملون كل الوسائل ليكثروا ذلك النوع الذي خشوا من انقراضه.

قال ديدات: فهلم إذن .. ندرس مراتب ذلك .. لنرسل للورثة في سائر البقاع بها.

***

اجتمع الجمع، وراحوا يتحدثون .. ولم أسمع منهم إلا ما ذكرت لك من تكريرهم كل حين من عرفت من الورثة.

٥ ـــ العمارة

لم يلبثوا إلا قليلا حتى صاح إقبال قائلا: إن ما ذكرتموه نبهني إلى الطريقة المثلى التي نحيي فيها ما أمرنا الله تعالى به في قوله :﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)(هود: من الآية٦١) .. فعمارة الأرض وظيفة من وظائف الإنسان، ولن تتحقق أمة بالشهادة، وهي تفرط في هذه الوظيفة.

قال ديدات: صدقت .. وقد سمعت معلم السلام في حوار له مع تلميذه (تلميذ السلام)[1]، وقد سأله عن الرفاه، فقال: كيف يكون وظيفة من وظائف الشهادة؟ فأجابه معلم السلام :(كيف يستطيع مدرب النمور والأسود أن يتسلط على قوى السبعية في النمر والأسد ليوجهها إلى اللعب واللهو .. فيجعل من ذلك الذي يخافه الناس على نفوسهم وسيلة رزقه التي يحافظ بها على حياته؟)، فقال تلميذ السلام :(ما أسهل ذلك ـــ يا معلم ـــ لقد عرف شهوات النمر والأسد، فراح يتلاعب به من خلالها)، فقال معلم السلام :(فكذلك من يحيط بكم من الأقوام، استعبدتهم الدنيا، ولن تجروهم إلى الله إلا بسلاسل الدنيا[2])

قال إقبال: لقد دلني على هذه الناحية من نواحي الشهادة قوله تعالى مخبرا عن سليمان عليه السلام :﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (صّ:٣٥) .. لقد طال فكري في هذه الآية، وكنت أقول في نفسي: (لقد عهدنا الأنبياء ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ زاهدين في متاع الدنيا راغبين في الله مكتفين بالله، فكيف طلب سليمان عليه السلام هذا الطلب الغريب؟)

لكن الله هداني إلى سر ذلك .. فعلمت ـــ أولا ـــ أن سليمان عليه السلام طلب ذلك الملك، وبتلك الصورة التي لا ينازعه فيها أحد، ليكون حجة على من شغله ملكه عن الله، وكأن سليمان عليه السلام يقول لربه :(يارب هب لي من الملك ما تشاء .. بل هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي أن يحصل عليه .. فإن هذا الملك مهما كان عظيما .. وذلك الفضل مهما كان وفيرا لن يحجباني عنك ولن يبعدا قلبي عن الرغبة فيك .. فإني لا أرى الأشياء مهما كثرت إلا منك .. ولا أرى نفسي إلا بك .. فكيف أحجب بهداياك الواصلة إلي .. أم كيف أنشغل بفضلك عنك)

ثم ترقيت ـــ بحمد الله ـــ في فهم الآية، فتبينت علاقتها بالشهادة، وعرفت أن سليمان عليه السلام ـــ حسبما ورد في القرآن الكريم ـــ كان في واقع لا يرى من حجة أعظم من حجة العمران .. فلذلك قال تعالى عن ملكة سبأ على لسان الهدهد :﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) (النمل:٢٣)

وذكر تعالى أنها أرادت أن تميز سليمان عليه السلام أملك هو أم لا بإرسال هدية إليه، كما قال تعالى:﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ) (النمل:٣٥)

وهذا الواقع الغارق في الدنيا، وفي متاعها، يستدعي أن يخاطب بما يتناسب معه، كما خاطب موسى عليه السلام السحرة بما يتناسب مع مداركهم، فلذلك طلب سليمان عليه السلام ملكا لا ينبغي لأحد من بعده.

ومما يدل على هذا ما ذكره الله تعالى من إظهار سليمان عليه السلام لملكة سبأ بعض مظاهر الملك التي أعطاها

([1]) انظر رسالة (مفاتيح المدائن) من (رسائل السلام)

([2]) وقد ورد في الحديث قوله ﷺ :(عجب الله من قوم يدخلون الجنة بالسلاسل) رواه البخاري.

الله له، فلم يكن غرضه من ذلك الفخر عليها، وإنما كان غرضه تعريفها بالله، لأنها انشغلت بالعرش العظيم[1] الذي كان لها عن الله، فلذلك كان أول ما لاقاها به سليمان عليه السلام هو عرشها الذي حجبها عن الله، وعن التسليم له، قال تعالى :﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾(النمل:٤٢)

فلما قالت ذلك، وفي غمرة انبهارها بما رأت أخبرها سليمان عليه السلام بأنه مع هذا الملك كان مسلما لله، فلم يحجب به عن الله، فقال تعالى على لسانه[2] :﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ)

فلما رأى سليمان عليه السلام حاجتها إلى المزيد من الأدلة، أحضرها إلى الصرح الممرد من القوارير، وقد كان من الجمال بحيث لا يساوي عرشها الذي شغلها عن الله شيئا بجانبه، وحينذاك لم تملك إلا أن تسلم لله، قال تعالى :﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل:٤٤)

ثم ترقيت .. وانتقلت من القصة إلى واقعنا .. فعلمت أننا في واقع منبهر تمام الانبهار بالدنيا، فلا يمكن أن يدخل الناس في دين الله أفواجا، وهم يروننا في ذيل القافلة، لا عمل لنا إلا استهلاك ما يصدر لنا.

قال الشعراوي: ولكن الأمم سبقتنا في هذا المجال إلى محال لا يمكن أن يلحقوا فيها، فكيف ترى أن نسبقهم في هذا؟

قال إقبال: ذاك ما ظللت طول عمري أبحث عنه .. لقد كنت أقول دائما لنفسي: نعم .. هم سبقونا .. ولكن مع ذلك يمكن أن نسبقهم ..

كنت أقول ذلك ــ في البدء ــ لأملأ نفسي بالأمل .. لكن الأمل بعد ذلك اتسع، بل صار بين عيني حقيقة لا يصعب علينا بالعمل الجاد، وبالإرادة الجادة أن نحققها.

قال الشعراوي: كيف ذلك .. بشرنا .. فطالما اهتممنا لما اهتممت له.

قال إقبال: لقد كان الحجاب الأعظم الذي جعلنا نستشعر تأخرنا عن الأمم، وعدم إمكانية لحوقنا بهم هو تصورنا أننا لا بد أن نبدأ من حيث بدأوا .. أي أننا إذا أردنا أن نخترع نوعا راقيا من السيارات لابد ــ أولا ــ أن نمر بكل المراحل التي مر بها من صنعوا السيارات.

قال الشعراوي: ذلك صحيح .. كلنا يعتقد هذا.

قال إقبال: لكني عرفت بعد ذلك خطأ هذا المنهج .. فنحن لن نبدأ من حيث بدأوا .. بل نبدأ من حيث انتهوا .. فنهاياتهم هي بدايتنا.

قال شكيب: ولكنهم قد يصيحون فينا قائلين: أنتم تقتاتون من علومنا واختراعاتنا واكتشافاتنا؟

قال إقبال: ونحن نصيح فيهم: وأنتم لم تكن لكم هذه العلوم، ولا تلك الاختراعات، ولا تلك

---

(١) وقد ذكر القرآن الكريم ذلك، فقال على لسان الهدهد :﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (النمل:٢٣)

(١) هذا هو الصحيح، وهو ما قاله مجاهد وسعيد بن جبير، وقد اختاره ابن جرير وابن كثير، لا من قول ملكة سبأ، بدليل أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح، كما قال تعالى :﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل:٤٤)

الاكتشافات إلا بما نهلتموه من علومنا.

قال الكواكبي: فسيصيحون فينا: وأنتم ـــ أيضا ـــ لم تتطور حضارتكم إلا بعد اقتباسها من سائر الحضارات ومزجها بينها.

قال إقبال: حينها نقول لهم: العلوم لا وطن لها .. العلوم حق البشر جميعا .. فلكل إنسان الحق في الاستفادة من كل علم .. والحق في الاستفادة من كل اختراع ما دام يشتريه بمال الحلال.

قال شكيب: صحيح ما ذكرت .. ولكن المنظومة التعليمية التي تدرس في مدارسنا تجعل بيننا وبين ما تذكره آلاف الأميال ..

قال إقبال: فلنسع لتغيير منظومتنا التربوية .. ولنستن بسنة رسول الله ﷺ في ذلك .. فقد جاء رسول الله ﷺ في بيئة بدوية لم يكن لها اهتمام إلا بما تفرضه حياة البداوة من انشغال بالشعر، والأنساب، وغيرها من المعارف البسيطة التي لا يمكن أن تؤسس لعمران.

قال الكواكبي: فماذا فعل رسول الله ﷺ ليخرجها من منظومة البداوة لمنظومة الحضارة .. لتخرج بعد ذلك للناس بأعظم حضارة عرفتها البشرية.

قال إقبال: اقرأوا القرآن لتروا المعاني التي ربى عليها رسول الله ﷺ النفوس لتصبح أهلا لحمل الحضارة.

لقد بحثت في ذلك .. ورأيت في ذلك منهجا متكاملا يمكننا استثماره ليعود للأمة مجدها، ويدخل الناس في دين الله أفواجا.

لقد كان أول ما فعله القرآن الكريم هو إخراج أولئك البدو من تلك القوقعة التي سجنوا فيها أنفسهم، فدعاهم إلى النظر إلى الأشياء .. فلا يمكن أن يتطور من يغمض عينيه عن أسرار الوجود:

لقد قال لهم ـــ وهم منشغلون بوصف الصحراء والإبل ـــ ينبههم إلى ما أودع في كونه من كمال وجمال:﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأنعام:٩٩)

ودعاهم إلى النظر إلى السماء :﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) (يونس:١٠١)

ودعاهم إلى النظر إلى الطعام :﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾ (عبس)

ودعاهم إلى النظر إلى أسرار خلقهم :﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧)

وأخبر عن أوليائه العارفين العاقلين أنهم يمزجون بين الذكر والفكر والنظر، فقال :﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ

السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة:١٦٤)، وقال :﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (آل عمران:١٩٠)، وقال :﴿ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الجاثـــية:٥)

ثم أمرهم بالسير لينهلوا من العلوم والمعارف ما لا يجدونه في بيئتهم المحدودة .. قال تعالى:﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) (آل عمران:١٣٧)، وقال:﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (الحج:٤٦)، وقال :﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (العنكبوت:٢٠)

ثم أمرهم باستعمال كل مدراكهم لتحليل ما عرفوه ليستنبطوا منه أسرار العلوم وحقائقها، فقال :﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا)(ســبأ: من الآية٤٦)، وقال عن تحليل معاني القرآن الحاوية لجميع حقائق الوجود :﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) (النساء:٨٢)، وقال :﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد:٢٤)

وبما أن الأعراف والتقاليد البالية جعلتهم يستكبرون عن كل إنتاج مثمر، فكانوا لذلك يسندون الصنائع لعبيدهم احتقارا لها، جاءت النصوص المقدسة تنوه بشأن الصناعات:

لقد ذكر الله تعالى صناعة الحديد، ونوه بها، وذكر اشتغال الأنبياء والصالحين بها، فقال :﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ (الكهف:٩٦)، وقال :﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (ســبأ:١٠)، بل قرن بإنزال الحديد إنزال الكتاب، فقال :﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد:٢٥)

وذكر الصناعات النسيجية وأنواعها وأغراضها، فقال :﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ (النحل:٨٠)

وذكر ما يرتبط بالعمران من أعمال، فقال :﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (لأعراف: من الآية٧٤)

وذكر الصناعات المرتبطة بالنقل، فقال :﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٨)، وقال :﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (هود:٣٧)، وقال :﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (المؤمنون:٢٢)، وقال :﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الروم:٤٦)، وقال

:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (لقمان: ٣١)

وذكر الصناعات البحرية، فقال :﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:١٤)، وقال :﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ (الاسراء:٦٦)

بل إن القرآن الكريم دعا إلى بذل كل الجهود لتحصيل جميع أنواع القوى، ويدخل فيها هذا النوع من أنواع القوى، قوة الصناعة والسياسة، فقال :﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (لأنفال: من الآية٦٠)

وقد جاءت التعاليم النبوية الكثيرة تعمق هذه المفاهيم القرآنية، وترسخها، وتربي الأجيال عليها، فقد كان ﷺ حريصا على أن يمارس أصحابه أي حرفة حتى لا يقعوا فريسة لأي نوع من أنواع العبودية:

جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ فسأله فقال: أما في بيتك شيء؟ فقال: بلى حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه الماء، فقال: ائتني بهما، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده فقال: من يشتري هذين؟ فقال رجل: أنا آخذهما بدرهم، فقال رسول الله ﷺ :(من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثا؟)، فقال رجل: أنا أخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري وقال: اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدوما فائتني به، فلما أتاه به شد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده، ثم قال :(اذهب فاحتطب، وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوما)، ففعل وجاء فأصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما، فقال رسول الله ﷺ :(هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تحل إلا لثلاث: لذي فقر مدقع[١]، ولذي غرم[٢] مفظع[٣]، ولذي دم موجع[٤])[٥]

بل اعتبر النبي ﷺ العمل والكسب نوعا من الجهاد في سبيل الله، فقال:(أبشر، فإن الجالب إلى سوقنا كالمجاهد في سبيل الله، والمحتكر في سوقنا كالملحد في كتاب الله)[٦]

ورأى بعض الصحابة شاباً قوياً يسرع إلى عمله، فقالوا: لو كان هذا في سبيل الله! فرد رسول الله ﷺ عليهم بقوله:(لا تقولوا هذا ؛ فإنه إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفُّها فهو في سبيل الله، وإن

---

(١) المدقع هو الشديد الملصق صاحبه بالدقعاء يعني الأرض التي لا نبات بها.

(٢) الغرم هو الذي يلزم صاحبه أداؤه يتكلف فيه لا في مقابلة عوض.

(٣) المفظع هو الشديد الشنيع.

(٤) هو الذي يتحمل عن قريبه أو حميمه أو نسيبه دية إذا قتل نفسا ليدفعها إلى أولياء المقتول. ولو لم يفعل قتل قريبه أو حميمه الذي يتوجع لقتله.

(٥) رواه أبو داود والترمذي.

(٦) رواه الحاكم عن اليسع بن المغيرة، واليسع بن المغيرة المخزومي المكي قال أبو حاتم: ليس بالقوي وذكره ابن حبان في الثقات.

كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان)[1]

وأخبر ﷺ أن كل منتفع بالعمل يصب في أجر صاحب العمل، فقال في إحياء الأرض:(ما من امرئ يحي أرضا فتشرب منها كبد حرى أو تصيب منها عافية إلا كتب الله تعالى له به جرا)[2]، وقال:(من أحيا أرضا ميتة فله فيها أجر، وما أكلت العافية منها فهو له صدقة)[3]

وقال في غرس الغرس :(ما من مسلم يزرع زرعا أو يغرس غرسا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كانت له به صدقة)[4]، وقال:(ما من رجل يغرس غرسا إلا كتب الله له من الأجر قدر ما يخرج من ثمر ذلك الغرس)[5]، وقال:(ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة وما سرق منه صدقة، وما أكل السبع فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا يرزؤه[6] أحد إلا كان له صدقة)[7]

وهكذا صار العمل عبودية خالصة لله .. بل جهاد في سبيل الله .. وهو جهاد مستمر أمرنا ﷺ أن نداوم عليه إلى آخر لحظة من أعمارنا، ففي الحديث قالﷺ :(إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة[8]، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها)[9]

قال الكواكبي: قد وعينا جميع ما ذكرته، فكيف نعيد هذه التعاليم إلى الحياة.

قال إقبال: بما أعاد به ﷺ الحياة لهذه المعاني .. هلموا .. فقد وضعت خطية عملية لذلك.

اجتمعوا حوله .. وراحوا يتناجون فيما بينهم، و لم أسمع من حديثهم إلا ما سبق أن ذكرته لك من الأسماء التي كنت قد عرفتها ومررت على أهلها.

---

(1) رواه الطبراني في الكبير عن كعب بن عجرة.
(2) الطبراني في الكبير عن أم سلمة.
(3) أحمد والترمذي وابن حبان عن جابر ، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
(4) أحمد والترمذي عن أنس.
(5) أحمد عن أبي أيوب.
(6) ولا يرزؤه: أي لا ينقصه ويأخذ منه.
(7) مسلم.
(8) الفسيل: صغار النخل وهي الودي والجمع فسلان مثل رغيف ورغفان الواحدة فسيلة وهي التي تقطع من الأم أو تقلع من الأرض فتغرس. المصباح ٢/٦٤٧.
(9) أحمد وعبد بن حميد، والبخاري في الأدب وابن منيع وابن أبي عمر.

لم يلبثوا في اجتماعهم إلا قليلا، ثم انفضوا، كل إلى مجلسه الذي كان فيه، و لم يمكثوا إلا قليلا، حتى صاح الشعراوي قائلا: نعم ما ذكرتم .. فلا بد من كل ما ذكرتم.. ولكن ذلك لا يكفي ..

قد نظهر بين الناس أمة موحدة تمتلئ بالعدل والأمانة، وتملئ أرضها بالعمران والحضارة .. ولكنا مع ذلك لن نكون أمة رسالة ولا أمة شهادة حتى نبلغ ما أمرنا بتبليغه.. فلن يعرف الناس رب العالمين، ولا دين رب العالمين، ولا نبي رب العالمين حتى نبلغهم ذلك.

قال إقبال: ذلك صحيح .. وهو سنة رسول الله ﷺ .. فقد كان أول ما فعله رسول الله ﷺ بعد أن أسس أول مدينة للإسلام، وحماها من كيد أعدائها أن أرسل الكتب مع أصحابه إلى ملوك الآفاق وغيرهم يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ، وإلى الدخول في الإسلام.

قال الشعراوي: إن شئتم حدثتكم من ذلك ما تقر به أعينكم.

قال ديدات: حدثنا .. فلا يمكن أن نذكر خطة من غير أن نستن فيها بسنة النبي ﷺ الهادي ﷺ .

قال الشعراوي: لقد حدث أنس ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ كتب قبل موته إلى كسرى، وقيصر، وإلى النَّجاشي، وإلى كلِّ جبَّار عنيد يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ، وليس بالنجاشي الذي صلَّى عليه[1].

ومما ورد في كتابه ﷺ إلى **النجاشي** ملك الحبشة ما حدث به ابن إسحاق قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضَّمْري ــ رضي الله عنه ــ إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه ــ رضي الله عنهم ــ وكتب معه كتاباً:(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الملك القدّوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيِّبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني، فإنِّي رسول الله. وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقرَّهم ودَعِ التجبُّر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله عزّ وجلّ؛ وقد بلَّغتُ ونَصحتُ فاقبلوا نصيحتي. والسلام على من اتبع الهدى)

وقد روي أن النجاشي رد على رسول الله ﷺ بكتاب يقول فيه :(بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحَم بن أبجر: سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته، لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فوربِّ السماء والأرض إنَّ عيسى ما يزيد على ما ذكرت. وقد عرفنا ما بَعثت به إلينا؛ وقَرَبنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صدقاً ومصدِّقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وقد بعثت إليك ـــــ يا نبي الله ـــــ بأريحاً بن الأصحم بن أبجر، فإني لا أملك إلا نفسي، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقول حق)

---

(1) رواه مسلم.

ومما ورد في كتابه ﷺ إلى **قيصر ملك الروم** ما حدث به دِحْيَة الكلبي ــ رضي الله عنه ــ أنه قال: بعثني رسول الله ﷺ كتاب إلى قيصر، فقدمت عليه، فأعطيته الكتاب وعنده ابن أخ له أحمر أزرق سبط الرأس، فلما قرأ الكتاب كان فيه:(من محمد رسول الله إلى هرقل صاحب الروم)

قال: فنخر ابن أخيه نخرة، وقال: لا يُقرأ هذا اليوم. فقال له قيصر: لِمَ؟ قال: إنّه بدأ بنفسه وكتب (صاحب الروم)، و لم يكتب (ملك الروم)، فقال قيصر: لتقرأنَّه، فلما قرأ الكتاب وخرجوا من عنده أدخلني عليه وأرسل إلى الأسقُف ــ وهو صاحب أمرهم ــ فأخبروه وأخبره وأقرأه الكتاب، فقال له الأسقف: هو الذي كنا ننتظر وبشَّرنا به عيسى عليه السلام، قال له قيصر: كيف تأمرني؟ قال له الأسقف: أمَّا أنا فمصدّقه ومتبعه، فقال له قيصر: أمّا أنا إن فعلت ذلك ذهب ملكي.

ثم خرجنا من عنده، فأرسل قيصر إلى أبي سفيان، وهو يومئذٍ عنده قال: حدثني عن هذا الذي خرج بأرضكم ما هو؟ قال: شاب، قال: فكيف حَسَبُه فيكم؟ قال: هو في حسب منا لا يفضل عليه أحد، قال: هذه آية النبوة. قال: كيف صدقه؟ قال: ما كذب قط. قال: هذه آية النبوة. قال: أرأيت من خرح من أصحابكم إليه هل يرجع إليكم؟ قال: قد قاتله قوم فهزمهم وهزموه. قال: هذه آية النبوة. قال ثم دعاني فقال: أبلغ صاحبك أني أعلم أنه نبي ولكن لا أترك ملكي.

قال: وأما الأسقُف فإنَّه كانوا يجتمعون إليه في كل أحد، يخرج إليهم ويحدِّثهم ويذكِّرهم، فلما كان يوم الأحد لم يخرج إليهم وقعد إلى يوم الأحد الآخر، فكنت أدخل إليه فيكلمني ويسألني. فلما جاء الأحد الآخر انتظروه ليخرح إليه، فلم يخرج إليهم واعتلَّ عليهم بالمرض وفعل ذلك مراراً. وبعثوا إليه لتخرجنَّ إلينا أو لندخلنَّ عليك فنقتلك، فإنا قد أنكرناك منذ قدم هذا العربي. فقال الأسقف: خذ هذا الكتاب واذهب إلى صاحبك فاقرأ عليه السلام، وأخبره أنِّي أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأني قد آمنت به، وصدَّقته، واتبعته، وأنهم قد أنكروا عليّ ذلك، فبلِّغه ما ترى. ثم خرج إليهم فقتلوه[1].

وحدث ابن إسحاق عن بعض أهل العلم أن هرقل قال لدحية ــ رضي الله عنه ــ: ويحك إنِّي ــ والله ــ لأعلم أن صاحبك نبيٌّ مرسل، وأنه للذي كنا ننتظر ونجده في كتابنا، ولكني أخاف الروم على نفسي، ولولا ذلك لاتَّبعته؛ فاذهب إلى ضغاطر الأسقُف فاذكر له أمر صاحبكم فهو أعظم في الروم مني وأجوز قولاً، فجاءه دِحْية فأخبره، فقال له: صاحبك ــ والله ــ نبي مرسل، نعرفه بصفته واسمه، ثم دخل فألقى ثيابه وليس ثياباً بيضاء، وخرج على الروح فشهد شهادة الحق فوثبوا عليه فقتلوه[2].

وعن سعيد بنت أبي راشد قال: رأيت التنوخي ــ رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ ــ بحمص وكان جاراً لي شيخاً كبيراً قد بلغ الفناء ــ أو قَرُب ــ فقلت: ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى رسول الله ﷺ ورسالة رسول الله ﷺ إلى هرقل؟ قال: بلى، وقدم رسول الله ﷺ تبوك وبعث دِحْية الكِلبي إلى هرقل، فلمّا أن جاء كتاب رسول الله ﷺ دعا قسيسي الروم وبطارقتها ثم غلَق عليه وعليهم الدار، فقال: نزل هذا الرجل حيث رأيتم، وقد

---

(1) رواه البزّار قال الهيثمي (٨٢٣٦ ـــــــ ٢٣٧) وفيه إبراهيم بن إسماعيل بن يحيى وهو ضعيف.
(2) رواه ابن إسحق، وهكذا ذكره يحيى بن سعيد الأموي في المغازي والطبري عن ابن إسحاق.

أرسل إليّ يدعوني إلى ثلاث خصال: يدعوني أن أتبعه على دينه، أو أن نعطيه مالنا على أرضنا والأرض أرضنا[1]، أو نلقي إليه الحرب، والله لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب لتؤخذنَّ ما تحت قدميّ، فهلمَّ نتبعه على دينه أو نعطيه مالنا على أرضنا، فنخروا نخرة رجل واحد حتى خرجوا من برانسهم، وقالوا: تدعونا إلى أن نذر النصرانية أو نكون عبيداً لأعرابي جاء من الحجاز؟ فلمَّا ظنَّ أنَّهم إن خرجوا أفسدوا عليه رفاقهم وملكه، قال: إنما قلت ذلك لكم لأعلم صلابتكم على أمركم.

ثم دعا رجلاً من عرب تُجيب كان على نصارى العرب قال: أُدُع لي رجلاً حافظاً للحديث عربي اللسان أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه، فجاءني فدفع إليّ هرقل كتاباً بابي فقال: إذهب بكتابي إلى هذا الرجل، فما صَغِيتَ من حديثه فاحفظ منه ثلاث خصال: انظر هل يذكر صحيفته التي كتب إليّ بشيء؟ وانظر إذا قرأ كتابي هل يذكر الليل؟ وانظر في ظهره هل به من شيء يريبك؟ فانطلقتُ بكتابه حتى جئت تبوك فإذا هو جالس بين أصحابه على الماء، فقلت: أين صاحبكم؟ قيل: ها هوذا. فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه. فناولته كتابي فوضعه في حِجْره ثم قال: ممَّن أنت؟ قلت: أنا أحد تنوخ. فقال: هل لك في الحنيفية ملّة أبيكم إبراهيم؟ قلت: إني رسول قوم وعلى دين قوم، لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم. قال :﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص:٥٦) يا أخا تنوخ إني كتبت بكتابي إلى النجاشي[2] فخرقها والله مُخرِّقهُ ومُخَرِّقُ ملكه. وكتب إلى صاحبكم بصحيفة فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير، قلت: هذه إحدى الثلاثة التي أوصاني بها، وأخذت سهماً من جعبتي فكتبتها في جلد سيفي، ثم إنَّه ناول الصحيفة رجلاً عن يساره فقلت: من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم؟ قالوا: معاوية، فإذا في كتاب صاحبي: يدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض أُعدّت للمتقين. فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ :(سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار؟)، فأخذت سهماً من جعبتي فكتبته في جلد سيفي، فلما فرغ من قراءة كتابي قال: (إنَّ لك حقاً وإنك لرسول، فلو وجدت عندنا جائزة جوَّزناك بها، إنا سَفْر مُرْمِلون) قال: فناداه رجل من طائفة الناس أن أجوزه، ففتح رَحْله، فإذا هو يأتي بحلَّة؟ قيل: عثمان. ثم قال رسول الله ﷺ :(من يترل هذا الرجل؟)، فقال فتى من الأنصار: أنا، فقام الأنصاري وقمت معه، فلما خرجت من طائفة المجلس ناداني رسول الله ﷺ، فقال: يا أخا تنوخ، فأقبلت أهوي حتى كنت قائماً في مجلسي الذي كنت فيه بين يديه، فحلَّ حبوته عن ظهره فقال: (ها هنا .. أمضِ لما أُمرت به)، فجُلْتُ في ظهره، فإذ أنا بخاتم في موضع غضروف الكتف مثل الحجمة.

وعن ابن عباس ـــ رضي الله عنه ـــ أن أبا سفيان أخبره: أنَّ هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ـــ وكانوا تجّاراً بالشام ـــ في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء. فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا بالترجمان فقال: أيُّكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال: أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً، قال: أدنُوه مني وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال

([1]) يعني الجزية، وهي أعمق من أن ترتبط بالمال وحده انظر: رسالة (ثمار من شجرة النبوة) و(سلام للعالمين)
([2]) هكذا ورد، وربما المراد كسرى .. فقد رأينا جواب النجاشي .

لترجمانه قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبني فكذّبوه، فوالله لولا أن يؤثروا عني كذباً لكذبتُ عنه.

ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من مَلِكٍ؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس اتَّبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سَخْطَة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها ــ قال: و لم يُمكنِّي كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة ــ قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سِجَال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصِّلَة.

فقال الترجمان: قل له سألتك عن نسبه فزعمتَ أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل فتبعث في نسب قومها. وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله، فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلتُ رجل يتأسَّى بقول قيل قبله وسألتم: هل كان من آبائه من مَلِك، فذكرت أن لا، فلو كان من آبائه مَلِك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك: هل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، قد أعرف أنه لم يكن ليذَر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أنَّ ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنَّهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتمّ. وسألتك: أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشتُه القلوبَ. وسألتك: هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: بمَ يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقّاً فسيملك موضع قدميَّ هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشَّمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به مع دِحْية إلى عظيم بصرى. فدفعه إلى هرقل فإذا فيه:(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتّبَع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتكَ الله أجرك مرتين. فإن تولّيت فإنّ عليك إثم الأريسيِّين و﴿ قُلْ ياأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤)

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصَّخَب، وارتفعت الأصوات وأُخرجنا، فقلت لأصحابي ــ حين خرجنا ــ: لقد أَمِرَ أمر ابن أبي كبشة، إنه يخاف مَلِكُ بني الأصفر. فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام.

قال: وكان ابن الناطور صاحبَ إيلياء وهرقل أُسْقُفَ على نصارى الشام يحدِّث أنّ هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوماً خبيث النفس، فقال بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك. قال ابن الناطور: وكان هرقل حزّاء ينظر

في النجوم. فقال لهم حين سألوه: إني رأيت حين نظرت في النجوم مَلِكَ الخِتان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمم؟ قالوا: ليس يختتن إلا اليهود ولا يهمنَّك شأنهم، واكتب إلى مدائن ملكك فليقتلوا من فيهم من اليهود. فبينما هم على أمرهم أُتِيَ هرقل برجل أرسل به ملك غسّان فخبَّرهم عن خبر رسول الله ﷺ فلما استخبره هرقل قال: إذهبا فانظروا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدَّثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب فقال: هم يختتنون. فقال هرقل: هذا مَلِك هذه الأمة قد ظهر. ثم كتب إلى صاحب له برومية ــ وكان نظيره في العلم ــ وسار هرقل إلى حمص فلم يَرِم بحمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ وهو نبي. فأذن هرقل لعظماء الروم في دَسْكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلِّقت، ثم اطَّلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبَّت لكم ملككم، فتتابعوا لهذا النبي؟ فحاصوا حَيْصة حُمُرِ الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلِّقت. فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردُّوهم عليَّ. وقال: إنِّي إنَّما قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدَّتكم على دينكم؛ فقد رأيت، فسجدوا له ورَضُوا عنه. فكان ذلك آخر شأن هرقل[1].

ومما ورد في كتابه ﷺ إلى **كسرى ملك فارس** ما حدث به ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ : أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه مع رجل إلى كسرى، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه كسرى مزّقه، قال: فحسبت أنَّ ابن المسيِّب قال: فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يُمزقوا كلَّ مُمزَّق[2].

وحدث عبد الرحمن بن عبد القاري ــ رضي الله عنه ــ أنَّ رسول الله ﷺ قام ذات يوم على المنبر خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه وتشهد، ثم قال: أما بعد: فإنِّي أريد أن أبعث بعضكم إلى ملوك الأعاجم، فلا تختلفوا عليَّ كما اختلفت بنو إسرائيل على عيسى بن مريم. فقال المهاجرون: يا رسول الله، إنّا لا نختلف عليك في شيء أبداً، فمُرنا وابعثنا. فبعث شجاع بن وَهْب إلى كسرى. فأمر كسرى بإيوانه أن يُزيَّن، ثم أذن لعظماء فارس، ثم أذن لشجاع بن وَهْب. فلما أن دخل عليه أمر كسرى بكتاب رسول الله ﷺ أن يُقبض منه. فقال شجاع بن وهب: لا، حتى أدفعه أنا إليك كما أمر رسول الله ﷺ فقال كسرى: ادْنه، فدنا فناوله الكتاب، ثم دعا كاتباً له من أهل الحيرة فقرأه فإذا فيه:(من محمد بن عبد الله ورسوله إلى كسرى عظيم فارس)

قال: فأغضبه حين بدأ رسول الله ﷺ بنفسه، وصاح، وغضب، ومزَّق الكتاب قبل أن يعلم ما فيه، وأمر بشجاع بن وَهْب فأُخرج. فلمّا رأى ذلك قعد على راحلته ثم سار ثم قال: والله، ما أبالي على أي الطريقين أكون إذْ أدّيت كتاب رسول الله ﷺ قال: ولما ذهب عن كسرى سَوْرَة غضبه بعث إلى شجاع ليدخل عليه، فالتُمس فلم يوجد، فطُلب إلى الحيرة فَسَبَق. فلما قدم شجاع على النبي ﷺ أخبره بما كان من أمر كسرى وتمزيقه لكتاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ :(مزّق كسرى ملكه)[3]

---

(1) رواه البخاري في مواضع كثيرة في صحيحه بألفاظ يطول استقصاؤها؛ ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من طرق عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس، ورواه ابن إسحاق عن الزُّهري بطوله، ومثله أبو نعيم في دلائل النبوة بنحوه مطولاً، والبيهقي بهذا الإسناد بنحوه.

(2) رواه البخاري.

(3) انظر: السيرة النوية لابن كثير: ٣/٥٠٧.

وعن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن ـــ رضي الله عنه ـــ قال: لَمَّا قُدِّم كتاب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقرأه ومزَّقه كتب إلى باذان ـــ وهو عامله باليمن ـــ أن أبعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلَين جَلْدين من عندك فلْيأتياني به، فبعث باذان قهرمانه ـــ وهو أبانوه، وكان كاتباً حاسباً بكتاب فارس ـــ وبعث معه رجلاً من الفرس يقال له (جد جميرة)، وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يأمره أن يتوجَّه معهما إلى كسرى، وقال لقهرانه: انظر إلى الرجل، وما هو وكلِّمه وائتني بخبره، فخرجا حتى قدما الطائف، فوجدا رجالاً من قريش تجّاراً فسألاهم عنه، فقالوا: هو بيثرب واستبشروا، فقالوا: قد نَصب له كسرى. كُفيتم الرجل، فخرجا حتى قدما المدينة، فكلّمه أبانوه، فقال: إنَّ كسرى كتب إلى باذان أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني لتنطلق معي. فقال: (إرجعا حتى تأتياني غداً)، فلما غدَوا عليه أخبرهما رسول الله ﷺ بأن الله قتل كسرى وسلّط عليه ابنه (شيرَوَيْه) في ليلة كذا من شهر كذا. فقالا: أتدري ما تقول؟ أنكتب بهذا إلى باذان؟ قال: (نعم، وقولا له: (إن أسلمتَ أعطيتُك ما تحت يديك)، ثم أعطى (جد جميرة) مِنْطَقة كانت أُهديت له فيها ذهب وفضة. فقدما على باذان فأخبراه. فقال: ما هذا بكلام ملك، ولننظرن ما قال. فلم يلبث أن قدم عليه كتاب (شيرَوَيْه): أما بعد: (فإنِّي قتلت كسرى غضباً لفارس لما كان يستحلُّ من قتل أشرافها؛ فخُذْ لي الطاعة ممن قِبَلك ولا تُهَجِّنِ الرجل الذي كتب لك كسرى بسببه بشيء)، فلما قرأه قال: إن هذا الرجل لنبي مرسل، فأسلم وأسلمت الأبناء من آل فارس من كان منهم باليمن جميعاً[1].

وعن زيد بن أبي حبيب قال: وبعث عبد الله بن حذافة ـــ رضي الله عنه ـــ إلى كسرى بن هرمز ملك فارس وكتب معه :(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله؛ وأدعوك بدعاء الله، فإنِّي أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين. فإن تُسلِم تَسلَم، وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك)

قال: فلما قرأه شقَّه وقال: يكتب إليّ بهذا وهو عبدي. قال: ثم كتب كسرى إلى باذام ـــ فذكر ما تقدَّم[2].

وعن أبي بَكْرة ـــ رضي الله عنه ـــ قال: لما بُعث رسول الله ﷺ بعث كسرى إلى عامله على أرض اليمن ومن يليه من العرب ـــ وكان يقال له بادام ـــ: إنه بلغني أنه خرج رجل قِبلك يزعم أنه نبي فقل له: فلْيكفَّ عن ذلك، أو لأبعثنَّ إليه من يقتله أو يقتل قومه. قال: فجاء رسول بادام إلى النبي ﷺ فقال له هذا. فقال رسول الله ﷺ :(لو كان شيء فعلته من قبلي كففت، ولكن الله عزّ وجلّ بعثني)، فأقام الرسول عنده، فقال له رسول الله ﷺ :(إن ربي قتل كسرى، ولا كسرى بعد اليوم؛ وقتل قيصر، ولا قيصر بعد اليوم)، قال فكتب قوله في الساعة التي حدَّثه واليوم الذي حدَّثه والشهر الذي حدَّثه فيه. ثم رجع إلى بادام فإذا كسرى قد مات، وإذا

([1]) رواه أبو سعيد النَّيْسابوري في كتاب شَرَف المصطفى وهكذا حكاه أبو نعيم الأصبهاني في الدلائل عن ابن إسحاق بلا إسناد، لكن سماه (خرخسرة) ووافق على تسمية رفيقه (أبانوه)

([2]) رواه ابن جرير من طريق ابن إسحاق.

قيصر قد قتل[1].

وعن دِحْية الكلبي ــ رضي الله عنه ــ قال: بعثني رسول الله ﷺ بكتاب إلى قيصر ــ فذكر الحديث كما تقدّم في كتابه ﷺ إلى قيصر ــ ؛ وفي آخره: ثم خرج دِحْية إلى النبي ﷺ وعنده رُسُلُ عمالِ كسرى على صنعاء، بعثهم إليه وكتب إلى صاحب صنعاء يتوعّده يقول: لتكفينّي رجلا خرج من أرضك يدعوني إلى دينه، أو أؤدي الجزية، أو لأقتلنَّك، أو لأفعلنَّ بك. فبعث صاحب صنعاء إلى رسول الله ﷺ خمسة وعشرين رجلاً فوجدهم دحية عند رسول الله ﷺ فلما قرأ صاحبهم تركهم خمس عشرة ليلة، فلما مضت خمس عشرة ليلة تعرَّضوا له. فلما رآهم دعاهم فقال: (إذهبوا إلى صاحبكم فقولوا له: إنَّ ربِّي قتل ربه الليلة)، فانطلقوا فأخبروه بالذي صنع. فقال: إحصُوا هذه الليلة. قال: أخبروني كيف رأيتموه؟ قالوا: ما رأينا ملكاً أهنأ منه يمشي فيهم لا يخاف شيئاً، مبتذلاً لا يُحرس، لا يرفعون أصواتهم عنده. قال دحية: ثم جاء الخبر أن كسرى قُتل تلك الليلة[2].

ومما ورد في كتابه ﷺ إلى **المقوقس ملك الإسكندرية** ما حدث به عبد الله بن عبد القارىء ــ رضي الله عنه ــ : أن رسول الله ﷺ بعث حاطب بن أبي بَلْتَعة إلى المُقَوْقِس صاحب الإسكندرية، فمضى بكتاب رسول الله ﷺ إليه. فقَبَّل الكتاب، وأكرم حاطباً وأحسن نُزُله، وسَرَّحه إلى النبي ﷺ وأهدى له مع حاطب كِسوة وبغلة بسَرْجها وجاريتين: إحداهما أُمّ إبراهيم، وأما الأخرى، فوهبها رسول الله ﷺ لمحمد بن قيس العبدي[3].

وعن حاطب بن أبي بلتعة ــ رضي الله عنه ــ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى المقوقس ملك الإسكندرية، قال: فجئته بكتاب رسول الله ﷺ فأنزلني في مترله وأقمت عنده، ثم بعث إليّ وقد جمع بطارقَته وقال: إنِّي سائلك عن كلام فأحبُّ أن تفهم عني، قال قلت: هلُمَّ؛ قال: أخبرني عن صاحبك أهو نبي؟ قلت: بل هو رسول الله، قال: فما له حيث كان هكذا لم يدعُ على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟ قال قلت: عيسى بن مريم أليس تشهد أنه رسول الله[4]؟ قال: بلى. قلت: فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكه الله حيث رفعه الله إلى السماء الدنيا؟ فقال لي: أنت حكيم قد جاء من عند حكيم. هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد، وأرسل معك ببَذْرَقة يبذرقونك إلى مأمنك.

قال: فأُدي إلى رسول الله ﷺ ثلاث جوارٍ منهن أُم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ واحدةً وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت الأنصاري، وأرسل إليه بطُرَفٍ من طُرَفهم[5].

ومما ورد في كتابه ﷺ إلى **أهل نجران** ما حدث به سَلَمة بن عبد يسوع عن أبيه عن جده ــ قال يونس: وكان نصرانياً فأسلم ــ: إنَّ رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجرن قبل أن يترل عليه: (طاسَ سليمان)[6] :(باسم إِله

---

(1) رواه الطبراني، وقال الهيثمي : ورجاله رجال الصحيح غير كثير بن زياد وهو ثقة؛ وعند أحمد طرَقٌ منه، وكذلك البزار.
(2) رواه البزّار، قال الهيثمي فيه: إبراهيم بن إسماعيل عن أبيه وكلاهما ضعيف.
(3) رواه البيهقي.
(4) وهذا لأن من المسيحيين من يعتقد بنبوة المسيح .. وقد كان يقول بذلك فرق كثيرة، انظر رسالة (الله جل جلاله) من هذه السلسلة.
(5) رواه البيهقي.
(6) أي سورة النمل.

إبراهيم وإسحاق، ويعقوب. من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران وأهل نجران: سَلْم أنتم، فإنّي أحمد إليكم إله إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب. أما بعد: فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد؛ فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب. والسلام)

فلما أتى الأسقُفَ الكتابُ وقرأه فَظِعَ به وذعر به ذعراً شديداً، وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له شُرحَبيل بن وَدَاعة ـــ وكان من هَمْدان ولم يكن أحد يُدعى إذا نزلت مُعْضلة قبله، لا الأيهم ولا السيد، ولا العاقب ـــ فدفع الأسقفُ كتابه إلى شرحبيل فقرأه. فقال الأسقف: يا أبا مريم، ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمتَ ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النّبوة، فما يُؤمن أن يكون هذا هو ذاك الرجل، ليس لي في أمر النبوة رأي، ولو كان في أمر من أمور الدنيا لأشرتُ عليك فيه برأي واجتهدت لك، فقال له الأسقف: تنحَّ فاجلس، فتنحَّى شرحبيل فجلس ناحية. فبعث الأسقفُ إلى رجل من أهل نجران يقال له عبد الله بن شرحبيل وهو من ذي أصبح من حِمْير، فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه، فقال مثل قول شرحبيل، فقال الأسقفُ: تنحَّ فاجلس، فتنحَّى عبد الله فجلس ناحية. فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له جبَّار بن فيض من بني الحارث بن كعب أحد بني الحماس، فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله، فأمره الأسقفُ فتنحَّى فجلس ناحية.

فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جميعاً، أمر الأسقف بالناقوس فضُرب به ورُفعت النيران والمسوح في الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار، وإذا كان فزعهم ليلاً ضربوا بالناقوس، ورفعت النيران في الصوامع، فاجتمعوا حين ضرب بالناقوس ورُفعت المسوح أهل الوادي أعلاه وأسفله، وطول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية وعشرون ومائة ألف مقاتل. فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ وسألهم عن الرأي فيه. فاجتمع رأي أهل الرأي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمْداني وعبد الله بن شرحبيل الأصبحي وجَبَّار بن فيض الحارثي فيأتونهم بخبر رسول الله ﷺ، فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم ولبسوا حُللاً لهم يجرونها من حِبَرة وخواتيم الذهب. ثم انطلقوا حتى أتَوا رسول الله ﷺ فسلَّموا عليه فلم يردَّ عليهم، وتصدَّوا لكلامه نهاراً طويلاً فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل وخواتيم الذهب. فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ـــ وكانا معرفة لهم ـــ فوجدوهما في ناس من المهاجرين والأنصار في مجلس فقالوا: يا عثمان، ويا عبد الرحمن، إن نبيكم كتب إلينا كتاباً فأقبلنا مجيبين له، فأتيناه فسلَّمنا عليه فلم يردَّ سلامنا، وتصدينا لكلامه نهاراً طويلاً فأعيانا أن يكلمنا؟ فما الرأي منكما؟ أترون أن نرجع؟ فقالا لعلي بن أبي طالب ـــ وهو في القوم ـــ : ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟ فقال علي لعثمان وعبد الرحمن: أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم هذه ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودوا إليه. ففعلوا فسلَّموا عليه فردَّ سلامهم، ثم قال: (والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرة الأولى وإنَّ إبليس لمعهم)، ثم سألهم وسألوه

إلى آخر الخبر .. وفيه: فدفع الوفدُ كتابَ رسول الله ﷺ إلى الأسقُفِّ، فبينما هو يقرأه وأبو علقمة معه وهما يسيران إذ كَبَت ببشر ناقتُه، فَتَعَّسَ بشر غير أنه لا يكني عن رسول الله ﷺ فقال له الأسقُف عند ذلك: قد

ــ والله ــ تعَّسْتَ نبياً مرسلاً. فقال له بشْر: لا جَرَم ــ والله ــ لا أحلُّ عنها عقداً حتى آتي رسول الله ﷺ فصرف وجه ناقته نحو المدينة وثَنى الأسقفُ ناقته عليه فقال له: أفهم عني إنَّما قلت هذا ليبلغ عني العرب مخافة أن يروا أنَّا أخذنا حقه أو رضينا بصوته أو بخعنا لهذا الرجل بما لم تبخع به العرب، ونحن أعزهم وأجمعهم داراً. فقال له بشر: لا والله لا أقبل ما خرج من رأسك أبداً، فضرب بشر ناقته ــ وهو مولّي الأسقف ظهره ــ وارتجز يقول:

إليكَ تغدو قَلِقاً وضينها   معترضاً في بطنها جنينُها

مخالفاً دين النصارى دينُها

حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم، ولم يزل معه حتى قتل بعد ذلك. قال: ودخل الوفد نجران. فأتى الراهبَ ابن أبي شمر الزبيدي وهو في رأس صومعته. فقل له: إنَّ نبياً بُعث بتهامة ــ فذكر ما كان من وفد نجران إلى رسول الله ﷺ وأنه عرض عليهم الملاعنة فأبَوا، وأنَّ بشر بن معاوية دفع إليه فأسلم ــ فقال الراهب: أنزلوني، وإلا ألقيت نفسي من هذه الصومعة. قال: فأنزلوه، فأخذ معه هدية وذهب إلى رسول الله ﷺ منها هذا البُرْد الذي يلبسه الخلفاء، وقَعْبُ، وعصا. فأقام مدّة عند رسول الله ﷺ يسمع الوحي، ثم رجع إلى قومه ولم يُقدِّر له الإسلام ووعد أنه سيعود فل يُقدَّر له حتى توفي رسول الله ﷺ وأن الأسقف أبا الحارث أتى رسول الله ﷺ ومعه السيد والعاقب ووجوه قومه، فأقاموا عنده يسمعون ما يترل الله عليه، وكتب للأسقفِّ هذا الكتاب ولأساقفة نجران بعده (بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد النبي للأسقف أبي الحارث، وأساقفة نجران، وكهنتهم، ورهبانهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل كثير: جوار الله ورسوله، لا يُغَير أسقفٌ من أسقفته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته ولا يغيّر حق من حقوقهم، ولا سلطانهم ولا ما كانوا عليه من ذلك. جوار الله ورسوله أبداً ما أصلحوا ونصحوا عليهم غير مبتلين بظلم ولا ظالمين)[١]

ومما ورد في كتابه ﷺ إلى **بكر بن وائل** ما حدث به مَرْثَد بن ظبيان ــ رضي الله عنه ــ قال: جاءنا كتاب من رسول الله ﷺ فما وجدنا له قارئاً يقرأ علينا حتى قرأه رجل من ضَبيعة:(من رسول الله ﷺ إلى بكر بن وائل: أسلموا تسلموا)[٢]

ومما ورد في كتابه ﷺ إلى **بني جذامة** ما حدث به عُمير بن مقبل الجُذامي عن أبيه قال: وفد رفاعة بن زيد الجُذامي على رسول الله ﷺ فكتب له كتاباً، وفيه:(من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد: إني بعثته إلى قومه عامة ومن دخل فيهم، يدعوهم إلى الله وإلى رسوله: فمن آمن ففي حزب الله وحزب رسوله، ومن أدبر فله أمان شهرين)

فلما قدم على قومه أجابوه، فذكر الحديث[١].

قال ديدات: بورك فيك يا شيخنا .. لقد أعدت أذهاننا إلى تلك الأيام الجميلة .. أيام رسول الله ﷺ ..

---

(١) رواه البيهقي.

(٢) رواه أحمد والبزّار وأبو يَعْلَى والطبراني في الصغير بمعناه.

(١) رواه الطبراني، قال الهيثمي : رواه الطبراني متصلاً هكذا، ومنقطعاً مختصراً عن ابن إسحاق، وفي المتصل جماعة لم أعرفهم، وإسنادهما إلى ابن إسحاق جيد.

ما أشد شوقنا إليه.

قال الكواكبي: إن شوقنا إليه يدعونا إلى أن نبذل كل جهد لتبليغ ما أمرنا بتبليغه، لا نألو في ذلك جهدا.

قال القمي: لقد رأينا رسول الله ﷺ يستعمل وسيلة الكتابة ليبلغ ما أمر بتبليغه، فرسول الله ﷺ لم يترك أحدا في زمنه له سلطة إلا كتب إليه، أو أرسل إليه من يبلغه.

قال الشعراوي: لقد كانت الكتابة هي الوسيلة المتاحة .. أما في عصرنا .. فما أكثر الوسائل التي لو أحسنا استعمالها لدخل الناس في دين الله أفواجا.

قال شكيب: فاذكر لنا من الوسائل ما ترى على الدعاة إلى الله استعماله لتبليغ رسالة الله للعالمين.

قال الشعراوي: أول ما أراه من وسائل: **التمثيل** ..

صاح الجمع متعجبين: التمثيل !؟

قال القمي: أتقول هذا .. وأنت الشيخ الوقور؟

قال الشعراوي: وما لي لا أقوله، وأنا أرى بشر عصرنا لا يستغرقون في شيء، كما يستغرقون في مشاهدة الأفلام والتمثيليات والمسرحيات؟

قال شكيب: ولكن ذلك قد يؤلب علينا بعض المتزمتين .. لاشك أنك تعرفهم، وتعرف موقفهم من هذا ومثله .. هم لا يرضون إلا بالوسائل التي نصت عليها السنة.

قال الشعراوي: فقد نصت السنة على هذا؟

قالوا متعجبين: أين ذلك؟

قال الشعراوي: ألم تقرأوا حديث الأبرص والأقرع والأعمي؟

قالوا: بلى ..

قال الشعراوي: فقد مثّل المَلَك دور الفقير حين سأل الأعمى، والأبرص، والأقرع كما هو معروف في الحديث[1].

ليس ذلك فقط .. بل إن النبي ﷺ قام بتمثيل كيفية الصلاة، و لم يرد الصلاة ــ وقتئذ ــ لذاتها، وإنما أراد تعليم الناس، فعن سهل ــ رضي الله عنه ــ قال: رأيت رسول الله ﷺ صلى عليه (أي على درجات المنبر)، وكبر وهو عليها، ثم ركع وهو عليها، ثم نزل القهقري، فسجد في أصل المنبر ثم عاد، فلما فرغ أقبل على الناس، فقال: (أيها الناس؛ إنما صنعت هذا لتأتموا بي، ولتعلّموا صلاتي)[2]

ومثل سبطا رسول الله ﷺ ، وسيدا شباب أهل الجنة، فقد روي أنهما رأيا ــ وهما طفلان ــ رجلا لا يحسن الوضوء، فاتفقا على طريقة لطيفة لكي لا يجرحا كبرياءه، فقالا له: يا عم، يزعم هذا أنه يحسن الوضوء، وأني لا أحسن؛ فنرجوك أن تنظر إلينا، وأن تحكم بيننا؟، فتوضأ أمامه أحسن ما يكون الوضوء، وفهم الرجل وقال: يا بني أنا عمكم الجاهل لا أنتما.

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) رواه البخاري ومسلم.

ومثل بعض صحابته ﷺ لما اقتضى المقام ذلك، فعن أنس ـــ رضي الله عنه ـــ قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ فقال: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار، فلما كان الغد قال مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل، ثم في اليوم الثالث، فتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال : إني لاحيت أبي، فأقسمت أني لا أدخل عليه ثلاثا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت قال : نعم ـــ قال أنس: كان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث ـــ فلم أره يقوم من الليل شيئا غير أنه إذا تعار من الليل ـــ تقلب على فراشه ـــ فذكر الله تعالى، وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرا، فكدت أحتقر عمله قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ، ولا هجرة ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلعت أنت الثلاث مرات، فأردت أن آوي إليك لأنظر عملك لأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال؟ قال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي على أحد من المسلمين غشا، ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه قال عبد الله : هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق[1] .

قال القمي: نعم ما ذكرت .. وسأبشر أهل بلدي[2] بهذا .. فإن فيهم من عباقرة الإخراج والتمثيل ما يملؤكم بالعجب ..

قال الشعراوي: ومثل ذلك أهل بلدي .. ولم يدعني إلى ذكر هذه الوسيلة والاستهلال بها إلا لأنه يأتيني بين الحين والحين من الممثلين الصادقين ما جعلني أشعر بأهمية هذه الوسيلة وضرورتها.

قال ديدات: ولكنها لا بد أن تكون في مستوى التحدي .. فنحن الآن في عالم لا يهتم لشيء كما يهتم بالمتقن من الأعمال.

قال الشعراوي: أجل .. لا ينبغي أن يعرض الجميل إلا في اللباس الذي يليق به.

قال ديدات: عرفنا هذا .. وعرفنا أهميته .. ونحن نرى الدول الكبرى تسوق أفكارها ومشاريعها عبر هذه الوسيلة .. فحدثنا عن وسيلة أخرى.

قال الشعراوي: **الكتابة الأدبية** من شعر وقصة ومقالة .. وغيرها .. فإن لهذه الكتابات جمهورا غفيرا .. ومن العجب أن نرى هذا النوع من الوسائل لا يهجم عليه إلا من لا علاقه له بالدين، ولا علاقة للدين به.

قال شكيب: صدقت .. لقد تركنا هذه الثغرة الخطيرة، فشوه الدين بسببها، وانحرف الناس، لأنهم لا يجدون من الروايات إلا ما يغذي غرائزهم، ويملأ نفوسهم بالشهوات.

قال الشعراوي: لقد ظللت دهرا من عمري أحلم بأن أبشر بالإسلام عن طريق رواية أكتبها .. لا يقرؤها قارئ إلا ويخرج ممتلئا بحب الإسلام، ونبي الإسلام .. ولكن الله لم ييسر ذلك لي إلى هذا الحين .. وعسى الله أن يأتي ـــ بفضله ـــ من الورثة من يفتح الله عليه في هذا.

قال ديدات: فحدثنا عن وسيلة أخرى.

---

(1) رواه أحمد بإسناد على شرط البخاري ومسلم والنسائي ورواته احتجا بهم أيضا إلا شيخه سويد بن نصر وهو ثقة وأبو يعلى والبزار بنحوه.

(2) أقصد إيران، فلها من الخبرة في هذا المجال ما يمكنها من أداء هذه الرسالة أحسن وأكمل أداء.

قال الشعراوي: **الأناشيد والأغاني والرسوم وكل الفنون الجميلة** .. تلك التي استأثر بها أتباع الهوى لينحرفوا بالنفوس عن رب العالمين.

قال شكيب: ولكن الفقهاء .. أنت تعرف موقفهم؟

قال الشعراوي: ليس كل الفقهاء يقول ما يقول المترمتون المنفرون .. يوشك أن ينفر الناس من أولئك الفقهاء، ومن فتاوى الضلال التي ينشرونها ليمنعوا الناس من الدخول في دين الله أفواجا.

قال ديدات: فحدثنا عن وسيلة أخرى.

قال الشعراوي: هذه التي يسمونها **الشبكة العنكبوتية**، تلك التي تصلنا بكل دار، بل بكل شخص .. إنها فتح من الله .. وإن الله تعالى برحمته سلم إلينا مفاتيح العالم لنفتحها بهذه الوسيلة.

قال شكيب: لقد كنت أعجب من ذكر رسول الله ﷺ لفتح رومية .. وأقول: بأي سلاح تفتح رومية .. ونحن لا نأمن على أنفسنا منها .. إلى أن رأيت هذه الشبكة، وهي تدخل بنا إلى كل بيت من رومية وغيرها .. فعرفت أن هذا السيف هو أصقل سيف، وأن المسافة بيننا وبينها ليست بعيدة.

قال القمي: ولكن الفرقة والخلاف الذي دب في الأمة انحرف بهذه الوسيلة عن غاياتها، فصارت في أيدي أهل الصراع من المسلمين سيوفا مسلولة على إخوانهم من المسلمين ..

قال الشعراوي: لن تؤتي هذه الوسيلة ثمارها إلا إذا أحسنا استعمالها، وعرفنا كيف ندخل إلى العالم من خلالها.

قال ديدات: فحدثنا عن وسيلة أخرى.

قال الشعراوي: **القنوات الفضائية الإذاعية والتلفريونية والصحف والمجلات وجميع وسائل الإعلام** .. فإن هذه الوسائل تدخل كل البيت، وتسمع كل أذن، وتري كل بصر .. ولو أحسنا استعمالها لدخل الناس في دين الله أفواجا.

قال القمي: لقد وعينا كل ما ذكرت .. واستدللنا به على غيره .. فهل لديك خطة عملية لتحقيق كل هذا.

قال الشعراوي: أجل .. لقد ظللت طول عمري أبحث عن ذلك.

اجتمعوا عليه، فراح يشرح لهم خطته .. ولم أسمع من حديثهم إلا ما ذكرته لك من الأسماء التي سبق لي أن مررت على أهلها.

٧ ـــ التحدي

بعد أن مكثوا مليا يتحدثون، ويسرون بحديثهم، قام ديدات، وقال: إن ما ذكره شيخنا الشعراوي ييسر علي أن أذكر لكم خطتي.

قالوا: أنت تحمل خطة التحدي.

قال: أجل .. التحدي بالحجة والبرهان .. لا بالسيف والسنان.

قال القمي: فهل لك من النصوص المقدسة ما يكون لك حجة فيما تقوله، فلا يحل لامرئ أن يقدم على أمره حتى يستأذن أهله؟

قال ديدات: أجل .. لدي بحمد الله الكثير .. وأولهم موسى عليه السلام .. لقد كان التحدي هو السلاح الذي استعمله لدعوة قومه، و لم يؤمن السحرة إلا بعد أن ثبت لهم أن حجة موسى عليه السلام أقوى من حججهم جميعا.

لقد قال الله تعالى يذكر مشهد ذلك :﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)﴾ (طه)

ألا ترون هذا المشهد؟ .. إن دلالاته العظيمة هي التي حملتني على أن أحمل سلاح التحدي لأسير به في العالم .. أخاطب كل من له حجة، وأقول له: إن كانت لديك حجة، فألقها كما ألقى السحرة عصيهم، فأنا موقن تماما بأن ما معي من الهدي لا يعدله إلا عصا موسى.

قال الشعراوي: ما تقصد بذلك؟

قال ديدات: لقد وفقني الله، فصرفت أكثر عمري أدرس الملل والنحل، والفلسفات والأفكار .. و لم أكتف بذلك، بل عشت في السند والهند، والشرق والغرب .. و لم أترك بلدة إلا دخلتها، كما لم أترك فلسفة إلا قرأتها .. وقد تبين لي من خلال كل ذلك أن كل ما تملكه تلك الشعوب هو مجرد تخييلات لا تختلف كثيرا عن تخييلات السحر.

وتبين لي أننا لو حملنا ما معنا من الحقائق المطلقة، وسرنا في العالم نتحدى بها، فإنا سنجد كثيرا من السحرة الذين يسجدون لها، ويذعنون.

قال القمي: إن ذلك يستدعي معارف كثيرة.

قال ديدات: لا بد من تلك المعارف .. فلا يمكن لمن يريد أن يخوض البحار إلا أن يكون خبيرا بالسباحة.

قال القمي: ليست المعارف فقط .. فما أكثر من لديه المعارف .. ولكنا نحتاج إلى الصحون التي توضع فيها تلك المعارف .. فقد رأينا من الجهلة من يضع أجمل المعارف وأطيب اللطائف في صحون نجسة منتنة، فينفر الناس من الدين بسببها.

قال ديدات: وهذا ما تبحث فيه خطتي .. فقد وضعت في ذلك ــ بحمد الله ــ خطة شاملة، تؤسس لجيل يحمل عصا الإسلام ليخاطب بها العالم، ولن يملك العالم إلا أن يسلم لهذه العصا.

قال شكيب: فكيف اهتديت إليها؟

قال ديدات: كنت أقرأ أحاديث الوفود التي جاءت رسول الله ﷺ تريد أن تتثبت مما عنده، لتعرضه على ما عندها، وقد استوقفني منها حديث هذا الوفد الذي سأقصه عليكم، لتمتلئوا بما فيه من العبرة .. عن عن البراء بن عازب ــ رضي الله عنه ــ قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد اخرج إلينا، فلم يجبه، فقال الأقرع: يا محمد إن حمدي لزين وإن ذمي لشين، فقال رسول الله ﷺ : (ذاك الله عز وجل)، فقالوا: إنا أتيناك لنفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا، فقال ﷺ: (قد أذنت لخطيبكم فليقل).

فقام عطارد بن حاجب فقال: (الحمد لله الذي له علينا الفضل وهو أهله، الذي جعلنا ملوكا ووهب لنا أموالا عظاما، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددا وأيسره عدة، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو شئنا لأكثرنا الكلام، ولكنا نستحي من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نعرف بذلك، أقول هذا لأن تأا توا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا)، ثم جلس.

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس أخي بني الحارث بن ا لخزرج: (قم فأجب الرجل في خطبته)، فقام ثابت فقال: (الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره ووسع كرسيه علمه، و لم يك شئ قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا، واصطفى من خير خلقه رسولا أكرمه نسبا، وأصدقه حديثا، وأفضله حسبا، فأنز ل عليه كتابه وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس الى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس أحسابا وأحسن الناس وجوها، وخير الناس فعالا، ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب الله حين دعاه رسول الله نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ورسوله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدا، وكان قتله علينا يسيرا، أقول قولي هذا وأ ستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم)

فقام الزبرقان بن بدر فقال لرجل منهم: يا فلان قم فقل أبياتا تذكر فيها فضلك وفضل قومك، فقام فقال:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع

وكم قسرنا من الاحياء كلهم عند النهاب وفضل العز يتبع

ونحن نطعم عند القحط مطعمنا من الشواء إذا لم يؤنس القزع

ونطعم الناس عند المحل كلهم من السديف إذا لم يؤنس القزع

بما ترى الناس تأتينا سراهم من كل أرض هويا ثم نصطنع

فننحر الكوم عبطا في أروقتنا للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا

فلا ترانا الى حي نفاخرهم إلا استفادوا فكانوا الرأس يقتطع

فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه فيرجع القوم والاخبار تستمع

إنا أبينا ولا يأبى لنا أحد	إنا كذلك عند الفخر نرتفع

وكان حسان بن ثابت ـــ رضي الله عنه ـــ غائبا، فبعث إليه رسول الله ﷺ ، قال حسان: جاءني رسوله فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم، فخرجت إلى رسول الله ﷺ، وأنا أقول:

منعنا رسول الله إذ حل وسطنا على أنف راض من معد وراغم

منعناه لما حل بين بيوتنا بأسيافنا من كل باغ وظالم

ببيت حريد عزه وثراؤه بجابية الجولان وسط الأعاجم

هل المجد إلا السؤدد العود والندى	وجاه الملوك واحتمال العظائم

فلما فرغ الزبرقان، قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: (قم يا حسان، فأجب الرجل)، فقام حسان فقال:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم   قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بهم كل من كانت سريرته   تقوى الإله وكل الخير يصطنع

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم   أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجية تلك منهم غير محدثة   إن الخلائق فاعلم شرها البدع

إن كان في الناس سباقون بعدهم   فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم   عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا

إن سابقوا الناس يوما فاز سبقهم   أو وازنوا أهل مجد بالندى متعوا

أعفة ذكرت في الوحي عفتهم   لا يطمعون ولا يرديهم طمع

لا يبخلون على جار بفضلهم   ولا يمسهم من مطمع طبع

إذا نصبنا لحي لم ندب لهم   كما يدب الى الوحشية الذرع

نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها   إذا الزعانف من أظفارها خشعوا

لا يفخرون إذا نالوا عدوهم   وان أصيبوا فلا خور ولا هلع

كأنهم في الوغى والموت مكتنع   أسد بحلية في أرساغها فدع

خذ منهم ما أتى عفوا إذا غضبوا   ولا يكن همك الأمر الذي منعوا

فإن في حربهم فاترك عداوتهم   شرا يخاض عليه السم السلع

أكـــــرم بقـــــوم رســـــول الله شـــــيعتهم   إذا تفاوتـــــــــت الأهـــــــواء والشـــــــيع

أهــــدي لهــــم مــــدحتي قلـــب يـــوازره   فيمـــا أحـــب لســـان حائـــك صـــنع

فــــــإنهم أفضـــــــل الأحيـــــــاء كلــــــهم   إن جـــد بالنـــاس جـــد القـــول أو سمعـــوا

فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله قال الأقرع بن حابس: (وأبي إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا)

فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم[1].

قال المودودي: إن هذا حديث عظيم .. وهو يحمل دلالات عظيمة للذين يريدون أن يعرفوا الإسلام للعالم.

قال شكيب: أجل .. فلا يمكن أن نصل إلى جماهيرنا في العالم وشعراؤهم خير من شعرائنا، وخطباؤهم خير من خطبائنا، وممثلوهم خير من ممثلينا، ومخرجوهم خير من مخرجينا، وقدراتهم الإبداعية أعظم من قدراتنا الإبداعية.

قال المودودي: نعم .. ولن نستطيع أن نصل لجماهيرنا في العامل، ونحن لا نحمل أي مشروع حضاري متكامل يشمل الاقتصاد والسياسة والاجتماع .. وكل النواحي.

لابد ــ لكي ننجح في مخاطبة العالم ــ أن نقدم لهم الملموس .. فلن تفهم جماهيرنا في العالم إلا لغة الواقع المضمخة بعطر الإيمان.

قال القمي: لابد أن نشكل النموذج الإنساني المتكامل الذي يقف متحديا كل النماذج ..

قال الكواكبي: لكي ننجح في ذلك لابد أن نقهر الاستبداد .. الاستبداد بكل أشكاله: الديني والسياسي والاقتصادي .. أرى أننا قد ورثنا كثيرا من أعراف الاستبداد، ولا يمكن أن نتحرك خطوة واحدة، ونحن نرزح تحت نيرها.

قال إقبال: لابد أن نثق في أنفسنا، وفي قدراتنا .. ولابد أن نعيد هذه الثقة في شعوبنا المسلمة .. ليعود كل فرد مسلم رجلا كربعي بن عامر .. ذلك الذي استطاع أن يحطم أسطورة البذخ التي أراد أن يغريه بها رستم.

قالوا: فحدثنا حديث ذلك.

قال إقبال: لقد حدث الرواة أن من الرسل الذين أرسلهم سعد بن أبي وقاص ــ رضي الله عنه ــ في مفاوضاته مع رستم رجلا من المسلمين اسمه (ربعي بن عامر)، فدخل على المحل الذي كان فيه رستم، وقد

---

(1) رواه أحمد، وابن جرير بسند جيد، وأبو القاسم البغوي، والطبراني بسند صحيح، والترمذي وحسنه، وابن أبي حاتم، وابن المنذر.

زيَّنوا مجلسه بالنَّمارق المذهَّبة، والزَّرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة والزينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب.

ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبَها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحُه ودرعه وبيضتُه على رأسه. فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتِكم، وإنّما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت.

فقال رستم: إئذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النَّمارق فخرَّق عامتها[1]، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سعَتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه؛ فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضيَ إلى موعود الله، قالوا: وما موعودُ الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: لقد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم، كم أحبُّ إليكم؟ يوماً أو يومين، قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال: ما سنَّ لنا رسول الله ﷺ أن نؤخِّر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل. فقال: أسيِّدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يُجير أدناهم على أعلاهم.

فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعزَّ وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، وتدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويلَكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب يستخفُّون بالثياب والمأكل ويصونون الأحساب.

قال ديدات: بمثل هذا الرجل القوي يمكن أن نتحدى العالم .. فلا يمكن أن يخاطب العالم من يمتلئ صغارا وذلة وانحطاطا.

قالوا: هيا .. اذكر لنا ما لديك من الخطط في هذا، ولنسارع إلى الإرسال بها إلى كل دعاة الأرض.

اجتمعوا كاجتماعهم في المرات السابقة .. ولم أسمع منهم إلا ما سمعته منهم فيها.

***

قلت: لقد حدثتني عما دار في تلك الغرفة .. فحدثني عن الغرفة نفسها.

قال: ذلك سر لا يمكن بثه لأحد من الناس .. فلا يعرف تلك الغرفة، ولا محلها إلا من دخلها.

قلت: فمن مديرها؟

قال: الكل يذكرون أن مديرها رسول الله ﷺ ..

قلت: فهل اقتصر لقاؤك بأولئك السبع؟

قال: لا .. لقد رأيت الكثيرين غيرهم .. لقد كان يدخل تلك الغرفة كل من اكتملت له وراثة النبي ﷺ في هذا الباب العظيم من أبواب الهداية.

---

(1) لا ينبغي أن يؤخذ هذا السلوك بحروفه، فربعي لم يقصد من ذلك الإفساد، وإنما قصد إنكار ذلك الترف، وبيان عدم تأثيره فيه وفي المسلمين، بدليل ما قاله في حديثه مع رستم.

قلت: فكيف يميزون عن غيره؟

قال: بالحرقة التي تملأ قلوبهم، والحلم الذي يملأ صدورهم، والأشواق التي تترنح لها أجسادهم ..

قلت: فكيف خرجت منها بعد أن شرفت بالدخول إليها؟

قال: أنا لم أخرج منها.

قلت: ولكني أراك معي.

قال: لقد أرسلت في مهمة إلى هذه الغابات الموحشة .. فأنا أؤديها، ولا أبالي أن أموت في سبيلها.

قلت: من أرسلك؟

قال: من أرسله.

قلت: أنتم تزعمون أن الذي أرسله هو الله.

قال: وكل داعية إلى الله يسير على قدم رسول الله ﷺ يشعر أنه موكل من الله بنفس المهام التي قام بها رسول الله ﷺ .

قلت: لكأني بك تدعي النبوة .. بل تدعي الرسالة.

قال: معاذ الله أن أتخطى رقاب الصديقين .. أنا لا أقول إلا ما قال الله تعالى .. لقد قال الله تعالى يذكر رسل المسيح الذين أرسلهم لهداية الناس :﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) (يس)

قلت: لقد ذكر المفسرون أن هؤلاء كانوا رسل المسيح.

قال: ومع ذلك اعتبرهم الله رسلا .. فالمؤمن هو الذي يحمل رسالة نبيه ليسير بها في الناس، ويكون رسول رسول الله ﷺ إلى الناس .. فلا تكتمل الوراثة إلا بذلك.

***

ما وصل محمد الهادي من حديثه إلى هذا الموضع حتى لاح لنا العمران .. وقد دهشت إذ سمعت الترانيم العذبة تستقبلنا كما استقبلت رسول الله ﷺ .. وكأن الزمن عاد إلى تلك الأيام الجميلة التي دخل فيها رسول الله ﷺ المدينة التي ناصرته وسارت على قدمه.

مكثت في تلك المدينة من المدن المحاذية للأدغال فترة طويلة من الزمان، وقد عجبت من التغير العظيم

الذي حصل لها ..

لقد كنت كغيري من المبشرين والسواح نتهيب الدخول إليها .. فقد كانت الأنباء تسير إلينا بأن أهلها من أكلة لحوم البشر .. فلذلك لم يكن أحد يجرؤ على الدخول إليها .. لكن ما رأيته فيها جعلني أحتار في أمري، وفي دقة المعلومات التي كنا نحملها عنها.

وقد دعاني ذلك إلى أن أسأل محمدا الهادي عنها، فقال: لقد كانت هذه المدينة كذلك .. و لم تكذبكم الأخبار التي وصلتكم عنها.

قلت: ولكني أراها كأنعم بلاد الله، بل هي أكثر بلاد الله سلاما وإيمانا.

قال: ألم تكن الجزيرة التي جاءها رسول الله ﷺ جزيرة قاحلة يأكل بعضها بعضا؟

قلت: بلى .. ولكن الذي نجح في تحويلها هو محمد.

قال: لقد ترك لنا محمد ﷺ من مواريث الهداية ما يحول به كل جزيرة من جزائر الأرض إلى تلك الجزيرة، وكل فرد من أفرادها إلا تلك النماذج العالية التي رباها.

قلت: ولكن هؤلاء كانوا أكلة لحوم البشر.

قال: إن هداية الله لا تضيق بأحد من الناس .. فلذلك ليس علينا إلا أن ندعو إلى الله، ثم نترك الأمر بعدها لله .. وقد يجعل الله فيمن تحتقره من الهداية ما لا تحلم به ..

قلت: فأي جيش من الناس استطاع أن يحول هؤلاء؟

قال: في غرفة العمليات بمدينة رسول الله ﷺ جاءنا رجل، وأخبرنا عن هذه المدينة، وعن ضلالها، وعن السلوك الذي تسلكه في حياتها، وقد ملأني ذلك ألما وحزنا .. فاستشرت أهل الخبرة من أهل تلك الغرفة المباركة، فأعطوني من ترياق الهداية النبوية ما سرت به إلى هذه المدينة .. وقد يسر الله لي أمرها، فلم أمكث فيها إلا قليلا حتى تحولت إلى ما رأيت.

الخاتمة

بعد أن وصل البابا من حديثه إلى هذا الموضع، التفت إلي، وقال: هذا بعض حديثي مع هذا الوارث من ورثة النبي ﷺ .. لقد ملأني حديثه بأشعة كثيرة من شمس محمد ﷺ جعلتني أشعر بقربه العظيم مني، بل قرب كل شيء منه.

قلت: إن حديث هذا الرجل عظيم .. ما كنت أتصور أن هناك من يحمل همة كهمته، وقلبا كقلبه.

قال: كل من اهتدى بهدي النبي ﷺ وامتلأ به كان له ما لهذا الرجل .. ليس الأمر صعبا ..

قلت: هو يسير .. ولكن الأشواك الموضوعة في هذا الطريق صعبة وشديدة.

قال: فشذبها بمقص الهداية.

قلت: أنت تحرضني على الثورة .. ألست تلميذا لمعلم السلام؟

قال: ثورة أهل السلام ثورة على النفس .. فلذلك لا ينبت منها إلا السلام .. لقد قال لي صاحبي (محمد الهادي) هذا بعد أن قدم لي سيارتي.

قلت: هل استطاع أن يرجع لك سيارتك؟

قال: أجل .. بعد فترة من الزمان غاب عن ناظري فيها، جاءني بالسيارة يقودها بعض الناس، وقال لي: هذه سيارتك قد عادت إليك .. انظر .. لقد فزت بنفسك، كما فزت بسيارتك .. فلا تغفل أن تفوز بربك.

لقد قلت له حينها، وعيناي تمتلئان بالدموع: خذها .. لا أريدها .. تقبلها هدية مني .. سر بها في بلاد الله لتخلص أكلة لحوم البشر.

قال: لو سرت بها إليهم لأكلوني .. كل من سار بسيارته في هذه الأرض أكل ..

قلت: لم أفهم ما ترمز إليه.

قال: لقد خلقنا الله بشرا، ولا يمكن أن نصل للبشر إلا ونحن بشر.

قلت: فهل هناك من يتحول عن بشريته؟

قال: كل المصارعين يتحولون عن بشريتهم بمجرد أن تمتلئ أيديهم وأرجلهم بهذه الآلات التي تفننوا في صناعتها، كما تفننوا في الصراع بها.

قلت: ولكنك ذكرت أن غرفة العمليات تحتوي على أحدث الأجهزة.

قال: تلك أجهزة السلام لا أجهزة الصراع ..

قلت: أليست السيارة من أجهزة السلام؟

قال: ولكنها في نظر أهل هذه البلاد من أجهزة الصراع .. فلذلك لا يدخل إليهم رجل بها إلا أكلوه.

قلت: فلم صارت في عيونهم هكذا؟

قال: لأنهم رأوا في يد من يمتطيها بندقية يقتل بها الحياة، ومنشارا يقطع به الأشجار، وعجلات قوية يجرح بها التربة، ويحطم بها قرى النمل.

قلت: فكيف نقلع عنهم هذه الصورة المشوهة؟

قال: بالثورة.

قلت: أتدعوني للثورة .. وأنت تتحدث بأحاديث أهل السلام.

قال: بثورة أهل السلام .. وهي ثورة على التشويه الخطير الذي تعرض له الإنسان وقيم الإنسان .. وهي ثورة تبدأ بالنفس، وبكل القيم المشوهة التي زينت في النفس.

نظر إلي البابا، وقال: هكذا حدثني صاحبي عن الثورة .. وعن الطريق إلى السلام.

قلت: للأسف لا يرمى الإسلام في عهدنا بشيء كما يرمى بالإرهاب.

قال: لقد كان الإرهاب هو الحجاب الأعظم الذي حال بيني وبين أشعة كثيرة من شمس محمد ﷺ .

قلت: فكيف تخلصت منه؟

قال: تلك رحلة طويلة.

قلت: فحدثني حديثها.

قال: ليس الآن .. غدا إن شاء الله سيكون حديثنا عن الدين الذي جعله الله (سلاما للعالمين)

قلت: أ(سلام للعالمين)[1] هو عنوان رحلتنا القادمة؟

قال: أجل .. بعد أن أزحت كل الشكوك التي كانت تحول بيني وبين محمد ﷺ رحت أبحث عن الشريعة التي جاء بها .. وقد كان أول ما شدني هو سلامها وعدالتها ورحمتها، ولذلك قدر الله لي أن أرحل ثلاث رحلات طويلة علمت في أولاها أن الإسلام (سلام للعالمين)، وعلمت في الثانية أنه (عدالة للعالمين)، وعلمت في الثالثة أنه (رحمة للعالمين)

قلت: فهذه عناوين الرحلات الثلاث الآتية؟

قال: أجل .. فلا يمكن أن يعرف محمدا ﷺ من لم يعرف هذه الأشعة العظيمة التي جاء بها.

([1]) هو عنوان الجزء التالي لهذا الجزء.

الفهرس